الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشّيخ

ناصر مكارم الشّيرازي

المجلد الثاني عشر

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأمثل

٢٣/٢٤

عقيل محمد

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

٢٣ - ٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الثالث والعشرون

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ -٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور- ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - فاكس: ٤٥٠٤٢٧/٠١

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ غَافِرٍ

مكيّة وعدد آياتـها خمس وثمانون

نظرة مُختصرة في محتوى السورة

سورة المؤمن هي طليعة الحواميم، والحواميم في القرآن الكريم سبع سور متتالية يلي بعضها بعضاً، نزلت جميعاً في مكّة، وهي تبتدىء بـ «حم».

هذه السورة كسائر السور المكّية، تثير في محتواها قضايا العقيدة، وتتحدّث عن أصول الدين الإسلامي ومبانيه وفي ذلك تلبّي حاجة المسلمين في تلك المرحلة إلى تشييد وإقامة قواعد الدين الجديد.

ومحتوى هذه السورة يضمّ بين دفتيه الشدّة واللطف، ويجمع في نسيجه بين الإنذار والبشارة. . . السورة - إذاً - مواجهة منطقية حادّة مع الطواغيت والمستكبرين، كما هي نداء لطف ورحمة ومحبة بالمؤمنين وأهل الحق.

وتمتاز هذه السورة أيضاً بخصوصية تنفرد بها دون سور القرآن الأُخرى، إذ تتحدّث عن «مؤمن آل فرعون» وهو مقطع من قصّة موسى عليه السلام، وقصّة مؤمن آل فرعون لم ترد في كتاب الله سوى في سورة «المؤمن».

إنّ قصّة «مؤمن آل فرعون» هي قصّة ذلك الرجل المؤمن المخلص الذي كان يتحلّى بالذكاء والمعرفة في الوقت الذي هو من بطانة فرعون، ومحسوب - ظاهراً - من حاشيته. لقد كان هذا الرجل مؤمناً بما جاء به موسى عليه السلام، وقد احتلّ - وهو يعمل في حاشية فرعون - موقعاً حساساً مميزاً في الدفاع عن موسى عليه السلام وعن دينه، حتى أنّه - في الوقت الذي تعرّضت فيه حياة موسى عليه السلام للخطر - تحرّك من موقعه بسلوك فطن وذكي وحكيم لكي يخلّص موسى من الموت المحقق الذي كان قد أحاط به.

إنّ اختصاص السورة باسم «المؤمن» يعود إلى قصة هذا الرجل الذي تحدّثت عشرون آية منها عن جهاده، أي ما يقارب ربع السورة.

يكشف الأُفق العام أنّ حديث السورة عن «مؤمن آل فرعون» ينطوي على أبعاد تربوية لمجتمع المسلمين في مكّة، فقد كان بعض المسلمين ممّن آمن بالإسلام يحافظ على

علاقات طيّبة مع بعض المشركين والمعاندين، وفي نفس الوقت فإنّ إسلامه وانقياده لرسول الله ﷺ ليس عليهما غبار.

لقد كان الهدف من هذه العلاقة مع المشركين هو توظيفها في أيّام الخطر لحماية الرسالة الجديدة ودفع الضرّ عن أتباعها، وفي هذا الإطار يذكر التاريخ أنّ أبا طالب عليه السلام عمّ رسول الله ﷺ كان من جملة هؤلاء، كما يستفاد ذلك من بعض الرّوايات الإسلامية المروية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (١).

وبشكل عام يمكن النظر إلى محتوى السورة في إطار ما تثيره النقاط والأقسام الآتية:

القسم الأوّل: وهو يضم طليعة آيات السورة التي تتحدّث عن بعض أسماء الله الحسنى، خصوصاً تلك التي ترتبط بإحياء معاني الخوف والرجاء في القلوب، مثل قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ و﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

القسم الثّاني: تهديد الكفّار والطواغيت بعذاب في هذه الدنيا الذي سبق وأن نال أقواماً أُخرى في ماضي التاريخ، بالإضافة إلى التعرّض لعذاب الآخرة، وتتناول بعض الصور والمشاهد التفصيلية فيه.

القسم الثّالث: بعد أن وقفت السورة على قصة موسى وفرعون، بدأت بالحديث - بشكل واسع - عن قصة ذلك الرجل المؤمن الواعي الشجاع الذي اصطلح عليه بـ «مؤمن آل فرعون» وكيف واجه البطانة الفرعونية وخلّص موسى عليه السلام من كيدها.

القسم الرّابع: تعود السورة مرّة أُخرى للحديث عن مشاهد القيامة، لتبعث في القلوب الغافلة الروح واليقظة.

القسم الخامس: تتعرّض السورة المباركة فيه إلى قضيتي التوحيد والشرك، بوصفهما دعامتين لوجود الإنسان وحياته، وفي ذلك تتناول جانباً من دلائل التوحيد، بالإضافة إلى ما تقف عليه من مناقشة لبعض شبهات المشركين.

القسم السّادس: تنتهي السورة - في محتويات القسم الأخير هذا - بدعوة رسول الله ﷺ للتحمّل والصبر، ثمّ تختم باستعراض خلاصات سريعة ممّا تناولته مفصلاً من قضايا ترتبط بالمبدأ والمعاد، وكسب العبرة من هلاك الأقوام الماضية، وما تعرّضت له من أنواع العذاب الإلهي في هذه الدنيا، ليكون ذلك تهديداً للمشركين. ثمّ تخلص السورة في خاتمتها إلى ذكر بعض النعم الإلهيّة.

---

(١) الغدير، ج ٨، ص ٣٨٨.

لقد أشرنا فيما مضى إلى أنّ تسمية السورة بـ«المؤمن» يعود إلى اختصاص قسم منها بالحديث عن «مؤمن آل فرعون». أمّا تسميتها بـ«غافر» فيعود إلى كون هذه الكلمة هي بداية الآية الثّالثة من آيات السورة المباركة.

فضل تلاوة السورة

في سلسلة الرّوايات الإسلامية المروية عن رسول الله ﷺ وعن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، نرى كلاماً واسعاً في فضل تلاوة سور «الحواميم» وبالأخص سورة «غافر» منها.

ففي بعض هذه الأحاديث نقرأ عن رسول الله ﷺ قوله: «الحواميم تاج القرآن»(١).

وعن ابن عباس ممّا يحتمل نقله عن رسول الله ﷺ أو عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: «لكل شيء لباب ولباب القرآن الحواميم»(٢).

وفي حديث عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السلام: «الحواميم ريحان القرآن، فاحمدوا الله واشكروه بحفظها وتلاوتها، وإنّ العبد ليقوم يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر والعنبر، وإنّ الله ليرحم تاليها وقارئها، ويرحم جيرانه وأصدقاءه ومعارفه وكلّ حميم أو قريب له، وإنّه في القيامة يستغفر له العرش والكرسي وملائكة الله المقربون»(٣).

وفي حديث آخر عن رسول الله ﷺ: «الحواميم سبع، وأبواب جهنّم سبع، تجيء كلّ «حاميم» منها فتقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللّهم لا تُدخل من هذا الباب من كان يؤمن بي ويقرأني»(٤).

وفي قسم من حديث مروي عن رسول الله ﷺ: «من قرأ «حاميم المؤمن» لم يبق روح نبيّ ولا صديق ولا مؤمن إلاّ صلّوا عليه واستغفروا له»(٥).

ومن الواضح أنّ هذه الفضائل الجزيلة ترتبط بالمحتوى الثمين للحواميم، هذا المحتوى الذي إذا واظب الإنسان على تطبيقه في حياته والعمل به، والالتزام بما يستلزمه من مواقف وسلوك، فإنّه سيكون مستحقاً للثواب العظيم والفضائل الكريمة التي قرأناها.

وإذا كانت الرّوايات تتحدّث عن فضل التلاوة، فإنّ التلاوة المعنيّة، هي التي تكون

(١-٣) وردت هذه الأحاديث في تفسير مجمع البيان في بداية تفسير سورة المؤمن.
(٤) البيهقي طبقاً لما نقله عنه الآلوسي في روح المعاني، ج ٢٤، ص ٣٦.
(٥) تفسير مجمع البيان في مقدمة تفسير السورة.

مقدمة للاعتقاد الصحيح، فيما يكون الاعتقاد الصحيح مقدمة للعمل الصحيح. إذاً التلاوة المعنيّة، هي تلاوة الإيمان والعمل، وقد رأينا في واحد من الأحاديث - الآنفة الذكر - المنقولة عن النّبي ﷺ تعبير «من كان يؤمن بي ويقرأني».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

التّفسير

صفات تبعث الأمل في النفوس

تواجهنا في مطلع السورة الحروف المقطعة وهي هنا من نوع جديد لم نعهده في السور السابقة، حيثُ افتتحت السورة بـ «حاء» و«ميم».

وبالنسبة للحروف المقطعة في مطلع السور، كانت لنا بحوث كثيرة في معانيها ودلالاتها، تعرّضنا إليها أثناء الحديث عن بداية سورة «البقرة»، وسورة «آل عمران» و«الأعراف» وسور أُخرى.

الشيء الذي نضيفه هنا، هو أنّ الحروف التي تبدأ بها سورة المؤمن هذه تشير - كما يستفاد ذلك من بعض الرّوايات ومن آراء المفسّرين - إلى أسماء الله التي تبدأ بحروف هذه السورة، أي «حميد» و«مجيد» كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام (١).

البعض الآخر ذهب إلى أنّ «ح» إشارة إلى أسمائه تعالى مثل «حميد» و«حليم» و«حنان»، بينما «م» إشارة إلى «ملك» و«مالك» و«مجيد».

وهناك احتمال في أنّ حرف «الحاء» يشير إلى الحاكمية، فيما يشير حرف «الميم» إلى المالكية الإلهيّة.

عن ابن عباس، نقل القرطبي «في تفسيره» أنّ «حم» من أسماء الله العظمى(٢).

ويتّضح في نهاية الفقرة عدم وجود تناقض بين الآراء والتفاسير الآنفة الذكر، بل هي تعمد جميعاً إلى تفسير الحروف المقطعة بمعنى واحد.

---

(١) يلاحظ «معاني الأخبار» للشيخ الصدوق، ص ٢٢، باب معنى الحروف المقطعة في أوائل السور.
(٢) تفسير القرطبي، ذيل الآيات مورد البحث.

في الآية الثّانية - كما جرى على ذلك الأسلوب القرآني، حديث عن عظمة القرآن، وإشارة إلى أنّ هذا القرآن بكل ما ينطوي عليه من عظمة وإعجاز وتحدّ، إنّما يتشكّل في مادته الخام من حروف الألف، باء. . . وهنا يكمن معنى الإعجاز.

يقول تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

إنّ قدرته تعالى تجعل الأشياء الأُخرى عاجزة عن الوقوف إزاءها، فقدرته ماضية في كل شيء، وعزّته مبسوطة، أمّا علمه تعالى فهو في أعلى درجات الكمال، بحيث يستوعب كلّ احتياجات الإنسان ويدفعه نحو التكامل.

والآية التي بعدها تعدّد خمساً من صفاته تعالى، يبعث بعضها على الأمل والرجاء، بينما يبعث البعض الآخر منها على الخوف والحذر.

يقول تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾(١).

﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾(٢).

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أجل إنّ من له هذه الصفات هو المستحق للعبادة وهو الذي يملك الجزاء في العقاب والثواب.

ملاحظات

تنطوي الآيات الثلاث الآنفة الذكر على مجموعة من الملاحظات، نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

أولاً: في الآيات أعلاه (الآيتان ٢ و٣) بعد ذكر الله وقبل ذكر المعاد ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

---

(١) «توب» يمكن أن تكون جمع «توبة» وأن تكون مصدراً (يلاحظ مجمع البيان).

(٢) «طول» على وزن «قول» بمعنى النعمة والفضل، وبمعنى القدرة والقوة والمكنة وما يشبه ذلك. بعض المفسّرين يقول: إنّ «ذي الطول» هو الذي يبذل النعم الطويلة والجزيلة للآخرين، ولذلك فإنّ معناها أخص من معنى «المنعم» كما يقول صاحب مجمع البيان. على ذكر سبع صفات للذات الإلهيّة، بعضها من «صفات الذات» والبعض الآخر منها من «صفات الفعل» التي انطوت على إشارات للتوحيد والقدرة والرحمة والغضب، ثمّ ذكرت «عزيز» و«عليم» وجعلتهما بمثابة القاعدة التي نزل الكتاب الإلهي (القرآن) على أساسهما.

اشتملت أمّا صفات «غافر الذنب» و«قابل التوب» و«شديد العقاب» و«ذي الطول» فهي بمثابة المقدمات اللازمة لتربية النفوس وتطويعها لعبادة الواحد الأحد.

ثانياً: ابتدأت الصفات الآنفة الذكر بصفة «غافر الذنب» أوّلاً و«ذي الطول» أخيراً، أي صاحب النعمة والفضل كصفة أخيرة. وفي موقع وسط جاءت صفة «شديد العقاب» وهكذا ذكرت الآية الغضب الإلهي بين رحمتين. ثمّ إنّنا نلاحظ أنّ الغضب الإلهي جاء وسط حديث الآية عن ثلاث صفات من صفات الرحمة الإلهيّة، وفي كلّ ذلك دليل على المعنى المكنون في «يا من سبقت رحمته غضبه».

ثالثاً: لا يقتصر المعنى في جملة ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ على عودة الجميع ورجوعهم كافةً إليه تعالى في يوم القيامة، وإنّما تشير أيضاً إلى الانتهاء المطلق لكل الأُمور في هذا العالم والعالم الآخر إليه تعالى، وانتهاء سلسلة الوجود إلى قدرته وإرادته.

رابعاً: جاء تعبير ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في ختام الصفات، وهو حكاية عن مقام التوحيد والعبودية الذي لا يليق بغير الله تعالى، حيث تنتهي أمام عبوديته كل العبوديات الأُخرى. وهكذا يكون تعبير «لا إله إلاّ هو» بمثابة النتيجة النهائية الأخيرة للبيان القرآني في هذا المورد.

ولذلك نقرأ في حديث عن ابن عباس أنّه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للشخص الذي يقول: لا إله إلاّ الله. وهو تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ للذي يقرّ بالعبودية ويقول: لا إله إلاّ الله. وهو ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ للذي لا يقرّ ولا يقول: لا إله إلا الله. وهو ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ وغني عمّن لايقول: لا إله إلا الله.

من كلّ ذلك يتّضح أن محور الصفات المذكورة هو التوحيد، الذي يدور مدار الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح.

خامساً: من وسائل الغفران في القرآن:

ثمّة في كتاب الله أُمور كثيرة تكون أسباباً وعناوين للمغفرة ومحو الذنوب والسيئات، وفيما يلي نشير إلى بعض هذه العناوين:

١ - التوبة: إذ في الآية (٨) من سورة التحريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

٢ - الإيمان والعمل الصالح: حيث نقرأ في سورة (محمّد - الآية ٢) قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

٣ - التقوى: ونرى مصداقها في قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾(١).

٤ - الهجرة والجهاد والشهادة: ومصداقها قوله تعالى في الآية (١٩٥) من سورة «آل عمران»: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

٥ - صدقة السرّ: وذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾(٢).

٦ - الإقراض: كما في قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ﴾(٣).

٧ - اجتناب كبائر الذنوب: حيث يقول تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾(٤).

وهكذا يتبيّن لنا أنّ أبواب المغفرة الإلهيّة مفتوحة من كلّ مكان، وأنّ عباد الله بوسعهم طرق هذه الأبواب والولوج إلى المغفرة الإلهيّة، وقد رأينا في الآيات الآنفة الذكر سبعة من هذه الأبواب التي تضمن الخلاص لمن يلج أيّ واحد منها، أو كلّها جميعاً.

﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

الأمر الإلهي الحاسم

بعد أن تعرّضت الآيات السابقة إلى نزول القرآن، وإلى بعض الصفات الإلهيّة التي

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.
(٣) سورة التغابن، الآية: ١٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.

تستهدف بعث الخوف والرجاء، ورد كلام في الآيات التي بين أيدينا عن قوم امتازوا بالمجادلة والمنازعة حيال آيات الله... الآية الكريمة توضّح مصير هذه المجموعة ضمن تعبير قصير وقاطع، فتقول: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

صحيح أنّ هذه المجموعة قد تملك العدّة والعدد، إلاّ أنّ ذلك لن يدوم إلاّ لفترة، فلا تغتر وتنخدع إذاً لتحرّكهم في البلاد وتنقّلهم في المدن المختلفة، واستعراضهم لقوّتهم: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾.

إنّها أيّام تنقضي بين الكرّ والفرّ، ثمّ تنتهي هذه الضجة لتزول معها هذه المجموعة وتمحى تماماً، كما تزول الفقاعات من على سطح الماء، أو كما يتلاشى الرماد عند هبوب العواصف!

«يجادل» مشتقّة من «جدل» وهي في الأصل تعني لفّ الحبل وإحكامه، ثمّ عمّ استخدامها في الأبنية والحديد وما شابه، ولهذا فإنّ كلمة (مجادلة) تطلق على عمل الأشخاص المتقابلين ويريد كلّ شخص أن يلقي حجته ويثبت كلامه ويغلب خصمه.

ولكن ينبغي الانتباه إلى أنّ كلمة (المجادلة) لا تعتبر مذمومة دائماً في اللغة العربية، بل تعتبر إيجابية ومطلوبة إذا كانت المجادلة في طريق الحق وتستند على المنطق، وتهدف إلى تبيين الحقائق وإرشاد الأشخاص الجهلة... أمّا إذا كانت على أُسس واهية من التعصّب والجهل والغرور، وتستهدف خداع هذا وذاك، فتكون عند ذلك مذمومة.

القرآن الكريم استخدم كلمة (المجادلة) في كلا مورديها، إذ نقرأ في الآية (١٢٥) من سورة النحل قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

إلاّ أنّه في موارد أُخرى - كما في الآية أعلاه وفيما بعدها - وردت (المجادلة) لغرض الذم، وهناك بحث حول الجدال والمجادلة سنتعرّض له فيما بعد إن شاء الله.

«تقلب» مشتقّة من «قلب» وتعني التغيير، و«تقلّب» هنا بمعنى التصرّف في المناطق والبلاد المختلفة للسيطرة والتسلّط عليها، وتعني الذهاب والإياب فيها أيضاً.

إنّ هدف الآية تحذير للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين به - في بداية البعثة - من الذين كانوا من الطبقة المستضعفة المحرومة، بأن لا يركنوا إلى الإمكانات المالية أو القوّة السياسية والاجتماعية للكفّار، ويعتبرونها دليلاً على حقّانيتهم أو سبباً لقوّتهم الحقيقية، إذ هناك الكثير منهم في تاريخ هذه الدنيا، وقد انكشف ضعفهم وسقطت عنهم سرابيل القوّة

المزعومة ليبيّن عجزهم حيال العقاب الإلهي، ليسقطوا كما تسقط الأوراق الخريفية الذابلة في العواصف الهوجاء.

إنّنا في عالم اليوم نشاهد الكفار والمستكبرين والظالمين وهم يقومون بشتّى المحاولات، من زيارات ومؤتمرات وأحلاف وتكتّلات ومناورات عسكرية، وتوقيع لاتفاقات سياسية وعسكرية، واعتماد لوسائل القمع والإرهاب إزاء المستضعفين والمحرومين في العالم، ولكي يسلكوا من خلال ذلك طريقاً إلى تحقيق أهدافهم المشؤومة، لذلك ينبغي للمؤمنين أن يكونوا يقظين وحذرين حتى لا يروحوا ضحية هذه الأساليب القديمة وحتى لا يسكتهم الرعب والخوف فيفتنون بهذا الوضع.

لذلك توضّح الآية التي بعدها عاقبة بعض الأُمم السابقة التي ضلّت الطريق وانكفأت عن جادة الحق والصواب، فتقول في عبارات قاطعة واضحة تحكي عاقبة قوم نوح وحالهم ومن تلاهم من أقوام وجماعات: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

المقصود من «الأحزاب» هم قوم عاد وثمود وحزب الفراعنة وقوم لوط، وأمثال هؤلاء ممّن أشارت إليهم الآيتان (١٢ - ١٣) من سورة «ص» في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾.

هؤلاء هم «الأحزاب» الذين تآزروا ووقفوا ضدّ دعوات الأنبياء الإلهيين، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات ومضامينها الربانية.

إنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الوقوف ضدّ الدعوات النبوية الكريمة، بل خططت كلّ أُمّة منهم لأن تمسك بنبيّها فتسجنه وتؤذيه، بل وحتى تقتله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾.

ثم لم يكتفوا بهذا القدر أيضاً، بل لجأوا إلى الكلام الباطل لأجل القضاء على الحق ومحوه، وأصرّوا على إضلال الناس وصدّهم عن شريعة الله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1].

إلاّ أنّ هذا الوضع لم يستمر طويلاً، ولم يبق لهم الخير دوماً، إذ حينما حان الوقت المناسب جاء الوعد الإلهي: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

---

(١) ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ مصدرها ثلاثي (إدحاض) وتعني الإزالة والإبطال.

لكم - أيّها الناس - أن تشاهدوا خرائب مدنهم حين سفركم وأثناء تجوالكم... انظروا عاقبتهم المشؤومة المظلمة مدوّنة على صفحات التاريخ وفي صدور أهل العلم، فانظروا واعتبروا!

ليس هناك أفضل من هذا المصير الذي ينتظر أشقياء مكّة من الكفار والمشركين الظالمين؛ إلاّ أن يثوبوا إلى أنفسهم ويعيدوا تقييم أعمالهم.

إذاً، الآية أعلاه تلخّص برنامج «الأحزاب» الطاغية ومخططهم في ثلاثة أقسام هي: (التكذيب والإنكار) ثمّ (التآمر للقضاء على رجال الحق) وأخيراً (الدعاية المستمرة لإضلال عامّة الناس).

أمّا مشركو العرب على عهد البعثة النّبوية فقد قاموا بتكرار هذه الأقسام الثلاثة حيال رسول الإسلام ﷺ وحيال رسالته، لذلك فليس ثمّة من عجب أن يهددهم القرآن الكريم بما حلّ بأسلافهم وبمن سبقهم من الأحزاب... نفس العاقبة ونفس الجزاء!

الآية الأخيرة - في المقطع الذي بين أيدينا - تشير إلى الجزاء الأُخروي الذي ينتظر هؤلاء، بالإضافة إلى قسطهم من العقاب الدنيوي ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

إنّ المعنى الظاهري للآية واسع، يشمل جميع الكفّار والمعاندين من جميع الأقوام، والآية بهذا المعنى لا تختص بكفّار مكّة، كما يتصوّر بعض المفسّرين.

إنّ حتمية العقاب الإلهي لهؤلاء القوم يعود إلى ذنوبهم المستمرة، والأعمال التي يقومون بها بملء إرادتهم خلافاً لرسالة الله... ولكن العجيب أنّ بعض المفسّرين - كالفخر الرازي - يتصوّر أنّ هذه الآية هي من أدلة عقيدة الجبر والمصير الجبري الإلزامي للأقوام المختلفة، ودليل سلب الإرادة عنهم، في حين أنّنا لو دققنا في نفس الآية مع ترك التعصّب المذهبي جانباً، فسيتوضح لنا أنّ هذا المصير الإلهي الذي ينتظرهم هو بسبب سلوكهم لطريق الانحراف المظلم، وبسبب إصرارهم على السير بهذا الطريق بأرجلهم وبكامل حريتهم وملء إرادتهم.

بحثان

أوّلاً: استعراض الكفار لقواهم الظاهرية

يواجهنا في الآيات القرآنية وفي أماكن متعدّدة مؤدّى يفيد أنّ المؤمنين المحرومين ينبغي لهم أن لا يتصوروا أنّ الإمكانات الكبيرة والقوى المادية الواقعة في حوزة

الظالمين والكفار، هي دليل على سعادتهم، أو شرط لانتصارهم في نهاية المطاف.

ومن أجل القضاء على هذا التصوّر المنحرف الخاطىء الذي يلازم في العادة الضعفاء ذوي الأفكار المحدودة والأفق الإيماني الضيّق، ومن الذين يرون في إمكانات الخصم دليلاً معنوياً على حقّانيته، فالقرآن يعالج هذه الظاهرة من خلال تفحص واستعراض تاريخ الأقوام السابقة، ويشير في استعراضه لهم إلى نماذج واضحة ومعروفة منهم كالفراعنة في مصر، والنماردة في بابل، وأقوام نوح وعاد وثمود في العراق والحجاز والشام، حتى لا يشعر المؤمنون المستضعفون بالضعف والهوان، ولكي لاييأسوا من جدوى المواجهة في حرب هي سجال بين الطرفين، لكنّها بالوعد الإلهي الحتمي لا بدّ أن تنتهي لصالح أهل الحق.

إنّ القانون الإلهي لا يقضي دائماً بتعجيل العقوبة الآنية لكل من يرتكب عملاً منافياً، أو لمن يخرج عن جادة الصواب ويحيد عن سبيل الرشد، وإنّما الأمر كما تقول الآية (٥٩) من سورة الكهف، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾.

وفي مكان آخر من الكتاب الإلهي العظيم نقرأ قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾(١).

وفي الآية (١٧٨) من «آل عمران» نلتقي في هذا المورد مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾.

نستطيع أن ننهي القول في أنّ الهدف من هذا «الإمهال» هو إمّا لإتمام الحجة على الكافرين، أو لاختبار المؤمنين، أو قد يكون زيادة في ذنوب الذين قطعوا جميع طرق العودة على أنفسهم.

وفي عالمنا اليوم تشبه هذه الحالة الشعور بالدونية والحقارة الذي تعيشه بعض الشعوب المسلمة المتخلّفة مادياً إزاء الدول الكبرى والمتقدمة، ولكن ينبغي مكافحة هذا الشعور بشدّة بأسلوب المنطق القرآني أعلاه.

علاوة على هذا يجب على هؤلاء أن يدركوا أنّ أشكال التخلّف والحرمان المادي إنّما تعود بدرجة كبيرة إلى ظلم الظالمين، فإذا ما تحطّمت سلاسل الظلم والعبودية أمكن تجاوز التخلّف بالمثابرة والكدح.

---

(١) سورة الطارق، الآية: ١٧.

ثانياً: المجادلة في القرآن الكريم

لقد وردت كلمة «المجادلة» خمس مرّات في هذه السورة المباركة، وهي جميعاً تختص بالمجادلة السلبية الباطلة، والآيات التي اشتملت على ذكر المجادلة هي (٤، ٥، ٣٥، ٥٦، ٦٩) وبهذه المناسبة لا بأس بالتعرّض إلى بحث عن الجدال من وجهة النظر القرآنية.

«الجدال» و«المراء» موضوعان وردا كثيراً في الآيات القرآنية، وفي الأحاديث والرّوايات الإسلامية أيضاً. وكتوطئة للبحث ينبغي أولاً أن نميّز أقسام الجدال (الجدال الإيجابي والجدال السلبي) وما هو المقصود من كلّ واحد منها، وما هي علائم كلّ واحد منها، وأخيراً أضرار «الجدال السلبي» وكذلك عوامل الغلبة في «الجدال الإيجابي».

وفي هذا الصدد أمامنا النقاط والعناوين الآتية:

أ - مفهوم «جدال» و«مراء»

«الجدال» و«المراء» و«الخصام» ثلاث مفردات متقاربة من حيث المعنى، وفي نفس الوقت يوجد ثمّة اختلاف بينها[1].

«الجدال» يعني في الأصل اللغوي لفّ الحبل، ثمّ أخذ يطلق بعد ذلك على لفّ الطرف المقابل والنقاش الذي يتضمّن الغلبة.

«مراء» على وزن «حجاب» وتعني الكلام في شيء ما، فيه مرية أو شك.

أمّا «الخصومة» والمخاصمة فتعني في الأصل إمساك شخصين كلّ منهما للآخر من جانبه، ثمّ أطلقت بعد ذلك على التشاجر اللفظي والأخذ والرد في الكلام.

وكما يقول العلامة المجلسي في (بحار الأنوار) فإنّ الجدال والمراء أكثر ما يستخدمان في القضايا العلمية، في حين تستخدم المخاصمة في الأُمور والمعاملات الدنيوية.

ويحدّد بعضهم الاختلاف بين الجدال والمراء في أنّ هدف المراء هو إظهار الفضل والكمال، في حين أنّ الجدال يستهدف تعجيز وتحقير الطرف المقابل.

وقالوا أيضاً في الفرق بينهما: إنّ الجدال في القضايا العلمية، والمراء أعم من ذلك.

---

(١) الألفاظ الثلاثة مصدرها من باب المفاعلة.

وقالوا أخيراً: إنّ المراء ذو طابع دفاعي في قبال هجوم الخصم، بينما الجدال أعم من الدفاع والهجوم.

ب: الجدال السلبي والإيجابي

يظهر من الآيات القرآنية أنّ للفظ الجدال معانٍ واسعة، ويشمل كلّ أنواع الحديث والكلام الحاصل بين الطرفين، سواء كان إيجابياً أم سلبياً، ففي الآية (١٢٥) من سورة «النحل» نقرأ أمر الخالق تبارك وتعالى لرسوله الكريم ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

وفي الآية (٧٤) من سورة «هود» نقرأ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ والآية تشير إلى النوع الإيجابي من المجادلة.

ولكن أغلب الإشارات القرآنية حول المجادلة تشير إلى النوع السلبي منها، كما نرى ذلك واضحاً في سورة «المؤمن» التي نحن بصددها، حيث أشارت إلى «المجادلة» بمعناها السلبي خمس مرّات.

وفي كلّ الأحوال يتبيّن أنّ البحث والكلام والاستدلال والمناقشة لأقوال الآخرين، إذا كان لإحقاق الحقّ وإبانة الطريق وإرشاد الجاهل، فهو عمل مطلوب يستحق التقدير، وقد يندرج أحياناً في الواجبات.

فالقرآن لم يعارض أبداً البحث والنقاش الاستدلالي والموضوعي الذي يستهدف إظهار الحق، بل حثّ على ذلك في العديد من الآيات القرآنية.

وفي مواقف معيّنة طالب القرآن المعارضين بالإتيان بالدليل والبرهان فقال: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾(١).

وفي المواقف التي كانت تتطلب إظهار البرهان والدليل، ذكر القرآن أدلة مختلفة، كما نقرأ ذلك في آخر سورة «يس» حين جاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وهو يمسك بيده عظماً فقال له سائلاً: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾(٢) فذكر القرآن عدداً من الأدلة على لسان الرّسول الأكرم في المعاد وقدرة الخالق على إحياء الموتى.

وفي القرآن نماذج أُخرى واضحة على الجدال الإيجابي، كما في الآية (٢٥٨) من سورة البقرة، التي تعكس كلام إبراهيم عليه السلام وأدلته القاطعة أمام نمرود.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١. (٢) سورة يس، الآية: ٧٨.

والآيات (٤٧ - ٥٤) من سورة «طه» تعكس تحاجج موسى وفرعون.

وكذلك نجد القرآن مليء بالأدلة المختلفة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مقابل عبدة الأصنام والمشركين وأصحاب الذرائع.

ومن جهة أُخرى يذكر القرآن الكريم نماذج أُخرى من مجادلات أهل الباطل لإثبات دعاواهم الباطلة من خلال استخدام السفسطات الكلامية والحجج الواهية لإبطال الحق وغواية عوام الناس.

إنّ السخرية والاستهزاء والتهديد والافتراء والإنكار الذي لا يقوم على دليل، هي مجموعة من الأساليب التي يعتمدها الظالمون الضالّون إزاء الأنبياء ودعواتهم الكريمة، أمّا الاستدلال الممزوج بالعاطفة والحبّ والرأفة بالناس فهو أُسلوب الأنبياء، رسل السماء إلى الأرض.

في الرّوايات الإسلامية والتاريخ الإسلامي آثار كثيرة وغنيّة عن مناظرات الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام مع المعارضين، وإذا ما توفّر جهد معيّن على جمعها وتصنيفها فإنّها ستشكّل كتاباً كبيراً وضخماً للغاية. (وقد قام العلاّمة الشيخ الطبرسي) بجمع بعضها في كتابه «الاحتجاج».

وبالطبع لم ينحصر مقام المجادلة بالتي هي أحسن ومناظرة الخصوم على المعصومين، بل إنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا يحثّون من يجدون فيه القدرة الكافية والمنطق القوي المتين للقيام بهذه الوظيفة، وإلاّ فقد تضعف جبهة الحق ويقوى عود خصومها، ويجدون في أنفسهم الجرأة في مواجهة الحق والتمادي في عنادهم.

وفي هذا الاتجاه نقرأ في حديث، أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام يلقّب بـ «الطيار» ويدعى (حمزة بن محمّد) جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال له: «بلغني أنك كرهت مناظرة الناس» فأجابه الإمام عليه السلام بقوله: «أمّا مثلك فلا يكره، من إذا طار يحسن أن يقع، وإن وقع يحسن أن يطير، فمن كان هذا لا نكرهه»[1].

وهذا كلامٌ جامع يشير بوضوح كاف إلى لزوم توفر القوّة والمتانة في قدرة الاستدلال والمناظرة وخصم الطرف المقابل لمن يريد خوض المناظرة مع الخصوم، كي يكون بمقدوره استخلاص النتائج وإنهاء البحث، فلا بدّ من حضور أشخاص مستعدّين ولهم

(١) رجال الكشي، ص ٢٩٨، وبحار الأنوار، ج٧٣، ص ٤٠٤، الباب ١٤٥.

تسلّط كاف على البحوث الاستدلالية، حتى لا يحسب ضعف منطقهم بأنّه من ضعف دينهم ومذهبهم.

ج: الآثار السيئة للجدال السلبي

صحيح أنّ البحث والنقاش هو مفتاح لحلّ المشاكل، إلاّ أنّ هذا الأمر يصح في حال رغب الطرفين في نشدان الحق والبحث عن الطريق الصحيح؛ أو على الأقل يكون أحد الطرفين متمسكاً بالحق ومستهدفاً السبيل إليه فيما يخوض من نقاش ومناظرة.

أمّا أن يكون النقاش والجدل بين الطرفين بهدف التفاخر واستعراض القوّة، وفرض الرأي على الطرف الثّاني عن طريق إثارة الضجّة، فإنّ عاقبة هذا الأمر لا تكون سوى الابتعاد عن الحق وعشعشة الظلمة في القلوب وتجذّر العداء والحقد لا غير.

ولهذا السبب نهت الروايات والأحاديث الإسلامية عن المراء والجدال الباطل، وفي هذه المرويات إشارات كبيرة المعنى إلى الآثار السيئة لهذا النوع من الجدال.

ففي حديث عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب نقرأ قوله عليه السلام: «من ظنّ بعرضه فليدع المراء»[1]. لأنّ في هذا النوع من النقاش سوف ينحدر بالكلام تدريجياً ليصل إلى مناحي الإستهانة وعدم الاحترام وتبادل الكلام المبتذل القبيح، وترامي الاتهامات الباطلة.

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين أيضاً نقرأ وصيته عليه السلام إذ يقول:

«إيّاكم والمراء والخصومة فإنّهما يمرضان القلوب على الإخوان، وينبت عليهما النفاق»[2].

إنّ مثل هذا النوع من الجدال والذي يكون عادةً فاقداً للالتزام بالأُصول الصحيحة للبحث والاستدلال، سيقوي روح اللجاجة والتعصّب والعناد لدى الأشخاص، بحيث يستخدم كلّ طرف - بهدف التغلّب على خصمه والانتصار لنفسه - كلّ الأساليب حتى تلك التي تنطوي على الكذب والتهمة، ومثل هذا العمل لا يمكن أن تكون عاقبته إلاّ السوء والحقد وتنمية جذور النفاق في الصدور.

إنّ واحدة من المفاسد الكبيرة الأُخرى للجدال السلبي المنهيّ عنه، هو تمسك

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٣٦٢.

(٢) أُصول الكافي، ج ٢، باب المراء والخصومة. ح ١.

الطرفين بانحرافاتهم وأخطائهم وإصرارهم على اشتباهاتهم، في موقف عنيد بعيد عن الحق والصواب، ذلك لأنّ كلّ طرف يحاول ما استطاع التمسّك بأيّ دليل والتشبّث بالباطل لفرض رأيه وإثبات كلامه، وهو في ذلك مستعد لأن يتجاهل الكلام الحق الذي يصدر من خصمه، أو أنّه ينظر إليه بعدم الرضا والقبول، وهذا بحدّ ذاته يزيد من الانحراف والاشتباه والخطأ.

د: أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن

لا يستهدف «الجدال الإيجابي» تحقير الطرف الآخر أو الانتصار عليه، بل يهدف النفوذ إلى عمق أفكاره وروحه، لهذا فإنّ أُسلوب المجادلة بالتي هي أحسن يختلف كلياً عن الجدال السلبي أو الباطل.

ولكي يؤثّر الطرف المجادل معنوياً على الطرف الآخر، عليه الاستفادة من الأساليب الآتية التي أشار إليها القرآن الكريم بشكل جميل:

١ - ينبغي عدم الإصرار على الطرف المقابل بقبول الكلام على أنّه هو الحق، بل على المجادل إذا استطاع أن يجعل الطرف المقابل يعتقد بأنّه هو الذي توصّل إلى هذه النتيجة، وهذا الأُسلوب سيكون أكثر تأثيراً. بعبارة أُخرى: من المفيد للطرف المقابل أن يعتقد بأنّ النتيجة أو الفكرة نابعة من أعماقه وهي جزء من روحه، كي يتمسك بها أكثر ويذعن لها بشكل كامل.

وقد يكون هذا الأمر هو سرّ ذكر القرآن للحقائق المهمّة كالتوحيد ونفي الشرك وغير ذلك على شكل استفهام، أو أنّه بعد أن ينتهي من استعراض وذكر أدلة التوحيد يقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾(١).

٢ - يجب الامتناع عن كلّ من ما يثير صفة العناد واللجاجة لدى الطرف الآخر، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٢). كي لا يصر هؤلاء على عنادهم ويهينوا الخالق جلّ وعلا بتافة كلامهم.

٣ - يجب مراعاة منتهى الإيضاح في النقاش مع أيّ شخص أو أيّ مجموعة، كي يشعر الطرف المقابل بأنّ المتحدّث إليه يبغي حقّاً توضيح الحقائق لا غير، فعندما يتحدّث القرآن عن مساوىء الخمر والقمار، فهو لا يتجاهل المنافع الثانوية المادية

---
(١) سورة النمل، الآية: ٦٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

والاقتصادية التي يمكن أن يحصل عليها البعض منهما، فيقول: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾(١).

إنّ هذا الطراز من الحديث يحمل آثاراً إيجابية كبيرة على المستمع.

٤ - يجب عدم الرّد بالمثل حيال المساوىء والأحقاد التي قد تطفح من الخصم، بل يجب سلوك طريق الرأفة والحبّ والعفو ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلاً، إذ إنّ الرّد بهذا الأُسلوب الودود يؤثّر كثيراً في تليين قلوب الأعداء المعاندين، كما يقول القرآن الكريم ويحثّ على ذلك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾(٢).

والخلاصة، إنّنا عندما ندقق في أسلوب نقاشات الأنبياء عليهم السلام مع الأعداء والظالمين والجبارين، كما يعكسها القرآن الكريم، أو كما تعكسها تلك المناظرات العقائدية بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو أئمّة أهل البيت المعصومين عليهم السلام وبين أعدائهم وخصومهم، ننتهي إلى دورس تربوية في هذا المجال تطوي في تضاعيفها أدق الأساليب والوسائل النفسية التي تسهّل لنا النفوذ إلى أعماق الآخرين.

وبهذا الخصوص ينقل العلاّمة المجلسي في (بحار الأنوار) رواية مفصّلة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضمّنها مناظرة طويلة بين الرّسول الأكرم وبين خمسة مجاميع مخاصمة هي: اليهود والنصارى والدهريين والثنويين (أتباع عقدية التثنية في التأليه) ومشركي العرب، تنتهي بسبب الأُسلوب الحكيم الجميل والمؤثّر الذي استخدمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبول هؤلاء بالحق وإذعانهم وتسليمهم له.

إنّ هذه المناظرة المربّية بإمكانها أن تكون لنا درساً بنّاءً في مناظراتنا وأساليب جدالنا ومناقشاتنا مع الآخرين(٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩. (٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.
(٣) يمكن ملاحظة نصّها الكامل في بحار الأنوار، ج ٩، ص ٢٥٧ فما بعد.

وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

التّفسير

دعاء حملة العرش للمؤمنين

يتضح من أُسلوب الآيات السابقة أنّها نزلت في فترة كان فيها المسلمون قلّة محرومة، بينما كان الأعداء في أوج قوّتهم، يتمتعون بالإمكانات الكبيرة ويسيطرون على السلطة.

بعد ذلك نزلت الآيات التي نحن بصددها لتكون بشرى للمؤمنين الحقيقيين والصابرين، بأنّكم لستم وحدكم، فلا تشعروا بالغربة أبداً، فحملة العرش الإلهي والمقرّبون منه، وكبار الملائكة معكم يؤيّدونكم، إنّهم في دعاء دائم لكم، ويطلبون لكم من الله النصر في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة... وهذا هو أفضل أُسلوب للتعاطف مع المؤمنين في ذاك اليوم، وهذا اليوم، وغداً.

فالقرآن يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أمّا قولهم ودعاؤهم فهو: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين ورحيم بهم ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

يوضّح هذا الكلام للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم الذين تعبدون الله وتسبحونه وتحمدونه، فقبلكم الملائكة المقرّبون وحملة العرش ومن يطوف حوله، يسبحون الخالق جلّ وعلا ويحمدونه.

وهي من جانب آخر تحذّر الكفّار وتقول لهم: إنّ إيمانكم أو عدمه ليس مهمّاً، فالله غني عن العباد لا يحتاج إلى إيمان أحد، وهناك الملائكة يسبحون بحمده ويحمدونه وهم من الكثرة بحيث لا يمكن تصوّرهم بالرغم من أنّه غير محتاج إلى حمد هؤلاء وتسبيحهم.

ومن جانب ثالث، في الآية إخبار للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم في هذا العالم -

بالرغم من أنّكم أقلية في محيطكم - فأعظم قوّة غيبية في العالم وحملة العرش هم معكم ويساندونكم ويدعون لكم، وهم في نفس الوقت يسألون الله أن يشملكم بعفوه ورحمته الواسعة، وأن يتجاوز عن ذنوبكم وينجيكم من عذاب الجحيم.

وفي هذه الآية تواجهنا مرّة أخرى كلمة ﴿ٱلْعَرْشَ﴾ حيث ورد كلام عن حملته والملائكة الذين يحيطون به، وبالرغم من أنّنا تحدّثنا عن هذا الموضوع في تفسير بعض السور، فإنّنا سنقف عليه مرّة أخرى في باب البحوث إن شاء الله(١).

في الآية التي تليها استمرار دعاء حملة العرش للمؤمنين، يقول تعالى:

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾.

وأيضاً: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾(٢).

لماذا؟ لـ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

هذه الآية التي تبدأ بكلمة ﴿رَبَّنَا﴾ التي يطلب حملة العرش والملائكة المقرّبون بها من خالقهم - بإصرار - أن يتلطّف بعباده المؤمنين، ويركّزون في هذا الطلب على مقام ربوبيته تعالى، وهؤلاء لا يريدون من خالقهم إنقاذ المؤمنين من عذاب القيامة وحسب، بل إدخالهم في جنات خالدة، ليس وحدهم وإنّما مع آبائهم وأزواجهم وأبنائهم السائرين على خطّهم في الاستقامة والإيمان... إنّهم يطلبون الدعم من عزّته وقدرته، أمّا الوعد الإلهي الذي أشارت إليه الآية فهو نفس الوعد الذي ورد مراراً على لسان الأنبياء لعامة الناس.

أمّا تقسيم المؤمنين إلى مجموعتين، فهو في الواقع يكشف عن حقيقة أنّ هناك مجموعة تأتي بالدرجة الأولى، وهي تحاول أن تتبع الأوامر الإلهيّة بشكل كامل.

أمّا المجموعة الأُخرى فهي ليست بدرجة المجموعة الأُولى ولا في مقامها، وإنّما بسبب انتسابها إلى المجموعة الأُولى ومحاولتها النسبية في اتباعها سيشملها دعاء الملائكة.

بعد ذلك تذكر الآية الفقرة الرّابعة من دعاء الملائكة للمؤمنين: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ﴾.

---

(١) كما في نهاية الآية (٥٤) من الأعراف، ونهاية الآية (٧) من هود، ونهاية الآية (٢٥٥) من البقرة.

(٢) جملة ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ معطوفة على الضمير في جملة ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾.

ثم ينتهي الدعاء بهذه الجملة ذات المعنى الكبير: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

هل هناك فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان، ويبتعد عنه العذاب لتشمله الرحمة الإلهيّة ويدخل الجنّة الخالدة، وثم يلتحق به أقرباؤه الذين يودّهم؟

بحوث

أوّلاً: الأدعية الأربعة لحملة العرش

قد يطرح هنا هذا السؤال: ما هو التفاوت الموجود بين الأدعية الأربعة؟ أليس بعضها مكرراً؟

عند التأمل والتدقيق يتبيّن أنّ كلّ واحد منها يشير إلى موضوع مختلف. ففي البداية تطلب الملائكة غسل المؤمنين وتطهيرهم من آثار الذنوب، وهذا الأمر إضافة لكونه مطلوباً بذاته، فهو يعتبر مقدمة للوصول إلى أيّ نعمة كبيرة. وإلاّ فهل هناك موهبة أعلى من أن يشعر الإنسان بأنّه أصبح طاهراً مطهراً، وأنّ خالقه جلّ وعلا راض عنه، وهو أيضاً راض عن خالقه الكريم؟

إنّ هذا الإحساس - بغض النظر عن قضية الجنّة والنّار - يعتبر أمراً عظيماً وفخراً كبيراً بالنسبة للعباد.

في مرحلة ثانية يطلب حملة العرش والملائكة إبعاد المؤمنين وإنقاذهم من عذاب جهنّم، وهذا الأمر بحدّ ذاته يعتبر من أهم وسائل تحقيق الراحة والرضا النفسيّين.

المرحلة الثّالثة تنطوي على دعاء الملائكة وحملة العرش للمؤمنين في طلب الجنّة لهم ولأقربائهم أيضاً، حيث يعتبر هؤلاء الأقرباء الصالحون عاملاً من عوامل الراحة والاستقرار النفسي.

وبسبب وجود (مؤذيات) أُخرى مهمّة في يوم القيامة غير نار جهنّم، كهول المطّلع والمحشر، والفضيحة أمام الخلائق، وطول الوقفة للحساب وأمثال ذلك، لذا طلبت الملائكة وحملة العرش في أدعيتهم الأُخرى أن يحفظ الله المؤمنين ويقيهم من أيّ سوء أو مكروه في ذلك اليوم، كي يدخلوا جنّة الخلد براحة بال واطمئنان واحترام كامل.

ثانياً: آداب الدعاء

في هذه الآيات يعلّم حملة العرش والملائكة المؤمنين أُسلوب الدعاء.

ففي البداية ينبغي الشروع بكلمة «ربّنا».

ثمّ مناداته تعالى بصفات الجلال والجمال، وطلب العون من مقام رحمته المطلقة وعلمه غير المتناهي: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

وأخيراً الدعاء وطلب الحاجة بحسب أهمّيتها وبشروط توفّر الأرضية للاستجابة: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾.

ثم ينتهي الدعاء بذكر صفاته تعالى الجمالية والجلالية، والتوسّل برحمته تعالى مرّة أُخرى.

والطّريف في الأمر أنّ حملة العرش الإلهي يعتمدون على خمسة أوصاف إلهيّة مهمّة في دعائهم وهي: الربوبية، والرحمة، والقدرة، والعلم، والحكمة.

ثالثاً: لماذا تبدأ الأدعية بكلمة ﴿رَبَّنَا﴾؟

عند قراءة آيات القرآن الكريم نرى أنّ أولياء الله - سواء منهم الأنبياء أو الملائكة أو الصالحون - كانوا يبدأون كلامهم بـ«ربّنا» أو «ربّي» عند الدعاء. . .

فآدم عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾[1].

ونوح عليه السلام يقول: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾[2].

و إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[3].

أمّا يوسف عليه السلام فيقول: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾[4].

وموسى الكليم عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[5].

أمّا سليمان عليه السلام فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾[6].

أمّا عيسى المسيح عليه السلام فيقول: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾[7].

والرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله يقول: ﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[8].

وعلى لسان المؤمنين نقرأ في أماكن متعدّدة كلمة «ربّنا» في فاتحة الدعاء، ففي آخر سورة «آل عمران» نرى دعائهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾.

من خلال هذه النماذج والمواقف نستنتج أنّ أفضل الدعاء هو ما يبدأ بالربوبية.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠١.
(٥) سورة القصص، الآية: ١٧.
(٦) سورة ص، الآية: ٣٥.
(٧) سورة المائدة، الآية: ١١٤.
(٨) سورة المؤمنون، الآية: ٩٧.

صحيح أنّ الاسم المبارك «الله» هو أكثر شمولية لأسماء الخالق، ولكن لارتباط الحاجات بمقام الرّبوبية، هذا المقام الذي يرتبط به الإنسان منذ اللحظة الأُولى من وجوده وحتى آخر عمره، وتستمر بعد ذلك صفة الارتباط بـ«الربوبية» التي تغرق الإنسان بالألطاف الإلهيّة، لذا فإنّ ذكر هذه الكلمة في بداية الأدعية يعتبر أكثر تناسباً من باقي الأسماء الأُخرى[١].

رابعاً: ما هو العرش الإلهي؟

لقد أشرنا مراراً إلى أنّ ألفاظنا - الموضوعة أصلاً لتوضيح مشخصات الحياة المحدودة - لا تستطيع أن توضّح عظمة الخالق، أو حتى أن تحيط بعظمة مخلوقاته جلّ وعلا، لهذا السبب فليس أمامنا سوى استخدام ألفاظ ومعانٍ للكناية عن تلك العظمة.

وفي طليعة الألفاظ التي يشملها هذا الوضع، كلمة ﴿ٱلْعَرْشَ﴾ التي تعني لغوياً (السقف) أو (السرير ذا المسند المرتفع) في قبال (الكرسي) الذي هو (سرير ذو مسند منخفض). ثمّ استخدمت هذه الكلمة لتشمل (عرش) القدرة الإلهيّة.

وللمفسّرين وعلماء الكلام كلام كثير حول المقصود بالعرش، وما ينطوي عليه من معنى كنائي.

فأحياناً فسّروا العرش بمعنى (العلم اللامتناهي لله تبارك وتعالى).

وأُخرى قالوا بأنّ المعنى هو (المالكية والحاكمية الإلهيّة).

وفسّروا العرش أيضاً بأنّه إشارة إلى أيّ واحدة من الصفات الكمالية والجلالية لله تبارك وتعالى، لأنّ كلّ واحدة من هذه الصفات توضّح عظمة منزلته جلّ وعلا، كما أنّ عرش السلطان (والأمثال تضرب ولا تقاس) يوضّح عظمته.

فالخالق جلّ وعلا يملك عرش العلم، وعرش القدرة، وعرش الرحمانية، وعرش الرحيمية.

وطبقاً للتفاسير والآراء الثلاثة هذه، فإنّ مفهوم ﴿ٱلْعَرْشَ﴾ يعود إلى صفات الخالق جل وعلا، ولا يعني وجود خارجي آخر له.

وفي بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ما يشير إلى هذا المعنى، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه أجاب عندما سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿وَسِعَ

---

(١) التّفسير الكبير، الفخر الرازي في ذيل الآية مورد البحث.

﴿كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(١) أنّ المقصود بذلك علمه تعالى شأنه(٢).

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه فسّر ﴿ٱلْعَرْشَ﴾ بأنّه «العلم» الذي كشفه وعلّمه الله للأنبياء عليهم السلام، بينما (الكرسي) هو «العلم» الذي لم يعلّمه لأحد ولم يطلع عليه أحد(٣).

وبين أيدينا تفاسير أُخرى استندت إلى روايات إسلامية، ففسّرت العرش والكرسي بأنّهما موجودات عظيمة من مخلوقات الله تبارك وتعالى.

قالوا - مثلاً - إنّ المقصود بالعرش هو مجموع عالم الوجود.

وقالوا أيضاً: هو مجموع الأرض والسماء المتجسدة ضمن هذا الكرسي؛ بل إنّ السماء والأرض كالخاتم في الصحراء الواسعة مقايسة بينهما وبين (الكرسي) ثم قالوا: إنّ «الكرسي» في مقابل العرش كالخاتم في الصحراء الواسعة.

وفي تفاسير أُخرى تستند بدورها إلى روايات إسلامية، أطلقوا كلمة ﴿ٱلْعَرْشَ﴾ للكناية عن قلوب الأنبياء والأوصياء والمؤمنين التامين الكاملين، كما جاء ذلك في الحديث: «إنّ قلب المؤمن عرش الرحمن»(٤).

وفي حديث قدسي نقرأ قوله تعالى: «لم يسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلب عبدي المؤمن»(٥).

أمّا أفضل الطرق لإدراك معنى العرش - بمقدار ما تسمح به قابلية الإنسان واستيعابه - فهو أن نبحث موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم، نتفحص مدلولاتها بشكل متأن.

في آيات كثيرة من كتاب الله نلتقي مع هذا التعبير، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(٦). ثمّ يرد تعبير ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في بعض الآيات التي تأتي بعد مفاد الآية أعلاه (آية العرش) أو ترد جمل أُخرى تعبّر عن علم الله ودراية الخالق جلّ وعلا.

في آية أُخرى من القرآن الكريم يوصف العرش بالعظمة: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥. (٢-٣) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٢٨، ح رقم ٤٦، ٤٧.
(٤-٥) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٣٩.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٤، ويونس، ٣، والرعد، ٢، والفرقان، ٥٩، والسجدة، ٤، والحديد، ٤.
(٧) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

وأحياناً تتحدّث الآية عن حملة العرش، كما في الآية التي نحن بصددها.

ومن الآيات ما تتحدّث عن الملائكة المحيطة بالعرش، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾(١).

وفي آية أُخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾(٢).

من خلال مجموع هذه الموارد، والتعابير الأُخرى الواردة في الأحاديث والروايات الإسلامية، نستنتج بشكل واضح أنّ كلمة ﴿ٱلْعَرْشَ﴾ تطلق على معانٍ مختلفة بالرغم من أنّها تشترك في أساس واحد.

فأحد معاني العرش هو مقام (الحكومة والمالكية وخلق عالم الوجود) إذ تلاحظ أنّ الاستخدام الشائع للعرش يدلل - من خلال الكناية - على سيطرة الحاكم على أُمور دولته، فنقول مثلاً: «فلان شلّ عرشه» والتعبير كناية عن انهيار قدرته وحكومته.

والمعنى الآخر من معاني العرش هو، «مجموع عالم الوجود» لأنّ كلّ الوجود هو دليل على العظمة.

وأحياناً يستخدم العرش بمعنى «العالم الأعلى» والكرسي بمعنى «العالم الأدنى».

ويستخدم العرش أحياناً بمعنى (عالم ما وراء الطبيعة) والكرسي بمعنى (مجموع عالم المادة) بما في ذلك الأرض والسماء، كما جاء في آية الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(٣).

ولأنّ علم الخالق لا ينفصل عن ذاته المنزّهة، لذا فإنّ كلمة (عرش) تطلق أحياناً على «علم الله».

وإذا أطلق وصف (عرش الرحمن) على القلوب الطاهرة لعباد الله المؤمنين، فذلك يعود إلى أنّ هذا المكان هو محل معرفة الذات الإلهيّة المنزّهة، وهو بحدّ ذاته أحد أدلة عظمته وقدرته جلّ وعلا.

من كلّ ذلك يتّضح أنّ كافة معاني العرش - التي وردت آنفاً - توضّح عظمة الخالق جلّ وعلا.

وفي الآية التي نحن بصدد بحثها يمكن أن يكون المقصود من العرش هو نفس

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٥.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

حكومة الله تعالى وتدبيره لعالم الوجود، وحملة العرش يقومون بتنفيذ إرادة الله الحاكمة في الخلق.

ويمكن أن يكون المعنى هو مجموع عالم الوجود أو عالم ما وراء الطبيعة، أمّا حملة العرش الإلهي فهم الملائكة الذين تقع عليهم مسؤولية تدبير أمر هذا العالم بأمر الله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

التّفسير

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟

تحدّثت الآيات السابقة عن شمول الرحمة الإلهيّة للمؤمنين، أمّا مجموعة الآيات التي بين أيدينا فهي تتحدّث عن «غضب» الله تعالى على الكافرين، كي يكون بالمستطاع المقارنة بين صورتين ومشهدين متقابلين.

في البداية تقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

من الذي ينادي هؤلاء بهذا النداء؟

يبدو أنّ ملائكة العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم وفضحهم، في مقابل ما تفعله ملائكة الرحمة من إكرام المؤمنين والصالحين.

ويحتمل أن يكون هذا النداء من نوع التخاطب والتخاصم الذي يقوم بين الكفار في القيامة، لكن المعنى الأوّل أرجح كما يبدو، وعلى كلّ حال سينطلق هذا النداء يوم القيامة، كما أنّ الآيات اللاحقة شاهدة على هذا المعنى.

«المقت» تعني في اللغة البغض والعداوة الشديدة. وهذه الآية تبيّن أنّ غضب الله تعالى على الكافرين هو أشدّ من عداوتهم لأنفسهم. أمّا فيما يتعلّق بمقت الكفار لأنفسهم، فهناك تفسيران:

الأوّل: يتمثل في ارتكاب هؤلاء في الحياة الدنيا لأكبر عداوة إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد، فهم لم يهملوا مصابيح الهداية وحسب، بل عمدوا إلى تحطيمها. فهل ثمّة عداء للنفس أكثر من أن يغلق الإنسان أمامه أبواب السعادة الأبدية، ويفتح على نفسه أبواب العذاب.

وطبقاً لهذا التّفسير يكون قوله تعالى: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ بياناً لكيفية مقت وعداوة الكافرين أنفسهم.

الثّاني: أن يكون المقصود بمقتهم وعدائهم لأنفسهم هو أن تصيبهم حالة من الألم والندم الشديد عندما يشاهدون يوم القيامة نتيجة أعمالهم وما اقترفت أيديهم في هذه الدنيا، حيث ترتفع آهاتهم وصرخاتهم، ويعضّون على أناملهم من الندم، ولات ساعة مندم، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾(١). ويتمنون أن يكونوا تراباً: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾(٢).

وفي ذلك اليوم تنفتح آفاق البصر: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٣) وتنكشف الأسرار والحقائق الخفية: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾(٤). وفي ذلك اليوم تنشر الصحف وتكشف الأعمال: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾(٥). وعندها تكون النتيجة: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٦). لذلك سيلوم هؤلاء أنفسهم بشدّة ويتنفرون منها ويبكون على مصيرهم.

وهنا يأتي النداء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

وطبقاً لهذا التّفسير تكون جملة: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ بياناً لدليل شدّة الغضب الإلهي عليهم(٧).

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٧.
(٢) سورة النبأ، الآية: ٤٠.
(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الطارق، الآية: ٩.
(٥) سورة التكوير، الآية: ١٠.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ١٤.
(٧) طبقاً للتفسير الأوّل تكون (إذ) ظرفية ومتعلّقة بـ«مقتكم أنفسكم» أمّا طبق التّفسير الثّاني فتعتبر (إذ) تعليلية ومتعلّقة بـ«مقت الله» والجدير بالملاحظة أنّ المقتين الواردين في الآية أعلاه يرتبطان بأربعة احتمالات هي:
الأوّل: أن يكون مكان الاثنين في يوم القيامة.
الثّاني: أن يكون مكانهما في هذه الدنيا.
الثّالث: أن يكون المقت الأوّل في الدنيا والثّاني في الآخرة. =

بالطبع فإنّ كلا التّفسيرين مناسب، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل - بلحاظ بعض الأمور - أرجح.

عندما يشاهد المجرمون أوضاع يوم القيامة وأهوالها، ويرون مشاهد الغضب الإلهي حيالهم، سينتبهون من غفلتهم الطويلة ويفكّرون بطريق للخلاص، فيعترفون بذنوبهم ويقولون: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

عندما تزول حجب الغرور والغفلة، وينظر الإنسان بالعين الحقيقية، فلا سبيل عندها سوى الاعتراف بالذنوب!

إنّ هؤلاء كانوا يصرّون على إنكار المعاد، ويستهزئون بوعيد الأنبياء لهم، ولكن بعد توالي الموت والحياة لا يبقى مجال للإنكار، وقد يكون سبب تكرارهم للموت والحياة، أنّهم يريدون القول: يا خالقنا الذي تملك الموت والحياة، أنت قادر على أن تعيدنا إلى الدنيا مرّةً أُخرى كي نعوّض ما مضى.

ذكر المفسرون عدّة تفاسير حول المقصود من قوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ و﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ ومن بين هذه التفاسير هناك ثلاثة آراء نقف عليها فيما يلي:

أوّلاً: أن يكون المقصود من ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ هو الموت في نهاية العمر، والموت في نهاية البرزخ. أمّا المقصود من ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ فهي الإحياء في نهاية البرزخ والإحياء في القيامة.

ولتوضيح ذلك، نرى أنّ للإنسان حياة أُخرى بعد الموت تسمى الحياة البرزخية، وهذه الحياة هي نفس حياة الشهداء التي يحكي عنها قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1]، وهي نفس حياة النّبي ﷺ والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، حيث يسمعون سلامنا ويردون عليه.

وهي أيضاً نفس حياة الطغاة والأشقياء كالفراعنة الذين يعاقبون صباحاً ومساءً بمقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[2].

ومن جانب آخر نعرف أنّ الجميع، من الملائكة والبشر والأرواح، ستموت في نهاية

= أمّا الرابع: فهو عكس الثّالث.

ولكن الأفضل وفقاً للتفسير أعلاه أن يختص الأوّل بالآخرة. والثّاني بالدنيا، أو أن يختص الاثنان بالآخرة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩. (٢) سورة غافر، الآية: ٤٦.

هذا العالم مع أوّل نفخة من الصور: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١). ولا يبقى أحد سوى الذات الإلهيّة (بالطبع على خلاف ما أوضحناه في نهاية الآية (٨٦) من سورة الزمر بين موت وحياة الملائكة والأرواح، وبين موت وحياة الإنسان).

وعلى هذا الأساس فإنّ هناك حياة جسمانية وحياة برزخية، ففي نهاية العمر يحل الموت بحياتنا الجسمانية؛ لكن في نهاية العالم يحل بحياتنا البرزخية.

يترتب على ذلك أن تكون هناك حياتان بعد هاتين الموتتين: حياة برزخية، وحياة في يوم القيامة.

وهنا قد يطرح البعض هذا السؤال: إنّنا في الواقع نملك حياة ثالثة هي حياتنا في هذه الدنيا، وهي غير هاتين الحياتين، وقبلها أيضاً كنّا في موت قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا، وبهذا سيكون لدينا ثلاثة موتات وثلاثة إحياءات.

ولكن الجواب يتوضّح عند التدقيق في نفس الآية، فالموت قبل الحياة الدنيا (أي في الحالة التي كنّا فيها تراباً) يعتبر «موتاً» لا «إماتة» وأمّا الحياة في هذه الدنيا فالبرغم من أنّها مصداق للإحياء، إلاّ أنّ القرآن لم يشر إلى هذا الجانب في الآية أعلاه، لأنّ هذا الإحياء لا يشكّل عبرة كافية بالنسبة للكافرين، إذ الشيء الذي جعلهم يعون ويعترفون بذنوبهم هو الحياة البرزخية أوّلاً، والحياة عند البعث ثانياً.

ثانياً: إنّ المقصود بالحياتين، هو الإحياء في القبر لأجل بعض الأسئلة، والإحياء في يوم القيامة، وإنّ المقصود بالموتتين، هما الموتة في نهاية العمر، والموتة في القبر.

لذلك اعتبر بعض المفسّرين هذه الآية دليلاً على الحياة المؤقتة في القبر.

أمّا عن كيفية حياة القبر، وفيما إذا كانت جسمانية أو برزخية أو نصف جسمانية، فهذه كلّها بحوث ليس هنا مجال الخوض فيها.

ثالثاً: إنّ المقصود بالموتة الأُولى، هو الموت قبل وجود الإنسان في هذه الدنيا، إذ إنّه كان تراباً في السابق، لذا فإنّ الحياة الأُولى هي الحياة في هذه الدنيا، والموت الثّاني هو الموت في نهاية هذا العالم، فيما الحياة الثانية هي الحياة عند البعث.

والذين يعتقدون بهذا التّفسير يستدلون بالآية (٢٨) من سورة «البقرة» حيث قوله

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

إلاّ أنّ الآية التي نبحثها تتحدّث عن إماتتين، في حين أنّ آية سورة البقرة تتحدّث عن حياة واحدة وإماتة واحدة[١].

يتّضح من مجموع التفاسير الثّلاثة هذه أنّ التّفسير الأوّل هو الأرجح.

ولا بأس أن نشير إلى أنّ بعض مؤيدي «التناسخ» أرادوا الاستدلال بهذه الآية على الحياة والموت المكرّر للإنسان، وعودة الروح إلى الأجساد الجديدة في هذه الدنيا، في حين أنّ الآية أعلاه تعتبر إحدى الأدلة الحيّة على نفي التناسخ، لأنّها تحدّد الموت والحياة في مرّتين، إلاّ أنّ أنصار عقيدة «التناسخ» يقولون بالموت والحياة المتعدّد والمتوالي، ويعتقدون بأنّ روح الإنسان الواحد يمكن أن تتجسّد وتحل مرّات أُخرى في أجساد جديدة، ونطف جديدة وترجع إلى هذه الدنيا.

من الطبيعي أن يكون الجواب على طلب الكافرين بالعودة إلى هذه الدنيا للتكفير عمّا فاتهم هو الرفض. وهذا الرفض من الوضوح بحيث لم تشر إليه الآيات التي نبحثها.

لكن نستطيع أن نعتبر الآية التي بعدها دليلاً على ما نقول، إذ تقول: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾.

فعندما يدور الكلام عن التوحيد والتقوى والأوامر الحقّة تشمئزون وتحزنون، أمّا إذا دار الحديث عن الكفر والنفاق والشرك فستفرحون وتنبسط أساريركم، لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

وهنا نطرح هذا السؤال: كيف نربط هذا الجواب مع طلبهم العودة إلى هذه الدنيا؟

إنّ الآية تفيد أنّ حقيقة أعمال هؤلاء لم تكن محدودة بزمن معيّن، ولم تكن مؤقتة، بل كانت دائمية، لذلك فلو عادوا إلى الحياة مرّة أُخرى فإنّهم سيستمرون على هذا الوضع، أمّا هذا الإيمان والتسليم والإذعان الذي رأيناه منهم يوم القيامة، فهو اضطراري وليس عن قناعة حقيقية.

ثمّ إنّ اعتقادات هؤلاء وأعمالهم ونيّاتهم السابقة تستوجب خلودهم في الجحيم، لذا فلا يمكن عودة هؤلاء إلى الدنيا مع هذا الوضع.

---

(١) احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية أعلاه تشير إلى «الرجعة» إلاّ أنّ مراعاة عمومية الآية وشمولها جميع الكافرين، وعدم ثبوت عمومية الرجعة لهم جميعاً، يجعل هذا التّفسير قابلاً للنقاش.

وهذا الوضع يختص بالأفراد الذين تجذّر الكفر والشر والذنب في أعماقهم، وهؤلاء هم الذين يصفهم القرآن بأنّ نفوسهم تشمئز عند ذكر الله تعالى وحده، ويفرحون عند ذكر الأصنام: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(١).

إنّ هذا الوصف لا يختص بالمشركين في زمن رسول الله ﷺ فحسب، إذ يشهد زماننا مثل هؤلاء من ذوي القلوب الميتة، الذين يفرّون من الإيمان والتوحيد والتقوى، ويُقبلون على الكفر والنفاق والفساد.

لذلك نقرأ في بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام، في تفسير هذه الآية، أنّها تختص بقضية (الولاية) إذ يتأذّى البعض عند سماعها (أي الولاية) ويفرحون عند سماع أسماء أعداء أهل البيت عليهم السلام. هذا التّفسير هو من باب انطباق المفهوم، العام على المصداق، وليس من باب تقييد كلّ المفهوم الذي تطويه الآية بهذا المصداق.

وفي نهاية الآية، ومن أجل أن لا ييأس هؤلاء المشركون ذوو القلوب المظلمة، تقول الآية إنّ الحاكمية تختص بذات الله سبحانه وتعالى: (فالحكم لله العلي الكبير) إذ لا يوجد غيره قاض وحاكم في محكمة الآخرة، ولا يوجد غيره علي وكبير، فلا يستطيع أحد أن يغلبه أو أن يؤثّر عليه أو على حكمه بفدية أو غرامة أو وساطة، فالحاكم المطلق هو، والجميع يطيعونه، ولا يوجد طريق للهروب من حكمه.

ملاحظة

الدعاء البعيد عن الإجابة!

ليست هذه المرّة الأُولى التي تواجهنا فيها طلبات أهل النّار أو الكفّار الذين يريدون العودة إلى هذه الدنيا، فيكون الجواب بالنفي.

لقد طرحت الآيات القرآنية هذا الموضوع عدّة مرّات.

ففي سورة الشورى الآية (٤٤) نقرأ أنّ الظالمين بعد أن يروا العذاب يقولون: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

وفي الآية (٥٨) من سورة الزمر، ورد على لسان المذنبين وغير المؤمنين عند رؤيتهم العذاب: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٥.

وفي الآية: (١٠٧) من سورة «المؤمنون» نقرأ قوله تعالى حكاية على لسان أمثال هؤلاء القوم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾.

مجموعة أُخرى عندما يحل بها الموت وترى ملائكة الموت تطلب من الله تعالى العودة فتقول: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴿١٠٠﴾﴾[1].

إلاّ أنّ هذِهِ الطلبات تردع دوماً بكلمة «كلاّ» أو ما شابه ذلك.

وبذلك يتضح أنّ المفهوم القرآني يؤكّد على أنّ الحياة في هذه الدنيا هي تجربة لا يمكن تكرارها بالنسبة للشخص، لذا يجب إبعاد هذا الوهم من العقول بأنّنا إذا متنا وواجهنا العذاب فسوف نعود إلى هذه الدنيا ونجبر ما فات حيث لا إمكان للعودة إلى هذه الحياة بعد الموت.

وملاك هذا الأمر واضح، ففي قانون التكامل لا يمكن الرجوع والعودة، كما لا يمكن عودة الطفل إلى بطن أُمّه وفقاً لهذا القانون، سواء كان هذا الطفل قد اكتمل نموّه في بطن أُمّه أو لم يكتمل وولد ناقصاً، إذ العودة غير ممكنة أصلاً.

كذلك الموت الذي هو في الواقع ولادة ثانية، وانتقال من عالم الدنيا هذه إلى عالم آخر، وهناك تعتبر العودة ضرباً من المحال.

إضافة إلى ذلك لا يمكن اعتبار اليقظة الاضطرارية التي تنتاب الناس - الذين تتحدّث عنهم الآية - دليلاً على الاقتناع أو اليقظة الحقيقية، إذ عندما تخف أسبابها سيعود النسيان والغفلة مرّةً أُخرى، وسيتم تكرار نفس الأعمال، كما نرى ذلك واضحاً في هذه الدنيا لدى الكثير من الناس الذين يتوجّهون إلى خالقهم عندما تضيق عليهم الحياة، ويلجون أبواب التوبة، إلاّ أنّهم بمجرّد هدوء العواصف ينسون كل شيء وكأنّهم لم يدعوا الله إلى ضرّ مسّهم!!

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩ - ١٠٠.

التّفسير

ادع الله وحده رغماً على الكافرين

هذه الآيات المتضمّنة للنصيحة والتهديد والإنذار، استدلال على المسائل المطروحة في الآيات السابقة، فهي استدلال على التوحيد والرّبوبية ونفي الشرك وعبادة الأصنام.

تقول الآية أوّلاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

فهي نفس الآيات والعلائم الآفاقية والأنفسية التي تملأ عالم الوجود، وتستوعب بإشراقتها أركانه، وتضع بصماتها وآثارها العجيبة على جدران الوجود وجميع أرجائه.

ثم توضّح واحدة من هذه الآيات: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾.

قطرات المطر تهب الحياة، ونور الشمس يحيي الكائنات، والهواء سرّ الوجود والحياة؛ حياة جميع الكائنات، حيوانات، نباتات، أُناس... كلّها تنزل من السماء، وتشكّل هذه الأثافي الثلاث فيما بينها قوام الحياة، حيث تتفرع الأشياء الأُخرى من أصولها.

بعض المفسّرين أطلق على السماء اسم «عالم الغيب» وعلى الأرض اسم «عالم الشهود» ونزول الرزق من السماء إلى الأرض هو بمعنى الظهور من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

ولكن هذا التّفسير فضلاً عن منافاته لظاهر الآية، لم نعثر له على دليل وشاهد، صحيح أنّ الوحي والآيات، وهما غذاء الروح، ينزلان من سماء الغيب، وأنّ المطر والشمس والنور التي تعتبر غذاء الجسد تنزل من السماء الظاهرية، وهما متناسقان مع بعضهما، ولكن ينبغي أن لا نتصوّر أنّ عبارة: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ التي نحن بصددهاتشير إلى مفهوم أوسع، أو تشير بالخصوص إلى الآيات التشريعية، لأنّ عبارة: ﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وردت مراراً في القرآن الكريم، وهي عادةً ما تطلق على الآيات الدالة على التوحيد في عالم الوجود.

مثلاً، في أواخر هذه السورة (المؤمن) وبعد ذكر النعم الإلهيّة، من قبيل الزواحف والفلك تقول: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾(١).

---

(١) سورة المؤمن، الآية: ٨١.

إنّ تعبير ﴿يُرِيكُمْ﴾ ينسجم في العادة مع الآيات التكوينية، بينما جرت العادة في الآيات التشريعية على استخدام تعابير مثل ﴿أَوْحَىٰ﴾ و﴿يَأْتِيَكُمْ﴾.

من هنا يتبيّن أنّ اعتبار هذه الآيات بمعنى الآيات التشريعية، أو أنّها أعم من التشريعية والتكوينية، كما يذهب بعض كبار المفسّرين القدماء والمحدثين إلى ذلك، لا يستند إلى دليل، ولا تقوم عليه حجّة.

ولكن من الضروري أن نلتفت إلى أنّ القرآن يختار الإشارة إلى آية الرزق من بين آيات الله المبثوثة في السماء والأرض وفي وجود الإنسان، ذلك لأنّ الرزق هو أكثر ما يشغل البال والفكر، وأحياناً نرى الإنسان يستنجد بالأصنام من أجل زيادة الرزق، وإنقاذه من وضعه المتردّي، لذا يأتي القرآن ليؤكّد أنّ جميع الأرزاق هي بيد الله ولا تستطيع الأصنام أو غيرها أن تفعل أيّ شيء.

وأخيراً تضيف الآية الكريمة: برغم جميع هذه الآيات البينات التي تسود هذا العالم الواسع، وتغمر الوجود بضيائها، إلاّ أنّ العيون العمياء والقلوب المحجوبة لا تكاد ترى شيئاً، وإنّما يتذكّر - فقط - من ينيب إلى خالقه ويغسل قلبه وروحه من الذنوب: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

الآية التي بعدها ترتب نتيجة على ما سبق فتقول: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ انهضوا واضربوا الأصنام وحطموها بفؤوس الإيمان، وامحوا آثارها من ذاكرة الفكر والثقافة والمجتمع.

ومن الطبيعي أنّ وقفتكم الرّبانية هذه ستؤذي الكافرين والمعاندين، لكن عليكم أن لا تسمحوا للخوف أن يتسرّب إلى قلوبكم، وأخلصوا نيّاتكم: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

ففي المجتمع الذي يشكّل فيه عبدة الأصنام الغالبية، يكون طريق أهل التوحيد موحشاً في بادىء الأمر، مثل شروق الشمس في لحظات الصباح الأُولى وسط عالم الظلام والخفافيش، لكن عليكم أن لا تركنوا إلى ردود الأفعال غير المدروسة، تقدّموا بحزم وإصرار، وارفعوا راية التوحيد والإخلاص، وانشروها في كلّ مكان.

تصف الآية التي تليها خالق الكون ومالك الحياة والموت، وبعض الصفات المهمّة، فتقول: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ فهو تعالى يرفع درجات العباد الصالحين كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(١).

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

وحتى بين النّبيين فقد فضّل الله بعضهم على بعض بسبب اجتيازهم للامتحان والاختبار أكثر من غيرهم، فأخلصوا لله تعالى بمراتب أعلى وأفضل: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(١).

لقد استخلف الله الإنسان في هذه الأرض، وجعل منه خليفته، وفضّل البعض على البعض الآخر وفقاً لاختلاف الخصائص والقابليات لدى الإنسان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾(٢).

فإذا كانت الآية السابقة قد دعت إلى الإخلاص في الدين، فإنّ الآية التي بين أيدينا تقول: إنّ الله تبارك وتعالى سوف يرفع درجاتكم بمقدار إخلاصكم، فهو رفيع الدرجات.

إنّ صحة كلّ هذه المعاني منوطة بتفسير ﴿رَفِيعُ﴾ بالرافع، إلاّ أنّ البعض ذهب إلى أنّ ﴿رَفِيعُ﴾ في الآية بمعنى (المرتفع) وبناء على هذا المعنى فإنّ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ تشير إلى الصفات العالية الرفيعة لله تعالى، فهو رفيع في علمه، وفي قدرته، وفي جميع أوصافه الكمالية والجمالية، هو تعالى رفيع في أوصافه بحيث إنّ عقل الإنسان برغم قابليته واستعداده لا يستطيع أن يدركها.

وبحكم أنّ اللغة تعطي صلاحية متساوية للمعنيين الآنفين لكلمة ﴿رَفِيعُ﴾ فإنّ التّفسيرين واردان، ولكن بما أنّ الآية تتحدّث عن إعطاء الأجر لعباد الله الصالحين، والذي هو الدرجات الرفيعة، لذا فإنّ المعنى الأوّل أظهر.

لكن لا مانع من الجمع بين التّفسيرين، لأنّنا نعتقد جواز استخدام اللفظ لأكثر من معنى، خصوصاً في إطار الآيات التي تشتمل ألفاظها على معانٍ كبيرة وواسعة.

تضيف الآية بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

فكل عالم الوجود تحت حكومته وفي قبضته، ولا منازع له في حكومته، وهذا بحدّ ذاته دليل على أنّ تحديد درجات العباد حسب أفضليتهم إنّما يتمّ بقدرته تعالى.

وبما إنّنا تحدّثنا بالتفصيل عن «العرش» فلا حاجة هنا للتكرار.

وفي وصف ثالث تضيف الآية أنّه هو تعالى الذي: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهذه الروح هي نفس القرآن ومقام النبوّة والوحي، حيث تحيي هذه الأُمور القلوب، وتكون في الانسان كالروح لجسد الإنسان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

إنّ قدرته من جانب، ودرجاته الرفيعة من جانب آخر، تقتضي أن يعلن عَزَّوَجَلَّ عن برنامجه وتكاليفه عن طريق الوحي، وهل ثمّة تعبير أجمل من الروح، هذه الروح التي هي سرّ الحياة والحركة والنشاط والتقدّم.

لقد ذكر المفسّرون احتمالات متعدّدة لمعنى الروح، لكن من خلال القرائن الموجودة في الآية، وممّا تفيده الآية (٢) من سورة «النحل» التي تقول: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ وكذلك ممّا تفيده الآية (٥٢) من سورة «الشورى» التي تخاطب الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتوضّح له نزول القرآن والإيمان والروح بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ من كلّ ذلك يتبيّن أنّ المقصود بالروح في الآية التي نحن بصددها، هو الوحي والقرآن والتكليف الإلهي.

تفيد عبارة: ﴿مِنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ أنّ ملك الوحي المكلّف بإبلاغ هذه الروح، إنّما يتحدّث ويتكلّم بأمر الله لا من عند نفسه.

أمّا قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فلا تعني أنّ هبة الوحي تعطى لأيّ كان، لأنّ مشيئته تعالى هي عين حكمته، وكل من يجده مؤهّلا لهذا المنصب يخصّه بهذا الأمر، كما نقرأ في الآية: (١٢٤) من سورة الأنعام حيث قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وعندما نجد بعض الرّوايات المروية عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تفسّر الروح في الآية أعلاه بـ«روح القدس» وتخصّها بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والأئمّة المعصومين من أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فإنّ ذلك لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّ «روح القدس» هي نفس الروح العلوية المقدّسة والمنصب المعنوي العظيم الذي يتجسّد كاملاً في الأنبياء والأئمّة المعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكثيراً ما يتجلّى جزء منها في الأشخاص الآخرين الذي متى ما ساعدتهم فيوضات روح القدس فإنّه سيقومون بأعمال مهمّة، وتنطق لسانهم بالحكمة. (لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة تفسير الآية ٨٧ من سورة البقرة).

والملفت للنظر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن رزق الأجساد من مطر ونور وهواء، فيما تتحدّث هذه الآيات عن الرزق «الروحي» والمعنوي المتمثل في نزول الوحي.

والآن لنر ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولماذا يسلك الأنبياء هذه الطرق الطويلة المليئة بالعقبات والصعاب؟.

الإجابة يقدّمها القرآن في نهاية الآية بقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

إنّه اليوم الذي يلتقي فيه العباد بخالقهم...

إنّه اليوم الذي يلتقي فيه السابقون باللاحقين...

إنّه اليوم الذي يجمع على ساحة القيامة بين رموز الحق وقادته، ورموز الباطل وزعامته وأنصاره...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين...

إنّه يوم التقاء الظالم والمظلوم...

هو يوم التقاء الإنسان والملائكة...

وأخيراً، يوم التلاق، هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله وأقواله في محكمة العدل الإلهي.

إذاً، هدف بعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية هو تحذير الإنسان من يوم التلاقي الكبير... إنّه لاسم عجيب ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ الذي انتخبته الآية اسماً ليوم القيامة!

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧)﴾

التّفسير

يوم التلاقي!

هذه الآيات والتي تليها، هي توضيح وتفسير (ليوم التلاق) وهو اسم ليوم القيامة.

في هاتين الآيتين تمّ ذكر بعض خصوصيات القيامة وكلّ واحدة أكثر إثارة من الأُخرى.

يبيّن تعالى أنّ يوم التلاقي، هو: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ ... إنّه اليوم الذي تزول فيه جميع الحجب والأستار، وكتوطئة له ستزول الموانع المادية كالجبال الراسيات مثلاً، وتصبح الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ كما يصفها القرآن في الآية (١٠٦) من سورة «طه».

ومن جانب آخر سيخرج الناس من قبورهم، ثمّ تنكشف الأسرار الباطنية والمخفية: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾(١).

ويوم تخرج الأرض ما تطويه في بطونها: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٢).

ويوم تنشر صحف الأعمال وينكشف محتواها: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾(٣).

في يوم التلاق تتجسّد الأعمال التي اقترفها الإنسان وتبدو حاضرة أمامه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾(٤).

وفي ذلك اليوم تنكشف الأسرار التي كان يطويها الإنسان بداخله ويتكتم عليها: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾(٥).

وفي ذلك اليوم المهول ستشهد الأعضاء على أعمال الإنسان، وستشهد - أيضاً - الأرض وتكشف ما ارتكب عليها: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾(٦).

في ذلك اليوم سيطوى الكون، وسيظهر الإنسان بكل وجوده، ويبرز الكون وما عليه، ولا تبقى من خافية: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٧).

إنّهُ منظر مهول ومشهد موحش!!

وَيكفينا لتصور هول ذلك اليوم أن نتخيّل... وَلو للحظة واحدة... منظر هَذِهِ الدنيا وقد حلّت بها شرائط القيامة! لنرى أيّ فزع سينتاب البشرية وتحل بها؟ وكيف تتقطع العلائق والروابط في ذلك اليوم؟! لذلك على الإنسان أن يستعد، وأن يعيش بشكل لا يخشى فيه انكشاف المستور من أوضاعه، وأن تكون أعماله وأفعاله بحيث لا يقلق منها لو ظهرت وانكشفت أمام الملأ.

الوصف الثّاني لذلك اليوم المهول، هوانكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى شيء منها على الله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾.

بالطبع... في هذه الحياة لا يخفى من أمر الإنسان شيء على الله العالم المطلق، إذ يتساوى لدى ذاته المطلقة غير المتناهية، المخفي والظاهر، والشاهد والغائب. فلماذا - إذاً - ذكر القرآن الجملة أعلاه على أنّها تفسير لجملة ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾؟

---

(١) سورة الطارق، الآية: ٩.
(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٢.
(٣) سورة التكوير، الآية: ١٠.
(٤) سورة النبأ، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.
(٦) سورة الزلزلة، الآية: ٤.
(٧) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

إنّ سبب ذلك يعود إلى أنّ «البروز» في ذلك اليوم يكون مؤكّداً أكثر، بحيث إنّ الآخرين سيطّلعون على أسرار بعضهم البعض. أمّا بالنسبة لله فالمسألة لا تحتاج إلى بحث أو كلام.

الخصوصية الثّالثة ليوم التلاقي هو انبساط الحاكمية المطلقة لله تعالى، ويظهر ذلك من خلال نفس الآية التي تسأل عن الحكم والملك في ذلك اليوم: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟

يأتي الجواب: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

مَن الذي يطرح السؤال، وَ مَن الذي يجيب عليه؟

الآية لا تتحدّث عن ذلك، والتفاسير مختلفة في هذا الصدد.

ذهب البعض الى أنّ السؤال يطرح من قبل الله جلّ وعلا، أمّا الجواب فيأتي من الجميع، مؤمنين وكافرين[1].

وذهب آخرون إلى أنّ السؤال والجواب كلاهما من قبل الخالق عزّوجلّ[2].

قسم ثالث يعتقد أنّ «المنادي الإلهي» هو الذي يطرح السؤال، وهو الذي يجيب عليه.

ولكن يبدو حسب الظاهر أنّ هذا السؤال وجوابه لا يطرحان من قبل فرد معيّن، بل هو سؤال يطرحه الخالق والمخلوق، الملائكة والإنسان، المؤمن والكافر، تطرحه جميع ذرّات الوجود، وكلّهم يجيبون عليه بلسان حالهم، بمعنى أنّك أينما تنظر تشاهد آثار حاكميته، وأينما تدقق ترى علائم قاهريته واضحة.

فلو أصخت السمع إلى أيّ ذرّة من ذرّات الوجود، لسمعتها تقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ وفي الجواب تسمعها تقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

وقد نرى في هذه الدنيا نموذجاً مصغّراً لذلك، فعندما ندخل إلى بيت أو مدينة أو بلد معيّن، فإنّنا نحس بقدرة شخص معيّن، وبانبساط حاكميته، وكأنّ الجميع يقولون - كلّ بلسان حاله -: إنّ المالك أو الحاكم هو فلان، وتشهد على ذلك حتى الجدران!!

وبالطبع، في هذا اليوم أيضاً تطغى الحاكمية الإلهيّة على كلّ شيء، وتبسط قدرتها في كلّ الأرجاء، لكن في يوم القيامة سيكون لها ظهور وبروز من نوع جديد، فهناك لا

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٨٥، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٣١٩، وتفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٨٠٥، ذيل الآية مورد البحث.

يوجد كلام عن حكومة الجبارين، ولا نسمع ضجيج الطواغيت السكارى، ولا نرى أثراً لإبليس وجنوده وجيوشه من الإنس والجن.

الخصوصية الرابعة لذلك اليوم، هو كونه يوم جزاء: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾. أجل، إنّ ظهور وبروز الإحاطة العلمية لله تعالى وحاكميته ومالكيته وقهاريته كلها أدلة واضحة على هذه الحقيقة العظيمة المخيفة من جهة، والمفرحة من جهة أُخرى.

أمّا الخصوصية الخامسة لذلك اليوم، فهي ما يختصره قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾.

وكيف يمكن أن يحصل الظلم، في حين أنّ الظلم إمّا أن يكون عن جهل، والله عَزَّوَجَلَّ قد أحاط بكل شيء علماً.

وإمّا أن يكون عن عجز، والله عَزَّوَجَلَّ هو القاهر والمالك والحاكم على كل شيء، لذا لا مجال لظلم أحد في محضر القدس الإلهي وفي ساحة القضاء الإلهي العادل.

الصفة السادسة والأخيرة ليوم التلاقي، هي سرعة الحساب لأعمال العباد، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وسرعة الحساب بالنسبة لله تعالى تجري كلمح البصر، وهي بدرجة بحيث نقرأ عنها في حديث: «إنّ الله تعالى يحاسب الخلائق كلّهم في مقدار لمح البصر»[1].

وأساساً فإنّه مع القبول بمسألة تجسّم الأعمال وبقاء آثار الخير والشر، فإنّ مسألة الحساب مسألة محلولة؟ فهل أنّ الأجهزة المتطوّرة في هذه الدنيا التي تحسب مقدار العمل في اثناء العمل بحاجة إلى زمان؟!

وقد يكون الغرض من تكرار ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في مواضع مختلفة من القرآن الكريم هو عدم انخداع الناس العاديين بوساوس الشيطان وإغواءاته، ومن يتبعه من الذين يثيرون الشكوك بإمكانية محاسبة الخلائق على أعمالهم التي قاموا بها خلال آلاف سحيقة من غابر التاريخ.

إضافة إلى أنّ هذا التعبير يستبطن معنى التحذير لجميع الناس بأنّ ذلك اليوم لا مجال فيه للمجرمين والظالمين والقتلة، ولا تعطى لهم الفرصة كما يحصل في هذه الدنيا، حيث يترك ملف الظلمة والقتلة لشهور وسنين.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٣١، ذيل الآية (٢٠٢) من سورة البقرة.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

يوم تبلغ القلوب الحناجر

هذه الآيات تستمر - كالآيات السابقة - في وصف القيامة - يوم التلاقي - وتحدّد سبع خصائص للقيامة والحوادث المهولة والمدهشة التي تدفع بكل إنسان مؤمن نحو التفكير والتأمل بالحياة والمصير.

يقول تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾.

﴿ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ باللغة بمعنى (القريب) ويا لها من كناية عجيبة، حيث أطلق سبحانه على يوم القيامة يوم الآزفة كي لا يظن الجهلة أنّ هناك فترة طويلة تفصلهم عن ذلك اليوم، فلا ينبغي - والحال هذه - أن ينشغل المرء بالتفكير به!

وإذا نظرنا بتأمّل فسنجد أنّ عمر الدنيا بأجمعه لا يعادل سوى لحظة زائلة حيال يوم القيامة، ولأنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر أيّ تاريخ لهذا اليوم المهول، حتى للأنبياء عليهم السلام، لذا يجب الاستعداد دائماً لاستقبال ذلك اليوم.

الوصف الثّاني ليوم الآزفة هو: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ من شدّة الخوف. فعندما تواجه الإنسان الصعوبات يشعر وكأنّ قلبه يفر من مكانه، ويريد أن يخرج من حنجرته، والعرب في ثقافتها اللغوية التي نزل بها القرآن تطلق على هٰذِهِ الحالة وصف «بلغت القلوب الحناجر».

ويمكن أن يكون (القلب) كناية عن (الروح) بمعنى أنّ روحه بلغت حنجرته هلعاً وخوفاً، كأنّما تريد أن تفارق بدنه تدريجياً ولم يبق منها سوى القليل.

إنّ هول الخوف من الحساب الإلهي الرباني الدقيق، والخشية من الافتضاح وانكشاف الستر والحجب أمام جميع الخلائق، وتحمّل العذاب الأليم الذي لا يمكن

الخلاص منه، كلّ هذه أمور سيواجهها الإنسان ولا يمكن وصفها وشرحها بأيّ بيان.

الصفة الثّالثة لذلك اليوم تعبّر عنها الآية بـ ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي إنّ الهم والغم سيشمل كل وجودهم، إلاّ أنّهم لا يستطيعون إظهار ذلك أو إبداءه.

«كاظم» مشتقّة من «كظم» وهي في الأصل تعني غلق فوهة القربة المملوءة بالماء؛ ثمّ أطلقت بعد ذلك على الأشخاص المملوئين غضباً إلاّ أنّهم لا يظهرونه لسبب من الأسباب.

قد يستطيع الإنسان المغموم المحزون أن يهدأ أو يستريح بالصراخ، لكن المصيبة حينما لا يستطيع هذا الإنسان حتى من الصراخ. . . فماذا ينفع الصراخ في محضر الخالق جلّ وعلا وفي ساحة عدله وعندما تنكشف جميع الأسرار أمام جميع الخلائق.

الصفة الرّابعة ليوم التلاقي هو يوم: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾. أي صديق، نعم إنّ تلك المجموعة من الأصدقاء الكذابين التي تحيط بالشخص كذباً وتملّقاً - كما يحيط الذباب بالحلويات - طمعاً في مقامه وقدرته وجاهه وماله، إنّ هؤلاء في هذا اليوم مشغولون بأنفسهم لا ينفعون أحداً. . . وهو يوم لا تنفع فيه لا صداقة ولا خلّة.

الصفة الخامسة تقول عنها الآية: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

ذلك أنّ شفاعة الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء والأولياء إنّما تكون بإذن الله تعالى، وعلى هذا الأساس لا مجال لتلك التصورات السقيمة لعبدة الأصنام، الذين كانوا يعتقدون في الحياة الدنيا أنّ أصنامهم ستشفع لهم في حضرة الله جلّ وعلا.

وفي المرحلة السادسة تذكر الآية أحد صفات الخالق جلّ وعلا، والتي تعتبر في نفس الوقت وصفاً لكيفية القيامة، حيث تقول: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾(١).

إنّ الله تبارك وتعالى يعلم الحركات السرية للعيون وما تخفيه الصدور من أسرار، وسيقوم تعالى بالحكم والقضاء العادل عليها، وهو بعلمه سيجعل صباح الظالمين المذنبين مظلماً.

وعندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى الآية فأجاب: «ألم تر إلى الرجل ينظر

---

(١) هناك احتمالان من حيث التركيب النحوي لجملة ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾: الأول: أنّ ﴿خَآئِنَةَ﴾ لها معنى مصدري وتعني الخيانة (مثل كاذبة ولاغية بمعنى كذب ولغو). ويحتمل أن تكون (اسم فاعل) من باب تقديم الصفة، أي أنّها تعني في الأصل (الأعين الخائنة).

إلى الشيء وكأنّه لا ينظر إليه، فذلك خائنة الأعين»[١]. أي يوهم أنّه لا ينظر إليه.

قد يتطاول البعض بنظره إلى أعراض الناس وإلى ما يحرم النظر إليه، وقد يستطيع الفاعل أن يخفي فعلته عن الآخرين، لكن ذلك لايخفى عن علم الله المحيط بكل ذرّات الوجود إذ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

وقد روي أنّه لمّا جيء بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله ﷺ بعد فتح مكّة وطلب له الأمان عثمان، صمت رسول الله طويلاً ثمّ قال: (نعم) فلمّا انصرف قال رسول الله لمن حوله: «ما صمتّ طويلاً إلاّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجلٌ من الأنصار: فهلاً أومأت إليّ يا رسول الله، فقال: «إنّ النّبي لاتكون له خائنة الأعين»[٣].

وبالطبع فإنّ لخيانة العين أشكال مختلفة، إذ تتمثل في بعض الأحيان باستراق النظر إلى ما يحرم كالنساء وغيرهن، وأحياناً تتمثل بإشارات معيّنة للعين تهدف تحقير الآخرين والاستهزاء بكلامهم، وقد تكون حركات العين مقدمة لمخططات شيطانية ضدّ الآخرين.

إنّ من يؤمن بالحساب الدقيق في الآخرة، عليه أن يراعي حدود التقوى في خائنة الأعين وخطرات الفكر، وواضح أنّ استحضار عناصر الرقابة هذه لها مؤدّاها التربوي الكبير في سلوك الإنسان وحياته.

وفي قصص الوعظ المتداولة في مجالس العلماء، يقال إنّ أحد كبار العلماء عندما أنهى دراسته الدينية في النجف الأشرف، طلب من أُستاذه عندما أراد الرجوع إلى بلده أن يعظه وينصحه، فقال له الأُستاذ: بعد كلّ هذا التعب وتحمّل مشاق الدراسة والتحصيل فإنّ آخر نصيحتي لك هي أن لا تنسى أبداً قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[٤].

المؤمن الحقيقي يعتبر العالم كلّه حاضراً عند الله تعالى، وإنّ كلّ الأعمال تتمّ في حضوره، وينبغي لهذا الحضور الإلهي أن يكون رادعاً كافياً ومثيراً للخجل والكف عن المعاصي والذنوب.

الآية التي تليها تتحدّث عن صفة سابعة للقيامة تتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.
(٣) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٧٤٧، بتلخيص.
(٤) سورة العلق، الآية: ١٤.

أمّا غيره: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾.

في ذلك اليوم يختص الله وحده بالقضاء، وهو جلّ جلاله لا يقضي إلاّ بالحق، لأنّ القضاء بغير الحق - بالظلم مثلاً والانحياز - إمّا أن يعود إلى الجهل وعدم المعرفة، والله محيط بكل شيء، حتى بما يموج في الضمائر وما تكنّه السرائر. أو أنّه يكون نتيجة للعجز والاحتياج، وهذه صفات هي أبعد ما تكون عن ذات الله جلّ جلاله.

إنّ هذا التعبير يحمل في مؤدّاه دليلاً كبيراً على توحيد المعبود والعبادة، لأنّ من يكون له حق القضاء في النهاية يستحق العبادة حتماً أمّا الأصنام التي لا تنفع شيئاً في هذا العالم، ولا تكون في القيامة مرجعاً للحكم والقضاء، فكيف تستحق العبادة؟!

ومن الضروري أن نشير أيضاً إلى أنّ للحكم والقضاء بالحقّ معاني واسعة، إذ هي تشمل عالم التكوين وعالم التشريع، حيث وردت كلمة «قضى» في الآيات القرآنية لتشمل المعنيين، ففي مكان نقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾(١) حيث تنطوي الآية على القضاء التشريعي. وفي آية أُخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(٢).

وفي الختام وللتأكيد على المطالب المذكورة في الآيات السابقة تضيف الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فهو تعالى سميع وبصير بمعنى الكلمة، أي إنّ كلّ المسموعات والمبصرات حاضرة عنده، وهذا تأكيد على إحاطته وعلمه بكل شيء، وقضاوته بالحق، فإنّه لو لم يكن سميعاً وبصيراً مطلقاً فلا يستطيع أن يقضي بالحق.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٧.

التّفسير

اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين

إنّ أُسلوب القرآن الكريم في كثير من الآيات أنّه بعد أن يتعرّض لكليات القضايا الحساسة والمهمّة يمزجها ببعض المسائل الجزئية والمحسوسة ويأخذ بيد الإنسان ليريه الحوادث الماضية والحالية، لذلك فإنّ الآيات التي بين أيدينا تتحدّث عن أحوال الأُمم الظالمة السابقة ومنهم فرعون والفراعنة وما حلّ بهم من جزاء أليم، وتدعو الناس للاعتبار بمصير أُولئك، بعد ما كانت الآيات السابقة قد حدّثتنا عن يوم القيامة وصفاته وطبيعة الحساب الدقيق الذي ينطوي عليه.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾.

إنّ الذي تحكيه الآيات وتدعونا للاعتبار به ليس تاريخاً مدوّناً نستطيع أن نشكّك في طبيعة الوثائق والنصوص المكوّنة له، وإنّما هو تاريخ حي ينطق عن نفسه، وينبض بالعبرة والعظة، فهذه قصور الظالمين الخربة، وما تركوه من جنّات وعيون، وهذه مدن الأشقياء التي نزل بساحتها العذاب والانتقام الإلهي، وها هي عظامهم النخرة التي يطويها التراب، والقصور المدفونة تحت الأرض. . . ها هي كلّها تحكي عظة الدرس، وعظيم العبرة، خصوصاً وأنّ القرآن يزيدنا معرفة بهؤلاء فيقول عنهم: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾.

كانوا يملكون السلطات القوية، والجيوش العظيمة، والمدنية الباهرة التي لا يمكن مقايستها بحياة مشركي مكّة.

إنّ تعبير ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يكشف عن قوّتهم السياسية والعسكرية، وعن قوّتهم الاقتصادية والعلمية أيضاً.

أمّا التعبير في قوله تعالى: ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ فلعله إشارة إلى تقدّمهم الزراعي العظيم، كما ورد في الآية (٩) من سورة «الروم» في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾.

وقد يكون التعبير القرآني إشارة إلى البناء المحكم العظيم للأُمم السابقة، ممّا قاموا

به في أعماق الجبال وبين السهول، كما يصف القرآن ذلك في حال قوم «عاد»: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[(١)].

ولكن عاقبة هؤلاء القوم، بكل ما انطوت عليه حياتهم من مظاهر قوّة وحياة ونماء، هي كما يقول تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

فلم تنفعهم كثرتهم ولم تمنعهم أموالهم وقدرتهم وشوكتهم من العذاب الإلهي عندما نزل بساحتهم.

لقد وردت كلمة «أخذ» مراراً في القرآن الكريم بمعنى العقاب، وهي إشارة إلى «أخذ» القوم أو الجماعة قبل أن يُنْزل بها العقاب، تماماً كما يقبض أوّلاً على الشخص المجرم، ثمّ يتمّ عقابه.

الآية التي بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقاً بإيجاز، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟﴾. فلم يكن الأمر أنّهم كانوا غافلين ولم يعرفوا الأمر، ولم يكن كفرهم وارتكابهم الذنوب بسبب عدم إتمام الحجّة عليهم، فلقد كانت تأتيهم رسلهم تترا، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ﴾ إلاّ أنّهم لم يخضعوا للأوامر الإلهيّة، كانوا يحطمون مصابيح الهداية، ويديرون ظهورهم للرسل، وكانوا - أحياناً - يقتلونهم!

وحينئذ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وعاقبتهم أشدّ العقاب: ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. إذ هو في مواطن الرأفة أرحم الراحمين وفي مواضع الغضب أشدّ المعاقبين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٢٨ - ١٢٩.

التّفسير

ذروني أقتل موسى!!

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى العاقبة الأليمة للأقوام السابقة، فقد شرعت الآيات التي بين أيدينا بشرح واحدة من هذه الحوادث، من خلال قصة موسى وفرعون، وهامان وقارون.

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ قصة موسى عليه السلام مكررة في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، ولكن التأمّل في هذه الموارد يظهر خطأ هذا التصوّر، إذ يتبيّن أنّ القرآن يتطرّق إلى ذكر القصة في كلّ مرّة من زاوية معيّنة، وفي هذه السورة يتعرّض القرآن للقصة من زاوية دور «مؤمن آل فرعون» فيها. والباقي هو بمثابة أرضية ممهّدة لحكاية هذا الدور.

يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أرسله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

لقد ذكر المفسرون عدّة تفاسير في الفرق بين «الآيات» و«السلطان المبين» فالبعض اعتبر «الآيات» الأدلة الواضحة، بينما «السلطان المبين» هي المعجزات.

والبعض الآخر اعتبر «الآيات» آيات التوراة، بينما «السلطان المبين» المعجزات.

واحتمل البعض الثّالث أنّ «الآيات» تشمل كلّ معاجز موسى عليه السلام، أمّا «السلطان المبين» فهو المعاجز الكبيرة كالعصا واليد البيضاء، التي تسببت في غلبته الواضحة على فرعون.

ومنهم من اعتبر «الآيات» المعجزات، بينما فسّرَ «السلطان المبين» بالسلطة القاهرة والنفوذ الإلهي لموسى عليه السلام والذي كان سبباً في عدم قتله وعدم فشل دعوته.

لكن الملاحظ أنّ هذه الآراء بمجموعها لا تقوم على أدلة قوية واضحة، ولكن نستفيد من الآيات القرآنية الأُخرى أنّ «السلطان المبين» يعني - في العادة - الدليل الواضح القوي الذي يؤدّي إلى السلطة الواضحة، كما نرى ذلك واضحاً في الآية (٢١) من سورة «النمل» أثناء الحديث عن قصة سليمان عليه السلام والهدهد حيث يقول تعالى على لسان سليمان: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ فالسلطان المبين هنا هو الدليل الواضح للغيبة.

وفي الآية (١٥) من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾.

أمّا «الآيات» فقد وردت في القرآن مراراً بمعنى المعاجز.

وبناء على هذا فإنّ «آيات» في الآية التي نحن بصددها تشير إلى «معجزات موسى» بينما يشير «سلطان مبين» إلى منطق موسى عليه السلام القوي وأدلته القاطعة في مقابل الفراعنة.

إنّ موسى عليه السلام كان يزاوج بين منطق العقل، وبين الأعمال الإعجازية التي تعتبر علامة كافية على ارتباطه بعالم الغيب وبالله تعالى، ولكن في المقابل لم يكن للفراعنة من منطق سوى اتهامه بالسحر أو الكذب، لقد اتهموه بالسحر في مقابل الآيات والمعجزات التي أظهرها، وكذّبوه مقابل منطقه واستدلاله العقلاني على الأمور. وهذا ما يؤيّد الرأي الذي اخترناه في تفسير «آيات» و«سلطان مبين».

وبالنسبة للطواغيت والفراعنة، لا يملكون أصلاً سوى منطق الاتهام، وأُسلوب إطلاق الشبهات على رجال الحق ودعاته.

والذي يلفت النظر في الآية الكريمة إشارتها إلى ثلاثة أسماء، كلّ واحد منها يرمز لشيء معيّن في سياق الحالة السائدة آنذاك، والتي يمكن أن تجد مماثلاتها في أيّ عصر.

«فرعون» نموذج للطغاة والعصاة وحكّام الظلم والجور.

«هامان» رمز للشيطنة والخطط الشيطانية.

«قارون» نموذج للأثرياء البغاة، والمستغلين الذين لا يهمهم أيّ شيء في سبيل الحفاظ على ثرواتهم وزيادتها.

وبذلك كانت دعوة موسى عليه السلام تستهدف القضاء على الحاكم الظالم، والمخططات الشيطانية لرموز السياسة في حاشية السلطان الظالم، وبتر تجاوزات الأثرياء المستكبرين، وبناء مجتمع جديد يقوم على قواعد العدالة الكاملة في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية. ولكن بعض الاشخاص الذين وقعت مصالحهم اللامشروعة في خطر! قصدوا لمقاومة هذه الدعوة الإلهيّة.

الآية التي بعدها تتعرّض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمة في مقابل دعوة النّبي موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾.

وما نستفيده من الآية هو أنّ قضية قتل الأبناء والإبقاء على النساء فقط لم يقتصر - كأُسلوب طاغوتي - على الفترة التي سبقت ولادة موسى عليه السلام فحسب، وإنّما تمّ تكرار هذه الممارسة أثناء نبوة موسى عليه السلام، فالآية (١٢٩) من سورة الأعراف تؤيّد هذا الرأي، حيث تحكي على لسان بني إسرائيل قولهم لموسى عليه السلام: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

لقد صدر هذا القول عن بني إسرائيل بعد أن قام فرعون بقتل أبناء المؤمنين منهم بدعوة موسى عليه السلام.

وفي كلّ الأحوال، يعبّر هذا الأُسلوب عن واحدة من الممارسات والخطط المشؤومة الدائمة للقدرات الشيطانية الظالمة التي تستهدف إبادة وتعطيل الصاقات الفعّالة، وترك غير الفاعلين للاستفادة منهم في خدمة النظام.

لقد كان «بنو إسرائيل» قبل موسى عليه السلام عبيداً للفراعنة، لذلك لم يكن من العجيب أن تبادر سلطات فرعون بعد بعثة موسى عليه السلام وشيوع دعوته إلى اعتماد الخطة المعادية، في قتل الأبناء واستحياء النساء، بهدف الانتقام والإبادة الشديدة لبني إسرائيل كي تتعطل فيهم عوامل الصمود والمقاومة.

ولكن ما هي نتيجة كلّ هذا الكيد؟

القرآن يجيب: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

أعمالهم سهام تطلق في ظلام الجهل والضلال فلا تصيب سوى الحجارة! لقد قضى الله تعالى بمشيئته أن ينتصر الحق وأهله، وأن يزهق الباطل وأنصاره.

لقد اشتد الصراع بين موسى عليه السلام وأصحابه من جانب، وبين فرعون وأنصاره من جانب آخر. ووقعت حوادث كثيرة، لا يذكر القرآن عنها كثيراً في هذه الفقرة، ولتحقيق هدف خاص يذكر القرآن أنّ فرعون قرّر قتل موسى عليه السلام لمنع انتشار دعوته وللحيلولة دون ذيوعها، لكنّ المستشارين من «الملأ» من القوم عارضوا الفكرة.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

نستفيد من الآية أنّ أكثرية مستشاريه أو بعضهم على الأقل كانوا يعارضون قتل موسى، لخوفهم أن يطلب عليه السلام من ربّه نزول العذاب بساحتهم، لما كانوا يرون من معجزاته وأعماله غير العادية، إلاّ أنّ فرعون - بدافع من غروره - يصر على قتله مهما تكن النتائج.

وبالطبع، فإنّ سبب امتناع «الملأ» عن تأييد فكرة فرعون في قتل موسى غير معلوم، فهناك احتمالات كثيرة قد يكون بعضها أو كلّها صحيحة. . . .

فقد يكون الخوف من العذاب الإلهي - كما احتملنا - هو السبب.

وقد يكون السبب خشية القوم من تحوّل موسى عليه السلام بعد استشهاده إلى هالة مقدّسة، وهو ممّا يؤدّي إلى زيادة عدد الأتباع والمؤمنين بدعوته، خاصة إذا ما تمّ قتله بعد قضية لقاء موسى مع السحرة وانتصاره الإعجازي عليهم.

وما يؤكّد هذا المعنى هو أنّ موسى جاء في بداية دعوته بمعجزتين كبيرتين (العصا واليد البيضاء) وقد دعا هذا الأمر فرعون إلى أن يصف موسى عليه السلام بالساحر، وأن يدعوه لمنازلة السحرة في ميقات يوم معلوم (يوم الزينة) وكان يأمل الانتصار على موسى عليه السلام عن هذا الطريق، لذا بقي في انتظار هذا اليوم.

وبمشاهدة هذا الوضع ينتفي احتمال أن يكون فرعون قد صمّم على قتل موسى قبل حادث يوم الزينة، خشية من تبدّل دين أهل مصر[١].

خلاصة القول: إنّ هؤلاء يعتقدون أنّ تحرّك موسى عليه السلام مجرّد حادث صغير ومحدود، بينما يؤدّي قتله في مثل تلك الظروف إلى أن يتحوّل إلى تيار. . . تيارٌ كبير يصعب السيطرة عليه.

البعض الآخر من المقرّبين لفرعون ممّن لا يميل إليه، كان يرغب ببقاء موسى عليه السلام حياً حتى يشغل فكر فرعون دائماً، كي يتمكن هؤلاء من العيش بارتياح بعيداً عن عيون فرعون، ويفعلون ما شاؤوا من دون رقابته.

وهذا الأمر يعبّر عن اتجاه سائد في بلاط السلاطين، إذ يقوم رجال الحاشية - من هذا النوع - بتحريك بعض أعداء السلطة حتى ينشغل الملك أو السلطان بهم، وليأمنوا هم من رقابته عليهم، كي يفعلوا ما يريدون!

وقد استدل فرعون على تصميمه في قتل موسى عليه السلام بدليلين، الأوّل ذو طابع ديني

---

(١) ورد في تفسير الميزان عند الحديث عن الآية (٣٦) من سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ إنّ الآية دليل على أنّ هناك مجموعة منعت فرعون من قتل «موسى» عليه السلام إلاّ أنّ التدقيق في الآيات الخاصة بقصة موسى تظهر أنّه لم تكن هناك نية لقتله في ذلك الوقت، وإنّما كان الهدف اختبار النوايا لمعرفة الصادق من الكاذب، أمّا التصميم على القتل فقد كان بعد حادثة السحرة وانتصار موسى عليه السلام عليهم ونفوذ تأثيره في أعماق قلوب أهل مصر، حيث خشي فرعون العواقب.

ومعنوي، والآخر ذو طابع دنيوي ومادي، فقال في الأوّل، كما يحكي القرآن ذلك: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾.

وفي الثّاني: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

فإذا سكتّ أنا وكففت عن قتله، فسيظهر دين موسى وينفذ في أعماق قلوب أهل مصر، وستتبدل عبادة الأصنام التي تحفظ منافعكم ووحدتكم؛ وإذا سكتّ اليوم فإنّ الزمن كفيل بزيادة أنصار موسى عليه السلام وأتباعه، وهو أمرٌ تصعب معه مجاهدته في المستقبل، إذ ستجر الخصومة والصراع معه إلى إراقة الدماء والفساد وشيوع القلق في البلاد، لذا فالمصلحة تقتضي أن أقتله بأسرع ما يمكن.

بالطبع، لم يكن فرعون يقصد من الدين شيئاً سوى عبادته أو عبادة الأصنام، وهذا الأُسلوب في استخدام لباس الدين واسمه وتبنّي شعاراته، يستهدف منه السلطان ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ تحذير الناس وتجهيلهم من خلال إعطاء طابع الدين على مواقفه وكيانه وسلطته.

أمّا الفساد فهو من وجهة نظر فرعون يعني الثورة ضدّ استكبار فرعون من أجل تحرير عامّة العباد، ومحو آثار عبادة الأصنام، وإحياء معالم التوحيد، وتشييد الحياة على أساسها.

إنّ استخدام لباس الدين ورفع شعاراته، وكذلك «التدليس» على المصلحين بالاتهامات، هما من الأساليب التي يعتمدها الظلمة والطغاة في كلّ عصر ومصر، وعالمنا اليوم يموج بالأمثلة على ما نقول!

والآن لنر كيف كان رد فعل موسى عليه السلام والذي يبدو أنّه كان حاضراً في المجلس؟

يقول القرآن في ذلك: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

قال موسى عليه السلام هذا الكلام بقاطعية واطمئنان يستمدان جذورهما من إيمانه القوي واعتماده المطلق على الله تعالى، وأثبت بذلك بأنّه لا يهتز أو يخاف أمام التهديدات.

ويستفاد من قول موسى عليه السلام أيضاً أنّ من تحلّ فيه صفتا «التكبّر» و«عدم الإيمان بيوم الحساب» فهو إنسان خطر، علينا أن نستعيذ بالله من شرّه وكيده.

فالتكبّر يصبح سبباً لأن لا يرى الإنسان سوى نفسه وسوى أفكاره، فهو يعتبر - كما هو حال فرعون - الآيات والمعجزات الإلهيّة سحراً، ويعتبر المصلحين مفسدين، ونصيحة الأصدقاء والمقرّبين ضعفاً في النفس.

أمّا عدم الإيمان بيوم الحساب فيجعل الإنسان حرّاً طليقاً في أعماله وبرامجه، لا يفكر بالعواقب، ولا يرى لنفسه حدوداً يقف عندها، وسيقوم بسبب انعدام الضوابط وفقدان الرقابة، بمواجهة كلّ دعوة صالحة ومحاربة الأنبياء.

ولكن ماذا كان عاقبة تهديد فرعون؟

الآيات القادمة تنبئنا بذلك، وتكشف كيف استطاع موسى عليه السلام أن يفلت من مخالب هذا الرجل المتكبّر المغرور.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله!

مع هذه الآيات تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ موسى عليه السلام وفرعون، لم تطرح في أيّ مكان آخر من القرآن الكريم. المرحلة التي نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذي كان من المقرّبين إلى فرعون، ولكنّه اعتنق دعوة موسى التوحيدية من دون أن يفصح عن إيمانه الجديد هذا، وإنّما تكتم عليه واعتبر نفسه - من موقعه في بلاط فرعون - مكلفاً بحماية موسى عليه السلام من أيّ خطر يمكن أن يتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعندما شاهد أنّ حياة موسى في خطر بسبب غضب فرعون، بادر بأسلوبه المؤثر للقضاء على هذا المخطط.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾.

أتقتلوه في حين أنّه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

هل فيكم من يستطيع أن ينكر معاجزه، مثل معجزة العصا واليد البيضاء؟ ألم تشاهدوا بأعينكم انتصاره على السحرة، بحيث إنّ جميعهم استسلموا له وأذعنوا لعقيدته عن قناعة تامة، ولم يرضخوا لا لتهديدات فرعون ووعيده، ولا لإغراءاته وأُمنياته، بل استرخصوا الأرواح في سبيل الحق؛ في سبيل دعوة موسى، وإله موسى... هل يمكن أن نسمّي مثل هذا الشخص بالساحر؟

فكّروا جيّداً، لا تقوموا بعمل عجول، تحسّبوا لعواقب الأُمور وإلاّ فالندم حليفكم.

ثم إنّ للقضية بعد ذلك جانبين: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾.

إنّ حبل الكذب قصير - كما يقولون - وسينفضح أمره في النهاية إذا كان كاذباً، وينال جزاء الكاذبين، وإذا كان صادقاً ومأموراً من قبل السماء فإنّ توعّده لكم بالعذاب حاصل شئتم أم أبيتم، لذا فإنّ قتله في كلا الحالين أمر بعيد عن المنطق والصواب.

ثم تضيف الآيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾.

فإذا كان موسى سائراً في طريق الكذب والتجاوز فسوف لن تشمله الهداية الإلهيّة، وإذا كنتم أنتم كذلك فستحرمون من هدايته.

ولنا أن نلاحظ أنّ العبارة الأخيرة برغم أنّها تحمل معنيين إلاّ أنّ «مؤمن آل فرعون» يهدف من خلالها إلى توضيح حال الفراعنة.

والتعبير الذي يليه يفيد أنّ فرعون، أو بعض الملأ - على الأقل - كانوا يؤمنون بالله، وإلاّ فإنّ تعبير «مؤمن آل فرعون» سيكون دليلاً على إيمانه بإله موسى عليه السلام وتعاونه مع بني إسرائيل، وهذا ما لا يتطابق مع دوره في تكتمه على إيمانه، ولا يتناسب أيضاً مع أُسلوب «التقية» التي كان يعمل بها.

و بالنسبة للتعبير الآنف الذكر ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا...﴾ فقد طرح المفسّرون سؤالين:

الأوّل: إذا كان موسى عليه السلام كاذباً، فإنّ عاقبة كذبه سوف لن تقتصر عليه حسب، وإنّما سوف تنعكس العواقب السيئة على المجتمع برمّته، فكيف تقول الآية: «وإن يك كاذباً فعليه كذبه»؟

الثّاني: أمّا لو كان صادقاً، فستتحقق كلّ تهديداته ووعيده لا بعض منها، فكيف يقول مؤمن آل فرعون: «يصبكم بعض الذي يعدكم»؟

بالنسبة للسؤال الأوّل، نقول: إنّ المراد هو معاقبة جريمة الكذب التي تشمل شخص

الكذّاب فقط ويكفينا العذاب الإلهي لدفع شرّه، وإلاّ فكيف يمكن لشخص أن يكذب على الله، ويتركه سبحانه لشأنه كي يكون سبباً لإضلال الناس وإغوائهم؟

وبالنسبة للسؤال الثّاني، من الطبيعي أن يكون قصد موسى عليه السلام من التهديد بالعذاب، هو العذاب الدنيوي والأُخروي، والتعبير بـ «بعض» إنّما يشير إلى العذاب الدنيوي، وهو الحدّ الأدنى المتيقّن حصوله في حالة تكذيبكم إيّاه.

وفي كلّ الأحوال تبدو جهود «مؤمن آل فرعون» واضحة في النفوذ بشتى الوسائل والطرق إلى أعماق فرعون وجماعته لثنيهم عن قتل موسى عليه السلام.

ونستطيع هنا أن نلخّص الوسائل التي اتبعها بما يلي:

أوضح لهم أوّلاً أنّ عمل موسى عليه السلام لا يحتاج إلى ردّة فعل شديدة كهذه.

ثم عليكم أن لا تنسوا أنّ الرجل يملك «بعض» الأدلة، ويظهر أنّها أدلة معتبرة، لذا فإنّ محاربة مثل هذا الرجل تعتبر خطراً واضحاً.

والموضوع برمّته لا يحتاج إلى موقف منكم، فإذا كان كاذباً فسينال جزاءه من قبل الله، ولكن يحتمل أن يكون صادقاً، وعندها لن يتركنا الله لحالنا.

ولم يكتف «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، وإنّما استمرّ يحاول معهم بلين وحكمة، حيث قال لهم - كما يحكي ذلك القرآن -: أنّ بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها ونعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الإلهي. ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

ويحتمل أن يكون غرضه: إنّكم اليوم تملكون كلّ أنواع القوّة، وتستطيعون اتخاذ أيّ تصميم تريدونه اتجاه موسى عليه السلام، ولكن لا تغرّنكم هذه القوّة، ولا تنسوا النتائج المحتملة وعواقب الأُمور.

ويظهر أنّ هذا الكلام أثّر في حاشية فرعون وبطانته، فقلّل من غضبهم وغيظهم، لكن فرعون لم يسكت ولم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وهو إنّي أرى من المصلحة قتل موسى ولا حلّ لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثمّ إنّني: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وهذه هو حال كافة الطواغيت والجبّارين على طول التاريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره، ولا يسمحون لأحد في إبداء وجهة نظر مخالفة لما يقولون، فهم يظنون

أنّ عقلهم كامل، وأنّ الآخرين لا يملكون علماً ولا عقلاً . . . وهذا هو منتهى الجهل والحماقة.

بحوث

أوّلاً: من هو مؤمن آل فرعون؟

نستفيد من الآيات القرآنية أنّ «مؤمن آل فرعون» هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السلام، وظلّ يتكتم على إيمانه، ويعتبر نفسه مكلّفاً بالدفاع عنه عليه السلام.

لقد كان الرجل - كما يدل عليه السياق - ذكيّاً ولبقاً، يقدّر قيمة الوقت، ذا منطق قوي، حيث قام في اللحظات الحسّاسة بالدّفاع عن موسى عليه السلام وإنقاذه من مؤامرة كانت تستهدف حياته.

تتضمن الرّوايات الإسلامية وتفاسير المفسّرين أوصافاً أُخرى لهذا الرجل سنتعرض لها بالتدريج.

البعض مثلاً يعتقد أنّه كان ابن عم أو ابن خالة فرعون، ويستدل هذا الفريق على رأيه بعبارة (آل فرعون) إذ يرى أنّها تطلق على الأقرباء، بالرغم من أنّها تستخدم أيضاً للأصدقاء والمقرّبين.

والبعض قال: إنّه أحد أنبياء بني إسرائيل كان يعرف باسم «حزبيل» أو «حزقيل»[1].

فيما قال البعض الآخر: إنّه خازن خزائن فرعون، والمسؤول عن الشؤون المالية[2].

وينقل عن ابن عباس أنّه قال: إنّ هناك ثلاثة رجال من بين الفراعنة آمنوا بموسى عليه السلام، وهم آل فرعون، وزوجة فرعون، والرجل الذي أخبر موسى قبل نبوّته بتصميم الفراعنة على قتله، حينما أقدم موسى على قتل القبطي، ونصحه بالخروج من مصر بأسرع وقت: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾[3].

---

(١) يستفاد هذا المعنى من رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (تلاحظ في أمالي الصدوق طبقاً لنقل نور الثقلين، ج٤، ص ٥١٩) ولكن بما أنّ الشائع أنّ «حزقيل» هو أحد أنبياء بني إسرائيل، فعندها سيضعف هذا الاحتمال، إلاّ إذا كان «حزقيل» هذا غير النّبي المعروف في بني إسرائيل. ثمّ إنّ الرواية ضعيفة السند.

(٢) ورد هذا المعنى في تفسير علي بن إبراهيم، كما نقل صاحب نور الثقلين في ج ٤، ص ٥١٨.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٠.

لكن القرائن تفيد أنّ ثمّة مجموعة قد آمنت بموسى عليه السلام بعد مواجهة موسى مع السحرة، ويظهر من السياق أنّ قصة مؤمن آل فرعون كانت بعد حادثة السحرة.

والبعض يحتمل أنّ الرجل كان من بني إسرائيل، لكنّه كان يعيش بين الفراعنة ويعتمدون عليه، إلاّ أنّ هذا الاحتمال ضعيف جدّاً، ولا يتلاءم مع عبارة «آل فرعون» وأيضاً نداء «يا قوم».

ولكن يبقى دوره مؤثّراً في تاريخ موسى عليه السلام وبني إسرائيل حتى مع عدم وضوح كلّ خصوصيات حياته بالنسبة لنا.

ثانياً: التقية أداة مؤثّرة في الصراع

(التقية) أو (كتمان الاعتقاد) ليست من الضعف أو الخوف كما يظن البعض، بل غالباً ما توظّف كأُسلوب مؤثّر في إدارة المواجهة مع الظالمين والجبارين والطغاة، إذ إنّ كشف أسرار العدو لا يمكن أن يتمّ إلاّ عن طريق الأشخاص الذين يعملون بأُسلوب التقية.

وكذلك الضربات الموجعة والمباغتة للعدوّ، لا تتمّ إلاّ عن طريق التقية وكتمان الخطط وأساليب الصراع.

لقد كانت «تقية» مؤمن آل فرعون من أجل خدمة دين موسى عليه السلام، والدفاع عنه في اللحظات الصعبة. ثمّ هل هناك أفضل من أن يحظى الإنسان بشخص مؤمن بقضيته ودعوته، يزرعه في جهاز عدوه بحيث يستطيع من موقعه أن ينفذ إلى أعماق تنظيمات العدو، ويحصل على المعلومات والأسرار ليفيد بها قضيته ودعوته، ويخبر بها أصحابه، وقد تقضي الضرورة النفوذ في ذهينة العدوّ أيضاً وتغييرها لمصالح قضيته ودعوته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

الآن نسأل: هل كان بوسع مؤمن آل فرعون إسداء كلّ هذه الخدمات لدعوة موسى عليه السلام لو لم يستخدم أُسلوب التقية؟

لذلك كلّه ورد في حديث عن الإمام الصادق قوله عليه السلام: «التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية ترس الله في الأرض، لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢١، ذيل الآيات مورد البحث.

إنّ فاعلية هذا المبدأ تكتسب أهميّة استثنائية في الوقت الذي يكون فيه المؤمنون قلّة خاضعة للأكثرية التي لا ترحم ولا تتعامل وفق المنطق، فالعقل لا يسمح بإظهار الإيمان (باستثناء الضرورات) والتفريط بالطاقات الفعّالة، بل الواجب يقضي بكتمان العقيدة والتخفّي على المعتقد في مثل هذا الوضع لكي يصار إلى تجميع الطاقات والقوى والإفادة منها لتسديد الضربة النهائية والقاصمة في الوقت والظرف المناسبين.

إنّ الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم التزم بنفسه هذا المبدأ، حينما أبقى دعوته سريّة لبضع سنوات، وحينما ازداد أتباعه وتشكّلت النواة الإيمانية القادرة للحفاظ على الدعوة الجديدة صدع صلى الله عليه وآله وسلم بأمره تعالى أمام القوم.

ومن بين الأنبياء الآخرين نرى إبراهيم عليه السلام الذي استخدم أُسلوب التقية، ووظّف هذا المبدأ في عمله الشجاع الذي حطّم فيه الأصنام، وإلاّ فلولا التقية لم يكن بوسعه أن ينجح في عمله أبداً.

كذلك استفاد أبو طالب عمّ الرسول من أُسلوب التقية في حماية رسول الله ودعوته الناشئة، إذ لم يعلن عن صريح إيمانه برسول الله وبالإسلام إلاّ في فترات ومواقف خاصّة، كي يستطيع من خلال ذلك لنهوض بأعباء دوره المؤثّر في حفظ حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيال مكائد وطغيان الشرك القرشي.

من هنا يتبيّن خطأ رأي من يعتقد بأنّ «التقية» كمبدأ وكأُسلوب، تختص بالشيعة دون غيرهم، أو أنّها دليل على الضعف والجبن، فيما هي موجودة في جميع المذاهب دون استثناء.

ولمزيد من التوضيح، باستطاعة القارىء الكريم أن يرجع إلى بحثنا في تفسير الآية (٢٨) من آل عمران والآية (١٠٦) من النحل.

ثالثاً: من هم الصدّيقون؟

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «الصديقون ثلاثة: (حبيب النجار) مؤمن آل يس الذي يقول: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴿٢١﴾﴾[1] و(حزقيل) مؤمن آل فرعون و(علي بن أبي طالب) وهو أفضلهم».

والملاحظ في هذا الحديث أنّه يروى في مصادر الفريقين[2].

(١) سورة يس، الآيتان: ٢٠ - ٢١.

(٢) يلاحظ الصدوق في «الأمالي» وابن حجر في الفصل الثّاني الباب التاسع من «الصواعق».

إنّ تاريخ النبوات يظهر مكانة هؤلاء في دعوات الرسل، إذ صدّقوهم في أحرج اللحظات، وكانوا في المقدمة، فاستحقوا لقب «الصدّيق» خاصة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي وقف منذ مطلع عمره الشريف وحتى نهايته مناصراً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وبعد رحلته وذاباً عن الدعوة الجديدة، واستمرّ في كلّ المراحل والأشواط في تقديم التضحيات بمنتهى الإخلاص.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

التّفسير

التحذير من العاقبة!

كان الشعب المصري آنذاك يمتاز نسبياً بمواصفات التمدّن والثقافة، وقد اطّلع على أقوال المؤرخين بشأن الأقوام السابقة، أمثال قوم نوح وعاد وثمود الذين لم تكن أرضهم تبعد عنهم كثيراً، وكانوا على علم بما آل إليه مصيرهم.

لذلك كلّه فكّر مؤمن آل فرعون بتوجيه أنظار هؤلاء إلى أحداث التاريخ وأخذ يحذّرهم من تكرار العواقب الأليمة التي نزلت بغيرهم، عساهم أن يتيقظوا ويتجنّبوا قتل موسى عليه السلام، يقول القرآن الكريم حكاية على لسانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾.

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأنّني خائف عليكم عن العادات والتقاليد السيئة التي كانت متفشّية في الأقوام السالفة. ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[1].

لقد نالت هذه الأقوام جزاء ما كانت عليه من الكفر والطغيان، إذ قتل من قتل منهم

(١) ﴿دَأْبِ﴾ على وزن (ضرب) تعني في الأصل الاستمرار في السير، و(دائب) تطلق على الكائن الذي يستمر في سيره ثمّ أصبحت بعد ذلك تستعمل لأيّ عادة مستمرة... والمقصود هنا من ﴿دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ هو قيامهم واستمرارهم واعتيادهم على الشرك والطغيان والظلم والكفر.

بالطوفان العظيم، وأُصيب آخرون منهم بالريح الشديدة، وبعضهم بالصواعق المحرقة، ومجموعة بالزلازل المخرّبة.

واليوم يخاطِبهم مؤمن آل فرعون: ألا تخشون أن تصيبكم إحدى هذه البلايا العظيمة بسبب إصراركم على الكفر والطغيان؟ هل عندكم ضمان بأنّكم لستم مثل أولئك؛ أو أنّ العقوبات الإلهيّة لا تشملكم؛ ترى ماذا عمل أولئك حتى أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا على دعوة الأنبياء الإلهيين، وفي بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم... لذلك كلّه فإنّي أخاف عليكم مثل هذا المصير المؤلم!؟

ولكن ينبغي أن تعلموا أنّ ما سيصيبكم ويقع بساحتكم هو من عند أنفسكم وبما جنت أيديكم: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

لقد خلق الله الناس بفضله وكرمه، ووهبهم من نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل أنبياءه لهدايتهم، ولصدّ طغيان العتاة عنهم، لذلك فإنّ طغيان العباد وصدّهم عن السبيل هو السبب فيما ينزل بهم من العذاب الأليم.

ثم تضيف الآية على لسانه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أي يوم تطلبون العون من بعضكم البعض، إلاّ أصواتكم لا تصل إلى أيّ مكان.

﴿ٱلتَّنَادِ﴾ مأخوذة أصلاً من كلمة «ندا» وتعني «المناداة» (وهي في الأصل (التنادي) وحذفت الياء ووضعت الكسرة في محلّها) والمشهور بين المفسّرين أنّ ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ هو من أسماء يوم القيامة، وقد ذكروا أسباباً لهذه التسمية، متشابهة تقريباً، فمنهم من يقول: إنّ ذلك يعود إلى مناداة أهل النّار لأهل الجنّة، كما يقول القرآن: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فجاءهم الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١) (٢). أو أنّ التسمية تعود إلى مناداة الناس بعضهم لبعض طلباً للعون والمساعدة.

وهناك من قال: إنّ سبب التسمية يعود إلى أنّ الملائكة تناديهم للحساب، وهم يطلبون العون من الملائكة.

أو لأنّ منادي المحشر ينادي: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.

(٢) ورد هذا المعنى أيضاً في حديث للإمام الصادق عليه السلام في كتاب «معاني الأخبار» للصدوق، وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥١٩.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨.

وقال بعضهم: إنّ السبب يعود إلى أنّ المؤمن عندما يشاهد صحيفة أعماله، ينادي برضى وشوق: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾(١) بينما الكافر من شدّة خوفه وهول ما يحلّ به يصرخ وينادي: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾(٢).

ولكن يمكن تصور معنى أوسع للآية، بحيث يشمل ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ في هذه الدنيا أيضاً، لأنّ المعنى - كما رأينا - يعني (يوم مناداة البعض للبعض الآخر) وهذا المعنى يعبّر عن ضعف الإنسان وعجزه عندما تنزل به المحن وتحيطه المصاعب والملمّات، وينقطع عنه العون وأسباب المساعدة، فيبدأ بالصراخ ولكن بغير نتيجة.

وفي عالمنا هذا ثمّة أمثلة عديدة على ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ مثل الأيّام التي ينزل فيها العذاب الإلهي، أو الأيّام التي يصل فيها المجتمع إلى طريق مسدود لكثرة ما ارتكب من ذنوب وخطايا، وقد نستطيع أن نتصوّر صوراً أُخرى عن ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ في حياتنا من خلال الحالات التي يمرّ بها الناس بالمشاكل والصعاب المختلفة حيث يصرخ الجميع عندها طالبين للحلّ والنجاة!

الآية التالية تفسّر ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ بقولها: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

ومثل هؤلاء حق عليهم القول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إنّ هؤلاء الذين ضلّوا في الحياة الدنيا بابتعادهم عن سبل الرشاد والهداية وتنكّبهم عن الطريق المستقيم، سيظلّون في الآخرة عن الجنّة والرضوان والنعم الإلهيّة الكبرى. وقد يكون في التعبير القرآني هذا، إيماءة خفيفة إلى قول فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٩.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٥.

التّفسير

عجز المتكبرين عن الإدراك الصحيح!

هذا المقطع من الآيات الكريمة يستمر في عرض كلام مؤمن آل فرعون، ومن خلال نظرة فاحصة في سياق الآيات، يظهر أنّ مؤمن آل فرعون طرح كلامه في خمسة مقاطع، كلّ منها اكتسي بلون من المخاطبة، وشكل من الدليل، الذي يستهدف النفوذ إلى قلب فرعون والمحيطين به، بغية محو الصدأ وآثار الكفر السوداء منها، كي تذعن لله ورسالاته وأنبيائه، وتترك التكبّر والطغيان.

المقطع الأوّل: راعى فيه مؤمن آل فرعون الاحتياط، ودعا القوم إلى الحذر من الأضرار المحتملة من جهتين: (قال لهم: لو كان موسى كاذباً فسينال جزاء كذبه، أمّا لو كان صادقاً فيشملنا العذاب، إذاً عليكم أن لا تتركوا العمل بالاحتياط).

المقطع الثّاني: وفيه وجّه مؤمن آل فرعون الدعوة إلى التأمّل بما حلّ بالأقوام السابقة وما نال الأُمم الداثرة من المصير والجزاء، كي يأخذوا العبرة من ذلك المصير!

المقطع الثّالث: كامن في الآيات القرآنية التي بين أيدينا، إذ تذكّرهم الآيات - من خلال خطاب مؤمن آل فرعون - بجزء من تأريخهم، هذا التاريخ الذي لا يبعد كثيراً عنهم، ولم تُمحَ بعد أواصر الارتباط الذهني والتاريخي فيما بينهم وبينه؛ وهذا الجزء يتمثّل في نبوة يوسف عليه السلام، الذي يعتبر أحد أجداد موسى، حيث يبدأ قصة التذكير معهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[1] وبالدلائل الواضحة لهدايتكم ولكنّكم: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

وشككم هنا ليس بسبب صعوبة دعوته أو عدم اشتمالها على الأدلة والعلائم الكافية، بل بسبب غروركم حيث أظهرتم الشك والتردد فيها.

ولأجل أن تتنصلوا من المسؤولية، وتعطوا لأنفسكم الذرائع والمبررات، قلتم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾.

بناء على ذلك كلّه لم تشملكم الهداية الإلهيّة بسبب أعمالكم ومواقفكم: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

(١) تعتبر هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم التي تشير صراحة إلى نبوة يوسف عليه السلام، وإن كنّا لا نعدم إشارات متفرقة لهذه النبوّة في سياق آيات قرآنية أُخرى.

لقد سلكتم سبيل الإسراف والتعدّي على حدود الله تعالى كما قمتم بالتشكيك في كلّ شيء، حتى غدا ذلك كلّه سبباً لحرمانكم من اللطف الإلهي في الهداية، فسرتم في وادي الضلال والغي، كي تنتظركم عاقبة هذا الطريق الغاوي.

واليوم - والسياق ما زال يحكي خطاب مؤمن آل فرعون لهم - اتبعتم نفس الأُسلوب حيال دعوة موسى عليه السلام، إذ تركتم البحث في أدلة نبوّته وعلائم بعثته ورسالته، فابتعدت عنكم أنوار الهداية، وظلّت قلوبكم سوداء محجوبة عن إشعاعاتها الهادية الوضّاءة.

الآية الكريمة التي تليها تعرّف «المسرف المرتاب» بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾(١).

هؤلاء يرفضون آيات الله البينات من دون أيّ دليل واضح من عقل أو نقل، بل يستجيبون في ذلك إلى أهوائهم المغرضة ووساوسهم المضلّة الواهية، كي يستمروا في رفع راية الجدل والمعارضة.

وللكشف عن قبح هذه المواقف عند الله وعند الذين آمنوا، تقول الآية: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾(٢).

ذلك لأنّ الجدال بالباطل (الجدال السلبي) واتخاذ المواقف ضدّ الوقائع والآيات القائمة على أساس الدليل المنطقي، يعتبر أساساً لضلال المجادلين وتنكّبهم عن جادة الهداية والصواب، وكذلك في إغواء الآخرين، حيث تنطفىء أنوار الهداية في تلك الأوساط، وتتقوى أُسس ودعائم حاكمية الباطل.

في النهاية، وبسبب عدم تسليم هؤلاء أمام الحق، تقرّر الآية قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾(٣).

أجل، إنّ العناد في مقابل الحق يشكّل ستاراً مظلماً حول فكر الإنسان، ويسلب منه

---

(١) ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هنا بدل عن ﴿مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ إلاّ أنّ المبدل عنه مفرد، في حين أنّ البدل جاء على صيغة الجمع! السبب في ذلك أنّ الخطاب لا يستهدف شخصاً معيّناً وإنّما يشتمل على النوع.

(٢) فاعل «كبر» هو (الجدال) حيث نستفيد ذلك من الجملة السابقة، أمّا «مقتاً» فهي تمييز، فيما يرى بعض المفسّرين أنّ الفاعل هو ﴿مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ إلاّ أنّ الرأي الأوّل أفضل.

(٣) ﴿مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ وصف للقلب، وليست وصفاً لشخص، بالرغم من أنّها مضافة. اشارة إلى أنّ أساس التكبر والتجبر إنّما ينبع من القلب، ولأنّ القلب يسيطر على كلّ أعضاء ووجود الإنسان، فإنّ كلّ الوجود الإنساني سيكتسي هذا الطابع الفاسد البذيء.

قابليته على التشخيص الهادي الصحيح، بحيث ينتهي الأمر إلى أن يتحوّل القلب إلى مثل الإناء المغلق، الذي لا يمكن إفراغه من محتواه الفاسد، ولا إدخال المحتوى الهادي الصحيح.

إنّ الأشخاص الذين يقفون في وجه الحق وأهله بسبب اتصافهم بصفتي التكبر والتجبر، فإنّ الله تعالى سوف يسلب منهم روح طلب الحقيقة إلى درجة أنّ الحق سيكون مرّاً في مذاقهم، والباطل حلواً.

وفي كلّ الأحوال، لقد قام مؤمن آل فرعون بعمله من خلال الوسائل التي وقفنا عليها آنفاً، فانتهى - كما سيظهر في الآية اللاحقة - إلى إجهاض مخطط فرعون في قتل موسى عليه السلام، أو على الأقل وفّر الوقت الكافي في تأخير تنفيذ هذا المخطط إلى أن استطاع موسى عليه السلام أن يفلت من الخطر.

لقد كانت هذه مهمّة عظيمة أنجزها هذا الرجل المؤمن الشجاع، الذي انصبّ جهده في هذه المرحلة الخطيرة من الدعوة الموسوية على إنقاذ حياة كليم الله عليه السلام. وكما سيتضح لاحقاً من احتمال أنّ هذا الرجل ضحّى بحياته أيضاً في هذا السبيل.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

أريد أن أطلع إلى إله موسى!!

بالرغم من النجاح الذي أحرزه مؤمن آل فرعون في إثناء عزم فرعون عن قتل الكليم عليه السلام، إلاّ أنّه لم يستطع أن يثنيه عن غروره وتكبره وتعاليه إزاء الحق، لأنّ فرعون لم يكن ليملك مثل هذا الاستعداد أو اللياقة الكافية للهداية، لذلك نراه يواصل السير في نهجه الشرير، إذ يأمر وزيره هامان ببناء برج للصعود إلى السماء(!!) كي يجمع المعلومات عن إله موسى، يقول تعالى في وصف هذا الموقف: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ

لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾. أي لعلي أحصل على وسائل وتجهيزات توصلني إلى السماوات.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟! ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

«الصرح» في الأصل تعني الوضوح، و«التصريح» بمعنى التوضيح، ثمّ عُمّمَ معنى الكلمة على الأبنية المرتفعة والقصور الجميلة العالية، وذلك لأنّها واضحة ومميّزة بشكل كامل، وقد ذكر هذا المعنى العديد من المفسّرين واللغويين.

«تباب» تعني الخسارة والهلاك.

إنّ أوّل ما يطالعنا هنا هو السؤال عن الهدف الذي كان فرعون يرغب بتحقيقه من خلال عمله هذا؟

هل كان فرعون بهذا المقدار من الغباء والحماقة والسذاجة بحيث يعتقد أنّ إله موسى موجود فعلاً في مكان ما من السماء؟ وإذا كان موجوداً في السماء، فهل يستطيع الوصول إليه بواسطة إقامة بناء مرتفع يعتبر ارتفاعه تافهاً إزاء جبال الكرة الأرضية؟

إنّ هذا الاحتمال ضعيف للغاية، ذلك لأنّ فرعون بالرغم من غروره وتكبّره، فقد كان يمتاز بالذكاء والقدرة السياسية التي أهّلته للسيطرة على شعب كبير لسنين مديدة من خلال أساليب القهر والقوّة والخداع.

لذلك كلّه نرى الموقف يدعونا إلى تحليل هذا التصرّف الفرعوني لمعرفة دواعيه وأهدافه الشيطانية.

فمن خلال عملية التأمّل والتمحيص، يمكن أن تنتهي إلى ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرّف. والأهداف هذه هي:

أوّلاً: أراد فرعون أن يختلق وضعاً يعمد من خلاله إلى إلهاء الناس وصرف أذهانهم عن قضية نبوّة موسى عليه السلام وثورة بني إسرائيل، وقضية بناء مثل هذا الصرح المرتفع يمكن أن تحوز على اهتمام الناس، وتهيمن على اهتماماتهم الفكرية، وبالتالي إلى صرفهم عن القضية الأساسية.

وفي هذا الإطار يلاحظ بعض المفسّرين أنّ فرعون خصص لبناء صرحه مساحة واسعة من الأراضي، ووظّف في إقامته خمسين ألفاً من العمّال والبنّائين المهرة،

بالإضافة إلى من انشغل بتهيئة وسائل العمل والتمهيد لتنفيذ المشروع، وكلّما كان البناء يرتفع أكثر كلّما ازداد تأثيره في الناس، وأخذ يجلب إليه الاهتمام والأنظار أكثر، إذ أصبح الصرح حديث المجالس، والخبر الأوّل الذي يتناقله الناس، وفي مقابل ذلك يتناسون قضية انتصار موسى عليه السلام على السحرة - ولو مؤقتاً - خصوصاً مع الأخذ بنظر الاعتبار ذلك الاهتزاز العنيف الذي لَحق بجهاز فرعون واعتباره في أوساط الناس.

ثانياً: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطّاع من الناس، وعلى الأخص العاطلين منهم، لكي يجد هؤلاء في هذا الشغل عزاءً - ولو مؤقتاً - عن مظالم فرعون وينسون جرائمه وظلمه، ومن ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدّي إلى ارتباطهم بخزانة فرعون وأمواله، وبالتالي ارتباطهم بنظامه وسياساته!

ثالثاً: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلى أعلى نقطة فيه، ويرمق السماء ببصره، أو يرمي سهماً نحو السماء، ويرجع إلى الناس فيقول لهم: لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لإله موسى، والآن انصرفوا إلى أعمالكم براحة بال!!

أمّا بالنسبة إلى فرعون نفسه، فقد كان يعلم أنّه حتى لو ارتقى الجبال الشامخات التي تتطاول في علوّها على صرحه، فإنّه سوف لن يشاهد أيّ شيء آخر يفترق عمّا يشاهده وهو يقف على الأرض المستوية يتطلع نحو السماء!

والطريف في الأمر هنا أنّ فرعون بعد قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ رجع خطوة إلى الوراء فنزل عن يقينه إلى الشك، حيث قال بعد ذلك: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ إذ استخدم تعبير «أظن»!

والجدير بالإشارة هنا أنّ القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ ذكر ثلاث قضايا ذات محتوى كبير بجمل قصيرة، حيث قال أوّلاً: إنّ السبب الرئيسي في انحراف فرعون عن جادة الصواب يعود إلى تزيين عمله القبيح في نظره بسبب غروره وتكبره.

ثم تناول بعد ذلك نتيجة ذلك متمثلةً بالضلال عن طريق الحق والهدى والنور.

وفي الجملة الثّالثة لخّصت الآية مآل مخططات فرعون، هذا المآل الذي تمثّل بالفشل الذريع والتباب والخسران.

طبعاً، يمكن للخطط السياسية والمواقف المضلّلة أن تخدع الناس شطراً من الزمان، وتؤثّر فيهم لفترة من الوقت، إلاّ أنّها تنتهي بالفشل على المدى البعيد.

فقد ورد في بعض الرّوايات أنّ «هامان» قد زاد في ارتفاع الصرح الفرعوني إلى الدرجة التي باتت الرياح الشديدة مانعاً عن الاستمرار بالعمل وعندها اعتذر هامان لفرعون عن الاستمرار بالبناء.

ولكن لم تمض فترة وجيزة من الزمن حتى حطمت الرياح الشديدة ذلك البناء[1].

واتضح أنّ قوّة فرعون متعلّقة في ثباتها بالرياح.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد

أشرنا آنفاً إلى أنّ مؤمن آل فرعون أوضح كلامه في مجموعة من المقاطع، وفي هذه المجموعة من الآيات الكريمة نقف على المقطع الرابع، بعد أن أشرنا في الآيات السابقة إلى ثلاثة منها.

إنّ هذا المقطع من كلام مؤمن آل فرعون ينصبّ في مضمونه على إلفات نظر القوم إلى الحياة الدنيوية الزائلة، وقضية المعاد والحشر والنشر، إذ إنّ تركيز هذه القضايا في حياة الناس له تأثير جذري في تربيتهم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

لقد قرأنا سابقاً أنّ فرعون كان يقول: إنّ ما أقوله هو طريق الرشد والصلاح، إلاّ أنّ مؤمن آل فرعون أبطل هذا الادّعاء الفارغ، وأفهم الناس زوره، وحذّرهم أن يقعوا فريسة هذا الادّعاء، إذ إنّ خططه ستفشل وسيصاب بسوء العاقبة؛ فالطريق هو ما أقوله؛ إنّه طريق التقوى وعبادة الله.

(١) يمكن ملاحظة ذلك في بحار الأنوار، ج ١٣، ص ١٢٥، نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم.

ثم تضيف الآية: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

يريد أن يقول لهم: لنفرض أنّنا انتصرنا ببذل الحيل والتوسّل بوسائل الخداع والمكر، وتركنا الحق وراء ظهورنا، وارتكبنا الظلم وتورطنا بدماء الأبرياء؛ ترى ما مقدار عمرنا في هذا العالم؟ إنّ هذه الأيّام المعدودة ستنتهي وسنقع في قبضة الموت الذي يجرّنا من القصور الفخمة إلى تحت التراب وتكون حياتنا في مكان آخر.

إنّ القضية ليست فناء هذه الدنيا وبقاء الآخرة وحسب، بل الأهم من ذلك هي قضية الحساب والجزاء، حيث يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إنّ مؤمن آل فرعون - بكلامه هذا - أثار أوّلاً قضية عدالة الله تبارك وتعالى، حيث يقاضي الإنسان بما اكتسبت يداه خيراً أو شرّاً.

و من جهة ثانية أشار في كلامه إلى الثواب والفضل الإلهي لذوي العمل الصالح، إنّه الجزاء الذي لا يخضع لموازين الحساب الكمية، إذ يهب الله تبارك وتعالى للمؤمنين بغير حساب، ممّا لم تره عين أو تسمعه أُذن ولا يخطر على فكر إنسان.

ومن جهة ثالثة أشار للتلازم القائم بين الإيمان والعمل الصالح.

ورابعة يشير أيضاً إلى مساواة الرجل والمرأة في محضر الله تبارك وتعالى، وفي القيم الإنسانية.

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذكر في أنّ الحياة الدنيا وإن كانت متاعاً لا يغني شيئاً عن الحياة الأخرى، إلاّ أنّه يمكن أن يكون وسيلة للجزاء اللامتناهي والعطايا التي تصدر عن المطلق جلّ وعلا. إذن هل هناك تجارة أربح من هذا؟

كما ينبغي أن نقول: إنّ عبارة ﴿مِثْلَهَا﴾ تشير إلى أنّ العقاب في العالم الآخر يشبه نفس العمل الذي قام به الإنسان في هذه الدنيا، مشابهة كاملة بكل ما للكلمة من دلالة ومعنى.

أمّا تعبير ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فقد يكون إشارة إلى أنّ عدّ العطايا يختص بالأشخاص من ذوي الإمكانات المحدودة، أمّا المطلق (جلّ وعلا) الذي لا تنقص خزائنه مهما بذل للآخرين (لأنّ كلّ ما يؤخذ من اللانهاية يبقى بلانهاية) لذلك فهو عطاء لا يحتاج إلى حساب.

وبقيت مسألة بحاجة إلى جواب، وهي: هل ثمّة تعارض بين هذه الآية وما جاء في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام، حيث قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؟

في الجواب على هذا التساؤل نقول: إنّ ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ إشارة للحدّ الأدنى من العطاء الإلهي، إذ هناك الجزاء الذي يصل إلى (٧٠٠) مرّة وأكثر، ثمّ قد يصل العطاء الإلهي إلى مستوى الجزاء بـ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهو ممّا لا يعلم حدّه ولا يمكن تصوّره.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

التّفسير

الكلام الأخير

في خامس - وآخر - مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب والأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتم ممّا فعل، فقد قال كلّ ما هو ضروري، أمّا القوم من ملأ فرعون، فكان لهم - كما سنرى ذلك - قرارهم الخطير بشأنه!

يفهم من خلال القرائن أنّ أُولئك المعاندين والمغرورين لم يسكتوا حيال كلام هذا الرجل الشجاع المؤمن، وإنّما قاموا بطرح «مزايا» الشرك في مقابل كلامه، ودعوه كذلك إلى عبادة الأصنام.

لذا فقد صرخ قائلاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

إنّني أطلب سعادتكم وأنتم تطلبون شقائي؛ إنّني أهديكم إلى الطريق الواضح الهادي وأنتم تدعونني إلى الانحراف والضلال!

نعم، إنّكم: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

نستفيد من الآيات القرآنية المختلفة، ومن تاريخ مصر، أنّ هؤلاء القوم لم يقتصروا في عبادتهم وشركهم وضلالهم على الفراعنة وحسب، وإنّما كانت لهم أصنام يعبدونها من دون الله الواحد القهّار، كما نستفيد ذلك بشكل مباشر من قوله تعالى في الآية (١٢٧) من سورة «الأعراف» حيث قوله تعالى: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ والآية تحكي خطاب أصحاب فرعون والملأ من قومه لفرعون.

وقد تكرّر نفس المضمون على لسان يوسف عليه السلام، إذ قال لرفاقه في سجن الفراعنة: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1].

لقد ذكّرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنة واضحة أنّ دعوتهم إلى الشرك لا تستند على دليل صحيح، والشرك طريق وعر مظلم محفوف بالمخاطر وسوء العاقبة والمصير، بينما دعوته (مؤمن آل فرعون) دعوة للهدى والرشاد وسلوك طريق الله العزيز الغفّار.

إنّ عبارة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ و﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ تشير من جانب إلى مبدأ (الخوف والرجاء) ومن جانب ثان تشير إلى إلغاء أُلوهية الأصنام والفراعنة، حيث لا يملكون العزّة ولا العفو.

ينتقل الخطاب القرآني - على لسان مؤمن آل فرعون - إلى قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[2] فهذه الأصنام لم ترسل الرسل إلى الناس ليدعوهم إليهم، وهي لا تملك في الآخرة الحاكمية على أيّ شيء.

إنّ هذه الموجودات لا تملك الحس والشعور، إنّها أصنام لا تتكلم ولا تضر ولا تنفع، وإنّ عليكم أن تعلموا: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

فهو سبحانه وتعالى الذي أرسل رسله إلى الناس لأجل هدايتهم، وهو الذي يثيبهم ويعاقبهم على أعمالهم.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٩.

(٢) قلنا سابقاً: إنّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ مركبة من (لا) و(جرم) على وزن (حرم) وهي في الأصل تعني القطع واقتطاف الثمر، وهي ككلمة مركبة تعني: لا يستطيع أيّ شيء أن يقطع هذا العمل أو يمنعه، لذلك تستخدم بشكل عام بمعنى (حتماً) وتأتي أحياناً بمعنى القسم.

ويجب أن تعلموا أيضاً: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

وهكذا كشف مؤمن آل فرعون ما كان يخفي من إيمانه، وبذلك فقد انكشف هنا خطّه الإيماني التوحيدي، وانفصل علناً عن خط الشرك الملوّث الذي يصبغ بآثامه وأوحاله الحكّام الفراعنة ومن يلف حولهم، لقد رفض الرجل دعوتهم ووقف لوحده إزاء باطلهم وانحرافهم.

في آخر كلامه - وبتهديد ذي مغزى - يقول لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾.

إنّ ما قلته لكم ستذكرونه في الدنيا والآخرة، وستعلمون صدقي عندما تصيبكم المصائب، وينزل بساحتكم الغضب الإلهي، لكن سيكون ذلك كلّه بعد فوات الأوان، فإن كان في الآخرة فلا طريق للرجوع، وإن كان في الدنيا فهو لايتمّ إلاّ حين يحلّ بكم العذاب الإلهي، وعندها ستغلق جميع أبواب التوبة.

ثم تضيف الآية على لسان الرجل المؤمن: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

لهذا كلّه لا أخشى تهديداتكم، ولا أرهب كثرتكم وقوّتكم، ولا تخيفني وحدتي بين أيديكم، لأنّي وضعت نفسي بين يدي المطلق ذي القدرة اللامتناهية، والمحيط علمه بكل شيء، وبأحوال عباده أينما كانوا وحلّوا.

إنّ هذا التعبير يستبطن في طيّاته دعاء مهذباً انطلق من الرجل المؤمن الذي وقع أسيراً في قبضة هؤلاء الأشقياء الظالمين، لذلك طلب بشكل مؤدّب من خالقه (جلّ وعلا) أن يحميه بحمايته وينقذه ممّا هو فيه.

الله تبارك وتعالى لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيداً وإنّما: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ يفيد أنّهم وضعوا خططاً مختلفة ضدّه... ترى ما هي هذه الخطط؟

في الواقع، إنّ القرآن لم يذكرها بل تركها مجهولة، لكنّها - حتماً - لا تخرج عن ألوان العقاب والتعذيب الذي ينزلونه بالرجل قبل أن يحلّ به القتل والإعدام، إلاّ أنّ اللطف الإلهي أبطل مفعولها جميعاً وأنجاه منهم.

تفيد بعض التفاسير أنّ مؤمن آل فرعون انتهز فرصة مناسبة فالتحق بموسى عليه السلام، وعبر البحر مع بني إسرائيل، وقيل أيضاً: إنّهُ هرب إلى الجبل عندما صدر عليه قرار

الموت، وبقي هناك مختفياً عن الأنظار[١].

ومن الطبيعي أن لا يكون هناك تعارض بين الرأيين، إذ يمكن أن يكون قد هرب إلى الجبل أوّلاً، ثمّ التحق ببني إسرائيل.

وقد يكون من مؤامراتهم عليه، محاولتهم فرض عبادة الأصنام عليه وإخراجه من خط التوحيد، إلاّ أنّ الله تبارك وتعالى أنجاه من مكرهم ورسّخ قدمه في طريق الإيمان والهدى.

أمّا القوم الظالمون فقد كان مصيرهم ما يرسمه لنا القرآن الكريم: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[٢].

إنّ العذاب والعقاب الإلهي أليم بمجمله، إلاّ أنّ تعبير ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يظهر أنّ الله تبارك وتعالى انتخب لهم عذاباً أشدّ إيلاماً من غيره، وهو ما تشير إليه الآية التي بعدها، حيث قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[٣] ثم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وهنا نلفت النظر إلى الملاحظات الثلاث الآتية:

أوّلاً: استخدام تعبير ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ إشارة إلى العائلة والأنصار والأصحاب الضالين، وعندما يكون هذا هو مصير الآل، ترى ماذا يكون مصير نفس فرعون؟

ثانياً: تقول الآية: إنّهم يعرضون على النّار صباحاً ومساءً، ثمّ تقول: في يوم القيامة يكون العذاب أشد ما يمكن، وهذا دليل على أنّ العذاب الأوّل يختص بعالم البرزخ، وهو ممّا يلي موت الإنسان ومغادرة روحه جسده، ويقع قبل يوم القيامة، إنّ العرض على نار جهنّم يهزّ الإنسان ويجعله يرتعد خوفاً وهلعاً.

ثالثاً: إنّ تعبير بـ(الغدو) و(العشي) قد تكون فيه إشارة إلى استمرار العذاب. أو قد يفيد انقطاع العذاب البرزخي ليقتصر على (الغدو) و(العشي) أي الصبح والمساء، وهو الوقت الذي يقترن في حياة الفراعنة وأصحابهم مع أوقات لهوهم واستعراضهم لقوّتهم وجبروتهم في حياتهم الدنيا.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٨١٨، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) (حاق) بمعنى أصاب ونزل، ولكن احتملوا أيضاً أن يكون أصلها (حق) فتغيرت إحدى القافين فيها إلى ألف فأصبحت (حاق) [يلاحظ ذلك في مفردات الراغب كلمة حاق]، ضمناً فإنّ ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، إذ كانت في الأصل (العذاب السوء).

(٣) «النّار» بدل عن ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

. وينبغي أن لا نتعجب هنا من كلمتي (الغدو) و(العشي) فنسأل: وهل في البرزخ ثمّة صباح ومساء؟ لأنّ الصبح والليل موجودان حتى في يوم القيامة، كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(١).

وهذا الأمر لا يتعارض مع دوام نعم الجنّة واستمرارها، كما جاء في الآية (٣٥) من سورة (الرعد) حيث قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ حيث يمكن أن تشمل الألطاف الإلهيّة أهل الجنّة في خصوص هذين الوقتين، بينما تكون نعم الجنّة دائمة باقية.

بحوث

أوّلاً: مؤمن آل فرعون والدرس العظيم في مواجهة الطواغيت

إنّ القليل من الناس يؤمنون بالأديان الإلهيّة والمذاهب السماوية في بداية الأمر ويقومون بتحدّي الجبابرة والطواغيت، وإذا توجّست هذه القلّة المخلصة خوفاً من أعدائها، أو أنّها شكت بأنّ الكثرة دليل على الحقانية، فلن يكون بمقدور الأديان الإلهيّة أن تمتد وتنتشر في الدنيا.

إنّ الأساس الذي يتحكم في منطلق هذه البرامج الهادية والأُطروحات الوضّاءة، هو قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أيّها الناس، لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة أهله»(٢).

لقد كان مؤمن آل فرعون نموذجاً لهذه المدرسة، وكان من الأوائل في هذا الطريق، وأثبت أنّ الإنسان المؤمن يستطيع بعزمه وإرادته القويّة - النابعة من إيمانه بالله تعالى - التأثير حتى في إرادة الفراعنة الجبابرة؛ بل وأن يوفّر سبل النجاة لنبي كبير من أنبياء أُولي العزم.

إنّ تاريخ حياة هذا الرجل الشجاع الذكي، يثبت ضرورة أن تكون خطوات أهل الدعوة والحق في منتهى الدقة والحذر، إذ يجب أحياناً التكتم على الإيمان وإخفاء القناعات الحقة؛ كما يجب في أحيان أُخرى الجهر بدعوة الحق وإظهار الإيمان.

إنّ التقية ليست سوى إخفاء اعتقاد الإنسان والتكتم عليه في فترة معيّنة في سبيل الأهداف المقدّسة.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٢.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٠١.

وكما يعتبر التسلّح بالسلاح المادي الظاهري من ضرورات المنعة وأسباب دحر العدوّ، كذلك فإنّ المنطق القوي والحجّة البالغة هي سلاح ضروري قد يعادل في تأثيره السلاح المادي عدّة مرّات، لذا فإنّ العمل الذي قام به (مؤمن آل فرعون) بواسطة منطقه وقوة حجته وحكمة تصرفه لم يكن ليعادله أيّ سلاح آخر.

ثم إنّ قصة هذا الرجل المؤمن تظهر أنّ الله جلّ وعلا لا يترك عباده المؤمنين وحيدين، بل يحميهم بلطفه عن الأخطار.

وأخيراً فإنّ من الضروري أن نشير إلى حياة مؤمن آل فرعون التي انتهت كما في بعض الروايات إلى الاستشهاد، وأنّ ما يقوله القرآن من حفظ الله له ووقايته له يمكن تأويله بإنقاذه من براثن خططهم الشيطانية في إغوائه وجرّه إلى ساحة الضلال والشرك، وأنّ الله أنجاه من سوء المنقلب وانحراف العقيدة(١).

ثانياً: تفويض الأُمور إلى الله

فيما يخص التفويض إلى الله تبارك وتعالى يكفي أن نفتتح الحديث بقول لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، جاء فيه: «الإيمان له أربعة أركان: التوكل على الله، وتفويض الأمر إلى الله عزّ وجلّ، والرضى بقضاء الله، والتسليم لأمر الله»(٢).

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق أنّه عليه السلام قال: «المفوض أمره إلى الله في راحة الأبد، والعيش الدائم الرغد، والمفوض حقّاً هو العالي عن كلّ همة دون الله»(٣).

«التفويض» كما يقول الراغب في مفرداته، يعني «التوكل» لذا فإنّ تفويض الأمر إلى الله يأتي بمعنى توكيل الأعمال إليه، وهذا لا يعني أن يترك الإنسان الجدّ والجهد، إذ إنّ هذا السلوك ينطوي على فهم محرّف لمعنى التفويض، بل عليه أن يبذل كلّ جهده ولا يتخوّف الصعاب التي تواجهه، أو يترك العمل إذعاناً لها، بل عليه أن يسلّم أمره وعمله إلى الله، ويستمر في بذل الجهد بعزم راسخ وهمة عالية.

وبالرغم من أنّ «التفويض» يشبه «التوكل» إلى حدٍّ كبير، إلاّ أنّه يعتبر مرحلة أفضل

---

(١) جاء في كتاب (محاسن البرقي): عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَقَـٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ قوله عليه السلام: «أما لقد سطوا عليه وقتلوه ولكن أتدرون ما وقاه؟ وقاه أن يفتنوه في دينه» نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٢١.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٤١، وأُصول الكافي، ج ٢، ص ٥٦.

(٣) سفينة البحار، ج ٢، ص ٣٨٤، مادة «فوض».

منه. لأنّ حقيقة (التوكل) هي أن يعتبر الإنسان الله تبارك وتعالى وكيلاً عنه، لكن التفويض يعني التسليم المطلق لله تعالى، وفي حياتنا العملية نرى أنّ الانسان الذي يتخذ لنفسه وكيلاً يواصل إشرافه على عمله. إلاّ أنّه في حالة التفويض لايبقى أيّ مجال لإشراف من أيّ نوع، بل تترك الأُمور إلى من فوّضت إليه.

ثالثاً: عالم البرزخ

«البرزخ» - كما يدل عليه اسمه - هو عالم يتوسّط بين عالمنا هذا والعالم الآخر. وفي القرآن الكريم يكثر الحديث عن العالم الآخر، ولكنّه قليل عن عالم البرزخ. ولهذا السبب هناك هالة من الغموض والإبهام تحيط بالبرزخ، وبالتالي لا نعرف الكثير من خصائصه وجزئياته، ولكن عدم معرفة التفاصيل الجزئية لا تؤثّر على أصل الاعتقاد بالبرزخ الذي صرّح القرآن بأصل وجوده.

إنّ الآيات أعلاه تعتبر من الآيات التي عبّرت بصراحة عن وجود هذا العالم، حينما قالت: إنّ آل فرعون يعرضون صباحاً ومساءً على النّار قبل القيامة، وذلك كنوع من العقاب البرزخي لهم.

من جانب آخر، فإنّ الآيات التي تتحدّث عن حياة الشهداء الخالدة بعد الموت، والثواب العظيم الذي ينالهم، تدل هي الأُخرى على وجود (البرزخ).

وفي حديث عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة، وإن كان من أهل النّار فمن النّار، يقال: هذا مقعدك حيث يبعثك الله يوم القيامة»(١).

أمّا الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام فيقول عن البرزخ: «ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة لأنّ في نار القيامة لا يكون غدو وعشي» ثمّ قال: «إن كانوا يعذبون في النّار غدواً وعشياً ففيما بين ذلك هم من السعداء، لا ولكن هذا في البرزخ قبل يوم القيامة، ألم تسمع قوله عزّوجلّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾(٢).

الإمام عليه السلام لم يقل بعدم وجود الصباح والمساء في القيامة، بل يقول: إنّ نار جهنّم

(١) ينقل هذه الرواية كلّ من البخاري ومسلم في صحيحيهما (طبقاً لما يذكره الطبرسي وصاحب الدر المنثور والقرطبي، أثناء حديثهم عن الآية المذكورة أعلاه) أمّا صحيح مسلم فيعقد باباً حول الروايات المتعلّقة بالبرزخ، إذ يمكن مراجعته في ج ٤، ص ٢١٩٩.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٨١٨.

أبدية خالدة لا تعرف الصباح والمساء، أمّا العقاب الذي له مواقيت في الصباح والمساء فهو عالم البرزخ، ثمّ يدلل عليه السلام على الجملة التي بعدها والتي تتحدّث عن القيامة؛ على أنّها قرينة باختصاص الجملة السابقة بالبرزخ.

لقد تعرّضنا إلى عالم البرزخ مفصّلاً أثناء الحديث عن الآية (١٠٠) من سورة «المؤمنون».

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

نقاش الضعفاء والمستكبرين في جهنّم

لقد لفت مؤمن آل فرعون في نهاية كلامه نظر القوم إلى القيامة والعذاب وجهنم، لذلك جاءت هذه المجموعة من الآيات الكريمة وهي تقف بشكل رائع دقيق على تحاجج وتخاصم أهل النّار فيما بينهم، وبالذات تحاجج المستضعفين مع المستكبرين.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾[1].

المراد من ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ هنا هم أُولئك الذين يفتقدون العلم الكافي والاستقلال الفكري، إذ كان هؤلاء يتبعون زعماء الكفر الذي يطلق عليهم القرآن اسم المستكبرين، وكانت التبعية مجرّد انقياد أعمى بلا تفكير أو وعي.

---

(١) يتصور البعض أنّ الضمير في ﴿يَتَحَاجُّونَ﴾ يعود إلى آل فرعون، إلاّ أنّ القرائن تفيد أنّ الآية تنطوي على مفهوم عام يشمل جميع الكفّار.

ولكن هؤلاء الأتباع يعلمون أنّ العذاب سيشمل زعماءهم ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فلماذا إذن يستغيثون بهم ويلجأون إليهم كي يتحملوا عنهم قسطاً من العذاب؟

ذهب البعض إلى أنّ ذلك يحصل تبعاً لعادتهم في الانقياد إلى زعمائهم في هذه الدنيا، لذلك تكون استغاثتهم بهم في الآخرة كنوع من الانقياد اللا إرادي وراء قادتهم.

ولكن الأفضل أن نقول: إنّ الاستغاثة هناك هي نوع من السخرية والاستهزاء واللوم، يوم يثبت أنّ كلّ ادعاءات المستكبرين مجرّد تقوّلات زائفة عارية عن المضمون والحقيقة[١].

(وفي الحقيقة فإنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يحذّر بهذا الكلام أولئك الذين سمعوا وصايا رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم الغدير - أو أنّها وصلتهم بطريق صحيح - ثمّ اعتذروا بأنّهم نسوها ليتبعوا أناساً آخرين)[٢].

إنّ المستكبرين لم يسكتوا على هذا الكلام وذكروا جواباً يدل على ضعفهم الكامل وذلّتهم في ذلك الموقف المهول، إذ يحكي القرآن على لسانهم قولهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

يريدون أن يقولوا: لو كان بمستطاعنا حلّ مشاكلكم فالأحرى بنا والأجدر أن نحلّ مشاكلنا وما حلّ بنا، ولكنّا لا نستطيع أن نمنع العذاب عن أنفسنا ولا عنكم، ولا أن نتحمل عنكم جزءاً من العقاب!

والملاحظ هنا أنّ الآية (٢١) من سورة «إبراهيم» تتضمن نفس هذا الاقتراح من قبل الضعفاء إزاء المستكبرين، الذين قالوا في مقام الجواب: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

والمقصود بالهداية هنا هي الهداية الى طريق الخلاص من العذاب.

وهكذا يظهر أنّ هذين الجوابين لا يتعارضان فيما بينهما، بل يكمل أحدهما الآخر.

وعندما تغلق في وجههم السبل، سبل النجاة والخلاص، يتوجّه الجميع إلى خزنة النّار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾[٣].

---

(١) ﴿تَبَعًا﴾ جمع تابع، والبعض يحتمل أن تكون مصدراً، خصوصاً وأنّ إطلاق المصدر على الأشخاص الموصوفين بصفة معيّنة أمر متعارف. والمعنى في هذه الحال هو: إنّنا كنّا لكم عين التبعية.

(٢) المصباح للشيخ، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٢٦.

(٣) «خزنة» جمع خازن، وتعني الحارس.

إنّهم يعلمون أنّ العذاب الإلهي لا يرتفع، لذلك يطلبون أن يتوقف عنهم ولو ليوم واحد كي يرتاحوا قليلاً... إنّهم قانعون بهذا المقدار!

لكن إجابة الخزنة تأتي منطقية واضحة: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؟

وفي الجواب: (قالوا بلى).

فيستطرد الخزنة: ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

إنّكم بأنفسكم اعترفتم بأنّ الأنبياء والرسل جاؤوا بالدلائل الواضحة، ولكنّكم كفرتم بما جاءكم وكذبتم الأنبياء، لذلك لا ينفعكم الدعاء، لأنّ الله لا يستجيب لدعاء الكافرين.

بعض المفسّرين يرى في تفسير الجملة الأخيرة أنّ المراد هو أنّنا لا نستطيع الدعاء لكم بدون إذن من الله تعالى، فادعوا أنتم بذلك، وذلك إشارة إلى انغلاق سبل النجاة أمامكم.

صحيح أنّ الكافر يصبح مؤمناً في يوم القيامة، إلاّ أنّ هذا الإيمان لا يقلل من آثار كفره، لذلك يلازمه لقب الكافر.

لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أفضل وأكثر قبولاً.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

الوعد بنصر المؤمنين

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن تحاجج أهل النّار وعجزهم عن أن ينصر أحدهم الآخر، وبعد أن تحدّثت الآيات التي سبقتها عن مؤمن آل فرعون وحماية الله له من كيد فرعون وآل فرعون، عادت هذه المجموعة من الآيات البينات تتحدّث عن شمول

الحماية والنصر الإلهي لأنبياء الله ورسله وللذين آمنوا، في هذه الدنيا وفي الآخرة.

إنّها تتحدّث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾.

إنّها الحماية المؤكّدة بأنواع التأكيد، والتي لا ترتبط بقيد أو شرط، والتي يستتبعها الفوز والنصر، النصر في المنطق والبيان؛ وفي الحرب والميدان؛ وفي إرسال العذاب الإلهي على القوم الظالمين، وفي الإمداد الغيبي الذي يقوي القلوب ويشدّ الأرواح ويجذبها إلى بارئها جلّ وعلا.

إنّ الآية تواجهنا باسم جديد ليوم القيامة هو: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾.

«أشهاد» جمع «شاهد» أو «شهيد» (مثل ما أنّ أصحاب جمع صاحب وأشراف جمع شريف) وهي تعني الذي يشهد على شيء ما.

لقد ذكرت مجموعة من الآراء حول المقصود بالأشهاد، نستطيع إجمالها بما يلي:

١ - الأشهاد هم الملائكة الذين يراقبون أعمال الإنسان.

٢ - هم الأنبياء الذين يشهدون على الأُمم.

٣ - هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون الذين يشهدون على أعمال الناس.

أمّا احتمال أن تدخل أعضاء الإنسان ضمن هذا المعنى، فهو أمر غير وارد، بالرغم من شمولية مصطلح ﴿الْأَشْهَـٰدُ﴾ لأنّ تعبير ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ لا يتناسب وهذا الاحتمال.

إنّ التعبير يشير إلى معنى لطيف، حيث يريد أن يقول إنّ: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ الذي تنبسط فيه الأُمور في محضر الله تبارك وتعالى، وتنكشف السرائر والأسرار لكافة الخلائق، هو يوم تكون الفضيحة فيه أفظع ما تكون، ويكون الانتصار فيه أروع ما يكون... إنّه اليوم الذي ينصر الله فيه الأنبياء والمؤمنين ويزيد في كرامتهم.

إنّ يوم الأشهاد يوم افتضاح الكافرين وسوء عاقبة الظالمين، هو: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾.

فمن جهة هو يوم لا تنفع المعذرة فيه، ولا يحول شيء دون افتضاح الظالمين أمام الأشهاد.

ومن جهة أُخرى هو يوم تشمل اللعنة الإلهيّة فيه الظالمين، واللعنة هنا البعد عن الرحمة.

ومن جهة ثالثة هو يوم ينزل فيه العذاب الجسماني على الظالمين، ويوضعون في أسوأ مكان من نار جهنم.

سؤال: إنّ الآية تفتح المجال واسعاً للسؤال التالي: إذا كان الله (تبارك وتعالى) قد وعد حتماً بانتصار الأنبياء والمؤمنين، فلماذا نشاهد - على طول التاريخ - مقتل مجموعة من الأنبياء والمؤمنين على أيدي الكفّار؟ ولماذا ينزل بهم الضيق والشدّة من قبل أعداء الله؟ ثمّ لماذا تلحق بهم الهزيمة العسكرية؟ وهل يكون ذلك نقضاً للوعد الإلهي الذي تتحدّث عنه الآية الكريمة؟

الجواب: على كلّ هذه الأسئلة المتشعبة يتضح من خلال ملاحظة واحدة هي: إنّ أكثر الناس ضحية المقاييس المحدودة في تقييم مفهوم النصر، إذ يعتبرون الانتصار يتمثل فقط في قدرة الإنسان على دحر عدوه، أو السيطرة على الحكم لفترة وجيزة!

إنّ مثل هؤلاء لا يرون أيّ اعتبار لانتصار الهدف وتقدّم الغاية، أو تفوّق وانتشار المذهب والفكرة؛ هؤلاء لا ينظرون إلى قيمة المجاهد الشهيد الذي يتحوّل إلى نموذج وقدوة في حياة الناس وعلى مدى الأجيال، ولا ينظرون إلى القيمة الكبرى التي يستبطنها مفهوم العزة والكرامة والرفعة التي ينادي بها أحرار البشر والقرب من الله تعالى ونيل رضاه.

وبديهي أنّ الإنحباس في إطار هذا التقييم المحدود يجعل من العسير الجواب على ذلك الإشكال، أمّا الانطلاق إلى أفق المعاني الواسعة الوضّاءة لمفهوم النصر الإلهي والأخذ بنظر الاعتبار القيم الواقعية للنصر سيؤدّي بنا إلى معرفة المعنى العميق للآية.

ثمّة كلام لطيف لسيّد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» يناسب هذا المقام، إذ يورد فيه ذكرى بطل كربلاء الإمام الحسين عليه السلام كمثال على المعنى الواسع لمفهوم النصر فيقول: «... والحسين - رضوان الله عليه - وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب، أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة، وأمّا في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه، يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين وكثير من غير المسلمين»[1].

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص١٨٩ و ١٩٠.

وينبغي أن نضيف إلى هذا الكلام أنّ شيعة أهل البيت عليهم السلام يشاهدون كل يوم بأعينهم آثار الخير من حياة سيّد الشهداء الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام ويلمسون آثار استشهاده واستشهاد صحبه البررة من أهل بيته وأصحابه؛ إنّ مجالس العزاء التي تقام للحديث عن مناقب الحسين وصحبه الكرام هي ينبوع الخير لحركة عظيمة ثرّة ما زال عطاؤها لم ولن ينضب!

لقد شاهدنا بأعيننا ومن خلال النموذج الثوري الذي شهدته أرض إيران المسلمة، كيف استطاع الملايين من أبناء الإسلام أن يتحركوا في أيّام عاشوراء للقضاء على الظلم والطغيان والاستكبار.

لقد شاهدنا بأعيننا كيف استطاع هذا الجيل المضحّي الذي تربى في مدرسة أبي الشهداء الحسين عليه السلام وتغذّى ممّا تدرّه مجالس عزائه، أن يحطّم بأيدٍ خالية عرش أقوى السلاطين الجبّارين.

نعم، لقد شاهدنا دم الحسين الشهيد وقد سرى في العروق عزةً وحركةً وانتفاضة، غيّرت الحسابات السياسية والعسكرية للدول الكبرى.

بعد كلّ ذلك، ومع كلّ العطاء الثر الهادي الذي استمدته كلّ الأجيال - خلال التاريخ - من ذكرى الطف وسيّد الشهداء، ألا يعتبر الحسين عليه السلام منتصراً حتى باتت آثار نصره الظافر حاضرة فينا بالرغم من مرور أكثر من ثلاثة عشر قرناً على استشهاده!؟

سؤال آخر

ثمة سؤال آخر يتبلور من المقابلة بين الآية التي بين أيدينا والآية (٣٦) من سورة «المرسلات» إذ نقرأ الآية التي نحن بصددها أنّ اعتذار الظالمين لا يؤثّر ولا ينفعهم يوم القيامة، فيما تنص الآية من سورة المرسلات على أنه لا يسمح لهم بالاعتذار أصلاً، حيث قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فكيف يا ترى نوفّق بين الاثنين؟

قبل الإجابة ينبغي الانتباه إلى ملاحظتين:

الأولى: أنّ ليوم القيامة مواقف معيّنة تختلف شرائطها، ففي بعضها يتوقف اللسان عن العمل وتنطق الأرجل والأيدي والجوارح، وتقوم بالشهادة على عمل الإنسان، وفي مواقف أُخرى ينطلق اللسان بالنطق والكلام (كما تحكي ذلك الآية ٦٥ من سورة «يس» والآيات السابقة في هذه السورة التي تحدّثت عن تحاجج أهل النّار).

بناء على هذا، فلا مانع من عدم السماح لهم بالاعتذار في بعض المواقف، في حين

يسمح لهم في مواقف أُخرى، وإن كان الاعتذار لا يجدي شيئاً ولا يغيّر من المصير.

الملاحظة الثانية: إنّ الإنسان يتحدّث في بعض الأحيان بكلام لا فائدة منه، ففي مثل هذه الموارد يكون الشخص كمن لم يتكلّم أصلاً، بناءً على هذا يمكن أن تكون الآية الدالة على عدم السماح لهم بالاعتذار تقع وفق هذا المعنى، أي أنّ اعتذارهم برغم خروجه من أفواههم، إلاّ أنّه لا فائدة ترجى منه.

تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك للحديث عن أحد الموارد التي انتصر فيها الرسل نتيجة الحماية الإلهيّة والدعم الربّاني لهم، فتتحدّث عن النبي الكليم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

إنّ هداية الله لموسى تنطوي على معانٍ واسعة، إذ تشمل مقام النبوة والوحي، والكتاب السماوي (التوراة) والمعاجز التي وقعت على يديه عليه السلام أثناء تنفيذه لرسالات ربّه وتبليغه إيّاها.

إنّ استخدام كلمة «ميراث» بالنسبة الى التوراة يعود إلى أنّ بني إسرائيل توارثوه جيلاً بعد جيل، وكان بإمكانهم الاستفادة منه بدون مشقة؛ تماماً مثل الميراث الذي يصل إلى الإنسان بدون عناء وتعب، ولكنّهم فرّطوا بهذا الميراث الإلهي الكبير.

الآية التي بعدها تضيف: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

الفرق بين «الهداية» و«الذكرى» أنّ الهداية تكون في مطلع العمل وبدايته، أمّا التذكير فهو يشمل تنبيه الإنسان بأُمور سمعها مسبقاً وآمن بها لكنّه نسيها.

وبعبارة أُخرى: إنّ الكتب السماوية تعتبر مشاعل هداية ونور في بداية انطلاقة الإنسان، وترافقه في أشواط حياته تبثّ من نورها وهداها عليه.

ولكن الذي يستفيد من مشاعل الهدى هذه هم «أولو الألباب» وأصحاب العقل، وليس الجهلة والمعاندون المتعصّبون.

الآية الأخيرة - من المقطع الذي بين أيدينا - تنطوي على وصايا وتعليمات مهمّة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهي في واقعها تعليمات عامة للجميع، بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرّسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) يمكن أن تكون ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ مفعولاً لأجله أو مصدراً بمعنى الحال، أي (هادياً ومذكّراً لأولي الألباب) لكن البعض احتمل أن تكون بدلاً أو خبراً لمبتدأ محذوف، إلاّ أنّ ذلك غير مناسب كما يبدو.

يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

عليك أن تصبر على عناد القوم ولجاجة الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء والمعارف، وتتحمل أحياناً أذاهم وتخاذلهم.

وعليك أيضاً أن تصبر إزاء العواطف النفسية.

إنّ سرّ انتصارك في جميع الأُمور يقوم على أساس الصبر والاستقامة.

ثم اعلم أنّ وعد الله بنصرك وأُمتك لا يمكن التخلّف عنه، وإيمانك وإيمانهم بحقانية الوعد الإلهي يجعلك مطمئناً ومستقيماً في عملك، فتهون الصعاب عليك وعلى المؤمنين.

لقد أمر الله تعالى رسوله مرّات عديدة بالصبر، والأمر بالصبر جاء مطلقاً في بعض الموارد، كما في الآية التي نحن بصددها، وجاء مقيّداً في موارد أُخرى ويختص بأمر معيّن، كما في الآيتين (٣٩ - ٤٠) من سورة «ق»: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. وكذلك يخاطبه تعالى في الآية (٢٨) من سورة الكهف بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

إنّ جميع انتصارات الرّسول ﷺ والمسلمين الأوائل إنّما تمّت بفضل الصبر والاستقامة، واليوم لابدّ أن نسير على خطى رسول الله ونصبر كما صبر الرّسول وأصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقرة الأُخرى من التعليمات الربانية تقول: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾.

واضح أنّ رسول الله ﷺ معصوم لم يرتكب ذنباً ولا معصية، لكنّا قد أشرنا في غير هذا المكان إلى أنّ أمثال هذه التعابير في القرآن الكريم، والتي تشمل في خطابها الرّسول الأكرم وسائر الأنبياء، إنّما تشمل ما نستطيع تسميته بـ «الذنوب النسبية» لأنّ من الأعمال ما هو عبادة وحسنة بالنسبة للناس العاديين، بينما هي ذنب للرسل والأنبياء لأنّ: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

فالغفلة - مثلاً - لا تليق بمقامهم، ولو للحظة واحدة. وكذلك الحال بالنسبة لترك الأولى، إذ إنّ منزلتهم الرفيعة ومعرفتهم العالية تستوجب أن يحذروا هذه الأُمور ويستغفروا منها متى ما صدرت عنهم.

وما ذهب إليه البعض من أنّ المقصود بالذنوب هي ذنوب المجتمع، أو ذنوب الآخرين التي ارتكبوها بشأن رسول الله ﷺ أو أنّ الاستغفار تعبدي فهو بعيد.

الفقرة الأخيرة في الآية الكريمة تقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾.

«العشي» فترة ما بعد الظهر إلى قبل غروب الشمس، أمّا «الإبكار» فهو ما بين الطلوعين.

ويمكن أن تطلق لفظتا (العشي والإبكار) على الوقت المعيّن بالعصر والصباح، حيث يكون الإنسان مُهيأً للحمد وتسبيح خالقه تبارك وتعالى بسبب عدم شروعه بعد بعمله اليومي، أو أنّه قد انتهى منه.

وقد اعتبر البعض أنّ هذا الحمد والتسبيح إشارة إلى صلاتي الصبح والعصر، أو الصلوات اليومية الخمس، في حين أنّ ظاهر الآية ينطوي على مفهوم أوسع من ذلك، والصلوات هي إحدى مصاديقها.

في كلّ الأحوال تعتبر التعليمات الثلاث الآنفة الذكر شاملة لبناء الإنسان وإعداده للرقي في ظلّ اللطف والرعاية الإلهيّة، وهي إلى ذلك زاده في سيره للوصول نحو الأهداف الكبيرة.

فهناك أوّلاً - وقبل كلّ شيء - التحمّل والصبر على الشدائد والصعوبات، ثمّ تطهير النفس من آثار الذنوب، وأخيراً تتويج كلّ ذلك بذكر الله، حيث تسبيحه وحمده يعني تنزيهه من كلّ عيب ونقص، وحمده فوق كلّ حسن وكمال.

إنّ الحمد والتسبيح الذي يكون لله تعالى يؤثّر في قلب الإنسان ويطهّره من جميع العيوب، ومن سيئات الغفلة واللهو، ويجعله يتصف باليقظة والكمال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التّفسير

ما يستوي الأعمى والبصير!

دعت الآيات السابقة رسول الله ﷺ إلى الصبر والاستقامة أمام المعارضين وأكاذيبهم ومخططاتهم الشيطانية، والآيات التي نحن بصددها تذكر سبب مجادلتهم للحق.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

«المجادلة» - كما أشرنا سابقاً - تعني العناد في الكلام وإطالته بأحاديث غير منطقية، وإن كانت تشمل أحياناً في معناها الواسع الحق والباطل.

أمّا قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ فهي للتأكيد على ما يستفاد من معنى المجادلة حيث تعني «سلطان» الدليل والبرهان الذي يكون سبباً لهيمنة الإنسان على خصمه.

أمّا ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ فهي إشارة إلى الأدلة والبراهين التي أوحى الله بها إلى أنبيائه عليهم السلام، ولا ريب أنّ الوحي هو أفضل الطرق وأكثرها اطمئناناً لإثبات الحقائق.

أمّا المقصود بـ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي كانوا يجادلون فيها، فهي معجزات وآيات القرآن والأحاديث المختصة بالمبدأ والمعاد، حيث كانوا يعتبرونها سحراً، أو أنّها علامات الجنون، أو أساطير الأوّلين!

من ذلك يتبيّن أن ليس لهؤلاء من دليل حي ومنطقي في المجادلة سوى التعالي والغرور والتكبر عن الانصياع إلى الحق، لذلك كانوا يرونَ أنّ أفكار الآخرين وعقائدهم باطلة وأنّ عقائدهم وأفكارهم حقّة!

تشير كلمة ﴿إِنَّ﴾ إلى أنّ السبب الوحيد لعنادهم في هذه الموارد هو الغرور والتكبّر، وإلاّ كيف يصرّ الإنسان على كلامه وموقفه دون دليل أو برهان.

«الصدور» تشير هنا إلى القلوب، والمقصود بالقلب هو الفكر والروح، حيث ورد هذا المعنى مرّات عدّة في آيات الكتاب المبين.

أمّا كلمة ﴿كِبْرٌ﴾ في الآية فقد فسّرها بعض المفسّرين بالحسد.

وبذلك اعتبر هؤلاء أنّ سبب مجادلتهم لرسول الله ﷺ هو حسدهم له ولمنزلته ومقامه المعنوي والظاهري.

لكن ﴿كِبۡرٌ﴾ لا تعني في اللغة المعنى الآنف الذكر، لكنّه يمكن أن يلازمها، لأنّ من يتكبّر يحسد، إذ لا يرى المتكبّر المواهب إلاّ لنفسه، ويتألم إذا انصرفت لغيره حسداً منه وجهلاً.

ثم تضيف الآية: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾.

إنّ هدفهم أن يروا أنفسهم كباراً، يفاخرون بذلك ويفتخرون على غيرهم، لكنّهم لن يحصدوا سوى الذلّة والخسران، ولن يصلوا بطريق التكبّر والغرور والعلو والمجادلة بالباطل إلى ما يبتغونه(١).

في نهاية الآية تعليمات قيمة لرسول الله ﷺ بأن يستعيذ بالله من شرّ هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم، حيث يقول تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

فهو - تعالى - يسمع أحاديثهم الباطلة الواهية، وينظر إلى مؤامراتهم وأعمالهم القبيحة وخططهم الشريرة.

والاستعاذة بالله لا تنبغي لرسول الله ﷺ وحده وحسب، وإنّما تجب على كل السائرين في طريق الحق عندما تتعاظم الحوداث ويستعر الصِّدام مع المتكبرين عديمي المنطق!

لذلك نرى استعاذة يوسف عليه السلام عندما تواجهه العاصفة الشديدة المتمثلة بشهوة «زليخا» يقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ فكيف أخون عزيز مصر الذي أكرمني وأحسن وفادتي.

وفي آيات سابقة من نفس هذه السورة نقرأ أنّ كليم الله موسى عليه السلام قال: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾(٢).

---

(١) ثمّة بين المفسّرين كلام حول مرجع الضمير في قوله: «بالغيه» أشهره قولان:
الأوّل: أن يعود الضمير إلى ﴿كِبۡرٌ﴾ وتكون ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ جملة وصفية لـ ﴿كِبۡرٌ﴾ ويكون المعنى هكذا: إنّهم لا يصلون إلى مقتضى وهدف تكبرهم (في الواقع حذف هنا المضاف والتقدير «ما هم ببالغي مقتضى كبرهم»).
الثّاني: أن يعود الضمير إلى «جدال» الذي يستفاد من جملة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ والمعنى أنّهم لن يصلوا إلى هدف جدالهم المتمثل بإبطال الحق. ولكن في هذه الحالة لا نستطيع أن نقول: إنّ الجملة صفة لـ ﴿كِبۡرٌ﴾ بل ينبغي أن نعطفها على ما سبقها مع حذف العاطف.

(٢) سورة المؤمن، الآية: ٢٧.

إنّ قضية المعاد وعودة الروح للإنسان بعد موته، تعتبر من أكثر القضايا التي يجادل فيها الكفار، ويعاندون بها رسول الله ﷺ لذلك تنتقل الآية التالية إلى التذكير بهذه القضية، وإعادة طرحها وفق منطق قرآني آخر، إذ يقول تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

إنّ خالق هذه المجرّات العظيمة ومدبّرها يستطيع - بطريق أولى - أن يحيي الموتى، وإلاّ كيف يتّسق القول بخلقه السماوات والأرض وعجزه من إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت؟

إنّ هذا المنطق يعبّر عن جهل هؤلاء الذين لا يستطيعون إدراك هذه الحقائق الكبرى!

أغلب المفسّرين اعتبر هذه الآية ردّاً على مجادلة المشركين بشأن قضية المعاد، بينما احتمل البعض أنّها رد على كبر المتكبرين والمغرورين الذين كانوا يتصورون أنّ ذواتهم وأفكارهم عظيمة غير قابلة للردّ أو النقض، في حين أنّها تافهة بالقياس إلى عظمة عالم الوجود[1] .

هذا المعنى غير مستبعد، ولكن إذا أخذنا بنظر الاعتبار الآيات التي بعدها يكون المعنى الأوّل أفضل.

لقد تضمّنت الآية الكريمة سبباً آخر من أسباب المجادلة متمثلاً بـ «الجهل» في حين طرحت الآيات السابقة عامل «الكبر». والعاملان يرتبطان مع بعضهما، لأنّ أصل وأساس «الكبر» هو «الجهل» وعدم معرفة الإنسان لحدوده وقدره، ولعدم تقديره لحجم علمه ومعرفته.

الآية التي بعدها، وفي إطار مقارنة واضحة تكشف عن الفرق بين حال المتكبرين الجهلة وبين المؤمنين الواعين، حيث تقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾[2] .

إلاّ أنّكم بسبب جهلكم وتكبّركم: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾[3] .

---

(١) يلاحظ الرأي الأوّل في مجمع البيان، تفسير الفخر الرازي، الكشاف، روح المعاني، الصافي وروح البيان.

(٢) النظرة الأولية في الآية قد لا توجب معنى لـ «لا النافية» في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ ولكن تأكيد النفي من ناحية، وتجلية المقصود من الجملة من ناحية ثانية، أوجب تكرار النفي، مضافاً إلى أنّ طول الجملة قد يؤدّي إلى نسيان الإنسان للنفي الأول، الأمر الذي يوجب التكرار.

(٣) ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ زائدة، وهي للتأكيد.

إنّ المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمة العالم المحيط بهم، وبذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم ومعرفتهم وموقعهم، إلاّ أنّ الأعمى لا يدرك موقعه أو حجمه في الزمان والمكان وفي عموم الوجود المحيط به، لذلك فهو يخطىء دائماً في تقييم أبعاد وجوده، ويصاب بالكبر والغرور والوهم الذي يدفعه إلى ما هو قبيح وسيّئ.

ونستفيد أيضاً من خلال ارتباط الجملتين ببعضهما البعض أنّ الإيمان والعمل الصالح ينوّر بصائر القلب والفكر بنور المعرفة والتواضع والاستقرار، بعكس الكفر والعمل الطالح الذي يجعل الإنسان أعمى فاقداً لبصيرته، مشوّهاً في رؤيته للأشياء والمقاييس.

الآية الأخيرة في المجموعة القرآنية التي بين أيدينا تتعرّض إلى وقوع القيامة وقيام الساعة حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

«إن» واللام» في ﴿لَآتِيَةٌ﴾ وجملة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ كلها للتأكيد المكرّر الذي يستهدف تأكيد المضمون والمعنى المراد، وهو قيام القيامة.

لقد عالجت الرؤية القرآنية قضية القيامة في أكثر من مكان ومورد، بمختلف الأدلة ووسائل الإقناع، لذلك نرى بعض الآيات تذكر قيام الساعة والقيامة بدون مقدمات أو دليل، مكتفية بما ورد من أدلة ومقدمات في أماكن أُخرى من الكتاب المبين.

﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ كما يقول «الراغب» في «المفردات» هي بمعنى: أجزاء من أجزء الزمان.

إنَّ الإشارة التي يطويها هذا الاستخدام لكلمة ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ يشير إلى السرعة التي يتم فيها محاسبة الناس هناك.

لقد استخدمت الكلمة عشرات المرّات في القرآن الكريم، لتدل بشكل عام على المعنى الآنف الذكر، لكنّها تعني في بعض الأحيان نفس القيامة، فيما تعني في أحيان أُخرى الإشارة إلى انتهاء العالم ومقدمات البعث والنشور. وبسبب من الارتباط القائم بين الحدثين والقضيتين، وأنّ كلاهما يحدث بشكل مفاجىء، لذا تمّ استخدام كلمة «الساعة». (يمكن للقارىء الكريم أن يعود إلى بحث مفصل حول ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في تفسير سورة الروم).

أمّا سبب القول: بـ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يعود إلى أنّ قيام القيامة من القضايا المجهولة والمبهمة، بل ثمّة ميل في الإنسان نحو «الحرية» في الاستفادة غير

المشروطة أو المقيدة من ملذّات الدنيا وشهواتها، بالإضافة إلى الأمل الطويل العريض الذي يلازم الإنسان فينساق مع الحياة، ويغفل عن التفكير بالقيامة، أو الاستعداد لها.

ملاحظة

اليهود المغرورون

لقد ذكر بعض المفسّرين في سبب نزول الآية الأُولى - من مجموعة الآيات التي بين أيدينا - بحثاً مفاده أنّ اليهود كانوا يقولون: سيخرج المسيح الدجال فنعينه على محمّد وأصحابه ونستريح منهم، ونعيد الملك إلينا (مجمع البيان - الجزء الثامن - صفحة (٨٢٢) طبعة دار المعرفة).

يمكن أن يشمل هذا السبب فيما يتضمّن من ادعاءات اليهود معنيين: الأوّل: أنّهم أرادوا أن ينتصر المسيح على الدّجال، من خلال ادعائهم أنّ «المسيح المنتظر» هو منهم وتطبيق الدجّال، والعياذ بالله، على النّبي الأكرم ﷺ.

الثاني: أنّهم كانوا حقاً في انتظار الدجّال الذي كانوا يعتبرونه من أنفسهم.

ذلك أنّ المسيح وكما ذكر «الراغب» في «المفردات» وابن منظور في «لسان العرب» تطلق على «عيسى» عليه السلام بسبب سيره وسياحته في الأرض، أو بسبب شفائه للمرضى بأمر الله عندما كان يمسح بيده عليهم. وكانت تطلق أيضاً على «الدجال» لأنّ الدجال له عين واحدة، بينما كان مكان العين الأُخرى ممسوحاً.

ويحتمل أن يكون اليهود ينتظرون خروج الدجال ليتعاونوا معه في دحر المسلمين الذين هزموهم مرّات عديدة ممّا أثار غضبهم على رسول الله ﷺ.

وقد يكونون في انتظار المسيح، كما يستفاد من قاموس الكتاب المقدس حيث يظهر أنّ المسيحيين واليهود ينتظرون خروج المسيح، لأنّهم يعتقدون بأنّ المسيح سيحارب الدجال ويقضي عليه. لذلك أرادوا تطبيق هذا المعنى على ظهور الإسلام.

وقد استنتج بعض المفسّرين من سبب نزول هذه الآية على أنّها مدنية دون غيرها من آيات هذه السورة المكّية. ولكن عدم ثبوت سبب النّزول، كما أنّ عدم وضوح مفاد الآية وإبهامها يستوجب ضعف هذا الاستنتاج.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣)﴾

التّفسير

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

لقد تضمّنت الآيات السابقة ألوان الوعيد والتهديد لغير المؤمنين من المتكبرين والمغرورين، المجموعة التي بين أيدينا من الآيات الكريمة تفيض حبّاً إلهيّاً ولطفاً، وتنبجس بالرحمة الشاملة للتائبين.

يقول تعالى أوّلاً: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

لقد فسّر الكثير من المفسّرين «الدعاء» بمعناه المعروف، وما يؤكّد ذلك هو جملة ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بالإضافة إلى ما تفيده الروايات العديدة الواردة بخصوص هذه الآية وثواب الدعاء، والتي سنشير إلى بعض منها فيما بعد.

ولكن بعض المفسّرين تبع (ابن عباس) في رأيه بأنّ الدعاء هنا بمعنى التوحيد وعبادة الخالق جلّ وعلا، أي «اعبدوني واعترفوا بوحدانيتي» إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأظهر.

ونستفيد من الآية أعلاه مجموعة ملاحظات هي:

١ - أنّ الله يحب الدعاء ويريده ويأمر به.

٢ - لقد وعد الله بإجابة الدعاء، لكن هذا الوعد مشروط وليس مطلقاً، فالدعاء واجب الإجابة هو ما اجتمعت فيه الشروط اللازمة للدعاء والداعي وموضوع الدعاء.

وفي هذا الإطار شرحنا ما يتعلّق بهذا الموضوع في تفسير الآية (١٨٦) من سورة البقرة.

٣ - الدعاء في نفسه نوع من العبادة، لأنّ الآية أطلقت في نهايتها صفة العبادة على الدعاء.

تتضمّن الآية في نهايتها تهديداً قوياً للذين يستنكفون عن الدعاء، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١).

أهمّية الدعاء وشروط الاستجابة

ثمّة تأكيد كبير على أهمّية الدعاء في الروايات المنقولة عن رسول الله ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام:

١ - في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «الدعاء مخ العبادة»(٢).

٢ - في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سئل: ما تقول في رجلين دخلا المسجد جميعاً، كان أحدهما أكثر صلاة، والآخر اكثر دعاءً فأيهما أفضل؟ قال «كلّ حسن».

لكن السائل عاد وسأل الإمام عليه السلام: قد علمت، ولكن أيهما أفضل؟ أجاب الإمام عليه السلام: «أكثرهما دعاء»، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. ثمّ أضاف بعد ذلك: «هي العبادة الكبرى»(٣).

٣ - في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه أجاب عن أفضل العبادات بقوله: «ما من شيء أفضل عند الله من أن يسأل ويطلب ممّا عنده، وما أحد أبغض إلى الله عزّ وجلّ ممن يستكبر عن عبادته، ولايسأل ما عنده»(٤).

٤ - في حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق أنّه عليه السلام قال: «إنّ عند الله عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلاّ بمسألة، ولو أنّ عبداً سدّ فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فاسأل تعط، إنّه ليس من باب يقرع إلا يوشك أن يفتح لصاحبه»(٥).

٥ - لقد ورد في بعض الرّوايات أنّ الدعاء أفضل حتى من تلاوة القرآن، كما أشار إلى ذلك الرّسول الأعظم ﷺ وحفيداه من أئمة المسلمين الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، حيث قالوا: «الدعاء أفضل من قراءة القرآن»(٦). وفي نطاق تحليل

---

(١) داخر من «دخور» وتعني الذلة، وهذه الذلة هي عقوبة ذلك التكبّر والاستعلاء.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٨٢٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أصول الكافي، ج ٢، باب: فضل الدعاء والحث عليه. ص ٤٦٦.
(٥) المصدر السابق، (باب فضل الدعاء والحث عليه) ص: ٤٦٦.
(٦) مكارم الأخلاق، ص ٣٨٩، طبقاً لنقل تفسير الميزان، ج ٢، ص٣٥، ذيل الآية ١٨٦ من سورة البقرة.

قصير نستطيع أن ندرك عمق مفاد هذه الأحاديث، فالدعاء يقود الإنسان من جانب إلى معرفة الله تبارك وتعالى، وهذه المعرفة هي أفضل رصيد للإنسان في وجوده.

ومن جانب آخر يدفع الدعاء الإنسان إلى الإحساس العميق بالفقر والخضوع تجاه خالقه جلّ وعلا ويبعده عن التعالي والغرور اللذين يعدّان الأرضية المناسبة للمجادلة في آيات الله والانحراف عن جادة الصواب والوقوع في المهالك.

من جانب ثالث يعمق الدعاء لدى الإنسان الشعور بأنه جلّ وعلا منبع النعم ومصدره ويدفعه إلى العشق والارتباط العاطفي مع الله جلّ جلاله.

ومن جانب رابع يشعر الإنسان بالحاجة إلى الله تعالى وأنّه رهين نعمته، ولذلك فهو موظّف بطاعته وتنفيذ أوامره، ويرهف إحساسه بالعبودية لله تعالى.

وخامس بما أنّه يعلم أنّ للإجابة شروطها، ومن شروطها خلوص النية، وصفاء القلب، والتوبة من الذنوب، وقضاء حوائج المحتاجين، والسعي في مسائل الناس من الأقرباء والأصدقاء وغيرهم، فلذلك يهتم ببناء الذات واصلاح النفس وتربيتها.

وسادس يركّز الدعاء في نفس الإنسان الداعي عوامل المنعة والإرادة والثقة، ويجعله أبعد الناس عن اليأس والقنوط أو التسليم للعجز (وقد تحدّثنا عن الدعاء وفلسفته وشرائطه ذيل الآية ٧٧ من سورة الفرقان).

ثمّة ملاحظة مهمّة هنا، هي أنّ الدعاء لا يلغي بذل الوسع والجهد من قبل الإنسان، وإنّما حسبما تفيد الروايات والأحاديث في هذا الشأن، على الإنسان أن يسعى ويبذل ويجهد، ويترك الباقي على الله تعالى. لذا لو جعل الإنسان الدعاء بديلاً عن العمل والجهد فسوف لا يجاب إلى مطلبه حتماً.

لذلك نقرأ في حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «أربعةٌ لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس في بيته يقول: اللّهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك بالطلب؟. ورجلٌ كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟ ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك بالاقتصاد؟ ألم آمرك بالإصلاح؟ ورجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة، فيقال له: ألم آمرك بالشهادة؟!»[1].

ومن الواضح أنّ الموارد التي يتحدّث عنها الحديث الشريف، إنّما مُنِعَ فيها الإنسان

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٥١١، باب من لا يستجاب له دعوة الحديث رقم (٢).

عن إجابة دعوته لعدم بذله قصارى جهده وسعيه، فعليه أن يتحمّل تبعة تقصيره وتفريطه.

من هنا يتضح أنّ أحد عوامل عدم استجابة الدعاء يتمثل في التباطؤ وترك الجهد المناسب للعمل واللجوء إلى الدعاء وقد جرت سنة الله تعالى على عدم إجابة مثل هذه الدعوات.

طبعاً، هناك عوامل وأسباب أُخرى لعدم استجابة بعض الأدعية. فمثلاً عادة ما يحدث أن يخطئ الإنسان في تشخيص مصالحه ومفاسده، إذ يصر أحياناً على موضوع معيّن ويطلبه من الخالق جلّ وعلا في حين ليس من مصلحته ذلك. ولكنّه يفهم ذلك فيما بعد.

وهذا الأمر يشبه إلى حدٍّ كبير الطفل أو المريض الذي يطلب بعض الأطعمة والأشربة ويشتهيها، فلا يجاب لطلبه ولا تلبّى رغباته، لأنّها قد تؤدّي إلى مضاعفة الخطر على صحته أو حتى المجازفة بحياته، ففي مثل هذه الموارد لا يستجيب الله تعالى لدعاء العبد، بل يدخر له الثواب يوم القيامة، مضافاً إلى أنّ لإجابة الدعاء شروطاً مذكورة في الآيات والرّوايات الشريفة وقد بحثنا هذا الموضوع مفصلاً في المجلد الأوّل من هذا التّفسير(١).

موانع استجابة الدعاء

لقد ذكرت بعض الروايات ذنوباً متعدّدة إذا ارتكبها الإنسان تحول بينه وبين إجابة دعائه، مثل سوء النية، النفاق، تأخير الصلاة عن وقتها، اللسان البذيء الذي يخشاه الناس، الطعام الحرام، وترك الصدقة والإنفاق في سبيل الله تعالى(٢).

وفي إطار هذه النقطة بالذات ثمّة حديث جامع عن الإمام الصادق عليه السلام ينقله «الشيخ الطبرسي» في «الاحتجاج» أنّه سئل: أليس يقول الله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقد نرى المضطر يدعوه ولا يجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوّه فلا ينصره؟ قال: «ويحك! ما يدعوه أحد إلاّ استجاب له، أمّا الظالم فدعاؤه مردود إلى أن يتوب، وأمّا المحق فإذا دعا استجاب له وصرف عنه البلايا من حيث لا يعلمه، أو ادخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن لم يكن الأمر الذي سأل العبد خير له إن أعطاه، أمسك عنه»(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) معاني الأخبار. طبقاً لما أورده نور الثقلين في ج ٤، ص ٥٣٤ وأصول الكافي.

(٣) تفسير الصافي ذيل الآية مورد البحث.

نعود الآن إلى الآية الكريمة. . . فبما أنّ الدعاء وطلب الحوائج من الله تعالى يعتبر فرعاً لمعرفته، لذا تتحدّث الآية التي تليها عن حقائق تؤدّي إلى ارتقاء مستوى المعرفة لدى الإنسان، وتزيد شرطاً جديداً لإجابة الدعاء، متمثلاً بالأمل في الإجابة، بل وانتظار تنجز الحاجة وتمامها.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾.

إنّ ظلمة الليل وهدوءه وسكونه يعتبر - من جانب - سبباً قهرياً لتعطيل الحركة اليومية لعمل الإنسان السوي ونشاطه، ومن ناحية أُخرى تمحو عن الإنسان تعب النهار، وتدفعه إلى الاستقرار والرأفة لجسده وأعصابه، في حين يعتبر النور والنهار أساس الحياة والحركة.

لذلك يضيف تعالى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

في النهار المبصر يُضاء محيط الحياة وتدب الحركة والنشاط في روح الإنسان وكيانه.

والطريف أنّ ﴿مُبْصِرًا﴾ تعني الذي يبصر، وعندما يوصف النهار بهذا الوصف، فإنّه في الحقيقة نوع من التأكيد في جعل الناس مبصرين. وقد بحثنا فيما سبق بالتفصيل عن فلسفة النور والظلام والليل والنهار(١).

ثم تضيف الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

إنّ النظام الدقيق كتناوب الليل والنهار والظلمة والنور، يعتبر واحداً من مواهب الله تبارك وتعالى وعطاياه لعباده، وسرّ من أسرار الحركة في الحياة وفي منظومة الوجود الكوني.

فبدون النور ليس ثمّة حياة أو حركة، ومن دون أن يتناوب الليل والنهار - أو الظلام والنور - سيؤدّي إلى تعطيل حركة الحياة، بل وجعلها مستحيلة. فشدّة النور - مثلاً - ستشل الموجودات وتعطّل نمو النبات، وكذلك الظلمة الدائمية لها أضرارها. ولكن الناس - وبدواعي العادة والأُلفة - لم يلتفتوا إلى هذه المواهب الإلهيّة وما تستبطنه من منافع لهم.

والملفت للنظر أنّ القاعدة تقتضي أن يكون هناك «ضمير» بدل «الناس» الثانية،

---

(١) يونس، ٨٧، والنمل، ٨٦، والقصص، ٧١.

فيكون القول: لكن أكثرهم لا يشكرون، إلاّ أنّ ذكر «الناس» بدلاً عن الضمير كأنّه يشير إلى أنّ طبع الإنسان الجاهل هو كفران النعم وترك الشكر، كما نقرأ ذلك واضحاً في الآية (٣٤) من سورة إبراهيم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. (يلاحظ هذا المعنى في تفسير الميزان وروح المعاني).

أمّا إذا ملك الإنسان عيناً بصيرة وقلباً عارفاً بحيث يرى النعم الإلهيّة اللامتناهية في كلّ مكان يحل به، وينظر إلى فيض النعم والعطايا والمواهب الربانية، فسيضطر طبيعياً إلى الخضوع والعبودية والشكر، ويرى نفسه صغيراً مديناً إلى خالق هذه العظمة وواهب هذه العطايا. (عن معنى الشكر وأقسامه يمكن مراجعة البحث الخامس في تفسير الآية «٧» من سورة إبراهيم).

الآية التي تليها تبدأ من توحيد الرّبوبية وتنتهي بتوحيد الخالقية والرّبوبية. فتقول أوّلاً: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ومربيكم الذي من صفاته أنّه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

ولا معبود إلاّ الله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

في الواقع إنّ وجود كلّ هذه النعم دليل على الربوبية والتدبير، وخالق كلّ شيء عنوان لصفة التوحيد في الربوبية، لأنّ الخالق هو المالك والمربي. ومن المعلوم أنّ الخلق يستدعي الرعاية الدائمة لأنّ الخالقية لا تعني أنّ الله يخلق الخلق ويتركها وشأنها، بل لابدّ وأن يكون الفيض الإلهي مستمراً في كلّ لحظة على جميع الموجودات. ولذلك فهذه الخالقية لا تنفصل عن الرّبوبية.

ومن الطبيعي أنّ هذا الإله هو الوحيد الذي يستحق العبادة، وأن ترجع إليه الأشياء.

لذا فإنّ جملة ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تعتبر الدليل لـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ وإنّ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هي النتيجة لذلك.

وتتساءل الآية في نهايتها: كيف يسوّغ الإنسان لنفسه الانحراف والتنكّب عن الجادة المستقيمة؟ فيقول تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(١).

ولماذا تتركون عبادة الله الواحد الأحد إلى عبادة الأصنام؟

والملاحظ أنّ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ صيغة مجهول، بمعنى أنّها تحرفكم عن طريق الحق،

---

(١) ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ من «إفك» وتعني الانحراف والرجوع عن طريق الحق وجادة الصواب. ولهذا السبب يقال للرياح المضادة «المؤتفكات». ويعبّر عن «الكذب» بـ «الإفك» بسبب ما فيه من انحراف عن بيان الحق.

وكأنّ المراد هو أنّ المشركين فاقدون للإرادة إلى درجة أنّهم يساقون في هذا المسير دون أيّ نسبة من الحرية والإرادة والاختيار في هذا المجال!

الآية الأخيرة - من مجموعة الآيات التي نبحثها - تأتي وكأنّها تأكيد لمواضيع الآيات السابقة، فيقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿يَجْحَدُونَ﴾ مشتقّة من مادة «جحد» وهي في الأصل تعني إنكار الشيء الموجود في القلب والنفس. بمعنى أنّ الإنسان يقر في نفسه وقلبه بعقيدة أو بشيء ما، وفي نفس الوقت ينفيه ويتظاهر بعكسه أو يعتقد بعدمه في نفسه ويثبته في لسانه.

ويطلق وصف الجحود على البخلاء والذين لا يؤمّل منهم الخير ويتظاهرون بالفقر دائماً. أمّا «الأرض الجحدة» فهي التي لا ينبت فيها النبات إلاّ قليلاً[1].

بعض علماء اللغة أوجز في تفسير «جحد» و«جحود» بقولهم: الجحود الإنكار مع العلم[2].

وبناءً على ما تقدّم فإنّ الجحود يتضمّن في داخله نوعاً من معاني العناد في مقابل الحق، ومن الطبيعي أنّ من يتعامل مع الحقائق بهذا المنظور لا يمكن أن يستمر في طريق الحق، فما لم يكن الإنسان باحثاً عن الحقيقة وطالباً لها ومذعناً أمام منطقها فسوف لن يصل إليها مطلقاً.

لذا فإنّ الوصول إلى الحق يحتاج مسبقاً إلى الاستعداد والبناء الذاتي، أي التقوى قبل الإيمان، وهو الذي أشار إليه تعالى في مطلع سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)﴾

---

(١) الراغب في المفردات مادة «جحد».

(٢) لسان العرب نقلاً عن «الجوهري».

التفسير

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾

تستمر هذه المجموعة من الآيات الكريمة بذكر المواهب الإلهيّة العظيمة وشمولها للعباد، كي تهب لهم المعرفة، وتُربّي في نفوسهم الأمل بالدعاء والتسليم وطلب الحوائج من الله تعالى.

والطريف في الأمر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن «النعم الزمانية» من ليل ونهار، بينما تتحدّث هذه المجموعة عن «النعم المكانية» أي الأرض المستقرة، والسقف المرفوع (السماء) حيث تقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

لقد خلق الله للإنسان الأرض كي تكون مقرّاً هادئاً ومستقراً آمناً له، إنّه المكان الخالي من المعوّقات الصعبة، متناسق في تشكيلته مع تكوين الإنسان الروحي والجسدي، حيث تتوفر في الأرض المصادر المختلفة للحياة والوسائل المتنوعة والمجانية التي يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآية: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي كالسقف والقبة فوقكم.

و﴿بِنَآءً﴾ كما يقول «ابن منظور» في لسان العرب، تعني البيوت التي كان عرب البادية يستفيدون منها ويستظلون تحتها كالخيم وكل ما يستظل الإنسان تحته.

إنّه تعبير جميل ودال، حيث يصوّر السماء كالخيمة التي تغطي أطراف الأرض ولا تنقص منها شيئاً. والمقصود بالسماء هنا الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض.

إنّ الخيمة الإلهيّة الكبيرة هذه تقلّل من شدّة أشعة الشمس، وعدمها يعرض الأرض إلى الأشعة الكونية الحارقة القاتلة لجميع الكائنات الحية الموجودة على الأرض، لذلك نرى أنّ روّاد الفضاء مضطرين لارتداء ملابس خاصة تحميهم من هذه الإشاعات.

إضافة إلى ما تقدّم، تمنع الخيمة السماوية سقوط الأحجار التي تنجذب من السماء نحو الأرض، حيث تقوم بإحراقها بمجرّد وصولها إلى غلاف الأرض ليصل رمادها بهدوء إلى الأرض.

وإلى هذا المعنى تشير الآية (٣٢) من سورة الأنبياء، حيث يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

ثمّ ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فيقول تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ

﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾. القامة متوازنة خالية من الانحراف، وجهٌ في تقاطيع جميلة لطيفة وفي منتهى النظم والاستحكام، إذ يمكن بلمحة واحدة التمييز بين الكائن البشري وبين الموجودات والكائنات الأُخرى.

إنّ الهيكل الإنساني الخاص يؤهّل الإنسان لإنجاز مختلف الأعمال من الصناعة والزراعة والتجارة والإدارة، وهو بامتلاكه للأعضاء المختلفة يعيش مرتاحاً مستفيداً من مواهب الحياة وعطايا الخالق.

الإنسان على خلاف أغلب الحيوانات التي تشرب الماء بفمها، فإنّه يحمل المشروبات والمأكولات بيديه، ويقوم بشرب الماء في منتهى الدّقة واللطافة، وهذا الأمر يجعل الإنسان أقدر على انتخاب ما يشاء من الأشربة والأطعمة. ويجعل ما يتناوله نظيفاً غير مخلوط مع غيره. فهو مثلاً يقشّر الفاكهة ويهذّبها قبل تناولها، ويرمي الأجزاء الزائدة.

لقد ذهب بعض المفسّرين في تفسير: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إلى معنى أوسع من الصورة والشكل الظاهري والتكوين الداخلي، فقال: إنّ المعنى يتضمّن كل الاستعدادات والأذواق التي خلقها الله في الإنسان وأودعها فيه، ففضّله بها على كثير ممن خلق.

وفي آخر الحديث عن سلسلة هذه العطايا والمواهب الإلهيّة، تتحدّث الآية عن النعمة الرّابعة، وهي الرزق الطيب بقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ تشتمل على معنى وسيع جدّاً، وهي تشمل الجيّد من الطعام واللباس والزوجة والمسكن والدواب، وهي أيضاً تشمل الكلام والحديث الطيّب الزكي النافع.

الإنسان يقوم بسبب جهله وغفلته بتلويث هذه المواهب الطاهرة والطيّبات اللذيذة، إلاّ أنّ الله أبقاها على نقائها وطهرها في عالم الوجود.

بعد بيان هذه المجموعة الرباعية من النعم الإلهيّة التي تتوزع بين الأرض والسماء وبين خلق الإنسان، تعود الآية للقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

إنّ هذه المواهب تعود لله مدبر الكون، خالق السماوات والأرض، لذلك فهو الذي يليق بمقام الرّبوبية لا غير.

---

(١) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ اسم إشارة للبعيد. واستخدامها في مثل هذه الموارد كناية على العظمة وعلو المقام.

الآية التي بعدها تستمر في إثارة قضية توحيد العبودية من طريق آخر. فتؤكّد انحصار الحياة الواقعية بالله تعالى وتقول: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾.

إنّ حياته عين ذاته، ولا تحتاج إلى الغير. حياته (جلّ وتعالى) أبدية لا يطالها الموت، بينما جميع الكائنات الحية تتمتع بحياة مقرونة بالموت وحياتها محدودة ومؤقتة تسترفد هذه الحياة من الذات المقدسة.

لذلك ينبغي للإنسان الفاني المحدود المحتاج أن يرتبط في عبادته بالحي المطلق، من هنا تنتقل الآية مباشرة إلى تقرير معنى الوحدانية في العبودية من خلال قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وعلى أساس هذه الوحدانية تتقرّر قضية أُخرى يتضمّنها قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ واتركوا جانباً كلّ شيء غيره، لأنّها جميعاً فانية، وحتى في حال حياتها فهي في تغيّر دائم «فالذي لا يتغيّر هو الله تعالى فقط. والذي لم يمت ولن يموت هو سبحانه فحسب».

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

والتعبير القرآني درس للعباد بأن يتوجّهوا بالشكر والحمد إلى الخالق جلّ وعلا دون غيره، فهو جزيل العطايا كثير المواهب متواصل النعم على عباده، خاصّة نعمة الحياة والوجود بعد العدم.

الآية الأخيرة من المجموعة القرآنية، هي في الواقع خلاصة لكل البحوث التوحيدية الآنفة، وجاءت لكي تقضي على أدنى بارقة أمل قد يحتمل وجودها في نفوس المشركين، إذ يقول تعالى موجّهاً كلامه إلى النّبي الأكرم ﷺ: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾.

ولم ينهاني ربّي عن عبادة غيره فحسب، بل: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. فهنا نهي عن عبادة الأصنام يتبعه - مباشرة - بدليل منطقي من البراهين والبينات، ومن العقل والنقل، في أن يسلم لـ «ربّ العالمين» وفي هذه العبارة أيضاً دليل آخر على المقصود، لأنّ كونه ربّ العالمين دليل كاف على ضرورة التسليم في مقابله.

ومن الضروري أن نشير إلى افتراق الأمر والنهي في هذه الآية، فهناك أمر بالتسليم لله جلّ وعلا، ونهي عن عبادة الأصنام، وقد يعود السبب في التفاوت بين النهي والأمر إلى أنّ الأصنام قد تختص بصفة «العبادة» وحسب، لذلك جاء النهي عن عبادتها. أمّا

بالنسبة لله تعالى فبالإضافة إلى عبادته يجب التسليم له والانصياع والانقياد إلى أوامره وتعليماته.

لذلك نقرأ في الآيتين (١١ - ١٢) من سورة «الزمر» قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

إنّ أمثال هذه الصيغ والأساليب المؤثّرة يمكن أن نلمسها في كلّ مكان من كتاب الله العزيز، فهي تجمع الليونة والأدب حتى إزاء الأعداء والخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابلية لقبول الحق فسيتأثرون بالأسلوب المذكور.

ينبغي أن نلاحظ أيضاً التعبير في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ . . . ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ أي عليكم أنتم أن تحاسبوا أنفسكم، ولكن دون أن يثير فيهم حسّ اللجاجة والعناد.

الكلام الأخير في هذه المجموعة من الآيات هو أنّها أعادت وصف الخالق بـ «ربّ العالمين» في ثلاث آيات متتالية:

تقول أوّلاً: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأخيراً: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إنّه نوع من أنواع الترتيب المنطقي الذي يصل بين أجزائها وجوانبها فالآية الأُولى تشير إلى البركة وديموميتها، والثانية إلى اختصاص الحمد والثناء بذاته المقدّسة دون غيره، وأخيراً تخصيص العبودية وحصرها به دون غيره عزّ اسمه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

التّفسير

المراحل السبع لخلق الإنسان

تتميماً لما تحدّثت به الآيات السابقة عن قضية التوحيد، تستمر الآيات التي بين

أيدينا في إثارة نفس الموضوع من خلال الحديث عن «الآيات الأنفسية» والمراحل التي تطوي خلق الإنسان وتطوّره، من البدء إلى النهاية.

الآية الكريمة تتحدّث عن سبع مراحل تكشف عن عظمة الخالق جلّ وعلا وجزيل مواهبه ونعمه على العباد.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

يتّضح من سياق الآية الكريمة أنّ المرحلة الأُولى أو بداية الإنسان في مسيرة الخلق والوجود تكون من التراب، حيث خلق الله أبانا الأوّل آدم عليه السلام من تراب، أو أنّ جميع البشر خلقوا من التراب، ذلك أنّ المواد الغذائية التي تشكّل قوام الإنسان ووجوده، بما في ذلك النطفة - سواء كانت حيوانية أم نباتية - كلّها تستمد أساسها وأُصولها من التراب.

المرحلة الثانية، هي مرحلة النطفة التي تشمل جميع البشر كأصل ثان في وجودهم عدا آدم وزوجته حوّاء.

المرحلة الثّالثة التي تتكامل فيها النطفة وتنمو بشكل مستمر وتتحوّل إلى قطعة دم فتسمى بمرحلة «العلقة».

بعد ذلك تتحوّل «العلقة» إلى «مضغة» أشبه ما تكون باللحم «الممضوغ» وهي مرحلة ظهور الأعضاء، ثمّ مرحلة الحس والحركة، والآية لا تشير هنا إلى هذه المراحل الثلاث، لكن الآيات الأُخرى أشارت إلى ذلك بشكل واضح.

المرحلة الرّابعة تتمثل في ولادة الجنين، بينما تتمثل المرحلة الخامسة في تكامل القوّة الجسمية التي قيل إنّها تتم في سن الثلاثين، حيث سيحرز الجسم الإنساني أكبر قدر ممكن من نموه وتكامل قواه.

وقال البعض: إنّ الإنسان يصل هذه المرحلة قبل هذا السن، ومن الممكن أن تختلف هذه المرحلة عند الأشخاص إلى أن يحرز الإنسان فيها مرحلة «بلوغ الأشد» حسب التعبير القرآني.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الرجوع القهقرى إلى الوراء، فيفقد الإنسان قواه تدريجياً، فيصل إلى الشيب الذي يعتبر المحطة السادسة من محطات حياة الإنسان.

أخيراً، تنتهي حياة كلّ إنسان في الأرض بالموت والانتقال إلى العالم الآخر.

بعد كلّ هذه التغيّرات والتطوّرات، هل ثمّة من شك في قدرة وعظمة مبدىء عالم الوجود، وألطاف الله ومواهبه على الخلق؟!

الطريف أنّ الآية تستخدم في الإشارة إلى المراحل الأربع الأولى تعبير ﴿خَلَقَكُم﴾ حيث لايكون للإنسان أيّ دور فيها، حيث يتطور من التراب إلى النطفة ثمّ إلى العلقة فطفلاً صغيراً من دون أن يكون له أيّ دور في هذه التحولات، لكن في المراحل الثلاث التي تلي الولادة، أي مرحلة الوصول إلى أقصى القوّة الجسمية ثمّ مرحلة الشيب وانتهاء العمر، استخدمت الآية تعبير ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ﴾ و﴿لِتَكُونُوا﴾ وفيها إشارة إلى كيان الإنسان الحرّ، وفيها أيضاً ما يشير إلى الحقيقة التي تقول: إنّ نمو الإنسان ووجوده عبَر هذه المراحل الثلاث، وتقدّمه باطّراد أو تأخّره، يرتبط بشكل أو بآخر بحسن تدبير الإنسان أو سوء تدبيره، حيث يبلغ من الشيخوخة أو يموت مبكراً، وهذا يدل على مدى الدقّة في استخدام التعابير القرآنية الآنفة الذكر.

وسبق أن أشرنا إلى أنّ التعبير بـ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ الذي يتضمّن معنى الموت، لا يعني الفناء التام وفق المنطق القرآني، بل إنّ ملك الموت يمسك الروح ويقبضها بإذنه تعالى وبحسب الأجل الإلهي المحتوم، فتنتقل الأرواح إلى عالم آخر ألا وهو عالم «البرزخ».

إنّ تكرار مفاد هذا التعبير في القرآن الكريم، يبيّن بوضوح نظرة الإسلام تجاه الموت، هذا المفهوم الذي يخرج عن نطاق الفهم المادي الضيّق الذي يقرن الموت بالفناء والعدم، بينما الموت لا يعبّر إلاّ عن انتقال الروح من هذا العالم إلى عالم آخر هو عالم البقاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ قد يكون إشارة إلى حصول الموت قبل مرحلة الشيخوخة، أو قد يعني الإشارة إلى المراحل السابقة بأجمعها؛ بمعنى أنّ الموت قد يصيب الإنسان قبل أن يبلغ إلى مرحلة من المراحل السابقة.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنّ جميع المراحل، عدا المرحلة الأخيرة (أي بلوغ نهاية العمر وحلول الوفاة) قد عطفت بـ«ثم» وهي إشارة إلى السياق التسلسلي الترتيبي لوجودها في حياة الإنسان، فمرحلة «المضغة» لا تسبق - مثلاً - مرحلة «النطفة» وهكذا. وفي هذا النوع من العطف إشارة أيضاً إلى وجود الفاصلة بين مرحلة وأُخرى.

أمّا عطف المرحلة الأخيرة بـ(الواو) فقد يكون السبب فيه أنّ نهاية العمر لا تكون بالضرورة بعد انتهاء مرحلة الشيخوخة، إذ كثيراً ما يموت الإنسان قبل بلوغه إلى مرحلة الشيوخة (هناك بحث عن «الأجل المسمّى» ذيل الآية ٢ من سورة الأنعام والآية ٣٤ من سورة الأعراف والآية ٦١ من سورة النحل).

الآية الأخيرة في هذا البحث تتحدّث عن أهم مظهر من مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى متمثلة بقضية الحياة والموت، هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان - بالرغم من تقدّم العلم وتطوّره - في نطاق الأُمور الغامضة والمجهولة في معرفة الإنسان وعلمه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

إنّ الحياة والموت - بالمعنى الواسع للكلمة - بيد الله، سواء تعلّق ذلك بالإنسان أو النبات أو أنواع الحيوان والموجودات الأُخرى التي تتجلى فيها الحياة بأشكال متنوعة.

إنّ نماذج الحياة تعتبر أكثر النماذج تنوّعاً في عالم الوجود وكل الكائنات تنتهي بأجل معيّن إلى الموت، سواء في ذلك الكائن ذو الخليّة الواحدة أو الحيوانات الكبيرة، أو التي تعيش في الأعماق المظلمة للمحيطات والبحار، أو الطيور التي تعانق السماء، ومن الأحياء أحادية الخليّة السابحة في أمواج المحيطات إلى الأشجار التي يبلغ طولها عشرات الأمتار، فإنّ لكل واحد منها حياة خاصّة وشرائط معيّنة، وبهذه النسبة تتفاوت عملية موتها، وبدون شك فإنّ أشكال الحياة هي أكثر أشكال الخلقة تنوّعاً وأعجبها.

إنّ الانتقال من عالم إلى آخر؛ من الوجود المادي إلى الحياة، ومن الحياة في هذه الدّنيا إلى ما بعد الموت يستبطن أسراراً وعجائب بليغة تحكي عظمة الخالق ومدى قدرته في عالم الخليقة العجيب والمتنوع وكل واحدة من هذه القضايا المعقّدة والمتنوعة لا تعتبر مشكلة وعسيرة بالنسبة إلى قدرة الخالق جلّ وعلا، حيث تتحقق بمجرّد إرادته.

لذلك تقول الآية في نهايتها بياناً لهذه الحقيقة: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

إنّ كلمة ﴿كُن﴾ وبعدها ﴿فَيَكُونُ﴾ هي من باب عدم قدرة الألفاظ على استيعاب حقيقة الإرادة والقدرة الإلهيّة، وإلاّ فليس ثمّة من حاجة إلى هذه الجملة، لأنّ إرادة الله هي نفسها حدوث الكائنات ووجودها[1] بدون فصل.

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ في أثناء الحديث عن الآية (١١٧) من سورة البقرة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

التّفسير

عاقبة المعاندين المغرورين

مرّةً أُخرى تعود آيات الله البينات للحديث عن الذين يجادلون في آيات الله ولا يخضعون إلى منطق الحق ودلائل النبوّة ومضامين دعوات الأنبياء والرسل، هذه الآيات تتحدّث عن مصير هؤلاء، فتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

إنّ هذه المجادلة بالباطل المقترنة مع التعصّب الأعمى جعلتهم يحيدون عن الصراط المستقيم، لأنّ الحقائق لا تظهر أو تبيّن إلاّ في الروح الباحثة عن الحقيقة ومن ثمّ الإذعان لمنطقها.

إنّ طرح هذه القضية من قبل رسول الله ﷺ بصيغة الاستفهام يؤكّد أنّ من يتمتع بذوق سليم ومنطق قويم يثيره العجب من إنكار هذه الفئة لكل هذه الآيات البينات والدلائل والمعجزات.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان أمرهم عندما تقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾.

من الضروري أن نشير أوّلاً إلى أنّ السورة التي بين أيدينا تحدّثت أكثر من مرّة عن ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جاء ذلك في الآيتين (٣٥) و(٥٦) وهذه الآية، ونستفيد من القرائن أنّ المقصود بـ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هي دلائل النبوّة وعلائمها على الأكثر، بالإضافة

إلى ما تحويه الكتب السماوية، وطالما تتضمّن الكتب السماوية آيات التوحيد، والمسائل الخاصة بالمبدأ والمعاد، لذا فإنّ هذه القضايا مشمولة بجدال القوم وخصومتهم للحق.

وهل يستهدف التكرار تأكيد هذا الموضوع، أم أنّ كلّ آية تختص بطرح موضوع يختلف عن أُختها؟

الاحتمال الثّاني أقرب الى المراد. إذ يلاحظ أنّ لكل آية موضوع خاص.

فالآية (٥٦) تتحدّث عن دواعي المجادلة وأهدافها أي الكبر والغرور، في حين تتحدّث الآية (٣٥) عن عقابهم الدنيوي وأنّ الله ختم على قلوبهم.

أمّا الآية التي نتحدّث عنها الآن فهي تتحدّث عن العقاب الأُخروي، وأوصافهم في النّار ذات السعير.

من الضروري أن نشير أيضاً إلى أنّ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار. وهذه إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد الذين يكذبون بآيات الله لتبرير عقائدهم وأعمالهم السيئة المشينة، إنّما يقومون بالمجادلة بشكل مستمر من خلال الأقوال والذرائع الواهية.

وتنتهي الآية بتهديد من خلال قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي سوف يعلمون نتيجة أعمالهم وعاقبة أعمالهم السيئة وذلك في وقت ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴿٧٢﴾﴾ أي يلقي بهم في الماء المغلي ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[1].

﴿يُسْجَرُونَ﴾ من كلمة «سجر» على وزن «فجر» وتعني إشعال النّار وزيادة لهيبها - كما ذهب إليه الراغب في مفرداته -.

أمّا الآخرون من أرباب اللغة والتّفسير فيقولون: إنّها تعني ملء التنور بالنار[2].

لذلك يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذه المجموعة من الكفّار تصبح وقوداً للنار، كما نقرأ ذلك في الآية (٢٤) من سورة البقرة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

---

(١) ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ جمع «غل» وتعني الطوق حول العنق أو الرجل. وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «غلل» على وزن «أجل» بمعنى الماء الذي يجري بين الأشجار. ويطلق على «الخيانة» (غلول) وعلى الحرارة الناشئة من العطش «غليل» وذلك بسبب نفوذها تدريجياً إلى داخل أعماق الإنسان.
﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ جمع «سلسلة» و﴿يُسْحَبُونَ﴾ من كلمة «سحب» على وزن (سهو).

(٢) يلاحظ ذلك في «تفسير الصافي» و«روح المعاني» و«الكشاف» في نهاية الآيات التي نبحثها. وفي لسان العرب: المعنى الأصلي لـ«سجر» هوالملء. فيقال «سجرت النهر» أي ملأته ماءً.

البعض الآخر يقول: إنّ معنى الآية هو أنّ هؤلاء ستملأ النّار كلّ وجودهم وتستوعب كامل كيانهم. (طبعاً ليس ثمّة تعارض بين المعنيين).

هذا النوع من العقاب للمعاندين والمتكبرين والمجادلين يعتبر في الواقع انعكاساً لأعمالهم في هذه الدنيا، حيث كذّبوا بآيات الله بسبب كبريائهم وغرورهم، وقيّدوا أنفسهم بسلاسل التقليد الأعمى، وفي يوم الجزاء والقيامة ستطوقهم السلاسل من الأعناق بمنتهى الذلّة، وسيسحبون أذلاّء إلى نار جهنم وبئس المصير.

إضافة إلى هذا العذاب الجسماني سيعاقبون بمجموعة من أنواع العذاب الروحي والنفسي كما تشير إليه الآية التالية، حيث يقول تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ﴿٧٤﴾﴾؟!

أي أين شركاؤكم من دون الله كي ينقذوكم من هذا العذاب الأليم وأمواج النّار المتلاطمة؟ ألم تقولوا: إنّكم تعبدونهم وتطيعونهم وتتخذونهم أرباباً ليشفعوا لكم، إذاً أين شفاعتهم الآن؟!

فيجيبون بخضوع يغشاهم وذلّ يعلوهم: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾[1] أي اختفوا وهلكوا وأُبيدوا بحيث لم يبق منهم أثر.

ولا ريب، فإنّ من كانوا يدعونه من دون الله هم في نار جهنم، وقد يكونون بجانبهم، إلاّ أنّهم لا ينفعون ولا يؤثّرون وكأنّهم قد اختفوا!

وعندما يرى هؤلاء أنّ اعترافهم بعبادة الأصنام أصبح عاراً عليهم وعلامةً تميّزهم، فإنّهم يبدأون بالإنكار فيقولون: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾.

لقد كانت الأصنام مجرّد أوهام، لكنّا كنّا نظن أنّها تمثل حقائق ثابتة، لكنّها أصبحت كالسراب الذي يتصوّره العطشان ماءً، أمّا اليوم فقد ثبت لنا أنّها لم تكن سوى أسماء من غير مسمى وألفاظ ليس لها معنى، وأنّ عبادتها لم تنفعنا بشيء سوى الضلال. لذلك فهؤلاء اليوم يواجهون الواقع الذي لا سبيل إلى إنكاره.

هناك احتمال آخر في تفسير الآية، هو أنّهم سيكذبون لينقذوا أنفسهم من الفضيحة، كما نقرأ ذلك في الآيتين (٢٣) و(٢٤) من سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا

---

(١) لقد ذكر المفسّرون معنيين لكلمة ﴿ضَلُّوا﴾ فالبعض اعتبرها بمعنى ضاعوا وهلكوا، بينما قال البعض الآخر: إنّها بمعنى «غابوا» كقولنا «ضلت الدابة» أي غابت فلم يعرف مكانها.

وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وأخيراً يقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

إنّ كفرهم وعنادهم سيكون حجاباً على قلوبهم وعقولهم، ولذلك سيتركون طريق الحق ويسلكون سبيل الباطل، فيحرمون يوم القيامة من الجنّة وينتهي مصيرهم إلى النّار. وهكذا يضل الله الكافرين.

الآية التي بعدها تشير إلى علة مصائب هذه المجموعة، حيث يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

كانوا يفرحون بمعارضة الأنبياء وقتل المؤمنين والتضييق على المحرومين، وكانوا يشعرون بالعظمة عند ارتكاب الذنوب وركوب المعاصي واليوم عليهم أن يتحمّلوا ضريبة كلّ ذلك الفرح والغفلة والغرور من خلال هذه النيران والسلاسل والسعير.

﴿تَفْرَحُونَ﴾ من «فرح» وتعني السرور والابتهاج. وقد يكون الفرح ممدوحاً ومطلوباً في بعض الأحيان، كما تفيد الآيتان (٤) و (٥) من سورة «الروم» في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿٥﴾﴾.

وفي بعض الأحيان يكون الفرح مذموماً وباطلاً، كما ورد في قصة قارون، الآية (٧٦) من سورة «القصص» حيث نقرأ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

طبعاً ينبغي التفريق بين الموردين من خلال القرائن، ولا ريب من أنّ «الفرح» في الآية التي نبحثها من النوع الثّاني.

«تمرحون» مشتقّة من «مرح» على وزن «فرح» وهي كما يقول اللغويون والمفسّرون، تأتي بمعنى شدّة الفرح، وقال آخرون: إنّها تعني الفرح بسبب بعض القضايا الباطلة.

في حين ذهبت جماعة ثالثة إلى اعتبارها حالة من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب والاستفادة من النعم الإلهيّة في طريق الباطل.

والظاهر أنّ هذه المعاني جميعاً تعود إلى موضوع واحد، ذلك أنّ شدّة الفرح والإفراط فيه يشمل جميع المواضيع والحالات السابقة، وفي نفس الوقت فهو يتزامن مع أنواع الذنوب والآثام والفساد والشهوة[1].

---

(١) يقول الراغب في المفردات: «الفرح: انشراح الصدر بلذّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية. والمرح شدّة الفرح والتوسّع فيه».

إنّ هذه الأفراح المتزامنة مع الغرور والغفلة والشهوة، تبعد الإنسان بسرعة عن الله تبارك وتعالى وتمنعه من إدراك الحقيقة، فتكون الحقائق لديه غامضة والمقاييس معكوسة.

ولمثل هؤلاء يصدر الخطاب الإلهي: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

هذه الآية تؤكّد مرّة أُخرى على أنّ التكبّر هو أساس المصائب، ذلك أنّ التكبّر هو قاعدة الفساد، ويحجب البصائر عن رؤية الحق ويجعل الإنسان يخالف دعوة الأنبياء عليهم السلام.

ثم تشير الآية إلى أبواب جهنّم بقوله تعالى: ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾.

ولكن هل الدخول من أبواب جهنّم يعني أنّ لكل مجموعة باب معيّن تدخل منه، أو أنّ كلّ مجموعة منهم تدخل من أبواب متعدّدة؟

أي أنّ جهنّم تشبه السجون المخيفة التي تتداخل فيها الأبواب والدهاليز والممرات والطبقات، فبعض الضالين المعاندين يجب أن يسلكوا كلّ هذه الأبواب والممرات والطبقات قبل أن يستقرّوا في قعر جهنّم.

وممّا يؤيّد هذا التّفسير ما يروى عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه أجاب عن سؤال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾(١) أنّه قال: إنّ جهنّم لها سبعة أبواب، أطباق بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأُخرى، فقال هكذا(٢).

وثمّة تفسير آخر نستطيع أن نقف على خلاصته بالشكل الآتي: إنّ أبواب جهنم - كأبواب الجنّة - إشارة إلى العوامل المختلفة التي تؤدّي بالإنسان إلى دخولها، فكل نوع من الذنوب أو نوع من أعمال الخير يعتبر باباً.

وثمّة ما يشير الى ذلك في الروايات الإسلامية، ووفق هذا المعنى فإنّ العدد (٧) هو كناية.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٥١٩، نهاية الآية ٤٤ من سورة الحجر. هناك روايات أُخرى ذكرها العلاّمة المجلسي في ج ٨، من بحار الأنوار، ص ٢٨٩ و٣٠١ و٢٨٥.

عن الكثرة، وما ورد في القرآن الكريم من أنّ للجنّة ثمانية أبواب هو إشارة إلى ازدياد عوامل الرحمة على عوامل العذاب (راجع ذيل الآية ٤٤ من سورة الحجر).

وهذان التّفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

التّفسير

فاصبر... حتى يأتيك وعد الله

بعد سلسلة البحوث السابقة عن جدال الكافرين وغرورهم وتكذيبهم الآيات الإلهيّة والدلائل النبوية، تأتي هاتان الآيتان لمواساة النّبي الأكرم ﷺ وتأمرانه بالصبر والاستقامة في مواجهة المشاكل والصعاب.

يأتي الأمر أوّلاً في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

إنّ وعده بالنصر حق، ووعده بمعاقبة المستكبرين المغرورين حق، وكلاهما سيتحققان، فعلى أعداء الحق أن لا يظنّوا بأنّهم يستطيعون الهروب من العذاب الإلهي بسبب تأخر عقابهم، لذلك تضيف الآية: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾(١).

إنّ مسؤوليتك هي التبليغ البليغ وإتمام الحجة على الجميع، حتى تتنوّر القلوب اليقظة ببلاغك، ولا يبقى للمعاندين عذر!

عليك أن تهتم بإنجاز مهمتك ولا تنتظر أن يتحقق الوعيد عاجلاً بإنزال العقاب على هذه الفئة الضالة.

والكلام يتضمّن تهديداً إلى تلك الفئة لكي يعلموا أنّ العذاب مصيبهم، ونازل

---

(١) يلاحظ مثلها في الآية (٤٦) من سورة يونس.

بساحتهم، فكما نال بعضهم العقاب الذي يستحقونه في هذه الدنيا في «بدر» وغيرها، فهناك أيضاً يوم القيامة والعذاب المنتظر.

ثم تشير الآية الكريمة إلى الوضع المشابه الذي واجهه الرسل والأنبياء قبل رسول الله ﷺ كي تكون في هذه الذكرى مواساة أكثر للرسول الكريم، حيث واجه الأنبياء السابقين مثل هذه المشاكل، إلاّ أنّهم استمروا في طريقهم واحتفظوا بمسارهم المستقيم.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

لقد واجه كلّ منهم ما تواجهه أنت اليوم، فصبروا وكان حليفهم النصر والغلبة على الظالمين.

ومن جهة ثانية كان الجميع يطلبون من الرسل الإتيان بالمعجزة، ومشركو مكّة لم يشذّوا على غيرهم في طلب المعاجز من رسول الله ﷺ لذلك يخاطب الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

إنّ جميع المعاجز هي من عند الله وبيده، وبذلك فهي لا تخضع إلى أمزجة الكفار والمشركين، بل إنّ رسول الله ﷺ لا ينبغي له الاستسلام أمام «معجزاتهم المقترحة» بل ما يكون من المعجزة ضرورياً لهداية الناس وإحقاق الحقّ، يظهره الله على أيدي الأنبياء.

ثم تهدّد الآية من كان يقول: لماذا لا يشملنا العذاب الإلهي إذا كان هذا الرّسول صادقاً؟ فتقول الآية: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

في ذلك اليوم المهول تغلق أبواب التوبة، ولا تنفع الآهات والصرخات، ويخسر أهل الباطل صفقتهم، ويشملهم العذاب الإلهي الأليم، إذاً فلماذا كلّ هذا الإصرار على مجيء ذلك اليوم؟!

وفقاً لهذا التّفسير ينصرف معنى الآية والمقصود بالعذاب فيها إلى «عذاب الاستئصال».

ولكن بعض المفسّرين اعتبر هذه الآية بمثابة بيان للعذاب في يوم القيامة، فهناك يكون القضاء الحق بين الجميع، ويشاهد أنصار الباطل خسرانهم المريع.

إنّ فيما تضمّنته الآية (٢٧) من سورة «الجاثية» يؤكّد هذا التّفسير، إذ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾.

ولكن تمّ استخدام «أمر الله» وما شابهها في الآيات المتعدّدة التي تختص بعذاب الدنيا[١].

ويحتمل أن يكون للآية معنى أوسع يشمل عذاب الدنيا والآخرة، وفي المشهدين يتوضّح خسران المبطلين.

ومن الضروري هنا الإشارة إلى الحديث الذي رواه الشيخ الصدوق رحمه الله في أماليه بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام «قال: كان في المدينة رجل يضحك الناس، فقال: قد أعياني هذا الرجل أن أُضحكه - يعني علي بن الحسين عليه السلام - قال: فمرّ عليه السلام وخلفه موليان له، فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبته، ثمّ مضى فلم يلتفت إليه الإمام عليه السلام فاتبعوه وأخذوا الرداء منه، فجاؤوا به فطرحوه عليه فقال لهم: من هذا؟ فقالوا: هذا رجل بطّال يضحك أهل المدينة، فقال: قولوا له إن لله يوماً يخسر فيه المبطلون»[٢].

ملاحظة

كم عدد الأنبياء؟

للمفسّرين كلام كثير حول عدد أنبياء الله ورسله.

والرواية المشهورة في هذا المجال تذكر أنّ عددهم مائة وعشرون ألف نبي، في حين تقتصر روايات أُخرى على ثمانية آلاف، أربعة الآف منهم هم أنبياء بني إسرائيل، والباقون من غيرهم[٣].

وقد جاء في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «خلق الله عزّ وجلّ مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبيّ، أنا أكرمهم على الله ولا فخر، وخلق الله عزّ وجلّ مائة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي، وعلي أكرمهم على الله وأفضلهم»[٤].

---

(١) كما في «هود» الآيات: (٤٣)، (٧٦)، (١٠١).

(٢) الأمالي للصدوق، ص ٢٢٠، ح ٦، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٣٧، ح ١١٨.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٨٣٠، ذيل الآية مورد البحث.

(٤) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٠، حديث رقم ٢١.

وفي رواية أُخرى عن أنس بن مالك أنّ رسول الله قال: «بعثت على أثر ثمانية آلاف نبيّ، منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل»(١).

هذان الحديثان لا يتناقضان فيما بينهما، إذ يمكن أن يكون الحديث الثّاني قد أشار إلى الأنبياء العظام، كما يذكر ذلك العلاّمة المجلسي في توضيح هذا الكلام.

وفي حديث آخر أنّ رسول الله ﷺ أجاب على سؤال لأبي ذر رضي الله عنه عن عدد الأنبياء قائلاً بأنّهم (١٢٤) ألف نبي، وعن سؤال حول عدد الرسل منهم، أنّهم (٣١٣) رسول فقط(٢).

وفي حديث آخر أنّ رسول الله ﷺ بعد أن ذكر العدد (١٢٤) ألف قال: خمسة منهم أُولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد ﷺ(٣).

وهناك روايات أُخرى في هذا المجال تؤيّد العدد المذكور أعلاه.

من هنا يتضح أنّ هذه الرواية (حول عدد الأنبياء) ليست خبراً واحداً كما يقول «برسوئي» نقلاً عن بعض العلماء في تفسير «روح البيان»، بل هناك روايات متعدّدة ومستفيضة تؤكّد أنّ عدد الأنبياء الإلهيّين كان (١٢٤) ألف نبي. وأنّ مثل هذه الروايات موجودة في المصادر الإسلامية المختلفة.

والطريف في الأمر أنّ عدد الأنبياء الذين صرّح القرآن بأسمائهم هو (٢٦) نبي فقط، هم: آدم - نوح - إدريس - صالح - هود - إبراهيم - إسماعيل - إسحاق - يوسف - لوط - يعقوب - موسى - هارون - زكريا - شعيب - يحيى - عيسى - داود - سليمان - إلياس - اليسع - ذو الكفل - أيوب - يونس - عزير - ومحمّد (عليهم الصلاة والسلام).

ولكن هناك أنبياء آخرون أشار إليهم القرآن وإن لم يذكر أسماءهم صراحة مثل «أشموئيل» الذي ورد ذكره في الآية (٢٤٨) من سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾.

والنّبي «أرميا» الوارد في الآية (٢٥٩) من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾(٤).

---

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣١، حديث رقم ٢٢.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٢، حديث رقم ٢٤.

(٣) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٤١، حديث رقم ٤٣.

(٤) ثمّة بحث بين المفسّرين عن اسم هذا النّبي، إذ فيهم من قال: إنّه «أرميا» والبعض قال: إنّه «الخضر» وقال جمع: إنّه «عزير».

و«يوشع» المذكور في الآية (٦٠) من سورة «الكهف» في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾.

و«الخضر» الذي وردت الإشارة إليه في الآية (٦٥) من سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾.

وورد ذكر لأسباط بني إسرائيل، وهم زعماء قبائل بني إسرائيل كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾(١).

وإذا كان هناك أنبياء من بين إخوة يوسف عليه السلام فقد أُشير إليهم مرّات عديدة في سورة يوسف.

وخلاصة القول هنا أنّ القرآن أشار إلى قصص وحوادث ترتبط بأكثر من (٢٦) نبياً وهم المصرّح بأسمائهم مباشرة في القرآن الكريم.

ويستفاد من بعض الروايات الواردة في مصادر السنّة والشيعة أنّ الله بعث بعض الأنبياء من ذوي البشرة السوداء، كما يقول العلامة الطبرسي مثلاً في «مجمع البيان»: روي عن علي أنّه قال: «بعث الله نبيّاً أسود لم يقص قصته»(٢).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

التّفسير

منافع الأنعام المختلفة

تعود الآيات التي بين أيدينا للحديث مرّة أُخرى عن علائم قدرة الخالق (جلّ وعلا) ومواهبه العظيمة لبني البشر، وتشرح جانباً منها كي تزيد من وعي الإنسان ومعرفته بالله تعالى، ولينقدفع نحو الثناء والشكر فيزداد معرفة بخالقه.

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٨، ص ٨٣٠، ذيل الآية مورد البحث. وفي هوامش تفسير الكشّاف هناك روايات عديدة في هذا المجال. يلاحظ ج ٤، ص ١٨٠، طبعة دار الكتاب العربي.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فبعضها يختص بالغذاء كالأغنام، وبعضها للركوب والغذاء كالجمال التي تعتبر بحق سُفن الصحاري.

«أنعام» جمع «نعم» على وزن «قلم» وتطلق في الأصل على الجمال، لكنّها توسّعت فيما بعد لتشمل الجمال والبقر والأغنام، والمصطلح مشتق من «النعمة» بسبب أنّ أحد أكبر النعم على الإنسان هي هذه الأنعام. وفي يومنا هذا، وبالرغم من تقدّم التكنولوجيا في مجال النقل البرّي والجوّي، إلاّ أنّ الإنسان ما زال يستفيد من الأنعام، خصوصاً في الأماكن الصحراوية الرملية، التي يصعب فيها استخدام وسائل النقل الأُخرى، ويتمّ استخدام الأنعام والحيوانات في بعض المضائق والمناطق الجبلية، حيث يتعذّر استخدام غيرها من وسائل النقل الحديث.

لقد خلق الله الأنعام بأشكال مختلفة، وبروح تستسلم للإنسان وتنصاع إليه وتخضع لأوامره وتلبّي له احتياجاته، في حين أنّ بعضها أقوى من أقوى الناس، وهذا الانصياع في حدّ ذاته دليل من أدلة قدرة الخالق العظيم الذي سخّر لعباده هذه الأنعام.

إنّ من الحيوانات الصغيرة ما يكون خطره مميتاً للإنسان، في حين أنّ قافلة من الجمال يكفي صبي واحد لقيادها!

إضافة لما سبق تقول الآية التي بعدها: إنّ هناك منافع أُخرى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾.

الإنسان يستفيد من لبنها وصوفها وجلدها وسائر أجزائها الأُخرى، بل يستفيد حتى من فضلاتها في تسميد الأرض وإخصاب الزرع. وخلاصة القول: إنّه لا يوجد شيء غيو نافع في وجود هذه الأنعام، فكل جزء منها مفيد ونافع، حتى أنّ الإنسان بدأ يستخلص بعض الأدوية من أمصال هذه الحيوانات والملفت للنظر أنّ ﴿مَنَافِعُ﴾ جاءت نكرة في الآية لتبيّن أهمية ذلك.

ثم تضيف الآية: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

احتمل بعض المفسّرين أنّ معنى الآية ينصرف إلى حمل الأثقال الذي يتمّ بواسطة الأنعام، لكن يحتمل أن يكون المقصود بقوله تعالى: ﴿حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ الإشارة إلى بعض المقاصد والأهداف والرغبات الشخصية، إذ يستفاد من الأنعام في الترفيه والهجرة والسياحة والتسابق والتفاخر، وما إلى ذلك من رغبات تنطوي عليها نفس الإنسان.

ولأنّ الأنعام تعتبر وسيلة سفر على اليابسة، لذلك تقول الآية في نهايتها: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ هناك بحث عن منافع الحيوانات يمكن مراجعته أثناء الحديث عن الآية الخامسة من سورة النحل.

لقد جاء التعبير القرآني ﴿عَلَيْهَا﴾ (أي الأنعام) بالرغم من الإشارة المباشرة إليها سابقاً، ليكون مقدمة لذكر (الفلك). والمعنى أنّ الله جلّ وعلا سخّر لكم الوسائل في البر والبحر للانتقال ولحمل الأثقال كي تستطيعوا أن تبلغوا مقاصدكم بسهولة.

لقد جعلت للسفينة صفة خاصة بحيث تستطيع أن تبقى على سطح الماء بالرغم من الأثقال والأوزان الكبيرة التي عليها، وجعل الله تعالى الحركة في الريح بحيث تستطيع الفلك الاستفادة منها في حركتها وإيصال الإنسان والبضائع إلى مناطق مختلفة في العالم.

الآية الأخيرة هي قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ هل تستطيعون إنكار آياته في الآفاق وفي أنفسكم؟ أم هل تنكرون آياته في خلقكم من تراب وتحويلكم عبر مراحل الخلق إلى ما أنتم عليه، أم أنّكم تنكرون آياته في الحياة والموت والمبدأ والمعاد؟

وهل يمكنكم إنكار آياته في خلق السماء والأرض أو الليل والنهار، أو خلقه لأُمور تساعد في استمرار حياتكم كالأنعام وغيرها؟

أينما تنظر وتمد البصر فثمّة آيات الله وآثار العظمة في خلقه سبحانه وتعالى: «عميت عين لا تراك».

يقول المفسّر الكبير العلاّمة «الطبرسي» في تفسيره «مجمع البيان» في جوابه على هذا السؤال: ما هو سبب مثل هذا الإنكار مع وضوح الدلائل والعلامات؟

يقول: إنّ ذلك يمكن أن يعود إلى ثلاثة أسباب هي:

١ - عبادة الأهواء والانقياد إليها، لأنّ ذلك يؤدّي إلى حجب الإنسان عن رؤية الحق، (وينساق وراء غرائزه، لأنّ الحق يحدّد هذه الغرائز من خلال فرض التكاليف والوظائف الربانية. لذلك يعمد هؤلاء إلى إنكار الحق برغم دلائله الواضحة).

٢ - التقليد الأعمى للآخرين - خصوصاً السابقين - وهذا أمر يحجب الإنسان عن الحق.

٣ - الأحكام والاعتقادات الباطلة المترسّخة في وعي الإنسان، حيث يتحرّك

الإنسان معها من موقع التسليم والإذعان، فتحجبه عن إدراك الحق والانفتاح على آيات الله تبارك وتعالى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

لا ينفع الإيمان عند نزول العذاب

هذه الآيات هي آخر مجموعة من سورة المؤمن، ونستطيع أن نعتبرها نوعاً من الاستنتاج للبحوث السابقة، فبعد بيان كلّ الآيات الإلهيّة في الآفاق والأنفس، وكل تلك المواعظ اللطيفة التي تحدّثت عن المعاد، ومحكمة البعث الكبيرة، هددت هذه الآيات الكافرين المستكبرين والمنكرين المعاندين تهديداً شديداً، وواجهتهم بالمنطق والاستدلال، وأوضحت لهم عاقبة أعمالهم.

فأوّلاً تقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

فإذا كان عندهم شك في صحة التاريخ المدوّن على الأوراق، فهل عندهم شك فيما يلمسونه من الآثار الموجودة على سطح الأرض، من القصور الخربة للملوك، والعظام النخرة تحت التراب، أو المدن التي أصابها البلاء والعذاب وبقيت آثارها شاهدة على ما جرى عليها؟!

فأُولئك: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾. حيث يمكن معرفة عددهم وقوّتهم من آثارهم المتمثلة في قبورهم وقصورهم ومدنهم.

عبارة: ﴿وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ - سبق تفسيرها في الآية (٢١) من نفس السورة - لعلها إشارة إلى تقدّمهم الزراعي - كما جاء في الآية (٩) من سورة الروم - أو إشارة إلى البناء العظيم للأقوام السابقين في قلب الجبال والسهول[١].

---

(١) كما تذكره الآيتان (١٢٨ و١٢٩) من سورة الشعراء.

ومع هذه القوّة والعظمة التي كانوا يتمتعون بها، فإنّهم لم يستطيعوا مواجهة العذاب الإلهي: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾(١).

بل إنّ كلّ قواهم وقدراتهم أُبيدت خلال لحظات قصيرة، حيث خربت القصور وهلكت الجيوش التي كان يلوذ بها الظالمون. . . وسقطوا كما تسقط أوراق الخريف، أو أُغرقوا في خضم الأمواج العاتية.

فإذا كان هذا هو مصير أُولئك السابقين مع كلّ ما لديهم، فبأيّ مصير - يا ترى - يفكّر مشركو مكّة وهم أقل من أُولئك؟!

الآية التي بعدها تنتقل للحديث عن تعاملهم مع الأنبياء ومعاجز الرسل البيّنة، حيث يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾(٢) أي إنّهم فرحوا بما عندهم من المعلومات والأخبار، وصرفوا وجوههم عن الأنبياء وأدلتهم. وكان هذا الأمر سبباً لأن ينزل بهم العذاب الالهي: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

وذكر المفسّرون احتمالات عديدة عن حقيقة العلم الذي كان عندهم، والذي اغترّوا به وشعروا معه بعدم الحاجة إلى تعليمات الأنبياء، والاحتمالات هذه هي:

أوّلاً: لقد كانوا يظنون أنّ الشبهات الواهية والسفسطة الفارغة هي العلم، ويعتمدون عليها. لقد ذكر القرآن الكريم أمثلة متعدّدة لهذا الاحتمال، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾(٣) والآية حكاية على لسانهم.

وممّا حكاه القرآن عنهم أيضاً، قوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾(٤).

وقولهم في الآية (٢٤) من سورة الجاثية: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾.

وهناك أمثلة أُخرى لادعاءاتهم.

---

(١) هناك احتمالان في (ما) في جملة «ما أغنى» فإمّا نافية أو استفهامية، لكن يظهر أنّ الأوّل هو الصحيح، وهناك أيضاً احتمالان في «ما» في جملة ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فإمّا موصولة أو مصدرية ولكن الأوّل هو المرجح.

(٢) احتمل البعض أن يعود الضمير في ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ إلى الأنبياء، لذا يكون المقصود بالعلوم علوم الأنبياء، بينما المقصود من ﴿فَرِحُواْ﴾ هو ضحك واستهزاء الكفّار بعلوم الأنبياء، لكن هذا التفسير احتماله بعيد.

(٣) سورة يس، الآية: ٧٨. (٤) سورة السجدة، الآية: ١٠.

ثانياً: المقصود بها العلوم المرتبطة بالدنيا وتدبير أُمور الحياة، كما كان يدّعي «قارون» حيث يحكي عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[١].

ثالثاً: المقصود بها العلوم ذات الأدلة العقلية والفلسفية، حيث كان يعتقد البعض ممن يمتلك هذه العلوم أن لا حاجة له للأنبياء، وبالتالي فهو لا ينصاع لنبوّاتهم ودلائل إعجازهم.

التفاسير الآنفة الذكر لا تتعارض فيما بينها، لأنّها جميعاً تقصد اعتماد البشر على ما لديهم، واستعلاءهم بهذه «المعرفة» على دعوات الرسل ومعاجز الأنبياء، بل واندفع هؤلاء حتى إلى السخرية بالوحي والمعارف السماوية.

لكن القرآن الكريم يذكر مآل غرور هؤلاء وعلوّهم وتكبّرهم إزاء آيات الله، حينما يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾.

ثم تأتي النتيجة سريعاً في قوله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾.

لماذا؟ لأنّه عند نزول «الاستئصال» تغلق أبواب التوبة، وعادة ما يكون مثل هذا الإيمان إيماناً اضطرارياً ليس له ثمرة الإيمان الاختياري، إذ إنّه تحقق في ظل شروط غير عادية، لذا من المحتمل جدّاً أن يعود هؤلاء إلى سابق وضعهم عندما ترتفع الشروط الاستثنائية التي حلّت بهم.

لذلك لم يُقبل من «فرعون» إيمانه وهو في الأنفاس الأخيرة من حياته وعند غرقه في النيل.

وهذا الحكم لا يختص بقوم دون غيرهم، بل هو: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾.

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

ففي ذلك اليوم عندما ينزل العذاب بساحتهم، سيفهم هؤلاء بأنّ رصيدهم في الحياة الدنيا لم يكن سوى الغرور والظنون والأوهام، فلم يبق لهم من دنياهم سوى التبعات والعذاب الإلهي الأليم، وهل ثمّة خسران أكبر من هذا؟!

وهكذا تنتهي السورة المباركة (المؤمن) التي بدأت بوصف حال الكافرين المغرورين، ببيان نهاية هؤلاء وما آل إليه مصيرهم من العذاب والخسران.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

المغرورون بالعلم!

في الآيات المختلفة لهذه السورة المباركة - كما أوضحنا ذلك - يتبيّن أنّ أساس انحراف قسم كبير من الناس هو التكبّر والغرور.

قد يكون امتلاك المال من أسباب العلو والتكبّر، أو كثرة الأفراد وامتلاك القدرات العسكرية، أو كميّة محدودة من المعلومات في فرع من فروع المعرفة، يظنّ الإنسان أنّها كبيرة وكثيرة، فتدفعه إلى العلو والاستغناء والسخرية.

إنّ حالة عصرنا الراهن تعكس نموذج «الغرور العلمي» بشكل جلّي واضح، ففي ظل التقدّم السريع الذي أحرزته المجتمعات المادية في المجالات العلمية والتقنية، نراها عمدت إلى إلغاء دور الدين من الحياة، وقد سيطر الغرور العلمي على بعض علماء الطبيعة إلى درجة أنّهم تصوّروا أن لا يوجد في هذا العالم شيء خارج إطار علومهم ومعارفهم، وبما أنّهم لم يروا الله في مختبراتهم أنكروا وجوده وجحدوا نعمته.

لقد ذهب بهم الغرور إلى أكثر من ذلك عندما أصبحوا يجهرون أنّ الدين ووحي الأنبياء إنّما كانا بسبب الجهل أو الخوف، أمّا وقد حلّ عصر التقدّم العلمي فإنّ الحاجة إلى مثل هذه المسائل انعدمت تماماً، بل وعمدوا إلى فرض تفسير معيّن لتطوّر الحياة، يماشي ادّعاءهم هذا، فقالوا: إنّ الحياة الفكرية للبشر مرّت عبر المراحل الآتية:

١ - مرحلة الأساطير.

٢ - مرحلة الدين.

٣ - مرحلة الفلسفة.

٤ - مرحلة العلم، والمقصود بها العلوم الطبيعية.

بالطبع، نحن لا ننكر أنّ السلطة الديكتاتورية للكنيسة على عقول الناس في أُروبا، وشيوع الخرافات وأنواع التفكير الأُسطوري لقرون مديدة في تاريخ تلك القارّة، بالإضافة إلى القمع الذي كانت تمارسه طبقة رجال الدين الكنسي (الإكليروس) هناك؛ كلّ هذه العوامل ساهمت - إلى درجة كبيرة - في نمو المذاهب التي تقوم على أساس رفض الدين والإيمان والغيب، والاعتماد بدلاً عنها على أُسس المادة والتجربة والإلحاد.

ولحسن الحظ لم تستمر هذه المرحلة طويلاً، إذ اجتمعت مجموعة عوامل وساعدت

للقضاء على مثل هذه التصوّرات المنحرفة، وكأنّ العذاب قد مسّهم عندما ركبهم الغرور والعلو.

فمن ناحية أظهرت الحرب العالمية الأُولى والثانية أنّ التقدّم العلمي والصناعي قد جعل البشرية على حافة السقوط والدمار.

ومن ناحية ثانية، فإنّ ظهور المفاسد الأخلاقية والاجتماعية والقتل والإبادة وأنواع الأمراض النفسية، وسلسلة الاعتداءات المالية والجنسية، كلّ ذلك كشف عن عجز العلوم وقصورها لوحدها عن بناء الحياة الإنسانية بشكل سليم صحيح.

من جانب ثالث، عملت المساحات المجهولة في وعي الإنسان العلمي وقصوره عن الإحاطة بكافة أسباب الظواهر الطبيعية والحياتية إلى اعترافه بالعجز عن إدراك مطلق لأسباب المعرفة من خلال العلم وحده، فعاد الكثير من العلماء إلى ساحة الإيمان وجادّة الدين، وضعفت نوازع الدعاوى الإلحادية.

وفي المعترك الصعب هذا تألّق الإسلام بتعليماته الشاملة والجامعة، وبدأت موجات العودة نحو الإسلام الأصيل.

ونأمل أن تكون هذه اليقظة عميقة شاملة قبل أن يشمل البأس الإلهي مرّة أُخرى أجزاء من هذا العالم، ونأمل أن تزول آثار ذلك الغرور باسم العلم حتى لا يكون مدعاةً للخسران الكبير.

اللّهم احفظنا من الغرور ومن التكبّر والعناد وحبّ الذات الذي يقودنا إلى الهلاك وسوء العاقبة والافتضاح.

إلهي، اهد المجتمعات البشرية في عصرنا الحاضر إلى ظل تعليمات أنبيائك، قبل أن يشملهم بأسك الشديد.

اللّهم، اجعلنا ممن يأخذ العبرة من مصير الأقوام السالفة لكي لا نمسي عبرة للآخرين...

سُورَةُ فُصِّلَتْ

مكيّة وعدد آياتـها أربع وخمسون

نظرة في المحتوى العام للسورة

سورة «فصلت» من السور المكّية، وهي بذلك لا تخرج في مضامينها الأساسية عن مثيلاتها، بل تعكس في محتواها كامل خصائص السور المكّية، من التأكيد على المعارف الإسلامية التي تتصل بالعقيدة وبالحساب والجزاء، والوعيد والإنذار، وبالبشرى للذين آمنوا.

لكن كون السورة مكّية لا يعني عدم اختصاصها بمواضيع معيّنة قد لا نجدها فيما سواها من السور القرآنية الأُخرى.

بشكل عام يمكن الحديث عن محتويات السورة من خلال الخطوط العريضة التالية:

أوّلاً: التركيز على موضوع القرآن وما يتصل به من بحوث، كالإشارة الصريحة إلى حاكمية القرآن في جميع الأدوار والعصور، وصيانته من أيّ تحريف، وقوّة منطقه وتماسكه بحيث رأينا أعداء الله يخشون حتى من الاستماع إلى آياته، بل ويمنعون الناس من مجرّد الإنصات إليه. (٤١) و(٤٢) من السورة تتحدّثان عن هذه النقطة بوضوح كامل، إذ يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴿٤٢﴾﴾.

ثانياً: إثارة قضية خلق السماء والأرض، خاصّة ما يتعلّق ببداية العالم الذي خلق من مادّة (الدخان) ثمّ مراحل نشوء الكرة الأرضية والجبال والنباتات والحيوانات.

ثالثاً: ثمّة في السورة إشارات إلى عاقبة الأقوام المغرورين الأشقياء من الأُمم السابقة، مثل قوم عاد وثمود، وهناك إشارة قصيرة إلى قصة موسى عليه السلام.

رابعاً: تتضمّن السورة تهديد المشركين وإنذار الكافرين، مع ذكر آيات القيامة وما يتعلّق بشهادة أعضاء جسم الإنسان عليه، وتوبيخ الله تبارك وتعالى لأمثال هؤلاء.

خامساً: تتناول السورة قسماً من أدلة البعث والقيامة وخصوصياتهما.

سادساً: المواعظ والنصائح المختلفة التي تبعث في الروح الحياة من خلال الدعوة إلى الاستقامة في طريق الحق، وتوجيه المؤمن نحو أُسلوب التعامل المنطقي مع الأعداء وكيفية هدايتهم نحو الله.

سابعاً: تنتهي السورة ببحث لطيف قصير عن آيات الآفاق والأنفس، وتعود كرّةً أُخرى إلى قضية المعاد.

فضل تلاوة السورة

ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ قوله: «من قرأ «حم السجدة» أُعطي بكل حرف منها عشر حسنات»(١).

وفي حديث آخر حول فضيلة قراءة هذه السورة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ «حم السجدة» كانت له نوراً يوم القيامة مدّ بصره وسروراً، وعاش في هذه الدنيا مغبوطاً محموداً»(٢).

وفي حديث عن «سنن البيهقي» أنّ «خليل بن مرّة» كان يقول: إنّ النبي لم ينم ليلة من الليالي قبل أن يقرأ سورتي «تبارك» و«حم السجدة»(٣).

وطبيعي أنّ هذه السورة المباركة بكل ما تتضمّن في مضامينها العالية من أنوار ومعارف ومواعظ إنّما تكون مؤثّرة فيما لو تحوّلت تلاوتها إلى نور ينفذ إلى أعماق النفس، فتتحوّل في حياة الإنسان المسلم إلى دليل من نور يقوده في يوم القيامة نحو الصراط والخلاص، لأنّ التلاوة مقدمة للتفكير، والتفكير مقدمة للعمل، إنّ تسمية السورة بـ«فصلت» مُشتق من الآية الثّالثة فيها، وإطلاق «حم السجدة» عليها لأنّها تبدأ بـ«حم» والآية (٣٧) فيها هي آية السجدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

(١) تفسير مجمع البيان مطلع الحديث عن السورة، ج ٩، ص ٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٢٤، ص ص ٨٤.

التّفسير

عظمة القرآن

تذكر الرّوايات أنّ رسول الله ﷺ كان لا يكف عن عيب آلهة المشركين، ويقرأ عليهم القرآن فيقولون: هذا شعر محمّد، ويقول بعضهم: بل هو كهانة. ويقول بعضهم: بل هو خطب.

وكان الوليد بن المغيرة شيخاً كبيراً، وكان من حكّام العرب، يتحاكمون إليه في الأمور، وينشدونه الأشعار، فما اختاره من الشعر كان مختاراً، وكان له بنون لا يبرحون من مكّة، وكان له عبيد عشرة عند كلّ عبد ألف دينار يتّجر بها، وملك القنطار في ذلك الزمان (القنطار: جلد ثور مملوء ذهباً) وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ.

وفي يوم سأل أبوجهل الوليد بن المغيرة قائلاً له:

يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمّد؟ أسحر أم كهان أم خطب؟

فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ وهو جالس في الحجر، فقال: يا محمّد أنشدني من شعرك.

قال ﷺ: ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث أنبياءه ورسله.

فقال: اتل عليّ منهُ.

فقرأ عليه رسول الله (بسم الله الرحمن الرحيم) فلمّا سمع (الوليد) الرحمن استهزأ فقال:

تدعو إلى رجل باليمامة يسمّى الرحمن، قال: لا، ولكنّي أدعو إلى الله وهو الرحمن الرحيم.

ثم افتتح سورة «حم السجدة»، فلّما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] فلمّا سمعه اقشعر جلده، وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته، ثمّ قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم، صبأ أبو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع إلينا؟ وقد قبل قوله ومضى إلى منزله، فاغتمّت قريش من ذلك غمّاً شديداً.

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ١٣.

وغدا عليه أبو جهل فقال: يا عم، نكست برؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذلك يا بن أخ؟

قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال: ما صبوت، وإنّي على دين قومي وآبائي، ولكنّي سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود.

قال أبوجهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب هي؟

قال: إنّ الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، ولا يشبه بعضه بعضاً، له طلاوة.

قال: فكهانة هي؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعني أفكّر فيه.

فلّما كان من الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟

قال: قولوا هو سحر، فإنّه آخذ بقلوب الناس، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1] [2].

إنّ هذه الرّواية الطويلة تكشف بوضوح مدى تأثير آيات هذه السورة، بحيث إنّ أكثر المتعصّبين من مشركي مكّة أبدى تأثّره بآياتها، وذلك يظهر جانباً من جوانب العظمة في القرآن الكريم.

نعود الآن إلى المجموعة الأُولى من آيات هذه السورة المباركة، التي تطالعنا بالحروف المقطعة في أوّلها (حم).

لقد تحدّثنا كثيراً عن تفسير هذه الحروف، ولا نرى حاجة للإعادة سوى أنّ البعض اعتبر (حم) اسماً للسورة، أو أنّ (ح) إشارة إلى «حميد» و(م) إشارة إلى «مجيد» وحميد ومجيد هما من أسماء الله العظمى.

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١١ - ٣٠.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١١ فما فوق، ويمكن ملاحظة القصة في كتب أُخرى منها: تفسير القرطبي في مطلع حديثه عن السورة. ج ٨، ص ٥٧٨٢.

ثم تتحدّث عن عظمة القرآن فتقول: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

إنّ «الرحمة العامة» و«الرحمة الخاصة» لله تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمة التي هي رحمة للعدو والصديق، ولها بركات خاصّة للأولياء.

في الواقع إنّ الرحمة هي الصفة البارزة لهذا الكتاب السماوي العظيم، التي تتجسّد من خلال آياته العطرة التي تفوح بشذاها ونورها فتضيء جوانب الحياة، وتسلك بالإنسان مسالك النجاة والرضوان.

بعد التوضيح الإجمالي الذي أبدته الآية الكريمة حول القرآن، تعود الآيات التالية إلى بيان تفصيلي حول أوصاف هذا الكتاب السماوي العظيم، وذكرت له خمس صفات ترسم الوجه الأصلي للقرآن:

فتقول أوّلاً: إنّه كتاب ذكرت مطالبه ومواضيعه بالتفصيل كلّ آية في مكانها الخاص، بحيث يلبّي احتياجات الإنسان في كلّ المجالات والأدوار والعصور، فهو: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[(١)].

وهو كتاب فصيح وناطق ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وهذا الكتاب بشير للصالحين، نذير للمجرمين: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ إلاّ أنّ أكثرهم: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[(٢)].

بناء على ذلك فإنّ أوّل خصائص هذا الكتاب هو أنّهُ يتضمّن في تشريعاته وتعاليمه كلّ ما يحتاجهُ الإنسان وفي جميع المستويات، ويلبّي ميوله ورغباته الروحية.

الصفة الثانية أنّه متكامل، لأنّ «قرآن» مشتق من القراءة، وهي في الأصل بمعنى جمع أطراف وأجزاء الكلام.

الصفة الثّالثة تتمثل بفصاحة القرآن وبلاغته، حيث يذكر الحقائق بدقّة بليغة دون أيّ نواقص. وفي نفس الوقت يعكسها بشكل جميل وجذّاب.

الصفتان الرابعة والخامسة تكشفان عن عمق التأثير التربوي للقرآن الكريم، عن طريق أُسلوب الإنذار والوعيد والتهديد والترغيب، فآية تقوم بتشويق الصالحين والمحسنين بحيث إنّ النفس الإنسانية تكاد تطير وتتماوج في آفاق الملكوت والرحمة، وأحياناً تقوم آية بالتهديد والإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصورة وعنف المشهد.

---

(١) «كتاب» خبر بعد الخبر، وبهذا الترتيب فإنّ «تنزيل» خبر لمبتدأ محذوف و«كتاب» خبر بعد الخبر.

(٢) ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يمكن أن تكون متعلقة بـ«فصلت» أو بـ«تنزيل».

إنّ هذين الأصلين التربويين (الترغيب والتهديد) متلازمان في الآيات القرآنية ومترابطان في أُسلوبه.

ومع ذلك فإنّ المتعصّبين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، وكأنّهم لا يسمعونها أبداً بالرغم من السلامة الظاهرية لأجهزتهم السمعية، إنّهم في الواقع يفتقدون لروح السماع وإدراك الحقائق، ووعي محتويات النذير والوعيد القرآني.

وهؤلاء - كمحاولة منهم لثني الرّسول ﷺ عن دعوته، وإيغالاً منهم في الغي وفي زرع العقبات - يتحدّثون عند رسول الله بعناد وعلو وغرور حيث يحكي القرآن عنهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾.

ما دام الأمر كذلك فاتركنا وشأننا، فاعمل ما شئت فإنّنا عاكفون على عملنا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾.

حال هؤلاء كحال المريض الأبله الذي يهرب من الطبيب الحاذق، ويحاول أن يبعد نفسه عنه بشتّى الوسائل والأساليب.

إنّهم يقولون: إنّ عقولنا وأفكارنا موضوعة في علب مغلقة بحيث لا يصلها شيء.

«أكنّة» جمع «كنان» وتعني الستار، أي أنّ الأمر لا يقتصر هنا على ستار واحد، بل هي ستائر من العناد والتقليد الأعمى، وأمثال ذلك ممّا يحجب القلوب ويطبع عليها.

وقالوا أيضاً: مضافاً إلى أنّ عقولنا لا تدرك ما تقول، فإنّ آذاننا لا تسمع لما تقول أيضاً، وهي منهم إشارة إلى عطل المركز الأصلي للعمل والوسائل المساعدة الأُخرى.

وبعد ذلك، فإنّ بيننا وبينك حجاب سميك، بحيث حتى لو كانت آذاننا سالمة فإنّنا لا نسمع كلامك، فلماذا - إذاً - تتعب نفسك، لماذا تصرخ، تحزن، تقوم بالدعوة ليلاً ونهاراً؟ اتركنا وشأننا فأنت على دينك ونحن على ديننا.

هكذا... بمنتهى الوقاحة والجهل، يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جادة الحق.

والطريف أنّهم لم يقولوا: «وبيننا وبينك حجاب» بل أضافوا للجملة كلمة «من» فقالوا: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وذلك لبيان زيادة التأكيد، لأنّ بزيادة هذه الكلمة يصبح مفهوم الجملة هكذا: إنّ جميع الفواصل بيننا وبينك مملوءة بالحجب، وطبيعي أن يكون مثل هذا الحجاب سميكاً عازلاً للغاية ليقضي على كلّ نقاط الالتقاء بين الطرفين، وبذلك سوف لا ينفع الكلام مع وجود هذا الحجاب.

وقد يكون الهدف من قول المشركين: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ محاولتهم زرع اليأس عند النبي ﷺ. أو قد يكون المراد نوعاً من التهديد له، أي اعمل ما تستطيعه ونحن سوف نبذل ما نستطيع ضدّك وضدّ دينك، والتعبير يمثّل منتهى العناد والتحدّي الأحمق للحق ولرسالاته.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

التّفسير

من هم المشركون؟

الآيات التي بين أيدينا تستمر في الحديث عن المشركين والكافرين، وهي في الواقع إجابة لما صدر عنهم في الآيات السابقة، وإزالة لأيّ وهمّ قد يلصق بدعوة النّبي ﷺ.

يقول تعالى لرسوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

فلا أدّعي أنّي ملك، ولست إنساناً أفضل منكم، ولست بربّكم، ولا ابن الله بل أنا إنسان مثلكم، وأختلف عنكم بتعليمات التوحيد والنبوّة والوحي، لا أريد أن أفرض عليكم ديني حتى تقفوا أمامي وتقاوموني أو تهددونني، لقد أوضحت لكم الطريق، وإليكم يعود التصميم والقرار النهائي.

ثمّ تستمر الآية: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾(١).

ثمّ تضيف الآية محذّرة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

الآية التي تليها تقوم بتعريف المشركين، وتسلّط الضوء على جملة من صفاتهم وتختص هذه الآية بذكرها، حيث يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنّ هؤلاء يعرّفون بأمرين: ترك الزكاة، وإنكار المعاد.

---

(١) ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ مأخوذة من «الاستقامة» وهي هنا بمعنى التوجّه بشكل مستقيم نحو شيء معيّن، لذا فإنّها تعدّت بواسطة الحرف (إلى) لأنّها تعطي مفهوم (استواء).

لقد أثارت هذه الآية كلاماً واسعاً في أوساط المفسّرين، وذكروا مجموعة احتمالات في تفسيرها، والسبب في كلّ ذلك هو أنّ الزكاة من فروع الدين، فكيف يكون تركها دليلاً على الكفر والشرك؟

البعض أخذ بظاهر الآية وقال: إنّ ترك الزكاة يعتبر من علائم الكفر، بالرغم من عدم تلازمه مع إنكار وجوبه.

البعض الآخر اعتبر الترك مع تلازم الإنكار دليلاً على الكفر، لأنّ الزكاة من ضروريات الإسلام ومنكرها يعتبر كافراً.

وقال آخرون: الزكاة هنا بمعنى التطهير والنظافة، وبذلك يكون المقصود بترك الزكاة، ترك تطهير القلب من لوث الشرك، كما جاء في الآية (٨١) من سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾.

إلاّ أنّ كلمة ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾ لا تناسب المعنى أعلاه، لذلك يبقى الإشكال على حاله.

لذلك لا يبقى من مجال سوى أن يكون المقصود منها هو أداء الزكاة.

المشكلة الأُخرى التي تواجهنا هنا، هي أنّ الزكاة شرّعت في العام الثّاني من الهجرة المباركة، والآيات التي بين أيدينا مكّية، بل يذهب بعض كبار المفسّرين إلى أنّ سورة «فصلت» هي من أوائل السور النازلة في مكّة، لذلك كلّه - وبغية تلافي هذه المشكلة - فسّر المفسّرون الزكاة هنا بأنّها نوع من الإنفاق في سبيل الله، أو أنّهم تأوّلوا المعنى بقولهم: إنّ أصل وجوب الزكاة نزل في مكّة، إلاّ أنّ حدودها ومقدارها والنصاب الشرعي لها نزل تحديده في العام الثّاني من الهجرة المباركة.

يتبيّن من كلّ ما سلف أنّ أقرب مفهوم لمقصود الزكاة في الآية هو المعنى العام للإنفاق، أمّا كون ذلك من علائم الشرك، فيكون بسبب أنّ الإنفاق المالي في سبيل الله يعتبر من أوضح علامات الإيثار والحب لله، لأنّ المال يعتبر من أحبّ الأشياء إلى قلب الإنسان ونفسه، وبذلك فإنّ الإنفاق - وعدمه - يمكن أن يكون من الشواخص الفارقة بين الإيمان والشرك، خصوصاً في تلك المواقف التي يكون فيها المال بالنسبة للإنسان أقرب إليه من روحه ونفسه، كما نرى ذلك واضحاً في بعض الأمثلة المنتشرة في حياتنا.

بعبارة أُخرى: إنّ المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذي يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ وعلا، والأمر من هذه الزاوية بالذات يقترن بشكل متساوي مع عدم الإيمان بالمعاد، أو يكون ترك الزكاة ملازماً لإنكار وجوبه.

وثمّة ملاحظة أُخرى تساعد في فهم التّفسير، وهي أنّ الزكاة لها وضع خاص في الأحكام والتعاليم الإسلامية، وإعطاء الزكاة يعتبر علامة لقبول الحكومة الإسلامية والخضوع لها، وتركها يعتبر نوعاً من الطغيان والمقاومة في وجه الحكومة الإسلامية، ونعرف أنّ الطغيان ضدّ الحكومة الإسلامية يوجب الكفر.

والشاهد على هذا المطلب ما ذكره المؤرخون من «أصحاب الرّدة» وأنّهم من «بني طيئ» و«غطفان» و«بني أسد» الذين امتنعوا عن دفع الزكاة لعمال الحكومة الإسلامية في ذلك الوقت، وبهذا رفعوا لواء المعارضة فقاتلهم المسلمون وقضوا عليهم.

صحيح أنّ الحكومة الإسلامية لم يكن لها وجود حين نزول هذه الآية ولكن هذه الآية يمكنها أن تكون إشارة مجملة إلى هذه القضية.

وقد ذكر في التواريخ أنّ أهل الردّة قالوا بعد وفاة النّبي ﷺ: «أمّا الصلاة فنصلي، وأمّا الزكاة فلا يغصب أموالنا» وهكذا رأى المسلمون ضرورة قتالهم وقمع الفتنة[1].

الآية الأخيرة تقوم بتعريف مجموعة تقف في الجانب المقابل لهؤلاء المشركين البخلاء، وتتعرّض إلى جزائهم حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿مَمْنُونٍ﴾ مشتق من «منّ» وتعني هنا القطع أو النقص، لذا فإنّ غير ممنون تعني هنا غير مقطوع أو منقوص.

وقيل إنّ مصطلح «منون» - على وزن «زبون» - ويعني الموت مشتق من هذه المفردة، وكذلك المنّة باللسان، لأنّ الأوّل يعني القطع ونهاية العمر، بينما الثاني يعني قطع النعمة والشكر[2].

وذهب بعض المفسّرين إلى القول بأنّ المقصود بـ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أنّه لا توجد أيّ منّة على المؤمنين فيما يصلهم من أجر وجزاء وعطاء. لكن المعنى الأوّل أنسب.

ملاحظة

الأهمية الاستثنائية للزكاة في الإسلام

الآية أعلاه تعتبر تأكيداً مجدّداً وشديداً حول أهمية الزكاة كفريضة إسلامية، سواء

---

(١) تفسير روح الجنان، ج ١٠، ص ٦، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) يلاحظ مادة «من» في مفردات الراغب.

كانت بمعنى الزكاة الواجبة أو بمفهومها الواسع، لأنّ الزكاة تعتبر أحد الأدوات الرئيسية لتحقيق العدالة الاجتماعية، ومحاربة الفقر والمحرومية، وملء الفواصل الطبقية، بالإضافة إلى تقوية البنية المالية للحكومة الإسلامية، وتطهير النفس من حبّ الدنيا وحبّ المال، والخلاصة: إنّ الزكاة وسيلة مثلى للتقرّب إلى الله تبارك وتعالى.

وقد ورد في الروايات الإسلامية أنّ ترك الزكاة يعتبر بمنزلة الكفر، وهو تعبير يشبه ما ورد في الآية التي نحن بصددها.

وفي هذا المجال نستطيع أن نقف مع الأحاديث التالية:

أوّلاً: في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ من وصايا رسول الله لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب قوله له: «يا علي كفر بالله العظيم من هذه الأُمّة عشرة، وعدّ منهم مانع الزكاة... ثمّ قال: يا علي من منع قيراطاً من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا مسلم ولا كرامة، يا علي: تارك الزكاة يسأل الله الرجعة إلى الدنيا، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ[(١)]﴾»[(٢)].

ثانياً: في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلا بأدائها، وهي الزكاة، بها حقنوا دماءهم وبها سمّوا مسلمين»[(٣)].

ثالثاً: أخيراً نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[(٤)].

وتقدّم بحث مفصل عن أهمّية الزكاة في الإسلام وفلسفتها وتاريخ وجوب الزكاة في الإسلام، وكل ما يتعلّق بها من أُمور، في تفسير الآية (٦٠) من سورة التوبة.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩.

(٢-٤) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ١٨ و١٩ «باب ثبوت الكفر والارتداد والقتل بمنع الزكاة استحلالاً وجحوداً» وقد اعتبر بعض الفقهاء كصاحب الوسائل مثلاً، أنّ الروايات أعلاه تختص بإنكار الزكاة، وج ٩، ص ٣٢، ح ١١٤٥٠ و ١١٤٥٣ و ١١٤٥٥.

ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ
وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

التّفسير

مراحل خلق السماوات والأرض

الآيات أعلاه نماذج للآيات الآفاقية، وعلائم العظمة، وقدرة الخالق جلّ وعلا في خلق الأرض والسماء، وبداية خلق الكائنات، حيث يأمر تعالى النّبي الأكرم ﷺ بمخاطبة الكافرين والمشركين وسؤالهم: هل يمكن إنكار خالق هذه العوالم الواسعة العظيمة؟

لعلّ هذا الأسلوب يوقظ فيهم إحساسهم ووجدانهم فيحتكمون للحق.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾. وتجعلون لله تعالى شركاء ونظائر: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

إنّه لخطأ كبير، وكلام يفتقد إلى الدليل: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

إنّ الذي يدبّر أمور هذا العالم، أليس هو خالق السماء والأرض؟ فإذا كان سبحانه وتعالى هو الخالق، فلماذا تعبدون هذه الأصنام وتجعلونها بمنزلته؟!

إنّ الذي يستحق العبادة هو الذي يقوم بالخلق والتدبير، ويملك هذا العالم ويحكمه.

الآية التى تليها تشير إلى خلق الجبال والمعادن وبركات الأرض والمواد الغذائية، حيث تقول: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ وهذه المواد الغذائية هي بمقدار حاجة المحتاجين: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾(١).

---

(١) هناك احتمالات متعدّدة حول محل ﴿سَوَآءً﴾ و﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ من الإعراب وبما تختص:

الأوّل: أنّ ﴿سَوَآءً﴾ حال لـ(أقوات) و﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلّق بـ﴿سَوَآءً﴾ وتكون النتيجة هي التّفسير الذي أوردناه أعلاه.

الثّاني: أنّ ﴿سَوَآءً﴾ صفة للأيام، يعني أنّ هذه المراحل الأربع تتساوى فيما بينها. وأمّا ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فإمّا أن تتعلّق بـ(قدر) أو بمحذوف ويكون التقدير (كائنة للسائلين) يعني أنّ الأيّام الأربعة هذه تعتبر جواباً للسائلين. لكن التّفسير الأوّل أوضح.

وبهذا الترتيب فإنّه تبارك وتعالى قد دبّر لكلّ شيء قدره وحاجته، وليس ثمّة في الوجود من نقص أو عوز، كما في الآية (٥٠) من سورة «طه» حيث قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

المقصود من «السائلين» هنا هم الناس، أو أنّها تشمل بشكل عام الإنسان والحيوان والنبات [وإذا ذكرت بصيغة الجمع للعاقل فهي من باب التغليب].

ووفق هذا التّفسير فإنّ الله تعالى لم يحدّد احتياجات الإنسان لوحده منذ البداية وحسب، وإنّما فعل ذلك للحيوانات والنباتات أيضاً.

وهنا يثار هذا السؤال: تذكر الآيات القرآنية - أعلاه - أنّ خلق الأرض تمّ في يومين، وخلق الجبال والبركات والطعام في أربعة أيّام، وبعد ذلك خلق السماوات في يومين، وبذا يكون المجموع ثمانية أيّام، في حين أنّ أكثر من آية في كتاب الله تذكر أنّ خلق السماوات والأرض تمّ في ستة أيّام، أو بعبارة أُخرى: في ست مراحل[1]؟

سلك المفسّرون طريقين في الإجابة على هذا السؤال:

الطريق الأوّل: وهو المشهور المعروف، ومفاده أنّ المقصود بأربعة أيّام هو تتمة الأربعة أيّام، بأن يتم في اليومين الأوّلين من الأربعة خلق الأرض، وفي اليومين الآخرين خلق باقي خصوصيات الأرض، مضافاً إلى ذلك اليومين لخلق السماوات، فيكون المجموع ستة أيّام أو ست مراحل.

وشبيه ذلك ما يرد في اللغة العربية من القول - مثلاً - بأنّ المسافة من هنا إلى مكّة يستغرق قطعها عشرة أيّام، وإلى المدينة المنورة (١٥) يوماً، أي إنّ المسافة بين مكّة والمدينة تكون خمسة أيام ومن هنا إلى مكّة عشرة أيّام[2].

وهذا التّفسير صحيح لوجود مجموعة من الآيات التي تتحدّث عن الخلق في ستة أيّام، وإلاّ ففي غير هذه الحالة لا يمكن الركون له، من هنا تتبين أهمّية ما يقال من أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً.

الطريق الآخر الذي اعتمده المفسّرون للإجابة على الإشكال أعلاه هو قولهم: إنّ

---

(١) يمكن مراجعة الآيات (٥٤) من سورة الأعراف و(٣) من سورة هود و(٥٩) من سورة الفرقان و(٤) من سورة السجدة و(٣٨) من سورة ق و(٤) من سورة الحديد.

(٢) في ضوء هذا التفسير يكون للآية تقديرها بالصيغة الآتية وقدّر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيّام أو يكون التقدير كما جاء في تفسير «الكشاف»: «كل ذلك في أربعة أيّام».

أربعة أيّام لاتختص ببداية الخلق، بل هي إشارة إلى الفصول الأربعة للسنة، والتي هي بداية ظهور الأرزاق ونمو المواد الغذائية التي تنفع الإنسان والحيوان[١].

لكن هذا التّفسير فضلاً عن أنّه لا يلائم الآيات أعلاه، فإنّه أيضاً يقصر المراد من «اليوم» فيما يتعلّق بالأرض والمواد الغذائية وحسب، لأنّ معناه يتعلّق بالفصول الأربعة فقط، بينما لاحظنا أنّ «يوم» في معنى خلق السماوات والأرض يعني بداية مرحلة!

مضافاً لذلك تكون النتيجة اختصاص يومين من الأيّام الستة لخلق الأرض، ويومين آخرين لخلق السماوات، أمّا اليومان الباقيان اللذان يتعلّقان بخلق الكائنات بين السماء والأرض «ما بينهما» فليس هناك إشارة إليهما!

من كلّ ذلك يتبيّن أنّ التّفسير الأوّل أجود.

وقد لا تكون هناك حاجة للقول بأنّ «اليوم» في الآيات أعلاه هو حتماً غير اليوم العادي، لأنّ اليوم بالمعنى العادي لم يكن قد وجد قبل خلق السماوات والأرض، بل المقصود بذلك هو مراحل الخلق التي استنفدت من الزمن أحياناً ملايين بل وبلايين السنين[٢].

ملاحظتان

تبقى أمامنا ملاحظتان ينبغي أن نشير إليهما:

أوّلاً: ما هو المقصود من قوله تعالى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾؟

الظاهر أنّها إشارة إلى المعادن والكنوز المستودعة في باطن الأرض، وما على الأرض من أشجار وأنهار ونباتات ومصادر للماء الذي هو أساس الحياة والبركة، حيث تستفيد منها جميع الاحياء الأرضية.

ثانياً: بمَ تتعلق الأيام الأربعة في عبارة: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾؟

بعض المفسّرين يعتقد أنّها تخص «الأقوات» فقط. لكنّها ليست كذلك، بل تشمل الأقسام الثلاثة المذكورة في الآية (أي خلق الجبال، خلق المصادر وبركات الأرض، خلق المواد الغذائية) لأنّه - خلافاً لذلك - فإنّ بعض هذه الأمور سوف لا تدخل في الأيام الواردة في الآيات أعلاه، وهذا أمر لا يتناسب مع نظم الآيات ونظامها.

---

(١) ثمّة حديث بهذا المضمون في تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٢) راجع الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

بعد الانتهاء من الكلام عن خلق الأرض ومراحلها التكاملية، بدأ الحديث عن خلق السماوات حيث تقول الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

فكانت الإجابة: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وفي هذه الأثناء: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ثم: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وأخيراً: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ نعم: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

في الآيتين المتقدمتين تستلفت النظر عشر ملاحظات سنقف عليها خلال النقاط الآتية، التي ننهي من خلالها البحث في هذه المجموعة من الآيات، وهي:

أولاً: كلمة «ثم» تأتي عادة للإشارة إلى التأخير في الزمان، وتأتي أحياناً للدلالة على التأخير في البيان، فإذا كان المعنى الأوّل هو المقصود فسيكون المفهوم هو أنّ خلق السماوات تمّ بعد خلق الأرض وخلق الجبال والمعادن والمواد الغذائية، أمّا إذا كان المعنى الثّاني هو المقصود، فليس هناك مانع من أن تكون السماوات قد خلقت وبعدها تمّ خلق الأرض، ولكن عند البيان ذكرت الآية أوّلاً خلق الأرض والأرزاق ومصادرها التي يحتاجها البشر، ثمّ عرجت إلى ذكر قضية خلق السماء.

المعنى الثّاني بالإضافة إلى أنّه أكثر تناسقاً وانسجاماً مع الاكتشافات العلمية، فهو أيضاً يتّفق مع الآيات القرآنية الأُخرى، كقوله تعالى في الآيات (٢٧ - ٣٣) من سورة «النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

إنّ هذه المجموعة من الآيات الكريمة تكشف بوضوح أنّ دحو وتوسيع الأرض وتفجّر العيون ونبات الأشجار والمواد الغذائية، قد تمّ جميعاً بعد خلق السماوات، أمّا لو فسّرنا معنى ﴿ثُمَّ﴾ بالتأخير في الزمان، فعلينا أن نقول: إنّ كلّ تلك قد تكوّنت قبل خلق السماء، وهذا يتنافى مع المعنى الواضح لقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي أنّ كلّ ما ذكر قد تمّ خلقه بعد ذلك (أي بعد السماوات). وبذلك نفهم أنّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا قد استخدمت للتدليل على التأخير البياني(١).

(١) أمّا ما نقل عن ابن عباس من قوله: إنّ خلق الأرض كان قبلاً، وأمّا «دحو الأرض» فجاء بعد ذلك، فهو لا يحل المشكلة، وكأنّ ابن عباس لم يهتم عمّا بعد الآية من حديث عن خلق الجبال والمواد الغذائية!.

ثانياً: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ من «استواء» وتعني الاعتدال أو المساواة بين شيئين ولكن ذهب علماء اللغة والتّفسير إلى أنّ هذه الكلمة عندما تتعدّى بـ «على» يصبح معناها الاستيلاء والتسلّط على شيء ما، مثل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾(١).

وعندما تتعدّى بـ «إلى» فهي تعني القصد، كما في الآية التي نبحثها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ اي قصد إلى السماء.

ثالثاً: جملة ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ تبيّن أنّ بداية خلق السماوات كان من سحب الغازات الكثيفة الكثيرة، وهذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصّلت إليه البحوث العلمية بشأن بداية الخلق والعالم.

والآن فإنّ الكثير من النجوم السماوية هي على شكل سحب مضغوطة من الغازات والدخان.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ لا تعني أنّ كلاماً قد جرى باللفظ، وإنّما قول الخالق وأمره هو نفسه الأمر التكويني، وهو عين إرادته في الخلق. أمّا التعبير بـ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فهو إشارة إلى أنّ الإرادة الإلهيّة الحتمية قد ارتبطت بتكوّن السماوات والأرض. والمعنى أنّه يجب أن يحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

خامساً: الجملة في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ تشير إلى أنّ المواد التي تتشكّل منها السماء والأرض من ناحية التكوين والخلقة، كانت مستسلمة تماماً لإرادة الله وأمره، فتقبّلت شكلها المطلوب ولم تعترض أمام هذا الأمر الإلهي مطلقاً.

ومن الواضح أنّ هذا الأمر وهذا الامتثال ليس لهما طبيعة تكليفية وتشريعية، بل حدثت بمحض التكوين فقط.

سادساً: قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يشير إلى وجود مرحلتين في خلق السماوات، كلّ مرحلة استمرت لملايين أو مليارات السنين، وكل مرحلة تتضمن مراحل أُخرى، ومن المحتمل أن تكون هاتان المرحلتان هما مرحلة تبديل الغازات المضغوطة إلى سوائل ومواد مذابة، ثمّ مرحلة تبديل المواد المذابة إلى مواد جامدة.

كلمة «يوم» استخدمت هنا - كما أشرنا سابقاً - بمعنى مرحلة، وهو ممّا يشيع استخدامه في عدّة لغات، ويشيع استخدامه أيضاً في كلامنا اليومي، فعندما تقول مثلاً:

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

يوم لك ويوم عليك، إنّما تشير إلى مراحل الحياة المختلفة. (هناك بحث مفصل حول هذا الموضوع في نهاية تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف).

سابعاً: إنّ العدد «سبع» ربّما جاء هنا للكثرة، بمعنى أنّ هناك سمٰوات كثيرة وأجرام كثيرة. ومن المحتمل أن يكون الرقم للعدد، أي إنّ عدد السماوات هي سبع بالتحديد. ومع هذا التقييد، فإنّ جميع ما نرى من كواكب ونجوم ثابتة وسيّارة هي من السماء الأولى، وبذلك يكون عالم الخلقة متشكّلاً من سبع مجموعات كبرى، واحدة منها فقط أمام أنظار البشرية، وإنّ الأجهزة العلمية الفلكية الدقيقة وبحوث الإنسان، لم تتوصل إلى ما هو أبعد من السماء الأولى.

ولكن كيف تكون العوالم الستة الأُخرى؟ وممّ تتشكّل؟ فهو أمر لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

والمعتقد هنا أنّ هذا التّفسير هو الأصح. (في هذا الموضوع يمكن مراجعة نهاية تفسير الآية (٢٩) من سورة البقرة).

ثامناً: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ تشير إلى أنّ المسألة لم تنته بخلق السماوات وحسب، بل إنّ في كل منها مخلوقات وكائنات ونظام خاص وتدبير معيّن، بحيث إنّ كلّ واحدة تعتبر بحدّ ذاتها دليلاً على العظمة والقدرة والعلم.

تاسعاً: قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ تدل على أنّ جميع النجوم زينة للسماء الأُولى، وتبدو في نظر الإنسان كالمصابيح المعلّقة في سقف هذه السماء الزرقاء، وهي ليست للزينة وحسب، حيث تجذب بتلألئها الخاص المتعاقب قلوب عشّاق أسرار الخلقة، بل في الليالي المعتمة تكون مصابيح للتائهين وأدلة لمن يسير في الطريق، تعينهم على تعيين اتجاه الحركة.

أمّا «الشهب» التي تظهر كنجوم سريعة في السماء بوميض سريع قبل أن تنطفىء، فهي في الواقع سهام تستقر في قلوب الشياطين وتحفظ السماء من نفوذهم. (راجع تفسير الآية ١٧ من سورة الحجر ونهاية الآية السابعة من سورة الصافات).

عاشراً: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ تكملة للجمل التسع السابقة، وتشكّل بمجموعها عشرة كاملة، تقول: إنّ ما حدث في السماء والأرض منذ بداية الخلق إلى مرحلة التشكّل والنظام الدقيق، كان وفق برنامج محسوب ومقدّر، تمّ تنظيمه من قبل المبدأ الأزلي ذي العلم والقدرة المطلقتين، وإنّ أيّ تفكير في أيّ بحر من هذه البحور يقودنا نحو المبدأ العظيم جلّت قدرته.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

أحذّركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود!

بعد البحث المهم الذي تضمّنته الآيات السابقة حول التوحيد ومعرفة الخالق جلّ وعلاه تنذر الآيات - التي بين أيدينا - المعارضين والمعاندين الذين تجاهلوا كلّ هذه الدلائل الواضحة والآيات البينات، وتحذّرهم أنّ نتيجة الإعراض، نزول العذاب بهم، يقول تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(١).

عليكم أن تخافوا هذه الصاعقة المميتة المحرقة التي إذا نزلت بساحتكم تفنيكم وتحلّ بداركم الدمار.

لاحظنا في بداية هذه السورة المباركة أنّ بعض زعماء الشرك في مكّة مثل «الوليد بن المغيرة» وبرواية أخرى «عتبة بن ربيعة» جاؤوا إلى النّبي ﷺ للتحقيق حول القرآن ودعوة الرّسول وطرحوا عليه بعض الأسئلة، وفي سياق إجابة رسول الله ﷺ لهم، تلا عليهم الآيات الأُولى من هذه السورة، وعندما وصل النّبي في تلاوته إلى الآيات أعلاه وهدّدهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، ارتعشت أجسادهم وأُصيبوا بالخوف بحيث إنّهم لم يكونوا قادرين على الاستمرار في الكلام، لذلك عادوا إلى قومهم وذكروا لهم تأثّرهم العميق واضطرابهم ووجلهم من هذه الكلمات.

---

(١) «الفاء» في ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ هي «فاء التفريع» كما قيل، بناءً على ذلك فإنّ هذا الإنذار الحاسم يعتبر فرعاً ونتيجة للإعراض عن الآيات التوحيدية السابقة.

«الصاعقة» كما يقول الراغب في المفردات، تعني الصوت المهيب في السماء، ويشتمل على النّار أو الموت أو العذاب. (ولهذا السبب تطلق الصاعقة على الموت أحياناً، وعلى النّار في أحيان أُخرى).

والصاعقة - وفقاً للتحقيقات العلمية الراهنة - هي شرارة كهربائية عظيمة تحدث بين مجموعة من الغيوم التي تحمل الشحنات الكهربائية الموجبة، وبين الأرض التي تكون شحنتها «سالبة» وتصيب عادة قمم الجبال والأشجار وأيّ شيء مرتفع، وفي الصحاري المسطحة تصيب الإنسان والأنعام، كما أنّ حرارتها شديدة للغاية بحيث إنّها تحيل أيّ شيء تصيبه إلى رماد، وتحدث صوتاً مهيباً وهزّة أرضية قوية في المكان الذي تضربه.

الله تبارك وتعالى - كما تنص على ذلك آيات القرآن - عاقب بعض الأقوام الأشقياء من الأُمم السابقة بالصاعقة.

والطريف هنا أنّ عالم اليوم برغم التقدّم الهائل في العلوم، بقي عاجزاً عن اكتشاف وسيلة لمنع الصاعقة.

وسيبقى هذا السؤال: لماذا ذكر هنا قوم عاد وثمود من بين جميع الأقوام السابقة؟

السبب يعود إلى أنّ العرب كانوا على اطّلاع بخبر أُولئك الأقوام، وكانوا قد شاهدوا بأعينهم آثار مدنهم المدّمرة، إضافة إلى أنّهم كانوا يعرفون أخطار الصواعق، لأنّهم يعيشون في الصحراء والبادية.

يواصل الحديث القرآني سياقه بالقول: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

إنّ استخدام تعبير ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ هو إشارة إلى ما ذكرناه أعلاه من أنّ الأنبياء قد استخدموا جميع الوسائل والأساليب لهدايتهم، وحاولوا طرق كلّ الأبواب حتى ينفذوا إلى قلوبهم المظلمة.

وقد يكون التعبير إشارة إلى الأنبياء الذين بعثوا خلال أزمنة مختلفة إلى هؤلاء الأقوام، وطرحوا عليهم نداء التوحيد.

لكن لنر ماذا كان جوابهم حيال هذه الجهود العظيمة الواسعة لرسل الله تعالى؟

يقول تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ لإبلاغ رسالته بدلاً من إرسال الناس.

والآن وما دام الأمر كذلك: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. وما جئتم به لا نعتبره من الله!

إنّ مفهوم هذا الكلام لا يعني إيمان هؤلاء بأنّ هؤلاء رسل الله حقّاً، وأنّهم لا يؤمنون بهم، وإنّما مفهوم الكلام رفض هؤلاء دعوة الرسل في أنّهم مبلّغو رسالات الله من الأساس، حيث حملوهم على الكذب والادّعاء. (ذلك فإنّ جملة ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ هي للاستهزاء أو السخرية، أو أن يكون المقصود بها هو: طبقاً لادّعائكم بأنّكم رسل الله تبلغون عنه).

إنّها نفس الذريعة التي ينقلها القرآن مراراً على لسان منكري النبوات ورسالات الله ومكذبي الرسل، من الذين كانوا يتوقعون أن يكون الأنبياء دائماً ملائكة، وكأنّما البشر لا يستحقون مثل هذا المقام.

مثال ذلك قولهم في الآية (٧) من سورة الفرقان: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

إنّ قائد البشر يجب أن يكون من صنف البشر، كي يعرف مشاكل الإنسان واحتياجاته ويحس آلامهم ويتفاعل مع قضاياهم، وكي يستطيع أن يكون القدوة والأسوة، لذلك يصرّح القرآن في الآية (٩) من سورة «الأنعام» بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾.

بعد المجمل الذي بيّنته الآيات أعلاه، تعود الآيات الآن - كما هو أُسلوب القرآن الكريم - إلى تفصيل ما أُوجز من خبر قوم عاد وثمود، فتقول: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

إنّ هؤلاء القوم كانوا يعيشون في أرض «الأحقاف» من (حضرموت) جنوب الجزيرة العربية، وكانوا يتّصفون بوضع استثنائي فريد من حيث القوّة الجسمانية والمالية والتمدّن المادي، فكانوا يبنون القصور الجميلة والقلاع المحكمة، خاصة في الأماكن المرتفعة حيث يرمز ذلك إلى قدرتهم ويكون وسيلة لاستعلائهم.

لقد كانوا رجالاً مقاتلين أشدّاء، فأُصيبوا بالغرور بسبب قدراتهم الظاهرية ومجدهم المادي، حتى ظنّوا أنّهم أفضل من الجميع، وأنّ قوّتهم لا تقهر، ولذلك قاموا بتكذيب الرسل والإنكار عليهم، وتكالبوا على نبيّهم «هود».

لكن القرآن يردّ على هؤلاء ودعواهم بالقول: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾.

أليس الذي خلقهم خلق السماوات والأرض؟

بل هل يمكن المقايسة بين هاتين القدرتين، فأين القدرة المحدودة الفانية من القدرة المطلقة اللامتناهية الأزلية؟!

ما للتراب وربّ الأرباب[١]؟!

تضيف الآية في النهاية قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

نعم، إنّ الإنسان الضعيف المحدود سوف يطغى بمجرّد أن يشعر بقليل من القدرة والقوّة، وأحياناً بدافع من جهله، فيتوهم أنّه يصارع الله جلّ وعلا!!

لكن ما أسهل أن يبدل الله عوامل حياته إلى موت ودمار، كما تخبرنا الآية عن مآل قوم عاد: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

إنّ هذه الريح الصرصر، وكما تصرّح بذلك آيات أُخرى، كانت تقتلعهم من الأرض بقوّة ثمّ ترطمهم بها، بحيث أصبحوا كأعجاز النخل الخاوية. (يلاحظ الوصف في سورة «القمر» الآية ١٩ - ٢٠ وسورة الحاقة الآية ٦ فما بعد).

لقد استمرت هذه الريح سبع ليال وثمانية أيّام، وحطّمت كيانهم وكل وسائل عيشهم، نكالاً بما ركبوا من حماقة وعلو وغرور، ولم يبق منهم سوى أطلال تلك القصور العظيمة، وآثار تلك الحياة المرفّهة.

هذا في الدنيا، وهناك في الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾.

إنّ العذاب الدنيوي هو في الواقع كالشرارة في مقابل بحر لجّي من النّار في عذاب الآخرة.

والأنكى من ذلك أن ليس هناك من ينصرهم: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

فبعد عمر من الجد والعمل في سبيل التظاهر بالعظمة والعلو، يصيبهم الله تعالى بعذاب أذلّهم في هذه الدنيا، وفي العالم الآخر ينتظرهم ما هم أشدّ وأصعب!

«صرصر»: على وزن (دفتر) مشتقّة في الأصل من كلمة «صُرّ» على وزن «شرّ» وتعني الغلق بإحكام، لذا تستعمل كلمة «صرّة» للكيس الذي يحتوي على المال وهو مغلق بشكل جيّد، ثمّ أُطلقت على الرياح الباردة جداً، أو التي فيها صوت عال، أو الرياح المسمومة القاتلة، وقد تكون الرياح العجيبة التي شملت قوم «عاد» تحمل كلّ هذه الصفات جميعاً.

---

(١) إنّ هذا التعبير يشبه في الواقع جملة: «الله أكبر» حيث تقوم بتعريف الله (جلّ وعلا) بأنّه أعظم وأكبر من جميع الموجودات، ذلك أنّنا نعلم أن لا قياس بين الاثنين (التراب ورب الأرباب) ولكن الله يتحدّث إلينا بلساننا، لذلك نرى أمثال هذه الألفاظ والتعابير في كلامه تعالى.

﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ تعني الأيام المشؤومة التي اعتبرها البعض بأنّها الأيّام المليئة بالتراب والغبار، أو الأيّام الباردة جداً، وهذه المعاني يمكن أن تكون مرادة من الآيات التي نحن بصددها.

لقد أشار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطب نهج البلاغة إلى قصة عاد، كي تكون درساً أخلاقياً تربوياً يتعظ منه الآخرون. يقول عليه السلام: «واتعظوا فيها بالذين قالوا: من أشدّ منّا قوّة؟ حملوا إلى قبورهم، فلا يدعون ركباناً، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفاناً، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفات جيران»(١).

ملاحظتان

أوّلاً: ما هي وسيلة فناء قوم عاد؟

وفقاً للآية (١٣) من هذه السورة، فإنّ قوم عاد وثمود أُهلكوا بالصاعقة، في حين أنّ الآيات التي نبحثها تقول: إنّهم أُبيدوا بالريح الصرصر العاتية، فهل هناك تعارض بين الاثنين؟

في الجواب ذكر المفسّرون وعلماء اللغة معنيين للصاعقة، أحدهما عام، والآخر خاص.

فالصاعقة بمعناها العام تعني أيّ شيء يهلك الإنسان، وهي كما يقول العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان: «المهلكة من كلّ شيء».

أمّا المعنى الخاص، فالصاعقة شرارة عظيمة من النّار تنزل من السماء، وتحرق كلّ ما يوجد في طريقها، كما وضّحنا ذلك آنفاً.

بناءً على هذا، لو كانت الصاعقة بالمعنى الأوّل فلا تعارض بينها وبين الرياح القويّة.

يقول الراغب في المفردات: «قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه: الموت كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ والعذاب كقوله: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ والنّار كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ وما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة، فإنّ الصاعقة هي

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم (١١١).

الصوت الشديد من الجوّ، ثمّ يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد وهذه الأشياء تأثيرات منها».

وثمّة احتمال آخر، هو أنّ قوم عاد قد شملهم نوعان من العذاب: الأوّل الرياح الشديدة التي دمّرت كلّ شيء والتي سلّطها الله عليهم أيّاماً عديدة، ثم جاء بعد ذلك دور الصاعقة النّارية المميتة التي شملتهم بأمر الله.

لكن المعنى الأوّل يبدو أكثر تناسباً مع الموضوع، خصوصاً إذا لاحظنا الآيات الأُخرى التي تتحدّث عن عقاب قوم عاد وهلاكهم. (راجع الآيات في سورة الذاريات - الآية «٤١»، وسورة الحاقة - الآية «٦»، والقمر الآيتان «١٨» و«١٩»).

ثانياً: أيام قوم عاد النحسة

البعض يعتقد أنّ أيّام السنة نوعان: أيّام نحسة مشؤومة، وأيام سعيدة مباركة، ويستدلون على ذلك بالآيات أعلاه، فيقولون: هناك تأثيرات مجهولة تؤثّر في الليالي والأيّام، ونشعر نحن بآثار ذلك، بينما أسبابها ما تزال مبهمة بالنسبة لنا.

وقال البعض: إنّ الأيام النحسة في الآية التي نبحثها هي الأيّام المملوءة بالتراب والغبار.

وقوم عاد قد أُصيبوا بمثل هذه الرياح الشديدة بحيث باتوا لا يرى أحدهم الآخر، كما تفيد ذلك الآيتان (٢٤ - ٢٥) من سورة «الأحقاف» في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وسوف نقوم ببحث مفصّل حول مفهوم الأيّام النحسة والأيّام السعيدة، في نهاية حديثنا عن الآية (١٩) من سورة القمر، إن شاء الله تعالى.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

عاقبة قوم ثمود

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن قوم عاد، تبحث هاتان الآيتان في قضية قوم ثمود

ومصيرهم، حيث تقول: إنّ الله قد بعث الرسل والأنبياء لهم مع الدلائل البيّنة، إلاّ أنّهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.

لذلك: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وهؤلاء مجموعة تسكن «وادي القرى» (منطقة بين الحجاز والشام) وقد وهبهم الله أراضٍ خصبة خضراء مغمورة، وبساتين ذات نعم كثيرة، وكانوا يبذلون الكثير من جهدهم في الزراعة، ولقد وهبهم الله العمر الطويل والأجسام القويّة، وكانوا مهرة في البناء القوي المتماسك، حيث يقول القرآن عنهم في ذلك: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾(١).

لقد جاءهم نبيّهم بمنطق قوي وقلب ملؤه الحبّ، ومعه المعاجز الإلهيّة، إلاّ أنّ هؤلاء القوم المغرورين المستعلين لم يرفضوا دعوته وحسب، بل آذوه وأتباعه القليلين، لذلك شملهم الله بعقابه في الدنيا، ولن يغني ذلك عن عذاب الآخرة شيئاً.

نقرأ في الآية (٧٨) من سورة الأعراف أنّهم أُصيبوا بزلزلة عظيمة، فبقيت أجسادهم في المنازل بدون حراك: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

وفي الآية (٥) من سورة الحاقة قوله تعالى بشأنهم: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾.

أمّا الآية (٦٧) من سورة هود فتقول عنهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

أمّا الآية التي نحن بصددها فقد استخدمت تعبير «صاعقة».

قد يتصوّر البعض أنّ هناك تعارضاً بين هذه التعابير، ولكن عند التدقيق يظهر أنّ الكلمات الأربع أعلاه (رجفة، طاغية، صيحة، صاعقة) ترجع جميعاً إلى حقيقة واحدة، لأنّ الصاعقة - كم قلنا سابقاً - لها صوت مخيف، بحيث يمكن أن نسميها بالصيحة السماوية، ولها أيضاً نارٌ محرقة، وهي عندما تسقط على منطقة معيّنة تحدث هزّة شديدة، وكذلك هي وسيلة للتخريب.

في الواقع إنّ البلاغة القرآنية تستوجب أن تبيّن الأبعاد المختلفة للعذاب الإلهي بتعابير مختلفة وفي سياق آيات عديدة كيما تخلّف أثراً عميقاً في نفس الإنسان.

وهؤلاء القوم قد واجهتهم عوامل مختلفة للموت في إطار حادثة واحدة، بحيث إنّ

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٢.

كلّ عامل لوحده يكفي لإبادتهم كالصيحة المميتة مثلاً، أو الهزّة الأرضية القاتلة، أو النّار المحرقة، وأخيراً الصاعقة المخيفة.

ولكن قد يتساءل عن مصير الأشخاص الذين آمنوا بصالح عليه السلام بين هذه الأمواج القاتلة من الصواعق، فهل احترقوا بنيران غيرهم؟

القرآن يجيبنا على ذلك بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

لقد أنجى هذه المجموعة إيمانها وتقواها، بينما شمل العذاب تلك الكثرة الطاغية بسبب كفرها وعنادها، والمجموعتان يمكن أن تكونا نموذجاً لفئات من هذه الأُمة.

قال بعض المفسّرين: لقد آمن بالنبيّ صالح (١١٠) أشخاص من بين مجموع القوم، ولقد أنقذ الله هؤلاء وأنجاهم في الوقت المناسب.

ملاحظة

أنواع الهداية الإلهيّة

الهداية على نوعين: أوّلاً «الهداية التشريعية» وهي تشمل إبانة الطريق والكشف عنه بجميع العلائم، ثمّ هناك «الهداية التكوينية» التي هي في واقعها إيصال إلى المطلوب أو الوصول إلى الهدف.

لقد اجتمعت الهدايتان معاً في الآيات التي نبحثها، فالآيات تتحدّث أوّلاً عن هداية ثمود ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وهذه هي الهداية التشريعية التي استبانوا من خلالها الطريق.

ثم أضافت الآية في وصف حالهم بأنّهم استحبوا العمى على الهدى، وهذه هي الهداية التكوينية والتوصّل نحو الهدف.

وهكذا فإنّ الهداية بمعناها الأوّل قد تمّت من خلال بعثة الرسل والأنبياء، أمّا الهداية بمعناها الثّاني والتي ترتبط بإرادة واختيار أيّ إنسان، فلم تتمّ بسبب غرور القوم وتكبّرهم وعلوهم، لأنّهم: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

إنّ هذا - بحدّ ذاته - دليل على مبدأ «حرية الإرادة الإنسانية» وعدم الجبر.

ولكن - برغم صراحة ووضوح الآيات - نرى أنّ بعض المفسّرين كالفخر الرازي يصرّون على إنكار دلالة الآية، وذكروا كلاماً لا يليق بمنزلة الباحث المحقق، وذلك بسبب ميولهم نحو عقيدة الجبر[1]!!

---

(١) يلاحظ الفخر الرازي في التّفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

التفسير

كانت الآيات السابقة تتحدّث عن الجزاء الدنيوي للكفار المغرورين والظالمين والمجرمين. أمّا الآيات التي نبحثها الآن فتتحدّث عن العذاب الأُخروي، وعن مراحل مختلفة من عقاب أعداء الله.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

ولكي تتصل الصفوف ببعضها يتمّ تأخيرالصفوف الأولى[1] حتى تلتحق بها الصفوف الأُخرى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

وحينذاك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

يا لهم من شهود؟ فأعضاء الإنسان تشهد بنفسها عليه ولا يمكن إنكار شهادتها، لأنّها كانت حاضرة في جميع المشاهد والمواقف وناظرة لكل الأعمال، وهي إذ تتحدّث فبأمر الله تعالى.

وهنا يثار سؤال: هل تعني شهادة هذه الأعضاء من جسم الإنسان أنّ الله تبارك وتعالى يخلق فيها قدرة الإحساس والإدراك والشعور، وبالتالي القدرة على الكلام؟

أم أنّ آثار الذنوب سوف تظهر في ذلك اليوم (يوم البروز) لأنّها مطبوعة عليها طوال

---

(١) ﴿يُوزَعُونَ﴾ من «وزع» وهي بمعنى المنع، وعندما تستخدم للجنود أو الصفوف الأُخرى، فإنّ مفهومها يعني أن يبقى المجموع إلى أن يلتحق بهم آخر نفر.

(٢) «ما» في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ زائدة، وهي هنا للتأكيد.

عمر الإنسان، كما نقول في تعبيراتنا الشائعة: إنّ صفحة وجهه تحكي وتخبر ما يخفيه في سرّه؟

أو أنّ الأمر يكون كما في حال الشجرة التي أوجد الله تعالى فيها الصوت وأسمعه موسى عليه السلام؟

في الواقع يمكن قبول كلّ هذه التفاسير، وقد جاءت مبثوثة في تفاسير المفسّرين.

طبعاً لا يوجد مانع من أن يقوم تعالى بخلق الإدراك والشعور في الأعضاء، فتشهد في محضر الله تعالى عن علم ومعرفة، خصوصاً وأنّ ظاهر الآيات يشير للوهلة الأُولى إلى هذا المعنى. وهو ما يعتقده البعض فيما يخص تسبيح وحمد وسجود ذرّات العالم وكائنات الوجود بين يدي الله تبارك وتعالى.

والمعنى الثّاني محتمل أيضاً لأنّنا نعلم أنّ أيّ كائن في هذا العالم لا يفنى من الوجود، وأنّ آثار أقوالنا وأفعالنا سوف تبقى في أعضائنا وجوارحنا، ومن الطبيعي أن تعتبر «الشهادة التكوينية» هذه من أوضح الشهادات وأجلاها، إذ لا مجال لإنكارها، كما في اصفرار الوجه الذي يعتبر عادةً دليلاً على الخوف، واحمراره دليل على الغضب أو الخجل.

وإطلاق النطق على هذا المعنى يكون مقبولاً أيضاً.

أمّا الاحتمال الأخير في أن تنطق الأعضاء بإذن الله تعالى دون أن يكون لها شعور بذلك أو يظهر منها أثر تكويني، فإنّ ذلك بعيد ظاهراً، لأنّه في مثل هذه الحالة لا تعتبر هذه الشهادة مصداقاً للشهادة التشريعية ولا مصداقاً للشهادة التكوينية، فلا عقل هناك ولا شعور ولا الأثر الطبيعي للعمل، وسوف تفقد قيمة الشهادة في المحكمة الإلهيّة الكبرى.

ومن الضروري الانتباه إلى أنّ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ يبيّن أنّ شهادة أعضاء الإنسان تتمّ في محكمة النّار، فهل مفهوم ذلك أنّ الشهادة تتمّ في النّار، في حين أنّ النّار هي نهاية المطاف، أم أنّ المحكمة تنعقد بالقرب من النّار؟

الاحتمال الثّاني هو الأقرب كما يظهر.

ثمّ ما هو المقصود من (جلود) بصيغة الجمع؟

الظاهر أنّ المقصود بذلك هو جلود الأعضاء المختلفة للجسم، جلد اليد والرجل والوجه وغير ذلك.

أمّا الروايات التي تفسّر ذلك بـ «الفروج» فهي في الحقيقة من باب بيان المصداق، وليس حصر مفهوم الجلود في ذلك.

ومن جانب آخر رُبّ سائل يسأل: لماذا تشهد العين والأُذن والجلود فقط، دون أعضاء الجسم الأُخرى؟ وهل الشهادة مقتصرة على هذه الأعضاء، أو أنّ هناك أعضاء أُخرى تشهد؟

ما نستفيده من الآيات القرآنية الأُخرى أنّ هناك أعضاء أُخرى في جسم الإنسان تشهد عليه، إذ نقرأ في الآية (٦٥) من سورة «يس» قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وفي الآية (٢٤) من سورة «النور» قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾.

وهكذا يتضح أنّ هناك أعضاء أُخرى تقوم بالإدلاء بالشهادة، إلاّ أنّ ما تذكره الآية التي بين أيدينا من أعضاء تعتبر في الدرجة الأُولى، لأنّ معظم أعمال الإنسان تتم بمساعدة العين والأُذن، وإنّ الجلود هي أوّل من يقوم بملامسة الأعمال.

المجرمون يستغربون هذه الظاهرة، وآية استغرابهم قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾.

لسان حالهم يقول: لقد كنّا لسنين مديدة نحافظ عليكم من الحر والبرد ونعتني بنظافتكم، فلماذا أنتم هكذا؟

وفي الجواب يقولون: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

لقد أعطانا الله مهمّة القيام بالشهادة على أعمالكم في هذه المحكمة العظيمة، ولا نملك نحن سوى الطاعة، فالذي أعطى غيرنا من الكائنات قابلية النطق أعطانا - أيضاً - هذه القابلية[1].

والطريف هنا أنّ أُولئك يسألون جلودهم دون باقي الأعضاء من الشهود كالعين والأُذن.

قد يكون السبب في ذلك أنّ شهادة الجلود هي أغرب وأعجب من جميع الأعضاء الأُخرى، وأوسع منها جميعاً، فتلك الجلود التي يجب عليها أن تذوق طعم العذاب الإلهي - قبل غيرها من الأعضاء - تقوم بمثل هذه الشهادة، وهذا الأمر محيّر حقاً!

---

(١) هذا التفسير وارد عندما يكون معنى الآية: (أنطقنا الله الذي أنطق كلّ شيء ناطق) ولكن يحتمل أن يكون معنى أنطق كل شيء بالمعنى المطلق، بمعنى أنّ الله الذي أنطق جميع الموجودات، وهو يكشف عن جميع الأسرار اليوم، هو الذي أنطقنا، فلا تتعجبوا من كلامنا فجميع كائنات العالم ستنطق في هذا اليوم.

ثم تستمر الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ومرّة أخرى تضيف: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

وإنّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

كنتم غافلين عن أنّ الله يسمع ويرى، يشهد أعمالكم في كلّ حال ومكان، ويعلم أسراركم ما بطن منها وما ظهر، ثمّ هناك عناصر الرقابة التي ترافقكم وهي معكم في كلّ مكان، فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفي عن أعينكم وآذانكم وجلودكم؟

إنّكم في قبضة القدرة الإلهيّة وتحت نظر الشهود المستترين والظاهرين حتى أدوات ذنبكم تشهد ضدّكم؟!

يروي المفسّرون أنّ الآية أعلاه نزلت في ثلاثة نفر من كفار قريش وطائفة من بني ثقيف ذوي بطون كبيرة ورؤوس صغيرة اجتمعوا بجوار الكعبة وهم يتسارّون، فقال أحدهم: أتظنون أنّ الله يسمع كلامنا وحديثنا هذا؟

فأجاب آخر: تكلّم بهدوء واخفض صوتك، فإذا تحدّثنا بصوت عال فهو (أي الله جلّ جلاله) يسمعه، وإذا خفضنا أصواتنا فلا يسمعنا.

فقال الثّالث: إذا كان الله يسمع الكلام العالي فهو حتماً يسمع الصوت الضعيف أيضاً.

وهنا نزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن...﴾[1].

ثم يقول تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] [3].

هل أنّ هذا الحديث هو من قبل الله تعالى، وأنّ كلام الأعضاء والجوارح ينتهي إلى قوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، أم أنّ ما يليه استمرار له؟

المعنى الثّاني يبدو أكثر توافقاً، وعبارات الآية تتلاءم معه أكثر، بالرغم من أنّ أعضاء الجسم وجوارحه إنّما تتحدّث هنا بأمر الله تعالى وبإرادته، والمعنى في الحالتين واحد تقريباً.

---

(١) نقل هذه الحادثة (باختلاف) الكثير من المفسّرين، منهم: القرطبي، الطبرسي، الفخر الرازي، الآلوسي، المراغي، وكذلك نقل الحادثة كلّ من البخاري ومسلم والترمذي، وما أوردناه أعلاه مأخوذ عن القرطبي مع التصرّف. ج ٨، ص٥٧٩٥.

(٢) ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خبر له. لكن البعض احتمل أنّ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدل و﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبر ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾.

(٣) ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ من «ردى» على وزن «رأى» وتعني الهلاك.

بحثان

الأوّل: حسن الظن وسوء الظن بالله تعالى

توضّح الآيات بشكل قاطع خطورة سوء الظن بالله تعالى، ومآل ذلك إلى الهلاك والخسران.

وبعكس ذلك فإنّ حسن الظن بالله تعالى سبب للنجاة في الدنيا والآخرة.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنّه يشرف على النّار، ويرجوه رجاءً كأنّه من أهل الجنّة، إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾... ثم قال: إنّ الله عند ظن عبده، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ»(١).

وروي عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أنّ الله إذا حاسب الخلق يبقى رجل قد فضلت سيئاته على حسناته، فتأخذه الملائكة إلى النّار وهو يلتفت، فيأمر الله بردّه، فيقول له: لم التفت؟ - وهو تعالى أعلم به - فيقول: يا ربّ ما كان هذا ظنّي بك، فيقول الله تعالى: يا ملائكتي! وعزّتي وجلالي وآلائي وعلوّي وارتفاع مكاني، ما ظنّ بي عبدي هذا ساعة من خير قط، ولو ظنّ بي ساعة من خير ما ودعته بالنّار، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنّة. ثمّ أضاف رسول الله: ليس من عبد يظن بالله عزّ وجلّ خيراً إلاّ كان عند ظنّه به وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾(٢).

الثّاني: الشهود في محكمة القيامة

عندما تقول: إنّ جميع الناس سيحاكمون في العالم الآخر، فقد يتبادر إلى الذهن أنّ المحكمة هناك تشبه محاكم هذه الدنيا، إذ سيحضر كلّ فرد أمام القاضي وبيده ملّفه، وثمّة شهود في القضية، ثمّ يبدأ السؤال والجواب قبل أن يصدر الحكم النهائي.

وقد أشرنا مراراً إلى أنّ الألفاظ سيكون لها مفهوم أعمق في ذلك العالم بحيث يصعب أو يستحيل علينا تصوّر مداليلها، لأنّنا سجناء هذه الدنيا ومقاييسها.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٤، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم كما نقل عنه تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٤٤.

ولكن نستطيع - مع ذلك - أن نقترب من بعض حقائق العالم الآخر من خلال ما نستفيده من الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ وأئمّة المسلمين من أهل بيته عليهم السلام، وتتبيّن لنا آثار عن عظمة وعمق الحياة في ذلك العالم ومحكمة يوم البعث، ولو بشكل إجمالي.

فمثلاً عندما يقال: «ميزان الأعمال» قد ينصرف الذهن إلى المعنى الذي نتصوّر فيه أعمالنا في ذلك اليوم خفيفة أو ثقيلة، حيث توزن في ميزان ذي كفتين. ولكن عندما نقرأ في روايات المعصومين عليهم السلام أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام هو ميزان الأعمال، بمعنى أنّ قيمة الأعمال وشخصية الأفراد ستقاس بمقياس يكون مركزه شخص الإمام العظيم، وبمقدار مشابهة الإنسان لسلوك هذا الإمام العظيم واقترابه منه سيكون له وزن أكثر، وبمقدار بعده عنه سيكون خفيفاً في ميزان أعماله وحسابه.

ومن خلال هذا المعنى نفهم ماذا يعني ميزان الأعمال هناك.

وفي مسألة «الشهود» فإنّ الآيات القرآنية تكشف لنا الستار - كذلك - عن حقائق أُخرى، إذ يتبيّن أنّ مفهوم الشهود هناك يختلف عن شهود محاكم هذه الدنيا.

وفي قضية الشهود - بالذات - نستفيد من آيات القرآن الكريم أنّ هناك ستة أنواع من الشهود في تلك المحكمة:

١ - إنّ أوّل الشهود وأعلاهم شأناً هو الذات الإلهيّة الطاهرة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[(١)].

إنّ شهادة الله تكفي لكل شيء، إلاّ أنّ مقتضى اللطف الإلهي والعدالة الربوبية تستوجب أن يضع تعالى شهوداً آخرين.

٢ - الأنبياء والأوصياء: يقول القرآن الكريم: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[(٢)].

ونقرأ في حديث ورد في (الكافي) عن الإمام الصادق عليه السلام حول نزول هذه الآية وهو قوله عليه السلام: «نزلت في أُمّة محمّد خاصة، في كلّ قرن منهم إمام منّا، شاهد عليهم ومحمّد شاهد علينا»[(٣)].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٣) أُصول الكافي، ج ١، ص ١٩٠.

٣ - شهادة اللسان واليد والرجل والعين والأذن: كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

ومن الآية التي نحن بصددها نستفيد أنّ العين والأُذن هما من قائمة الشهود أيضاً، ونستفيد كذلك من بعض الرّوايات أنّ كلّ أعضاء الجسم ستقوم بدورها بالشهادة على الأعمال التي قامت بها[٢].

٤ - شهادة الجلود: لقد تحدّثت الآيات التي نحن بصددها عن هذا الموضوع بصراحة، بل وأضافت أنّ المذنبين لم يكونوا يتوقعون أن تشهد عليهم جلودهم، فخاطبوها بالقول: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾؟ فيأتي الجواب من جلودهم: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣].

٥ - الملائكة: يقول تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[٤]. ومفهوم الآية الكريمة أنّ كلّ إنسان يحشر إلى القيامة، يكون معه ملك يسوقه نحو الحساب وتشهد الملائكة عليه.

٦ - الأرض: إنّ الأرض التي تحت أقدامنا، وتؤمّن لنا مختلف البركات والنعم، تقوم أيضاً بمراقبتنا بدقّة، وتحدّث في ذلك اليوم ما كان منّا عليها، يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[٥].

٧ - شهادة الزمان: بالرغم من عدم إشارة نصوص الآيات القرآنية إلى هذه الشهادة، ولكن نستفيد هذه الشهادة من أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السلام، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قوله عليه السلام: «ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلاّ قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم! أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً، أشهد لك يوم القيامة»[٦].

ما أعجب هذه الشهود التي تشهد علينا في تلك المحكمة! إنّه خليط عجيب من الملائكة وأعضاء الجسم والأنبياء والأوصياء، والأعظم من ذلك هي شهادة الله تبارك وتعالى علينا الذي يسمع ويرى ويحيط علمه بكل شيء، فيراقب أعمالنا ويشهد علينا... لكنّا لا نبالي!!؟

---

(١) سورة النور، الآية: ٢٤.
(٢) لآلئ الأخبار، ص ٤٦٢.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢١.
(٤) سورة ق، الآية: ٢١.
(٥) سورة الزلزلة، الآية: ٤.
(٦) سفينة البحار، ج ٢، مادة يوم.

ألا يكفي الإيمان بوجود مثل هؤلاء الشهود أن يسير الإنسان في طريق الحق والعدالة والتقوى والنزاهة!؟

﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

قرناء السوء

في أعقاب البحث السابق حيث تحدّثت الآيات الكريمة عن مصير «أعداء الله» جاءت الآيتان أعلاه لتشيران إلى نوعين من العقاب الأليم الذي ينتظر هؤلاء في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[١] ولا يمكنهم الخلاص منها لأنّها مصيرهم سواء صبروا أم لم يصبروا.

﴿مَثْوًى﴾[٢] من «ثوى» على وزن «هوى» وتعني المقرّ ومحل الاستقرار.

والآية الكريمة هذه تشبه الآية (١٦) من سورة «الطور» حيث قوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وكذلك تشبه الآية (٢١) من سورة «إبراهيم» حيث قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

وللتأكيد على هذا الأمر تضيف الآية: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

«يستعتبون» مأخوذة في الأصل من (العتاب) وتعني إظهار الخشونة، ومفهوم ذلك أنّ الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كي يعفو عنه ويرضى عنه، لذلك فإنّ كلمة (استعتاب) تعني الاسترضاء وطلب العفو[٣].

ثم تشير الآية الثانية إلى العذاب الدنيوي لهؤلاء فتقول: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساوئ لهم حسنات.

---

(١) يكون التقدير هكذا: «فإن يصبروا أو لا يصبروا فالنار مثوىً لهم».

(٢) يلاحظ «مفردات الراغب» و«لسان العرب» في مادة «عتب».

﴿وَقَيَّضْنَا﴾ من (قيض) على وزن (فيض) وتعني في الأصل قشرة البيضة الخارجية، ثمّ قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل، كسيطرة القشرة على البيضة.

وهذه إشارة إلى أنّ أصدقاء السوء والرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان، حيث يصادرون أفكارهم، ويهيمنون عليهم بحيث يفقدون معه قابلية الإدراك والإحساس المستقل، وعندها ستكون الأمور القبيحة السيئة جميلة حسنة في نظرهم، وبذلك ينتهي الإنسان إلى الوقوع في مستنقع الفساد وتغلق بوجهه أبواب النجاة.

في بعض الأحيان تستخدم كلمة ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ لتبديل شيء مكان شيء آخر، ووفقاً لهذا المعنى سيكون مقصود الآية، هو أنّنا سنأخذ منهم الأصدقاء الصالحين ونسلب منهم رفاق الخير، لنبدلهم بأصدقاء السوء والقرناء الفاسدين.

لقد ورد هذا المعنى بشكل أوضح في الآيتين (٣٦ - ٣٧) من سورة «الزخرف» في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

إنّ التدبّر في حالات المجتمعات الفاسدة والفئات المنحرفة الضالة ينتهي بنا - بسهولة - إلى اكتشاف آثار أقدام الشياطين في حياتهم، إذ يحاصرهم رفاق السوء وقرناء الشر من كلّ جانب وصوب، ويسيطرون على أفكارهم ويقلبون لهم الحقائق.

قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لعله إشارة لإحاطة الشياطين من كل جانب وتزيين الأُمور لهم.

وقيل أيضاً في تفسيرها أنّ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى لذّات الدنيا وزخارفها، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هو إنكار القيامة والبعث.

وقد يكون ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى وضعهم الدنيوي ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إلى المستقبل الذي سينتظرهم وأبناءهم، إذ عادة ما يرتكب هذه الجرائم تحت شعار تأمين المستقبل.

وبسبب هذا الوضع تضيف الآية بأنّ الأمر الإلهي صدر بعذابهم وأنّ مصيرهم هو مصير الأُمم السالفة: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾(١).

---

(١) ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ متعلّقة بفعل محذوف، وفي التقدير تكون الجملة: «كائنين في أُمم قد خلت». ومن المحتمل أن تكون «في» هنا بمعنى «معَ».

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

إنّ هذه الآيات تعتبر - في الواقع - الصورة المقابلة والوجه الآخر، وسوف تتحدّث الآيات القادمة عن المؤمنين الصالحين المنصورين في الدنيا والآخرة بالملائكة التي تبشّرهم بكل خير، وتكشف عنهم الغم والحزن.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

الضجيج في مقابل صوت القرآن!!

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن الأقوام الماضين كقوم عاد وثمود، وتحدّثت عن جلساء السوء وقرناء الشر، تتحدّث المجموعة التي بين أيدينا من الآيات البينات عن جانب من جوانب الانحراف لمشركي عصر رسول الله ﷺ لقد ورد في بعض الرّوايات أنّ رسول الله ﷺ ما أن يرفع صوته في مكّة ليتلو القرآن بصوته الجميل وأسلوبه الخاشع، حتى كان المشركون يقومون بإبعاد الناس عنه ويقولون: أطلقوا الصفير وارفعوا أصواتكم بالشعر حتى لا تسمعوا كلامه[1]!

القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى في هذه الآيات، حيث يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

هذا الأُسلوب في مواجهة تأثير الحق ونفوذه بالرغم من كونه أُسلوباً قديماً، إلاّ أنّه يستخدم اليوم بشكل أوسع وأخطر لصرف أفكار الناس وخنق أصوات المنادين بالحق والعدالة، فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسمع صوت الحق. ومع

(١) تفسير المراغي، ج ٢٤، ص ١٢٥، وتفسير روح المعاني، ج ٢٤، ص ١٠٦.

الالتفات إلى أنّ معنى كلمة ﴿وَالْغَوْا﴾ المشتقة من «الغو» لها معنى واسع يشمل أيّ كلام فارغ، ندرك جيّداً سعة هذا المنهج المتبع.

فتارة يتمّ اللغو بواسطة الضجة والضوضاء والصفير.

وأُخرى بواسطة القصص الكاذبة والخرافية.

وثالثة بواسطة قصص الحب والعشق المثيرة للشهوات!

وقد يتجاوز مكرهم مرحلة القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصة بالفساد وأنواع الأفلام المبتذلة والمطبوعات المنحرفة الرخيصة، والألاعيب السياسية الكاذبة والمثيرة، إنّهم يعمدون إلى الاستعانة بأيّ أسلوب يؤدّي إلى حرف أفكار الناس واهتماماتهم عن الحق.

والأنكى من ذلك طرح بعض البحوث والقضايا الفارغة التافهة في الأوساط العلمية لتثار حولها ضجة تهيمن على اهتمامات الناس ووعيهم، وتصدّهم عن التفكير بالقضايا الأساسية والأُمور المهمّة.

لكن... هل استطاع المشركون التغلّب على القرآن الكريم بأعمالهم هذه؟! لقد عمّهم الفناء وذهبت أساليبهم الشريرة أدراج الرياح، وامتد القرآن واتسع في تأثيره حتى استوعب أرجاء الدنيا.

الآية الأُخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ خاصة أُولئك الذين يمنعون الناس من سماع آيات الله.

وهذا العذاب يمكن أن يشملهم في الدنيا بأن يقتلوا على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ أو يقعوا في أسرهم، وقد يكون في الآخرة، أو يكون العذاب في الدنيا والآخرة معاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فهل لهؤلاء عمل أسوأ من الكفر والشرك وإنكار آيات الله ومنع الناس وصدّهم عن سماع كلام الحق؟

لكن لماذا أشارت الآية إلى ﴿أَسْوَأَ﴾ بالرغم من أنّهم يرون جزاء كلّ أعمالهم؟

قد يكون هذا التعبير للتأكيد على موضوع الجزاء والتهديد بأشدّ العقاب، وكذلك فيه إشارة لمنعهم الناس عن سماع كلام النبي ﷺ.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دليل على أنّه سيتمّ التأكيد على الأعمال التي

كانوا يقومون بها دائماً، وبعبارة أُخرى: إنّ ما يعملونه لم يكن أمراً مؤقتاً بل كانت سنّتهم وسيرتهم الدائمة.

وللتأكيد على قضية العذاب، يأتي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ﴾(١).

وهذه النّار ليست مؤقتة زائلة بل: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ﴾ نعم، فذلك: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾(٢).

إنّهم لم ينكروا الآيات الإلهيّة وحسب، بل منعوا الآخرين من سماعها.

﴿يَجۡحَدُونَ﴾ من «جحد» على وزن «عهد» وتعني في الأصل كما يرى «الراغب» في «المفردات»: إلغاء ونفي شيء ثابت في القلب، أو إثبات شيء منفي في القلب. أو هو بعبارة أُخرى: إنكار الحقائق مع العلم بها، وهذا من أسوأ أنواع الكفر (راجع نهاية الآية (١٤) من سورة النمل).

إنّ الإنسان عندما يصاب ببلاء معيّن، خاصة إذا كان بلاءً شديداً، فإنّه يفكّر بمسببه الأصلي كي يعثر عليه وينتقم منه، وأحياناً يودّ تقطيعه قطعة قطعة إذا استطاع ذلك.

لذلك تشير الآية التالية إلى هذا المعنى الذي سيشمل الكفار وهم في الجحيم فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾.

إنّ أُولئك كانوا ينهونا عن سماع قول النّبي وكانوا يقولون: إنّه ساحر مجنون، ثم كانوا يكثرون من اللغو حتى لا نسمع صوته وكلامه، وبدلاً عن ذلك كانوا يشغلوننا بأساطيرهم وأكاذيبهم.

أمّا الآن وقد فهمنا أنّ كلامه ﷺ هو روح الحياة الخالدة، وأنّ نغمات صوته حياة النفوس الميتة، ولكن «ولات ساعة مندم».

لا ريب أنّ المقصود من الجن والإنس - في الآية - هم الشياطين، والناس الذين يقومون بالغواية مثل الشياطين، وليس هما شخصان معيّنان.

ولا مانع من تثنية الفعل عندما يكون الفاعل مجموعتان، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ يمكن أن تكون «عطف بيان» أو «بدل» لـ ﴿جَزَآءُ﴾ أو أن تكون (خبراً لمبتدأ محذوف) والتقدير هو ﴿ٱلنَّارُۖ﴾.

(٢) ﴿جَزَآءَۢ﴾ يمكن أن تكون مفعولاً لفعل محذوف تقديره «يجزون جزاء» أو أن تكون مفعولاً لأجله.

قال بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: المقصود أنّ المضلين من الجن والإنس سيكونون في أسفل درك من الجحيم، ولكن الأظهر منه أنّ شدّة غضبهم يدفعهم إلى وضع من أغواهم تحت أقدامهم ليركلونهم ويكونوا في أدنى مقام في مقابل ما كان لهم من مقام ومكانة عليا في الحياة الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

التّفسير

نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين

يعتمد القرآن الكريم في أُسلوبه وضع صور متقابلة ومتعارضة للحالات التي يتناولها كي يوضحها بشكل جيّد من خلال المقايسة والمقارنة فبعد أن تحدّث عن المنكرين المعاندين الذين يصدّون عن آيات الله، وأبان جزاءهم وعقوبتهم، بدأ الآن (في الصورة المقابلة) في الحديث عن المؤمنين الراسخين في إيمانهم، وأشار إلى سبعة أنواع من الثواب الذي يشملهم جزاء ومثوبة لهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾.

إنّه تعبير جميل وشامل يتضمّن كلّ الخير والصفات الحميدة، فأوّلاً يوجّه القلب إلى الله ويوثق الإيمان به تعالى ويقويه، ثمّ يتحدّث عن سيطرة هذا الإيمان وهيمنته على كلّ مرافق الحياة، وثبات السير في هذا الطريق؛ طريق الاستقامة[1].

هناك الكثير من الذين يدّعون محبة الله، إلاّ أنّنا لا نرى الاستقامة واضحة في عملهم وسلوكهم، فهم ضعفاء وعاجزون بحيث عندما يشملهم طوفان الشهوة يودّعون الإيمان

---

(١) ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ من «الاستقامة» وتعني الثبات على الطريق المستقيم والخط الصحيح، وفسّرها بعض علماء اللغة بمعنى «الاعتدال» ولا يستبعد الجمع بين المعنيين.

ويشركون في عملهم؛ وعندما تكون منافعهم في خطر يتنازلون عن إيمانهم الضعيف ذلك.

ففي حديث عن رسول الله ﷺ أنّه بعد أن تلا الآية قال: «قد قالها الناس ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها»[١].

وفي نهج البلاغة يفسّر الإمام علي عليه السلام هذه الآية بعبارات حيّة وناطقة وعميقة المعنى، يقول عليه السلام: «وقد قلتم ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثمّ لا تمرقوا منها، ولاتبتدعوا فيها، ولا تخالفوا عنها»[٢].

وفي مكان آخر نرى أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أجاب في تفسير معنى الاستقامة بقوله: «هي والله ما أنتم عليه»[٣].

وهذا لا يعني أنّ الاستقامة تختص بالولاية فقط، بل إنّ قبول قيادة أئمّة أهل البيت عليهم السلام سيضمن بقاء خط التوحيد، والطريق الإسلامي الأصيل، واستمرار العمل الصالح، وهذا هو تفسيره عليه السلام لمعنى الاستقامة.

وخلاصة القول أنّ قيمة الإنسان هي بالإيمان والعمل الصالح، وهذه القيمة يتحدّث عنها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾.

لذلك فقد روي أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له: أخبرني بأمر أعتصم به؟ فقال رسول الله: «قل ربّي الله ثمّ استقم».

ثم سأل الرجل رسول الله ﷺ عن أخطر شيء ينبغي عليه أن يخشاه، فمسك رسول الله لسانه وقال: هذا[٤].

والآن لنرَ ما هي المواهب الإلهيّة التي سيشمل من يتمسك بهذين الأصلين؟

القرآن الكريم يشير إلى سبع مواهب عظيمة تبشّرهم ملائكة الله بها عندما تهبط عليهم. ففي ظل الإيمان والاستقامة يصل الإنسان إلى مرحلة بحيث تنزل عليه الملائكة وتعلّمهُ.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٧، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٧٦.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ١٧ ذيل الآية مورد البحث.
(٤) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٢٥٤.

فبعد البشارتين الأولى والثانية والمتمثلتين بعدم (الخوف) و(الحزن) تصف الآية المرحلة الثّالثة بقوله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

والبشارة الرّابعة يتضمّنها قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم في الخير ونعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنّة.

والبشارة الخامسة قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أي في الجنّة.

أمّا البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادية وما تريدونه. بل الاستجابة إلى العطايا والمواهب المعنوية: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

أمّا البشارة السابعة والأخيرة فهي أنّكم ستحلون ضيوفاً لدى البارئ عزّ وجلّ وفي جنته الخالدة، وستقدّم لكم كلّ النعم تماماً مثلما يتمّ الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

ملاحظات

في طيّات هذه الآيات المبينة، والتعابير القرآنية القصيرة البليغة ذات المعاني الكبيرة؛ ثمّة ملاحظات دقيقة ولطيفة نقف عليها من خلال النقاط التالية:

١ - هل نزول الملائكة على المؤمنين المستقيمين يتمّ أثناء الموت والانتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر، كما يحتمل ذلك بعض المفسّرين، أم أنّ نزولهم يكون في ثلاثة مواطن؛ عند (الموت) وعند (دخول القبر) وعند (الإحياء والبعث والنشور)، أو إنّ هذه البشائر تكون دائمة ومستمرة، وتتمّ بواسطة الإلهام المعنوي، حيث تستقر الحقائق في أعماق المؤمنين بالرغم من أنّ بشائر الملائكة في لحظة الموت ولحظة الحشر تكون أجلى وأوضح؟

يبدو أنّ المعنى الأخير أنسب، وذلك لعدم وجود قيد أو شرط في الآية.

ويؤيّد ذلك أنّ الملائكة تقول في البشارة الرّابعة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وهذا دليل على أنّ المؤمنين من ذوي الاستقامة يسمعون هذا الكلام من الملائكة في الدنيا عندما يكونون أحياء، إلاّ أنّ ذلك لا يكون باللسان واللفظ، بل يسمعون ذلك بآذان قلوبهم، بما يشعرون به من هدوء واستقرار وسكينة وإحساس كبير بالراحة عند المشاكل والصعاب.

صحيح أنّ بعض الروايات قيّدت نزول الملائكة وحضورهم عند الموت، إلاّ أنّ ثمّة

روايات أُخرى أشارت إلى معنىً أوسع يشمل الحياة أيضاً[(١)].

ويمكن أن نستنتج من مجموع الروايات أنّ ذكر خصوص الموت هو بعنوان المصداق لهذا المفهوم الواسع، ومعلوم أنّ التفاسير الواردة في الروايات غالباً ما توضّح المصاديق.

إنّ بشائر الملائكة ستشع في أرواح المؤمنين وأعماق ذوي الاستقامة حتى تهبهم القوّة والقدرة على مواجهة أعاصير الحياة ومشقاتها، وتثبّت أقدامهم من السقوط والانحراف.

٢ - قال بعض المفسّرين في التفريق بين الخوف والحزن، أنّ (الخوف) يختص بالحوادث التي تثير القلق لدى الإنسان لكنّها تقع في المستقبل، فيبقى الإنسان قلقاً حذراً إزاءها ومنتظر وقوعها. أمّا (الحزن) فهو ممّا يختص بالحوادث المؤسفة التي وقعت في الماضي.

وعلى أساس هذا المعنى يأتي خطاب الملائكة: أن لا تقلقوا من الصعوبات التي تنتظركم، سواء في هذه الدنيا أو عند الموت أو في مراحل البعث، ولا تحزنوا على ذنوبكم الماضية أو الأبناء الذين سيبقون بعدكم.

وتقديم (الخوف) على (الحزن) قد يكون بسبب أنّ المؤمن أكثر ما يكون قلقاً إزاء حوادث المستقبل، خاصّةً ما يتعلّق منها بالحشر والجزاء واليوم الآخر.

وقال البعض أيضاً: إنّ (الخوف) من العذاب، بينما (الحزن) على ما فات من الثواب، والملائكة تقوم بزرع الأمل عندهم في الحالتين بواسطة الألطاف الإلهيّة والمواهب والعطايا الربانية.

٣ - قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ هو تعبير جامع تتداعى فيه كلّ صفات الجنّة في ذهن المؤمنين ذوي الاستقامة، بمعنى أنّ الجنّة كلّها وبكل ما سمعتم عنها وعن نعيمها مسخّرة لكم، من حورها وقصورها إلى مواهبها الكثيرة وعطاياها المعنوية التي لا يدركها الإنسان، ولم تخطر ببال أحد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[(٢)].

٤ - في البشارة الرّابعة تعرّف الملائكة نفسها بأنّها تلتزم جانب المؤمنين في الدنيا

---

(١) يمكن ملاحظة ذلك في نور الثقلين، ج ٤، الصفحات ٥٤٦ و٥٤٧ الروايات رقم: ٣٨-٤٠-٤٥-٤٦.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

والآخرة؛ تقوم بنصرهم وإنزال السكينة عليهم، وهي صورة تقابل الآيات السابقة من هذه السورة المباركة عندما وصفت أعداء الله من الكفّار من المعاندين والمكذبين، وكيف أنّهم يتأوّهون من عذا ب النّار ويمتلئون غيظاً وغضباً على من أضلّهم في الحياة الدنيا، ويريدون الانتقام منهم.

٥ - الفرق بين البشارة الخامسة والسادسة، أنّ في الخامسة يقال لهم: إنّ ما ترغبونه وتريدونه موجود هناك، فإنّ مجرّد رغبتكم في شي ما يتزامن مع مثوله أمامكم.

ولكن قوله تعالى في ﴿تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾: يستخدم للإشارة إلى الرغبات واللذات المادية، وإنّ قوله تعالى في ﴿مَا تَدَّعُونَ﴾: يشير إلى ما تريدونه من المواهب المعنوية والعطايا والملذات الروحانية.

وخلاصة الكلام: إنّ كلّ شيء موجود هناك، سواء كان مادياً أم معنوياً.

٦ - «نزل» تعني كما أشرنا سابقاً، ما يقدّمه المضيف إلى ضيفه، بينما فسّرها البعض بأوّل ما يقدّم إلى الضيف. والتعبير في كلّ الأحوال يكشف عن أنّ جميع المؤمنين ذوي الاستقامة هم ضيوف الله ونزل رحمته وجنته ومائدته.

٧ - إنّ التدقيق في هذه البشائر ووعود الحق من قبل البارئ جلّ وعلا، والتي تعطى للمؤمنين بواسطة ملائكة الله الكرام، سوف تحرّك في وجود الإنسان الدوافع نحو الإيمان والاستقامة، تجعل الروح البشرية تتعشق السير في هذا الطريق.

وفي ظل هذه الأجواء المضيئة بالطاعة والبشرى، استطاع الإسلام العزيز أن يصنع من عرب الجاهلية مجموعة نموذجية لا تتوانى عن الإيثار والتضحية بالغالي والعزيز في سبيل منعة الإسلام والمسلمين، وانتصارهم على كلّ المشاكل والعقبات.

وينبغي أن ننتبه هنا إلى أنّ «الاستقامة» مثلها مثل «العمل الصالح» هي ثمرة لشجرة الإيمان، إذ الإيمان يدعو الإنسان إلى الاستقامة متى ما نفذ إلى عمق الإنسان، وتأسست قواعد وجوده النفسي على التقوى، كما أنّ الاستقامة تقوي في الإنسان ملكة التقوى والسير في طريق الحق والإيمان.

وهكذا يكون لهذين العاملين أثران متبادلان متقابلان.

والذي نستفيده، من الآيات القرآنية الأُخرى، أنّ الإيمان والاستقامة لا يجلبان البركات المعنوية والروحية وحسب، وإنّما يرفل الإنسان من خلالهما بالبركات المادية التي تسود عالمنا هذا، إذ نقرأ في الآية (١٦) من سورة الجن قول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ

ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ وستشملهم فيما يشملهم سنوات ملأى بالخير والعطاء والبركة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

ادفع السيئة بالحسنة

ما زالت هذه المجموعة من الآيات الكريمة تتحدّث عن الصورة الأُخرى؛ عن المؤمنين الذين يتبعون أحسن القول.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وبالرغم من أنّ الآية استفهامية، إلاّ أنّ الاستفهام هنا إنكاري، بمعنى أنّه ليس هناك أفضل من كلام الشخص الذي يدعو إلى الله وينادي بالتوحيد، ثمّ يؤكّد دعوته اللفظية هذه ويقرنها بالفعل والعمل الصالح.

إنّ اعتقاد هؤلاء بالإسلام وتسليمهم للباري جلّ وعلا، يدعم عملهم الصالح.

إنّ الآية الكريمة هذه ترسم ثلاث صفات لذي القول الحسن هي: الدعوة إلى الله، والعمل الصالح، والتسليم حيال الحق.

إنّ أمثال هؤلاء فضلاً عن تمسكهم بالأركان الإيمانية الثلاثة (الإقرار باللسان، والعمل بالأركان، والإيمان بالقلب) فإنّهم تمسكوا بركن رابع هو التبليغ والدعوة ونشر دين الحق، وإقامة الدليل على أُصول الدين، ودفع آثار الشرك والتردد من قلوب عباد الله.

إنّ هؤلاء المنادين، بصفاتهم الأربع، يعتبرون أفضل المنادين والدعاة في العالم.

وبرغم ما ذهب إليه بعض المفسّرين من قولهم بانطباق الصفات السابقة على شخص

رسول الله ﷺ أو هو والأئمّة الذين يدعون إلى الحق، أو المؤذّنين خاصة، لكن من الواضح أنّ للآية مفهوماً أوسع بحيث يشمل كلّ المنادين بالتوحيد ممّن تشملهم الصفات المذكورة، بالرغم من أنّ أفضل مصداق لذلك هو الرسول ﷺ [خاصّة في فترة نزول الآية] ثمّ يأتي بعد ذلك الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، وبعدهم جميع العلماء والمجاهدين في طريق الحق، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والداعين للإسلام من أيّ طائفة كانوا.

إنّ هذه الآية فخر عظيم وعزّ كبير لكل أُولئك المؤمنين والمجاهدين، كي تتقوى عزائمهم ويربط على قلوبهم.

وإذا قيل بأنّ الآية مدح لبلال الحبشي المؤذّن الخاص لرسول الله ﷺ فذلك بسبب أنّه أطلق نداء التوحيد في فترة من أحلك الفترات وأوحشها في تاريخ الدعوة الإسلامية، وعرّض روحه للخطر.

ثم كمّل هذه الأوصاف بإيمانه الراسخ، واستقامته التي لا نظير لها، وأعماله الصالحة، والاستمرار على نهج الإسلام الصحيح.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فللمفسّرين فيه قولان:

الأوّل: أنّ (قال) هنا من (قول) وتعني الاعتقاد، ويكون المعنى: الذي عنده الاعتقاد الراسخ بالإسلام.

الثاني: أنّ (قول) بمعنى الحديث والتحدّث، وحين ذلك يكون المعنى: الذي يفتخر ويتباهى بالدين الإلهي، وينادي بصوت مرتفع إنّني من المسلمين.

المعنى الأوّل يبدو أكثر قبولاً بالرغم من أنّ مفهوم الآية يتحمل المعنيين.

بعد بيان الدعوة إلى الله وأوصاف الدعاة إلى الله، شرحت الآيات أُسلوب الدعوة وطريقتها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾(١).

في الوقت الذي لا يملك فيه أعداؤكم سوى سلاح الافتراء والإستهزاء والسخرية والكلام البذيء وأنواع الضغوط والظلم؛ يجب أن يكون سلاحكم - أنتم الدعاة - التقوى والطهر وقول الحق واللين والرفق والمحبّة.

إنّ المذهب الحق يستفيد من هذه الوسائل، بعكس المذاهب المصطنعة الباطلة.

---

(١) تكرار «لا» في «ولا السيئة» هو لتأكيد النفي.

وبالرغم من أنّ (الحسنة) و(السيئة) تنطويان على مفهومين واسعين، إذ تشمل الحسنة كلّ إحسان وجميل وخير وبركة، والسيئة تشمل كلّ انحراف وقبح وعذاب، إلاّ أنّ الآية تقصد ذلك الجانب المحدّد من السيئة والحسنة، الذي يختص بأساليب الدعوة.

لكن بعض المفسّرين فسّر الحسنة بمعنى الإسلام والتوحيد، والسيئة بمعنى الشرك والكفر.

وقال البعض: (الحسنة) هي الأعمال الصالحة. و(السيئة) الأعمال القبيحة.

وهناك من قال: إنّ (الحسنة) هي الصفات الإنسانية النبيلة، كالصبر والحلم والمداراة والعفو، بينما السيئة بمعنى الغضب والجهل والخشونة.

ولكن التّفسير الأوّل هو الأفضل حسب الظاهر.

في حديث عن الإمام الصادق أنّه عليه السلام قال في تفسير الآية أعلاه: «الحسنة التقية، السيئة الإذاعة»[1]. وطبعاً فإنّ هذا الحديث الشريف ناظر إلى الموارد التي تكون فيها الإذاعة سبباً في إتلاف الطاقات والكوادر الجيّدة وإفشاء الخطط للأعداء.

ثم تضيف الآية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

ادفع الباطل بالحق، والجهل والخشونة بالحلم والمداراة، وقابل الإساءة بالإحسان، فلا ترد الإساءة بالإساءة، والقبح بالقبح، لأنّ هذا أُسلوب من همّه الانتقام، ثمّ إنّ هذا الأُسلوب يقود إلى عناد المنحرفين أكثر.

وتشير الآية في نهايتها إلى فلسفة وعمق هذا البرنامج في تعبير قصير، فتقول: إنّ هذا التعامل سيقود إلى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

إنّ ما يبيّنه القرآن هنا، مضافاً إلى ما يشبهه في الآية (٩٦) من سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يعتبر من أهم وأبرز أساليب الدعوة، خصوصاً حيال الأعداء والجهلاء والمعاندين. ويؤيّد ذلك آخر ما توصّلت إليه البحوث والدراسات في علم النفس.

لأنّ كلّ من يقوم بالسيئة ينتظر الرد بالمثل، خاصّة الأشخاص الذين هم من هذا النمط؛ وأحياناً يكون جواب السيئة الواحدة عدّة سيئات. أمّا عندما يرى المسيء أنّ من أساء إليه لا يرد السيئة بالسيئة وحسب، وإنّما يقابلها بالحسنة، عندها سيحدث التغيير

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠، ذيل الآية مورد البحث.

في وجوده، وسيؤثّر ذلك على ضميره بشدّة فيوقظه، وستحدث ثورة في أعماقه، وسيخجل ويحس بالحقارة وينظر بعين التقدير والإكبار إلى من أساء إليه.

وهنا ستزول الأحقاد والعداوات من الداخل وتترك مكانها للحبّ والمودّة.

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أنّ هذا الأمر لا يمثّل قانوناً دائماً، وإنّما هو صفة غالبة، لأنّ هناك أقلية تحاول أن تسيء الاستفادة من هذا الأُسلوب، فما لم ينزل بها ما تستحق من عقاب فإنّها لا تترك أعمالها الخاطئة.

ولكن في نفس الوقت الذي نستخدم العقوبة والشدّة ضدّ هذه الأقلية، علينا أن لا نغفل عن أنّ القانون الحاكم على الأكثرية هو قانون: «ادفع السيئة بالحسنة».

لذلك رأينا أنّ رسول الإسلام ﷺ والقادة من أئمة أهل البيت عليهم السلام كانوا يستفيدون دائماً من هذا الأُسلوب القرآني العظيم، ففي فتح مكّة مثلاً كان الأعداء - وحتى الأصدقاء - ينتظرون أن تسفك الدماء وتؤخذ الثارات من الكفار والمشركين والمنافقين الذين أذاقوا المؤمنين ألوان الأذى والعذاب في مكّة وخارجها، من هنا رفع بعض قادة الفتح شعار «اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة، اليوم أذلّ الله قريشاً» لكن ما كان من رسول الله ﷺ - وتنفيذاً لأخلاقية «ادفع السيئة بالحسنة» - إلاّ أن عفا عن الجميع وأطلق كلمته المشهورة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ثمّ أمر ﷺ أن يستبدل الشعار الانتقامي بشعار آخر يفيض إحساناً وكرماً هو: «اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ الله قريشاً»(١).

لقد أحدث هذا الموقف النبوي الكريم عاصفة في أرض مشركي مكّة حتى أنّه على حدّ وصف كتاب الله تعالى بدأوا: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾(٢).

لكن برغم ذلك، نرى أنّ النّبي ﷺ استثنى بعض الأشخاص من العفو العام هذا، كما نقله أصحاب السيرة، لأنّهم كانوا خطرين ولم يستحقوا العفو النبوي الكريم الذي عبّر فيه رسول الله ﷺ عن خلق الإسلام ومنطق النّبيين حينما قال: «لا أقول لكم إلاّ كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»(٣).

﴿وَلِيٌّ﴾ هنا بمعنى الصديق. و﴿حَمِيمٌ﴾ تعني في الأصل الماء الحار المغلي، وإذا

(١) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٠٩.
(٢) سورة النصر، الآية: ٢.
(٣) بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٣٢.

قيل لعرق جسم الإنسان ﴿حَمِيمٌ﴾ فذلك لحرارته، ولهذا السبب يطلق اسم «الحمّام» على أماكن الغسل، ويقال أيضاً للأصدقاء المخلصين والمحبين للشخص ﴿حَمِيمٌ﴾ والآية تقصد هذا المعنى.

وضروري أن نشير إلى أنّ قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ حتى وإن لم تكن تعني أنّ الشخص لم يكن كذلك حقاً، إلاّ أنّ ظاهره سيكون كذلك على الأقل.

إنّ هذا الأُسلوب من التعامل مع المعارضين والأعداء ليس بالأمر العادي السهل، والوصول إليه يحتاج إلى بناء أخلاقي عميق، لذلك فإنّ الآية التي بعدها تبيّن الأُسس الأخلاقية لمثل هذا التعامل في تعبير قصير ينطوي على معانٍ كبيرة، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾[1].

وكذلك: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

على الإنسان أن يجاهد نفسه مدّة طويلة حتى يستطيع أن يسيطر على غضبه، يجب أن تكون روحه قوية في ظلّ الإيمان والتقوى حتى لا يستطيع أن يتأثّر بسرعة وبسهولة بإيذاء الأعداء، ولا يطغى عنده حب الانتقام، فتلزمه الروح الواسعة وانشراح الصدر بالمقدار الكافي، حتى يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الكمال بحيث يقابل السيئات بالإحسان، وعليه أن يتجاوز مرحلة العفو ليصل إلى منزلة «دفع السيئة بالحسنة» وأن يحتسب كلّ ذلك في سبيل الله تعالى بغية تحقيق الأهداف المقدّسة.

وهنا أيضاً - كما تلاحظون - تواجهنا قضية «الصبر» بوصف هذه الخصلة الأساس المتين لكل الملكات الأخلاقية الفاضلة، وهي شرط في التقدّم المعنوي والمادي[2].

إنّ هناك - بلا شك - موانع تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، وإنّ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من تحقيق ذلك بوسائل مختلفة، لذلك نرى الآية الأخيرة تخاطب الرّسول ﷺ بوصفه الأُسوة والقدوة فتقول له: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

---

(١) يرجع ضمير ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ إلى (الخصلة) أو (الوصية) المستفادة من الجملة السابقة.

(٢) اعتقد بعض المفسّرين أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ إشارة إلى الثواب العظيم لمثل هؤلاء الأشخاص العافين الذي ينالهم في الآخرة، لكن هذا التّفسير مستبعد بسبب أنّ الآية تريد أن تبيّن الأساس الأخلاقي لهذا العمل العظيم.

(٣) «نزغ» في الآية الكريمة يمكن أن تكون بنفس معناها المصدري أو أن تكون «اسم فاعل».

﴿نَزْغٌ﴾ تعني الدخول في عمل ما لإفساده، ولهذا السبب يطلق على الوساوس الشيطانية ﴿نَزْغٌ﴾ وهذا التحذير بسبب ما يراود ذهن الإنسان من مفاهيم مغلوطة خطرة، إذ يقوم بعض أدعياء الصلاح بتوجيه النصائح على شاكلة قولهم: لا يمكن إصلاح الناس إلاّ بالقوّة، أو يجب غسل الدم بالدم، أو الترحم على الذئب ظلم للخراف وأمثال ذلك من الوساوس التي تنتهي إلى مقابلة السيئة بالسيئة.

القرآن الكريم يقول: إيّاكم والسقوط في مهاوي هذه الوساوس، ولا تلجأوا إلى القوّة إلاّ في موارد معدودة، وعندما يواجهكم أمثال هذا الكلام فاستعينوا بالله واعتمدوا عليه لأنّه يسمع الكلام ويعلم النيّات.

وأخيراً، تتضمّن الآية الدعوة إلى الاستعاذة بالله في دائرة واسعة، وما ذكر هو أحد المصاديق لذلك.

ملاحظتان

أوّلاً: برنامج الدعاء إلى الله

لقد تضمّنت الآيات الأربع - أعلاه - أربعة بحوث بالنسبة إلى كيفية الدعوة إلى الله تعالى. والخطوات الأربع هي:

أوّلاً: البناء الذاتي للدعاة من حيث الإيمان والعمل الصالح.

ثانياً: الاستفادة من أُسلوب «دفع السيئة بالحسنة».

ثالثاً: تهيئة الأرضية الأخلاقية لإنجاز هذا الأُسلوب والعمل به.

رابعاً: رفع الموانع من الطريق ومحاربة الوساوس الشيطانية.

لقد قدّم لنا رسول الله ﷺ والأئمّة من أهل بيته عليهم السلام خير أُسوة وقدوة في تنفيذ هذا البرنامج والالتزام به، والالتزام بهذا البرنامج يعتبر أحد الأسباب التي أدّت بالإسلام في ذلك العصر المظلم الى الاتساع والانتشار.

واليوم يشهد علم النفس العديد من البحوث والدراسات حول وسائل التأثير على الآخرين، إلاّ أنّها تعتبر شيئاً تافهاً في مقابل عظمة الآيات أعلاه، خصوصاً وأنّ البحوث هذه عادة ما تتعامل مع ظواهر الإنسان وتستهدف الكسب السريع العاجل ولو من خلال التمويه والخداع، لكن البرنامج القرآني يخوض في أعماق النفس البشرية ويؤسس قواعد تأثيره على مضمون الإيمان والتقوى.

واليوم؛ ما أحلى أن يلتزم المسلمون ببرنامج دينهم، ويعمدون إلى نشر الإسلام في عالم متلهف إلى قيم السماء.

أخيراً نُنهي هذه الفقرة بإضاءة نبوية نقتبسها عن تفسير «علي بن إبراهيم» الذي ورد فيه: «أدّب الله نبيّه فقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، قال: ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك، حتى يكون ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾»(١).

ثانياً: الإنسان في مواجهة عواصف الوسواس

ثمّة منعطفات صعبة في حياة المؤمنين يكمن فيها الشيطان، ويحاول أن ينزغ ويحيد بالإنسان عن طريق السعادة وكسب رضا الله تعالى.

وعلى الإنسان في مقابل وسواس الشيطان أن يعتمد في تجاوزها على الله، وإلاّ فإنّه لا يستطيع ذلك لوحده، فعليه أن يتوكل على الله ليجتاز عقبات الطريق ومخاطره، ويتمسك بحبل الله المتين.

لقد ورد في الحديث أنّ شخصاً أساء لآخر في محضر رسول الله ﷺ فثار الغضب في قلبه واشتعلت فيه هواجس الثار، فقال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنهُ الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فقال الرجل: أمجنوناً تراني؟

فاستند رسول الله ﷺ إلى القرآن وتلا قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾(٢).

وهذه إشارة إلى أنّ ثورة الغضب من وسواس الشيطان، مثلما تعتبر ثورة الشهوة والهوى من وسواسه أيضاً.

ونقرأ في كتاب «الخصال» أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام علّم أصحابه أربعمائة باب تنفع المسلمين في الدين والدنيا، من ضمنها قوله عليه السلام لهم: «إذا وسوس الشيطان إلى أحدكم فليستعذ بالله وليقل: آمنت بالله مخلصاً له الدين»(٣).

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٤٩. (٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٤، ص ١١١.
(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٥٥١.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

التّفسير

السجود لله تعالى

تعتبر هذه الآيات بداية فصل جديد في هذه السورة، فهي تختص بقضايا التوحيد والمعاد، ودلائل النبوة وعظمة القرآن، وهي في الواقع مصداق واضح للدعوة إلى الله في مقابل دعوة المشركين إلى الأصنام.

تبدأ أوّلاً من قضية التوحيد، فتدعو الناس إلى الخالق عن طريق الآيات الآفاقية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾(١) فالليل وظلمته للراحة، والنهار وضوءه للحركة.

وهذان التوأمان يقومان بإدارة عجلة حياة الناس بشكل متناوب ومنظم، بحيث لو كان أحدهما دائمياً أو استمر لمدّة أطول، فستصاب جميع الكائنات بالفناء، لذا فإنّ الحياة تنعدم على سطح القمر حيث تعادل لياليه (١٥) ليلة أرضية ونهاره بهذا المقدار أيضاً.

إنّ لياليه المظلمة الباردة تجعل كلّ شيء جامداً، أمّا نهاره الطويل الحار فإنّهُ يحرق كلّ شيء، لذلك لا يستطيع الإنسان وكائنات أرضنا أن تعيش على القمر.

أمّا الشمس فهي مصدر كلّ البركات المادية في منظومتنا، فالضوء والحرارة والحركة ونزول المطر، ونمو النباتات ونضج الفواكه، وحتى ألوان الورود الجميلة، كل ذلك يدين في وجوده إلى الشمس.

---

(١) ينبغي الالتفات إلى أنّ السجدة هنا واجبة في حال سماع الآية أو تلاوتها.

القمر يقوم بدوره بإضاءة الليالي المظلمة، وضوءه دليل السائرين في دروب الصحراء، وهو يجلب الخيرات بتأثيره على مياه البحار وحدوث الجزر والمد فيه.

ولعلّ البعض قام بالسجود لهذين الكوكبين السماويين وبعبادتهما بسبب الخيرات والبركات الآنفة الذكر، فتاهوا في عالم الأسباب، ولم يستطيعوا الوصول إلى مسبّب الأسباب.

ولذلك نرى القرآن بعد هذا البيان يقول مباشرة: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1].

فلماذا لا تتوجهون بالسجود والعبادة إلى خالق الشمس والقمر؟

ولماذا تعبدون كائنات هي نفسها خاضعة لقوانين الخلقة ونظام الوجود، ولها شروق وغروب وتخضع للتغيّرات؟

إنّ السجود لا ينبغي إلاّ لله خالق هذه الموجودات! إنّ خالق هذه الموجودات ومودع النظم والقوانين فيها لا يغرب ولا يأفل ولا تمتد يد التغيير إلى محضر كبريائه عزّ وجلّ.

وبهذا الشكل تنفي الآيات أحد الفروع الواسعة لانتشار الشرك وعبادة الأصنام المتمثلة في عبادة الكائنات الطبيعية النافعة، فينبغي للجميع أن يبحثوا عن علة العلل وأن لا يتوقفوا عند المعلول؛ نعم ينبغي البحث عن خالق هذه الموجودات!

إنّ هذه الآية تستدل - في الواقع - على وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذي يتحكّم بالشمس والقمر والليل والنهار، وإنّ حاكميته تعالى على هذه الموجودات تعتبر دليلاً على وجوب عبادته.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فيه إشارة إلى ملاحظة، مؤدّاها: إذا كنتم تريدون عبادة الخالق فعليكم إلغاء غيره من الشركاء في العبادة، لأنّ عبادته لا تكون إلى جانب عبادة غيره.

وإذا لم يؤثّر هذا الدليل المنطقي في أفكار هؤلاء، واستمروا مع ذلك في عبادة

---

(١) يرجع ضمير التأنيث في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ إلى الليل والنهار والشمس والقمر كما يقول علماء اللغة وأصحاب التّفسير، إذ إنّ ضمير جمع المؤنث العاقل قد يعود أحياناً إلى جمع غير العاقل كما يقال مثلاً (الأقلام بريتهنّ) والبعض يعتقد أنّ الضمير هنا يرجع للآيات التي هي جمع مؤنث لغير العاقل.
واحتمل البعض أنّ الضمير يعود على الشمس والقمر فقط باعتبار أنّها جنس تشمل جميع الكواكب وكأنّها تتمتع بعقل وشعور.

الأصنام والموجودات الأُخرى، ونسوا المعبود الحقيقي، فالله تعالى يخاطبهم بعد ذلك بقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾(١).

فليس مهماً أن لا تسجد مجموعة من الجهلة والغافلين حيال جبروت الله وذاته المقدّسة الطاهرة، فهذا العالم الواسع مليء بالملائكة المقرّبين الذين يركعون ويسجدون ويسبحون له دائماً ولا يفترون أبداً.

ثم إنّ هؤلاء هم بحاجة إلى عبادة الله ولا يحتاج تعالى لعبادتهم، لأنّ فخرهم وكمالهم لا يتمّ إلاّ في ظل العبودية له سبحانه وتعالى.

ولقد ذكرنا أنّ الآيات أعلاه هي من آيات السجدة، وثمّة اختلاف بين فقهاء أهل السنّة في أنّ السجدة هل تكون واجبة بعد بداية الآية الأُولى ﴿تَعْبُدُونَ﴾ أو أنّها تكون كذلك بعد تمام الآيتين ﴿يَسْأَمُونَ﴾؟

ذهب الشافعي ومالك إلى الاحتمال الأول، بينما رجّح آخرون كأبي حنيفة وأحمد ابن حنبل الاحتمال الثّاني.

إلاّ أنّ موقع السجدة الواجبة حسب اعتقاد علماء الإمامية، وفقاً للرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، هي الآية الأُولى ﴿تَعْبُدُونَ﴾ والآية الكريمة هي من آيات السجدة الواجبة في القرآن الكريم.

وضروري أن نشير هنا إلى أنّ الواجب هو أصل السجدة، أمّا الذكر فهو مستحب، ونقرأ في رواية أنّ أقل هذا الذكر في السجدة هو القول: «لا إله إلا الله حقّاً حقّاً، لا إله إلا الله إيماناً وتصديقاً، لا إله إلا الله عبوديةً ورقاً سجدت لك يا ربّ تعبداً ورقاً، لا مستنكفاً ولا مستكبراً بل أنا عبد ذليل خائف مستجير»(٢).

نعود مرّة أُخرى إلى آيات التوحيد التي تعتبر الأرضية للمعاد، وإذا كان الحديث قد شمل في السابق الشمس والقمر والآيات السماوية، فإنّ الحديث هنا يدور حول الآيات الأرضية.

---

(١) ﴿لَا يَسْأَمُونَ﴾: من كلمة (السآمة) وتعني التعب من الاستمرار في العمل أو في موضوع معيّن.
ضمناً فإنّ جملة ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ جملة شرطية جزاؤها محذوف، والتقدير هو: فإن استكبروا عن عبادة الله وتوحيده فإنّ ذلك لا يضرّه شيئاً.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، ج ٤، ص ٨٨٤، (باب ٤٦ من أبواب قراءة القرآن، حديث رقم (٢))، وج ٦، ص ٢٤٥، ح ٧٨٥٢.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

هذه الأرض الميتة اليابسة الخالية من الحركة وآثار الحياة، أيّ قدرة حوّلتها إلى نبض دائم يمور بالحياة والحركة، إنّه الماء، وإنّه لدليل كبير على قدرة الله الأزلية، وعلامة على وجود ذاته المقدّسة.

ثم تنتقل الآية من قضية التوحيد المتمثلة هنا بالحياة التي ما زالت تحيطها الكثير من الأسرار والخفايا والغموض، إلى قضية المعاد، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾.

نعم: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فدلائل قدرته واضحة في كلّ مكان، ومع هذا الوضع فكيف نشكّك بالمعاد ونعتبره محالاً، أليس هذا سوى الجهل والغفلة؟

﴿خَٰشِعَةً﴾ من (الخشوع) وتعني في الأصل التضرّع والتواضع الملازم للأدب، واستخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميتة اليابسة، يعتبر نوعاً من الكناية.

فالأرض اليابسة الفاقدة للماء ستخلو من أيّ نوع من أنواع النبات، فهي تشبه الإنسان الساقط أرضاً أو الميت الذي لا حراك فيه، إلاّ أنّ نزول المطر سيهب لها الحياة ويجعلها تتحرك وتنمو.

﴿وَرَبَتْ﴾ من (ربو) على وزن (غلو) وتعني الزيادة والنمو، والربا مشتق من نفس هذه الكلمة، لأنّ المرابي يطلب دينهُ مع الزيادة.

﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ من «هز» على وزن «حظ» وتعني التحريك الشديد.

وحول «المعاد الجسماني» وأدلته وكيفية الاستدلال عليه من عالم النبات تقدّم بحث مفصّل في نهاية سورة «يس» من هذا التّفسير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾

التفسير

محرّفو آيات الحق

المجموعة التي بين أيدينا من آيات السورة الكريمة، بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد، وتضليل الناس، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾.

من الممكن لهؤلاء أن يضلّوا الناس بأُسلوب المغالطة وباستخدام السفسطة الكلامية، ويخفوا ذلك عن الناس. إلاّ أنّه ليس بوسعهم إخفاء ذرّة ممّا يقومون به عن الله تبارك وتعالى.

﴿يُلْحِدُونَ﴾ من (إلحاد) وهي في الأصل من (لحد) على وزن (عهد) وتعني الحفرة الواقعة في جانب واحد، ولهذا السبب يطلق على الحفرة في جانب القبر اسم «اللحد».

ثمّ أُطلقت كلمة (إلحاد) على أيّ عمل يتجاوز الحدّ الوسط إلى الإفراط أو التفريط، وهي لذلك تطلق لوصف الشرك وعبادة الأصنام، ويقال لمن لا يؤمن بالله تعالى (الملحد).

والمقصود من «الإلحاد في آيات الله» هو إيجاد الوساوس والتمويه في أدلة التوحيد والمعاد التي ذكرتها الآيات السابقة بعنوان «ومن آياته» أو جميع الآيات الإلهيّة، سواء منها الآيات التكوينية السابقة أم الآيات التشريعية النازلة في القرآن الكريم والكتب السماوية الأُخرى.

إنّ المذاهب المادية والإلحادية في عالمنا اليوم التي تعتبر الدين وليد الجهل أو الخوف أو نتاج العامل الاقتصادي والأُمور الأُخرى لغرض إضلال الناس، هي بلاشك من مصاديق الخطاب في هذه الآية الكريمة.

القرآن الكريم أوضح جزاء هؤلاء في إطار مقارنة واضحة فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟

الأشخاص الذين يحرقون إيمان الناس وعقائدهم بنيران الشبهات والتشكيكات سيكون جزاؤهم نار جهنّم، بعكس الذين أوجدوا المحيط الآمن للناس بهدايتهم الى التوحيد والإيمان، فإنّهم سيكونون في أمان يوم القيامة أليس ذلك اليوم هو يوم تتجسد فيه أعمال الإنسان في هذه الدنيا؟

وقال بعض المفسّرين: إنّ الآية تقصد «أبا جهل» كنموذج للغواية ولأهل النّار، وفي الجانب المقابل ذكروا «حمزة» عم النّبي ﷺ أو «عمار بن ياسر» لكن من الواضح أنّ هذا القول لا يعدو أن يكون مصداقاً للآية ذات المفهوم الواسع.

والطريف في هذا الجزء من الآية أنّ التعبير القرآني يستخدم كلمة (إلقاء) في مخاطبة أهل النّار كدليل على عدم امتلاكهم الخيار في أمرهم، بينما يستخدم كلمة «يأتي» في مخاطبة أهل الجنّة، كدليل على احترامهم وحريتهم وإرادتهم في اختيار الأمن والهدوء.

وفوق كلّ هذا فقد استخدمت الآية تعبير الأمان من العذاب كناية عن الجنّة، بينما استخدمت نار جهنم بشكل مباشر، وفي ذلك إشارة إلى أنّ أهم قضية في ذلك اليوم هي «الأمن».

وعندما ييأس الإنسان من هداية شخص يخاطبه بقوله: افعل ما شئت. لذا فالآية تقول لأمثال هؤلاء: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

لكن عليكم أن تعلموا: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

لكن هذا الأمر لا يعني أنّ لهم الحرية في أن يعملوا ما يشاؤون، أو أن يتصرّفوا بما يرغبون، بل هو تهديد لهم لإعراضهم عن كلام الحق، إنّه تهديد يتضمّن توعُّد هؤلاء والصبر على أعمالهم إلى حين.

الآية التي بعدها تتحوّل من الحديث عن التوحيد والمعاد إلى القرآن والنبوّة، وتحذّر الكفار المعاندين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾(١).

إنّ إطلاق وصف «الذكر» على القرآن يستهدف تذكير الإنسان وإيقاظه، وشرح وتفصيل الحقائق له بشكل إجمالي عن طريق فطرته، وقد ورد نظير ذلك في الآية (٩) من سورة «الحجر» في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ثمّ تنطلق الآية لبيان عظمة القرآن فتقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾.

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو أن يتغلّب عليه، منطقه عظيم واستدلاله

---

(١) لقد ذكر المفسّرون عدّة احتمالات حول خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ أنسبها أن نقول بأنّ الخبر هو جملة ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ حيث حذف بقرينة الآية السابقة. وقال البعض: إنّ الخبر هو جملة «يلقون في النّار» المستفادة من الآية السابقة، بينما قال البعض بأنّ جملة: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ التي ترد في الآيات القادمة، لكن الرأي الأوّل أرجح.

قوي، وتعبيره بليغ منسجم وعميق، تعليماته جذرية، وأحكامه متناسقة متوافقة مع الاحتياجات الواقعية للبشر في أبعاد الحياة المختلفة.

ثم تذكر الآية صفة أُخرى مهمّة حول عظمة القرآن وحيويته، فيقول تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لأنّه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

أفعال الله عَزَّوَجَلَّ لا تكون إلاّ وفق الحكمة وفي غاية الكمال. لذا فهو أهل للحمد دون غيره.

لقد ذكر المفسّرون عدّة احتمالات حول قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ...﴾ إلاّ أنّ أشملها هو أنّ أيّ باطل لا يأتيه، من أيّ طريق كان، ومهما كان الأُسلوب، وهذا يعني عدم وجود تناقض في مفاهيمه، ولا ينقض بشيء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقة، ولا يعارض كذلك بالاكتشافات العلمية المستقبلية.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه، ولا يمكن أن ينسخ في المستقبل.

لا يوجد أيّ تعارض في معارفه وقوانينه ووصاياه وأخباره، ولا يكون ذلك في المستقبل أيضاً.

لم تصل إليه يد التحريف بزيادة أو نقص في آية أو كلمة، ولن يطاله ذلك مستقبلاً.

إنّ هذه الآية تعبير آخر لمضمون الآية (٩) من سورة «الحجر» حيث قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١).

ومن خلال ما قلناه نستنتج أنّ قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ كناية عن جميع الجوانب والجهات، بمعنى أنّهُ لن يصيبهُ البطلان أو الفساد من جميع الأوجه والجوانب، وما ذهب إليه البعض من أنّ ذلك كناية للحال والمستقبل، فإنّ قولهم هذا مصداق للمفهوم الأوّل.

﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ كما يرى الراغب في مفرداته: هو ما يقابل الحق، ولكن قد يفسّر أو يراد به أحياناً أحد مصاديقه كالشرك والشيطان والعدم والساحر.

---

(١) لقد اختار هذا التّفسير الزمخشري في كشافه. وللعلاّمة الطباطبائي حديث يشبه هذا في تفسير الميزان، في حين حدّد بعض المفسّرين مصطلح الباطل بالشيطان أو المحرّفين أو الكذب، وما شابه، وقد ورد في حديث عن الباقر والصادق قولهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: «إنّه ليس في إخباره عما مضى باطل، ولا في إخباره عمّا يكون في المستقبل باطل» كما نقل عنهما عَلَيْهِمَا السَّلَامُ صاحب مجمع البيان، وواضح أنّ ما ذكر هو مصاديق لمفهوم الآية.

ويطلق على الشجاع بـ «البطل» لأنّه يبطل أعداءه ويقتلهم أو يلقي بهم خارجاً.

لكن «باطل» في الآية تنطوي على مفهوم مطلق غير محدّد بمصداق معيّن.

والتعبير الأخير في الآية: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ دليل واضح على عدم وصول الباطل بأيّ طريق من الطرق إلى القرآن الكريم، فالباطل قد يسري إلى الكلام الذي يصدر من الأفراد ذوي العلم المحدود والقدرات النسبية.

أمّا الذي يتصف بالعلم المطلق والحكمة المطلقة ويجمع كلّ الصفات الكمالية التي تجعله أهلاً للحمد، فلا يطرأ على كلامه التناقض والاختلاف، ولا ينسخ أو ينقض، أو تمتد إليه يد التحريف، ولا يتناقض كلامه مع الكتب السماوية والحقائق السابقة، ولا يعارض بالمكتشفات العلمية الراهنة، أو تلك التي يكشفها المستقبل.

وأخيراً، الآية واضحة الدلالة على نفي التحريف عن القرآن الكريم، سواء من جهة الزيادة أو النقصان (هناك بحث مفصل حول نفي التحريف أوردناه في نهاية الحديث عن الآية (٩) من سورة «الحجر»).

سؤال

قد يقال: إذا كان الباطل هو ما أشرنا إليه، أي كلّ ما يتصف بأنّه «المخالف للحق» فإنّنا في تفسير الآية (وكذلك المفسّرين الآخرين) فسّرناه بمعنى «المبطل» فكيف يتسق ذلك؟

الإجابة على هذا السؤال تكمن في ملاحظة دقيقة في الأُسلوب القرآني، فالقرآن لا يقول: سوف لا يأتي باطل بعد هذا الكتاب السماوي، بل يقول لا يأتي الباطل إلى هذا الكتاب (أي القرآن) [ينبغي الانتباه إلى ضمير جملة: يأتيه]. ومعنى الكلام أن لا شيء يستطيع أن يصل إليه ويبطله. (فدقق في ذلك).

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ
وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ
وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

التفسير

كتاب الهداية والشفاء

قام الكفار والمشركون بمحاربة رسول الله ﷺ وتكذيبه، والتصدّي للإسلام والقرآن. والآيات السابقة كانت تحكي عن إلحادهم وكفرهم بآيات الله لذلك جاءت الآية الأُولى من الآيات التي بين أيدينا لمواساة النّبي ﷺ وإرشاد المسلمين الذين يواجهون الأذى بأن لامحيص لهم عن الاستقامة والصبر.

يقول تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾.

فإذا كانوا يتهمونك بالجنون والكهانة والسحر، فقد أطلقوا هذه الأوصاف على من قبلك من الأنبياء والمرسلين.

إنّ دعوتك لدين الحق ليست جديدة، وإنّ ما تواجهه وأنت تدعو للدين الجديد ليس جديداً أيضاً، لذلك ما عليك - يا رسول الله - إلاّ أن ترابط بقوّة وتلزم ما أنت عليه ولا تهتم بكلام هؤلاء، لأنّ الله معك.

احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الآية هو: أنّ الكلام الذي قيل لك من قبل الله هو نفس الكلام الذي قيلَ لمن قبلك من الأنبياء(١).

لكن المعنى الأوّل أنسب في المقام، خاصّة مع ملاحظة سياق الآيات القادمة.

يقول الله تبارك وتعالى في نهاية الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

فرحمتهُ ومغفرته للمصدّقين، وعذابه للمكذبين والمعارضين.

وهذا الجزء من الآية هو بشارة للمؤمنين وتشويق لهم، وإنذارٌ للكفار وتهديد لهم.

إنّ تقديم (المغفرة) على (العقاب) يشبه - في الواقع - الموارد الأُخرى، وهو دليل

---

(١) هذا الاحتمال يمكن ملاحظته في تفسير «مجمع البيان» و«التّفسير الكبير» ولكنّ كليهما رجّح التفسير الأوّل.

على تقدّم رحمته تعالى على غضبه، كما جاء في المأثور من الدعاء: «يامن سبقت رحمتهُ غضبهُ»(١).

الآية التي بعدها تتحدّث عن ذرائع هؤلاء المعاندين، وترد على واحدة منها، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر ويستفيد منهُ غير العرب؟

إنّها حجّة عجيبة!

ولعلّهم كانوا يستهدفون منها عدم فهم الناس القرآن حتى لا يضطروا إلى منعهم عنه، كما حكى القرآن عن سلوكهم هذا في آية سابقة في قوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾(٢).

وهنا يجيب القرآن على هذا القول بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾.

ثم يضيفون: يا للعجب قرآن أعجمي من رسول عربي؟: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

أو يقولون: كتاب أعجمي لأُمّة تنطق بالعربية؟!

والآن وبالرغم من نزوله بلسان عربي، والجميع يدرك معانيه بوضوح ويفهم عمق دعوة القرآن، إلاّ أنّهم ومع ذلك نراهم يصرخون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾(٣).

إنّ الآية تتحدّث في الواقع عن المرض الكامن في نفوس هؤلاء وعجزهم عن مواكبة الهدى والنور الذي أُنزل عليهم من ربّهم، فإذا جاءهم بلسانهم العربي قالوا: هو السحر والأُسطورة، وإذا جاءهم بلسان أعجمي فإنّهم سيعتبرونه غير مفهوم، وإذا جاءهم مزيجاً من الألفاظ العربية والأعجمية عندها سيقولون بأنّه غير موزون(٤)!!

وينبغي الانتباه هنا إلى أنّ كلمة (أعجمي) من «عجمة» على وزن «لقمة» وتعني عدم الفصاحة والإبهام في الكلام، وتطلق «عجم» على غير العرب لأنّ العرب لا يفهمون

(١) عن دعاء الجوشن الكبير. الفصل (١٩) الجملة الثامنة.

(٢) في تفسير الفخر الرازي نقرأ قوله: نقلوا في سبب نزول هذه الآية أنّ الكفّار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم.

(٣) سورة فصّلت، الآية: ٢٦.

(٤) بعض المفسّرين فسّر قوله تعالى: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بنفس معناه المباشر أي مزيج وخليط بين العربي والأعجمي.

كلامهم بوضوح، وتطلق «أعجم» على من لا يجيد الحديث والكلام سواء كان عربياً أم غير عربي.

بناءً على هذا فإنّ (أعجمي) هي (أعجم) منسوبة بالياء.

ثم يخاطب القرآن الرّسول ﷺ بالقول: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾.

أمّا لغيرهم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي «ثقل» ولذلك لا يدركونه.

ثم إنّه: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾(١). أي إنّهم لا يرونه بسبب عماهم، فهؤلاء كالأشخاص الذين ينادون من بعيد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

ومن الواضح أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لا يسمعون ولا يبصرون. فلأجل العثور على الطريق والوصول إلى الهدف لا يكفي وجود النور وحده، فيجب أن تكون هناك عين تبصر، كذلك يقال في مسألة التعلّم، حيثُ لا يكفي وجود المبلّغ والداعية الفصيح، بل ينبغي أن تكون هناك أُذن تسمع وتعي، فلا شك في بركة المطر وتأثيره في نمو النباتات. ولكن المسألة في الأرض، طيّبة أم خبيثة!!

فالذين يتعاملون مع القرآن بروح تبحث عن الحقيقة سيهتدون وستشفى نفوسهم وصدورهم به، حيث يعالج القرآن الكريم الأمراض الأخلاقية والروحية، ثم يشدّون الرحال للسفر نحو الآفاق العالية في ظل نور القرآن وهداه.

أمّا ماذا يستفيد المعاندون والمتعصبون وأعداء الحق والحقيقة وأعداء الأنبياء والرسل من كتاب الله تعالى، فهم في الواقع مثلهم مثل الأعمى والأصم ومن ينادي من مكان بعيد، فهل تراه يسمع النداء أو يستجيب لهداه، إنّهم كمن أُصيب بالعمى والصمم المضاعف، وهو بعد ذلك في مكان بعيد!!

ونقل بعض المفسّرين أنّ أهل اللغة يقولون لمن يفهم: أنت تسمع من قريب.

ويقولون لمن لا يفهم: أنت تنادي من بعيد(٢).

«وثمّة شرح مفصّل حول شفاء القرآن ومعالجته لآلام الإنسان الروحية، يمكن مراجعته ذيل الآية (٨٢) من سورة الإسراء».

---

(١) بعض المفسّرين ذهب إلى القول بأنّ الجملة أعلاه معناها هو: أنّ القرآن هو سبب في عمى هذه الفئة وعدم رؤيتها، في حين أنّ الراغب في المفردات وابن منظور في لسان العرب اعتبرا قول العرب «عمي عليه» بمعنى أنّهُ «اشتبه حتى صار الإضافة إليه كالأعمى» وبناءً على هذا يكون المراد من الآية هو ما ذهبنا إليه في المتن.

(٢) يلاحظ ذلك في تفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث.

الآية التالية تستمر في مواساة رسول الله ﷺ والمؤمنين معه وتقول لهم: إنّ للعناد والإنكار تاريخ طويل في حياة النبوّات: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

وإذ ترى أنّنا لا نعجل في عقاب هؤلاء الأعداء المعاندين، فذلك لأنّ المصلحة تقتضي أن يكونوا أحراراً حتى تتمّ الحجّة عليهم: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي لكان العقاب قد شملهم بسرعة.

إنّ التأجيل الإلهي إنّما يتم هنا لمصلحة الناس ومن أجل المزيد من فرص الهداية والنور، وبغية إتمام الحجّة عليهم، وهذه السنّة كانت نافذة في جميع الأقوام السابقة، وهي تجري في قومك أيضاً.

لكنّهم لم يصدّقوا بهذه الحقيقة بعد: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

«مريب» من «ريب» بمعنى الشك الممزوج بسوء الظن والقلق، لذلك فمعنى الآية: إنّ المشركين لا يشكّون في كلامك وحسب، بل يزعمون وجود القرائن على بطلانه والتي تؤدّي بزعمهم إلى الريب.

بعض المفسّرين احتمل أنّ مراد الجملة الأخيرة هم اليهود وكتاب موسى عليه السلام، بمعنى أنّ هؤلاء القوم لا يزالون يشكّون في التوراة، لكن بعد هذا المعنى يرجّح التّفسير الأوّل(١).

في الآية الأخيرة - من المجموعة - نقف أمام قانون عام يرتبط بأعمال الناس، وقد أكّده القرآن مراراً، وهذا القانون يكمل البحث السابق بشأن استفادة المؤمنين من القرآن، بينما يحرم غير المؤمنين أنفسهم من فيض النور الإلهي والهدى الرّباني.

يقول تعالى في هذا القانون: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

لذا فإنّ من لم يؤمن بهذا الكتاب والدين العظيم فسوف لن يضروا الله تعالى ولا يضروك، لأنّ الحسنات والسيئات تعود إلى أصحابها، وهم الذين سينالون حلاوة أعمالهم ومرارتها.

---

(١) ينبغي أن يلاحظ أنّ الآية بعينها وردت في سورة هود الآية (١١٠).

مسائل

أوّلاً: الاختيار والعدالة

قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ دليل واضح على قانون الاختيار وحرية الإرادة، وفيه حقيقة أنّ الله لا يعاقب أحداً بدون سبب، ولا يزيد في عقاب أحد دون دليل، فسياستهُ في عباده العدالة المحضة، لأنّ الظلم يكون بسبب النقص والجهل والأهواء النفسية، والذات الإلهيّة المقدسة منزّهة عن كلّ هذه العيوب والنواقص.

كلمة «ظلاّم» والتي هي صيغة مبالغة بمعنى «كثير الظلم»، يمكن أن تشير - هنا وفي آيات قرآنية أُخرى - إلى أنّ العقاب دون سبب من قبل الخالق العظيم يعتبر مصداقاً للظلم الكثير، لأنّه تعالى منزّه عن هذا الفعل.

وذهب بعضهم إلى أنّ الله تعالى لهُ عباد كثيرون، فلو أراد أن يظلم كلّ واحد منهم بجزء يسير قليل، عندها سيكون مصداقاً لـ«ظلاّم».

وهذان التّفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

المهم هنا أنّ القرآن وفي هذه الآيات البينات نفى الجبر الذي يؤدّي الى إشاعة الفساد وارتكاب أنواع القبائح، والاعتقاد به يؤدّي إلى إلغاء أيّ نوع من المسؤولية والتكليف، بينما الجميع مسؤولون عن أعمالهم، نتائجها تعود بالدرجة الأولى عليهم.

لذلك نقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في الإجابة على هذا السؤال: هل يجبر الله عباده على المعاصي؟

فقال: «لا، بل يخيرهم ويمهلهم حتى يتوبوا».

فسئل عليه السلام مجدداً: هل كلّف عباده ما لا يطيقون؟

أجاب الإمام عليه السلام: «كيف يفعل ذلك وهو يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾».

ثم أضاف الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ أبي، موسى بن جعفر نقل عن أبيه جعفر بن محمّد من زعم أنّ الله يجبر عباده على المعاصي أو يكلّفهم ما لا يطيقون فلا تأكلوا ذبيحته، ولا تقبلوا شهادته، ولا تصلّوا وراءه ولا تعطوه من الزكاة شيئاً»[1].

إنّ هذا الحديث الشريف يشير - ضمناً - إلى هذه الملاحظة الدقيقة. وهي إنّ

(١) عيون أخبار الرضا، نقلاً عن نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٥٥؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٣١٣، ح١٠٧٦٢؛ بحار الأنوار، ج ٥، ص ١١، ح ١١.

الجبريين ينتهون في عقيدتهم إلى القول بـ «التكليف بما لا يطاق» لأنّ الإنسان إذا كان مجبوراً على الذنب من ناحية، وممنوعاً عنه من ناحية أُخرى، فهذا يكون مصداقاً واضحاً للتكليف بما لا يُطاق.

ثانياً: الذنوب وسلب النعم

في حديث عميق الدلالة لأمير المؤمنين نقرأ قوله عليه السلام: «وايم الله! ما كان قوم قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم إلاّ بذنوب اجترحوها، لأنّ الله ليس بظلام للعبيد».

ثم أضاف عليه السلام: «ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربّهم بصدق من نيّاتهم، ووله من قلوبهم، لردّ عليهم كلّ شارد، وأصلح لهم كلّ فاسد»(١).

إنّ هذا النص العلوي الكريم يوضّح - بجلاء - علاقة الذنوب بسلب النعم وزوالها.

ثالثاً: لماذا كلّ هذا التحجج؟!

لا شك أنّ اللغة العربية أغنى اللغات وأوسعها، ولكن مع هذا فإنّ عظمة القرآن ليست لأنّه باللغة العربية، بل تعود عربية القرآن إلى أنّ الله يرسل الرسل بلسان قومهم كي يؤمنوا أوّلاً، ثمّ ينتشر الدين إلى الآخرين.

لكن أصحاب الذرائع والحجج يطرحون في كلّ موقف حجة أو ذريعة غير منطقية، وهم يعلمون أنّهم بأُسلوبهم هذا لا يبحثون عن الحقيقة ولا ينشدونها.

إنّهم يقولون مرّة: لماذا نزل القرآن بالعربية؟ ألم يكن من الأفضل أن ينزل كلّه أو جزء منهُ بلغة أُخرى حتى يفهمهُ الآخرون؟ (في حين أنّهم كانوا يهدفون إلى تحقيق شيء آخر هو أن لا ينجذب عامة العرب نحو القرآن الكريم).

ولو حقّق لهم هذا الطلب فسيقولون: كيف يكون الرّسول عربياً وكتابه غير عربي؟

هؤلاء إنّما يهربون من الحق من خلال هذا التذرُّع. وعادةً ما يكون أُسلوب التذرُّع وإثارة الحجج دليلاً على وجود علة أُخرى وهدف آخر يخفيه الإنسان ويغطّي عليه، وعلّة هؤلاء القوم كانت أنّ عامة الناس شغفوا بالقرآن الكريم وانجذبوا إليه، فأصبحت مصالحهم في خطر، لذا فقد استخدموا كلّ الوسائل المتاحة لهم لمواجهة الإسلام دعوة وكتاباً ونبياً.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٧.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

التّفسير

الله العالمُ بكُلِّ شيء

الآية الأخيرة - في المجموعة السابقة - تحدّثت عن قانون تحمّل الإنسان مسؤولية أعماله خيراً كانت أم شراً، وعودة آثار أعماله على نفسه، وهي إشارة ضمنية لقضية الثواب والعقاب في يوم القيامة.

وهنا يطرح المشركون هذا السؤال: متى تكون هذه القيامة التي تتحدّث عنها؟ الآيتان اللتان نبحثهما تجيبان أوّلاً عن هذا السؤال، إذ يقول القرآن: إنّ الله وحده يختص بعلم قيام الساعة: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

فلا يعلم بذلك نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب، ويجب أن يكون الأمر كذلك لأغراض تربوية يكون فيها المكلّف على استعداد دائم للمحاسبة في أيّ ساعة.

ثم تضيف الآية: ليس علم الساعة وحده من مختصات العلم الإلهي فحسب، بل يندرج معه أشياء أُخرى مثل أسرار هذا العالم، وما يختص بالكائنات الظاهرة والمخفية: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[1]. إنّ النباتات لا تنمو، والحيوانات لا تتكاثر، ولا يضع الإنسان نطفة إلاّ بأمر الخالق العظيم، وبمقتضى علمه وحكمته.

«أكمام» جمع «كم» على وزن «جم» وتعني الغلاف الذي يغطّي الفاكهة و«كم» على وزن «قُم» تعني الجزء من الرداء الذي يغطّي اليد. أمّا «كمة» على وزن «قبة» فهي القلنسوة على الرأس[2].

---

(١) «من» في ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ و﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ وكذلك في ﴿مِن شَهِيدٍ﴾ تأتي في نهاية الآية، كلّها زائدة جاءت هنا للتأكيد.

(٢) يلاحظ الراغب في المفردات.

قال العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان: تكمم الرجل في ثوبة، أي غطّى الشخص نفسه بلباسة.

أمّا الفخر الرازي فيفسّر «الأكمام» بمعنى القشرة التي تغطّي الفاكهة.

وهناك من المفسّرين من فسّروها بأنّها: «وعاء الثمرة»(١).

ويبدو أنّ جميع هذه الآراء تعود إلى معنى واحد، ولأنّ أدق المراحل في عالم الكائن الحي هي مرحلة النمو في الرحم والولادة، لذلك أكّد القرآن على هاتين القضيتين، سواء في عالم الإنسان والحيوان، أم في عالم النبات.

فالله هو الذي يعلم بالنطف وزمان انعقادها في الأرحام ولحظة ولادتها، ويعلم متى تتشكل الثمار وتنمو، ومتى تخرج من أغلفتها.

ثم يضيف السياق القرآني: إنّ هذه المجموعة التي تنكر القيامة وتستهزىء بها، ستتعرض إلى مشهد يقال لهم فيه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾(٢).

فما كنّا نقوله هو كلام باطل، كان كلاماً نابعاً من الجهل والعناد والتقليد الأعمى، واليوم عرفنا مدى بطلان ادعاءاتنا الواهية.

وهؤلاء في نفس الوقت الذي يسجّلون اعترافهم السابق، فهم أيضاً لا يشاهدون أثراً للمعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله من قبل: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾.

إنّ مشهد القيامة مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الألباب، فينسون خواطر تلك الأصنام والمعبودات التي كانوا يعبدونها ويسجدون لها ويذبحون لها القرابين؛ بل وكانوا أحياناً يضحّون بأرواحهم في سبيلها، وكانوا يظنون أنّها تحل لهم مشكلاتهم وتنفعهم يوم الحاجة... إنّ كلّ ذلك أصبح وهماً كالسراب.

ففي ذلك اليوم سيعلمون: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

﴿مَّحِيصٍ﴾ من «حيص» على وزن «حيف» وتعني العدول والتنازل عن شيء، ولأنّ ﴿مَّحِيصٍ﴾ اسم مكان، فهي تعني هنا الملجأ والمفر.

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٤٠١، وتفسير المراغي.

(٢) «آذناك» من «إيذان» بمعنى الإعلان. وجملة ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تتعلّق بمحذوف. والتقدير: «اذكر يوم يناديهم...» لقد ذكروا لهذه الجملة تفسيراً آخر هو: لا يوجد بيننا اليوم من يشهد بوجود شريك لك، والكل ينكر وجود الشريك.

«ظنوا» من «ظنّ» ولها في اللغة معنىً واسع، فهي أحياناً بمعنى اليقين، وتأتي أيضاً بمعنى الظن. وفي الآية مورد البحث جاءت بمعنى اليقين، إذ سيحصل لهم في ذلك اليوم اليقين حيثُ لا مفرّ ولا نجاة من عذاب الله.

يقول الراغب الإصفهاني في المفردات: «ظن» تعني الاعتقاد الحاصل من الدليل والقرينة، وهذا الاعتقاد قد يكون قويّاً في بعض الأحيان ويصل إلى مرحلة اليقين، وأحياناً يكون ضعيفاً لا يتجاوز حدَّ الظن.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ
قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا
عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا
بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

التفسير

في نفس الاتجاه الذي تحدّثت فيه الآيات السابقة، نلتقي مع مضمون المجموعة الجديدة من الآيات التي بين أيدينا، والتي تواصل حديثها عن صور أُخرى حيّة وناطقة من حياة أُناس من عديمي الإيمان وضعافه، الذين يحملون أفكاراً غير ناضجة ومواقف مهزوزة ولا يمتلكون القدرة على تحمّل الصعاب.

يقول تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾.

فليس لحرص الإنسان من نهاية، فكلّما يحصل على شيء يطالب بالمزيد، ومهما يعطى لا يكتفي بذلك.

ولكنّه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾.

والمقصود بالإنسان هنا الإنسان غير المتربي بعدُ بأُصول التربية الإسلامية، والذي لم يتنور قلبهُ بالمعرفة الإلهيّة والإيمان بالله، ولم يحسّ بالمسؤولية بشكل كامل، إنّها كناية عن الناس المتقوقعين في عالم المادة بسبب الفلسفات الخاطئة، فهم لا يملكون الروح

العالية التي تؤهّلهم للصبر والثبات، وتجاوز الحدود المادية إلى ما وراءها من القيم العظيمة.

هؤلاء يفرحون إذا أقبلت الدنيا عليهم، وييأسون ويحزنون إذا ما أدبرت عنهم، ولا يملكون ملجأً يلجأون إليه، ولا يدخل نور الأمل والهداية إلى قلوبهم.

وينبغي أن نشير أيضاً إلى أنّ «دعاء» تأتي أحياناً بمعنى المناداة، وأحياناً بمعنى الطلب، وفي الآية التي نبحثها جاءت بالمعنى الثاني.

لذا فقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ يعني لا يمل ولا يتعب الإنسان أبداً من طلب الخير والجميل.

وثمّة بيّن المفسّرين اختلاف في الرأي حول «يؤوس» و«قنوط» فيما إذا كانا بمعنى واحد أم لا؟

يرى البعض أنّهما بمعنى واحد، والتكرار للتأكيد(١).

وقال البعض الآخر: «يؤوس» من «يئس» بمعنى اليأس في القلب، أمّا «قنوط» فتعني إظهار اليأس على الوجه وفي العمل(٢).

أمّا «الطبرسي» فقد قال في مجمع البيان: إنّ الأوّل هو اليأس من الخير، بينما الثّاني هو اليأس من الرحمة(٣).

ولكن الذي نستفيده من الاستخدام القرآني أنّ الاثنين يستخدمان تقريباً للدلالة على معنى واحد، فنقرأ في قصة يوسف - مثلاً - أنّ يعقوب عليه السلام حذّر أبناءه من اليأس من رحمة الله، في حين كانت قلوبهم يائسة من العثور على يوسف، وكانوا أيضاً يظهرون علامات اليأس(٤).

وفي حالة إبراهيم عليه السلام نرى أنّهُ عجب من البشارة التي زفتها إليه الملائكة بالولد، لكن الملائكة قالت له: ﴿بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾(٥).

الآية التالية تشير إلى صفة أُخرى من صفات الإنسان الجاهل البعيد عن العلم

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٤٠٢، ذيل الآيات مورد البحث.
(٢) الفخر الرازي في التّفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٣٧؛ وتفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٤.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٨.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٨٧ فما فوق.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٥٥.

والإيمان متمثلة بالغرور: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾[١] أي إنّني مستحق ولائق لمثل هذه المواهب والمقام.

إنّ الإنسان المغرور ينسى أنّ البلاء كان من الممكن أن يشمله عوضاً عن النعمة، تماماً كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾[٢].

تضيف الآية بعد ذلك أنّ هذا الغرور يقود الإنسان في النهاية إلى إنكار الآخرة حيث يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾. ولنفرض أنّ هناك قيامة فإنّ حالي سيكون أحسن من هذا: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

إنّ هذه الحالة تشابه ما استمعنا إليه في سورة الكهف من قصة الرجلين اللذين كان أحدهما غنياً مغروراً، والثّاني عارفاً مؤمناً، حيث حكت الآية على لسان الثري المغرور قوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾[٣].

لكنّ الله يحذّر أمثال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

«العذاب الغليظ» هو العذاب الشديد المتراكم.

نفس هذا المعنى لاحظناه في مكان آخر من القرآن، في قوله تعالى في الآية (١٠) من سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

الآية التي بعدها تذكر حالة ثالثة لمثل هؤلاء، هي حالة النسيان عند النعمة والفزع والجزع عند المصيبة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أمّا: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

﴿وَنَـَٔا﴾ من «نأي» على وزن «رأي» وتعني الابتعاد، وعندما تقترن مع كلمة ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ فتكون كناية عن التكبّر والغرور، لأنّ المتكبرين ينأون بوجوههم دون اهتمام ويبتعدون.

---

(١) ذهب بعض المفسّرين للقول بأنّ جملة ﴿هَٰذَا لِي﴾ تعني أنّ هذه النعمة ستبقى دائماً لي، أي إنّها في الحقيقة توضّح دوام ذلك، إلاّ أنّ التّفسير الذي عرضناه أعلاه أنسب بالرغم من إمكان الجمع بين الاثنين، أي إنّهم يعتبرون أنفسهم مستحقين للنعم، ويتصوّرونها دائمة لهم أيضاً.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨. (٣) سورة الكهف، الآيتان: ٣٥ - ٣٦.

«العريض» مقابل الطويل، ويستخدم العرب هاتين الكلمتين للدلالة على الزيادة والكثرة.

وفي الآية (١٢) من سورة يونس نرى معانٍ شبيهة لما نحنُ بصدده، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

إنّ الإنسان الذي يفتقد الإيمان والتقوى يكون عرضة لمثل هذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناس لله، وإذا أدبرت عنهُ فقنوط يائس كثير الجزع.

وفي الجانب المقابل نرى أنّ رجال الحق وأتباع الأنبياء والرسل لا يتغيّرون إذا أقبلت عليهم النعم، ولا يهنون أو ييأسون أو يجزعون عند إدبارها، إنّهم مصداق قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فأرباح التجارة لا تنسيهم ربّهم، إنّهم عارفون حق المعرفة بفلسفة النعمة والبلاء في هذه الدنيا، يعلمون أنّ الابتلاءات ناقوس خطر لهم، بينما النعم اختبار وامتحان إلهي لهم.

ومن الابتلاء ما يكون أحياناً عقوبةً للغفلة والنسيان، وتكون النعم لإثارة دوافع الشكر لدى العباد.

ويلفت النظر هنا طرافة الاستخدام القرآني لكلمتي «أذقنا» و«مسه» والتي تعني أنّهم مع قليل جدّاً من إقبال الدنيا عليهم يتغيّرون وينسون ويصابون بالغرور، وهؤلاء مع «مسّة» قليلة من ضرر أو بلاء يصابون باليأس والقنوط.

من هنا نقف على قيمة سعة الروح، وتدفق النفس بالإيمان، واتساع آفاق الفكر، وانشراح الصدر، واستعداد الإنسان لمواجهة المشاكل والصعاب، وتحدي المزالق والأهواء، التي تعتبر جميعاً من ثمار الإيمان والتقى.

يقول شهيد المحراب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في أحد أدعيته التي تعتبر درساً لأصحابه: «نسأل الله سبحانهُ أن يجعلنا وإيّاكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصر به عن طاعة ربّه غاية، ولا تحل به بعد الموت ندامةً وكآبة»(١).

الآية الأخيرة تتضمّن الخطاب الأخير لهؤلاء، وتبيّن لهم - بوضوح - الأصل العقلي المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٦٤.

﴿كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾(١).

ومن الواضح أنّ هذا الكلام إنّما يقال للأشخاص الذين لا ينفع معهم أيّ دليل منطقي لشدّة عنادهم وتعصّبهم. فالآية تقول لهؤلاء: إذا كنتم ترفضون حقانية القرآن والتوحيد ووجود عالم ما بعد الموت وتصرّون عليه، فأنتم لا تملكون حتماً دليلاً قاطعاً على هذا الرفض، لذا يبقى ثمّة احتمال في أن تكون دعوة القرآن وقضية المعاد حقيقة موجودة، عندها عليكم أن تتصوروا المصير الأسود الموحش الذي ينتظركم لعنادكم وضلالكم ومعارضتكم الشديدة إزاء الدين الإلهي.

إنّه نفس الأُسلوب الذي نقرأ عنهُ في محاججة أئمّة المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد، كما نرى ذلك واضحاً في الحادثة التي ينقلها العلاّمة الكليني في «الكافي» حيث يذكر فيه الحوار الذي دار بين الإمام الصادق عليه السلام وابن أبي العوجاء.

فمن المعروف أنّ «عبد الكريم بن أبي العوجاء» كان من ملاحدة عصره ودهرييه، وقد حضر الموسم (الحج) أكثر من مرّة والتقى مع الإمام الصادق في مجالس حوار، انتهت إلى رجوع بعض أصحابه عنهُ إلى الإسلام، ولكنّ ابن أبي العوجاء لم يسلم، وقد صرّح الإمام عليه السلام بأنّ سبب ذلك هو أنّه أعمى ولذلك لا يسلم.

والحادثة موضع الشاهد هنا، هي أنّ الإمام بصُر بابن أبي العوجاء في الموسم فقال له: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟

فأجاب ابن أبي العوجاء: عادة الجسد، وسنة البلد، ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة!

فقال لهُ الإمام: أنت بعد على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم(٢).

وعندما أراد أن يبدأ بالمناقشة والجدال قال له الإمام عليه السلام: لا جدال في الحج. ثم قال لهُ: إن يكن الأمر كما تقول، وليس كما تقول، نجونا ونجوت. وإن يكن الأمر كما نقول، وهو كما نقول نجونا وهلكت.

فأقبل عبد الكريم على من معه وقال: وجدت في قلبي حزازة (ألم) فردّوني، فردّوه فمات(٣).

---

(١) ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تأتي عادةً بمعنى «أخبروني» وتفسّر بنفس المعنى.

(٢) يناديه الإمام بهذا الاسم، وهو اسمه الحقيقي مع كونه منكراً لله لكي يشعره مهانة ما هو عليه وهذا اسمه.

(٣) أُصول الكافي، ج ١، ص ٧٧ - ٧٨، كتاب التوحيد باب حدوث العالم.

مسألة

يُثار هنا السؤال الآتي: لقد قرأنا في الآيات التي نبحثها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ولكنّا نقرأ في سورة «الإسراء» قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾[١].

والسؤال هنا كيف نوفق بين الآيتين، إذ المعروف أنّ الدعاء دليل الأمل، في حين تتحدّث الآية الأُخرى عن يأس أمثال هؤلاء؟

أجاب بعض المفسّرين على هذا السؤال بتقسيم الناس إلى مجموعتين، مجموعة تيأس نهائياً عندما تصاب بالشر والبلاء، وأُخرى تصر على الدعاء برغم ما بها من فزع وجزع[٢].

البعض الآخر قال: إنّ اليأس يكون من قطع الأمل بالخير أو دفع الشر عن طريق الأسباب المادية العادية، وهذا لا ينافي أن يلجأ الإنسان إلى الله بالدعاء[٣].

ويحتمل أن تكون الإجابة من خلال القول بأنّ المقصود من ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ هو ليس الطلب من الله، بل الجزع والفزع الكثير، ودليل ذلك قوله تعالى في الآيتين (١٩) و (٢٠) من سورة المعارج: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

أو أنّ الآيتين تعبّران عن حالتين، إذ إنّ هؤلاء الأفراد يقومون أوّلاً بالدعاء وطلب الخير من النّبي ﷺ وهم فزعون جزعون، ثمّ لا تمرّ فترة قصيرة إلاّ ويصابون باليأس الذي يستوعب وجودهم كلّه.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٣.
(٢) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٢٨٠.
(٣) تفسير الميزان، ج ١٧، ص ٤٠٢، لكن هذا التّفسير لا يناسب المقام كثيراً، خاصة وأنّ الآيات أعلاه هي بصدد ذم مثل هؤلاء الأشخاص، في حين أنّ قطع الأمل من الأسباب الظاهرية والتوجّه نحو الله ليس عيباً وحسب، بل يستحق التنويه والمدح.

التّفسير

علائم الحق في العالم الكبير والصغير

الآيتان الختاميتان في هذه السورة تشيران إلى موضوعين مهمين، وهما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الأُولى تتحدّث عن التوحيد (أو القرآن)، والثانية عن المعاد.

يقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

«آيات الآفاق» تشمل خلق الشمس والقمر والنجوم والنظام الدقيق الذي يحكمها، وخلق أنواع الأحياء والنباتات والجبال والبحار وما فيها من عجائب وأسرار لا تعد ولا تحصى، وما في عالم الأحياء من عجائب لا تنتهي، إنّ كلّ هذه الآيات هي دليل على التوحيد وعلى وجود الله.

أمّا «الآيات النفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، والنظام المحيّر الذي يتحكّم بالمخ وحركات القلب المنتظمة والشرايين والعظام والخلايا، وانعقاد النطفة ونمو الجنين في ظلمات الرحم. ثمّ أسرار الروح العجيبة. إنّ كلّ ذلك هي كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

صحيح أنّ هذه الآيات قد ذُكرت سابقاً بمقدار كاف من قبل الله تعالى، إلاّ أنّ هذه العملية والإراءة مستمرة، لأنّ ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، وإذا عاش الإنسان مئات الآلاف من السنين، فسوف تنكشف لهُ في كلّ زمان علامات وآيات إلهيّة جديدة، لأنّ أسرار العالم لا تنتهي.

إنّ كافة كتب وبحوث العلوم الطبيعية وما يتصل بمعرفة الإنسان في أبعاده المختلفة (التشريح، فسلجة الأعضاء، علم النفس، والتحليل النفسي) وكذلك العلوم التي تختص بمعرفة النباتات والحيوانات والهيئة والطبيعة وغير ذلك، تعتبر في الواقع كتباً وبحوثاً في التوحيد ومعرفة الخالق (جلّ وعلا) لأنّها عادةً ما ترفع الحجب عن الأسرار العجيبة لتبيّن قدراً من حكمة الخالق العظيم، وقدرته الأزلية، وعلمه الذي أحاط بكل شيء.

أحياناً يستحوذ علم واحد من هذه العلوم، بل فرع من فروعه المتعدّدة على اهتمام عالم من العلماء فيصرف عمرهُ في سبيله، وفي النهاية يقرّر قائلاً: مع الأسف لا زلت لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وما علمتهُ لحدّ الآن تجعلني أغوص أكثر في أعماق

جهلي، نعود الآن إلى الآية التي تنتهي بجملة ذات مغزى حيث يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

وهل هناك شهادة أفضل وأعظم من هذه التي كتبت بخط القدرة التكوينية على ناصية جميع الكائنات، على أوراق الشجر، في الأوراد والزهور، وبين طبقات المخ العجيبة، وعلى الأغشية الرقيقة للعين، وفي آفاق السماء وبواطن الأرض، وفي كلّ شيء من الوجود تجد أثراً يدل على الخالق، وشهادة تكوينية على وحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه (سبحانه وتعالى).

إنّ ما قلناه أعلاه هو أحد التّفسيرين المعروفين للآية، اذ بناءً على هذا التّفسير فإنّ الآية تتحدّث عن قضية التوحيد، وتجلّي آيات الحق في الآفاق والأنفس.

أمّا التّفسير الثّاني فيذهب إلى قضية إعجاز القرآن، وخلاصته أنّ الله يريد أن يقول: لقد عرضنا معجزاتنا ودلائلنا المختلفة لا في جزيرة العرب وحسب، وإنّما في نواحي العالم المختلفة، وفي هؤلاء المشركين أنفسهم، حتى يعلموا بأنّ هذا القرآن على حق.

فمن آيات الآفاق ما تمثّل بانتصار الإسلام في ميادين الحرب المختلفة، وفي ميدان المواجهة الفكرية والمنطقية، ثمّ انتصاره في المناطق التي فتحها وحكم فيها على أفكار الناس.

ثم إنّ نفس المجموعة من المسلمين التي كانت في مكّة، كيف يسّر الله لها أمرها بالهجرة، ثمّ انطلقت إلى بقاع الدنيا، لتدين لدينها الشعوب في مناطق واسعة من العالم ورفع راية الإسلام.

ومن آيات الأنفس ما تمثل في انتصار المسلمين على مشركي مكّة في معركة بدر، وفي يوم فتح مكّة، ونفوذ نور الإسلام إلى قلوب العديد منهم.

إنّ هذه الآيات الآفاقية والأنفسية أثبتت أنّ القرآن على حق.

وهكذا فإنّ الخالق العظيم الذي يشهد على كلّ شيء، شهد أيضاً على حقانية القرآن عن هذا الطريق.

وبالرغم من أنّ لكل واحد من هذين التّفسيرين قرائن وأدلة ترجّحه، إلاّ أنّ التأمل في

---

(١) ذهب الكثير من المفسّرين إلى أنّ «الباء» زائدة و«ربك» تقوم مقام الفاعل. وجملة: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ «بدل» ذلك، والمعنى يكون هكذا: «أولم يكفهم أنّ ربّك على كلّ شيء شهيد».

نهاية الآية والآية التي تليها يكشف عن رجاحة التّفسير الأوّل[1].

وثمّة أقوال أُخرى في تفسير الآية تركناها لعدم جدواها.

الآية الأخيرة في السورة تشير إلى الأساس والسبب في شقاء هذه المجموعة المشركة الفاسدة، إذ يقول تعالى عنهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾.

ولأنّهم لا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، فهم يقومون بأنواع الجرائم والمعاصي مهما كانت، ومهما بلغت. إنّ حجب الغفلة والغرور تهيمن على هؤلاء فتنسيهم لقاء الله، ممّا يؤدّي بهم إلى السقوط عن مصاف الإنسانية.

ولكنّهم يجب أن يعلموا: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾.

إنّ جميع أعمالهم ونواياهم حاضرة في علم الله، وكل ذلك يسجّل لمحكمة القيامة والحشر.

﴿مِرْيَةٍ﴾ على وزن «جزية» و«قرية» تعني التردُّد في اتخاذ القرار، والبعض اعتبرها بمعنى الشك والشبهة العظيمة، والكلمة مأخوذة في الأصل من «مريت الناقة» بمعنى عصر ثدي الناقة بعد حَلبها أملاً بوجود بقايا الحليب فيه، ولأنّ هذا العمل يقترن مع الشك والتردُّد، فقد وردت هذه الكلمة بهذا المعنى.

وعندما نسمع إطلاق كلمة «المراء» على «المجادلة» فذلك لما يحاوله الإنسان من إخراج ما في ذهن الطرف الآخر.

والآية - في هذا الجزء منها - رد على شبهات الكفار بخصوص المعاد، فهؤلاء

---

(١) التّفسير الأوّل لهُ أربعة مرجحات هي:
أوّلاً: إنّ أكثر ما تؤكّد عليه الآيات هو قضية التوحيد وأدلته.
ثانياً: إنّ تعبيري «آفاق وأنفس» أكثر تناسباً مع آيات التوحيد.
ثالثاً: تشير نهاية الآية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ إلى قضية التوحيد، وشهادة الله التكوينية على حقانية ذاته المنزّهة.
رابعاً: الآية التي تليها تتحدّث عن المعاد، ونحن نعرف أنّ المبدأ والمعاد غالباً ما يقترن أحدهما بالآخر.
أمّا التّفسير الأوّل فلهُ ثلاثة مرجحات هي:
أوّلاً: إنّ ضمير «إنّه» مفرد للغائب، في حين أنّ ضمير «آياتنا» مُتكلّم مع الغير، وهذه إشارة إلى أنّ كلّ ضمير من الضميرين يختص بمتابعة موضوع خاص.
ثانياً: إنّ الآية السابقة كانت حول القرآن بالخصوص.
ثالثاً: إنّ جملة ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ التي هي فعل مضارع للاستمرار، تفيد هذا المعنى بالذات؛ أي إنّ الآيات المذكورة سنعرضها فيما بعد.

يقولون: كيف يمكن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ينفصل؟ ومن يستطيع أن يجمع أجزاء الإنسان؟ والأكثر من ذلك: من الذي يحيط بنيات الناس وأعمالهم على مدى تاريخ البشرية؟

القرآن يجيب على كلّ ذلك بالقول: كيف يُمكن للخالق المحيط بكل شيء أنْ لا تكون هذه الأُمور طوع قدرته وواضحة بالنسبة له؟

ثم إنّ دليل إحاطة علمه بكل شيء، هو تدبيره لكل هذه الأُمور، فكيف يجوز لهُ أن لا يعلم بأُمور ما خلقَ ودبّر؟

بعض المفسّرين اعتبر أنّ الآية تختص بالتوحيد وليسَ بالمعاد، حيث يقول العلامة الطباطبائي في ذلك: «الذي يفيده السياق أنّ في الآية تنبيهاً على أنّهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيداً على كلّ شيء، وهو أقوى براهين التوحيد وأوضحها لمن تعقل، لأنّهم في مرية وشك من لقاء ربّهم، وهو تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه»[1].

ولكن هذا التّفسير مُستبعد نظراً لأنّ تعبير «لقاء الله» عادةً ما يأتي للكناية على يوم القيامة.

بحوث

أوّلاً: التوحيد بين دليل «النظم» ودليل «الصدّيقين»

أشار الفلاسفة في بحوثهم حول التوحيد إلى الأهمية الكبيرة لنوعين من الاستدلال على الخالق جلَّ وعلا: أحدهما الاستدلال من خلال «النظم». والآخر دليل «الصديقين».

ودليل «النظم» كما يظهر من اسمه، يبدأ من نظام عالم الوجود وأسراره ودقائقه، ليرشد إلى مصدر العلم والقدرة والخلق الذي أوجد ذلك ودبّره، والقرآن الكريم مليء بهذا النوع من الاستدلال، فهو يذكر نماذج كثيرة عن آيات الله في السماء والأرض وفي مظاهر الحياة ونظمها وما يمور فيها من كائنات، وينتهي من هذا الطريق إلى إثبات وجود الصانع المدَبّر (جلَّ وعلا).

(١) تفسير الميزان. ج ١٧، ص ٤٠٥.

إنّ كلّ شخص يستطيع استيعاب هذا النوع من الاستدلال مهما كان مستواه وعلى قدر ما يحمل من علم وإدراك، إذ يستفيد منه أكبر العلماء على قدر استعداده وثقافته واستيعابه، في نفس الوقت الذي يستفيد منهُ الأُمّي وغير المتعلّم وغير المطّلع على فنون العلوم والمعرفة.

أمّا دليل «الصديقين» فهو نوع من الاستدلال يقوم بالوصول إلى (الذات) بواسطة (الذات) نفسها، ومثل هؤلاء يعرفونه تعالى من خلال وجوب وجوده.

بعبارة أُخرى: إنّ الممكنات والمخلوقات لا تكون هنا واسطة لإثبات وجوده، بل إنّ ذاته بنفسه تدل على ذاته، ويكون تعالى مصداقاً لـ «يا من دلَّ على ذاته بذاته»(١) ومصداقاً أيضاً لـ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٢).

إنّ هذا الاستدلال استدلال فلسفي معقّد بحيث لا يستطيع أن يحيط بكنهه وبأعماقه إلاّ من يحيط بمبادئه، وليسَ من قصدنا هنا تبسيط الدليل فذلك شأن الكتب الفلسفية، وإنّما أردنا من خلال هذا العرض أن نقف على آراء بعض المفسّرين من الذين يعتقدون بأنّ مطلع الآية في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ يتضمّن إشارة إلى دليل «النظم» والعلة والمعلول. بينما اعتبروا نهاية الآية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(٣) إشارة إلى دليل «الصديقين».

ولكن ليسَ ثمّة قرائن واضحة من نفس الآية تؤيّد فكرة هذا الاستنتاج!

ثانياً: حقيقة إحاطة الله بكل شيء

يجب أن لا نتصور - مطلقاً - أنّ إحاطة الخالق جلَّ وعلا بالموجودات والكائنات تشبه إحاطة الهواء الذي يلف الكرة الأرضية ويغلّفها، لأنّ مثل هذه الإحاطة هي دليل المحدودية، بل الإحاطة المعنيّة هنا تتضمن معنى دقيقاً ولطيفاً يتمثل في ارتباط كلّ الكائنات والموجودات بالذات المقدسة.

وبعبارة أُخرى: لا يوجد في عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، وبقية الموجودات والكائنات تعتمد عليه وترتبط به، بحيث لو زال هذا الارتباط لحظة واحدة فلا يبقى شيء منها.

---

(١) هذا المقطع من دعاء الصباح المنقول عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٣) سورة فصّلت، الآية: ٥٣.

إنّ هذه الإحاطة نتلمّس كنهها وحقيقتها في الكلمات الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: «مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمزايلة».

وقد نلمح هذا المعنى بعينه فيما ذكره الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة ذي المحتوى العميق، إذ يقول فيه: «أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً»(١).

ثالثاً: آيات الآفاق والأنفس

لو أُتيح للإنسان أن ينكر كلّ ما يستطيع، فهو لا يستطيع أن ينكر وجود نظام دقيق قائم يعم بنسقه عالم الوجود، فأحياناً يقضي عالم معيّن كلّ عمره بالدرس والمطالعة حول تركيب العين وأسرارها أو المخ أو القلب، ويقرأ الكتب الكثيرة ممّا كتب حول الموضوع، إلاّ أنّه أخيراً يعترف بأنّ هناك أسراراً كثيرة حول موضوعه لا تزال مجهولة.

وهنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ علوم علماء اليوم، ليست هي سوى نتيجة متراكمة لجهود ودراسات آلاف العلماء عبر تاريخ البشر.

إنّ عالم الوجود ينطق في كلّ جزء من أجزائه بوجود قدرة أزلية تكمن وراءه، فكل شيء يدل على الصانع المدبِّر، وأيّ نبات ينبت على الأرض يهتف «وحده لا شريك له».

نستطيع هنا أن نترك الحديث عن القضايا العلمية المعقدة، ونتّجه إلى ظواهر عادية ممّا ينتشر حولنا، لنتلمّس فيها أدلة واضحة على إثبات الصانع العظيم.

ولا بأس هنا من ذكر هذين المثالين:

المثال الأوّل: الجميع يعرف أنّ هناك تقوّساً في أخمص قدم كلّ إنسان بحيث لا يبدو الأمر ملفتاً للنظر مطلقاً، ولكنّا نسمع في معاملات الفحص الطبي الخاص بأداء الخدمة العسكرية، أنّ الشاب الذي يفتقد مثل هذا التقوّس يعفى من الخدمة العسكرية أو يحال إلى الأعمال المكتبية الإدارية.

---

(١) مقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة، وهو ممّا تذخر به كتب الأدعية.

إنّ الإنسان الذي يفتقد مثل هذا التقوّس يتعب بسرعة، ولا يملك الاستعداد الكافي لأداء الخدمة العسكرية التي تستدعي المشي الطويل.

وهكذا كلّ شيء في هذا العالم وفي وجود الإنسان مخلوق بدقّة ونظم، حتى التقوّس البسيط في أخمص قدم الإنسان!

المثال الثّاني: في داخل فم الإنسان وعينه منابع فوّارة منتظمة ودقيقة الإفراز، يخرج من فتحتها الصغيرة على مدى حياة الإنسان سائلان مختلفان تماماً، لولاهما لما استطاع الإنسان أن يكون قادراً على الرؤية أو التحدّث أو مضغ الطعام وبلعه.

بعبارة أُخرى: إنّ الحياة مستحيلة بدون هذين السائلين العاديين ظاهراً!

فبدون أن يكون سطح العين رطباً بشكل دائم يستحيل دوران الحدقة التي ستصاب بآلام كثيرة والأذى بمجرّد ملامستها لأجسام صغيرة، بل ستمنعها هذه الأجسام عن الحركة.

كذلك إذا لم يكن فم الإنسان وبلعومه رطباً، فإنّ الكلام تصبح أمراً مستحيلاً بالنسبة له، وكذلك مضغ الطعام وبلعه. بل وحتى التنفس إذا كان الفم جافاً.

وكذلك ينبغي أن تكون التجاويف الأنفية رطبة دائماً حتى يسهل دخول الهواء ومروره باستمرار.

والدقيق هنا أنّ ماء العين ينزل عبر قنوات خاصة من العين إلى الأنف للمحافظة على رطوبته، وإذا قدّر لهذا المجرى أن يغلق ليوم واحداً فقط - كما نشاهد ذلك في حال بعض المرضى - فإنّ الدموع ستسيل على الوجه بشكل دائم وسيكون لها منظر مزعج مؤذ.

ونفس الكلام يقال بالنسبة للغدد اللعابية في الفم، فقلّة إفرازاتها تزيد من جفاف اللسان والفم والبلعوم، وكثرته تعوق التحدّث وتجعل اللعاب يسيل من الفم إلى الخارج.

ثم إنَّ المذاق الملحي للغدد الدمعية يؤدّي إلى حفظ أنسجة العين ضدَّ الأجسام الغريبة بمجرّد دخولها إلى العين.

بينما يفتقد اللعاب لأيّ طعم، كي يستطيع الإنسان أن يشعر بالمذاق الخاص للأطعمة، بينما تساعد الأملاح الموجودة فيه على هضم الطعام.

وإذا تدبّرنا في طبيعة التكوين الكيمياوي والفيزيائي لسوائل هذه الغدد وأنظمتها

الدقيقة ومنافعها، يتبيّن عندها أنَّ وجودها لا يمكن أن يكون مجرّد صدفة عمياء لا تعقل ولا تعي، بل هي من آيات الله الأنفسية ومصداق لقول الحق جلَّ وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

وفي إشارة عابرة لكنّها كبيرة الدلالة والمعنى، يتحدّث الإمام الصادق في الحديث المعروف بتوحيد المفضّل، الذي هو غني جدّاً في الإشارة إلى الآيات الآفاقية والأنفسية لله في الوجود، يقول عليه السلام: «أي مفضل! تأمّل الريق وما فيه من المنفعة، فإنّه جعل يجري جرياناً دائماً إلى الفم، ليبل الحلق واللهوات فلا يجف، فإنّ هذه المواضع لو جعلت كذلك كان فيه هلاك الإنسان، ثمّ كان لا يستطيع أن يسيغ طعاماً إذا لم يكن في الفم بلة تنفذه، تشهد بذلك المشاهدة»(١).

فإذا تجاوزنا جسم الإنسان فإنّ روحه بؤرة للعجائب بحيث حيّرت جميع العلماء، وثمّة آلاف الآلاف من هذه الآيات البينات التي تشهد جميعاً «أنّه الحق».

وهنا يلتقي صوتنا - بدون إرادة منّا - مع صوت الحسين عليه السلام، ونقول: «عميت عين لا تراك»!!

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ٧٧.

سُورَةُ الشُّورَىٰ

مكيّة وعدد آياتـها ثلاث وخمسون

نظرة عامة في محتوى السورة

إنّ إطلاق اسم «الشورى» على هذه السورة المباركة يعود إلى محتوى الآية (٣٨) منها والتي تدعو المسلمين إلى المشورة في أُمورهم.

ولكن بالإضافة إلى هذا الموضوع، وإلى ما تتضمّنهُ السورة من بحوث ومضامين السور المكّية من بحث في المبدأ والمعاد، والقرآن والنبوّة، فإنّها تتناول قضايا أُخرى يمكن الإشارة إليها مختصراً بما يلي من نقاط:

القسم الأوّل: وهو أهم أقسام السورة، يشتمل البحث فيه على قضية الوحي الذي يمثل طريق ارتباط الأنبياء عليهم السلام بالله تبارك وتعالى.

والملاحظ أنّ هذا الموضوع يلقي بظلاله على جميع أجزاء السورة، فالسورة تبدأ بالإشارة إليه وتنتهي به أيضاً.

وكامتداد لهذا الموضوع تثير السورة بحوثاً حول القرآن ونبوة نبيّ الإسلام وبداية الرسالة منذ أيام نبيّ الله نوح عليه السلام.

القسم الثّاني: إشارات عميقة المعنى إلى دلائل التوحيد، وآيات الله في الآفاق والأنفس التي تكمّل البحث في موضوع الوحي.

وفي هذا القسم ثمّة بحوث حول توحيد الربوبية.

القسم الثّالث: في السورة إشارات إلى قضية المعاد ومصير الكفّار في القيامة. وهو محدود قياساً إلى الأقسام الأُخرى.

القسم الرابع: تشتمل السورة على مجموعة من البحوث الأخلاقية التي تعكسها السورة بشكل خاص ودقيق، فهي تدعو أحياناً إلى ملكات خاصّة مثل الاستقامة والتوبة والعفو والصبر وإطفاء نار الغضب.

وتنهى في المقابل عن الرذيلة، والطغيان في مقابل النعم الإلهيّة، أو العناد وعبادة الدنيا، وكذلك تنهى عن الفزع والجزع عند ظهور المشاكل.

إنّ السورة تنطوي على مجموعة متكاملة من دروس الهدى هي في الواقع شفاء للصدور ومسالك نور في طريق الحق.

فضل تلاوة السورة

جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «من قرأ سورة حم عسق كانَ ممن تصلّي عليه الملائكة، ويستغفرون لهُ ويترحمون عليه»[1].

وفي حديث آخر عن الصادق نقرأ قوله عليه السلام: «من قرأ حم عسق بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدي الله عزّ وجلّ فيقول: عبدي أدمنت قراءة حم عسق ولم تدر ما ثوابها، أمّا لو دريت ما هي وما ثوابها لما مللت من قراءتها، ولكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنّة».

وعندما يدخل الجنّة يرفل بأنواع النعم الإلهيّة التي ذكرها الإمام الصادق في الحديث الآنف بشكل مفصّل[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾

مرّة أُخرى تواجهنا الحروف المقطّعة في مطلع السورة، وهي هنا تنعكس بشكل مفصّل، إذ بين أيدينا خمسة حروف.

﴿حمٓ﴾ موجودة في بداية سبع سور قرآنية (المؤمن، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف) ولكن في سورة الشورى أُضيف إليها مقطع ﴿عٓسٓقٓ﴾.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩ - ١٠، ص٣١، طبعة دار المعرفة، بداية سورة الشورى.
(٢) ثواب الأعمال، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٥٦.

وقد ذكرنا مراراً أنّ للمفسّرين آراءً وبحوثاً كثيرة حول هذه الحروف، يجملها صاحب مجمع البيان العلاّمة الطبرسي في أحد عشر قولاً، وقد ذكرنا أهم تلك الأقوال في مطلع الحديث عن سور: البقرة، آل عمران، والأعراف، ومريم، وغضضنا الطرف عن غير المهم منها.

ونذكر الآن بعضاً لا بأس به من هذه الأقوال بالرغم من عدم قيام دليل قاطع على صحتها.

فمنها قولهم أنّ هذه الحروف جاءت كأُسلوب للفت أنظار الناس إلى القرآن، لأنّ المشركين والمعاندين كانوا قد تواصوا فيما بينهم على عدم استماع آيات الله، خاصّة عندما كان رسول الله يقرؤها عليهم، إذ كانوا يثيرون الضوضاء، لذلك جاءت الحروف المقطعة (في ٢٩ سورة قرآنية) لتكون أُسلوباً جديداً في جلب الانتباه.

وقد ذكر العلاّمة الطباطبائي احتمالاً آخر يمكن أن نضيفه إلى ما استخلصه العلاّمة الطبرسي من الأقوال الأحد عشر ليكون المجموع اثنا عشر تفسيراً.

وما ذكره العلامة الطباطبائي وإن كان مثله مثل غيره من الأقوال، ممّا لم يقم الدليل القاطع عليه، إلاّ أنّه من المفيد أن نستعرضه بإيجاز.

يقول العلاّمة الطباطبائي: «إنّك إن تدبّرت بعض التدبُّر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والراءات والطواسين والحواميم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين، وتناسب السياقات ما ليس بينها وبين غيرها من السور».

«ويؤكّد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ، كما في مفتتح الحواميم من قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾(١) أو ما هو في معناه، وما في مفتتح الراءات من قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٢) أو ما في معناه، ونظير ذلك في مفتتح الطواسين، وما في مفتتح الميمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه».

«ويمكن أن يحدس من ذلك أنّ بين هذه الحروف المقطعة وبين مضامين السور المفتتحة بها ارتباطاً خاصاً، ويؤيّد ذلك ما نجده في سورة الأعراف المصدّرة بـ«المص»

(١) سورة المؤمن، الآية: ٢، والجاثية: ٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ١، ويوسف: ١.

في مضمونها كأنّها جامعة بين مضامين الميمات وص [أي ما افتتح بـ«ألم» و«ص»] وكذا سورة الرعد المصدّرة بـ«المر» في مضمونها كأنّها جامعة بين مضامين الميمات والراءات».

«ولعلّ المتدبر لو تدبّر في مشتركات هذه الحروف، وقايس مضامين السور التي وقعت فيها، بعضها إلى بعض، لتبيّن له الأمر أزيد من ذلك»[١].

وثمّة تفسير آخر أشرنا إليه سابقاً، وهو احتمال أن تكون هذه الحروف إشارات ورموزاً لأسماء الخالق ونعمه وقضايا أُخرى.

مثلاً، في السورة التي نبحثها اعتبروا الحاء إشارة إلى الرحمن، والميم إلى المجيد، والعين إلى العليم، والسين إلى القدوس، والقاف إلى القاهر[٢].

يعترض البعض على هذا الكلام بقولهم: لو كان المقصود من الحروف المقطعة أن لا يعلم بها الآخرون فإنّ ذلك غير صحيح، لأنّ هناك آيات أُخرى تصرّح بأسماء الله، ولكن يجب الانتباه إلى أنّ الرموز والإشارات لا تعني دائماً أن يبقى الموضوع أو المعنى سرّياً، بل قد تكون أحياناً علامة للاختصار، وهذا الأمر كان موجوداً سابقاً، وهو مشهور في عصرنا الراهن، بحيث إنّ أسماء العديد من المؤسسات والمنظمات الكبيرة، تكون على شكل مجموعة مختصرة من الحروف المقطّعة التي يرمز كلٌّ منها إلى جزء من الاسم الأصيل.

بعد الحروف المقطعة تتحدّث الآية الكريمة عن الوحي، فتقول: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى محتوى السورة ومضامينها.

ومصدر الوحي واحد، وهو علم الله وقدرته، ومحتوى الوحي في الأُصول والخطوط العريضة واحد أيضاً بالنسبة لجميع الأنبياء والرسالات، بالرغم من أنّ هناك خصوصيات بين دعوة نبي وآخر بحسب حاجة الزمان والمسيرة التكاملية للبشر[٣].

---

(١) تفسير الميزان، للعلاّمة محمد حسين الطباطبائي، ج ١٨، ص ٥ و ٦.

(٢) يستفاد هذا التّفسير عن حديث للإمام الصادق عليه السلام. يراجع تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٨٢٢.

(٣) بالرغم من الكلام الكثير للمفسّرين حول المشار إليه في اسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لكن يظهر أنّ المشار إليه هو نفس هذه الآيات النازلة على النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله لذا يكون مفهوم الآية: إنّ الوحي هو بهذا الشكل الذي أنزله الله عليك وعلى الأنبياء السابقين، وقد استخدم اسم الإشارة للبعيد بالرغم من قرب المشار إليه، وذلك للتعظيم والاحترام.

وضروري أن نشير إلى أنّ الآيات التي نبحثها أشارت إلى سبع صفات من صفات الله الكمالية، لكل منها دور في قضية الوحي بشكل معيّن، ومن ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما في هذه الآية: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

فعزّته تعالى وقدرته المطلقة تقتضي سيطرته على الوحي ومحتواه العظيم. وحكمته تستوجب أن يكون الوحي الإلهي حكيماً متناسقاً مع حاجات الإنسان التكاملية في جميع الأُمور والشؤون.

وتعبير ﴿يُوحِيٓ﴾ دليل على استمرار الوحي منذ خلق الله آدم عليه السلام حتى عصر النّبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

إنّ مالكيته تعالى لما في السماء والأرض تستوجب ألاّ يكون غريباً عن مخلوقاته وما يؤول إليه مصيرها، بل يقوم بتدبير أُمورها وحاجاتها عن طريق الوحي، وهذه هي الصفة الثّالثة من الصفات السبع.

أمّا ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ و﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ اللذان هما رابع وخامس صفة لهُ (سبحانهُ وتعالى) في هذه الآيات، فهما يشيران إلى عدم حاجته لأيّ طاعة أو عبودية من عباده، وإنّما قام تعالى بتدبير أمر العباد عن طريق الوحي من أجل أن ينعم على عباده.

الآية التي بعدها تضيف: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾[1] وذلك بسبب نزول الوحي من قبل الله، أو بسبب التُّهم الباطلة التي كان المشركون والكفّار ينسبونها إلى الذات المقدّسة ويشركون الأصنام في عبادته.

ويتّضح ممّا سلف أنّ للجملة معنيين:

الأوّل: أنّها تختص بموضوع الوحي الذي هو حديث الآيات السابقة، وهو في الواقع يشبه ما جاء في الآية (٢١) من سورة «الحشر» في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

إنّه كلام الله الذي يزلزل السماوات عند نزوله وتكاد تتلاشى، فلو أنّه نزل على الجبال لتصدّعت، لأنّه كلام عظيم من خالق حكيم.

والويل لقلب الإنسان، فهو الوحيد الذي لا يلين ولا يستسلم، ويصر على عناده وتكبّره.

---

(١) ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ من كلمة «فطر» على وزن «سطر» وتعني في الأصل الشق الطولي.

التّفسير الثّاني: أنّ السماوات تكاد تتفطّر وتتلاشى بسبب شرك المشركين وعبادتهم للأصنام من دون الله، بل هم يساوون بين أدنى الكائنات والموجودات وبين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ وعلا.

التّفسير الأوّل يناسب الآيات التي نبحثها والتي تنصب حول الوحي والتّفسير الثّاني يناسب ما نقرؤه في الآيتين (٩٠، ٩١) من سورة «مريم» حيثُ يقول تعالى بعد أن يذكر قول الكفار - وقبح قولهم - باتخاذه ولداً (!!): ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

ومن الواضح أن ليس ثمّة تعارض بين التّفسيرين.

أمّا عن كيفية انفطار السماوات وانهدام الجبال وهي موجودات جامدة، فقد ذكروا كلاماً وأقوالاً متعدّدة في الموضوع تعرّضنا لها في نهاية حديثنا عن الآيتين المذكورتين من سورة مريم.

وإذا أردنا أن نقف على استخلاص عام لما قلناه هناك، فيمكن أن نلاحظ أنّ مجموعة عالم الوجود من جماد ونبات وغير ذلك لها نوع من العقل والشعور، بالرغم من عدم إدراكنا له، وهم على هذا الأساس يسبحون الله ويحمدونه، ويخضعون له ويخشعون لكلامه.

أو أن يكون التعبير كناية عن عظمة وأهمية الموضوع، مثلما نقول مثلاً: إنّ الحادثة الفلانية كانت عظيمة جدّاً وكأنّما انطبقت معها السماء على الأرض.

بقية الآية، قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أمّا الرابطة بين هذا الجزء من الآية والجزء الذي سبقه، فهو - وفقاً للتفسير الأوّل - أنّ الملائكة الذين هم حملة الوحي العظيم وواسطته، يسبحون ويحمدون الله دائماً، يحمدونه بجميع الكمالات، وينزّهونه عن جميع النواقص، وعندما ينحرف المؤمنون أحياناً، تقوم الملائكة بنصرهم ويطلبون المغفرة لهم من الله تعالى.

أمّا وفق التّفسير الثّاني، فإنّ تسبيح الملائكة وحمدهم إنّما يكون لتنزيهه تعالى عما ينسب إليه من شرك، وهم يستغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا وسلكوا طريق التوحيد ورجعوا إلى بارئهم جلّ جلاله.

وعندما تستغفر الملائكة لمثل هذا الذنب العظيم لدى المؤمنين، فهي حتماً - ومن باب أولى - تستغفر لجميع ما لديهم من ذنوب أُخرى. وقد يكون الإطلاق في الآية لهذا السبب بالذات.

ونقرأ نظيراً لهذه البشرى العظيمة في الآية (٧) من سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾.

وأخيراً تشير نهاية الآية الكريمة إلى سادس وسابع صفة من صفات الله تبارك وتعالى، وتنصب حول الغفران والرحمة، وتتصل بقضية الوحي ومحتواه، وبخصوص وظائف المؤمنين، حيث يقول تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وبهذا الترتيب أتمّت الآيات الكريمات الإشارة إلى مجموعة متكاملة من الأسماء الحسنى المختصة بالله تعالى والمرتبطة بالوحي.

وفي نهاية الآية ثمّة إشارة لطيفة إلى استجابة دعاء الملائكة بخصوص استغفارهم للمؤمنين، بل إنّه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور ممّا يدل على عظيم فضله.

أمّا عن مسألة الوحي فسيكون لنا كلام مفصّل في نهاية هذه السورة - إن شاء الله - عندما نتحدّث عن الآيتين (٥١، ٥٢).

هل تستغفر الملائكة للجميع؟

قد يطرح السؤال الآتي حول قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وهو: الآية تفيد استغفار الملائكة لمطلق أهل الأرض سواء المؤمن منهم أم الكافر، فهل يمكن ذلك؟

لقد أجابت الآية (٧) من سورة المؤمن على هذا السؤال من خلال قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وبناءً على هذا فإنّ شرط الاستغفار هو الإيمان، إضافة إلى كونهم معصومين، وهم بذلك لا يطلبون المستحيل للذين يفتقدون أرضية الغفران.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

التّفسير

انطلاقة من ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾

تحدّثت الآيات السابقة عن قضية الشرك، لذلك فإنّ الآية الأُولى في المجموعة الجديدة، تتناول بالبحث نتيجة عمل المشركين وعاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾.

حتى يحاسبهم في الوقت المناسب، ويعاقبهم جزاء لأعمالهم.

ثم تخاطب الآية رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ إنّ مسؤوليتك هي تبليغ الرسالة وإيصال نداء الله الى جميع العباد.

وثمّة في كتاب الله آيات أُخرى تشير إلى هذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾(٤).

إنّ هذه الآيات تبيّن حقيقة حرية العباد واختيارهم الطريق الذي يريدونه بإرادتهم وحريتهم، لأنّ القيمة الحقيقية للإيمان والعمل الصالح تكمن في حرية الاختيار، وليس للإيمان أو العمل الإجباري أيّ قيمة معنوية.

يعود القرآن إلى قضية الوحي مرّةً أُخرى، وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدّثت عن أصل الوحي، فإنّ الكلام هنا ينصب حول الهدف النهائي له، إذ يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ و«أُمّ القرى» هي مكّة المكرمة، ثمّ تنذر الناس من يوم القيامة وهو يوم الجمع الذي يجتمع فيه الناس للحساب والجزاء: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

وفي ذلك اليوم ينقسم الناس إلى مجموعتين: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقد يكون التعبير بـ«كذلك» إشارة إلى أنّهُ مثلما أوحينا إلى الأنبياء السابقين بلسانهم، فإنّنا كذلك أوحينا إليك بلسانك، هذا القرآن العربي.

---

(١) سورة الغاشية، الآية: ٢٢.
(٢) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٠٧.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٩.

وعليه تكون «كذلك» إشارة إلى ما ورد في الآية السابقة: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾.

ويمكن أن تكون إشارة إلى ما بعدها، يعني أنّا أوحيناه إليك بهذه الصورة قرآناً عربياً يهدف إلى الإنذار.

صحيح أنّنا نستفيد من نهاية الآية أي من قوله تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ أنّ مسؤولية النبي ﷺ هي التبشير والإنذار، ولكن بسبب ما للإنذار من تأثير أعمق في نفوس الأفراد المعاندين والجهلة، لذا فإنّ الآية استندت إلى «الإنذار» مرّتين فقط، مع اختلاف بينهما، إذ إنّ الكلام شمل في المرحلة الأُولى إنذار المستمعين، بينما شمل في الثانية تخويفهم من شيء يجب أن يخافوه، يعني القيامة وما فيها من حساب وفضيحة ستكون مؤلمة وصعبة للغاية، بسبب حضور الأشهاد والملائكة والناس(١).

وقد يتساءل البعض هنا: إنّنا نستفيد من قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أنّ الهدف من نزول القرآن هو لإنذار أهل مكّة وأطرافها. أفلا يتنافى هذا المعنى مع مفهوم عالمية الإسلام؟

الجواب على هذا الاستفهام يتمّ من خلال ملاحظة المعنى الذي تستبطنه ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾.

إنّ كلمة ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ وهي أحد أسماء مكّة المكرّمة، مؤلّفة من كلمتين هما: «أمّ» وتعني في الأصل الأساس والبداية في كلّ شيء، ولهذا السبب تسمى الأُمّ بهذا الاسم لأنّها أساس وأصل الأبناء.

ثمّ كلمة «قرى» جمع «قرية» بمعنى أيّ منطقة معمورة أو مدينة، سواء كانت المدينة كبيرة أم صغيرة، أو مجرّد قرية.

وفي القرآن الكريم ثمّة أدلة كثيرة على هذا المعنى.

والآن لنرَ لماذا سمّيت «مكّة» بأمّ القرى؟

الرّوايات الإسلامية تصرّح بأنّ الأرض كانت في البداية مغطاة جميعها بالماء، ثمّ بدأت اليابسة تظهر بشكل تدريجي من تحت هذه المياه. (تؤيّد النظريات العلمية الآن هذا المعنى).

---

(١) ينبغي الانتباه، إلى أنّ (تنذر) تتعدى إلى مفعولين، وفي الآية مورد البحث ذكر مفعولها الأوّل في الجملة الأُولى، والثّاني في الجملة الثانية، وقد يصحب المفعول الثّاني بالباء فيقال: أنذره بذلك.

ثمّ تخبرنا الرّوايات بأنّ منطقة الكعبة كانت أوّل منطقة ظهرت من تحت الماء، ثمّ بدأت اليابسة بالاتساع من جوار الكعبة، ويعرف ذلك بدحو الأرض.

وهكذا يتّضح أنّ مكّة هي أصل وأساس لجميع القرى والمدن على سطح الأرض، لذا فمتى قيل ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فالمعنى سيشمل جميع الناس على سطح الكرة الأرضية[(١)].

مضافاً إلى ذلك، نحن نعرف أنّ الإسلام بدأ بالانتشار تدريجياً، ففي البداية أمر النّبي ﷺ بإنذار المقرّبين إليه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[(٢)] كي تتقوى قاعدة الإسلام وتصلب نواته، ويكون أكثر قدرة واستعداداً للانتشار.

ثم جاءت المرحلة الثانية المتمثلة بإنذار العرب، كما ورد في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[(٣)].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

وعندما ترسّخت أعمدة الإسلام بين هؤلاء القوم، وقوي عوده أُمر رسول الله ﷺ بأوسع من ذلك، أن ينذر العالم والناس كافة، كما نقرأ في أوّل سورة الفرقان قوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ وفي آيات أُخرى.

وبسبب هذا التكليف قام رسول الله ﷺ بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم خارج الجزيرة العربية، ودعا كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم إلى الإسلام.

ووفق هذه التعليمات قام أتباعه من بعده بالدعوة إلى الإسلام في مختلف بقاع العالم، ونشروا تعاليم الإسلام في جميع أرجاء المعمورة.

أمّا لماذا سمّي يوم القيامة بيوم الجمع؟ فهناك أقوال مختلفة، منها:

بسبب ما يكون فيه من جمع بين الأرواح والأجساد.

أو بسبب الجمع بين الإنسان وعمله.

أو بسبب الجمع بين الظالم والمظلوم.

---

(١) جاء هذا التعبير في سورة الأنعام كذلك الآية (٩٢) وقد ذكرنا هناك توضيحاً أوسع، فليراجع.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣، إنّ ما قلناه هو في حال اعتبارنا كلمة (عربي) بمعنى اللغة العربية، أمّا إذا فسرناها بالمعنى الفصيح فسيكون للآية مفهوم آخر.

ولكن يظهر أنّ السبب يتمثل في الجمع بين الخلائق من الأوّلين والآخرين كما نقرأ ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾(١).

وبما أنّ قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ يقسّم الناس إلى فئتين، فإنّ الآية التي بعدها تضيف: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على الهداية.

إلاّ أنّ الإيمان الإجباري ليست له قيمة، وكيف يمكن لمثل هذا الإيمان أن يكون معياراً للكمال الإنساني؟

إنّ التكامل الحقيقي هو أن يسير الإنسان بإرادته وبمنتهى الاختيار والحرية.

إنّ الآيات القرآنية مليئة بأدلة حرية الإنسان، ومثل هذا الاختيار هو ما يميّز الإنسان عادة عن غيره من الكائنات الأخرى، وإذا سلبت منه إرادته واختياره فكأنّما سلبت منهُ إنسانيتهُ.

وكما أنّ ملكة الحرية والاختيار طريق إلى التكامل، فهي أيضاً سنّة إلهيّة لاتقبل التغيير.

ولكن العجيب أمر البعض الذين ما زالوا على عقيدة الجبر، وهم يدّعون اتباعهم للأنبياء، في حين أنّ قبول الجبر يساوي في الواقع نفي مضمون دعوة جميع الأنبياء، فلا معنى للتكليف حينئذ، ولا للحساب والسؤال والجواب، ولا النصيحة والموعظة، وبشكل أولى الثواب والعقاب!

ومع عقيدة الجبر لا معنى لتردُّد الإنسان في أعماله، ولا معنى لندمه وعزيمته على تصحيح الأخطاء!

تشير الآية بعد ذلك إلى وصف أهل الجنّة والسعادة حيال أهل النّار، فيقول تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وعندما يشخّص أهل النّار بوصف «الظلم» يتبيّن أنّ المراد من ﴿مَن يَشَآءُ﴾ في الجملة الأُولى هم المجموعة التي لا ترتكب الظلم.

وعلى هذا الأساس يكون أهل العدل هم أصحاب الجنّة في مقابل أهل الظلم الذي هم أهل النّار.

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩ - ٥٠.

ولكن ينبغي الانتباه إلى أنّ «ظالم» هنا، وفي العديد من الآيات القرآنية الأُخرى لها معنى واسع ولا تشمل الذين يظلمون غيرهم فقط، بل تشمل الذين يظلمون أنفسهم أيضاً، وتشمل المنحرفين عقائدياً، وهل هناك ظلم أعلى من الشرك والكفر؟

يقول لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١].

وفي آية أُخرى نقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾[٢].

وقال بعضهم في الفرق بين «ولي» و«نصير» أنّ «الولي» الذي يقوم بمساعدة الإنسان دون طلبه. أمّا النصير فأعم من ذلك[٣].

ويحتمل أن تشير كلمة «ولي» إلى المشرف الذي يقوم بالحماية والمساعدة بحكم ولايته ودون أيّ طلب.

أمّا «النصير» فالذي يقوم بنصر الإنسان ومساعدته بعد أن يطلب العون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

التّفسير

الولي المطلق

أوضحت الآيات السابقة أن لا وليّ ولا نصير سوى الله، والآيات التي بين أيدينا تعطي أدلة على هذه القضية، وتنفي الولاية لما دونه سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣. (٢) سورة هود، الآيتان: ١٨ - ١٩.

(٣) يلاحظ ذلك في مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٣٨. ذيل الآية (٢٢) من العنكبوت.

تقول الآية بأسلوب التعجب والإنكار: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[1]. إلاّ أنّه: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.

فلو أراد هؤلاء أن يختاروا ولياً، فعليهم أن يختاروا الله، لأنّ أدلة ولايته واضحة في الآيات السابقة، مع بيان أوصافه الكمالية، فالعزيز والحكيم، والمالك والعلي والعظيم، والغفور والرحيم، هذه الصفات السبع التي مرّت علينا تعتبر - لوحدها - أفضل دليل على اختصاص الولاية به.

ثم تذكر دليلاً آخر فتقول: ﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى﴾.

ويجب اللجوء إليه لا لغيره، لأنّ المعاد والبعث بيده، وأنّ أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعد الموت.

ثم تذكر دليلاً ثالثاً فتقول: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذه إشارة إلى أنّ الشرط الرئيسي للولي هو امتلاكه للقدرة الحقيقية.

الآية التي بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾. فهو الوحيد الذي يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إنّ من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولي إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب، فهل تستطيع الأصنام والشياطين التي تعبدونها أن تقوم بذلك، أم أنّ هذا الأمر يختص بالله الحكيم والعالم والقادر على حلّ مشاكل عباده، وتنفيذه لحكمه وإرادته دون غيره؟

إذن فالله العزيز الحكيم هو الحاكم لا غيره.

لقد حاول بعض المفسّرين حصر مفهوم الاختلاف الذي تشير إليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ في الاختلاف الوارد في الآيات المتشابهة، أو في الاختلاف والمخاصمات الحقوقية فقط، إلاّ أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك، إذ هي تشمل الاختلاف سواء كان في المعارف الإلهيّة والعقائد، أم الأحكام الشرعية، أم القضايا الحقوقية والقضائية، أم غير ذلك ممّا يحدث بين الناس لقلّة معلوماتهم ومحدوديتها؛ إنّ ذلك ينبغي أن يحل عن طريق الوحي، وبالرجوع إلى علم الله وولايته.

---

(١) اعتبر بعض المفسّرين (كالزمخشري في الكشاف والفخر الرازي في التفسير الكبير - أنّ «أم» هنا بمعنى الاستفهام الإنكاري، أمّا البعض الآخر - كالطبرسي في «مجمع البيان» والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» - فقد اعتبروها بمعنى «بل».

وبعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية بالله، تقول الآيات على لسان النّبي ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾(١) فهو الذي يتصف بهذه الأوصاف الكمالية ولهذا السبب: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أعود إليه في المشكلات والشدائد والزلات.

جملة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ تشير إلى الربوبية المطلقة لله بمعنى الحاكمية المتزامنة مع التدبير. ونحن نعلم أنّ للربوبية قسمين: القسم التكويني الذي يعود إلى إدارة نظام الوجود، والقسم التشريعي الذي يقوم بتوضيح الأحكام ووضع القوانين وإرشاد الناس بواسطة الرسل والأنبياء عليهم السلام.

وعلى أساس ذلك طرحت الآية فيما بعد قضية «التوكل» و«الإنابة» حيث تعني الأُولى رجوع جميع الأُمور الذاتية في النظام التكويني إلى الخالق جلّ وعلا. والثّانية تعني رجوع الأُمور التشريعية إليه(٢).

الآية التي تليها يمكن أن تكون دليلاً خامساً على ولاية الله المطلقة، أو دليلاً على ربوبيته، واستحقاقه دون غيره للتوكل والإنابة، إذ تقول: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿فَاطِرُ﴾ من مادة «فطر» وتعني في الأصل فتق شيء ما، ويقابلها «قط» التي تعني بقول البعض الشق العرضي.

وكأنّما الآية تشير إلى تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات وخروج الموجودات منه.

وبهذه المناسبة فإنّ «فُطُر» تطلق على «طلاع» التمر عندما يتفتق ويخرج منه التمر.

والمقصود بالسماوات والأرض هنا جميع السماوات والأرض وما فيها من كائنات وما بينها، لأنّ الخالقية تشملها جميعاً.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾(٣).

---

(١) في بداية هذه الجملة تكون كلمة «قل» مقدّرة، فهذه الجملة وما بعدها تتحدّث عن لسان النبيّ فقط، أمّا جملة ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ فهي استمرار لحديث الخالق جلّ وعلا. والذين اختاروا غير ذلك لم يسلكوا الطريق الصحيح في الظاهر.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٢٥.

(٣) الضمير في «فيه» يعود إلى «التدبير» أو «جعل الأزواج» و«يذرؤ» من «ذرأ» على وزن «زرع» وتعني «الخلق» لكنّه الخلق الذي يقترن ويتزامن مع إظهار الأفراد. وقد وردت أيضاً بمعنى الانتشار.

وهذه لوحدها تعتبر إحدى الدلائل الكبيرة على تدبير الله وربوبيته وولايته، حيث خلق سبحانه وتعالى للناس أزواجاً من أنفسهم، وهو يعتبر أساساً لراحة الروح وسكون النفس، ومن جانب آخر يعتبر الزواج أساساً لبقاء النسل واستمراره، وتكاثره.

وبالرغم من أنّ خطاب الآية موجّه للإنسان، والمعنى منصب عليه من خلال ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ إلاّ أنّ هذا الأمر هو حكم سائد وسنّة جارية في جميع الأنعام والموجودات الحية الأُخرى التي تسري عليها التكاثر بالمثل.

وفي الواقع إنّ توجيه الخطاب للإنسان دونها يشير الى مقامه الكريم، وأمّا أمر البقية فيتبيّن من خلال الإنسان كمثال.

الصفة الثّالثة التي تذكرها الآية هو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

إنّ هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية في معرفة صفات الله الأُخرى، وبدونها لا يمكن التوصّل إلى أيّ صفة من صفات الله، لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين في طريق معرفة الله يتمثل في «التشبيه» حيث يشبّهون الخالق جلّ وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدّي للسقوط في وادي الشرك!

إنّ وجود الله تعالى ليس له نهاية ولا يحدّ بحدّ، وكل شيء غيره له نهاية وحدّ من حيث القدر والعمر والعلم والحياة والإرادة والفعل...؛ وفي كلّ شيء.

وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

لذا فإنّ ما يثبت لغيره لا يصح عليه (سبحانه وتعالى) ولا ينطبق على ذاته المنزّهة، بل ولا معنى له.

فبالنسبة إلينا تكون بعض الأُمور سهلة والأُخرى صعبة، وبعض الأحداث وقع في الماضي وبعضها يقع الآن، ومنها ما يقع في المستقبل، وبعض الأشياء صغير وبعضها كبير.

إنّ مقاييس هذه الأشياء ومدلولاتها ومفاهيمها تحتكم إلى وجودنا المحدود، وهي تلائم إدراكنا وحاجتنا إلى مقايسة الأشياء بغيرها.

أمّا هذه المواصفات والمقاييس والمصطلحات المحدودة، فإنّ أيّاً منها لا ينطبق على صفات الله، إذ لا معنى لديه للقرب والبعد، فالكل قريب وفي متناول إرادته، ولا معنى للصعب والسهل، فكل شيء سهل وطوع إرادته المطلقة، ولا يوجد مستقبل وماض، فكل شيء بالنسبة إليه تعالى حضور وحال.

إنّ إدراك هذه المعاني غير مستطاع من دون تفريغ الذهن وتخليته ممّا هو فيه.

لهذا السبب يقال: إنّ من السهل معرفة أصل وجود الخالق جلّ وعلا، لكن من الصعب معرفة صفاته.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الشأن: «وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوي والضعيف في خلقه إلاّ سواء»(١).

تشير نهاية الآية إلى صفات أُخرى من صفات الله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

هو الخالق والمدبّر، والسميع والبصير، وفي نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير أو مثيل، ولهذا لا ينبغي الاستظلال إلاّ تحت ولايته، ولا تصح العبودية والربوبية إلاّ له، وذلك لا يكون إلاّ بفك قيود عبودية الغير، وتصريفها إليه دون غيره سبحانه وتعالى.

الآية التي بعدها تتحدّث عن ثلاثة أقسام أُخرى من صفات الفعل والذات حيث توضّح كلّ واحدة منها قضية الولاية والربوبية في بعد خاص.

يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه وتعالى، وكل ما يرغب به راغب ينبغي أن يطلبه منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات والأرض وليس «مفاتيحها» وحسب ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢).

﴿مَقَالِيدُ﴾ جمع «مقليد» وتعني المفتاح، وهي تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كلّ شيء، فيقال مثلاً: إنّ مفتاح هذا الأمر بيدي، يعني أنّ برنامجه وطريقه وشرائطه كلّها تحت قدرتي وفي يدي(٣).

وفي الصفة الأُخرى، والتي هي في الواقع ثمرة ونتيجة للصفة السابقة تقول الآية: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات والأرض، فإنّ جميع الأرزاق في قبضته، ويقسّمها وفقاً لمشيئته التي تصدر بمقتضى حكمته، ويلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، ومكانها وسائر شؤون حياتها الأُخرى، لذا تضيف الآية في آخر صفة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٨٥. (٢) سورة المنافقون، الآية: ٧.

(٣) بهذا الخصوص لدينا بحث مفصّل يمكن مراجعته في نهاية الحديث عن الآية (٦٣) من سورة «الزمر».

وهناك ما يشبه هذا الأمر وهو ما جاء في الآية (٦) من سورة «هود» في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وبذلك يتّضح أنّ الآيات الأربع التي بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات الله الكمالية سواء الذاتية منها أم الفعلية.

فقد وصفته بصفات الولاية المطلقة، إحياء الموتى، قدرته على كلّ شيء، خلقه للسمٰوات والأرض، خلقه للأزواج وتكثير النسل، لا يوجد مثيل له، سميع، بصير، له خزائن السماوات والأرض، رزاق، وعليم بكل شيء.

إنّها صفات تكمل الواحدة منها الأُخرى من حيث البيان، وكلّها دليل على ولايته وربوبيته، وبالنتيجة تعتبر طريقاً لإثبات توحيده في العبادة.

بحوث

١ - معرفة صفات الله تعالى

إنّ علمنا وعلوم الكائنات جميعاً محدود، لذا لا نستطيع أن نصل إلى كنه وحقيقة ذات الخالق غير المحدودة، لأنّ المعرفة بحقيقة شيء ما تعني الإحاطة به، فكيف يستطيع الكائن المحدود أن يحيط بالذات غير المحدودة؟

وكذلك الحال بالنسبة لصفات الله، إذ لا يمكن معرفتها بالنسبة لنا، خصوصاً وأنّ صفاته هي عين ذاته.

لذلك فعلمنا بذات الخالق وصفاته هو علم إجمالي، وأكثر ما يدور حول آثاره جلّ وعلا.

من جانب آخر لا تستطيع ألفاظنا أن تبيّن ذات الله وصفاته المطلقة غير المحدودة، لأنّ ألفاظنا موضوعة لتلبية حاجاتنا في حياتنا اليومية، لذلك سوف نصل إلى معاني خاطئة من خلال استخدام ألفاظنا في توصيف صفات الخالق الكمالية، كالعلم والقدرة والحياة والولاية والمالكية، وسائر الصفات الأُخرى.

نقول مثلاً: إنّ الله هو «الأوّل» وهو أيضاً «الآخر» هو «الظاهر» وهو «الباطن» هو مع كلّ شيء وليس مع شيء، وبعيد عن كلّ شيء إلاّ أنّهُ ليس غريباً عنهُ.

قد يبدو في بعض هذه الألفاظ تناقض أو تضاد، لأنّ معاني الألفاظ نقيسها على الأشياء والموجودات المحدودة، فيمكن أن يكون هو الأوّل ولا يكون الآخر، والظاهر

ولا يكون باطن، ولكن التفكير الدقيق في ذات الله وصفاته يوصلنا إلى إمكانية انطباق معاني هذه الألفاظ عليه، فهو الأوّل في نفس الوقت الذي هو الآخر، وهو الباطن في نفس الوقت الذي يكون فيه هو الظاهر أيضاً.

وعلينا أن نعترف هنا بأنّ المهم في معرفة أوصافه الجمالية والجلالية هو أن ننتبه إلى حقيقة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

يشير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى هذه الحقيقة بوضوح فيقول: «ما وحّده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عنى من شبّهه، ولا صمّده من أشار إليه وتوهمه»[١].

وفي مكان آخر يقول عليه السلام: «كل مسمّى بالوحدة غير قليل»[٢].

خلاصة القول: يجب ولوج البحث في صفات الخالق على ضوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلينا أن ننظر إلى ذاته المقدسة من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وعبارة: «سبحان الله» في العبادات وغيرها تشير إلى هذه الحقيقة.

٢ - ملاحظة أدبية

إنّ الكاف في جملة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ للتشبيه، وتعني المثل أيضاً. لذا فإنّ هذا التكرار أصبح سبباً لأن يعتبر الكثير من المفسّرين أنّها زائدة، وأنّها جاءت للتأكيد، وأمثال ذلك كثير في الكلمات الفصحى.

ولكن ثمّة تفسير أجمل، وهو أن يقال أحياناً: مثلك لا يهرب من ساحة الأحداث. أيّ إنّ الذي يملك الشجاعة والعقل والذكاء مثلك، لا ينبغي عليه الهرب (والخلاصة أنّ من يملك مثل صفاتك يجب أن يكون هكذا وهكذا).

وفي الآية التي نبحثها سيكون المعنى هكذا: مثل الخالق الذي ذكرنا أوصافه - كالعلم الواسع والقدرة العظيمة اللامتناهية - ليس له مثل.

ذهب أرباب اللغة وعلماؤها إلى أنّ بعض المصطلحات لها نفس معنى (مثل) إلاّ أنّها ليست مثلها في المفهوم من زاوية عموميتها وشموليتها، مثلاً: «ند» على وزن «ضد» وتقال عندما يكون القصد من التشبيه الإشارة إلى المشابهة في الجوهر والماهية.

«شبه» وتقال عندما يكون الكلام عن الكيفية فقط.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم (١٨٦).
(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٦٥.

«مساوي» وتقال عندما يكون الكلام عن الكمية فقط.

«شكل» وتقال عندما يكون الكلام في التشبيه عن المقدار والمساحة.

إلاّ أنّ «مثل» لها مفهوم أوسع وأكثر عمومية، بحيث تشمل جميع المفاهيم الآنفة الذكر.

لذا فإنّ الله عندما يريد أن ينفي عن ذاته أيّ شبيه أو نظير يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1].

٣ - بعض الملاحظات حول الرزق الإلهي

أ: معيار بسط الرزق وتقديره

يجب أن لا نتصوّر أبداً أنّ بسط الرزق يعني محبة الله لنا، أو أنّ تضييق المعيشة هي دليل غضبه، لأنّ الله قد يختبر الإنسان بواسطة البسط في رزقه، وأحياناً يريد أن يمتحن صبره ومقاومته عن طريق التضييق بالمعيشة عليه.

وعن هذا الطريق يصار إلى تربية الإنسان.

إنّ الثروة الكبيرة قد تكون أحياناً سبباً لعذاب أهلها وتعبهم وسلب استقرارهم وراحتهم النفسية، حيث يقول القرآن في الآية (٥٥) من سورة التوبة: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وفي الآيتين (٥٥ - ٥٦) من سورة المؤمنون، نقرأ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾.

ب: تحديد الأرزاق لا يتعارض مع بذل الجهود

إنّ الآيات التي تتحدّث عن تحديد مقدار الرزق لا تتنافى مع سعي الإنسان في مجال تحصيله للرزق. وينبغي أن لا يكون الأمر مبعثاً للخمول والكسل والهروب من تحمل مسؤوليات الجهاد الفردي والاجتماعي، إذ هناك آيات قرآنية كثيرة تؤكّد أهمّية وقيمة السعي الإنساني.

إنّ الهدف هو أن ندرك أنّنا رغم سعينا وعملنا فهناك يد خفية تقوم أحياناً بحجب نتائج هذه الجهود، وتقوم في بعض الأحيان بعكس ذلك، حتى لا ينسى الناس في

---

(١) لاحظ مفردات الراغب مادة «مثل».

حياتهم الاجتماعية الطويلة أنّ ثمّة قدرة أُخرى هي قدرة مسبب الأسباب وهي التي تدبّر شؤون العالم.

وينبغي هنا أن لا نلقي تبعات الكسل والإهمال والتقاعس على مفهوم الرزق الإلهي المحدود لكل إنسان، لأنّه تعالى صرّح بأنّ عطاء الرزق يساوي ما يبذله الفرد من جهد وعناء.

ج: عدم اقتصار الرزق على المفهوم المادي

للرزق معنى واسع بحيث يشمل الرزق المعنوي، بل إنّ الرزق الأصلي هو الرزق المعنوي، وفي الأدعية نلتقي مع أمثلة كثيرة تؤكّد ذلك، فنقول حول الحج مثلاً: «اللهم ارزقني حج بيتك الحرام».

وفي أدعية طلب الطاعة نقول: «اللهم ارزقني توفيق الطاعة وبعد المعصية».

وفي أدعية أيام شهر رمضان نقول: «اللهم ارزقني فيه طاعة الخاشعين» (دعاء اليوم الخامس عشر).

وهكذا بالنسبة للهبات المعنوية الأُخرى.

د: القرآن والأسباب التي تؤدّي إلى زيادة الرزق

لقد ذكر القرآن الكريم بعض الأُمور التي تعتبر بحدِّ ذاتها درساً لتربية الإنسان وبنائه، ففي الآية «٧» من سورة «إبراهيم» نقرأ قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وفي الآية «١٥» من سورة «الملك» قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.

وفي سورة الأعراف، الآية «٩٦» قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

هـ: التضييق في الرزق والقضية التربوية

أحياناً يكون ضيق الرزق لمنع الناس عن الطغيان، كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١].

ز: الرّزاق هو الله.

يؤكّد القرآن الكريم أنّ الذي يعطي الرزق للناس هو الله، وعليهم أن لا يطلبوا من

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٧.

غيره، وعليهم بعد الإيمان والتوكل أن يعتمدوا على سعيهم وطاقاتهم، كما ورد في الآية (٣) من سورة «فاطر» من قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

والآية «١٧» من «العنكبوت» في قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

وهكذا تقطع التربية القرآنية روح الحاجة لدى الإنسان إلى عباد مثله، وتجعله مرتبطاً بخالقه وبارئه ورازقه، فتنمي فيه روح الإباء، والعبودية والانقطاع إلى الله.

ولدينا بحث مفصّل بخصوص الأرزاق والسعي للحياة، وأسباب الرزق ومصادره في نهاية تفسير الآية «٧١» من سورة «النحل» وكذلك في نهاية تفسير الآية «٦» من سورة «هود»، فليراجع هناك.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء

بما أنّ العديد من بحوث هذه السورة تتعلّق بالمشركين، وأنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن نفس هذا الموضوع أيضاً، لذا فإنّ الآيات التي نبحثها تبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ دعوة الإسلام إلى التوحيد ليست دعوة جديدة، إنّها دعوة جميع أنبياء أُولي العزم، وليس أصل التوحيد فحسب، بل إنّ جميع دعوات الأنبياء في القضايا الأساسية وفي مختلف الأديان السماوية كانت واحدة.

تقول الآية: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ والذي هو أوّل نبيّ من أولي العزم.

وأيضاً: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

وبهذا الشكل فما كان موجوداً في شرائع جميع الأنبياء موجود في شريعتك أيضاً و«ما يمتلكه الصالحون جميعاً تملكه لوحدك».

إنّ عبارة ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ تبيّن أنّ التنسيق بين جميع الشرائع السماوية لم يكن بخصوص التوحيد أو أُصول العقائد فحسب، بل في كلّ مجموعة الدين الإلهي، فمن حيث الأساس والجذور كانت واحدة، بالرغم من أنّ تكامل المجتمع الإنساني يقتضي أن تكون التشريعات والقوانين الفرعية متناسقة مع تكامل الناس، وتسير نحو التكامل حتى تصل إلى الحدّ النهائي وتختتم الأديان.

لهذا السبب هناك أدلة كثيرة في آيات قرآنية أُخرى تبيّن أنّ الأُصول العامة للعقائد والقوانين والتعليمات واحدة في جميع الأديان.

فمثلا نقرأ في القرآن الكريم بخصوص شرح حال العديد من الأنبياء، أنّ أوّل دعوة لهم كانت: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[1].

وفي مكان آخر نقرأ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2].

وأيضاً فقد ورد الإنذار بالبعث في دعوة العديد من الأنبياء (الأنعام ١٣٠، الأعراف ٥٩، الشعراء ١٣٥، طه ١٥، مريم ٣١).

أمّا موسى وعيسى وشعيب عليهم السلام فيتحدّثون عن الصلاة (طه ١٤، مريم ٣١، هود ٨٧).

وإبراهيم يدعو إلى الحج (الحج ٢٧).

وكان الصوم مشرّعاً عند جميع الأقوام السابقين (البقرة ١٨٣).

لذا، وكتعليمات عامّة لجميع الأنبياء العظام تقول الآية في الجملة الأخرى: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾.

فهي توصي بأمرين مهمّين:

الأوّل: إقامة دين الخالق في كلّ الأرض (وليس العمل فحسب، بل إقامته وإحياؤه ونشره).

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥) هود (٥٠، ٦١، ٨٤) حيث جاءت بالترتيب بخصوص نوح، هود وصالح عليهم السلام.

(٢) سورة النّحل، الآية: ٣٦.

الثّاني: الاحتراز عن البلاء العظيم، يعني الفرقة والنفاق في الدين.

وبعد ذلك تقول: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

فلقد تطبّع هؤلاء على الشرك وعبادة الأصنام بسبب الجهل والتعصّب لسنين طويلة، وعشعش ذلك في أعماقهم بحيث أصبحت الدعوة إلى التوحيد تخيفهم وتوحشهم، إضافة لذلك فإنّ مصالح زعماء المشركين اللامشروعة محفوظة في الشرك، في حين أنّ التوحيد هو أساس ثورة المستضعفين، ويقف حائلاً دون أهواء الطغاة ومظالمهم.

وكما أنّ انتخاب الأنبياء بيد الخالق، كذلك فإنّ هداية الناس بيده أيضاً: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

ملاحظات

وهناك ملاحظات في هذه الآية يجب الانتباه إليها:

١ - ﴿شَرَعَ﴾ من كلمة (شَرْع) وهي في الأصل تعني الطريق الواضح، حيث يقال (الشريعة) للطريق المؤدّي إلى النهر، ثمّ استخدمت هذه الكلمة بخصوص الأديان الإلهيّة والشرائع السماوية، لأنّ طريق السعادة الواضح يتمثل فيها، وهي طريق الوصول إلى الإيمان والتقوى والصلح والعدالة.

وبما أنّ الماء هو أساس النظافة والطهارة والحياة، لذا فإنّ لهذا المصطلح تناسب واضح مع الدين الإلهي الذي يؤدّي نفس هذه الأعمال من الناحية المعنوية مع روح الإنسان والمجتمع البشري[١].

٢ - لقد أشارت هذه الآية إلى خمسة من الأنبياء الإلهيين فقط (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام) لأنّ هؤلاء الخمسة هم الأنبياء أُولو العزم، أي أصحاب الدين والشرائع، وفي الحقيقة فإنّ الآية تشير إلى انحصار الشريعة بهؤلاء الخمسة من الأنبياء.

٣ - في البداية ذكرت الآية نوحاً، لأنّ أوّل شريعة (أو الدين الذي يحتوي على كلّ القوانين العبادية والاجتماعية) نزلت عن طريقه، وكانت هناك تعليمات وبرامج محدودة للأنبياء الذين سبقوه[٢].

---

(١) لقد جاء هذا المعنى بشكل مجمل في لسان العرب والمفردات للراغب وبقية كتب اللغة.

(٢) هناك شرح أوردناه بهذا الخصوص في نهاية الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

ولهذا السبب لم يشر القرآن ولا الرّوايات الإسلامية إلى الكتب السماوية قبل نوح عليه السلام.

٤ - من الضروري أن نشير إلى أنّه عند ذكر هؤلاء الخمسة، تمّ ذكر نوح عليه السلام في البداية ثمّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وبعد ذلك إبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام، وهذا الترتيب بسبب أنّ نوحاً كان هو البادئ والفاتح، ونبيّ الإسلام ذكر بعد ذلك بسبب عظمته، وذكر الآخرون حسب الترتيب الزمني لظهورهم.

٥ - من الضروري أيضاً أن نشير إلى هذه الملاحظة، وهي أنّ القرآن يستخدم عبارة: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بخصوص نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله، إلاّ أنّه استخدم عبارة ﴿وَصَّيْنَا﴾ بالنسبة إلى الآخرين، وقد يكون هذا الاختلاف في التعبير بسبب أهمّية الإسلام بالنسبة لسائر الأديان السماوية الأُخرى.

٦ - وردت عبارة: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بالنسبة إلى كيفية انتخاب الأنبياء في نهاية الآية، والتي قد تكون إشارة مجملة للمؤهلات الذاتية للرسل الإلهيين.

أمّا بخصوص الأُمم فقد تمّ استخدام عبارة: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ «والتي تعني الرجوع إلى الخالق والتوبة عن الذنب» حتى يتّضح معيار الهداية الإلهيّة وشرائطها للجميع، ويعثروا على طريق الوصول إلى بحر رحمته.

جاء في الحديث القدسي «من تقرب منّي شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»(١).

وقد ورد هذا الاحتمال أيضاً في تفسير الجملة الأخيرة، وهو أنّ (الاجتباء) لا يختص بالأنبياء فحسب، بل يشمل جميع العباد المخلصين الذين لهم المقام المحمود عند الخالق.

وبما أنّ أحد أركان دعوة الأنبياء من أُولي العزم هو عدم التفرّق في الدين، فقد كانوا يدعون لذلك حتماً، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كلّ هذه الاختلافات المذهبية؟

وقد أجابت الآية الأُخرى على هذا السؤال وذكرت أساس الاختلافات الدينية بأنّه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، فالاختلافات لم تحدث إلاّ بسبب حب الدنيا والمنصب والظلم والحسد والعداوة.

---

(١) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٧، ص ١٥٧ ذيل الآيات مورد البحث.

نعم، فعبيد الدنيا الظلمة والحاسدون الحاقدون وقفوا حيال أديان الأنبياء جميعاً، ودفعوا كلّ مجموعة باتجاه معيّن كيما يثبتوا أركان زعامتهم ويؤمّنوا مصالحهم الدنيوية، ويكشفوا - علانيةً - حسدهم وعداوتهم للمؤمنين الحقيقيين لدين الأنبياء، ولكن كلّ هذا حصل بعد إتمام الحجة.

وبهذا الترتيب فإنّ أساس التفرّق في الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم والبغي والانحراف عن الحق، والأهواء والآراء الشخصية.

«فالعلماء الذين يطلبون الدنيا» و«الحاقدون من الناس والمتعصبون» اتحدوا معاً لزرع هذه الاختلافات.

وتعتبر هذه الآية ردّاً واضحاً على الذين يقولون بأنّ الدين أوجد الاختلاف بين البشر، وأدّى إلى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ، فلو دققوا في الأمر لوجدوا أنّ الدين دائماً هو أساس للوحدة والاتحاد في المجتمع (كما حصل للإسلام وقبائل الحجاز وحتى الأقوام في خارج الجزيرة حيث انتهت الاختلافات وأصبحوا أُمّة واحدة).

إلاّ أنّ السياسات الاستعمارية هي التي أوجدت الفرقة بين الناس، وحرّضت على الاختلافات، وكانت أساساً لإراقة الدماء، وفرضت سياساتها وأهواءها على الأديان السماوية، فكانت عاملاً كبيراً آخر في إيجاد الفرقة، وهذا بحدّ ذاته ينبع من (البغي) أيضاً.

«البغي» كما يكشف أساسه اللغوي، يعني (طلب التجاوز والانحراف عن خط الوسط والميل نحو الإفراط أو التفريط) سواء تمّ تطبيق هذا الطلب أم لا، وتختلف كميته وكيفيته، ولهذا السبب فغالباً ما يستخدم بمعنى الظلم.

وأحياناً يقال لأيّ طلب بالرغم من كونه أمراً جيّداً ومرغوباً.

لذا فإنّ الراغب في مفرداته يقسّم (البغي) إلى نوعين: (ممدوح) و(مذموم) فالأوّل يتجاوز حدّ العدالة ويصل إلى الإحسان والإيثار، وتجاوز الواجبات والوصول إلى المستحبات، والثّاني يتجاوز الحق نحو الباطل.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ حيث يهلك أتباع الباطل وينصر أتباع الحق.

نعم، فالدنيا هي محل الاختبار والتربية والتكامل، ولا يحصل هذا بدون حرية

العمل، وهذا هو الأمر التكويني الإلهي الذى كان موجوداً منذ بدء خلق الإنسان ولا يقبل التغيير، إنّ هذه هي طبيعة الحياة الدنيوية، ولكن ما يمتاز به عالم الآخرة هو أنّ جميع هذه الاختلافات ستنتهي وسوف تصل الإنسانية إلى الوحدة الكاملة، ولهذا السبب يتمّ استخدام عبارة: (يوم الفصل) للقيامة.

أمّا آخر جملة فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعة، أي الذين لم يدركوا عصر الرسل، بل جاؤوا في فترة طبع فيها المنافقون والمفرّقون المجتمع البشري بطابعهم الشيطاني، لذا لم يستطيعوا إدراك الحق بشكل جيّد، حيث تقول: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾(١).

وقد ذكروا في حقيقة معنى كلمة (ريب) أنّ هذه الكلمة تطلق على الشك الذي يتبدل إلى الحقيقة أخيراً بعد أن يزال الستار عنه، وقد يكون هذا الأمر إشارة إلى ظهور نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بالأدلة الواضحة، حيث محا آثار الشك والريب من قلوب طلاّب الحق.

ملاحظة

نقل تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ قال الإمام: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ كناية عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام ثم قال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من أمر ولاية علي ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ كناية عن علي عليه السلام(٢).

وبديهي أنّ المقصود ليس تحديد الدين في ولاية علي عليه أفضل الصلاة والسلام، بل الهدف هو بيان هذه الحقيقة، وهي أنّ قضية ولاية أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام تعتبر من أركان الدين أيضاً.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا

(١) وفقاً لهذا التّفسير الذي يتناسق بشكل كامل مع الجمل السابقة، فإنّ ضمير ﴿بَعْدِهِمْ﴾ يعود إلى الأُمم الأُولى التي أوجدت الفرقة بين المذاهب والأديان، وليس إلى الأنبياء المذكورين في الآية السابقة (فدقق ذلك).

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٦٧.

أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

التّفسير

فاستقم كما أُمرت!

بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن تفرّق الأُمم بسبب البغي والظلم والانحراف، لذا فإنّ الآية التي نبحثها تأمر النّبي بمحاولة حلّ الاختلافات وإعادة الحياة إلى دين الأنبياء، وأن يبذل منتهى الاستقامة في هذا الطريق، فتقول: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾[1] أي ادعوهم إلى الدين الإلهي الواحد وامنع الاختلافات.

ثم تأمره بالاستقامة في هذا الطريق، فتقول: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

ولعل جملة ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ إشارة إلى المرحلة العالية من الاستقامة، أو إلى أنّ الاستقامة يجب أن تكون من حيث الكمية والكيفية والزمن والخصوصيات الأُخرى مطابقة للقانون الإلهي.

وبما أنّ أهواء الناس تعتبر من الموانع الكبيرة في هذا الطريق، لذا تقول الآية في ثالث أمر لها: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، لأنّ كلّ مجموعة ستدعوك إلى أهوائها ومصالحها الشخصية، تلك الدعوة التي يكون مصيرها الفرقة والاختلاف والنفاق، فعليك القضاء على هذه الأهواء، وجمع الكل في ظل الدين الإلهي الواحد.

وبما أنّ لكل دعوة نقطة بداية، لذا فإنّ نقطة البداية هي شخص الرّسول ﷺ، حيث تقول الآية في رابع أمر لها: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾. فأنا لا أُفرّق بين الكتب السماوية، اعترف بها جميعاً، وكلها تدعو إلى التوحيد والمعارف الدينية الطاهرة والتقوى والحق والعدالة، وفي الحقيقة فإنّ ديني جامع لها ومكملها.

فأنا لستُ مثل أهل الكتاب حيث يقوم كلّ واحد بإلغاء الآخرين، فاليهود يلغون المسيحيين، والمسيحيون يلغون اليهود، وحتى أنّ أتباع كلّ دين أيضاً يقبلون ما يتلاءم مع

(١) بعض المفسّرين اعتبر «اللام» في «لذلك» بمعنى (إلى)، والبعض الآخر بمعنى (التعليل) وفي الحالة الأُولى تكون كلمة (ذلك) إشارة إلى دين الأنبياء السابقين، وفي الحالة الثانية إشارة إلى اختلاف الأُمم.

حاجاتهم ورغباتهم من كتبهم الدينية، فأنا أقبل بالكل لأنّ الكل له أُصول أساسية واحدة.

وبما أنّ رعاية (أصل العدالة) ضروري لإيجاد الوحدة، لذا فإنّ الآية تطرح ذلك في خامس أمر لها فتقول: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، سواء في القضاء والحكم، أو في الحقوق الاجتماعية والقضايا الأُخرى(١).

وبهذا الشكل فإنّ الآية التي نبحثها مؤلفة من خمس تعليمات مهمّة، حيث تبدأ من أصل الدعوة، ثمّ تطرح وسيلة انتشارها - يعني الاستقامة - ثمّ تشير إلى الموانع في الطريق «كعبادة الأهواء» ثمّ تبين نقطة البداية التي تبدأ من النفس، وأخيراً الهدف النهائي والذي هو توسيع وتعميم العدالة.

بعد هذه التعليمات الخمس، تشير إلى المشتركات بين الأقوام والتي تتلخص بخمس فقرات، حيث تقول: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وكل واحد مسؤول عن أعماله ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ وليس بيننا نزاع وخصومة، ولا امتياز لأحدنا على الآخر وليست لدينا أغراض شخصية اتجاهكم.

وعادة لا توجد حاجة إلى الاستدلال والاحتجاج، لأنّ الحق واضح، إضافة إلى ذلك فإنّنا جميعاً سوف نجتمع في مكان واحد: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾(٢).

والذي سوف يقضي بيننا في ذلك اليوم هو الأحد الذي: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وعلى هذا الأساس فإنّ إلهنا واحد، ونهايتنا ستكون في مكان واحد، والقاضي الذي إليه المصير واحد، وبالرغم من كلّ هذا فإنّنا مسؤولون جميعاً حيال أعمالنا، وليس هناك فرق لإنسان على آخر إلاّ بالإيمان والعمل الصالح.

وننهي هذا البحث بحديث جامع، فقد ورد في حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فالمنجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله في السر والعلانية، والمهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»(٣).

---

(١) بعض المفسّرين حدّد (العدالة) هنا بالقضاء، في حين أنّه لا توجد قرينة على هذه المحدودية في الآية.

(٢) الضمير المتكلم مع الغير في ﴿بَيْنَنَا﴾ يشير إلى الرّسول ﷺ والمؤمنين، وضمير الجمع في ﴿وَبَيْنَكُمُ﴾ يشير إلى جميع الكفار، سواء كانوا أهل الكتاب أم المشركين.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٨، ذيل الآيات مورد البحث، وتحف العقول كلمات الرّسول الأعظم ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

التّفسير

لا تستعجلوا بالساعة!!

الآيات السابقة كانت تتحدّث عن واجبات النّبي ﷺ، كاحترامه لمحتوى الكتب السماوية، وتطبيق العدالة بين جميع الناس وترك أيّ محاججة أو خصومة بينه وبينهم، أمّا الآيات التي نبحثها، فلكي تكمّل البحث السابق وتثبت أنّ حقانية نبيّ الإسلام لا تحتاج إلى دليل، تقول: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وبما أنّ نقاشهم ومحاججتهم ليس لكشف الحقيقة، بل للعناد والإصرار تقول الآية: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندين.

وقد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة حول المقصود من جملة: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾.

فقالوا: إنّ المقصود هو استجابة عامة الناس من ذوي القلوب الطاهرة، والذين ليست لهم نوايا خبيثة، ويستسلمون للحق ويخضعون له مستلهمين ذلك من الفطرة الإلهيّة ومشاهدة محتوى الوحي والمعاجز المختلفة للنبي الأكرم ﷺ.

وقد يكون المقصود بها استجابة دعاء الرّسول ﷺ بحق معارضيه كما في معركة بدر، حيث أدّى ذلك إلى فناء قسم عظيم من جيش العدو وانكسار شوكته.

وأحياناً اعتبروا ذلك إشارة إلى قبول أهل الكتاب، حيث كانوا ينتظرون نبيّ الإسلام ﷺ قبل ظهوره، ويذكرون علامات ظهوره للناس من خلال كتبهم، وكانوا يظهرون الإيمان والحب له، إلاّ أنّه بعد ظهور الإسلام أنكروا كلّ ذلك، لأنّ مصالحهم غير المشروعة أصبحت في خطر.

ويبدو أنّ التّفسير الأوّل هو الأفضل، لأنّ التّفسير الثّاني يقتضي أن تكون هذه الآيات نازلة بعد معركة بدر، في حين أنّه لا دليل على هذا الأمر، ويظهر أنّ جميع هذه الآيات نزلت في مكّة.

والتّفسير الثّالث لا يتلاءم مع أُسلوب الآية، لأنّه يجب أن يقال: «من بعدما استجابوا له».

إضافةً إلى أنّ ظاهر جملة: ﴿يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يشير إلى محاججة المشركين بخصوص الخالق، وليس أهل الكتاب بالنسبة إلى النّبي ﷺ ولكن ما هي المواضيع المطروحة المشار إليها في هذه المحاججة الباطلة؟ هناك اختلاف بين المفسّرين:

فقال البعض: إنّ المقصود هو ادعاء اليهود الذين يقولون بأنّ دينهم كان موجوداً قبل الإسلام وإنّ أسبقيته دليلٌ على أفضليته.

أو ما دمتم تدّعون الوحدة فتعالوا وآمنوا بدين موسى عليه السلام لأنّ الطرفين يقبلانه.

ولكن - كما قلنا - فإنّ من المستبعد أن يكون الكلام في هذه الآيات مع اليهود أو أهل الكتاب، لأنّ «المحاججة في الله» أكثر ما تخص المشركين، لذا فإنّ الجملة أعلاه تشير إلى الأدلة الواهية للمشركين في قبولهم بالشرك، والتي منها شفاعة الأصنام أو اتباع دين الآباء والأجداد.

على أيّة حال، فالمعاندون الذين يصرّون على عنادهم بعد وضوح الحق، سيفتضح أمرهم بين خلق الله، وسيشملهم غضب الخالق في هذا العالم والعالم الآخر.

ثم يشير القرآن إلى أحد أدلة التوحيد وقدرة الخالق، وفي نفس الوقت يتضمّن إثبات النبوة حيال المتحاججين ذوي المنطق الواهي، حيث تقول الآية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

«الحق» كلمة جامعة تشمل المعارف والعقائد الحقة، والأخبار الصحيحة والبرامج المتطابقة مع الحاجة الفطرية والاجتماعية، وما شابه ذلك، لأنّ الحق هو الشيء الموجود الذي يطابق مصداقه الخارجي، وليس له جنبة ذهنية وخيالية.

وأمّا «**الميزان**» فله معنى عام في مثل هذه الموارد، بالرغم من أنّ معناه اللغوي هو وسيلة لقياس الوزن، إلاّ أنّه في معناه الكنائي يطلق على أيّ معيار للقياس الصحيح، وحتى شخص الرّسول ﷺ والأئمّة عليهم السلام، حيث إنّ وجودهم معيار لتشخيص الحق من الباطل وميزان يوم القيامة، والميزان في القيامة يراد به هذا المعنى.

بناءً على هذا فإنّ الخالق أنزل كتاباً على نبيّ الإسلام ﷺ بحيث يعتبر هو الحق، والميزان للتقييم، والتدقيق في محتوى هذا الكتاب سواء معارفه وعقائده، واستدلالاته المنطقية، أو قوانينه الاجتماعية، وحتى برامجه لتهذيب النفوس وتكامل البشر... كلّ ذلك يعتبر دليلاً على حقانيته.

إنّ هذا المحتوى العظيم - بهذا العمق - من شخص أُمّي لا يعرف القراءة والكتابة، وقد نشأ في مجتمع يعتبر من أكثر المجتمعات تخلّفاً، يعتبر بحدّ ذاته دليلاً على عظمة الخالق، ووجود عالم ما وراء الطبيعة، وحقانية من جاء به.

وهكذا فإنّ الجملة أعلاه تعتبر جواباً للمشركين ولأهل الكتاب.

وبما أنّ نتيجة كلّ هذه الأُمور، خاصّة ظهور الحق بشكل كامل وتحقق العدالة وإقامة الميزان تتّضح في يوم القيامة، لذا فإنّ الآية تقول في نهايتها: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

فالقيامة عندما تقام يحضر الجميع في محكمة عدله، ويواجهون الميزان الذي يقيس حتى حبّة الخردل أو أصغر منها.

ثم يشير القرآن إلى موقف الكفار والمؤمنين حيال القيامة، فتقول الآية: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾.

فهؤلاء لا يقولون ذلك بسبب عشقهم للقيامة والوصول إلى لقاء المحبوب، أبداً، إنّ كلامهم هذا من قبيل الاستهزاء والإنكار، ولو كانوا يعلمون ما سيحل عليهم يوم القيامة لم يطلبوا مثل هذا الأمر.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾(١).

طبعاً لحظة قيام القيامة خافية على الجميع، حتى بالنسبة للأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين، ليكون هذا الأمر أُسلوباً تربوياً مستمراً للمؤمنين، واختباراً وإتمام حجة للمنكرين، ولكن لا يوجد أيّ شك في أصل وقوعها.

ومن هنا يتّضح مدى التأثير التربوي العميق للإيمان بالقيامة ومحكمة العدل الإلهي

---

(١) ﴿مُشْفِقُونَ﴾ من كلمة (إشفاق) وتعني العلاقة المقترنة مع الخوف، فمتى ما تعدّت بحرف (من) يطغى جانب الخوف عليها، وعندما تتعدّى بحرف (على) يطغى جانب الانتباه والمراقبة عليها، ولذا فإنّ الإنسان يقول لصاحبه وصديقه: «أنا مشفق عليك» (تفسير روح المعاني ومفردات الراغب).

الكبيرة على المؤمنين خاصّة وفي احتمالهم حصول هذا الأمر في أيّة لحظة من اللحظات.

وكإعلان عام، تقول الآية في نهايتها: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ لأنّ نظام هذا العالم يعتبر - بحدّ ذاته - دليلاً على أنّه مقدمة لعالم آخر وبدونه سيكون خلق هذا العالم عبثاً وليس له أيّ معنى، وهذا لا يتناسب مع حكمة الخالق ولا مع عدالته.

وتشير عبارة: ﴿ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ إلى أنّ الإنسان قد يضل الطريق أحياناً، إلاّ أنّه لا يبتعد عنه كثيراً، وبقليل من البحث والجهد يمكنه أن يكتشف الطريق وأحياناً يكون البعد كبيراً جداً بحيث يصعب - أو يستحيل - عليه العثور على الطريق مرّة أُخرى.

والطريف في الأمر أنّنا نقرأ في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ: «سأل رجل رسول الله في إحدى سفراته وبصوت مرتفع: يا محمّد...، فأجابه الرّسول ﷺ وبصوت مرتفع مثل صوته «ما تقول؟»».

قال الرجل: متى الساعة؟

قال الرّسول ﷺ: «إنّها كائنة فما أعددت لها؟».

قال الرجل: حبّ الله ورسوله!

قال الرّسول ﷺ: «أنت مع من أحببت»(١).

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

مزرعة الدنيا والآخرة

بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن العذاب الإلهي الشديد وعن طلب منكري المعاد للتعجيل بقيام القيامة، لذا فإنّ أوّل آية نبحثها هنا تقرن «الغضب» الالهي مع

(١) تفسير المراغي، ج ٢٥، ص ٣٢.

«اللطف» الإلهي في معرض ردّها على استعجال منكري المعاد: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾.

فعندما يهددهم بالعذاب الشديد في موضع، يعدهم باللطف في موضع آخر، ذلك اللطف الواسع غير المحدود ولا يعجّل في عقاب الجاهلين المغرورين.

ثم تطرح الآية أحد مظاهر لطفه العام وهو الرزق، فتقول: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾. وهذا لا يعني أنّ هناك جماعة محرومون من رزقه، بل المقصود البسط في الرزق لمن يشاء، كما جاء في الآية (٢٦) من سورة الرعد: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

ونقرأ في آية لاحقة في هذه السورة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾(١).

وواضح أنّ ﴿الرِّزْقَ﴾ هنا يشمل الرزق المعنوي والمادي، الجسماني والروحاني، فعندما يكون هو مصدر اللطف والرزق، فلماذا تتوجّهون نحو الأصنام التي لا ترزق ولا تتلطّف، ولا تحلّ مشاكلكم.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

وعندما يعد الله تعالى عباده بالرزق واللطف فهو قادر على إنجاز هذا الأمر، ولهذا السبب لا يوجد أيّ تخلّف في وعوده أبداً.

ومن الضروري الانتباه إلى هذه الملاحظة وهي أنّ ﴿لَطِيفٌ﴾ لها معنيان: الأوّل: أنّه صاحب اللطف والمحبة والرحمة، والثّاني: علمه بجميع الأُمور الصغيرة والخافية، وبما أنّ رزق العباد يحتاج إلى الإحاطة والعلم بالجميع وفي أيّ مكان كانوا، سواء في السماء أم في الأرض، لذا فإنّ الآية تشير في البداية إلى لطفه ثمّ إلى رزقه، كما أنّ القرآن يضيف في الآية (٦) من سورة هود وبعد أن يذكر: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

وطبعاً لا يوجد أيّ تناقض بين هذين المعنيين، بل يكمل أحدهما الآخر، فاللطيف هو الشخص الذي يكون كاملاً من حيث المعرفة والعلم، ومن حيث اللطف والمحبّة لعباده، وبما أنّ الخالق يعلم باحتياجات عباده بشكل جيّد فإنّه يسدد احتياجاتهم بأفضل وجه، لذا فهو الأجدر بهذا الاسم.

على أيّة حال، فإنّ الآية أعلاه أشارت إلى أربع صفات من أوصاف الخالق:

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٧.

اللطف، والرزق، والقوّة، والعزّة، وهي أفضل دليل على مقام (ربوبيته)، لأنّ (الرب) يجب أن تتوفر فيه هذه الصفات.

الآية التي بعدها شبّهت أفراد العالم حيال رزق الخالق وكيفية الاستفادة منه بالمزارعين الذين يقوم قسم منهم بالزراعة للآخرة والقسم الآخر للدنيا، وتحدد عاقبة كلّ قسم منهم وفق تشبيه لطيف حيث تقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(١).

إنه لتشبيه لطيف وكناية جميلة، فجميع الناس مزارعون، وهذه الدنيا مزرعة لنا، أعمالنا هي البذور، والإمكانات الإلهيّة هي المطر لهذه المزرعة، إلاّ أنّ هذه البذور تختلف كثيراً، فبعضها غير محدودة النتاج وأبدية، أشجارها دائمة الخضرة ومثمرة، وبعضها الآخر قليل النفع جداً، وتنتهي بسرعة، وتحمل ثماراً مُرّة.

وفي الحقيقة، فإنّ عبارة: ﴿يُرِيدُ﴾ تشير إلى اختلاف الناس في النيّات، ومجموع هذه الآية يعتبر توضيحاً لما جاء في الآية السابقة من المواهب والرزق الإلهي، فالبعض يستفيد من هذه المواهب على شكل بذور للآخرة، والبعض الآخر يستعملها للتمتع الدنيوي.

والطريف في الأمر أنّ الآية تقول بخصوص الذين يزرعون للآخرة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ إلاّ أنّها لا تقول أنّه لا يصيبهم شيء من متاع الدنيا، وبالنسبة لمن يزرع للدنيا تقول: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

وعلى هذا الأساس فلا طلاّب الدنيا يصلون إلى ما يريدون، ولا طلاّب الآخرة يحرمون من الدنيا، ولكن مع الفارق، وهو أنّ المجموعة الأولى تذهب إلى الآخرة بأيدٍ فارغة، والمجموعة الثانية بأيدٍ مملوءة.

وقد جاء ما يشبه نفس هذا المعنى في الآيتين (١٨) و(١٩) من سورة الإسراء، ولكن بشكل آخر: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) مصطلح (حرث) كما يقول الراغب في مفرداته: تعني في الأصل: رمي البذر في الأرض وتهيئتها للزراعة، وفي القرآن الكريم استخدمت عدّة مرّات بهذا المعنى، ولكن لا يعلم سبب اعتبار بعض المفسّرين أنّها تعني (العمل والكسب).

عبارة: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ تتلاءم مع ما ورد في آيات قرآنية أُخرى، مثل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(١) و﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾(٢).

على أيّة حال، فالآية أعلاه صورة ناطقة تعكس التفكير الإسلامي بالنسبة الى الحياة الدنيا، الدنيا المطلوبة لذاتها، والدنيا التي تعتبر مقدمة للعالم الآخر ومطلوبة لغيرها، فالإسلام ينظر إلى الدنيا على أنّها مزرعة يقتطف ثمارها يوم القيامة.

والعبارات الواردة في الروايات أو في آيات قرآنية أُخرى تؤكّد هذا المعنى.

فمثلاً تشبّه الآية (٢١٦) من سورة البقرة المنفقين بالبذر الذي له سبع سنابل، وفي كلّ سنبلة مئة حبة، وأحياناً أكثر. وهذا نموذج لمن يبذر البذور للآخرة.

ونقرأ في حديث عن الرّسول ﷺ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النّار إلاّ حصائد ألسنتهم»(٣).

وجاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد يجمعهما الله لأقوام»(٤).

ويمكن أن نستفيد هذه الملاحظة من الآية أعلاه، وهي أنّ الدنيا والآخرة تحتاجان إلى السعي، ولا يمكن نيلهما دون تعب وأذى، كما أنّ البذر والثمر لا يخلوان من التعب والأذى، لذا فالأفضل للإنسان أن يزرع شجرة ويبذل جهده في تربيتها، ليكون ثمرها حلو المذاق ودائمياً وأبدياً، وليست شجرة تموت بسرعة وتُفنى.

ونُنهي هذا الكلام بحديث عن الرّسول الأكرم ﷺ حيث يقول: «من كانت نيّته الدنيا فرّق الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما كتب له، ومن كانت نيّته الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٥).

وما هو مشهور بين العلماء أنّ (الدنيا مزرعة الآخرة) فهو في الحقيقة اقتباس من مجموع ما ذكرناه أعلاه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٠.

(٣) المحجة البيضاء، ج ٥، ص ١٩٣ (كتاب آفات اللسان).

(٤) أصول الكافي، ج ٥، ص ٥٧ وفقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٦٩.

(٥) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٤١، ذيل الآيات مورد البحث.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

سبب النّزول

لقد ورد في تفسير مجمع البيان سبب نزول للآيات (٢٣) وحتى (٢٦) من هذه السورة، أنّه ذكر أبو حمزة الثمالي في تفسيره: حدّثني عثمان بن عمير عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس أنّ رسول الله حين قدم المدينة واستحكم الإسلام قالت الأنصار فيما بينها: نأتي رسول الله فنقول له إن تعروك أُمور فهذه أموالنا تحكم فيها غير حرج ولا محظور عليك، فأتوه في ذلك فنزلت: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقرأها عليهم وقال: تودّون قرابتي من بعدي. فخرجوا من عنده مسلّمين لقوله. فقال المنافقون: إنّ هذا الشيء افتراه في مجلسه أراد بذلك أن يذللنا لقرابته من بعده، فنزلت: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فأنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية، فأرسل في أثرهم فبشّرهم وقال: (ويستجيب للذين آمنوا وهم الذين سلّموا لقوله تعالى)[1].

التّفسير

أجر الرسالة في مودة أهل البيت عليهم السلام

بما أنّ الآية (١٣) من هذه السورة كانت تتحدّث عن تشريع الدين من قبل الخالق

(١) تفسير مجمع البيان، ج٩، ص ٤٤.

بواسطة الأنبياء أُولي العزم، لذا فإنّ أوّل آية في هذا البحث - كاستمرار للموضوع - تقول في مجال نفي تشريع الآخرين، وأنّ جميع القوانين ليست معتبرة قبال القانون الإلهي، وأنّ التقنين يختص بالخالق: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

فهو خالق ومالك ومدبر عالَم الوجود، ولهذا السبب تنفرد ذاته المنزّهة بحق التقنين، ولا يستطيع شخص أن يتدخل في تشريعاته دون إذن، لذا فكل شيء باطل قبال تشريعه.

وبعد ذلك يقوم القرآن بتهديد المشرّعين بالباطل، حيث تقول الآية: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ حيث يصدر الأمر بعذابهم.

وفي نفس الوقت يجب عليهم أن لا ينسوا هذه الحقيقة وهي: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

المقصود من (كلمة الفصل) هي المدّة المقررة المعطاة من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد، كي تكون لهم حرية العمل وتتم الحجة عليهم.

كما أنّ عبارة (ظالمين) تتحدّث عن المشركين الذين لهم عقائد منحرفة قبال القوانين الإلهيّة وذلك بسبب اتساع مفهوم الظلم، وإطلاقه على أيّ عمل ليس في مورده.

ويظهر أنّ المقصود من ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هو عذاب يوم القيامة، لأنّ هذه العبارة عادةً ما تستخدم بهذا المعنى في القرآن الكريم، والآية التي بعدها تشهد على هذه الحقيقة، وما قاله بعض المفسّرين (كالقرطبي) من أنّ ذلك يشمل عذاب الدنيا والآخرة مستبعد.

ثم تذكر الآية بياناً مجملاً حول (عذاب الظالمين) ثمّ بياناً مفصّلاً عن (جزاء المؤمنين)، فتقول: ﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾.

﴿رَوْضَاتِ﴾ جمع (روضة) وتعني المكان الذي يشتمل على الماء والشجر الكثير، لذا فإنّ كلمة (روضة) تطلق على البساتين الخضراء، ونستفيد من هذه العبارة بشكل واضح أنّ بساتين الجنّة متفاوتة، والمؤمنون من ذوي الأعمال الصالحة في أفضل بساتين الجنّة، ومفهوم هذا الكلام أنّ المؤمنين المذنبين سيدخلون الجنّة بعد أن يشملهم العفو الإلهي بالرغم من أنّ مكانهم ليس في (الروضات).

إلاّ أنّ الفضل الإلهي بخصوص المؤمنين ذوي الأعمال الصالحة لا ينتهي هنا، فسوف يشملهم اللطف الإلهي بحيث: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وبهذا الترتيب لا يوجد أيّ قياس بين (العمل) و(الجزاء)، بل إنّ جزاءهم غير محدود من جميع الجهات، لأنّ جملة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ تكشف عن هذه الحقيقة.

والأجمل من ذلك عبارة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حيث توضّح اللطف الإلهي اللامتناهي بشأنهم، وهل هناك فوز أكبر من أن يصلوا إلى قرب مقام الخالق؟ فكما يقول بخصوص الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١)، كذلك يقول بشأن المؤمنين ذوي الأعمال الصالحة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وليس غريباً أن تقول الآية في نهايتها: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقد قلنا - مراراً - أنّه لا يمكن شرح نعم الجنّة من خلال الكلام، فنحن المكبّلون بقيود عالم المادة، لا نستطيع أن ندرك المفاهيم التي تتضمّنها جملة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. فماذا يريد المؤمنون؟ وما هي الألطاف الموجودة في جوار قربه تعالى؟!

وعادة عندما يقوم الخالق العظيم بوصف شيء ما بالفضل الكبير، فإنّ ذلك يكشف عن مقدار العظمة بحيث يكون أعظم من كلّ ما نفكّر به.

وبعبارة أُخرى: سوف يصل الأمر بهؤلاء العباد الخلّص أن سيتوفر لهم كلّ ما يريدونه، يعني سيظهر في وجودهم شعاع من قدرة الخالق الأزلية، أي ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢)، فهل هناك فضيلة وموهبة أعظم من هذه؟

ولبيان عظمة هذا الجزاء تقول الآية التي بعدها: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

يبشرهم حتى لا تَصعُب عندهم آلام الطاعة والعبودية ومجاهدة هوى النفس والجهاد حيال أعداء الله، ويقوم هذا الجزاء العظيم بترغيبهم ويعطيهم القدرة والطاقة الكبيرة لسلوك طرق الحياة المليئة بالصعوبات والمشاكل للوصول إلى رضا الخالق.

وقد يتوهم أنّ نبيّ الإسلام ﷺ يريد جزاءً وأجراً على إبلاغ هذه الرسالة، لذا فإنّ القرآن يأمر الرّسول بعد هذا الكلام ليقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي حبّ أهل بيتي.

ومودة ذوي القربى ومحبتهم - كما سيأتي بيانها بشكل مفصّل - ترتبط بقضية الولاية وقبول قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام من آل الرّسول حيث تعتبر في الحقيقة استمراراً

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩. (٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

لقيادة النّبي ﷺ واستمراراً للولاية الإلهيّة، وجليّ أنّ قبول هذه الولاية والقيادة كقبول نبوة النّبي ﷺ ستكون سبباً لسعادة البشرية نفسها وستعود نتائجها إليها.

توضيح

هناك بحوث متعددة وتفاسير مختلفة للمفسّرين في تفسير هذه الجملة، بحيث إذا ما نظرنا إليها بدون أيّ موقف مسبق نشاهد أنّها ابتعدت عن المفهوم الأصلي للآية بسبب الدوافع المختلفة، وذكروا احتمالات لا تتلاءم مع محتوى الآية، ولامع سبب نزولها، ولا مع سائر القرائن التأريخية والروائية.

وبشكل عام هناك أربعة تفاسير معروفة للآية:

١ - هو ما قلناه أعلاه، حيث إنّ المقصود من ذوي القربى هم أقرباء الرّسول ﷺ، وحبّهم يعتبر وسيلة لقبول إمامة وقيادة الأئمّة المعصومين عليهم السلام من نسل الرّسول ﷺ، ودعماً لتطبيق الرسالة.

وقد اختار هذا المعنى جمع من المفسّرين الأوائل، وجميع المفسّرين الشيعة، ووردت روايات كثيرة من طرق الشيعة والسنّة في هذا المجال سنشير إليها لاحقاً.

٢ - المقصود هو أنّ جزاء الرسالة وأجرها هو حب أُمور معيّنة تقرّبكم من الله.

هذا التّفسير الذي ذكره بعض مفسّري أهل السنّة لا يتلاءم مع ظاهر الآية أبداً، لأنّ معنى الآية سيصبح هكذا: إنّني أريد منكم أن تحبوا طاعة الخالق، وتودّونه في قلوبكم، في حين أنّه يجب أن يقال: إنّني أريد منكم أن تطيعوا الخالق، (وليس مودة الطاعة الإلهيّة).

إضافة إلى ذلك فإنّه لا يوجد أحد بين المخاطبين في الآية لا يرغب بالتقرّب من الخالق، وحتى المشركين كانوا يرغبون بذلك، وكانوا يظنون أنّ عبادة الأصنام تعتبر وسيلة لهذا الأمر.

٣ - المقصود حبّ أقربائكم بعنوان أجر الرسالة، أي بصلة الرحم. وبملاحظة هذا التّفسير لا يوجد أيّ ترابط بين الرسالة وأجرها، لأنّه ماذا يستفيد الرّسول ﷺ من حبّ الشخص أقرباءهُ؟ وكيف يمكن اعتبار هذا الأمر أجراً للرسالة؟!

٤ - المقصود أنّ أجري هو أن تحفظوا قرابتي منكم، ولا تؤذونني، لأنّي أرتبط برابطة القرابة مع أكثر قبائلكم (لأنّ الرّسول ﷺ كان يرتبط بقبائل قريش نسبياً،

وبالقبائل الأُخرى سبباً (عن طريق الزواج)، وعن طريق أُمّه ببعض أهالي المدينة من قبيلة بني النجار، وعن طريق مرضعته بقبيلة بني سعد).

هذه العبارة هي أسوأ تفسير مذكور للآية، لأنّ طلب أجر الرسالة هو من الأشخاص الذين آمنوا بها، ومع هؤلاء الأشخاص لا توجد حاجة إلى مثل هذا الكلام، فأُولئك كانوا يحترمون النّبي ﷺ لأنّه مرسل إلهي، ولا توجد حاجة لاحترامه بسبب قرابته، لأنّ الاحترام الناشيء بسبب قبول الرسالة فوق جميع هذه الأمور، وفي الواقع يجب اعتبار هذا التّفسير من الأخطاء الكبيرة التي أصابت بعض المفسّرين ومسخت مفهوم الآية بشكل كامل.

ولكي نفهم حقيقة محتوى الآية بشكل أفضل، علينا طلب العون من الآيات القرآنية الأخرى:

نقرأ في العديد من آيات القرآن المجيد: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وهناك عبارات مختلفة تخصّ الرّسول، فقد ورد في القرآن: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾(٢).

وفي مكان آخر نقرأ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾(٣).

وأخيراً: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٤).

وعندما نضع هذه الآيات الثلاث إلى جانب الآية التي نبحثها، يسهل علينا الاستنتاج: ففي مكان تنفي الآية الأجر والجزاء بشكل كامل.

وفي مكان آخر تقول الآية: إنّني أطلب الأجر من الأشخاص الذين يريدون سلوك الطريق إلى الخالق.

وبخصوص الآية الثّالثة فإنّها تقول: إنّ الأجر الذي أطلبه منكم إنّما هو لكم.

وأخيراً فإنّ الآية التي نبحثها تضيف: إنّ مودّة القربى هي أجر رسالتي، يعني أنّ

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٧. (٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.
(٤) سورة ص، الآية: ٨٦.

الأجر الذي طلبته منكم ويشمل هذه الخصوصيات: لا يعود نفعه إليّ أبداً، بل ينفعكم بالكامل، ويعبّد الطريق أمامكم للوصول إلى الخالق.

وعلى هذا الأساس، فهل تعني الآية شيئاً آخر سوى قضية استمرار خط رسالة النّبي الكريم بواسطة القادة الإلهيين وخلفائه المعصومين الذين كانوا جميعهم من عائلته؟ لكن لأنّ المودة هي أساس هذا الارتباط نرى أنّ الآية أشارت بصراحة إلى ذلك.

والطريف في الأمر أنّ هناك خمسة عشر مورداً في القرآن المجيد - غير الذي ذكرنا - ذكر فيه كلمة ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حيث إنّ جميعها تعني الأقرباء، ومع هذا الوضع لا نعلم لماذا يصر البعض بحصر معنى كلمة القربى في (التقرّب إلى الله) ويتركون المعنى الواضح والظاهر المستخدم في جميع الآيات القرآنية؟.

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أنّه ورد في آخر الآية: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. وهل هناك حسنة أفضل من أن يكون الإنسان دائماً تحت راية القادة الإلهيين، يحبّهم بقلبه، ويستمر على خطهم، يطلب منهم التوضيح للقضايا المبهمة في كلام الخالق، يعتبرهم القدوة والأسوة، وسيرتهم وعملهم هو المعيار.

الروايات الواردة في تفسير هذه الآية:

الدليل الآخر على التّفسير أعلاه هو الروايات المتعددة الواردة في مصادر أهل السنّة والشيعة، والمنقولة عن الرّسول ﷺ، حيث توضّح أنّ المقصود من ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هم أهل البيت والمقرّبون وخاصّة الرّسول، وعلى سبيل المثال نذكر:

١ - ينقل (أحمد بن حنبل) في فضائل الصحابة بسنده عن سعيد بن جبير عن عامر: لمّا نزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قالوا: يا رسول الله! ومن قرابتك من هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «علي وفاطمة وابناهما عليهم السلام، وقالها ثلاثاً»[(١)].

٢ - ورد في (مستدرك الصحيحين) أنّ الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: عند استشهاد أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، وقف الحسن بن علي عليه السلام يخطب في الناس، وكان ممّا قال: إنّا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم،

(١) إحقاق الحق، ج ٣، ص ٢، كما ذكرت أيضاً هذه الرواية في تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٨٤٣، ذيل الآية مورد البحث.

فقال تبارك وتعالى لنبيّه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت[1]

٣ - ذكر (السيوطي) في (الدر المنثور) في نهاية الآية التي نبحثها عن مجاهد عن ابن عباس أنّه قال في تفسير آية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أن تحفظوني في أهل بيتي وتودّوهم بي[2].

ومن هنا يتّضح ضعف ما ينقل عن ابن عباس بطريق آخر من أنّ المقصود هو عدم إيذاء النّبي ﷺ بسبب قرابته مع القبائل العربية المختلفة.

٤ - ينقل (ابن جرير الطبري) في تفسيره بسنده عن (سعيد بن جبير) وبسند آخر عن (عمر بن شعيب) أنّ المقصود من هذه الآية هم قربى رسول الله ﷺ[3].

٥ - وينقل العلاّمة الطبرسي عن (شواهد التنزيل) للحاكم الحسكاني، الذي هو من المفسّرين والمحدثين المعروفين لأهل السنّة، عن (أبي أمامة الباهلي) أنّ رسول الإسلام ﷺ قال: «إن الله خلق الأنبياء من أشجار شتى، وأنا وعلي من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلي فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها - حتى قال - لو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام، ثمّ ألف عام، ثمّ ألف عام، حتى يصير كالشن البالي، ثمّ لم يدرك محبتنا أكبّه الله على منخريه في النّار، ثمّ تلا: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾».

والطريف في الأمر أنّ هذا الحديث اشتهر بدرجة بحيث إنّ الشاعر المعروف كميت أشار إلى ذلك في أشعاره، فقال:

وجدنا لكم في آل حاميم آية   تأوّلها منا تقيٌّ ومعربُ[4]

٦ - وينقل السيوطي أيضاً في (الدر المنثور) عن ابن جرير عن أبي الديلم: عندما تأسّر علي بن الحسين عليه السلام، وأوقفوه في بوّابة دمشق، قال رجل من أهل الشام: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم.

---

(١) مستدرك الصحيحين، ج ٣، ص ١٧٢، وقد نقل محب الدين الطبري نفس هذا الحديث في الذخائر ص ١٣٧، كما ذكر ابن حجر ذلك أيضاً في الصواعق المحرقة، ص ١٠١.

(٢) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٧، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) تفسير الطبري، ج ٢٥، ص ١٦ و١٧.

(٤) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٤٣.

قال علي بن الحسين عليه السلام: هل قرأت القرآن؟

قال: نعم

قال: هل قرأت سور حم؟

قال: لا.

قال: ألم تقرأ هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

قال: أأنتم الذين أشارت لهم هذه الآية؟

قال: بلى[1].

٧ - نقل (الزمخشري) حديثاً في «تفسير الكشاف» وقد اقتبسه أيضاً الفخر الرازي والقرطبي في تفسيرهما، حيث يوضّح هذا الحديث مقام آل محمّد وأهمّية حبّهم، فيقول:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من مات على حب آل محمّد مات شهيداً.

ألا ومن مات على حب آل محمّد مات مغفوراً له.

ألا ومن مات على حب آل محمّد مات تائباً.

ألا ومن مات على حب آل محمّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان.

ألا ومن مات على حب آل محمّد بشّره ملك الموت بالجنة ثمّ منكر ونكير.

ألا ومن مات على حب آل محمّد فتح له في قبره بابان إلى الجنّة.

ألا ومن مات على حب آل محمّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة.

ألا ومن مات على حب آل محمّد مات على السنّة والجماعة.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً.

ألا ومن مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنّة[2]

---

(١) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٧.

(٢) تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٢٢٠ و٢٢١، تفسير الفخر الرازي، ج ٢٧، ص١٦٥ و١٦٦؛ تفسير القرطبي، ج ٨، ص٥٨٤٣؛ تفسير الثعلبي، نهاية الآية التي نبحثها عن جليل بن عبد الله البجلي (وفقاً لنقل المراجعات رسالة رقم ١٩).

والطريف في الأمر أنّ (الفخر الرازي) بعد ذكر هذا الحديث الشريف الذي أرسله «صاحب الكشاف» إرسال المسلّمات، يقول: «وأنا أقول: آل محمّد هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أنّ فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أُمّته، فإن حملناه على القرابة فهم الآل وإن حملناه على الأُمّة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل، فثبت أنّ على جميع التقديرات هم الآل، وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فيه.

وروى فيه صاحب الكشاف أنّه لمّا نزلت هذه الآية قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ فقال: علي وفاطمة وابناهما. فثبت أنّ هؤلاء الأربعة أقارب النّبي، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ووجه الاستدلال به ما سبق.

الثّاني: لا شك أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحب فاطمة وقال: (فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها) وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يحب علياً والحسن والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كلّ الأُمة مثله لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١) ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾(٢) ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾(٣) ولقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٤).

الثّالث: إنّ الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله: اللهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد وارحم محمّداً وآل محمّد. وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أنّ حبّ آل محمّد واجب.

وقال الشافعي رضي الله عنه:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.
(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمّد فليشهد الثقلان أني رافضي[(١)]

نعم فهذا مقام آل محمّد الذين نتمسك بهم ونؤمن بهم كقادة لنا، وسراج لديننا ودنيانا، ونعتبرهم أُسوة وقدوة لنا، ونرى أنّ استمرار خط النبوة في إمامتهم.

وطبعاً، فإنّ هناك روايات كثيرة أُخرى غير التي ذكرناها أعلاه، في المصادر الإسلامية، وقد اكتفينا بسبع روايات مراعاة للاختصار، ولكن لا بأس من ذكر هذه الملاحظة، وهي أنّه في بعض المصادر الكلامية كإحقاق الحق وشرحه المبسوط، ورد الحديث المعروف أعلاه بشأن تفسير الآية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ منقولاً عن خمسين كتاباً تقريباً من كتب أهل السنّة، حيث يبيّن هذا الأمر مدى انتشار هذه الرواية واشتهارها، بغض النظر عن المصادر الكثيرة التي تنقل هذا الحديث عن طريق أهل البيت عليهم السلام.

بحوث

١ - كلام مع المفسر المعروف (الآلوسي)

في هذا المجال يطرح سؤال ذكره الآلوسي في تفسير روح المعاني بشكل اعتراض على الشيعة، ونحن نذكر ذلك على شكل سؤال ونقوم بمناقشته: يقول: «ومن الشيعة من أورد الآية في مقام الاستدلال على إمامة علي كرم الله تعالى وجهه قال: علي كرم الله تعالى وجهه واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الإمامة، ينتج، علي رضي الله عنه صاحب الإمامة وجعلوا الآية دليل الصغرى، ولا يخفى ما في كلامهم هذا من البحث.

أمّا أوّلاً: فلأنّ الاستدلال بالآية على الصغرى لا يتمّ إلاّ على القول بأنّ معناها لا أسألكم عليه أجراً إلاّ أن تودّوا قرابتي وتحبوا أهل بيتي، وقد ذهب الجمهور إلى المعنى الأوّل وقيل في هذا المعنى: إنّه لا يناسب شأن النبوّة لما فيه من التهمة فإنّ أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً ويسألون عليه ما يكون فيه نفعٌ لأولادهم وقراباتهم وأيضاً فيه منافاة لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[(٢)].

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٧، ص ١٦٦. (٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٤.

وأمّا ثانياً: فلأنّا لا نسلّم أنّ كلّ واجب المحبة واجب الطاعة فقد ذكر ابن بابويه في كتاب الاعتقادات أنّ الإمامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنّه لا يجب طاعة كلّ منهم.

وأمّا ثالثاً: فلأنّا لا نسلّم أنّ كلّ واجب الطاعة صاحب الإمامة أي الزّعامة الكبرى وإلاّ لكان كلّ نبي في زمنه صاحب ذلك، ونص: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾[1] يأبى ذلك.

وأمّا رابعاً: فلأنّ الآية تقتضي أن تكون الصغرى، أهل البيت واجبو الطاعة ومتى كانت هذه صغرى قياسهم، لا ينتج النتيجة التي ذكروها ولو سلّمت جميع مقدماته، بل ينتج أهل البيت صاحبو الإمامة وهم لا يقولون بعمومه...[2].

تحليل ومناقشة

يمكن توضيح جواب العديد من هذه الإشكالات إذا راجعنا تصوّرنا لهذه الآية - التي نبحثها - وفقاً للقرائن المتعددة القوية الموجودة في نفس هذه الآية، وسائر الآيات القرآنية الأُخرى:

قلنا: إنّ هذه المحبّة ليست أمراً عادياً، بل هي جزاءً للنبوّة وأجراً للرسالة، ولابد أن يكون الأجر والثمن مساوياً للمثمن، حتى يمكن اعتباره جزاءً له.

من جانب ثان فإنّ الآيات القرآنية تؤكّد أنّ نفع هذه المحبة ليس شيئاً يعود إلى النّبي ﷺ، بل إنّ حاصل ذلك يعود إلى المؤمنين أنفسهم، أو بعبارة أُخرى يعتبر أمراً معنوياً يؤثّر في هداية المسلمين وتكاملهم.

وبهذا الترتيب فبالرغم من أنّه لا يستفاد من الآية سوى وجوب المحبة، إلاّ أنّ وجوب المحبة هذه - بمراعاة القرائن المذكورة - لها علاقة بقضية الإمامة التي تعتبر السند لمقام النبوة والرسالة.

ومع هذا التوضيح المختصر سنقوم ببحث الإشكالات أعلاه:

١ - يجب القول أنّ بعض الترسّبات الذهنية واتخاذ المواقف المسبقة كانت سبباً لعدم تفسير بعض المفسّرين للآية بمودة أهل البيت، فمثلاً فسّر بعضهم ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بمعنى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٢) تفسير روح المعاني ج٢٥، ص ٢٨، ذيل الآية مورد البحث.

(التقرّب من الخالق) في حين أنّها وردت بمعنى الأقرباء في جميع الآيات القرآنية التي تحتوي على هذه الكلمة.

أو أنّ البعض فسّر ذلك بمعنى قرابة النّبي مع سائر القبائل العربية، في حين أنّ هذا التّفسير يخلّ بنظام الآية بشكل كامل، فأجر الرسالة يطلب من الذين قبلوا تلك الرسالة، فهل توجد حاجة للاهتمام بالقرابة وغض النظر عن الأذى لمن آمن برسالة الرّسول ﷺ؟

إضافة إلى ذلك، لماذا نترك الرّوايات المتعددة التي تفسّر الآية بولاية أهل بيت النّبي؟

لذا يجب الاعتراف بأنّ هذه المجموعة من المفسّرين لم يفسّروا الآية بأذهان خالية من المواقف المسبقة، وإلاّ فإنّه لا يوجد موضوع معقد ضمنها.

ومن هنا يتوضّح أنّ طلب مثل هذا الأجر لا يتعارض، لا مع منزلة النبوة، ولايشبه تقاليد أصحاب الدنيا، ويتناسق بشكل كامل مع الآية (١٠٤) من سورة يوسف التي تنفي أيّ نوع من الأجر، لأنّ أجر مودة أهل البيت - في الحقيقة - لا يستفيد منه النّبي، بل إنّ المسلمين هم الذين يستفيدون منه.

٢ - صحيح أنّ وجوب المحبة العادية لا تكون دليلاً أبداً على وجوب الطاعة، لكن عندما تكون هذه المحبة بمستوى الرسالة، عندها سنتيقن بأنّها تشمل وجوب الطاعة، ومن هنا يتّضح أنّ قول ابن بابويه (الشيخ الصدوق) لا يتعارض مع ما قلناه.

٣ - صحيح أنّ أيّ طاعة واجبة لاتكون دليلاً على منزلة الإمامة والزعامة الكبرى، ولكن يجب الانتباه إلى أنّ وجوب الطاعة التي هي أجر للرسالة بما يناسب مقامها لا يمكن أن تكون شيئاً سوى الإمامة.

٤ - الإمام - بمعنى القائد - لا يمكن أن يكون أكثر من واحد في أيّ عصر، وبناء على ذلك فإنّه لا يوجد أيّ معنى لإمامة أئمّة أهل البيت عليهم السلام جميعهم، إضافةً لذلك يجب الاستفادة من دور الروايات في هذا المجال لفهم معنى الآية.

والملفت للنظر أنّ الآلوسي نفسه يهتم كثيراً بمودة أهل البيت، ويقول في بضعة سطور قبل هذا البحث:

«والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث إنّهم قرابته... وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودّة أشدّ... وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام

والقيام بأداء الحقوق أتمّ قيام وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدّوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك. وأنا أقول قول الشافعي الشافي:

يا راكباً قف بالمحصّب من منى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمّد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

ومع هذا لا أعتقد الخروج عما يعتقده أكابر أهل السنّة في الصحابة رضي الله تعالى عنهم ديناً، وأرى حبّهم فرضاً عليّ مبيناً، فقد أوجبه الشارع وقامت على ذلك البراهين السواطع»(١).

٢ - سفينة النجاة

ذكر الفخر الرازي في نهاية هذا البحث ملاحظة، كما ذكرها الآلوسي أيضاً في روح المعاني بعنوان: (ملاحظة لطيفة) وذلك نقلاً عن الفخر الرازي، حيث يعتقد أنّ بعض التناقضات ستزول من خلال هذه الملاحظة، وهي: إنّ الرّسول الأكرم قال من جانب: «مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجى» ومن جانب آخر قال: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

فنحن الآن تائهون في بحر التكاليف، وأمواج الشبهات، والشهوات تعصف بنا من كلّ جانب، ومن يريد أن يعبر هذا البحر يحتاج إلى شيئين:

الأوّل: السفينة الخالية من أيّ عيب أو نقص.

والثّاني: النجوم المتلألئة التي توضّح الطريق.

فعندما يركب الإنسان في السفينة وتراقب عيناه النجوم الوضّاءة، عندها سيكون هناك أمل بالنجاة، وبالمثل فأيّ واحد من أبناء السنّة عندما يركب في سفينة حب آل محمّد وينظر إلى الأصحاب (النجوم) عندها سيكون هناك أمل بأن يوصله الخالق جلّ وعلا إلى السعادة والسلامة في الدنيا والآخرة(٢).

وكلنا نقول إنّ هذا التشبيه الشاعري ليس دقيقاً بالرغم من جماله، لأنّ سفينة نوح كانت مركب النجاة في ذلك اليوم، عندما غطّت الأمواج العاصفة والمياه كل العالم،

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ٢٨، ذيل الآية مورد البحث الآية.
(٢) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٧، ص١٦٧.

وكانت في حركة دائبة، وليست مثل السفن العادية التي لها مرفأ تتجه إليه مقتدية بالنجوم.

لقد كان الهدف السفينة نفسها، والنجاة من الغرق، حتى غاض الماء واستوت على الجودي.

إضافة إلى ذلك فإنّ بعض الرّوايات الواردة في كتب أهل السنّة تنقل عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأُمّتي من الاختلاف في الدين»(١).

٣ - تفسير ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً...﴾

«اقترف» في جملة: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ مأخوذة في الأصل من (قرف) على وزن (حرف) وتعني قطع القشرة الإضافية من الشجرة، أو من الجروح الحاصلة، حيث تكون أحياناً علامة على شفاء الجرح وتحسّنه، هذه الكلمة استخدمت فيما بعد في الاكتساب سواء كان حسناً أم سيئاً.

ولكن كما يقول الراغب، فإنّ هذا المصطلح استخدم في السيئات أكثر ممّا هو في الحسنات (بالرغم من أنّ الآية التي نبحثها استخدمته في الحسنات). لذلك فإنّ هناك مثلاً معروفاً يقول: الاعتراف يزيل الاقتراف.

والطريف في الأمر أنّ بعض التفاسير تنقل عن ابن عباس و(السدي) أنّ المقصود من (اقتراف الحسنة) في الآية الشريفة هو مودة آل محمّد(٢).

وجاء في حديث ذكرناه سابقاً عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «اقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت».

وواضح أنّ المقصود من هذه التفاسير أنّ معنى اكتساب الحسنة لا يتحدد بمودّة أهل البيت عليهم السلام، بل له معنى أوسع وأشمل ولكن بما أنّ هذه الجملة وردت بعد قضية مودّة ذي القربى، لذا فإنّ أوضح مصداق لاكتساب الحسنة هو هذه المودّة(٣).

(١) نقل (الحاكم) هذا الحديث عن ابن عباس في ج ٣ (المستدرك) ص١٤٩، ثمّ يقول: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٤٤، ذيل الآيات مورد البحث، وتفسير الصافي والقرطبي.

(٣) المصدر السابق.

٤ - مكان نزول هذه الآيات

هذه السورة (سورة الشورى) من السور المكّية، كما قلنا في البداية، إلاّ أنّ بعض المفسّرين يعتقدون أنّ هذه الآيات الأربع (٢٣ - ٢٦) نزلت في المدينة، وسبب النّزول الذي ذكرناه في بداية تفسير هذه الآيات يشهد على هذا المعنى.

وأيضاً فإنّ الرّوايات التي تفسّر أهل البيت بعلي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين عليهم السلام تناسب هذا المعنى، لأنّنا نعلم أنّ زواج علي من سيدة النساء عليها السلام تمّ في المدينة، وولادة الحسن والحسين عليهما السلام كانتا في العام الثّالث والرابع الهجري على ما رواه المؤرخون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

يقبل التوبة عن عباده

هذه الآيات تعتبر استمراراً للآيات السابقة في موضوع الرسالة وأجرها، ومودّة ذوي القربى وأهل البيت عليهم السلام.

فأوّل آية تقول: إنّ هؤلاء القوم لا يقبلون الوحي الإلهي، بل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وهذا الاعتقاد وليد أفكارهم حيث ينسبونه إلى الخالق.

في حين: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ ويجرّدك من قابلية إظهار هذه الآيات.

وفي الحقيقة، فإنّ هذا الأمر إشارة إلى الاستدلال المنطقي المعروف، وهو أنّه إذا ادعى شخص النبوة، وجاء بالآيات البينات والمعاجز، وشمله النصر الإلهي، فلو كذب على الخالق فإنّ الحكمة الإلهيّة تقتضي سحب المعاجز منه وفضحه وعدم حمايته، كما ورد في الآيات (٤٤) إلى (٤٦) من سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وقد ذكر بعض المفسّرين احتمالات أُخرى في تفسير هذه الجملة، إلاّ أنّ ما قلناه أعلاه هو أفضل وأوضح التفاسير كما يظهر.

ونلاحظ أيضاً أنّ إحدى التهم التي نسبها الكفار والمشركون إلى الرّسول ﷺ هي أنّه يعتبر أجر الرسالة في مودّة أهل بيته وأنّه يكذب على الخالق في هذا الأمر: (جاء ذلك وفقاً للبحث في الآيات السابقة) إلاّ أنّ الآية أعلاه نفت هذه التهمة عنه ﷺ.

ولكن بالرغم من هذا، فإنّ مفهوم الآية لا يختص بهذا المعنى، فأعداء الرّسول كانوا يتهمونه بهذه التهمة في كلّ القرآن والوحي كما تقول الآيات القرآنية الأُخرى، حيث نقرأ في الآية (٣٨) من سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

وورد نفس هذا المعنى باختلاف بسيط في الآيتين (١٣) و(٣٥) من سورة هود، وقسم آخر من الآيات القرآنية، حيث إنّ هذه الآيات دليل لما انتخبناه من تفسير للآية أعلاه.

ثم تقول الآية لتأكيد هذا الموضوع: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾(١).

فهذه هي مسؤولية الخالق في توضيح الحق وفضح الباطل وفقاً لحكمته، وإلاّ فكيف يسمح لشخص بالكذب عليه وفي نفس الوقت ينصره ويظهر على يديه المعاجز؟

كما أنّ من الأخطاء الكبيرة أن يتصور بعض المشركين قيام الرّسول ﷺ بهذا العمل مُخفياً ذلك عن علم الخالق: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وكما قلنا في تفسير الآية (٣٨) من سورة فاطر، فإنّ (ذات) لا تعني في اللغة العربية عين الأشياء وحقيقتها، بل هو مصطلح من قبل الفلاسفة(٢)، حيث إنّ ذات تعني، (الصاحب)، عندها سيكون مفهوم جملة: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنّ الخالق عليم بالأفكار والعقائد المسيطرة على القلوب، وكأنّما هي صاحبة هذا القلب ومالكته.

وهذه إشارة لطيفة إلى استقرار الأفكار وحاكميتها على قلوب وأرواح الناس (فدقق في ذلك).

وبما أنّ الخالق يبقي طريق الرجعة مفتوحاً أمام العباد، لذا فإنّ الآيات القرآنية بعد

---

(١) لاحظوا أنّ «يمح» هي في الأصل كانت (يمحو) حيث سقطت الواو لأنّ الرسم القرآني - عادة - هكذا، مثل ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، إلاّ أنّه وفقاً للرسم الحديث فإنّ الواو تذكر في جميع هذه الكلمات، إلاّ أنّها تحذف في القرآن غالباً.

(٢) راجع مفردات الراغب.

ذم أعمال المشركين والمذنبين القبيحة تشير إلى أنّ أبواب التوبة مفتوحة دائماً، ولذا تقول الآية محل البحث: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

إلاّ أنّكم إذا تظاهرتم بالتوبة وأخفيتم أعمالاً أُخرى، فلا تتصوروا أنّ ذلك يخفى عن علم الخالق، لأنّه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقلنا في سبب النّزول الذي ذكرناه في بداية الآيات السابقة، أنّه بعد نزول آية المودّة، قال بعض المنافقين وضعفاء الإيمان: إنّ هذا الكلام افتراه محمّد على الخالق، ويريد به أن يذلّنا بعده لأقربائه، عندها نزلت آية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ردّاً عليهم، وعندما علموا بنزول هذه الآية ندم بعضهم وبكى وبات قلق البال، في ذلك الوقت نزلت الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ . . .﴾ وبشّرتهم بغفران الذنب إذا تابوا إلى الله توبةً نصوحاً.

أمّا آخر آية فتوضّح الجزاء العظيم للمؤمنين، والعذاب الأليم للكافرين في جمل قصيرة فتقول: إنّ الله تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين وطلباتهم: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. بل: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ وسوف يعطيهم ما لم يطلبوا: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وتقدم ذكر تفاسير مختلفة للأمر الذي سيستجيبه للمؤمنين، حيث حدّد بعض المفسّرين ذلك في طلبات معيّنة، منها:

أنّه سيستجيب دعاء المؤمنين أحدهم للآخر.

ومنها أنّه سيقبل عباداتهم وطاعاتهم.

ومنها أنّ ذلك مختص بشفاعتهم لإخوانهم.

ولكن لا يوجد أيّ دليل على هذا التحديد، حيث إنّ الخالق سيستجيب لأيّ طلب للمؤمنين الذين يعملون الصالحات والأكثر من ذلك فإنّه سيهبهم من فضله أُموراً قد لا تخطر على بالهم ولم يطلبوها، وهذا غاية اللطف والرحمة الإلهيّة بخصوص المؤمنين.

وورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: «الشفاعة لمن وجبت له النّار ممن أحسن إليهم في الدنيا»(١).

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٤٦، ذيل الآيات مورد البحث.

ولا يعني هذا الحديث العظيم في معناه اقتصار الفضل الإلهي بهذا الأمر فحسب، بل يعتبر أحد مصاديقه الواضحة.

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

سبب النّزول

نقل عن الصحابي المعروف (خباب بن الأرت) أنّ الآية الأولى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ...﴾ نزلت فينا، وذلك بسبب أنّنا كنّا ننظر إلى الأموال الكثيرة لبني قريظة وبني النضير وبني القينقاع من اليهود، وكنّا نرغب بامتلاكنا لمثل هذه الأموال، إلاّ أنّ هذه الآية نزلت وحذّرتنا من أنّ الخالق لو بسط لنا في الرزق فسوف نطغى[1].

وفي تفسير (الدر المنثور) ورد حديث آخر، وهو أنّ هذه الآية نزلت في أهل الصُّفّة، لأنّهم كانوا يأملون بتحسّن وضع دنياهم[2].

وهناك تفصيل في نهاية الآيات بخصوص أصحاب الصفّة ومن هم؟

التّفسير

المترفون الباغون

قد يكون ارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة بلحاظ ما ورد في آخر آية من الآيات السابقة من أنّ الخالق يستجيب دعوة المؤمنين، وفي أعقاب ذلك يطرح هذا السؤال:

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٢٧، ص ١٧١، تفسير أبي الفتوح الرازي، وتفسير القرطبي (نهاية الآية التي نبحثها).

(٢) ينقل تفسير الدرّ المنثور هذا الحديث عن الحاكم والبيهقي وأبي نعيم (ج ٦، ص ٨).

لماذا نرى البعض منهم فقراء، ولا ينالون ما يرغبونه مهما يدعون؟ تقول الآية: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾.

وبهذا الترتيب فإنّ تقسيم الأرزاق يقوم على حساب دقيق من قبل الخالق تجاه عباده، وهذا يحدث بسبب: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

فهو يعلم بمقدار استيعاب أيّ شخص فيعطيه الرزق وفقاً لمصلحته، فلا يعطيه كثيراً ليطغى، ولا قليلاً فيعيش الضنك من الفقر.

وجاء ما يشبه هذا المعنى في الآيتين (٦) و(٧) من سورة العلق: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾.

وهو حقّاً كذلك، فالبحث في أحوال الناس يدل على هذه الحقيقة الصادقة، وأنّه عندما تقبل الدنيا عليهم ويعيشون في رفاهية وسعة، ينسون الخالق ويبتعدون عنه ويغرقون في بحر الشهوات، ويفعلون ما لا ينبغي فعله، ويشيعون الظلم والجور والفساد في الأرض.

وفي تفسير آخر عن (ابن عباس) في هذه الآية ورد أنّ المقصود من (البغي) ليس الظلم والجور، وإنّما (بغى) تعني(طلب) أي يكون معنى الآية أنّهم يطلبون أكثر ولا يشبعون.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل مقبول من قبل عدّة مفسّرين وهو الأفضل كما يظهر، لأنّ عبارة: ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وردت عدّة مرّات في الآيات القرآنية بمعنى الفساد والظلم في الأرض، مثل: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(١) و﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(٢).

صحيح أنّ (بغى) وردت بمعنى (طلب) أيضاً، إلاّ أنّها متى ما تذكر مع كلمة ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فإنّها تعني الفساد والظلم في الأرض.

وهنا يطرح سؤالان:

الأوّل: لو كان تقسيم الأرزاق وفق هذا البرنامج، فلماذا إذن نرى أشخاصاً لهم رزق وفير وقد أفسدوا وطغوا كثيراً في الدنيا ولم يمنعهم الخالق، سواء على مستوى الأفراد، أو الدول الناهبة والظالمة؟

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الشورى الآية: ٤٢.

وفي الجواب على هذا السؤال يجب الانتباه إلى هذه الملاحظة، وهي أنّ بسط الرزق أحياناً قد يكون أسلوباً للامتحان والاختبار، لأنّ جميع الناس يجب أن يُختبروا في هذا العالم، فقسم منهم يختبرون بواسطة المال.

وأحياناً قد يكون بسط الرزق لبعض الأفراد لكي يعلموا بأنّ الثروة لا تجلب السعادة، فعسى أن يعثروا على الطريق ويرجعوا إلى خالقهم، ونحن الآن نرى بعض المجتمعات غرقى بأنواع النعم والثروات، وفي نفس الوقت شملتهم مختلف المصائب والمشاكل، كالخوف، والقتل، والتلوّث الخلقي، والقلق بأنواعه المختلفة.

فأحياناً تكون الثروة غير المحدودة نوعاً من العقاب الإلهي الذي يشمل بعض الناس، فإذا نظرنا إلى حياتهم من بعيد نراها جميلة، أمّا إذا تفحصناها عن قرب فسوف نشاهد التعاسة بأدنى حالاتها!، وفي هذا المجال هناك قصص عديدة لسلاطين الثروة في الدنيا، حيث يطول بنا المقام لو أردنا سردها.

السؤال الآخر هو: ألا يعني هذا الكلام أنّه متى ما كان الإنسان فقيراً فلا ينبغي له السعي للتوسع في الرزق، لأنّ الخالق جعل مصلحته في هذا الفقر؟

وللجواب على هذا السؤال نقول: إنّه قد تكون قلّة الرزق بسبب كسل الإنسان وتهاونه أحياناً، فهذا النقص والحرمان ليس ما يريده الله حتماً، بل بسبب أعماله، والإسلام يدعو الجميع إلى الجهد والجهاد والمثابرة وفقاً لتأكيده على أصل السعي وبذل الجهد الذي يشير إليه القرآن في آيات عديدة، وسنّة الرّسول ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام.

ولكن عندما يبذل الإنسان منتهى جهده، ورغم ذلك تغلق الأبواب في وجهه، عليه أن يعلم بأنّ هناك مصلحة معيّنة في هذا الأمر، فلا يجزع، ولا ييأس، ولا ينطق بالكفر، ويستمر في محاولاته ويستسلم لرضا الخالق أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى هذه الملاحظة وهي أنّ كلمة (عباده) لا تتعارض أبداً مع الطغيان عند بسط الرزق، لأنّ هذه العبارة تستخدم في الأفراد الصالحين والسيئين والمتوسطي الحال، مثل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[1].

صحيح أنّ الخالق ينزل الرزق بقدر حتى لا يطغى العباد، إلاّ أنّه لا يمنعهم أو

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

يحرمهم، لذا فإنّ الآية التي بعدها تقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

ولماذا لا يكون هذا: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾؟

هذه الآية تتحدّث عن آيات وعلائم التوحيد في نفس الوقت الذي تبيّن فيه نعمة ولطف الخالق، لأنّ نزول المطر يشتمل على نظام دقيق للغاية ومحسوب، فعندما تشرق الشمس على المحيطات تفصل ذرات الماء الدقيقة عن الأملاح وترسلها على شكل سحب إلى السماء، ثمّ تقوم طبقات الجّو العليا الباردة بتكثيفها، ثمّ تحملها الرياح إلى الأراضي اليابسة، ثمّ تتحول أخيراً إلى قطرات مطر بسبب برودة الهواء وضغطه الخاص وتهطل على الأرض، وتنفذ فيها دون تخريب.

نعم، فلو دققنا النظر في هذا النظام، فسنجد علائم قدرة الخالق وعلمه متجلية فيه، فهو الولي الحميد الذي يقوم بتأمين كلّ حاجات العباد وتشملهم ألطافه العديدة.

ولابدّ من القول أنّ كلمة (غيث) تعني المطر النافع، كما يقول العديد من المفسّرين وبعض علماء اللغة، في حين أنّ (المطر) يطلق على جميع الأنواع الأُخرى النافعة والضارة.

لذا، فبعد تلك الجملة وردت عبارة: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

يا له من تعبير لطيف وشامل! فهو ينشر رحمته لإحياء الأراضي الميتة، ونمو النباتات وتنظيف الهواء، وتأمين ماء الشرب للإنسان وباقي الكائنات الحية، والخلاصة في جميع المجالات.

فلو أراد الإنسان أن يدرك مفهوم هذه الجملة القرآنية، فإنّ عليه أن يتوجه نحو الجبال والسهول بعد نزول المطر وعندما تشرق الشمس، كي يشاهد الجمال واللطافة ورحمة الخالق الواسعة وهي تعمر كلّ مكان.

وقد تكون الاستفادة من كلمة (غيث) بسبب أنّ لها جذوراً مشتركة مع (غوث) المأخوذة من الإغاثة، ولهذا السبب فإنّ بعض المفسّرين اعتبر الكلمة أعلاه إشارة إلى أيّ إغاثة من قبل الخالق بعد اليأس ونشر رحمته(١).

ولهذه المناسبة - أيضاً - فإنّ الآية التي بعدها تتحدّث عن أهم آيات علم وقدرة

(١) يقول الراغب في مفرداته: الغوث يقال في النصرة، والغيث في المطر.

الخالق، حيث تقول: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

فالسماوات بعظمتها، بمجرّاتها وكواكبها، بملايين الملايين من النجوم العظيمة اللامعة، بنظامها الدقيق الذي يبهت الإنسان عند مطالعته لها، والأرض بمنابعها الحياتية ونباتاتها المتنوعة والورود والفواكه بمختلف البركات والمواهب والجمال! كلها تعتبر آيات وعلائم تدل عليه... هذا من جانب.

ومن جانب آخر فالأحياء في الأرض والسماء، كأنواع الطيور، ومئات الآلاف من الحشرات، وأنواع الحيوانات الأليفة والمتوحشة، والزواحف، والأسماك بأنواعها وأحجامها، والعجائب المختلفة الموجودة في كلّ نوع من هذه الأنواع، والأهم من ذلك حقيقة (الحياة) وأسرارها التي لم يستطع أحد التوصل إلى كنهها بعد آلاف السنين من البحوث لملايين العلماء، كلّ ذلك هو من آيات الخالق.

والملفت للنظر أنّ ﴿دَآبَّةٍ﴾ تشمل الكائنات الحية المجهرية التي لها حركات لطيفة وعجيبة، وتشمل الحيوانات الكبيرة العملاقة التي يصل طولها إلى عشرات الأمتار ووزنها إلى عشرات الأطنان، فكل صنف يسبّح على طريقته الخاصّة ويحمد الخالق، ويبيّن عظمته تعالى وقدرته وعلمه اللامحدود، بلسان حاله.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾(١).

أمّا ما هو المقصود من جمع الأحياء الذي تذكره هذه الآية؟ فقد ذكر العديد من المفسّرين أنّه الجمع للحساب وجزاء الأعمال في القيامة، ويمكن اعتبار الآيات التي تذكر القيامة بعنوان (يوم الجمع) دليلاً على هذا المعنى (مثل الآية ٧ من نفس هذه السورة والآية ٩ من سورة التغابن).

وهنا قد يطرح هذا السؤال وهو: هل أنّ جميع الأحياء سيحشرون يوم القيامة، حتى غير الإنسان؟ حيث يقال أحياناً أنّ كلمة ﴿دَآبَّةٍ﴾ تطلق على غير الإنسان، وهنا ستُطرح هذه المشكلة وهي كيف ستحشر الأحياء من غير الإنسان للحساب، في حين أنّها لا تتمتع بعقل ولا اختيار ولا تكليف؟

وقد ورد جواب هذا السؤال في نهاية الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي

---

(١) (إذا) وكما يقول صاحب الكشاف، تدخل على الفعل المضارع كما تدخل على الفعل الماضي، مثل ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ولكن الفعل أكثر ما يكون بعد (إذا) على شكل الماضي وقليل جداً على المضارع.

الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

وقلنا أنّ حياة العديد من الحيوانات مقترنة مع نظام بديع وعجيب، فما المانع من أن تكون أعمالها نتاج نوع من العقل والشعور فيها؟ وهل هناك ضرورة لإرجاع جميع هذه الأمور إلى الغريزة؟ وفي هذه الحالة يمكن تصوّر نوع من الحشر والحساب لها (اقرأ شرحاً أكثر لهذا الموضوع في ذيل تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام).

ويحتمل في تفسير الآية أعلاه أنّ المقصود من (الجمع) الجانب المقابل لـ (بث)، أي أنّ (بث) تشير إلى خلق أنواع الكائنات الحية باختلافها، ثمّ إذا شاء الخالق (جمعها) وأفناها. فكما أنّ العديد من الأحياء - (على مدى التاريخ) - انتشرت بشكل عجيب، ثمّ انقرضت واختفت فيما بعد، كذلك جمعها وإبادتها يكون بيد الخالق، فهي في الحقيقة تشبه الآيات التي تقول: يحيي ويميت (أي الخالق).

وبهذا فإنّ قضية حساب الحيوانات سوف تكون أجنبية عن هذه الآية.

النجوم السماوية الآهلة

من الاستنتاجات المهمّة التي نستنتجها من خلال هذه الآية، أنّها تدل على وجود مختلف الأحياء في السماوات، وبالرغم من عدم صدور الرأي النهائي للعلماء بهذا الخصوص، إلاّ أنّهم يقولون وعلى نحو الإيجاز: هناك احتمال قوي بوجود عدد كبير من النجوم من بين الكواكب السماوية تحتوي على كائنات حية، إلاّ أنّ القرآن يصرّح بهذه الحقيقة من خلال: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وما يقوله بعض المفسّرين من احتمال اختصاص ﴿فِيهِمَا﴾ بالكرة الأرضية غير سديد، لوجود ضمير المثنى والذي يعود إلى السماء والأرض معاً، وكذلك لا يصح ما قيل في تفسير ﴿دَآبَّةٍ﴾ بالملائكة، لأنّ دابة تطلق عادة على الأحياء المادية.

ويمكن استفادة هذا المعنى أيضاً من خلال الآيات القرآنية المتعددة الأُخرى.

وفي حديث ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور»[1].

---

(١) سفينة البحار، كلمة نجم، ج ٢، ص ٥٧٤، نقلاً عن تفسير علي بن إبراهيم القمي، وبحار الأنوار، ج٥٥، ص ٩١.

وهناك روايات أُخرى متعددة في هذا المجال (يمكن مراجعة كتاب «الهيئة والإسلام» لمزيد من المعلومات).

وبما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الرحمة الإلهيّة، لذا يُطرح سؤال في هذا المجال، وهو كيف تجتمع الرحمة وكل هذه المصائب التى تصيبنا؟

الآية الأُخرى تجيب على هذا السؤال وتقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

ثم إنّ هذا الجزاء ليس جزاءً على جميع أعمالكم القبيحة، لأنّه ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾.

ملاحظات

علّة المصائب

ومن الضروري الانتباه إلى بعض الملاحظات الواردة في هذه الآية:

١ - تبيّن هذه الآية وبوضوح أنّ المصائب التي تصيب الإنسان هي نوع من التحذير والعقاب الإلهي (بالرغم من وجود بعض الاستثناءات التي سنشير إليها فيما بعد).

وبهذا الترتيب سيتوضح لنا جانب من فلسفة الحوادث المؤلمة والمشاكل الحياتية.

والطريف في الأمر أنّنا نقرأ في حديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه نقل عن الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «خير آية في كتاب الله هذه الآية، يا علي ما من خدش عود، ولا نكبة قدم إلّا بذنب، وما عفى الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده»[١].

وهكذا فإنّ هذه المصائب إضافة إلى أنّها تقلّل من حمل الإنسان، فإنّها تجعله يتّزن في المستقبل.

٢ - بالرغم من عمومية الآية وشمولها كلّ المصائب، لكن توجد استثناءات لكل عام، مثل المصائب والمشاكل التي أصابت الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام بهدف الاختبار أو رفع مقامهم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص٤٧ ذيل الآيات مورد البحث، وقد ورد ما يشبه هذا الحديث في (الدر المنثور) وتفسير (روح المعاني) مع بعض الاختلاف وذلك في نهاية الآيات التي نبحثها، والأحاديث في هذا المجال كثيرة.

وأيضاً المصائب بهدف الاختبار التي تشمل غير المعصومين. أو المصائب التي تحدث بسبب الجهل أو عدم الدقة في الأمور وعدم الاستشارة والتساهل والتي هي آثار تكوينية لأعمال الإنسان نفسه.

وبعبارة أُخرى فإنّ الجمع بين الآيات القرآنية المختلفة - والأحاديث - يقتضي التخصيص في بعض الموارد بالنسبة لهذه الآية العامة، وليس هذا موضوعاً جديداً ليكون محل نقاش بعض المفسّرين.

وخلاصة القول فإنّ هناك غايات مختلفة للمصائب والمشاكل التي تصيب الإنسان، تمّت الإشارة إليها في المواضيع التوحيدية وبحوث العدل الإلهي.

فالملكات تنمو وتتكامل تحت ضغط المصائب، ويكون هناك حذر بالنسبة للمستقبل، ويقظة من الغرور والغفلة وكفارة للذنب و...

وبما أنّ أغلب أعمال الأفراد لها طبيعة جزائية وتكفيرية، لذا فإنّ الآية تطرح ذلك بشكل عام.

ولذا فقد ورد في الحديث أنّه عندما دخل علي بن الحسين عليه السلام على يزيد بن معاوية، نظر إليه يزيد وقال: يا علي، ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم (إشارة إلى أنّ مأساة كربلاء هي نتيجة أعمالكم).

إلاّ أنّ الإمام عليه السلام أجابه مباشرة: «كلاّ ما نزلت هذه فينا، إنّما نزل فينا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴿٢٣﴾﴾[1] فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا من أمر الدنيا، ولا نفرح بما أوتينا»[2]..

وننهي هذا الكلام بحديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فعندما سئل عن تفسير الآية أعلاه وأنّ علياً وأهل بيته قد أُصيبوا بالمصائب من بعده، فهل كان ذلك بسبب أعمالهم؟ في حين أنّهم أهل بيت الطهر، والعصمة من الذنب، فقال: «إنّ رسول الله كان يتوب إلى الله ويستغفر في كلّ يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب، إنّ الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب»[3].

(١) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.
(٢) تفسير علي بن إبراهيم، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٨٠.
(٣) أصول الكافي طبقاً لنور الثقلين، ج ٤، ص ٥٨١.

٣ - البعض يشكك في أن يكون المقصود من المصائب في هذه الآية مصائب الدنيا، لأنّ الدنيا هي دار العمل وليس دار الثواب والجزاء.

وهذا خطأ كبير، لوجود آيات وروايات متعددة تؤكّد أنّ الإنسان يرى - أحياناً - جانباً من نتيجة أعماله في هذه الدنيا، وما يقال من أنّ الدنيا ليست داراً للجزاء ولا تتم فيها تصفية جميع الحسابات، لا يعني عدم الجزاء بشكل مطلق، حيث إنّ إنكار هذه الحقيقة يشبه إنكار البديهيات، كما يقول المطّلعون على المفاهيم الإسلامية.

٤ - أحياناً قد تكون المصائب جماعية، وبسبب ذنوب الجماعة، كما نقرأ في الآية (٤١) من سورة الروم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وواضح أنّ هذا يختص بالمجتمعات الإنسانية التي أُصيبت بالمصائب بسبب أعمالها.

وورد في الآية (١١) من سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وهذه الآيات تدل على وجود ارتباط وعلاقة قريبة بين أعمال الإنسان والنظام التكويني للحياة، فإذا سار الناس وفقاً لأُصول الفطرة وقوانين الخلق فستشملهم البركات الإلهيّة، وعند فسادهم يفسدون حياتهم.

وأحياناً قد يصدق هذا الأمر بخصوص آحاد الناس، فكل إنسان سيصاب في جسمه وروحه أو أمواله ومتعلقاته الأُخرى بسبب الذنب الذي يرتكبه، كما جاء في الآية أعلاه[1].

على أيّة حال، فقد يتصوّر البعض أنّهم يستطيعون الهروب من هذا القانون الإلهي الحتمي، لذا فإنّ آخر آية في هذا البحث تقول: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]. وفي السماء بطريق أولى وكيف تستطيعون الهروب من قدرته وحاكميته في حين أنّ كلّ عالم الوجود هو في قبضته ولا منازع له؟

---

(١) تفسير الميزان، ج ١٨، ص٦١.

(٢) «معجزين» من كلمة (إعجاز) إلاّ أنّها وردت في العديد من الآيات القرآنية بمعنى الهروب من محيط القدرة الإلهيّة ومن عذابه، حيث يقتضي معناها ذلك.

وإذا كنتم تعتقدون بوجود من سيساعدكم وينصركم، فاعلموا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

قد يكون الفرق بين (الولي) و(النصير) هو أنّ الولي هو الذي يقوم بجلب المنفعة، والنصير هو الذي يقوم بدفع الضرر، أو أنّ الولي يقال لمن يدافع بشكل مستقل، والنصير يقال لمن يقف إلى جانب الإنسان ويقوم بنصرته.

وفي الحقيقة فإنّ آخر آية تجسّد ضعف وعجز الإنسان، والآية التي قبلها عدالة الخالق ورحمته(١).

مسائل مهمّة

الأولى: مصائبكم بما كسبت أيديكم

يتصور العديد من الناس أنّ علاقة أعمال الإنسان بالجزاء الإلهي مثل العقود الدنيوية وما تحتويه من الأجر والعقاب، في حين قلنا - مراراً - إنّ هذه العلاقة أقرب ما تكون إلى الارتباط التكويني منه إلى الارتباط التشريعي.

وبعبارة أُخرى فإنّ الأجر والعقاب أكثر ما يكون بسبب النتيجة الطبيعية والتكوينية لأعمال الإنسان حيث يشملهم ذلك. والآيات أعلاه خير شاهد على هذه الحقيقة.

وبهذا الخصوص هناك روايات كثيرة في المصادر الإسلامية نشير إلى بعضها لتكميل الموضوع:

١ - ورد في إحدى خطب نهج البلاغة: «ماكان قوم قط في غض نعمة من عيش، فزال عنهم إلاّ بذنوب اجترحوها، لأن الله ليس بظلام للعبيد، ولو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم، وتزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربّهم بصدق من نيّاتهم، ووله من قلوبهم، لردّ عليهم كلّ شارد، وأصلح لهم كلّ فاسد»(٢).

٢ - وهناك حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في (جامع الأخبار) حيث يقول: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»(٣).

وهذا الحديث خير شاهد للاستثناءات التي ذكرناها لهذه الآية.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٢٩٠. (٢) نهج البلاغة - الخطبة ١٧٨.
(٣) بحار الأنوار، ج ٨١، ص١٩٨.

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في الكافي أنّه قال: «إنّ العبد إذا كثرت ذنوبه، ولم يكن عنده من العمل ما يكفرها، ابتلاه بالحزن ليكفرها»[١].

٤ - وهناك باب خاص لهذا الموضوع في كتاب أُصول الكافي يشمل (١٢) حديثاً[٢].

وكل هذه هي غير الذنوب التي صرّحت الآية أعلاه بأنّ الخالق سيشملها بعفوه ورحمته، حيث إنّها - بحدّ ذاتها - كثيرة.

الثانية: اشتباه كبير

قد يستنتج البعض بشكل خاطىء من هذه الحقيقة القرآنية ويقول بوجوب الاستسلام لأيّ حادثة مؤسفة، إلاّ أنّ هذا الأمر خطير للغاية، لأنّه يستفيد من هذا الأصل القرآني التربوي بشكل معكوس ويستنتج نتيجة تخديرية.

فالقرآن لا يقول أبداً بالاستسلام حيال المصائب وعدم السعي لحلّ المشاكل، والركون للظلم والجور والمرض، بل يقول: إذا شملتك المصائب بالرغم من سعيك ومحاولاتك لدفعها، فاعلم أنّ ذلك هو كفارة الذنوب التي قمت بها وارتكبتها، عليك أن تفكّر بأعمالك السابقة، وتستغفر لذنوبك، وتصلح نفسك وتكتشف نقاط ضعفك.

وإذا ورد في الروايات أنّ هذه الآية من أفضل آيات القرآن، فذلك بسبب تأثيرها التربوي المهم، ومن جانب آخر تقوم بتخفيف هموم الإنسان، وتعيد الأمل وعشق الخالق إلى قلبه وروحه.

الثّالثة: من هم أصحاب الصفّة؟

الذين يذهبون إلى زيارة قبر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، يشاهدون مكاناً مرتفعاً قليلاً عن الأرض في زاوية المسجد وقرب القبر الشريف حيث عزلت أطرافه بشكل جميل عن باقي المسجد، كما أنّ الكثير ينتخب هذا المكان لتلاوة القرآن والصلاة.

هذا المكان يذكّرنا بمكان (الصفّة) وهو المحل الذي هيّأه النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لمجموعة من الغرباء الذين اعتنقوا الإسلام ولم يكن لديهم مأوى سوى المسجد[٣].

(١-٢) أُصول الكافي، ج ٢، كتاب الإيمان والكفر - باب تعجيل عقوبة الذنب - الحديث ٢.

(٣) «صفّة» على وزن (غصّة) وتعني في اللغة، الصيفية المغطاة بسعف النخل.

توضيح

أوّل شخص غريب اعتنق الإسلام ولم يكن يملك مكاناً في المدينة هو شاب من أهل اليمامة يسمى (جويبر) حيث إنّ قصة زواجه الشهيرة مع (الذلفاء) تعتبر من أجمل حوادث محاربة الفواصل الطبقية في التاريخ الإسلامي.

وقد سمح له الرّسول ﷺ بالمبيت ليلاً في المسجد، لأنّه لا يملك مكاناً للاستراحة والسكن، وعندما كثر عدد الغرباء - وكلهم سكن المسجد - أدّى ذلك إلى وضع سلبي للمسجد، أمر الرّسول ﷺ بإخراجهم من المسجد وتطهيره، واغلقت أبواب بيوت الصحابة التي كانت شارعة إلى المسجد بأمر الرّسول ﷺ ما عدا بيت علي وفاطمة عليهما السلام.

عندها أمر الرّسول ﷺ بتسقيف مكان معيّن بسعف النخل ليكون محلاً لسكن الغرباء والفقراء، وكان بنفسه يزورهم ويعطيهم الماء والتمر والخبز والمواد الغذائية الأُخرى، وقام باقي المسلمين بالاهتمام بهم ومساعدتهم عن طريق الزكاة وأنواع الإنفاق الأُخرى.

وقد اشترك هؤلاء في المعارك الإسلامية وجاهدوا بإخلاص، وقد وردت بعض الآيات القرآنية لتذكر فضلهم وصفاءهم وطهرهم، وقد سمّوا (بأصحاب الصُّفّة) لأنّهم سكنوا تلك (الصفّة).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن

مرّة أُخرى نشاهد أنّ هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق وأدلة التوحيد، وتستمر في البحث الذي أشارت إليه الآيات السابقة بهذا الخصوص.

وهنا تذكر موضوعاً يتعامل معه الإنسان كثيراً في حياته المادية، خصوصاً المسافرين عبر البحار وسكّان السواحل، حيث تقول الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

«جوار» جمع (جارية) وهي صفة للسفن حيث لم تذكر للاختصار، وعادةً فإنّ الآية تقصد حركة السفن، ولذا فقد استخدمت هذه الصفة.

ويقال للبنت الشابة «جارية» لأنّ الشباب والنشاط يجري في عروقها ووجودها.

«أعلام» جمع (علم) على وزن (قلم) وتعني الجبل، إلاّ أنّها في الأصل بمعنى العلامة والأثر الباقي الذي يخبر عن شيء معيّن، مثل (علم الطريق) و(علم الجيش) وما شابه.

أمّا لماذا سمّي الجبل بالعلم؟ فذلك لأنّه ظاهر من بعيد، وأحياناً كانوا يشعلون النّار فوق قمّته حتى تكون مناراً للسائرين، إلاّ أنّ وجود النّار وعدمها لا يؤثّر في التسمية.

وعلى هذا الأساس فإنّ القرآن يعتبر حركة السفن العملاقة في هذه الآية - كما في الآيات المتعددة الأُخرى - بسبب هبوب الرياح المنتظمة، من آيات الخالق.

فليس مهمّاً حركة السفينة الصغيرة أو الزوارق على سطح الماء بسبب هبوب الرياح، المهم حركة السفن والبواخر العملاقة بحمولتها الكبيرة ومسافريها المتعددين عند هبوب الرياح، فتقطع آلاف الأميال وتصل إلى مرساها.

فمن الذي خلق هذه المحيطات بخصوصياتها ومياهها وعمقها؟ من أعطى للخشب الذي تصنع منه السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

ومن يأمر الرياح بالهبوب بشكل منظم على سطح البحار والمحيطات كي يستطيع الإنسان أن يصل من نقطة إلى أُخرى بالاستفادة من هذه الرياح؟

نعم، فلو أخذنا بعين الاعتبار الخرائط التي يملكها البحّارة بخصوص حركة الرياح، والمعلومات التي يملكها البشر حول هبوب الرياح من القطبين نحو خط الاستواء ومن خط الاستواء إلى القطبين، وأيضاً هبوب الرياح المتناوبة من السواحل واليابسة نحو البحار وبالعكس، عندها سندرك أنّ هذا الأمر مخطط وله نظام.

في زماننا، تقوم المحركات الضخمة بتحريك السفن ودفعها إلى الأمام، إلاّ أنّ الرياح تبقى مؤثّرة أيضاً في حركة هذه السفن.

وللتأكيد أكثر تقول الآية: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾. وكاستنتاج تضيف الآية في نهايتها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

نعم، فهبوب الرياح، وحركة السفن، وخلق البحار، والنظام الخاص المتناسق الذي يتحكّم بهذه الأُمور... كلّها آيات مختلفة للذات المقدسة.

ونعلم أنّ هبوب الرياح يتمّ بسبب الاختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين على الكرة الأرضية، لأنّ الهواء يتمدد بسبب الحرارة ويتحرك نحو الأعلى، ويضغط على الهواء المحيط به ويقوم بتحريكه، ومن جانب آخر يترك مكانه للهواء المجاور له عند تحركه نحو الطبقات العليا، فلو سحب الخالق هذه الخاصية (خاصية التمدد) من الهواء، عندها سيطغى السكون والهدوء القاتل وستقف السفن الشراعية في عرض البحار دون أيّة حركة.

﴿صَبَّارٍ﴾ و﴿شَكُورٍ﴾ صيغتا مبالغة حيث تعطي الأُولى معنى كثرة الصبر، والثانية كثرة الشكر. وهذان الوصفان الواردان في هذه الآية - وفي موارد أُخرى[1] - يشيران إلى ملاحظات لطيفة.

فهاتان الصفتان توضحان حقيقة الإيمان، لأنّ المؤمن صبور في المشاكل والابتلاءات وشكور في النعم، وقد ورد في حديث عن الرّسول ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر»[2].

إضافةً إلى ذلك، فإنّ البحث في أسرار نظام الخلق يحتاج إلى الصبر والاستمرار وتخصيص الوقت الكافي، ومن جانب ثان يستحق شكر المنعم.

فمتى ما توفر هذان العاملان عندها يكون الإنسان مؤهّلاً للبحث في هذه الآيات، وعادةً فإنّ البحث في أسرار الخلق يعتبر بحدّ ذاته نوعاً من الشكر.

ومن جانب ثالث، فإنّ هاتين الصفتين تتجسدان في الإنسان أكثر من أيّ وقت مضى متى ما ركب في السفينة، حيث الصبر حيال حوادث ومشاكل البحار، والشكر عند الوصول إلى الساحل.

مرّة أُخرى، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهيّة، تقول الآية الأُخرى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التي ارتكبها المسافرون.

وكما قرأنا في الآيات الماضية، فإنّ المصائب التي تصيب الإنسان غالباً ما تكون بسبب أعماله.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥، لقمان - ٣١، سبأ - ١٩، والآية التي نبحثها.

(٢) تفسير الصافي، مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٠٦، وتفسير الفخر الرازي وتفسير القرطبي ذيل الآية (٣١) من سورة لقمان.

إلاّ أنّه بالرغم من ذلك فإنّ اللطف الإلهي يشمل الإنسان: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾. فلولا عفو الخالق لم يكن لينجو أحد من عذاب الخالق سوى المعصومين والخواص والطاهرين، كما نقرأ ذلك في الآية (٤٥) من سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

نعم، فهو يستطيع أن يمنع الرياح من الهبوب حتى تقف السفن في وسط البحار والمحيطات، أو يحوّل هذه الرياح إلى عواصف هوجاء تدمر هذه السفن والبواخر، إلاّ أنّ لطفه العام يمنع هذا العمل.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾(١) وما لهم من ملجأ سوى ذاته المنزّهة.

فهؤلاء سوف لا يشملهم العفو الإلهي، لأنّهم عارضوه بعلم ووعي، واستمروا في محاربته عن عداوة وعناد، فهؤلاء سوف لا يشملهم عفوه ورحمته، ولا خلاص لهم من عذابه.

﴿مَّحِيصٍ﴾ مأخوذة من كلمة (حيص) على وزن (حيف) وتعني الرجوع والعدول عن أمر ما، وبما أنّ (محيص) اسم مكان، لذا وردت هذه الكلمة، بمعنى محل الهروب أو الملجأ.

والكلام في آخر آية موجّه إلى الجميع حيث تقول: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

فلا تتصوروا أنّه سيبقى لكم، لأنّه كالوميض الذي يبرق ثمّ يخبو، وكالشمعة في مهبّ الريح والفقاعة على سطح الماء، ولكن ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنيوي الزائل المحدود التافه بمتاع أبدي خالد، فتلك هي التجارة المربحة العديمة النظير.

فالمواهب في هذه الدنيا لا تخلو من المشاكل، حيث توجد الأشواك دائماً إلى جانب الورود، والمحبطات إلى جانب الآمال، في حين أنّ الأجر الإلهي لا يحتوي على أيّ إزعاجات، بل هو خير خالص ومتكامل.

ومن جانب آخر فإنّ هذه المواهب مهما كانت فستزول حتماً، إلاّ أنّ الجزاء

---

(١) جملة ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ كما يقول الزمخشري في كشافه: وردت منصوبة بسبب عطفها على تعليل محذوف وتقديره: لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون. . . فالهدف أن ينتقم الخالق من هذه المجموعة، والهدف أن يعلم المجادلون بعدم وجود طريق للنجاة.

الأُخروي أبدي خالد، عندها هل يقبل العقل أن يستغني الإنسان عن هذه التجارة المربحة، أو يصاب بالغرور والغفلة وتبهره زخارف الدنيا؟

لذا فإنّنا نقرأ في الآية: (٣٨) من سورة التوبة: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وأساساً، فإنّ «الحياة الدنيا» (بالمعنى المتقدّم) تشير إلى الحياة الدنية والحقيرة، وطبيعي أنّ أيّ متاع أو وسيلة للاستفادة منها في هذه الحياة ستكون - أيضاً - مثلها في القيمة.

لذا فقد ورد في حديث عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «والله ما الدنيا في الآخرة إلاّ مثل أن يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟!»[١].

والملفت للنظر أنّه ورد في هذه الآية التأكيد على الإيمان والتوكل، وهذا بسبب أنّ نيل الأجر الإلهي هو للذين يفوّضون أُمورهم في جميع الأعمال ويستسلمون له تعالى إضافة إلى الإيمان، لأنّ التوكل يعني تفويض الأُمور. وتقابل هذه المجموعة أشخاص يجادلون في آيات الله بسبب حبّ الدنيا والارتباط بالمتاع الزائل، ويقلبون الحقائق، وبهذا الترتيب فإنّ آخر آية هي بمثابة تعليل للآية التي قبلها، والتي كانت تتحدّث عن الذين يجادلون في آيات الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

المؤمنون لا يستسلمون للظلم

هذه الآيات استمرار للبحث الوارد في الآيات السابقة بخصوص الأجر الإلهي للمؤمنين المتوكلين.

(١) تفسير روح البيان، ج ٣، ص ٤٢٩ (نهاية الآية ٣٨ من سورة التوبة).

فبعد ذكر الإيمان والتوكل اللذين لهما طبيعة قلبيّة، تشير هذه الآيات إلى سبعة أنواع من البرامج العملية للصفتين السابقتين سواء كانت إيجابية أو سلبية، فردية أو اجتماعية، مادية أو معنوية، وهذه البرامج توضّح أُسس المجتمع الصالح والحكومة الصالحة القوية.

والملفت للنظر أنّ هذه الآيات نزلت في مكّة - كما يظهر - وفي ذلك اليوم لم يكن قد تأسس المجتمع الإسلامي بعد، ولم يكن هناك وجود للحكومة الإسلامية، إلاّ أنّ هذه الآيات أعطت التفكير الإسلامي الصحيح في هذا الخصوص منذ ذلك اليوم، حيث كان الرّسول الكريم ﷺ يعلّمهم ويربّيهم لغرض الاستعداد لبناء المجتمع الإسلامي في المستقبل.

فأوّل صفة تبدأ من التطهير حيث تقول الآية إنّ الثواب الإلهي العظيم سوف يكون من نصيب المؤمنين المتوكلين: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾(١).

﴿كَبَائِرَ﴾ جمع «كبيرة» وتعني الذنوب الكبيرة، أمّا ما هو المعيار في الكبائر؟ البعض فسّرها بالذنوب التي توعّد القرآن في آياته بعذاب النّار لها، وأحياناً الذنوب التي تستوجب الحدّ الشرعي.

وقد احتمل البعض أنّها إشارة للبدع وإيجاد الشبهات الاعتقادية في أذهان الناس.

ولكننا لو رجعنا إلى المعنى اللغوي لكلمة «كبيرة» فإنّها تعني الذنب الذي يكون كبيراً ومهماً من وجهة نظر الإسلام، وأحد علائم أهمّيته أنّه ورد في القرآن المجيد وتوعّد بالعذاب عليه، وقد ورد تفسير للكبائر في روايات أهل البيت عليهم السلام بأنّها: «التي أوجب الله عزّوجلّ عليها النّار»(٢).

وعلى هذا الأساس فلو توضحت أهمّية وعظمة الذنب بطرق أُخرى، عندها سيشمله عنوان (الكبائر).

«فواحش» جمع «فاحشة» وتعني الأعمال القبيحة للغاية والممقوتة، وذكر هذه العبارة بعد كلمة (الكبائر) من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وفي الحقيقة فإنّ التأكيد على

---

(١) يعتقد غالب المفسّرين أنّ ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ عطف لـ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الآية السابقة، بالرغم من احتمال البعض أنّها مبتدأ خبره محذوف (وفي التقدير والذين يجتنبون... لهم مثل ذلك من الثواب) إلاّ أنّ المعنى الأوّل أفضل ظاهراً.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٧٣.

الذنوب القبيحة للغاية بعد ذكر اجتناب المؤمنين الحقيقيين عن جميع الذنوب الكبائر، للتأكيد على أهمية ذلك.

وعلى هذا الأساس فإنّ أوّل علائم الإيمان والتوكل هو الاجتناب عن (الكبائر)، فكيف يمكن للإنسان أن يدّعي الإيمان والتوكل على الخالق، في حين أنّه مصاب بأنواع الذنوب وقلبه وكر من أوكار الشيطان؟!

أمّا ثاني صفة، والتي لها طبيعة تطهيرية أيضاً، فهي السيطرة على النفس عند الغضب الذي يعتبر من أشدّ حالات الإنسان حيث تقول الآية: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

فهؤلاء لا يفقدون السيطرة على أنفسهم عند الغضب ولا يرتكبون الجرائم عنده، والأكثر من ذلك غسل قلوبهم وقلوب الآخرين من الحقد بواسطة مياه العفو والغفران.

وهذه الصفة لا تتوفر إلاّ في ظل الإيمان الحقيقي والتوكل على الحق.

والطريف في الأمر أنّ الآية لا تقول: إنّهم لا يغضبون، لأنّ الغضب من طبيعة الإنسان، وهناك ضرورة له في بعض الأحيان خاصةً عندما يكون لله وفي طريق إحقاق الحق، بل تقول: إنّهم لا يلوّثون أنفسهم بالذنب عند الغضب، وبكل بساطة يعفون ويغفرون، ويجب أن يكونوا هكذا، فكيف يمكن للإنسان أن ينتظر العفو الإلهي في حين أنّ أعماقه مليئة بالحقد وحبّ الانتقام، ولا يعترف بأيّ قانون عند الغضب؟ وإذا شاهدنا التأكيد على الغضب هنا، فذلك لأنّ هذه الحالة كالنار الحارقة التي تلتهب في داخل أعماق الإنسان، وهناك الكثيرون الذين لا يستطيعون ضبط أنفسهم في تلك الحالة، إلاّ أنّ المؤمنين الحقيقيين لا يستسلمون أبداً للغضب.

وورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «من ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا غضب، حرّم الله جسده على النّار»(١).

الآية الأُخرى تشير إلى الصفات الثّالثة والرّابعة والخامسة والسادسة، حيث تقول: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٢).

(١) تفسير علي بن إبراهيم - طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٨٣.

(٢) يقول بعض المفسّرين أنّه متى ماكانت (شورى) مصدراً وتعني المشاورة يجب أن تضاف لها كلمة (ذو) ويصبح تقدير الجملة (أمرهم ذو شورى بينهم)... أو للمبالغة والتأكيد، لأنّ ذكر (المصدر) بدلاً من (الصفة) يوصل هذا المعنى عادة، لكن إذا كانت شورى كما يقول الراغب في مفرداته بمعنى (الأمر الذي يتشاور فيه) عندها لا حاجة للتقدير (لاحظ ذلك).

فالآية السابقة كانت تتحدّث عن تطهير النفس من الذنوب والتغلب على الغضب، إلاّ أنّ الآية التي نبحثها تتحدّث عن بناء النفس في المجالات المختلفة، ومن أهمها إجابة دعوة الخالق، والتسليم حيال أوامره، حيث إنّ الخير كلّ الخير تجسد في هذا الأمر، فهم مستسلمون بكل وجودهم لأوامره، وليست لهم إرادة إزاء إرادته، ويجب أن يكونوا هكذا، لأنّ الاستسلام والاستجابة أمران حتميان بعد تطهير القلب والروح من آثار الذنب الذي يعيق السير نحو الحق.

ونظراً لوجود بعض القضايا المهمّة في التعليمات الإلهيّة، يجب الإشارة إليها بالخصوص، لذا نرى أنّ الآية أشارت إلى بعض المواضيع المهمّة وخاصة (الصلاة) التي هي عمود الدين وحلقة الوصل بين المخلوق والخالق ومربية النفوس، وتعتبر معراج المؤمن وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

بعد ذلك تشير الآية إلى أهم قضية اجتماعية وهي «الشورى» فبدونها تعتبر جميع الأعمال ناقصة، فالإنسان الواحد مهما كان قوياً في فكره وبعيداً في نظره، إلاّ أنّه ينظر للقضايا المختلفة من زاوية واحدة أو زاويتين، وعندها ستختفي عنه الزوايا والأبعاد الأُخرى، إلاّ أنّه وعند التشاور حول القضايا المختلفة تقوم العقول والتجارب المختلفة بمساعدة بعضها البعض، عند ذلك ستتوضح الأُمور وتقل العيوب والنواقص ويقل الانحراف.

لذا فقد ورد في حديث عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «ما من رجل يشاور أحداً إلاّ هُدي إلى الرشد».

والملفت للنظر أنّ العبارة وردت هنا على شكل برنامج مستمر للمؤمنين، ليس في عمل واحد ومؤقت، بل يجب التشاور في جميع الأعمال. والطريف في الأمر أنّ الرّسول ﷺ كان أيضاً يتشاور مع أتباعه وأنصاره في القضايا الاجتماعية المهمّة والتنفيذية والصلح والحرب والأُمور المهمّة الأُخرى بالرغم من تكامل عقله وارتباطه بمصدر الوحي، وكان يشاور أصحابه أحياناً بالرغم من المشاكل التي تحصل من جرّاء ذلك، لكي يكون أُسوة وقدوة للناس، لأنّ بركات الاستشارة أكثر بكثير من احتمالات ضررها.

وهناك تفصيلات في نهاية الآية (١٥٩) من سورة آل عمران بخصوص (الاستشارة)

و(شروط الشورى) و(أوصاف الذين يجب استشارتهم) و(مسؤولية المستشار) حيث لا نرى ضرورة إلى إعادة ذلك، إلاّ أنّه يجب أن نضيف بعض الملاحظات الأُخرى:

أ - الشورى تختص بالأعمال التنفيذية ومعرفة الموضوع وليست لمعرفة الأحكام، لأنّها يجب أن تؤخذ من مصدر الوحي ومن الكتاب والسنّة، وعبارة (أمرهم) تشير إلى هذا المعنى أيضاً، لأنّ الأحكام ليست من شأن الناس، بل هي من أمر الخالق.

ولذا فلا أساس لما يقوله بعض المفسّرين كالآلوسي من أنّ الشورى تشمل الأحكام أيضاً، حيث لا يوجد نص خاص بذلك، خاصة وأنّنا نعتقد بعدم وجود أيّ أمر في الإسلام ليس له نص عام أو خاص صادر بشأنه، وإلاّ فما فائدة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(١) [يجب قراءة تفصيلات عن هذا المعنى في كتب أُصول الفقه بخصوص بطلان الاجتهاد بمعنى التقنين في الإسلام].

ب - قال بعض المفسّرين إنّ شأن نزول عبارة: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ خاص بالأنصار، إمّا لأنّ أعمالهم قبل الإسلام كانت وفقاً للشورى، أو هي إشارة إلى تلك المجموعة من الأنصار الذين آمنوا قبل هجرة النّبي ﷺ وبايعوه في (العقبة)، ودعوه إلى المدينة (لأنّ هذه السورة مكّية، والآيات أعلاه نزلت في مكّة كما يظهر أيضاً).

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية لا تختص بسبب نزولها، بل توضح برنامجاً عاماً وجماعياً.

ونُنهي هذا الكلام بحديث عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام حيث يقول: «لا ظهير كالمشاورة، والاستشارة عين الهداية»(٢).

ومن الضروري الإشارة إلى أنّ آخر صفة وردت في هذه الآية لا تشير إلى الإنفاق المالي فحسب، وإنّما إنفاق كلّ ما أعطاه الخالق من الرزق كالمال والعقل والذكاء والتجربة، والتأثير الاجتماعي، والخلاصة: الإنفاق من كلّ شيء.

وتقول الآية بخصوص سابع صفة للمؤمنين الحقيقيين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي أنّهم إذا تعرّضوا للظلم لا يستسلمون له، بل يطلبون النصر من الآخرين.

وواضح أنّ الآخرين مكلّفون بالانتصار ضد الظلم، لأنّ طلب النصر دون النصرة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٤٢٥ (باب ٢١ من أبواب الأحكام العشرة).

يعتبر لغواً ولا فائدة فيه، وفي الحقيقة فإنّ المظلوم مكلّف بمقاومة الظالم وطلب النصرة، وأيضاً فإنّ المؤمنين مكلفون بإجابته، كما ورد في الآية (٧٢) من سورة الأنفال حيث نقرأ: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾.

هذا البرنامج الإيجابي البنّاء يحذّر الظالمين من مغبّة ظلم المؤمنين، حيث إنّهم لا يسكتون على ذلك ويقفون بوجوههم، وهو أيضاً يؤمّل المظلومين بأنّ الآخرين سوف ينصرونكم عند استغاثتكم.

﴿يَنتَصِرُونَ﴾ من كلمة «انتصار» وتعني طلب النصر، إلاّ أنّ البعض فسّرها بمعنى «التناصر» والنتيجة واحدة، للتوضيح الذي ذكرناه.

على أيّة حال، فأيّ مظلوم إذا لم يستطع أن يقف بوجه الظلم بمفرده، فعليه ألاّ يسكت، بل يستفيد من طاقات الآخرين والنهوض بوجه الظلم، ومسؤولية جميع المسلمين الاستجابة لاستغاثته وندائه.

ولكن بما أنّ التناصر يجب أن لا يخرج عن حدّ العدل وينتهي إلى الانتقام والحقد والتجاوز عن الحد، لذا فإنّ الآية التي بعدها اشترطت ذلك بالقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

يجب أن لا تتجاوزوا عن الحدّ بدافع وقوع الظلم على إخوانكم فتنقلبوا إلى أشخاص ظالمين، وخاصة الإفراط في الرد على الظلم في مجتمعات كالمجتمع العربي في بداية الإسلام، لذا يجب التمييز بين نصرة المظلوم والانتقام.

وعمل الظالم يجب أن يسمى بـ(سيئة) إلاّ أنّ جزاءه وعقابه ليس (سيئة) وإذا وجدنا أنّ الآية عبّرت عن ذلك بالسيئة فبسبب التقابل بالألفاظ واستخدام القرائن، أو أنّ الظالم يعتبرها (سيئة) لأنّه يعاقب، أو يحتمل أن يكون استخدام لفظة (السيئة) لأنّ العقاب أليم ومؤذ، والألم والأذى بحدّ ذاته (سيئ) بالرغم من أنّ قصاص الظالم ومعاقبته يعتبر عملاً حسناً بحدّ ذاته.

وهذا يشبه العبارة الواردة في الآية (١٩٤) من سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

على أيّة حال، فإنّ هذه العبارة يمكن أن تكون مقدمة للعفو الوارد في الجملة التي بعدها، وكأنّما تريد الآية القول: إنّ العقاب مهما كان فهو نوع من الأذى، وإذا ندم الشخص عندها يستحق العفو.

لذا ففي مثل هذه الموارد ينبغي عليكم العفو، لأنّ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

صحيح أنّه فقد حقه ولم يحصل على شيء في الظاهر، إلاّ أنّه بسبب عفوه، العفو الذي يعتبر أساس انسجام المجتمع والتطهّر من الأحقاد وزيادة أواصر الحب وزوال ظاهرة الانتقام والاستقرار الاجتماعي، فقد تعهد الخالق بأن يعطيه من فضله الواسع، ويا لها من عبارة لطيفة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ حيث إنّ الخالق يعتبر نفسه مديناً لمثل هؤلاء الأشخاص ويقول بأنّ أجرهم عليّ.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد تكون هذه الجملة إشارة إلى بعض الملاحظات:

فأوّلاً: قد يكون العفو بسبب أنّ الإنسان لا يستطيع أحياناً السيطرة على نفسه بدقة عند العقاب والقصاص، وقد يتجاوز الحد ويكون في عداد الظالمين.

وثانياً: إنّ هذا العفو ليس بمعنى الدفاع عن الظالمين، لأنّ الله لا يحب الظالمين أبداً، بل إنّ الهدف هو هداية الضالين وتثبيت الأواصر الاجتماعية.

وثالثاً: إنّ الذين يستحقون العفو هم الذين يكفون عن الظلم ويندمون على ما ارتكبوه في الماضي، ويقومون بإصلاح أنفسهم، وليس للظالمين الذين يزدادون جرأة بواسطة هذا العفو.

وبعبارة أوضح، فإنّ كلاً من العفو والعقاب له موقعه الخاص، فالعفو يكون عندما يستطيع الإنسان الانتقام، وهذا يسمى العفو البنّاء، لأنّه يمنح المظلوم المنتصر قابلية السيطرة على النفس وصفاء الروح، وأيضاً يفرض على الظالم المغلوب إصلاح نفسه.

والعقاب والانتقام والردّ بالمثل يكون عندما يبقى الظالم مستمراً في غيّه وضلاله، والمظلوم لم يثبّت أركان سيطرته بعد، فالعفو هنا يكون من موقع الضعف فيجب الردّ بالمثل.

وقد ورد في حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان أجره على الله فليدخل الجنّة، فيقال: من ذا الذى أجره على الله؟ فيقال: العافون عن الناس، فيدخلون الجنّة بغير حساب»(١).

وهذا الحديث - في الحقيقة - هو النتيجة المستوحاة من آخر آية في هذا البحث، والإسلام الأصيل هو هذا.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٥٢، ذيل الآية مورد البحث.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

التّفسير

الظلم والإنتصار

تعتبر هذه الآيات - في الحقيقة - تأكيداً وتوضيحاً وتكميلاً للآيات السابقة بشأن الانتصار ومعاقبة الظالم والعفو في المكان المناسب، والهدف من ذلك أنّ معاقبة الظالم والانتقام منه من حق المظلوم، ولا يحق لأحد منعه عن حقّه، وفي نفس الوقت إذا صادف أن سيطر المظلوم على الظالم وانتصر عليه، وعند ذلك صبر ولم ينتقم فإنّ ذلك يعتبر فضيلة كبرى.

فأوّلاً تقول الآية: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[1] فلا يحق لأحد أن يمنع هذا العمل، ولا يلوم ذلك الشخص أو يوبخه أو يعاقبه، ولا يتوانى في نصر مثل هذا المظلوم، لأنّ الانتصار وطلب العون من الحقوق الطبيعية لأيّ مظلوم، ونصر المظلومين مسؤولية كلّ إنسان حر ومتيقظ الضمير.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾. وإضافة إلى عقابهم الدنيوي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ينتظرهم في الآخرة.

يقول بعض المفسّرين حول الاختلاف بين جملة ﴿يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ وجملة ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ أنّ الجملة الأولى إشارة إلى موضوع (الظلم) والثانية إلى (التكبر)[2].

البعض الآخر اعتبر الأُولى إشارة إلى (الظلم) والثانية إشارة إلى (الوقوف بوجه الحكومة الإسلامية).

«بغى» تعني في الأصل الجّد والمثابرة والمحاولة للحصول على شيء ما، ولكن

---

(١) عبارة: ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾ هي من باب إضافة المصدر إلى المفعول.

(٢) تفسير (الكشاف)، (روح المعاني) و(روح البيان) ذيل الآيات مورد البحث.

كثيراً ما تطلق على المحاولات لغصب حقوق الآخرين، والتجاوز عن حدود وحقوق الخالق، لذا فإنّ للظلم مفهوماً خاصاً وللبغي مفهوماً عاماً يشمل أيّ تعد أو تجاوز للحقوق الإلهيّة.

عبارة ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيد لهذا المعنى، وعلى هذا الأساس فإنّ الجملة الثانية من باب ذكر العام بعد ذكر الخاص.

أمّا آخر آية فتشير مرّة أُخرى إلى الصبر والعفو، لكي تؤكّد أنّ الانتقام والعقاب والقصاص من الظالم لا يمنع المظلوم من العفو، حيث تقول: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾(١).

«العزم» في الأصل يعني (التصميم لإنجاز عمل معيّن)، ويطلق على الإرادة القوية، وقد تكون عبارة ﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ إشارة إلى أنّ هذا العمل من الأعمال التي أمر الله بها ولا يمكن أن تنسخ، أو أنّه من الأعمال التي يجب أن يشد الإنسان العزم لها، وأياً كان من المعنيين فهو يدل على أهمية هذا العمل.

والملفت للنظر ذكر (الصبر) قبل (الغفران)، لأنّه مع عدم وجود الصبر لا يمكن أن يحصل العفو والغفران، حيث يفقد الإنسان السيطرة على نفسه ويحاول الانتقام مهما كان.

ومرّة أُخرى نذكّر بهذه الحقيقة، وهي أنّ العفو والغفران مطلوبان في حال القوّة والاقتدار، وأن يستفيد الطرف المقابل من ذلك بأفضل شكل أيضاً، وقد تكون عبارة ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ لتأكيد هذا المعنى أيضاً، لأنّ التصميم بخصوص شيء معيّن يحدث عندما يكون الإنسان قادر على إنجاز ذلك الشيء، على أيّة حال فإنّ العفو الذي يكون مفروضاً من قبل الظالم، أو يشجعه في عمله ويجرئه على ذلك، غير مطلوب.

بعض الرّوايات فسّرت الآيات أعلاه بثورة الإمام المهدي (عجّل الله فرجه) وانتقامه وانتصاره على الظالمين والمفسدين في الأرض، وكما قلنا عدّة مرات سابقاً فإنّ مثل هذه التفاسير من قبيل بيان المصداق الواضح ولا تمنع من عمومية مفهوم الآية وشموليته(٢).

---

(١) اللام في ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ هي لام القسم وفي ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ للتأكيد، والاثنان يوضحان أهمية هذا الأمر الإلهي أي (العفو).

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٨٥، من تفسير علي بن إبراهيم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾

التّفسير

هل من سبيل للرجعة؟

الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الظالمين، أمّا الآيات التي نبحثها فتشير إلى عاقبة هذه المجموعة وجوانب من عقابها.

فهي تعتبرهم من الضالين الذين لا يملكون أيّ ولي، فتقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾.

الملمّون بتعابير القرآن بخصوص الهداية والضلالة، يعرفون بوضوح أنّه لا الهداية ولا الضلالة مفروضة وجبرية، إنّما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس. فأحياناً يقوم الإنسان بعمل معيّن وبسببه يسلب الخالق منه التوفيق ويطمس على قلبه ويمنع عنه نور الهداية ويتركه سابحاً في الظلمات.

وهذا هو عين الاختيار والحرية، فلو أنّ شخصاً أصرّ على شرب الخمر وأُصيب بأنواع الأمراض، فإنّه هو الذي جلب هذا الوضع وهذه الأمراض إلى نفسه، فالخالق مسبب الأسباب ويعطي التأثيرات المختلفة للأشياء، ولهذا السبب تربط النتائج به أحياناً(١).

على أيّة حال، فإنّ هذا أحد أكثر العقوبات ألماً بالنسبة للظالمين، ثمّ تضيف الآية: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

فقد تحدّث القرآن المجيد عدّة مرات عن طلب الكافرين والظالمين العودة، فأحياناً

---

(١) هناك شرح مفصل في هذا الخصوص في نهاية الآية (٣٦) من سورة الزمر، حيث أوضحنا جميع جوانب هذا الموضوع.

عند الموت مثل الآيتين (٩٩) و(١٠٠) من سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾﴾.

وأحياناً عند القيامة عندما يقتربون من الجحيم، كما تقول الآية (٢٧) من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولكن مهما كانت هذه الطلبات فإنّها ستواجه بالرفض، لأنّ العودة غير ممكنة أبداً، وهذه سنّة إلهيّة لا تقبل التغيير، فكما أنّ الإنسان لا يمكنه الرجوع من الكهولة إلى الشباب، أو من الشباب إلى الطفولة، أو من الطفولة إلى عالم الأجنة، كذلك يستحيل الرجوع إلى الوراء والعودة إلى الدنيا من عالم البرزخ أو الآخرة.

الآية الأُخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعة حيث تقول: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾(١).

فالقلق والخوف الشديد يسيطران على وجودهم، والذلة والاستسلام يطغيان عليهم، وانتهى كلّ شيء من التكبّر ومحاربة وظلم وإيذاء المظلومين، وينظرون من طرف خفي إلى النّار.

هذه صورة لحالة شخص يخشى من شيء أشدّ خشية ولا يريد أن ينظر إليه بعينين مفتوحتين، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يتغافل عنه، لذا فهو مجبور على النظر إليه، لكن بطرف خفي.

بعض المفسّرين قالوا: إنّ جملة ﴿طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ تعني هنا النظر بعين نصف مفتوحة، لأنّهم لا يستطيعون فتح العين كاملةً من شدّة الخوف والهول العظيم، أو أنّهم من شدّة الإنهيار والإعياء لا يستطيعون فتح العين بشكل كامل.

فعندما تكون حالة الإنسان هكذا قبل أن يدخل النّار. . . فماذا سيجري عليه عندما يطؤها ويهوي في أعماقها؟!

أمّا آخر عقاب ذكر هنا، فهو سماع اللوم والتوبيخ الأليم من المؤمنين، كما جاء في آخر الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

فهل هناك خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه، ثمّ زوجه، وأبناءه وأقرباءه؟

---

(١) ﴿طَرْفٍ﴾ «بتسكين الراء» مصدر وتعني دوران العين، وطرفة العين تعني حركة واحدة للعين. والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى العذاب، صحيح أنّ العذاب مذكر لكنّه يعني هنا النّار وجهنم وضمير المؤنث يعود إليها.

وتصيبه نار الفراق وهو في داخل العذاب الإلهي؟!

ثم تضيف: يا أهل المحشر: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

إنّه العذاب الذي ليس هناك أمل بانتهائه، ولا يتحدد بزمان معيّن. إنّه العذاب الذي يحرق أعماق الروح وظاهر الجسد على السواء.

وليس من المستبعد أن يكون القائل لهذا الكلام هم المؤمنون الحقيقيون، وهم الأنبياء والأولياء وأتباعهم الخاصون، حيث إنّهم مطهرون من الذنب، والمظلومون الذين أوذوا كثيراً من قبل هؤلاء الظالمين، ومن حقهم التحدّث بهذا الكلام في ذلك اليوم (وقد أشارت روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى)[(١)].

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أنّ (العذاب الخالد) لهؤلاء الظالمين، يدل على أنّ المقصود هم الكافرون، كما ورد في بعض الآيات القرآنية: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(٢)].

الآية التي بعدها تشهد على هذه الحقيقة، حيث تقول: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فهؤلاء قطعوا أواصر ارتباطهم بالعباد المخلصين والأنبياء والأولياء، لذلك لا يملكون ناصراً أو معيناً في ذلك اليوم، والقوى المادية سينتهي مفعولها في ذلك اليوم أيضاً، ولهذا السبب سيواجهون العذاب الإلهي بمفردهم.

ولتأكيد هذا المعنى تقول الآية في نهايتها: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

وفي الآيات السابقة قرأنا: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

فهناك تنفي الولي، وهنا تنفي السبيل، حيث إنّه ولأجل الوصول إلى الهدف، يجب أن يكون هناك طريق، ويجب أن يتوفّر الدليل، إلاّ أنّ هؤلاء الضالين محرومون من هذا وذاك.

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٨٦ من تفسير علي بن إبراهيم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

التّفسير

الأولاد... هبة الرحمن

بما أنّ الآيات السابقة ذكرت جانباً من العقاب الأليم الموحش للكافرين والظالمين، فإنّ الآيات أعلاه تحذّر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، وتدعوهم إلى الاستجابة لدعوة الخالق والعودة إلى طريق الحق.

فأوّل آية تقول: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾(١).

وإذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه، وأحداً يحميكم غير رحمته، فإنّكم على خطأ، لأنّ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

عبارة ﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ تشير إلى يوم القيامة، وليس إلى يوم الموت. كما أنّ عبارة: ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ تشير إلى أنّ أحداً لا يستطيع أن يتخذ قراراً بالعودة قبال أمر الخالق جلّ وعلا.

وعلى أيّة حال، فجميع الطرق التي يعتقد أنّها تنقذ الشخص من العذاب الإلهي تكون مغلقة في ذلك اليوم، وأحدها هو العودة إلى عالم الدنيا والتكفير عن الذنوب والخطايا.

أمّا الآخر فهو وجود ملجأ يأمن الإنسان عند اللجوء إليه.

وأخيراً وجود من يقوم بالدفاع عن الإنسان.

فكل جملة من الجمل الثلاث - للآية أعلاه - تنفي واحداً من هذه الطرق.

وقد فسّر بعضهم جملة ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ بمعنى أنّكم لا تستطيعون أن تنكروا

---

(١) قد تكون عبارة: ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ في الجملة أعلاه بمعنى (من قبل الله) يعني لا توجد عودة من قبل الخالق، وقد تكون بمعنى (في مقابل الله) يعني لا يوجد من يستطيع أن يعيدكم إلى هذه الدنيا ضد إرادة الخالق.

ذنوبكم هناك، لأنّ الأدلة والشهود كثيرون بحيث لا مجال للإنكار، إلاّ أنّ المعنى الأوّل أفضل كما يبدو.

الآية التي بعدها تخاطب الرّسول ﷺ وتواسيه قائلة: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فلا تحزن عليهم لأنّك لست مسؤولاً عن حفظهم من الانحراف.

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

يجب عليك أن تقوم بإبلاغ الرسالة الإلهيّة بأفضل وجه، وتُتِم الحجّة عليهم، أمّا القلوب المهيأة فسوف تقبل بذلك بالرغم من أنّ كثيراً من الجاهلين سوف يعرضون عنها، ولكنّك لست مسؤولاً عنهم.

وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في بداية هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾(١).

ثمّ ترسم صورة لحال هذه الجماعة غير المؤمنة والمعرضة عن الحق فتقول: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ ويغفل عن ذكر الخالق: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

فلا النعم الإلهيّة وشكر المنعم توقظ هذا الإنسان وتجرّه نحو الشكر والمعرفة والطاعة، ولا العقوبات التي تصيبه بسبب الذنوب توقظه من نوم الغفلة، ولا دعوة الرّسول ﷺ تؤثر فيه.

فعوامل الهداية من حيث «التشريع» هي دعوة رُسُل الخالق، ومن حيث «التكوين» قد تكون النعم وقد تكون المصائب، إلاّ أنّ هؤلاء الجهلة ذوي القلوب الميتة لا تؤثّر فيهم أيّ من هذه العوامل، وهذا بسببهم أنفسهم وليس بسببك، لأنّك قمت بمسؤوليتك في الإبلاغ.

وقد تكون عبارة ﴿إِذَآ أَذَقْنَا﴾ في الآية أعلاه (وهي هنا بخصوص رحمة الخالق، وفي آيات قرآنية أُخرى بخصوص العذاب الإلهي) إشارة إلى أنّ النعم والمصائب في هذه الدنيا تعتبر لا شيء بالنسبة إلى نعم ومصائب الآخرة، أو قد تكون بمعنى أنّ هؤلاء الأشخاص يصابون بالغرور والطغيان بمجرّد قليل من النعمة، واليأس والكفر بقليل من المصائب.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٦.

ومن الضروري الإشارة إلى هذه الملاحظة، وهي أنّ الخالق يوكل النعم إلى نفسه، لأنّ رحمته تقتضي ذلك، بينما يوكل المصائب والابتلاءات إليهم، لأنّها نتيجة أعمالهم.

واستخدام كلمة ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ في مثل هذه الآيات تشير إلى طبيعة (الإنسان غير المهذّب) حيث إنّه ذو تفكير قصير ونفسية ضعيفة، وتكرار ذلك - في الآية أعلاه - يؤكّد على هذا المعنى.

ثمّ لبيان حقيقة أنّ أيّ نعمة ورحمة في هذا العالم مصدرها الخالق، ولا يملك الأفراد شيئاً من عندهم، أشارت الآية إلى قضية عامة ومصداق واضح لهذه الحقيقة، حيث تقول: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾.

ولهذا السبب فإنّ الكل يأكل من مائدة نعمه، ويحتاج إلى لطفه ورحمته، فليس منطقياً الغرور عند النعمة، ولا اليأس عن المصيبة.

و«نموذج» واضح لهذه الحقيقة وأنّ كلّ ما موجود هو منه، والأفراد لا يملكون شيئاً من عندهم هو أنّه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ ﴿٥٠﴾﴾.

وبهذا الترتيب فإنّ الناس يُقسّمون إلى أربع مجاميع: من عنده الأولاد الذكور ويريد البنات، ومن عنده البنات ويريد الذكور، ومن عنده الذكور والإناث، والمجموعة التي تفتقد الأبناء ويأملون ويرغبون فيهم.

والعجيب أنّ أيّ شخص لا يستطيع الانتخاب في هذا المجال سواء في الماضي أو في الوقت الحاضر، بالرغم من تقدم وتطور العلوم، ورغم المحاولات العديدة فإنّ أحداً لم يستطع أن يهب الأبناء للعقيم الحقيقي، أو يعيّن نوع المولود وفقاً لرغبة الإنسان بالرغم من دور بعض الأطعمة أو الأدوية في زيادة احتمال ولادة الذكر أو الأُنثى، إلاّ أنّ هذا يبقى مجرّد احتمال ولا توجد أيّة نتيجة حتمية لهذا الأمر.

وهذا نموذج واضح لعجز الإنسان، ودليل على المالكية والحاكمية والخالقية للبارئ جلّ وعلا، وهل هناك مثال أوضح من هذا؟

والطريف في الأمر أنّ هذه الآيات قدّمت الإناث على الذكور، لكي توضّح الأهمية التي يعطيها الإسلام لمنزلة المرأة، ومن جانب ثان تقول للذين لهم تصورات خاطئة عن ولادة البنت - ويكرهونها - أنّ الخالق يعطي الشيء الذي يريده هو وليس ما تريدونه أنتم، وهذا دليل على أنّه هو الذي ينتخب.

إنّ استخدام عبارة ﴿يَهَبُ﴾ تعتبر دليلاً واضحاً على أنّ الإناث والذكور من هدايا الخالق وهباته، وليس صحيحاً للمسلم الحقيقي التفريق بين الاثنين.

كما أنّ استخدام عبارة ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ لا تعني التزويج هنا، بل تعني جمع الهبتين (الإناث والذكور) لبعض الناس وبعبارة أُخرى فإنّ مصطلح (التزويج) يأتي أحياناً بمعنى الجمع بين الأشياء المختلفة أو الأنواع المتعددة، لأنّ (زوج) تعني في الأصل شيئين أو شخصين متقارنين.

واعتبر بعضهم هذه الآية بمعنى ولادة الذكور والإناث على الترتيب، والبعض الآخر اعتبرها بمعنى ولادة التوائم، يعني الذكر والأُنثى.

ولكن العبارة أعلاه لا تدل على أيّ من التفاسير المذكورة.

إضافة إلى ذلك فإنّها لا تتناسب مع ظاهر الآية، لأنّ الآية تريد الكلام عن مجموعة ثالثة رزقها الله البنات والبنين.

وعلى أيّة حال، فإنّ المشيئة الإلهيّة هي التي تتحكم في كلّ شيء وليس في قضية ولادة الأبناء فحسب، فهو القادر والعليم والحكيم، حيث يقترن علمه بقدرته، لذا فإنّ الآية تقول في نهايتها: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

ومن الضروري أن نشير إلى أنّ كلمة (عقيم) المأخوذة من كلمة (عقم) - على وزن (بخل) وكذلك على وزن (فهم) - تعني في الأصل الجفاف والتصلب المانع من قبول التأثير، والنساء العقيمات تطلق على اللواتي تكون أرحامهن غير مستعدة لتقبّل النطفة ونمو الطفل، كما تسمى بعض الرياح بالرياح العقيمة لعدم قدرتها على ربط الغيوم الممطرة، و«اليوم العقيم» يطلق على اليوم الذي ليس فيه سرور وفرح، كما يسمى يوم القيامة باليوم العقيم بسبب عدم وجود يوم بعد ذلك اليوم يمكن فيه التعويض عن الماضي.

وأخيراً فإنّ الغذاء (المعقم) يطلق على الغذاء الذي تم القضاء على جميع ميكروباته، بحيث لا يمكنها النمو في ذلك المحيط.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

سبب النّزول

فيما يلي خلاصة لما ذكره بعض المفسّرين من سبب النّزول في هذه الآية: جاء عدد من اليهود إلى الرّسول ﷺ وقالوا له: لماذا لا تتكلم مع الخالق؟ ولماذا لا تنظر إليه؟ فلو كنت نبيّاً حقّاً فافعل مثل موسى حيث نظر إلى الخالق وتحدّث معه، وسوف لا نؤمن بك أبداً حتى تفعل ما نطلبه منك، عندها أجابهم النّبي ﷺ: إنّ موسى لم يَرَ الخالق أبداً، هنا نزلت الآية أعلاه (حيث وضحت كيفية الارتباط بين الأنبياء والخالق)(١).

التّفسير

طرق ارتباط الانبياء بالخالق

هذه السورة، كما قلنا في بدايتها، تهتم بشكل خاص بقضية الوحي والنبوّة، فهي تبدأ بالوحي وتنتهي به، لأنّ الآيات الأخيرة تتحدّث عن هذا الموضوع (أي الوحي).

وبما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن النعم الإلهيّة، لذا فإنّ هذه الآيات تتحدّث عن أهم نعمة إلهيّة وأكثرها فائدة لعالم البشرية، ألا وهي قضية الوحي والارتباط بين الأنبياء والخالق.

في البداية تقول الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ لأنّ الخالق منزّه عن الجسم والجسمانية.

﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ كما كان يفعل موسى حيث إنّه كان يتحدّث في جبل الطور، وكان يسمع الجواب عن طريق الأمواج الصوتية التي كان يحدثها الخالق في الفضاء، دون أن يرى أحداً، لأنّه لا يمكن مشاهدة الخالق بالعين المجرّدة.

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا﴾ كما كان يقوم به جبرائيل الأمين وينزل على الرّسول ﷺ ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

نعم، فلا يوجد طريق آخر سوى هذه الطرق الثلاثة لتحدّث الخالق مع عباده لـ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

فهو أعلى وأجل من أن يرى أو يتكلم عن طريق اللسان، وكلّ أفعاله حكيمة، ويتمّ ارتباطه بالأنبياء وفق برنامج.

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٨٧٣.

هذه الآية تعتبر - في الحقيقة - ردّاً على الذين يتصورون - بجهالة - أنّ الوحي يعني مشاهدة الأنبياء للخالق وهم يتكلمون معه، حيث إنّ الآية تعكس بشكل دقيق ومختصر حقيقة الوحي والروح.

ومن مجمل الآية نستفيد أنّ الارتباط بين الأنبياء والخالق يتمّ عبر ثلاثة طرق هي:

١ - الإيحاء، حيث كان كذلك بالنسبة للعديد من الأنبياء مثل نوح، حيث تقول الآية: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(١).

٢ - ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ كما كان الخالق يتكلم مع موسى في جبل طور، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٢).

وقد اعتبر البعض أيضاً أنّ ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ تشمل الرؤيا الصادقة والحقيقية.

٣ - إرسال الرّسول، كما في الوحي إلى الرّسول الأعظم ﷺ، فالآية تقول: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٣).

ولم يقتصر الوحي على هذا الطريق بالنسبة للرسول الأعظم ﷺ بل كان يتمّ بطرق أُخرى أيضاً.

ومن الضروري أن نشير إلى أنّ الوحي قد يتمّ أحياناً في اليقظة، كما أُشير إلى ذلك أعلاه، وأحياناً في المنام عن طريق الرؤيا الصادقة، كما جاء بشأن إبراهيم وأمره بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام [بالرغم من اعتبار بعضهم أنّ ذلك مصداق لـ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾].

وبالرغم من أنّ الطرق الثلاثة التي ذكرتها الآية تعتبر الطرق الرئيسية للوحي، إلاّ أنّ بعضاً من هذه الطرق لها فروع بحدّ ذاتها، فالبعض يعتقد أنّ الملائكة تقوم بإنزال الوحي عبر أربعة طرق:

١ - يقوم الملك بإلقاء الوحي إلى روح النّبي وقلبه دون أن يتجسد أمامه أيّ النفث في الروع كما نقرأ ذلك في حديث عن النّبي ﷺ حيث تقول: «إن روح القدس نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب».

٢ - يتقمص الملك أحياناً شكل الإنسان ويتحدّث مع النّبي (حيث تذكر الأحاديث أنّ جبرئيل ظهر بصورة دحية الكلبي)(٤).

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٧.
(٤) «دحية بن خليفة الكلبي» هو أخو الرّسول ﷺ في الرضاعة، وكان من أجمل الناس في ذلك الزمان، =

٣ - وأحياناً يكون على شكل رنين الجرس الذي يدوي صوته في الآذان، وكان هذا أصعب أنواع الوحي بالنسبة للرسول حيث كان يتصبب عرقاً حتى في الأيّام الباردة، وإذا كان راكباً على دابة فإنّها كانت تقف وتجثو على الأرض.

٤ - كما كان يظهر جبرئيل أحياناً بصورته الأصلية التي خلقه الله عليها، وهذا ما حدث مرّتين فقط طوال حياة الرسول ﷺ [كما سيأتي تفصيل ذلك في سورة النجم - الآية ١٢](١).

بحثان

الأوّل: الوحي في اللغة والقرآن والسنة

يرى الراغب في مفرداته أنّ أصل الوحي يعني الإشارة السريعة سواء بالكلام الخافت، أو الصوت الخالي من التراكيب الكلامية، أو الإشارة بالأعضاء (بالعين واليد والرأس) أو بالكتابة.

ومن خلال ذلك نستفيد أنّ الوحي يشتمل على السرعة من جانب والإشارة من جانب آخر، لذا فإنّ هذه الكلمة تستخدم للارتباط الخاص والسريع للأنبياء مع عالم الغيب، وذات الخالق المقدسة.

وهناك معان مختلفة (للوحي) في القرآن المجيد وفي لسان الأخبار، فأحياناً تكون بخصوص الأنبياء، وأحياناً للناس الآخرين، وأحياناً تطلق للارتباط الخاص بين الناس، وأحياناً على الارتباط الخاص بين الشياطين، وأحياناً بخصوص الحيوانات.

وأفضل كلام في هذا المجال هو ما ورد عن علي عليه السلام في ردّه لشخص سأل عن الوحي، حيث قسّمه الإمام إلى سبعة أقسام هي:

١ - وحي الرسالة والنبوّة: مثل ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾(٢).

= حيث كان جبرئيل يظهر على صورته عند مجيئه للرسول ﷺ [مجمع البحرين - كلمة دحى]، وكان من أشهر صحابة الرّسول ومعروفاً بالوجه الحسن، وقد أرسله النّبي الأكرم إلى قيصر الروم (هرقل) حاملاً رسالة منه في العام السادس أو السابع للهجرة، وبقي حياً إلى أيّام خلافة معاوية.

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٠٦. (٢) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

٢ - الوحي بمعنى الإلهام: مثل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[١].

٣ - الوحي بمعنى الإشارة: مثل ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٢].

٤ - الوحي بمعنى التقدير: مثل ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾[٣].

٥ - الوحي بمعنى الأمر: مثل ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾[٤].

٦ - الوحي بمعنى الأكاذيب: مثل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[٥].

٧ - الوحي بمعنى الإخبار: مثل ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[٦] [٧].

ويمكن أن تكون لبعض هذه الأقسام السبعة فروعاً أُخرى تزيد عند استعمالها من استخدامات الوحي في الكتاب والسنّة، لذا فإنّ «التفليسي» ذهب في كتابه (وجوه القرآن) الى وجود عشرة معاني أو أوجه للوحي، وبعضهم ذكر عدداً أكثر من هذا.

ومن خلال هذه الاستخدامات المختلفة للوحي ومشتقاته نستنتج أنّ الوحي الإلهي على نوعين: (وحي تشريعي) و(وحي تكويني).

فالوحي التشريعي هو ما كان ينزل على الأنبياء، ويمثل العلاقة الخاصة بينهم وبين الخالق، حيث كانوا يستلمون الأوامر الإلهيّة والحقائق عن هذا الطريق.

أمّا الوحي التكويني فهو في الحقيقة وجود الغرائز والقابليات والشروط والقوانين التكوينية الخاصة التي أوجدها الخالق في أعماق جميع الكائنات في هذا العالم.

الثّاني: حقيقة (الوحي) المجهولة

لقد قيل الكثير حول حقيقة الوحي، ولكن بما أنّ هذا الارتباط المجهول خارج حدود إدراكاتنا، لذا فإنّ هذه الكلمات لا تستطيع أن تعطي صورة واضحة للموضوع، وأحياناً تؤدّي إلى الانحراف عن جادة الصواب، وقد ذكرنا آنفاً ما يمكن قوله في هذا

(١) سورة النحل، الآية: ٦٨.
(٢) سورة مريم، الآية: ١١.
(٣) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١١١.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.
(٧) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٤.

المجال، وفي الحقيقة فإنّ ما يمكن قوله بشكل جميل ومختصر، ولم تصل بحوث المفكرين والعلماء لأكثر من ذلك، وفي نفس الوقت لابدّ هنا من ذكر بعض التفاسير التي طرحها الفلاسفة القدماء والجدد حول الوحي:

١ - تفسير بعض الفلاسفة القدماء

يرى هؤلاء - وفقاً لمقدمات مفصّلة - أنّ الوحي هو عبارة عن الاتصال الخارق (لنفس الرّسول) مع (العقل الفعّال) المسيطر بظلّه على عالم (الحس المشترك) و(الخيال).

وتوضيح ذلك:

أنّ القدماء كانوا يعتقدون أنّ الروح الإنسانية لها ثلاث قوى: (قوّة الحس المشترك) وبواسطتها يدرك الإنسان صور المحسوسات، و(قوّة الخيال) وبواسطتها يدرك بعض الصور الذهنية، و(القوة العقلية) التي يدرك بواسطتها الصور الكلية.

ومن جانب آخر، فهم يعتقدون بنظرية الأفلاك التسعة لبطليموس، وكانوا يعتقدون بأن لها نفساً مجردة (مثل الروح لأجسادنا) ويضيفون: إنّ هذه النفوس الفلكية تستلهم من كائنات مجرّدة تسمى (العقول)، وعلى هذا الأساس فهم يقولون بوجود (تسعة عقول) تختص (بالأفلاك التسعة).

ومن جانب ثالث كانوا يعتقدون أنّ النفوس الإنسانية وأرواحها يجب أن تستلهم من الكائن المجرّد الذي يسمى بـ(العقل الفعال) وذلك لأجل إظهار القابليات وإدراك الحقائق، حيث كان يسمى بـ(العقل العاشر)، أمّا سبب تسميته بالفعال فلأنّه أساس حدوث القابليات للعقول الجزئية.

ومن جانب رابع كانوا يعتقدون أنّه مهما قويت الروح الإنسانية فإنّه سيزداد ارتباطها واتصالها بالعقل الفعال الذي هو خزانة ومصدر المعلومات، لذا فإنّ الروح القوية والكاملة تستطيع أن تكتسب أوسع المعلومات من (العقل الفعال) بأمر من الخالق، وذلك في أقصر مدّة.

وأيضاً فإذا قويت (قوّة الخيال) فإنّها تستطيع أن تنقل هذه المفاهيم إلى الحس بشكل أفضل، وعندما يقوى الحس المشترك للإنسان فإنّه يدرك القضايا المحسوسة الخارجية بشكل أفضل أيضاً.

ومن خلال هذه المقدمات يستنتجون أنّ روح النّبي لها ارتباط واتصال كبير جداً بالعقل الفعال، لأنّها قوية بشكل خارق، ولهذا السبب تستطيع أن تأخذ المعلومات بشكل عام من العقل الفعال في أكثر الأوقات.

وبما أنّ القوة الخيالية للنبي قوية جداً أيضاً، وفي نفس الوقت تتبع القوة العقلية، لذا فإنّها (أي القوة الخيالية) تستطيع أن تعطي صوراً محسوسة مناسبة للصور الكلية المأخوذة من العقل الفعال، وأن ترى نفسها ضمن أُطر حسية في أُفق الذهن، فمثلاً لو كانت تلك الحقائق العامة من باب المعاني والأحكام فسيسمعها من لسان شخص بمنتهى الكمال، وذلك على شكل ألفاظ موزونة بمنتهى الفصاحة والبلاغة.

ولأنّ قوّته الخيالية مسيطرة بشكل كامل على الحس المشترك، لذا فإنّها تستطيع أن تعطي طبيعة حسية لهذه الصور، ويستطيع النّبي أن يرى ذلك الشخص بعينه ويسمع ألفاظه بإذنه.

نقد وتحليل

هذه النظرية تعتمد على مقدمات يعتبر القسم الأعظم منها مرفوضاً في الوقت الحاضر، فمثلاً أفلاك بطليموس التسعة والنفوس والعقول المرتبطة بها تعتبر جزءاً من الأساطير، لعدم وجود أيّ دليل على إثباتها، بل وتوجد أدلة ضدّها.

ومن جانب آخر فإنّ هذه الفرضية لا تتلاءم مع الآيات القرآنية بخصوص الوحي، لأنّ الآيات القرآنية تصرّح بأنّ الوحي نوع من الارتباط مع الخالق الذي قد يكون عن طريق الإلهام أحياناً، وأحياناً أُخرى عن طريق الملك أو سماع الأمواج الصوتية أمّا القول بأنّه وليد القوة الخيالية والحس المشترك وأمثال ذلك فهو في غاية الضعف وعدم الانسجام مع الآيات القرآنية.

ومن الإشكالات الأُخرى على هذا الكلام هو تصنيفه للنبي في قائمة الفلاسفة والنوابغ بعقل أوسع وروح أقوى، في حين أنّنا نعلم أنّ طريق الوحي مغاير تماماً لطريق الإدراكات العقلية.

فهذه المجموعة من الفلاسفة أساءت لأساس الوحي والنبوة دون قصد ولأنّهم لم يلمّوا بالحقيقة سلكوا طريق الخيال والأُسطورة.

وهناك تفصيلات أكثر عن هذا الموضوع تأتي ضمن البحوث القادمة.

٢ - تفسير بعض الفلاسفة الجدد

هذه المجموعة من الفلاسفة اعتبرت الوحي باختصار نوعاً من (الشعور الباطن) وجاء في (دائرة معارف القرن العشرين) حول الوحي ما يلي:

(كان الغربيون إلى القرن السادس عشر كجميع الأُمم المتدينة يقولون بالوحي لأنّ كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء، فلمّا جاء العلم الجديد بشكوكه ومادياته ذهبت الفلسفة الغربية إلى أنّ مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة وتغالت حتى أنكرت الخالق والروح معاً وعللت ما ورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنّه إمّا اختلاق من المتنبئة أنفسهم لجذب الناس إليهم وتسخيرهم لمشيئتهم، وإمّا إلى هذيان مرض يعتري بعض العصبيين فيخيّل إليهم أنّهم يرون أشباحاً تكلمهم وهم لا يرون في الواقع شيئاً. روّج هذا التعليل في العالم الغربي حتى صار مذهب العلم الرسمي، فلمّا ظهرت آية الأرواح في أمريكا سنة ١٨٤٦ وسرت منها إلى أوروبا كلها وأثبت للناس بدليل محسوس وجود عالم روحاني آهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة تغيّر وجه النظر في المسائل الروحانية، ودبّت الحياة في مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة، وأعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي المقرر لا على أُسلوب التقليد الديني ولا من طريق الغرق في دوّامة الخيالات، فتوصّلوا إلى نتائج وإن كانت غير ما قرره علماء الدين الإسلامي إلاّ أنّها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أُحيل إلى عالم الأُمور الخرافية)[1].

والكلام في هذا المجال كثير، إلاّ أنّ خلاصته أنّهم اعتبروا الوحي تجلياً للوجدان الخفي وإظهاراً لعالم اللاشعور في الإنسان الذي هو أقوى بكثير من عالم الشعور فيه وبما أنّ الانبياء كانوا رجالاً متميّزين فقد كانوا يتمتعون بوجدان قوي جدّاً وذي ترشحات مهمّة.

نقد وتحليل

واضح أنّ ما تقوله هذه المجموعة هو افتراض بحت، حيث لم يذكروا أيّ دليل على ذلك، وفي الحقيقة فقد اعتبروا الأنبياء أفراداً لهم نبوغ فكري وشخصية عظيمة، دون أن يقبلوا بارتباطهم بمصدر عالم الوجود (الخالق العظيم) واكتسابهم للعلوم عن طريقه ومن خارج كيانهم.

دائرة المعارف القرن العشرين، لفريد وجدي مادة (وحى).

إنّ مصدر خطئهم هو أنّهم أرادوا قياس الوحي وفقاً لمعايير العلوم التجريبية، ونفي أيّ شيء خارج دائرتها، وجميع الموجودات في هذا العالم يجب أن تدرك بهذا المعيار، وإلاّ فهي غير موجودة.

هذا الأُسلوب من التفكير ترك آثاره السيئة، ليس في موضوع الوحي فحسب، بل في العديد من البحوث الفلسفية والعقائدية الأُخرى، لذا فإنّ هذا التفكير مرفوض من أساسه، لأنّهم لم يذكروا أيّ دليل على تقييد جميع الكائنات في العالم بالكائنات المادية وما ينتج عنها.

٣ - النبوغ الفكري

البعض الآخر تجاوز هذه الأقوال وأعلن بشكل رسمي أنّ الوحي نتيجة للنبوغ الفكري للأنبياء، ويقول: إنّ الأنبياء كانوا أفراداً ذوي فطرة طاهرة ونبوغ خارق، حيث كانوا يدركون مصالح المجتمع الإنساني، وبواسطته يضعون له المعارف والقوانين.

وهذا الكلام في الواقع ينكر بصراحة نبوّة الأنبياء، ويكذب أقوالهم، ويتهمهم بأنواع الأكاذيب (العياذ بالله).

وهكذا نرى أنّ أيّاً ممّا ذكرناه لا يعتبر تفسيراً للوحي، وإنّما هي افتراضات مطروحة في حدود الأفكار، ولأنّهم أصرّوا على عدم الاعتراف بوجود قضايا أُخرى خارج إطار معلوماتهم، لذا فإنّهم واجهوا الطريق المسدود.

الكلام الحق في الوحي

لا يمكننا الإحاطة - بلا شك - بحقيقة الوحي وارتباطاته، لأنّه نوع من الإدراك خارج عن حدود إدراكنا، وهو ارتباط خارج عن حدود ارتباطاتنا المعروفة. فعالم الوحي بالنسبة لنا عالم مجهول وفوق إدراكاتنا، فكيف يستطيع إنسان ترابي أن يرتبط مع مصدر عالم الوجود؟!

وكيف يرتبط الخالق الأزلي الأبدي مع مخلوق محدود وممكن الوجود! وكيف يتيقن النّبي عند نزول الوحي أنّ هذا الارتباط معه؟

هذه أسئلة يَصْعُب الجواب عليها بالنسبة لنا، ولا داعي للإصرار على فهمها.

أمّا الموضوع الذي يعتبر معقولاً بالنسبة لنا ويمكن قبوله فهو وجود - أو إمكانية وجود - هذا الارتباط المجهول.

فنحن نقول: لا يوجد أيّ دليل عقلي ينفي إمكانية مثل هذا الأمر، بل على العكس من ذلك حيث نرى ارتباطات مجهولة في عالمنا نعجز عن تفسيرها، وهذه الارتباطات تؤكّد وجود مرئيات ومدركات أُخرى خارج حدود حواسنا وارتباطاتنا.

ولا بأس من ذكر مثال لتوضيح هذا الموضوع:

لنفرض أنّنا كنّا في مدينة كلّ أهلها من العميان (عميان منذ الولادة) ونحن الوحيدون ننظر بعينين، فكل أهل المدينة لهم أربع حواس (على فرض أنّ الحواس الظاهرية للإنسان خمس) ونحن الوحيدون نملك خمس حواس. عندها سنشاهد أحداثاً كثيرة في هذه المدينة، وعندما نخبر أهل هذه المدينة سيتعجبون جميعهم من هذه الحاسة الخامسة التي تستطيع أن تدرك هذه الحوادث المتعددة، ومهما حاولنا شرح حاسة النظر لهم وفوائدها وآثارها فإنّهم لا يستطيعون فهم ذلك. فمن جانب لا يستطيعون نكران ذلك لإدراكهم آثارها، ومن جانب آخر لا يقدرون على درك حقيقة حاسة النظر، لأنّهم غير قادرين على النظر طيلة حياتهم ولو للحظة واحدة.

ولا نريد القول أنّ الوحي هو (الحاسة السادسة)، بل هو نوع من الارتباط والإدراك لعالم الغيب والذات الإلهيّة المقدسة، ولأنّنا نفقد ذلك لا نستطيع أن ندرك كنهه بالرغم من إيماننا بوجود الوحي لوجود آثاره.

إنّنا نرى رجالاً عظماء يدعون الناس إلى أُمور هي فوق مستوى أفكار البشر، ويدعوهم إلى الدين الإلهي، وعندهم من المعاجز الخارقة ما يفوق طاقة الإنسان، حيث توضح هذه المعاجز ارتباطهم بعالم الغيب، فالآثار واضحة إلاّ أنّ الحقيقة مخفية.

هل توصلنا - نحن - إلى معرفة جميع أسرار هذا العالم، كي ننفي الوحي لصعوبة إداركه بالنسبة لنا؟!

وحتى في عالم الحيوانات، فهناك ظواهر مجهولة نعجز عن تفسيرها، فهل توضحت لنا الحياة المجهولة لبعض الطيور المهاجرة التي قد تقطع ثمانية عشر ألف كيلومتر من القطب الشمالي وحتى الجنوبي أو العكس؟ فكيف تعرف هذه الطيور الطريق بدقة مع أنّها قد تسافر أحياناً في النهار وأحياناً أُخرى في الليالي المظلمة، في حين أنّنا لا نستطيع أحياناً أن نسير مقداراً يسيراً من طريقها ما لم يكن لدينا أجهزة ووسائل معيّنة توضّح لنا لمسير؟

وهناك بعض الأسماك التي تعيش في أعماق البحار والمحيطات، وعندما تريد أن

تضع بيوضها تعود إلى مسقط رأسها الذي يبعد أحياناً آلاف الكيلومترات، فكيف تستطيع هذه الأسماك أن تهتدي إلى مسقط رأسها بهذه السهولة؟!

وهناك العديد من هذه الأمثلة المجهولة في حياتنا تمنعنا إنكار ونفي كل شيء، وتذكّرنا بوصية الفيلسوف «ابن سينا» الذي يقول: «كل ما قرع سمعك من الغرائب فضعه في بقعة الإمكان ما لم يردك عنه قاطع البرهان».

والآن لنر أدلّة الماديين في إنكار الوحي.

منطق منكري الوحي

يذكر بعض الماديين لدى طرح مسألة الوحي بأنّ الوحي خلاف العلم!

وإذا سألناهم كيف ذلك؟ يقولون بلهجة المغرور والواثق من نفسه: إنّه يكفي لإنكار شيء أنّ العلوم الطبيعية لم تثبته. ونحن لا نقبل إلاّ المواضيع التي أثبتتها العلوم التجريبية وفق معاييرها الخاصة.

وإضافة لذلك فنحن لم نواجه في تحقيقاتنا العلمية حول جسم الإنسان وروحه، شيئاً مجهولاً يستطيع أن يربطنا بعالم ما وراء الطبيعة.

كيف يمكننا أن نصدق بأنّ الأنبياء، الذين هم بشر مثلنا، لهم إحساس غير إحساسنا وإدراك فوق أدراكنا؟

الإيراد الدائمي والرد الدائمي

مثل هذا التعامل للماديين مع الوحي لا يرتبط بهذه المسألة فحسب، فهؤلاء لهم مثل هذا التحليل حيال جميع القضايا التي تختص بما وراء الطبيعة، ولأجل التوضيح نقول لهم دائماً: لا تنسوا أنّ حدود العلم هي عالم المادة، والأجهزة والوسائل المستخدمة في البحوث العلمية - كالمختبرات والتلسكوبات والميكروسكوبات وقاعات التشريح - كلها محدودة بحدود هذا العالم، فهذه العلوم وأجهزتها لا تستطيع أن تتحدّث أبداً عمّا هو موجود خارج حدود عالم المادة، لا بالنفي ولا بالإثبات، والدليل على ذلك واضح، لأنّ هذه الأجهزة والوسائل لها قدرة محدودة ومحيط خاص بها.

بل إنّ أجهزة كلّ واحد من العلوم الطبيعية لا يستطيع أن يكون فاعلاً بالنسبة للعلم الآخر، فمثلاً نحن لا نستطيع أن ننكر وجود ميكروب السل إذا لم نشاهده بواسطة التلسكوب العظيم المستخدم في النجوم، أو ننفي وجود كوكب البلوتون لأنّنا لم نشاهده بواسطة الميكروسكوب أو المجهر.

فالوسائل تتناسب مع نوع العلم دائماً، أمّا الوسائل المستخدمة لمعرفة ما وراء الطبيعة، فهي ليست سوى الاستدلالات العقلية القوية التي تفتح لنا الآفاق نحو ذلك العالم الكبير.

فالذين يخرجون العلم عن محيطه وحدوده ليسوا علماء ولا فلاسفة، إنّما يدّعون ذلك، وفي نفس الوقت هم خاطئون وضالون.

المهم إنّنا نرى أشخاصاً عظاماً جاؤوا وذكروا لنا أُموراً هي خارج حدود معرفة البشر، وهذا يؤكّد ارتباطهم بما وراء عالم المادة، أمّا كيف يكون هذا الارتباط المجهول؟ فهذا ما لم يتضح لنا، إنّما المهم هو أنّنا نعلم بوجود مثل هذا الارتباط.

بعض الأحاديث في قضية الوحي

هناك روايات عديدة وردت في المصادر الإسلامية بخصوص الوحي، حيث توضّح جوانب من هذا الارتباط المجهول للأنبياء بمصدر الوحي:

١ - يمكن الاستفادة من بعض الرّوايات أنّ النّبي ﷺ كان في حالة عادية عند نزول الوحي عليه عن طريق الملك، إلاّ أنّه كان يشعر بحالة خاصة عند الارتباط المباشر - بدون واسطة - وأحياناً يشعر بالغشية، كما ورد في كتاب التوحيد للشيخ الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سألوه عن الغشية التي كانت تصيب رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي قال: «ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد، ذاك إذا تجلّى الله له»[(١)].

٢ - كان جبرئيل ينزل على النّبي ﷺ بشكل مؤدّب وباحترام كامل، كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «كان جبرئيل إذا أتى النّبي قعد بين يديه قعدة العبيد وكان لا يدخل حتى يستأذنه»[(٢)].

٣ - يمكن الاستفادة من روايات أُخرى أنّ النّبي ﷺ كان يُشخّص جبرئيل بشكل جيّد، وذلك بتوفيق من الله (والشهود الباطني) كما جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «ما علم رسول الله أنّ جبرئيل من قبل الله - إلاّ بالتوفيق»[(٣)].

٤ - هناك تفسير لقضية غشية النّبي ﷺ عند نزول الوحي ورد في حديث منقول عن ابن عباس حيث يقول: كان النّبي إذا نزل عليه الوحي وجد منه ألماً شديداً ويتصدع

(١) توحيد الصدوق، ص ١١٥، نقلاً عن بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦.
(٢) علل الشرائع، ج ١، ص ٧، ح ٢، نقلاً عن بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦.
(٣) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٦.

رأسه، ويجد ثقلاً (وذلك) قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾(١) وسمعت أنّه نزل جبرئيل على رسول الله ستين ألف مرّة(٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

التّفسير

القرآن روح من الخالق

بعد البحث العام الذي ورد في الآية السابقة بخصوص الوحي، تتحدّث الآيات التي نبحثها عن نزول الوحي على شخص الرّسول الأكرم ﷺ حيث تقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

قد تكون عبارة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأنواع الثلاثة للوحي الواردة في الآية السابقة، والتي تحققت جميعها بالنسبة للنبي ﷺ، فأحياناً كان يرتبط بذات الخالق المنزهة والمطهرة بشكل مباشر، وأحياناً عن طريق ملك الوحي، وأحياناً عن طريق سماع لحن خاص يشبه الأمواج الصوتية، كما أشارت الرّوايات الإسلامية إلى جميع ذلك، وبيّنا شرح ذلك في نهاية الآية السابقة.

وهناك قولان للمفسرين بخصوص المقصود من كلمة (روح) في هذه الآية:

الأوّل: إنّ المقصود هو القرآن الكريم، لأنّه أساس حياة القلوب وحياة جميع الأحياء، وقد اختار هذا القول أكثر المفسّرين(٣).

ويقول الراغب في مفرداته: سمي القرآن روحاً في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وذلك لكون القرآن سبب للحياة الأُخروية.

---

(١) سورة المزّمل، الآية: ٥.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٨، ص٢٦١.
(٣) الطبرسي في مجمع البيان، ج ٩، ص ٥٨، والشيخ الطوسي في تفسير التبيان، الفخر الرازي في التّفسير الكبير، المراغي في تفسير المراغي وجماعة آخرون.

وهذا المعنى يتلاءم بشكل كامل مع القرائن المختلفة الموجودة في الآية مثل عبارة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التي تشير إلى قضية الوحي، وعبارة ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وعبارات أُخرى بخصوص القرآن وردت في نهاية هذه الآية.

وبالرغم من أنّ (روح) وردت غالباً بمعاني أُخرى في سائر آيات القرآن، إلاّ أنّه - وفقاً للقرائن أعلاه - يظهر أنّها وردت هنا بمعنى القرآن.

وقد قلنا أيضاً في تفسير الآية (٢) من سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أنّ كلمة (روح) في هذه الآية - وفقاً للقرائن - وردت بمعنى (القرآن والوحي والنبوة) وفي الحقيقة فإنّ هاتين الآيتين تفسر إحداهما الأُخرى.

فكيف يمكن للقرآن أن لا يكون روحاً؟ في حين أنّنا نقرأ في الآية (٢٤) من سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

التّفسير الثّاني: أنّ المقصود هو (روح القدس) (أو ملك أفضل حتى من جبرائيل وميكائيل وكان يلازم النّبي دائماً).

ووفقاً لهذا التّفسير فإنّ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ تكون بمعنى (أنزلنا) يعني أنزلنا روح القدس عليك، أو ذلك الملك العظيم (بالرغم من أنّنا لم نر كلمة ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ لهذا المعنى في الآيات القرآنية الأُخرى). ويؤيّد ذلك بعض الروايات المذكورة في مصادر الحديث المعروفة، ولكن - كما قلنا - فإنّ التّفسير الأوّل أكثر ملاءمة مع الآية لوجود القرائن المتعددة، لذا يمكن أن تكون مثل هذه الرّوايات التي تفسّر الروح بمعنى روح القدس أو الملك المقرّب من الخالق، إشارة إلى المعنى الباطني للآية.

على أيّة حال، فإنّ الآية تضيف: (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا).

فهذا هو اللطف الإلهي الذي شملك وأنزل عليك هذا الوحي السماوي وآمنت بكل ما يحتويه.

فالإرادة الإلهيّة كانت تقتضي أن يهدي عباده الآخرين في ظل هذا النور السماوي، وأن يشمل الشرق والغرب - بل وجميع القرون والأعصار حتى النهاية - إضافة إلى هدايتك أنت إلى هذا الكتاب السماوي الكبير وتعليماته.

بعض المنحرفين فكرياً كانوا يتصورون أنّ هذه الجملة تبيّن أنّ الرّسول لم يكن يؤمن بالله قبل نبوته، في حين أنّ معنى الآية واضح، حيث إنّها تقول: إنّك لم تكن تعرف

القرآن قبل نزوله ولم تكن تعرف تعليماته لكي تؤمن به وهذا لا يتعارض أبداً مع اعتقاد الرّسول التوحيدي ومعرفته العالية بأُصول العبادة لله وعبوديته له.

والخلاصة، إنّ عدم معرفة محتوى القرآن يختلف عن موضوع عدم معرفة الله.

فحياة الرّسول ﷺ قبل مرحلة النبوة والواردة في كتب التاريخ، تعتبر دليلاً حيّاً على هذا المعنى. والأوضح من ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: «وقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره»[1].

وتضيف الآية في نهايتها: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فالقرآن نور للجميع وليس لك فحسب، وهو وسيلة لهداية البشر إلى الصراط المستقيم، وموهبة إلهيّة عظيمة بالنسبة للسائرين على طريق الحق، وهو ماء الحياة بالنسبة للعطاشى كي ينتهلوا منه.

وقد ورد نفس هذا المعنى بعبارة أُخرى في الآية (٤٤) من سورة فصلت حيث تقول الآية: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾.

ثم تقول الآية مفسرة للصراط المستقيم: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وهل هناك طريق أكثر استقامة من الطريق الذي ينتهي بخالق عالم الوجود؟

وهل هناك أحسن من هذا الطريق؟

فالسعادة الحقيقية هي السعادة التي يدعو إليها الخالق، والوصول إليها يجب أن يكون عبر الطريق الوحيد الذي انتخبه البارئ لها.

أمّا آخر جملة في هذه الآية - وهي آخر آية في سورة الشورى - فهي في الحقيقة دليل على أنّ الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذي يوصل إلى الخالق، حيث تقول: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

فبما أنّه يملك عالم الوجود ويحكمه ويدبره لوحده، وبما أنّ برامج تكامل الإنسان يجب أن تكون تحت إشراف هذا المدبّر العظيم، لذا فإنّ الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذي يوصل إليه، والطرق الأُخرى منحرفة وتؤدّي إلى الباطل، وهل هناك حق في هذا العالم غير ذاته المقدسة؟!

---

(١) نهج البلاغة - الخطبة ١٩٢ (الخطبة القاصعة).

هذه الجملة بُشرى للمتقين، وهي في نفس الوقت تهديد للظالمين والمذنبين، لأنّ الجميع سوف يرجعون إلى الخالق.

وهي دليل على أنّ الوحي يجب أن يكون من الخالق فقط، لأنّ جميع الأُمور ترجع إليه، وتدبير كلّ شيء بيده، ولهذا السبب وجب أن يكون الباري تعالى هو مصدر الوحي بالنسبة للأنبياء حتى تتمّ الهداية الحقيقية.

وهكذا نرى أنّ بداية ونهاية هذه الآيات منسجمة فيما بينها ومترابطة، ونهاية السورة - أيضاً - تتلاءم مع بدايتها والموضوع العام الساري عليها.

ملاحظات

١ - ماذا كان دين الرّسول الأعظم قبل نبوته؟

لا يوجد شك في أنّ الرّسول الأكرم ﷺ لم يسجد لصنم قبل بعثته أبداً، ولم ينحرف عن خط التوحيد، فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنى، إلاّ أنّ العلماء يختلفون في الدين الذي كان عليه:

فذهب بعضهم أنّه دين المسيح عليه السلام، لأنّ المسيحية كانت الدين الوحيد الرسمي غير المنسوخ قبل بعثة الرّسول ﷺ.

وقال البعض الآخر: إنّه دين إبراهيم عليه السلام، لأنّه (شيخ الأنبياء) وأبوهم، وقد ذكرت بعض آيات القرآن أنّ دين الإسلام هو دين إبراهيم: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

أمّا البعض الآخر فلم يذكر شيئاً واكتفى بالقول بأنّنا نعلم بأنّه كان على دين معيّن إلاّ أنّه لم يتوضح لنا ما هو.

وبالرغم من أنّ كلّا من هذه الأقوال يستند إلى دليل معيّن، إلاّ أنّها ليست قطعية، وأفضلها قول آخر وهو: لقد كان الرّسول ﷺ يملك برنامجاً خاصاً من قبل الخالق وكان يعمل به، وفي الحقيقة فقد كان له دين خاص حتى زمان نزول الإسلام عليه.

والدليل على هذا الكلام الجملة التي ذكرناها قبل قليل، والوارد في نهج البلاغة، وهو «ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره».

فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

والدليل الآخر هو أنّ التاريخ لم يذكر لنا أبداً أنّ الرّسول ﷺ انشغل بالعبادة في معابد اليهود أو النصارى أو الأديان الأُخرى، ولم يكن إلى جوار الكفار في معابدهم، ولا إلى جوار أهل الكتاب في كنائسهم، وفي نفس الوقت فقد استمر في سلوك طريق التوحيد وكان متمسكاً بقوة بالأُصول الأخلاقية والعبادة الإلهيّة.

وقد وردت عدّة روايات - وفقاً لنقل العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار - في المصادر الإسلامية عن أنّ الرّسول ﷺ كان مؤيّداً منذ بداية عمره بروح القدس. وحتماً فإنّه كان يعمل وفقاً لما يستلهمه من روح القدس(١).

ويرى العلاّمة المجلسي أنّ الرّسول ﷺ كان نبياً قبل أن يكون رسولاً، فالملائكة كانت تتحدّث معه أحياناً وكان يسمع صوتها، وأحياناً كان الإلهام الإلهي ينزل عليه ضمن الرؤيا الحقيقية الصادقة، وبعد أربعين سنة وصل إلى منزلة الرسالة ونزل القرآن والإسلام عليه، وقد ذكر لذلك ستة أدلة حيث يتلاءم بعضها مع ما ذكرناه أعلاه (للاستزادة راجع المجلد ١٨ من بحار الأنوار ص٢٧٧ فما بعدها).

٢ - الجواب على سؤال

بعد هذا البحث قد يُطرح هذا السؤال: لماذا تقول الآية: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ رغم ما ذكرناه من إيمان وأعمال النّبي ﷺ قبل نبوّته؟

وبالرغم من أنّه ورد جواب هذا السؤال بشكل موجز في تفسير الآية، إلاّ أنّه من الأفضل إعطاء توضيح أكثر بهذا الخصوص.

المقصود أنّ الرّسول ﷺ لم يكن يعرف بتفصيلات هذا الدين ولا بمحتوى القرآن، قبل نزوله وقبل تشريع الإسلام.

أمّا كلمة الإيمان، فلو لاحظنا أنّ هذه الكلمة وردت بعد الكتاب، وبملاحظة الجمل الأُخرى الواردة بعدها في الآية، يتّضح أنّ المقصود بها هو الإيمان بمحتوى هذا الكتاب السماوي وليس مطلق الإيمان، لذا لا يوجد أيّ تعارض مع ما ذكرناه، ولا يمكن أن تكون هذه الجملة وسيلة لذوي النفوس المريضة كي يستدلوا بها على نفي الإيمان بشكل مطلق عن الرّسول، وينكرون الحقائق التاريخية في هذا المجال.

وقد ذكر بعض المفسّرين أجوبة أُخرى لهذا السؤال منها:

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٨، ص٢٨٨.

أ - المقصود من الإيمان ليس الاعتقاد لوحده، بل مجموع الاعتقاد والإقرار باللسان والأعمال وهذا هو المقصود به في التعبير الإسلامي.

ب - المقصود من الإيمان هو الاعتقاد بالتوحيد والرسالة، ونحن نعلم أنّ النّبي كان موحداً، إلاّ أنّه لم يكن يؤمن برسالته بعد.

ج - المقصود من الإيمان هو أركان الإيمان التي لا يتوصل إليها الإنسان عن طريق العقل، والطريق الوحيد لذلك هو الأدلة النقلية (مثل العديد من خصوصيات المعاد).

د - هناك محذوف في هذه الآية وفي التقدير: ما كنت تدري كيف تدعو الخلق إلى الإيمان[١].

ولكن حسب اعتقادنا فإنّ المعنى الأوّل أفضل المعاني وأكثرها تلاؤماً مع محتوى الآية.

٣ - ملاحظة أدبية

هناك كلام كثير حول الضمير في جملة: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ لمن يعود، فذهب البعض أنّ المقصود هو القرآن نفسه، الكتاب السماوي العظيم لرسول الإسلام ﷺ، ويحتمل أن يكون هذا النور هو النور الإلهي لـ (الإيمان).

ولكن الأفضل أن يعود هذا الضمير إلى الاثنين (القرآن والإيمان)، فما داما ينتهيان إلى حقيقة واحدة، لذا فلا مانع من أن يعود الضمير المفرد إليهما.

إلهي، نوّر قلوبنا دائماً بنور الايمان بك، واهدنا بلطفك إلى الخير والسعادة.

إلهي، ترحّم علينا بالصبر والتحمل حتى لا نطغى عند النعم ولا نجزع عند المصائب والفتن.

إلهي، اجعلنا في صفّ المؤمنين المخلصين في ذلك اليوم الذي يكون فيه الظالمون والمستكبرون حيارى تائهين، والمؤمنون مصونين في ظل حمايتك.

---

(١) تفسير الآلوسي في روح المعاني، ج ٢٥، ص٥٥، وقد ذكر احتمالات أُخرى إلاّ أنّنا لم نذكرها لعدم أهميتها.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الرابع والعشرون

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

سُورَة الزُّخْرُف

مكيّة وعدد آياتـها تسع وثمانون

محتوى سورة الزّخرف

سورة الزخرف من السور المكّية،إلاّ الآية (٤٥) منها، فإنّ جمعاً من المفسّرين اعتبرها مدنيّة، وربّما كان السبب هو أنّ ما تبحثه الآية يتعلق على الأغلب بأهل الكتاب، أو بقصّة المعراج، وكلا البحثين يتناسب مع المدينة أكثر، وسنوضّح المطلب في تفسير هذه الآية إن شاء الله تعالى.

وعلى أيّة حال، فإنّ طبيعة السور المكّية - والتي تدور غالباً حول محور العقائد الإسلاميّة من المبدأ والمعاد والنبوّة والقرآن والإنذار والتبشير - منعكسة ومتجلّية فيها.

ويمكن تلخيص مباحث هذه السورة بصورة موجزة، في سبعة فصول:

الفصل الأوّل: وهو بداية السورة، ويتحدّث عن أهمّية القرآن المجيد، ونبوّة نبيّ الإسلام ﷺ، ومواجهة المشركين لهذا الكتاب السماوي.

الفصل الثّاني: يذكر قسماً من أدلّة التوحيد في الآفاق، ونعم الله المختلفة على البشر.

الفصل الثّالث: ويكمّل هذه الحقيقة عن طريق محاربة الشرك، ونفي ما ينسب إلى الله عزّوجلّ من الأقاويل الباطلة، ومحاربة التقاليد العمياء، والخرافات والأساطير، كالتشاؤم من البنات، أو الاعتقاد بأنّ الملائكة بنات الله عزّوجلّ.

الفصل الرّابع: ينقل جانباً من قصص الأنبياء الماضين وأممهم، وتاريخهم لتجسيد هذه الحقائق، ويؤكّد على حياة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام بصورة خاصّة.

الفصل الخامس: يتعرض إلى مسألة المعاد، وجزاء المؤمنين، ومصير الكفّار المشؤوم، ويحذّر المجرمين ويهدّدهم بتهديدات وتحذيرات وإنذارات قويّة.

الفصل السّادس: وهو من أهمّ فصول هذه السورة، ويتناول القيم الباطلة التي كانت ولا تزال حاكمة على أفكار الأشخاص المادّيين، ووقوعهم في مختلف الاشتباهات حينما يقيّمون مسائل الحياة ويزنونها بالميزان الدنيويّ حتى أنّهم كانوا يتوقّعون أن ينزل

القرآن الكريم على رجل غني عظيم الثراء، لأنّهم كانوا يعتبرون قيمة الإنسان في ثرائه! لهذا نرى القرآن في آيات عديدة من هذه السورة يهاجم هذا النمط من التفكير الساذج والجاهل ويحاربه، ويوضح المثل الإسلاميّة والإنسانيّة السامية.

الفصل السّابع: وهو فصل المواعظ والنصائح العميقة المؤثّرة حيث يكمل الفصول الأُخرى، ليجعل من مجموع آيات السورة دواءً شافياً تماماً يترك أقوى الأثر في نفس السامع. وقد أخذ اسم هذه السورة (الزخرف) من الآية (٣٥) منها، والتي تتحدث في القيم المادّية.

فضل تلاوة السّورة

لقد ذكر فضل عظيم لتلاوة هذه السورة في الرّوايات الإسلاميّة في مختلف كتب التّفسير والحديث، ومن جملتها ما ورد في حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف، كان ممن يقال له يوم القيامة: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾»[1].

لا شكّ أنّ الخطاب بـ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ هو عين ما ورد في الآية (٦٨)، وجملة ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ أُخذت من الآية (٧٠)، وجملة ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من لوازم الكلام، وقد وردت في عدّة من آيات القرآن الأُخرى. وعلى أيّة حال، فإنّ هذه البشارة العظمى، والفضيلة التي لا تقدّر، لا تحصل بمجرّد التلاوة الخالية من التدبر والإيمان والعمل الصالح، لأنّ التلاوة مقدّمة للفكر، والإيمان والعمل الصالح ثمرة له.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، بداية سورة الزخرف.

التّفسير

ذنوبكم لا تمنع رحمتنا!

مرّة أُخرى نواجه الحروف المقطّعة في بداية هذه السورة، وهي حروف (حم)، وهذه رابع سورة تبدأ بـ(حم) وتتلوها ثلاث سور أُخرى أيضاً، فتشكّل هذه السور السبع بمجموعها (أسرة حم) وهي بالترتيب: المؤمن، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، والأحقاف.

وقد بحثنا الحروف المقطّعة بصورة مفصّلة فيما سبق (راجع بداية سورة البقرة، بداية آل عمران، أوّل الأعراف، بداية سورة «فصلت» في خصوص حم).

ويقسم تعالى بالقرآن الكريم في الآية الثّانية، فيقول: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾. قسماً بهذا الكتاب الواضحة حقائقه، والبيّنة معانيه ومفاهيمه، والظاهرة دلائل صدقه، والمبيّنة طرق هدايته ورشاده.

ثمّ يضيف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

إنّ كون القرآن عربيّاً، إمّا بمعنى أنّه نزل بلغة العرب التي هي أوسع لغات العالم في بيان الحقائق، وقادرة على تبيان دقائق المطالب بكل جمال ودقّة في التعبير، أو بمعنى فصاحته - لأنّ أحد معاني كلمة (عربي) هو «الفصيح» وهي إشارة إلى أنا قد جعلناه في منتهى الفصاحة وغايتها، لتظهر الحقائق جيّداً من خلال كلماته وجمله، ويدركها الجميع جيداً.

والطّريف أنّ القسم وجوابه - هنا - شيء واحد، فهو تعالى يقسم بالقرآن أنّه جعل القرآن عربيّاً ليستفيد الجميع منه ويعقلوا آياته، وربّما كان هذا إشارة إلى أنّه لم يكن هناك شيء أجلّ من القرآن ليقسم به، فإنّ ما هو أسمى من القرآن نفس القرآن، لأنّه كلام الله سبحانه، وكلام الله مبيّن لذاته المقدّسة.

ولا يدلّ التعبير بـ(لعل) على أنّ الله سبحانه يشك في تأثير القرآن، أو أنّ الكلام هنا عن الرجاء والأمل الذي يصعب الوصول إليه وتحقّقه، بل إنّه يشير إلى تفاوت الأرضيّات الفكرية والأخلاقيّة لسامعي آيات القرآن الكريم، ويشير أيضاً إلى أنّ تأثير

---

(١) الواو في ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ للقسم، وجواب هذا القسم جملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

القرآن يستلزم توفر شروط معيّنة أُشير إليها إجمالاً بكلمة (لعل). وقد أوردنا تفصيلاً أكثر لهذا المعنى في ذيل الآية (٢٠٠) من آل عمران.

ثمّ يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات أُخرى لهذا الكتاب السماوي، فيقول: ﴿وَإِنَّهُ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ ويشير في الصفة الأُولى إلى أن القرآن الكريم قد حُفظ وأُثبت في أمّ الكتاب لدى الله سبحانه، كما نقرأ ذلك أيضاً في الآيتين (٢١) و (٢٢) من سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

والآن، لنر ما هو المراد من ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أو «اللوح المحفوظ»؟

«الأُم» في اللغة تعني أصل كل شيء وأساسه، وإنّما يقول العرب للأم أمّاً لأنّها أساس العائلة ومأوى الأولاد، وعلى هذا فإنّ ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني الكتاب الذي يكون أساساً لكل الكتب السماويّة، وهو ذلك اللوح المحفوظ لدى الله سبحانه، والمصون من كل تغيير وتبديل وتحريف.. إنّه كتاب علم الله المحفوظ لديه، والذي أُدرجت فيه كل حقائق العالم، وكل حوادث الماضي والمستقبل، وكل الكتب السماويّة، ولا يستطيع أي أحد أن يصل إليه ويعلم ما فيه، إلاّ إذا أراد الله سبحانه أن يُعلم أحداً بالمقدار الذي يريده عزّوجلّ.

وهذا وصف عظيم للقرآن الذي ينبع من علم الله اللامتناهي، وأصله وأساسه لديه سبحانه، ولهذا يقول في الصفة الثّانية: ﴿لَعَلِىٌّ﴾ وفي الثالثة ﴿حَكِيمٌ﴾.

إنّ الشيء الذي ينبعث من علم الله اللامتناهي يجب أن يكون بهذه الصفات.

واعتقد البعض أنّ سموّ القرآن وعلوّ مقامه نابع من أنه فاق كلّ الكتب السماويّة، ونسخها جميعاً، وهو في أرفع مراتب الإعجاز.

واعتبر البعض الآخر علوّ القرآن لاحتوائه على حقائق لا تدركها أفكار البشر، وهي بعيدة عن مدى ما تستوعبه عقولهم - إضافة إلى الحقائق التي يفهمها الجميع من ظاهر القرآن.

ولا تتضارب هذه المعاني فيما بينها حيث تجتمع كلّها في مفهوم (عَلِيّ).

وهنا مسألة تستحق الانتباه، وهي أنّ (الحكيم) صفة للشخص عادة، لا الكتاب، لكن لمّا كان هذا الكتاب السماوي بنفسه معلماً عظيماً وناطقاً بالحكمة ناشراً لها، فإنّ هذا التعبير في محله تماماً.

وقد وردت كلمة «الحكيم» بمعنى المستحكم الحصين أيضاً، وكلّ هذه المعاني

جمعت في اللفظة المذكورة، وهي صادقة في شأن القرآن الكريم، لأنّه حكيم بكل هذه المعاني.

وفي الآية التّالية يخاطب المنكرين للقرآن والمعرضين عنه، فيقول: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؟

صحيح أنّكم لم تألوا جهداً في مخالفتكم للحق وعدائه، ووصلتم في المخالفة إلى حدّ الإفراط والإسراف، إلاّ أنّ رحمة الله سبحانه واسعة بحدٍّ لا تشكل هذه الأعمال المناوئة حاجزاً في طريقها، ونظل نُنزل باستمرار هذا الكتاب السماوي الذي يوقظكم، وآياته التي تبعث الحياة فيكم، حتى تهتزّ القلوب التي لها أدنى حظ من الاستعداد وتثوب إلى طريق الحقّ، وهذا هو مقام رحمة الله العامّة، أي: رحمانيته التي تشمل العدوّ والصديق، والمؤمن والكافر.

جملة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ﴾ جاءت هنا بمعنى: أفنصرف عنكم، لأنّ الراكب إذا أراد أن يحوّل دابّته إلى طريق آخر، فإنّه يحوّله بضربه بالسوط أو بشيء آخر، ولذلك فإنّ كلمة الضرب تستعمل في مثل هذه الموارد بدلاً من الصرف(١).

«الصفح» في الأصل بمعنى جانب الشيء وطرفه، ويأتي أيضاً بمعنى العرض والسعة، وهو في الآية بالمعنى الأوّل، أي: أنحوّل عنكم هذا القرآن الذي هو أساس التذكرة إلى جانب وطرف آخر؟

«المسرف» من الإسراف، وهو تجاوز الحدّ، إشارة إلى أنّ المشركين وأعداء النبي ﷺ لم يقفوا عند حدّ في خلافهم وعدائهم مطلقاً.

ثمّ يقول في عبارة قصيرة كشاهد على ما قيل، وتسليةً لخاطر النّبي ﷺ وتهديداً للمنكرين المعاندين: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾.

إنّ هذه المخالفات وأنواع السخرية لم تكن لتمنع لطف الله ورحمته أبداً، فإنّها فيض متواصل من الأزل إلى الأبد، ووجود يعمُّ عطاؤه كلّ العباد، بل إنّه سبحانه قد خلقهم للرحمة ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٢)، ولهذا فإنّ إعراضكم وعنادكم سوف لا يمنع لطفه مطلقاً،

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٩.

وينبغي أن لا يفتر النّبي ﷺ والمؤمنون الحقيقيّون، فإنّ لهذا الإعراض عن الحق واتباع الشهوات والهوى والميول تاريخاً طويلاً.

لكن، ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء بأنّ لطف الله اللامتناهي سيحول دون عقابهم في النهاية، لأنّ العقاب بنفسه من مقتضى حكمته، ولذلك يضيف في الآية التالية: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فالآية تخاطب النّبي ﷺ بأنّنا سبق وأن ذكرنا لك نماذج كثيرة من هذه الأقوام العاصية الطاغية، وأوحينا إليك تفصيل حالهم بدون زيادة أو نقصان، وكان من بينهم أقوام أقوى وأشدّ من مشركي العرب كثيراً، ولهم إمكانيّات وثروات وأفراد وجيوش وإمكانات واسعة... كفرعون وآل فرعون، والتاريخ، وأوضح من ذلك أن تتدبّروا ما نزل في القرآن في شأنهم لتعلموا أيّها الطغاة المعاندون أنّكم لستم في مأمن من عذاب الله الأليم أبداً.

«البطش» - كما يقول الراغب في المفردات - بمعنى أخذ الشيء بالقوّة، وهنا اقترن بكلمة «أشدّ» وتعطي مفهوم شدّة القوّة والقدرة أكثر.

والضمير في ﴿مِنْهُم﴾ يعود على مشركي العرب الذين خوطبوا في الآيات السابقة، إلاّ أنّهم ذكروا هنا بصيغة الغائب، لأنّهم ليسوا أهلاً للاستمرار في مخاطبتهم من قبل الله تعالى.

واعتبر بعض كبار المفسّرين جملة ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إشارة إلى المطالب التي جاءت في السورة السابقة - سورة الشورى - حول جماعة من هؤلاء، إلاّ أنّه لا دليل لدينا على هذا التحديد، خاصّة وأنّه قلّما أشير إلى حوادث الأُمم الماضية في سورة الشورى، في حين وردت بحوث مفصّلة حولهم في سور أُخرى من القرآن.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذه الآية تشبه ما مرّ في الآية (٧٨) من سورة القصص، حيث تقول: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾؟!

أو ما مرّ في الآية (٢١) من سورة المؤمن حيث حذّرت مشركي العرب إذ تقول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾؟!

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

بعض أدلّة التوحيد

من هنا يبدأ البحث حول التوحيد والشرك، فتستعين الآيات بفطرة هؤلاء وطينتهم لإثبات التوحيد، وبعد أن تبيّن الأدلّة الموجودة في عالم الوجود، وتذكر خمسة نماذج من مواهب الله العظيمة وتثير فيهم حسّ الشكر، تتطرّق إلى إبطال اعتقادهم الخرافي فيما يتعلق بالأصنام ومختلف أنواع الشرك.

يقول سبحانه في القسم الأوّل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

إنّ هذا التعبير الذي ورد بتفاوت يسير في أربع آيات من القرآن الكريم - العنكبوت ٦١، لقمان ٢٥، الزمر ٣٨ والزخرف في الآية التي نبحثها[(١)] - دليل على كون معرفة الله سبحانه أمر فطري مغروس في طينة البشر وطبيعتهم من جانب، ومن جانب آخر يدلّ على أنّ المشركين كانوا مقرّين بأن خالق السماوات والأرض هو الله سبحانه، ولايعتقدون بأنّ معبوداتهم خالقة إلاّ في موارد نادرة.

ومن جانب ثالث فإنّ هذا الاعتراف أساس ودعامة لإبطال عبوديّة الأصنام، لأنّ

(١) جاء في موضعين آخرين من القرآن اعتراف هؤلاء بكون الله خالقاً ، غايته أنّ أحدهما في شأن نزول المطر من السماء (العنكبوت - ٦٣) والآخر في كون الله سبحانه خالقهم (الزخرف - ٨٧).

الذي يكون أهلاً للعبادة هو خالق الكون ومدبّره، لا الموجودات التي لا حظّ لها في هذا المجال، وبناء على هذا، فإنّ اعترافهم بكون الله سبحانه خالقاً كان دليلاً قاطعاً على بطلان مذهبهم ودينهم الفاسد.

والتعبير بـ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والذي يبيّن قدرة الله المطلقة، وعلمه وحكمته، وإن كان تعبيراً قرآنياً، إلاّ أنّه لم يكن أمراً ينكره المشركون، لأنّ لازم الاعتراف بكون الله سبحانه خالقاً للسماء والأرض وجود هاتين الصفتين فيه، وهؤلاء المشركين كانوا يعتقدون بعلم أصنامهم وقدرتها، فكيف بالله الذي يعتقدون أنّ أصنامهم وسيلة إليه، وتقربّهم إليه زلفى؟!

ثمّ يشير سبحانه إلى خمس نعم من نعم الله العظيمة، والتي تعتبر كلّ منها نموذجاً من نظام الخلقة، وآية من آيات الله سبحانه، فيقول أولاً: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

إنّ لفظتي «المهد» و«المهاد» تعني المحلّ الذي أُعدّ للجلوس والنوم والاستراحة، ويقال في الأصل للمكان الذي يضعون فيه الطفل لينام «مهد».

أجل... إنّ الله سبحانه جعل الأرض مهداً للإنسان، ومع أنّ لها عدّة حركات بفعل قانون الجاذبيّة، ورغم الطبقة الغازيّة العظيمة التي أحاطت بها من كلّ جانب، فإنّها هادئة ومستقرّة بحيث لا يشعر ساكنوها بأيّ إزعاج ونعلم أنّ الهدوء النفسي هو الدعامة الأساسيّة للاستفادة من النعم الأُخرى والتنعّم بها، ولا شكّ أنّ هذه العوامل المختلفة ما لم تنسجم مع بعضها، ويكمل بعضها بعضاً، فليس بالإمكان تحقّق هذا الهدوء والإطمئنان مطلقاً.

ثمّ يضيف سبحانه لتبيان النعمة الثانية: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

لقد أشير إلى هذه النعمة عدّة مرات في القرآن المجيد (سورة طه - ٥٣، الأنبياء - ٣١، النحل - ١٥ وغيرهنّ)، وهي من النعم التي غفل عنها الكثيرون، لأنّا نعلم أنّ التضاريس تعمّ كلّ اليابسة تقريباً، وفيها الجبال العظيمة والصغيرة والتلال والهضاب، والبديع أن توجد بين أعظم سلال جبال العالم فواصل يستطيع الإنسان أن يشقّ طريقه من خلالها، وقلّما اتّفق أن تكون هذه الجبال سبباً لانفصال أقسام الكرة الأرضية عن بعضها تماماً، وهذا واحد من أسرار نظام الخلقة، ومن مواهب الله سبحانه وعطاياه للعباد.

وإضافة إلى ما مرّ، فإنّ كثيراً من أجزاء الكرة الأرضية ترتبط مع بعضها بواسطة طرق

المواصلات البحريّة، وهذا يدخل أيضاً في عموم معنى الآية[١].

واتضح ممّا قلناه أنّ المراد من جملة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هو الهداية إلى الهدف، واكتشاف مناطق الأرض المختلفة، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشارة إلى الهداية لأمر التوحيد ومعرفة الله. ولا مانع من جمع هذين المعنيين.

وذكرت الموهبة الثالثة - وهي موهبة نزول المطر، وإحياء الأراضي الميّتة - في الآية التالية: ﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم يوم البعث.

إنّ التعبير بكلمة «قدر» إشارة لطيفة إلى النظام الخاص الذي يحكم نزول الأمطار، حيث إنّها تنزّل بمقدار كاف يكون مفيداً ومثمراً، ولا يؤدّي إلى الخسارة والإتلاف.

صحيح أنّه قد يؤدّي بعض الأحيان إلى حدوث فيضانات، وجريان السيول، وتدمير الأراضي، إلاّ أنّ هذه الحالات استثنائيّة، ولها صبغة التحذير، فالأعمّ الأغلب من الأمطار مفيدة ومربحة، فنموّ كلّ الأشجار والنباتات والأزهار والمزارع المثمرة، من بركة نزول المطر الموزون هذا، ولو لم يكن لنزول المطر نظام، لما حصلت كلّ هذه البركات.

الآية الثانية تستخدم جملة «أنشرنا» - من مادّة النشور - لتجسيد انبعاث عالم النباتات، فإنّ الأراضي اليابسة التي تضمّ بذور النباتات كما تضمّ القبور أجساد الموتى، تتحرك وتحيا بنفخة صور نزول المطر، وتهتزّ فتخرج أموات النبات رؤوسها من التراب، ويقوم محشرها وتقع قيامتها التي تمثل صورة لقيامة البشر، والتي أشير إليها في نهاية هذه الآية وفي آيات عديدة أُخرى من القرآن المجيد.

وبعد ذكر نزول المطر وحياة النباتات، يشير في المرحلة الرّابعة إلى خلق أنواع الحيوانات، فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿الْأَزْوَاجَ﴾ كناية عن أنواع الحيوانات بقرينة ذكر النباتات في الآية السابقة، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشارة إلى كلّ أنواع الموجودات، سواء الحيوان والنبات والجماد، لأنّ قانون الزوجيّة يحكمها جميعاً، فلكلّ جنس ما يخالفه: السماء

---

(١) كلمة «السبل» - جمع سبيل - تطلق على الطرق البرّية والبحريّة، كما نقرأ في الفقرة (٤٢) من دعاء الجوشن «يا من في البرّ والبحر سبيله».

والأرض، الليل والنهار، النور والظلام، المرّ والحلو، اليابس والرطب، الشمس والقمر، الجنّة والنّار، إلاّ ذات الله المقدّسة فإنّها أحديّة، ولا سبيل للزوجيّة إليها أبداً.

لكن كما قلنا، فإنّ القرائن الموجودة توحي بأنّ المراد هو «أزواج الحيوانات»، ونعلم أنّ قانون الزوجيّة سنّة حياتيّة في كلّ الكائنات الحيّة، والعيّنات النادرة الاستثنائية لا تقدح بعموميّة هذا القانون.

واعتبر البعض ﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ بمعنى أصناف الحيوانات، كالطيور والدواب والمائيّات والحشرات وغيرها.

وفي المرحلة الخامسة تبيّن الآيات آخر نعمة من هذه السلسلة، وهي المراكب التي سخّرها الله سبحانه للبشر لطيّ الطرق البريّة والبحريّة، فيقول سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

إنّ هذه النعمة هي إحدى مواهب الله سبحانه للبشر، وكراماته التي منّ بها عليهم، وهي لا تلاحظ في الأنواع الأُخرى من الموجودات، وذلك أنّ الله سبحانه قد حمل الإنسان على المراكب التي تعينه في رحلاته البحريّة والصحراويّة، كما جاء ذلك في الآية (٧٠) من سورة الإسراء: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

والحقّ أنّ وجود هذه المراكب يضاعف أنشطة الإنسان ويوسّع حياته عدّة أضعاف، وحتى الوسائل السريعة السير التي نراها اليوم، والتي صنعت بالاستفادة من مختلف خواصّ الموجودات، ووضعت تحت تصرّف الإنسان، فإنّها من ألطاف الله الظاهرة، تلك الوسائل التي غيّرت وجه حياته، ومنحت كلّ شيء السرعة، وأهدت له كلّ أنواع الراحة.

وتذكر الآية التالية الهدف النهائي لخلق هذه المراكب فتقول: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

إنّ جملة: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إشارة إلى أنّ الله سبحانه قد خلق هذه المراكب على هيئة تستطيعون معها ركوبها بصورة جيّدة، وتصلون إلى مقاصدكم براحة ويسر(١).

(١) الضمير في ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يعود على «ما» الموصولة والتي وردت في جملة ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ وهي تشمل السفن والدواب، وكونه مفرداً لظاهر اللفظ.

لقد أوضحت هذه الآية هدفين لخلق هذه المراكب البحريّة والبريّة، من الفلك والأنعام، أحدهما: ذكر نعم الله سبحانه حين الاستواء على ظهورها، والآخر: تنزيه الله سبحانه الذي سخّرها للإنسان، فقد جعل الفلك على هيئة تقدر أن تشقّ صدر الأمواج وتسير نحو المقصد، وجعل الدواب والأنعام خاضعة لأمر الإنسان ومنقادة لإرادته.

﴿مُقْرِنِينَ﴾ من مادة «إقران»، أي امتلاك القدرة على شيء، وقال بعض أرباب اللغة: إنّه يعني مسك الشيء وحفظه، وفي الأصل بمعنى وقوع الشيء قريناً لشيء آخر، ولازم ذلك القدرة على حفظه(١).

بناء على هذا، فإنّ معنى جملة ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ هو أنّه لو لم يكن لطف الله وعنايته لما كان بإمكاننا السيطرة على هذه المراكب وحفظها، ولتحطمت بفعل الرياح المخالفة لحركة السفن، وكذلك الحيوانات القويّة التي تفوق قوّتها قوّة الإنسان أضعافاً، ما كان الإنسان ليستطيع أن يقترب منها مطلقاً لولا روح التسليم التي تحكمها، ولذلك حين يغضب أحد هذه الحيوانات ويفقد روح التسليم، فإنّه سيتحوّل إلى موجود خطر لا يقوى عدّة أشخاص على مقابلته، في حين أنّ من الممكن في حالة سكونها ودعتها - أن تربط عشرات، بل مئات منها بحبل وزمام، ويسلّم بيد صبي ليذهب بها حيث يشاء، وكأنّ الله سبحانه يريد أن يبيّن للإنسان نعمة الحالة الطبيعيّة للحيوانات من خلال بيان الحالة الاستثنائيّة.

وتذكر آخر آية - من هذه الآيات - قول المؤمنين لدى ركوبهم المركب، إذ يقولون: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

هذه الجملة إشارة إلى مسألة المعاد بعد الحديث حول التوحيد، لأنّ الانتباه إلى الخالق والمبدأ، يلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائماً.

وهي أيضاً إشارة إلى أن لا تغترّوا عندما تركبون هذه المراكب وتتسلّطون عليها، ولا تغرقوا في مغريات الدنيا وزخارفها، بل يجب أن تكونوا دائماً ذاكرين للآخرة غير ناسين لها، لأنّ حالات الغرور تشتد وتتعمّق في مثل هذه الموارد خاصّة، والأشخاص الذين يتّخذون مراكبهم ووسائط نقلهم وسيلة للتعالي والتكبّر على الآخرين ليسوا بالقليلين.

---

(١) جاء في لسان العرب: «أقرن له وعليه»: أطاق وقوي عليه واعتلى، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

ومن جهة ثالثة، فإنّ الاستواء على المركب والانتقال من مكان إلى آخر يذكّرنا بانتقالنا الكبير من هذا العالم إلى العالم الآخر.

نعم... فنحن أخيراً ننقلب إلى الله سبحانه.

ملاحظة

ذكر الله عند الانتفاع بالنعم

من النكات الجميلة التي تلاحظ في آيات القرآن الكريم، أنّ المؤمنين قد عُلّموا أدعية يقرؤونها عند التنعّم بمواهب الله سبحانه ونعمه... تلك الأدعية التي تصقل روح الإنسان وتهذّبها بمحتوياتها البنّاءة، وتبعد عنها آثار الغرور والغفلة.

فيأمر الله سبحانه نوحاً عليه السلام أن: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

ويأمره أيضاً أن يقول عند طلب المنزل المبارك: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾(٢).

وهو سبحانه يأمرنا في هذه الآيات أن نشكر نعم الله تعالى، وأن نُسبّح الله عزّ وجلّ عند الاستواء على ظهورها.

فإذا تحوّل ذكر المنعم الحقيقي عند كلّ نعمة ينعم بها إلى طبع وملكة في الإنسان، فسوف لا يغرق في ظلمة الغفلة، ولا يسقط في هاوية الغرور، بل إنّ المواهب والنعم الماديّة ستكون له سلّماً إلى الله سبحانه!

وقد ورد في سيرة الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه ما وضع رجله في الركاب إلاّ وقال: «الحمد لله»، وإذا ما استوى على ظهر الدابّة فإنّه يقول: «الحمد لله على كلّ حال، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون»(٣).

وجاء في حديث آخر عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه رأى رجلاً ركب دابّة فقال: سبحان الذي سخّر لنا هذا، فقال له: «ما بهذا أُمرت، أُمرت أن تقول: «الحمد لله الذي هدانا للإسلام، الحمد لله الذي منّ علينا بمحمّد، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمّة أخرجت للناس، ثمّ تقول: سبحان الذي سخّر لنا هذا»(٤)، إشارة إلى أنّ الآية

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٩.
(٣) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٧، ص ١٩٩.
(٤) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٧، ص ١٩٩.

لم تأمر بأن يقال: سبحان الذي سخّر لنا هذا، بل أُمرت أوّلاً بذكر نعم الله العظيمة: نعمة الهداية إلى الإسلام، نعمة نبوّة النّبي ﷺ، نعمة جعلنا في زمرة خير أُمّة، ثمّ تسبيح الله على تسخيره لما نركب!

وممّا يستحقّ الانتباه أنّه يستفاد من الرّوايات أنّ من قال عند ركوبه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ فسوف لن يصاب بأذى بأمر الله! وقد روي هذا المطلب في حديث في الكافي عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام [1].

ونكتشف من خلال ذلك البون الشاسع بين تعليمات الإسلام البنّاءة هذه، وبين ما يلاحظ من جماعة من المغرورين ومتّبعي الأهواء والميول الذين يتّخذون وسائط نقلهم وسيلة للفخر ولإظهار أنفسهم بمظهر العزيز الوجيه، وقد يجعلونها سبباً لارتكاب أنواع المعاصي كما ينقل «الزمخشري» في الكشّاف عن بعض السلاطين أنّه يركب مركبه الخاص يريد الذهاب من مدينة إلى أُخرى التي تبعد عنها مسافة شهر فكان يكثر من شرب الخمر لئلاّ يحسّ بطول الطريق وتعبه، ولا يفيق من سكره إلاّ حين يصل تلك المدينة!

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات الله؟

بعد تثبيت دعائم التوحيد بوسيلة ذكر آيات الله سبحانه في نظام الوجود، وذكر نعمه ومواهبه، تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك، أي محاربة الشرك وعبادة غير الله تعالى،

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٥٩٣؛ وأُصول الكافي، ج ٣، ص ٤٧١، ح ٥.

فتطرّقت أوّلاً إلى أحد فروعها، أي عبادة الملائكة فقالت: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ فظنّوا أنّ الملائكة بنات الله سبحانه، وأنّها آلهتهم، وكانت هذه الخرافة القبيحة رائجة بين الكثيرين من عبدة الأوثان.

إنّ التعبير بـ «الجزء» يبيّن من جانب أنّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكة أولاد الله تعالى، لأنّ الولد جزء من وجود الأب والأمّ، وينفصل عنهما كنطفة تتكوّن وتتلقّح، وإذا ما تلقّحت تَكوّن الولد من تلك اللحظة. ويبيّن من جانب آخر قبولهم عبادتها، لأنّهم كانوا يظنّون الملائكة جزءاً من الآلهة في مقابل الله سبحانه.

ثمّ إنّ هذا التعبير استدلال واضح على بطلان اعتقاد المشركين الخرافي، لأنّ الملائكة إن كانت أولاداً لله سبحانه، فإنّ ذلك يستلزم أن يكون لله جزء، ونتيجة ذلك أنّ ذات الله مركبة سبحانه، في حين أنّ الأدلّة العقليّة والنقليّة شاهدة على بساطة وجوده وأحديّته، لأنّ الجزء مختصّ بالموجودات الممكنة.

ثمّ تضيف: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ فمع كل هذه النعم الإلهيّة التي أحاطت بوجوده، والتي مرّ ذكر خمس منها في الآيات السابقة، فإنّه بدل أن يطأطئ رأسه إعظاماً لخالقه، وإجلالاً لولي نعمته، سلك سبيل الكفر واتّجه إلى مخلوقات الله ليعبدها!

في الآية التي بعدها يستثمر القرآن الثوابت الفكريّة لدى هؤلاء من أجل إدانة هذا التفكير الخرافي، لأنّهم كانوا يرجّحون جنس الرجل على المرأة، وكانوا يعدّون البنت عاراً - عادةً - يقول تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾؟ فإذا كان مقام البنت أدنى في اعتقادكم، فكيف ترجّحون أنفسكم وتعلونها على الله، فتجعلون نصيبه بنتاً، ونصيبكم ولداً؟

صحيح أنّ المرأة والرجل متساويان في القيم الإنسانيّة السامية عند الله سبحانه، إلاّ أنّ الاستدلال باعتقادات المخاطب يترك أحياناً في فكره أثراً يدفعه إلى إعادة النظر فيما يعتقد.

وتتابع الآية التالية هذا البحث ببيان آخر، فتقول: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

والمراد من ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ هم الملائكة الذين كانوا يعتبرونهم بنات الله، وكانوا يعتقدون في الوقت نفسه أنّها آلهتهم، وأنّها شبيهة به - سبحانه - ومثله.

إنّ لفظة ﴿كَظِيمٌ﴾ من مادّة «كظم»، وتعني الحلقوم، وجاءت أيضاً بمعنى غلق فم قربة الماء بعد امتلائها، ولذلك فإنّ هذه الكلمة استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضباً أو غمّاً وحزناً، وهذا التعبير يحكي جيّداً عن خرافة تفكير المشركين البله في عصر الجاهليّة فيما يتعلق بولادة البنت، وكيف أنّهم كانوا يحزنون ويغتمّون عند سماعهم بولادة بنت لهم، إلاّ أنّهم في الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ الملائكة بنات الله سبحانه!

وتضيف في الآية الكريمة: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾(١).

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالباً، تنبعثان من ينبوع عاطفتهنّ، إحداهما: تعلّق النساء الشديد بأدوات الزينة، والأُخرى: عدم امتلاكهنّ القدرة الكافية على إثبات مرادهنّ أثناء المخاصمة والجدال لحيائهنّ وخجلهنّ.

لا شكّ أنّ بعض النسوة ليس لديهنّ هذا التعلّق الشديد بالزينة، ولا شكّ أيضاً أنّ التعلّق بالزينة ومحبّتها في حدود الاعتدال لا يعد عيباً في النساء، بل أكّد عليها الإسلام، إلاّ أنّ المراد هو أكثريّة النساء اللاتي تعوّدن على الافراط في الزينة في أغلب المجتمعات البشريّة، وكأنّهن يولدن بين أحضان الزينة ويتربّين في حجرها.

وكذلك لا يوجد أدنى شكّ في أنّ بعض النسوة ارتقين أعلى الدرجات في قوّة المنطق والبيان، لكن لا يمكن إنكار ضعف النساء عند المخاصمة والبحث والجدال، إذا ما قورنت بقدرة الرجال، وذلك بسبب خجلهنّ وحيائهنّ.

والهدف بيان هذه الحقيقة، وهي: كيف تظنّون وتعتقدون بأنّ البنات أولاد الله سبحانه، وأنّكم مصطفون بالبنين؟

وتذكر الآية الأخيرة - من هذه الآيات - هذا المطلب بصراحة أكثر، فتقول: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾.

أجل.. إنّهم عباد الله، مطيعون لأمره، ومسلمون لإرادته، كما ورد ذلك في الآيتين (٢٦)، (٢٧) من سورة الأنبياء: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

إنّ التعبير بكلمة ﴿عِبَادٌ﴾ في الواقع ردّ على ظنّ هؤلاء، لأنّ الملائكة لو كانت

(١) «ينشأ» من مادة «الإنشاء»، أي إيجاد الشيء، وهنا بمعنى تربية الشيء وتنميته، و«الحلية» تعني الزينة، و«الخصام» هز المجادلة والنزاع على شيء ما.

مؤنّثاً لوجب أن يقول: (عبدات)، لكن ينبغي الانتباه إلى أنّ العباد تطلق على جمع المذكّر وعلى الموجودات التي تخرج عن إطار المذكر والمؤنث كالملائكة، ويشبه ذلك استعمال ضمائر المفرد المذكّر في حقّ الله سبحانه، في حين أنّه تعالى فوق كلّ هذه التقسيمات.

وجدير بالذكر أنّ كلمة ﴿عِبَٰدُ﴾ قد أضيفت إلى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في هذه الجملة، ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أن أغلب الملائكة منفذون لرحمة الله، ومدبرون لقوانين عالم الوجود وأنظمته، وكل ذلك رحمة.

لكن لماذا وجدت هذه الخرافة بين عرب الجاهليّة؟ ولماذا بقيت ترسباتها إلى الآن في أذهان جماعة من الناس؟ حتى أنّهم يرسمون الملائكة ويصورونها على هيئة المرأة والبنت، بل حتى إذا أرادوا أن يرسموا ما يسمى بملك الحرية فإنّهم يرسمونه على هيئة امرأة جميلة طويلة الشعر!

يمكن أن يكون هذا الوهم نابعاً من أنّ الملائكة مستورون عن الأنظار، والنساء مستورات كذلك، ويلاحظ هذا المعنى في بعض موارد المؤنث المجازي في لغة العرب، حيث يعتبرون الشمس مؤنثاً مجازيّاً والقمر مذكراً، لأنّ قرص الشمس مغطى عادة بأمواج نورها فلا سبيل للنظر إليه، بخلاف قرص القمر.

أو أن لطافة الملائكة ورقتها قد سببت أن يعتبروها كالنساء، حيث إنّ النساء أكثر رقّة ولطافة إذا قيست بالرجال.

والعجيب أنّه بعد كل هذه المحاربة الإسلامية لهذا التفكير الخرافي وإبطاله، فإنّهم إذا ما أرادوا أن يصفوا امرأة فإنّهم يقولون: إنّها ملك، أمّا في شأن الرجال فقلما يستعمل هذا التعبير، وكذلك قد يختارون كلمة الملك والملاك اسماً للنساء!

ثمّ تجيبهم الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري فتقول: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾؟ وتضيف في النهاية: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

لقد ورد ما قرأناه في هذه الآيات بصورة أُخرى في سورة النحل الآيات (٥٦ - ٦٠) أيضاً، وقد أوردنا هناك بحثاً مفصّلاً حول عقائد عرب الجاهليّة فيما يتعلق بمسألة الوأد، وعقيدتهم في جنس المرأة، وكذلك حول دور الإسلام في إحياء شخصيّة المرأة ومقامها السامي.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾

التّفسير

لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين!

أعطت الآيات السابقة أوّل جواب منطقي على عقيدة عبدة الأوثان الخرافيّة، حيث كانوا يظنون أنّ الملائكة بنات الله، والجواب هو: إنّ الرؤية والحضور في موقف ما ضروري قبل كل شيء لإثبات ادّعاء ما، في حين لا يقوى أي عابد وثن أن يدّعي أنّه كان حاضراً حين خلق الملائكة، وأنّه رأى كيفيّة ذلك الخلق بعينه.

وتتابع هذه الآيات نفس الموضوع، وتسلك مسالك أُخرى لإبطال هذه الخرافة القبيحة، فتتعرض أوّلاً - وبصورة مختصرة - لأحد الأدلة الواهية لهؤلاء ثمّ تجيب عليه، فتقول: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾.

إنّ هذا التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بالجبر، وأن كل ما يصدر منا فهو بإرادة الله، وكل ما نفعله فهو برضاه أو أنّه لو لم يكن راضياً عن أعمالنا وعقائدنا لوجب أن ينهانا عنها، ولما لم ينهنا عنها فإنّ ذلك دليل على رضاه.

الحقيقة، أنّ هؤلاء اختلقوا خرافات جديدة من أجل توجيه عقائدهم الخرافية الفاسدة الأولى، وافتروا أكاذيب جديدة لإثبات أكاذيبهم الأولى، وأيّاً من الاحتمالين - أعلاه - كان مرادهم، فهو فاسد من الأساس.

صحيح أنّ كل شيء في عالم الوجود لا يكون إلاّ بإذن الله تعالى، إلاّ أنّ هذا لا يعني الجبر، إذ يجب أن لا ننسى أنّ الله سبحانه هو الذي أراد لنا أن نكون مختارين وأحراراً في اختيارنا وتصرفنا، ليختبرنا ويربينا.

وصحيح أيضاً أنّه يجب أن ينهى الله سبحانه عباده عن الباطل، لكن لا يمكن إنكار أنّ جميع الأنبياء قد تصدّوا لردع الناس عن كل نوع من أنواع الشرك والازدواجيّة في العبادة.

إضافة إلى ذلك، فإنّ عقل الإنسان السليم ينكر هذه الخرافات أيضاً أليس العقل - هو رسول الله الداخلي - في أعماق الإنسان؟!

وتجيب الآية في النهاية بجملة قصيرة على هذا الاستدلال الواهي لعبدة الأصنام، فتقول: ﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

إنّ هؤلاء لا علم ولا إيمان لهم حتى بمسألة الجبر أو رضى الله سبحانه عن أعمالهم، بل هم - ككثير من متبعي الهوى والمجرمين الآخرين - يتخذون مسألة الجبر ذريعة لهم من أجل تبرئة أنفسهم من الذنب والفساد، فيقولون: إنّ يد القضاء والقدر هي التي جرتنا إلى هذا الطريق وحتمته علينا! مع علمهم بأنّهم يكذبون، وأن هذه ذريعة ليس إلاّ، ولذلك فإن أحداً لو اغتصبهم حقّاً فإنّهم غير مستعدين أبداً لغض النظر عن معاقبته مطلقاً، ولا يقولون: إنّه كان مجبراً على عمله هذا!

﴿يَخْرُصُونَ﴾ من الخرص، وهو في الأصل بمعنى التخمين، وأطلقت هذه الكلمة أوّلاً على تخمين مقدار الفاكهة، ثمّ أطلقت على الحدس والتخمين، ولما كان الحدس والتخمين يخطئ أحياناً ولا يطابق الواقع، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً، و﴿يَخْرُصُونَ﴾ في هذه الآية من هذا القبيل.

وعلى أيّة حال، فيظهر من آيات قرآنية عديدة بأن عبدة الأوثان كانوا يستدلون - مراراً - بمسألة المشيئة الإلهيّة من أجل توجيه خرافاتهم، ومن جملة ذلك أنّهم كانوا قد حرّموا على أنفسهم أشياء وأحلّوا أُخرى، ونسبوا ذلك إلى الله سبحانه، كما جاء ذلك في الآية (١٤٨) من سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾.

وتكرر هذا المعنى في الآية (٣٥) من سورة النحل أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾.

وقد كذّبهم القرآن الكريم في ذيل آية سورة الأنعام، حيث يقول: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ ويصرح في ذيل آية سورة النحل: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾؟!

وفي ذيل الآية مورد البحث ينسبهم إلى التخمين والكذب كما رأينا، وكلها ترجع في الحقيقة إلى أساس ومصدر واحد.

وتشير الآية التالية إلى دليل آخر يمكن أن يكونوا قد استدلوا به، فتقول: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ

كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾[١]؟ أي يجب على هؤلاء أن يتمسّكوا بدليل العقل لإثبات هذا الادّعاء، أو بدليل النقل، في حين لم يكن لهؤلاء دليل لا من العقل ولا من النقل، فإنّ كل الأدلّة العقلية تدعو إلى التوحيد، وكذلك دعا كل الأنبياء والكتب السماوية إلى التوحيد.

وأشارت آخر آية - من هذه الآيات - إلى ذريعتهم الأصلية، وهي في الواقع خرافة لا أكثر، أصبحت أساساً لخرافة أخرى، فتقول: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

لم يكن لهؤلاء دليل إلاّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد، والعجيب أنّهم كانوا يظنون أنّهم مهتدون بهذا التقليد، في حين لا يستطيع أي إنسان عاقل حر أن يستند إلى التقليد في المسائل العقائدية والأساسية التي يقوم عليها بناؤه الفكري، خاصة إذا كان التقليد تقليد «جاهل لجاهل»، لأنا نعلم أنّ آباء أُولئك المشركين لم يكن لهم أدنى حظ من العلم، وكانت أدمغتهم مليئة بالخرافات والأوهام، وكان الجهل حاكماً على أفكارهم ومجتمعاتهم، كما توضح ذلك الآية (١٧٠) من سورة البقرة: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟

التقليد يصحّ في المسائل الفرعية وغير الأساسية فقط، وأيضاً يجب أن يكون تقليداً لعالم، أي رجوع الجاهل إلى العالم، كما يرجع المريض إلى الطبيب، وغير المتخصصين إلى أصحاب الاختصاص، وبناء على هذا فإنّ تقليد هؤلاء كان باطلاً بدليلين.

لفظة «الأُمّة» تطلق - كما يقول الراغب في المفردات - على الجماعة التي تربط بعضها مع البعض الآخر روابط، إمّا من جهة الدين، أو وحدة المكان، أو الزمان، سواء كانت حلقة الاتصال تلك اختيارية أم إجباريّة. ومن هنا استعملت هذه الكلمة أحياناً بمعنى المذهب، كما هو الحال في الآية مورد البحث، إلاّ أن معناها الأصلي هو الجماعة والقوم، وإطلاق هذه الكلمة على الدين يحتاج إلى قرينة[٢].

---

(١) «أم» هنا متصلة، وهي معطوفة على ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾، والضمير في ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يعود إلى القرآن. وما احتمله البعض من أن (أم) هنا منقطعة، أو أنّ الضمير يرجع إلى الرّسول، لا يتناسب كثيراً مع القرائن التي في الآية.

(٢) في جملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ خبر (إنّ) و﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ متعلق به، وأمّا ما احتمله البعض من أن ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ خبر أوّل، و﴿مُّهْتَدُونَ﴾ خبر ثان، فيبدو بعيداً عن الصواب.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا
عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ
عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

عاقبة هؤلاء المقلدين

تواصل هذه الآيات موضوع الآيات السابقة حول الدليل الأصلي للمشركين في عبادتهم للأصنام، وهو تقليد الآباء والأجداد، فتقول: إن هذا مجرّد ادعاء واه من مشركي العرب: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾.

يستفاد من هذه الآية جيداً أنّ المتصدين لمحاربة الأنبياء، والذين كانوا يقولون بمسألة تقليد الآباء ويدافعون عنها بكل قوّة، كانوا من المترفين والأثرياء السكارى والمغرورين، لأنّ (المترف) من مادة (التّرَفُّه) أي كثرة النعمة، ولما كان كثير من المنعمين يغرقون في الشهوات والأهواء، فإنّ كلمة «المترف» تعني مَن طغى بالنعمة وغرق في سكرتها وأصبح مغروراً[1]، ومصداق ذلك - على الأغلب - الملوك والجبابرة والأثرياء المستكبرون والأنانيون.

نعم، هؤلاء هم الذين تتعرض مصالحهم وأنانيّاتهم للفناء بثورة الأنبياء، ويحدق الخطر بمنافعهم وثرواتهم اللامشروعة، ويتحرّر المستضعفون من مخالبهم، ولهذا كانوا يسعون إلى تخدير الناس وإبقائهم جهلاء بمختلف الأساليب والحيل، وأغلب فساد الدنيا ينبع من هؤلاء المترفين الذين يتواجدون في أماكن الظلم والتعدي والمعصية والفساد والرذيلة.

وجدير بالذكر، أنّنا قرأنا في الآية السابقة أن هؤلاء كانوا يقولون: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ وهنا يذكر القرآن أنّهم يقولون: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ وبالرغم من أنّ

(١) نقرأ في لسان العرب: أترفته النعمة، أي: أطغته.

التعبيرين يعودان إلى معنى واحد في الحقيقة، إلاّ أنّ التعبير الأوّل إشارة إلى دعوى أحقيّة مذهب الآباء، والتعبير الثّاني إشارة إلى إصرار هؤلاء وثباتهم على اتّباع الآباء والإقتداء بهم.

وعلى أية حال فإنّ هذه الآية نوع من التسلية لخاطر النّبي الأكرم ﷺ والمؤمنين ليعلموا أنّ ذرائع المشركين واستدلالاتهم هذه ليست بالشيء الجديد، إذ إنّ هذا الطريق سلكه كل المنحرفين الضالين على مر التاريخ.

وتبيّن الآية التالية جواب الأنبياء السابقين على حجج هؤلاء المشركين والمنحرفين بوضوح تام، فتقول: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾(١)؟

هذا التعبير هو أكثر التعابير المؤدبة الممكن طرحها أمام قوم عنيدين مغرورين، ولا يجرح عواطفهم أو يمسها مطلقاً، فهو لا يقول: إن ما تقولونه كذب وخرافة، بل يقول: إن ما جئت به أهدى من دين آبائكم، فتعالوا وانظروا فيه وطالعوه.

إنّ مثل هذه التعبيرات القرآنية تعلمنا آداب المحاورة والمجادلة وخاصّة أمام الجاهلين المغرورين.

ومع كل ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا غرقى الجهل والتعصب والعناد بحيث لم يؤثّر فيهم حتى هذا المقال المؤدب الرقيق، فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ دون أن يأتوا بأيّ دليل على مخالفتهم، ودون أن يتأملوا في الاقتراح المعقول المتين لأنبياء الله ورسله.

من البديهي أنّ مثل هؤلاء الأقوام الطاغين المعاندين، لا يستحقون البقاء، وليست لهم أهليّة الحياة، ولابدّ أن ينزل عذاب الله ليقتلع هذه الأشواك من الطريق ويطهره منها، ولذلك فإنّ آخر آية - من هذه الآيات - تقول: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ فبعضهم بالطوفان، وآخرون بالزلزلة المدمرة، وجماعة بالعاصفة والصاعقة، وخلاصة القول: إنّا دمّرنا كل فئة منهم بأمر صارم فأهلكناهم.

وأخيراً وجهت الآية الخطاب إلى النّبي ﷺ من أجل أن يعتبر مشركو مكّة أيضاً، فقالت: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فعلى مشركي مكّة المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

---

(١) لهذه الجملة محذوف تقديره: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم. تفسير الكشاف، المراغي، القرطبي، وروح المعاني.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

التّفسير

التوحيد كلمة الأنبياء الخالدة

أشارت هذه الآيات إشارة موجزة إلى قصّة إبراهيم، وما جرى له مع قوم بابل عبدة الأوثان، لتكمل بذلك بحث ذم التقليد، الذي ورد في الآيات السابقة، وذلك لأنّه:

أوّلاً: إنّ إبراهيم عليه السلام كان الجدّ الأكبر للعرب، وكانوا يعدونه محترماً ويقدّسونه، ويفتخرون بتأريخه، فإذا كان اعتقادهم وقولهم هذا حقّاً فيجب عليهم أن يتبعوه عندما مزّق حجب التقليد، وإذا كان سبيلهم تقليد الآباء، فلماذا يقلّدون عبدة الأوثان ولا يتّبعون إبراهيم عليه السلام.

ثانياً: إنّ عبدة الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهي - وهو اتّباع الآباء - فلم يقبله إبراهيم منهم أبداً، كما يقول القرآن الكريم في سورة الأنبياء -٥٣، ٥٤: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

ثالثاً: إنّ هذه الآية نوع من التطييب لخاطر الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الأوائل ليعلموا أنّ مثل هذه المخالفات والتوسّلات بالمعاذير والحجج الواهية كانت موجودة دائماً، فلا ينبغي أن يضعفوا أو ييأسوا.

تقول الآية الأولى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾[1]، ولما كان كثير من عبدة الأصنام يعبدون الله أيضاً، فقد استثناه إبراهيم مباشرة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾.

إنّه عليه السلام يذكر في هذه العبارة الوجيزة دليلاً على انحصار العبوديّة بالله تعالى، لأنّ

(١) ﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر، وهي تعني التبرؤ، ولها في مثل هذه الموارد معنى الوصف بشكل مؤكّد والمبالغة، كـ(زيد عدل) ولما كانت مصدراً فقد تساوى فيها المفرد والجمع، والمذكر والمؤنث.

المعبود هو الخالق والمدبر، وكان الجميع مقتنعين بأنّ الخالق هو الله سبحانه، وكذلك أشار عليه السلام في هذه العبارة إلى مسألة هداية الله التكوينيّة والتشريعيّة التي يوجبها قانون اللطف[١].

وقد ورد هذا المعنى في سورة الشعراء، الآيات ٧٧ - ٨٢ أيضاً.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام من أنصار أصل التوحيد، ومحاربة كل أشكال الشرك طوال حياته وحسب، بل إنّه بذل قصارى جهده من أجل إبقاء كلمة التوحيد في هذا العالم إلى الأبد، كما تبيّن ذلك الآية التالية إذ تقول: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢].

والطريف أنّ كل الأديان التي تتحدّث عن التوحيد اليوم تستلهم دعوتها وأفكارها من تعليمات إبراهيم عليه السلام التوحيديّة، وأنّ ثلاثة من أنبياء الله العظام - وهم موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم - من ذرّيته، وهذا دليل على صدق تنبؤ القرآن في هذا الباب.

صحيح أنّ أنبياء آخرين قبل إبراهيم عليه السلام - كنوح عليه السلام - قد حاربوا الشرك والوثنيّة، ودعوا البشر إلى التوحيد، إلاّ أنّ الذي منح هذه الكلمة الاستقرار والثبات، ورفع رايتها في كلّ مكان، كان إبراهيم عليه السلام محطّم الأصنام، فهو عليه السلام لم يسعَ لاستمرار خطّ التوحيد في زمانه وحسب، بل إنّه طلب استمرار هذا الأمر من الله سبحانه في أدعيته إذ قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[٣].

ثمّة تفسير آخر، وهو: إنّ الضمير في (جعل) يعود إلى الله سبحانه، فيكون معنى الجملة: إنّ الله سبحانه قد جعل كلمة التوحيد في أسرة إبراهيم.

غير أنّ رجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السلام - وهو التّفسير الأوّل يبدو أنسب، لأنّ الجمل السابقة تتحدّث عن إبراهيم، ومن المناسب أن يكون هذا الجزء من جملة أعمال إبراهيم، خاصّة وأنّه قد أكّد على هذا المعنى في آيات عديدة من القرآن الكريم، وإنّ

---

(١) طبقاً لهذا التّفسير، فإنّ الاستثناء في جملة ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ متصل، لأنّ كثيراً من عبدة الأوثان لم يكونوا منكرين لله، بل كانوا يشركون معه غيره، إلاّ أنّه احتمل أيضاً أن يكون الاستثناء منقطعاً، و(إلاّ) بمعنى (لكن) لأنّ التعبير بـ ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يشير إلى الأصنام، فإنّ هذا التعبير غير متعارف في شأن الله تعالى. (تأمّل).

(٢) «العقب» في الأصل بمعنى كعب القدم، إلاّ أنّ هذه الجملة استعملت فيما بعد في الأولاد وأولاد الأولاد بصورة واسعة.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

إبراهيم كان مصرّاً على أن يبقى بنوه وعقبه على دين الله، كما نقرأ في الآيتين (١٣١)، (١٣٢) من سورة البقرة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

والتصوّر بأنّ (جعل) يعني الخلق وأنّه مختصّ بالله سبحانه تصوّر خاطىء لأنّ الجعل يطلق على أعمال البشر وغيرهم أيضاً وفي القرآن نماذج كثيرة لذلك فمثلاً عبّر القرآن عن إلقاء يوسف في البئر من قبل إخوته بالجعل: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾[1].

اتّضح ممّا قلناه أنّ ضمير المفعول في ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعود إلى كلمة التوحيد وشهادة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويستفاد هذا من جملة: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ التي تخبر عن مساعي إبراهيم من أجل استمرار خط التوحيد في الأجيال القادمة.

وورد في روايات عديدة من طرق أهل البيت عليهم السلام اعتبار مرجع الضمير إلى مسألة الإمامة، وضمير الفاعل يرجع إلى الله طبعاً، أي إنّ الله سبحانه قد جعل مسألة الإمامة مستمرّة في ذريّة إبراهيم عليه السلام، كما يستفاد من الآية (١٢٤) من سورة البقرة، إذ لما قال الله سبحانه لإبراهيم: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ طلب إبراهيم عليه السلام أن يكون أبناؤه أئمّة أيضاً، فاستجاب الله دعاءه، إلاّ في الذين ظلموا وتلوّثوا بالمعصية والجور: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إلاّ أنّ الإشكال الذي يتبادر لأوّل وهلة هو أنّه لا كلام عن الإمامة في الآية مورد البحث، اللهمّ إلاّ أن تكون جملة ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إشارة إلى هذا المعنى، لأنّ هداية النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام شعاع من هداية الله المطلقة، وحقيقة الهداية والإمامة واحدة.

والأفضل من ذلك أن يقال: إنّ مسألة الإمامة مندرجة في كلمة التوحيد، لأنّ للتوحيد فروعاً أحدها التوحيد في الحاكميّة والولاية والقيادة، ونحن نعلم أنّ الأئمّة يأخذون ولايتهم وزعامتهم من الله سبحانه، لا أنّهم مستقلّون بأنفسهم، وبهذا فإنّ هذه الرّوايات تعتبر من قبيل بيان مصداق وفرع من المعنى العام لـ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ ولهذا فإنّه لا منافاة مع التّفسير الذي ذكرناه في البداية. (فتأمّل!)[2].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥.

(٢) نقل صاحب نور الثقلين هذه الأحاديث في ج ٤، ص ٥٩٦ - ٥٩٧، ووردت أيضاً في تفسير البرهان، ج٤، ص ١٣٨ - ١٣٩.

والجدير بالملاحظة هنا: هو أنّ المفسّرين قد احتملوا عدّة احتمالات في تفسير ﴿فِي عَقِبِهِ﴾ ففسّرها البعض بكلّ ذريّة إبراهيم وأسرته، واعتبرها آخرون خاصّة بقوم إبراهيم وأمّته، وفسّرها جماعة بآل محمّد عليهم السلام إلاّ أنّ الظاهر هو أنّ لها معنى واسعاً يشمل كل ذريته إلى انتهاء الدنيا، والتّفسير بآل محمّد عليهم السلام من قبيل بيان المصداق الواضح لها.

والآية التالية جواب عن سؤال في الحقيقة، وهو: في مثل هذه الحال لِمَ لا يعذّب الله مشركي مكّة؟ ألم نقرأ في الآيات السابقة: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؟

فتقول الآية مجيبة: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ فنحن لم نكتف بحكم العقل ببطلان الشرك والوثنيّة، ولا بحكم وجدانهم بالتوحيد، بل أمهلناهم لإتمام الحجّة عليهم حتى يقوم هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا النّبي العظيم محمّد صلى الله عليه وآله بهدايتهم.

وبتعبير آخر، فإنّ جملة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ في الآية السابقة توحي بأنّ الهدف من مساعي إبراهيم عليه السلام الحثيثة كان رجوع كل ذرّيته إلى خط التوحيد، في حين أن العرب كانت تدعي أنّها من ذرية إبراهيم عليه السلام ورغم ذلك لم ترجع، إلاّ أنّ الله سبحانه أمهلهم مع ذلك حتى يأتي النّبي العظيم بالكتاب الجديد ليوقظ هؤلاء من نومهم، وبالفعل فقد استيقظت جماعة عظيمة منهم.

إلاّ أنّ العجيب أنّه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾!

نعم... لقد عدّوا القرآن المجيد سحراً، والنّبي الأكرم صلى الله عليه وآله ساحراً، وإذا لم يرجعوا عمّا قالوا فإنّ عذاب الله سيحيط بهم ويأخذهم من حيث لا يشعرون.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

التّفسير

لِمَ لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟

كان الكلام في الآيات السابقة في ذرائع المشركين في مواجهة دعوة الأنبياء، فكانوا

يتّهمونهم بالسحر تارة، ويتوسلون تارة أخرى بتقليد الآباء وينبذون كلام الله وراء ظهورهم، وتشير الآيات - مورد البحث - إلى حجّة واهية أُخرى من حجج أُولئك المشركين، فتقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي مكّة والطائف.

لقد كانوا معذورين بتشبثهم بمثل هذه الذريعة من جهة، إذ كان المعيار في تقييمهم للبشر هو المال والثروة والمقام الظاهري والشهرة.

إنّ صغار العقول هؤلاء كانوا يتصوّرون أنّ الأثرياء، وزعماء قبائلهم الظلمة هم أقرب الناس إلى الله سبحانه، ولذلك فإنّهم كانوا يتعجبون لماذا لم تنزل موهبة النبوّة والرحمة الإلهيّة العظيمة هذه على رجل من قبيل هؤلاء الأفراد ونزلت على يتيم فقير خالي اليد اسمه محمّد! إن هذا لشيء عجاب لا يكاد يصدق!

نعم، إنّ نظام القيم الخاطئ يستتبع مثل هذا الاستنباط، وهذا هو السبب في بلاء المجتمعات البشرية العظيم، والعامل الأساس في انحرافها الفكري، حيث تقلب الحقائق تماماً في بعض الأحيان.

إنّ حامل هذه الدعوة الإلهيّة يجب أن يكون إنساناً تغمر وجوده روح التقوى... أن يكون إنساناً واعياً، ذا إرادة وتصميم، شجاعاً عادلاً، عارفاً بآلام المحرومين والمظلومين، ذائقاً لمرارتها...

هذه هي القيم التي يلزم توفّرها من أجل حمل هذه الرسالة السماويّة، لا الألبسة الفاخرة الجميلة، والقصور الفخمة الفارهة المزيّنة بأنواع الزينة والزخارف، خاصّة وأن أيّاً من أنبياء الله لم يكن متمتعاً بهذه الصفات والمزايا المادية، لئلاّ تشتبه القيم الأصيلة بالقيم المزيّفة.

وللمفسّرين أقوال في مراد المشركين من الرجل في مكّة والطائف؟ إلاّ أنّ أغلبهم اعتبروا «الوليد بن المغيرة» رجل مكّة، و«عروة بن مسعود الثقفي» رجل الطائف، وإن كان البعض قد ذكر أن عتبة بن ربيعة من مكّة، وحبيب بن عمر الثقفي من الطائف.

إلاّ أنّ الظاهر أن قول أُولئك المشركين لم يكن يدور حول شخص معين، بل كان هدفهم الإشارة إلى أحد الأثرياء المعروفين، وله عشيرة مشهورة.

ويردّ القرآن الكريم بأجوبة قاطعة على هذا النمط من التفكير المتسافل الخرافي، ويجسد النظرة الإلهيّة الإسلاميّة تماماً، فيقول أوّلاً: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ فيمنحوا

النبوّة من يشاؤون، وينزلوا عليه الكتاب السماوي، وإذا لم يعجبهم إنسان أهملوه؟

هؤلاء على خطأ كبير، فإنّ ربّك هو الذي يقسم رحمته، وهو يعلم - أفضل من سواه - من يستحق هذا المقام العظيم، ومن هو أهل له، كما ورد ذلك في الآية (١٢٤) من سورة الأنعام أيضاً: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

فضلاً عن ذلك، فإنّ وجود التفاوت والاختلاف بين البشر من ناحية مستوى المعيشة، لا يدلّ على تفاوتهم في المقامات والمنازل المعنويّة مطلقاً، بل: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

لقد نسي هؤلاء أنّ حياة البشر حياة جماعيّة، ولا يمكن أن تدار هذه الحياة إلاّ عن طريق التعاون والخدمة المتبادلة، فإذا ما تساوى كلّ الناس في مستوى معيشتهم وقابليّاتهم ومكانتهم الاجتماعية، فإنّ أصل التعاون والخدمة المتبادلة سيتزلزل.

بناء على هذا فينبغي أن لا يخدعهم هذا التفاوت، ويظنّوا أنّه معيار القيم الإنسانية، إذ: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ بل إن كل المقامات والثروات لا تعدل جناح بعوضة في مقابل رحمة الله والقرب منه.

إنّ التعبير بـ ﴿رَبِّكَ﴾ الذي تكرّر مرّتين في هذه الآية، إشارة لطيفة إلى لطف الله الخاص بنبيّ الإسلام الأكرم ﷺ، ومنحه مقام النبوّة والخاتميّة.

سؤالان مهمّان

عند مطالعة الآية أعلاه يتبادر إلى الذهن سؤالان يستخدمهما أعداء الإسلام كحربة للطعن في الفلسفة الإسلاميّة:

الأوّل: كيف أقرّ القرآن استخدام الإنسان وتسخيره من قبل الإنسان؟ ألا يماثل هذا نظام الطبقات الاقتصاديّة، أي نظام المستثمِرين والمستثمرين؟

الثّاني: أنّ الأرزاق والمعايش إذا كانت مقسّمة من قبل الله تعالى، فأي ثمرة يمكن أن تنتج عن جهودنا ومساعينا؟ ألا يعني هذا إطفاء مشاعل السعي ومصابيح الجهاد من أجل الحياة؟

إنّ الإجابة على هذه الأسئلة تتّضح بالتدقيق في متن الآية، لأنّ هؤلاء يتصورون أنّ معنى الآية هو أنّ جماعة معيّنة من البشر تسخر جماعة أُخرى لأنفسها تسخيراً ظالماً يمتصّ الدماء والجهود، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل هو استخدام الناس بعضهم بعضاً، أي أنّ كل جماعة من الناس لهم إمكانيّات واستعدادات خاصّة يستطيعون العمل

بواسطتها في مجال ما من شؤون الحياة، وهم بطبيعة الحال يقدمون خدماتهم في ذلك الحقل إلى الآخرين، كما أنّ خدمات الآخرين في الحقول الأُخرى تقدم إليهم.

والخلاصة: هو استخدام متبادل، وخدمة ذات طرفين، وبتعبير آخر: فإنّ الهدف من التسخير هو التعاون في أمر الحياة، ولا شيء آخر.

ولا يخفى أنّ البشر لو كانوا متساوين جميعاً من ناحية الذكاء والاستعداد الروحي والجسمي، فسوف لن تتهيّأ مستلزمات الحياة الاجتماعيّة، والنظم الحياتيّة مطلقاً، كما أن خلايا جسم الإنسان لو كانت متشابهة من ناحية البنية والرقة والمقاومة لاختل نظام الجسم، فأين خلايا عظم كعب القدم القويّة جدّاً من خلايا العين الرقيقة؟ إنّ لكل من هاتين مهمّة خاصّة بنيت على أساسها.

والمثال الحي الذي يمكن أن يضرب لهذا الموضوع هو الخدمات المتبادلة في جهاز التنفّس، ودوران الدم، والتغذية، وسائر أجهزة بدن الإنسان، التي هي مصداق واضح لـ ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ في إطار نشاطات البدن الداخليّة، فهل يمكن الإشكال على مثل هذا التسخير؟ وهل فيه خلل أو نقص؟

فإن قيل: إنّ جملة: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ دليل على عدم العدالة الاجتماعية.

قلنا: هذا يصحّ في حالة تفسير العدالة بالمساواة، في حين أنّ العدالة تعني وضع كلّ شيء في محلّه ضمن منظومته، فهل أنّ وجود سلسلة المراجع والرتب في فرقة عسكريّة، أو تنظيم إداري، أو في الدولة، دليل على وجود الظلم في تلك الأجهزة؟

من الممكن أن يستعمل بعض الناس كلمة «المساواة» في مجال الشعارات من دون الالتفات إلى معناها الواقعي، أمّا في الواقع العملي فلا يمكن أن يتمّ أو يقوم أي نظام بدون الاختلاف والتفاوت، غير أنّ هذا التفاوت يجب أن لا يكون ذريعة لأنّ يستغل الإنسان أخاه الإنسان أبداً، بل يجب أن يكون الجميع أحراراً في استعمال قواهم الخلاقة، وتنمية نبوغهم وإبداعهم، والاستفادة من نتائج نشاطاتهم بدون زيادة أو نقصان، وأمّا في حال عجزهم فيجب على القادرين أن يجدّوا ويجتهدوا في رفع النواقص وسد ما يحتاجونه.

وأمّا فيما يتعلق بالسؤال الثّاني، وهو: كيف يمكن المحافظة على شعلة الجهاد

والسعي والاجتهاد وهاجة مع كون الرزق معيناً؟ فإنّ الاشتباه ناشئ من تصورهم أن الله سبحانه لم يجعل لسعي الإنسان واجتهاده أي أثر أو دور.

صحيح أنّ الله سبحانه خلق القابليات متفاوتة لمختلف النشاطات، وصحيح أنّ العوامل الخارجة عن إرادة الإنسان مؤثّرة في مسير حياته، لكن مع ذلك فإنّه سبحانه قد جعل سعيه واجتهاده أيضاً أحد العوامل الأساسيّة، وأوضح سبحانه ببيان أصل: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١]، أنّ سعادة الإنسان وما يجنيه ويحصل عليه يرتبط بسعيه واجتهاده.

وعلى أيّة حال، فإنّ النكتة الغامضة والدقيقة تكمن في أنّ البشر ليسوا كالأواني المتساوية الصفات التي صنعت في معمل واحد، وعلى شكل واحد، ووتيرة واحدة، وبحجم واحد، ولغاية واحدة في الاستعمال، ولو كانوا كذلك لما أمكنهم التعايش بعضهم مع البعض الآخر يوماً واحداً.

وأيضاً ليس الناس من قبيل أجهزة وأدوات سيارة نظمها مهندسها على هيئة ما، فهي تقوم بعملها بصورة إجبارية، بل لديهم حرية الإرادة، وعليهم مسؤولية وواجب في نفس الوقت الذي تختلف فيه قابلياتهم ولياقاتهم، وهذا هو المركب الخاص الذي يسمونه الإنسان، والاعتراضات والإيرادات التي تطرح غالباً تنبع من عدم معرفة هذا الإنسان.

وخلاصة القول: إنّ الله سبحانه لم يفضل أي إنسان على الآخرين من كل الجهات، بل إنّ جملة: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ إشارة إلى الامتيازات التي تمتاز بها كل جماعة على الجماعة الأخرى، وتسخير كل فئة لأُخرى واستخدامها لها نابع من هذه الامتيازات تماماً، وهذا عين العدالة والتدبير والحكمة[٢].

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) كان لنا بحث مفصّل في هذا الباب في ذيل الآية (٣٢) من سورة النساء، وبحث آخر في ذيل الآية (١٦٥) من سورة الأنعام.

التّفسير

قصور فخمة سُقُفها من فضة!! (قيم كاذبة)

تستمر هذه الآيات في البحث حول «نظام القيم في الإسلام»، وعدم اعتبار كون المال والثروة والمناصب المادية هي المعيار في التقييم، فتقول الآية الأولى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾(١).

ولجعلنا لهم بيوتاً لها عدّة طوابق ولها سلالم جميلة ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾(٢).

وقال بعض المفسّرين: إنّ المراد أن السلالم مصنوعة من الفضة، وعدم تكرار كلمة الفضة لوضوح المراد. وكأنّهم لم يعتبروا وجود السلالم لوحدها دليلاً على أهميّة البيوت، والأمر ليس كذلك، إذ إنّ وجود السلالم الكثيرة دليل على عظمة البناء وتكونه من عدّة طوابق.

«السُّقُف» جمع سَقْف، ويعتقد البعض أنها جمع سقيفة، أي المكان المسقف، إلاّ أنّ القول الأوّل أشهر.

ثمّ تضيف الآية الأُخرى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾.

وربّما كانت هذه الجملة إشارة إلى الأبواب والأسرّة الفضية، لأنّ الآية السابقة لما تحدثت عن السُّقُف الفضية امتنع التكرار، ويمكن أيضاً أن يكون وجود الأبواب والأسرّة المتعددة - خاصّة وأن ﴿أَبْوَٰبًا﴾ و﴿وَسُرُرًا﴾ نكرة، وقد وردت هنا لبيان الأهميّة - دليلاً بنفسه على عظمة تلك القصور، لأنّهم لايجعلون لبيت حقير عدّة أبواب أبداً، بل هي مختصة بالقصور والبيوت الفخمة، وكذلك الحال بالنسبة لوجود الأسرّة.

ولم تكتف الآية بهذا، بل استطردت أنّه إضافة إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباهج وأنواع الزينة ﴿وَزُخْرُفًا﴾(٣) لتكمل الحياة المادية وزخارفها وزبارجها من كل الجهات،

---

(١) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال لـ ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وتكرار (اللام) لهذا المعنى، أو بمعنى (على) أي: على بيوتهم، لكن الاحتمال الأوّل أصح.

(٢) «المعارج» جمع معراج، وهو الوسيلة التي يستخدمها الإنسان للصعود إلى الطبقات العليا.

(٣) اعتبر البعض ﴿وَزُخْرُفًا﴾ عطفاً على ﴿سُقُفًا﴾، ويعتقدون أنّها إشارة إلى وسائل الزينة المستقلة التي توضع تحت تصرف أمثال هؤلاء الأفراد. والبعض اعتبرها عطفاً على ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ وكانت في الأصل (من زخرف) ثمّ نصبت بنزع الخافض، وعلى هذا يصبح معنى الجملة: إنّا جعلنا بعض سقوف وأسرّة بيوت هؤلاء من ذهب وبعضها من فضة. (تأمل!).

القصور الفخمة المتعددة الطبقات، الأبواب والأسرّة المتعددة، وكل وسائل الزينة والنقوش والرسوم وسائر الجواذب التي يتحقق فيها مراد عبيد الدنيا وأمانيهم.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

«الزخرف» في الأصل بمعنى كل زينة مقترنة بالرسم والتصوير، ولما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينة، فقد قيل له: زخرف، وإنّما قيل للكلام الأجوف الذي لا فائدة فيه: كلام مزخرف، لأنهم يحيطونه ويلبسونه المزوقات ليصبح مقبولاً.

وخلاصة القول: إنّ هذه الأُسس المادية ووسائل الزينة الدنيوية، حقيرة لا قيمة لها عند الله تعالى فلا ينبغي أن تكون إلاّ من نصيب الأفراد الذين لا قيمة لهم كالكافرين ومنكري الحق، ولو لم يتأثر الناس من طلاب الدنيا ويميلوا إلى الكفر لجعل الله تعالى هذه الأُمور من نصيب هذه الفئة فقط، ليعلم الجميع أن هذه الأُمور ليست هي المعيار والمقياس لشخصية الإنسان وقيمته ومقامه.

ملاحظتان

١ - الإسلام يحطم القيم الخاطئة

حقّاً لا يمكن العثور على تعبير أبلغ مما ورد في الآيات أعلاه لتحطيم المقاييس والقيم الكاذبة والقضاء عليها، وتغيير بناء ذلك المجتمع الذي يدور محور تقييم شخصية الأفراد فيه حول مقدار ما يملكون من الإبل، ومقدار الدراهم والدنانير، وعدد الغلمان والجواري والبيوت وأدوات الزينة، حتى أنّهم يتعجبون لماذا اختير محمّد ﷺ للنبوة وهو اليتيم الفقير مادياً؟!

إن أهم عمل لرسالة السماء هو تحطيم أطر القيم الخاطئة هذه، وبناء القيم الإنسانية الأصيلة كالتقوى، والعلم، الإيثار والتضحية، الشهامة والحلم على أنقاضها، وإلاّ فإنّ كل الإصلاحات ستكون فوقية وسطحية وغير ثابتة.

وهذا هو الذي قام به الإسلام والقرآن والرّسول الأعظم ﷺ على أحسن وجه، ولهذا فإنّ المجتمع الذي كان أكثر المجتمعات البشرية تخلفاً وخرافة، قد تسلق سلّم الرشد والرقي حتى أصبح في المرتبة الأولى في مدّة قصيرة.

والطريف أنّنا نقرأ في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ في تكملة هذا البحث: «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر منها شربة ماء»(١).

---

(١) تفسير الكشّاف، ج ٤، ص ٢٥٠.

ويُبلغ أمير المؤمنين علي عليه السلام الكلام في هذا الباب غايته حيث يقول: «ولقد دخل موسى بن عمران وأخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العزّ وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلاّ أُلقي عليهما أساور من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء».

ويقول في موضع آخر من هذه الخطبة: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الأرض مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف، ولا حافر ولا ظلف، ثمّ أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم...».

«ولو أراد الله سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جم الأشجار، داني الثمار، ملتف البُنا، متصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء»(١).

وعند ذلك كان الناس سينشغلون بالقيم الظاهرية الخداعة، ويغفلون عن القيم الإلهيّة الواقعية.

على أية حال، فإنّ أساس الثورة الإسلامية هو تغيير القيم، وإذا ما أصبح مسلمو اليوم يعانون من ظروف صعبة خانقة، وتحت ضغط الأعداء الجلادين القساة، فإنّ ذلك ناتج عن تركهم للقيم الأصيلة، وانتشار القيم والأعراف الجاهلية بينهم مرّة أُخرى، فأصبح المال والمنصب الدنيوي مقياس التقييم، ونسوا العلم والفضيلة والتقوى، وغرقوا في بحر المغريات والزخارف المادية، وأضحوا غرباء عن الإسلام، وما دام الوضع كذلك فيجب أن يدفعوا كفارة هذا الذنب العظيم، وما داموا لم يشرعوا بالتغيير

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢. الخطبة القاصعة.

ابتداءً من القيم الحاكمة على وجودهم، فسوف لن تشملهم رحمة الله ولطفه، وذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

٢ - جواب عن سؤال

بمطالعة الآيات المذكورة حول التحقير الشديد للزينة الظاهرية، والثروة والمقام المادي، يطرح هذا السؤال نفسه، وهو: إذا كان الحق كذلك، فلماذا يقول القرآن في موضع آخر: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

أو يقول في موضع آخر: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3]، فكيف تتوافق هاتان الفئتان مع الآيات؟

ينبغي الالتفات في الجواب إلى أن الهدف في الآيات - مورد البحث - هو القضاء على القيم الكاذبة الخاطئة، الهدف هو أن لا يعد الناس شخصية الإنسان متقومة بثروته وزينته، ولا يعني هذا أنّ الإمكانيات المادية شيء سيّئ، بل المهم أن تكون مجرّد أدوات ومظاهر للنظر، وليس كهدف سام وغاية تبلغ.

ثمّ إنّ هذه الإمكانيات تكون ذات قيمة عندما تكون في حدّ المعقول واللائق بالحال، وخالية من كلّ أنواع الإسراف والتبذير، لا أن تبنى القصور من الذهب والفضة، وتدّخر الثروات الطائلة منهما.

ومن هنا يتّضح أن وجود جماعة من الكفّار والظالمين بهذه القدرة المادية ليس دليلاً على رفعة شخصيتهم، ولا أن حرمان المؤمنين منها، أو من التمتع بها في حدّ المعقول كأدوات للزينة، يضر بإيمانهم وتقواهم، وهذا هو التفكير الإسلامي والقرآني الصحيح.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن
كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

التّفسير

أقران الشياطين!

لما كان الكلام في الآيات السابقة عن عبدة الدنيا الذين يقيّمون كل شيء على أساس المعايير المادية، فإن الآيات - مورد البحث - تتحدث عن أحد الآثار المميتة الناشئة عن الارتباط بالدنيا والتعلق بها، ألا وهو الابتعاد عن الله سبحانه.

تقول الآية الأولى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(١) (٢).

نعم، إنّ الغفلة عن ذكر الله، والغرق في لذات الدنيا، والانبهار بزخارفها ومغرياتها يؤدّي إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينه دائماً، ويلقي لجاماً حول رقبته يشدّه به، ويجرّه إليه ليذهب به حيث يشاء!

من البديهي أنّه لا مجال لأن يتصور أحد معنى الجبر في هذه الآية لأنّ هذه نتيجة الأعمال التي قام بها هؤلاء أنفسهم، وقد قلنا مراراً: إنّ أولى نتائج أعمال الإنسان - وخاصة الانغماس في ملاذ الدنيا، والتلوث بأنواع المعاصي - هو تكوّن حجاب على القلب والسمع والبصر يبعده عن الله سبحانه، ويسلط الشياطين عليه، وقد يستمرّ هذا الحال بالنسبة إليه حتى يغلق بوجهه باب الرجوع، لأنّ الشياطين والأفكار الشيطانية تكون حينئذ قد أحاطت به من كل جانب، وهذه نتيجة عمل الإنسان نفسه، وإن كانت نسبتها إلى الله سبحانه بلحاظ كونه سبب الأسباب صحيحة أيضاً، وهذا هو نفس الشيء الذي عبّر عنه في آيات القرآن الأُخرى بعنوان تزيين الشياطين ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٣)، أو بعنوان ولاية الشيطان ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾(٤).

وممّا يستحق الانتباه أن جملة ﴿نُقَيِّضْ﴾ وبالالتفات إلى معناها اللغوي، تدل على استيلاء الشياطين، كما تدل على كونهم أقراناً، وفي الوقت نفسه فقد جاءت جملة:

---

(١) ﴿يَعْشُ﴾ من مادة العشو، فإن عديت بـ(إلى): (عشوت إليه) فهي تعني الهداية بواسطة شيء ما بعين ضعيفة، وإن عديت بـ(عن): (عشا عنه)، أعطت معنى الإعراض عن الشيء، وهو المراد في الآية المذكورة. لسان العرب (عشو).

(٢) ﴿نُقَيِّضْ﴾ من مادة قيض، وهي في الأصل بمعنى الغشاء الذي يغطي البيضة، ثمّ جاءت بمعنى جعل شيء مستولياً على شيء آخر.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ٦٣.

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ بعدها لتؤكّد هذا المعنى، وهو أنّ الشياطين لا يفارقون مثل هؤلاء الأفراد، ولا يبتعدون عنهم مطلقاً!

والتعبير بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة لطيفة إلى أنّه كيف يعرض هؤلاء عن الله الذي عمّت رحمته العامّة الجميع وشملتهم، ويغفلون عن ذكره؟ فهل يستحق أمثال هؤلاء غير هذا المصير ويكونون أقراناً للشياطين، يتبعون أوامرهم، وينفذون ما يملون عليهم؟

واحتمل بعض المفسّرين أن يكون للشياطين هنا معنى واسع بحيث يشمل حتى شياطين الإنس، واعتبروا الكلمة إشارة إلى رؤوس الضلالة وزعمائها الذين يتسلطون على الغافلين عن ذكر الله سبحانه فيكونون أقراناً لهم، وهذا التوسع في المعنى ليس ببعيد.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به في شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾(١).

فكلما صمّموا على التوبة والرجوع إلى طريق الصواب والرشاد كانت الشياطين تلقي في طريقهم الأحجار والعقبات، وتنصب الموانع في طريق عودتهم حتى لا يعودوا إلى الصراط المستقيم أبداً، وتزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحدّ الذي يظنون: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كما نقرأ ذلك في الآية (٣٨) من سورة العنكبوت حول عاد وثمود: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

وهكذا تستمر هذه الحالة على هذا المنوال، فيبقى الإنسان الغافل الجاهل على ضلاله، وتستمر الشياطين في إضلاله، حتى ترفع الحجب، وتنفتح عين رؤيته على الحقيقة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾.

إنّ كل أنواع العذاب من جهة، ومجالسة قرين السوء هذا من جهة أُخرى والنظر إلى وجهه المشؤوم يجسد أمام عينيه كل ذكريات ضياعه وتعاسته، فويل له إذ أصبح قرين من كان يزين له كل القبائح ويسلكه طريق الضلال على أنّه سبيل الخير والفلاح، وطريق الانحراف على أنّه طريق الهدى والصلاح، وويل له إذا أصبح مقيّداً معه بنفس الأصفاد في نفس السجن!

(١) ضمير الجمع في «أنّهم» والجملة التالية يعود إلى الشياطين، ومع أنّه قد جاء بصيغة المفرد من قبل، إلاّ أنّه كان بمعنى الجمع.

نعم، إنّ عرصة القيامة تجسيد واسع لمشاهد هذه الدنيا، والقرين والرفيق والقائد والدليل هنا وهناك واحد، بل إنّهما - برأي بعض المفسّرين - يقرنان بسلسلة واحدة!

من المعلوم أنّ المراد من المشرقين: المشرق والمغرب، لأنّ العرب عندما يريدون أن يثنوا جنسين مختلفين بلفظ واحد، فإنّهم يختارون أحد اللفظين، كما يقولون: الشمسان، إشارة إلى الشمس والقمر، والظهران، إشارة إلى صلاتي الظهر والعصر، والعشاءان، إشارة إلى صلاتي المغرب والعشاء.

وقد ذكروا تفاسير أُخرى لا تبدو مناسبة للآية من أي وجه، كقولهم: إنّ المراد هو مشرق بداية الشتاء، ومشرق بداية الصيف، وإن كان هذا التّفسير مناسباً في موارد أُخرى.

وعلى أية حال، فإنّ هذا التعبير كناية عن أبعد مسافة يمكن تصورها، حيث يضرب المثل ببعد المشرق عن المغرب في هذا الباب.

إلاّ أن هذا الأمل لا يتحقق مطلقاً، ولا يمكن أن يقع الافتراق أو البون بين هؤلاء وبين الشياطين، ولذلك فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الأُخرى إلى الأبد[١].

وبهذا فإنَّ القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء في الافتراق عن الشياطين إلى يأس دائم، وكم هو مضن تحمل هذا الجوار؟

وهناك احتمالات أُخرى في تفسير هذه الآية، منها أن الإنسان قد يشعر بخفة آلامه عند رؤية متألمين آخرين، لأنّ المعروف (أن البلية إذا عمّت طابت)[٢] غير أنّه يقال لهؤلاء: لا يوجد هناك مثل تسلية الخاطر هذه، بل ستغوصون في العذاب، وعذاب الشياطين المشتركين معهم لا يبعث على تسلية الخاطر[٣].

واحتملوا أيضاً أن المصيبة عندما تقع، تخف وطأتها عندما يجد الإنسان ثقلها موزعاً

(١) على هذا فإن فاعل «ينفع» هو القول السابق حيث كانوا يأملون أن يكون البعد بينهم وبين الشياطين كما بين المشرق والمغرب، وجملة ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ بيان لعلة عدم النفع، وجملة ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ نتيجة هذا الظلم والجور.

(٢) بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٦١.

(٣) بناء على هذا التّفسير، فإن جملة: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ستكون فاعل (ينفع) لا نتيجته.

بينه وبين أصدقائه، ولكن هذه المسألة لا توجد هناك أيضاً، لأنّ لكل فرد سهماً وافراً من العذاب، من دون أن ينقص من عذاب الآخرين شيء!

لكن بملاحظة أنّ هذه الآية تكملة للآية السابقة، فإنّ التّفسير الأوّل الذي اخترناه هو الأنسب.

ويترك القرآن هنا هذه الفئة وشأنها، ويوجه الخطاب إلى النّبي ﷺ ويتحدث عن الغافلين عمي القلوب الذى كذّبوا ارتباطه بالله، وهم من جنس من تقدم الكلام عنهم في الآيات السابقة، فيقول: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وقد ورد نظير هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن الكريم، حيث شبه المعاندين الذين لا أمل في هدايتهم، والغارقين في الذنوب بالعمي والصّم، بل وبالأموات أحياناً.

فقد جاء في الآية (٤٢) من سورة يونس: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وجاء في الآية (٨٠) من سورة النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾. وآيات أُخرى.

إن كل هذه التعابير توضح أنّ القرآن يقول بنوعين من السمع والبصر والحياة للإنسان: السمع والبصر والحياة الظاهريّة، والسمع والبصر والحياة الباطنية، والمهم هو القسم الثّاني من الإدراك والنظر والحياة، فإنّها إذا تعطلت فلا ينفع حينئذ موعظة وإرشاد، ولا إنذار وتحذير!

ومما يستحق الانتباه أنّ الآيات السابقة قد شبهت هذه الفئة بالأفراد العمش العيون، والمحدودي البصر، وتشبههم الآية الأخيرة هنا بالصم والعمي، وذلك لأنّ الإنسان إذا اشتغل بالدنيا فحاله كمن يشكو ألماً بسيطاً في عينه، فكلما زاد تعلقه بالدنيا واشتغاله بها، ومال إلى الماديات أكثر، وأهمل المسائل الروحية والمعنوية، فسيضعف بصره نتيجة ذلك الألم في عينه، حتى يصل بعدها إلى مرحلة العمى، وهذا هو الشيء الذي أثبتته الأدلّة القطعية في مجال التشديد على المعنويات السلبية والإيجابية في الإنسان، ورسوخ الملكات فيه نتيجة تكرار العمل والإصرار عليه، وقد راعى القرآن الكريم هذا التسلسل أيضاً[1].

(١) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٧، ص ٢١٤ - ٢١٥.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

استمسك بالذي أوحي إليك

متابعة للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن الكفّار المعاندين الظالمين الذين لا أمل في هدايتهم، تخاطب هذه الآيات نبيّ الإسلام الأكرم ﷺ مهدّدة الكفّار أشدّ تهديد من جانب، ومسليّة خاطر النّبي ﷺ، فتقول: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾.

وسواء كان المراد من الذهاب بالنّبي ﷺ من بين أُولئك القوم وفاته أم هجرته من مكّة إلى المدينة، فإنّه إشارة إلى أنّك حتى وإن لم تكن شاهداً وناظراً لأمرهم، فإنّا سنعاقبهم أشدّ عقاب إن استمروا في طريق ضلالتهم وغيهم، لأنّ «الانتقام» في الأصل يعني الجزاء والعقوبة، وإن كان المستفاد من آيات قرآنية عديدة أُخرى - نزلت في هذا المعنى - إن المراد من الذهاب بالنّبي ﷺ وفاته، كما جاء في الآية (٤٦) من سورة يونس: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

وجاء هذا المعنى أيضاً في سورة الرعد - الآية ٤٠، وسورة غافر - الآية ٧٧، وعلى هذا فإنّ تفسير الآية بالهجرة لا يبدو مناسباً.

ثمّ تضيف الآية: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ فهم في قبضتنا على أية حال، سواء كنت بينهم أم لم تكن، والعقاب والانتقام الإلهي حتمي في حقّهم إذا ما استمروا في أعمالهم، سواء كان ذلك في حياتك أم بعد مماتك، فقد يتقدم أو يتأخر، إلاّ أنّه لابدّ من وقوعه.

إنّ هذه التأكيدات القرآنية قد تكون إشارة إلى قلّة صبر الكفّار الذي كانوا يقولون: «إن كنت محقاً وصادقاً فيما تقول، فلماذا لا ينزل علينا العذاب»؟ هذا من جهة. ومن

جهة أُخرى كانوا في انتظار موت النّبي ﷺ ظنّاً منهم أنّ النّبي إن أغمض عينه وغاب شخصه فسينتهي كل شيء!

بعد هذه التحذيرات تأمر الآية النّبي ﷺ أن: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فليس في دينك وكتابك أدنى اعوجاج أو زيغ، وعدم قبول جماعة من هؤلاء به لا يدل على عدم حقانيتك، فاستمر في طريقك بكل ما أوتيت من قوّة، والباقي علينا.

ثمّ تضيف الآية الأُخرى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فإنّ الهدف من نزوله إيقاظ البشر، وتعريفهم بتكاليفهم: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

وبناء على هذا التّفسير فإنّ الذكر في هذه الآية يعني ذكر الله سبحانه، ومعرفة الواجبات الدينيّة، والاطلاع على تكاليف البشر، كما ورد هذا المعنى في الآيتين ٥ و٣٦ من هذه السورة، وككثير من آيات القرآن الأُخرى.

ومن المعروف أنّ الذكر أحد أسماء القرآن الكريم، والذكر بمعنى ذكر الله سبحانه، ونقرأ هذه الجملة عدّة مرات في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ الآيات ١٧ - ٢٢ - ٣٢ - ٤٠.

إضافة إلى أنّ جملة: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ تشهد بأنّ المراد هو السؤال عن العمل بهذا البرنامج الإلهي.

لكن - مع كل ذلك - فالعجيب أنّ كثيراً من المفسّرين اختاروا تفسيراً آخر لهذه الآية لا يتناسب مع ما قلناه، فمن جملة ما قالوا: إنّ معنى الآية هو: إنّ هذا القرآن هو أساس الشرف والعزة، أو الذكر الحسن والسمعة الطيبة لك ولقومك، وهو يمنح العرب وقريشاً أو أُمتك الشرف، لأنّه نزل بلغتهم، وسيسألون قريباً عن هذه النعمة[1].

صحيح أن القرآن رفع نداء نبيّ الإسلام ﷺ والعرب، بل وكل المسلمين عالياً في أرجاء العالم، وأنّ اسم النّبي ﷺ يذكر بإعظام بكرة وعشياً على المآذن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وأن عرب الجاهلية الخاملي الذكر قد عُرفوا في ظل اسمه ﷺ وعلا صوت الأُمّة الإسلامية في ربوع العالم بفضله.

---

(١) تفسير مجمع البيان، التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٧، ص ٢١٥؛ تفسير القرطبي، تفسير المراغي، وتفسير أبي الفتوح الرازي، ذيل الآية مورد البحث.

وصحيح أن الذكر قد ورد بهذا المعنى في القرآن المجيد أحياناً، إلاّ أنّ ممّا لا شك فيه أنّ المعنى الأوّل أكثر وروداً في آيات القرآن، وأكثر ملاءمة مع هدف نزول القرآن والآيات مورد البحث.

واعتبر بعض المفسّرين الآية (١٠) من سورة الأنبياء شاهداً على التّفسير الثاني، وهي: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]. في حين أنّ الآية تناسب التّفسير الأوّل أيضاً، كما فصلنا ذلك في التّفسير الأمثل، في ذيل هذه الآية[2].

وقد وردت روايات في هذه الآية في المصادر الحديثية، وستأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثمّ تطرّقت الآية الأخيرة إلى نفي عبادة الأصنام وإبطال عقائد المشركين بدليل آخر، فقالت: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾؟

إشارة إلى أنّ كل أنبياء الله قد دعوا إلى التوحيد، ووقفوا جميعاً ضد الوثنية بحزم، وعلى هذا فإنّ نبيّ الإسلام ﷺ في مخالفته الأصنام لم يقم بعمل لم يسبقه به أحد، بل أحيا بفعله سنة الأنبياء الأبدية، وإنّما كان عبدة الأصنام والمشركون هم الذين يسيرون على خلاف مذهب الأنبياء.

وطبقاً لهذا التّفسير فإنّ السائل وإن كان نبيّ الإسلام ﷺ، إلاّ أنّ المراد كل الأُمّة، بل وحتى مخالفيه.

والمسؤولون هم أتباع الأنبياء السابقين، أتباعهم المخلصون، بل ومطلق أتباعهم، يحصل الخبر المتواتر من مجموع كلامهم، وهو يبيّن دين الأنبياء التوحيدي.

وينبغي التذكير بأنّه حتى المنحرفين عن أصل التوحيد - كالمسيحيين الذين يؤمنون بالتثليث اليوم - يتحدثون عن التوحيد أيضاً، ويقولون: إنّ تثليثنا لا ينافي التوحيد الذي هو دين جميع الأنبياء! وبهذا فإنّ الرجوع إلى هذه الأُمم كاف في إبطال دعوى المشركين.

---

(١) تفسير القرطبي، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) الأمر الآخر الذي يمكن أن يكون دليلاً على التّفسير المشهور، هي كلمة (القوم) التي وردت في الآية المذكورة، لأنّ القرآن منهاج لتذكير كل البشر، لا قوم النّبي ﷺ وحسب، أو خصوص أُمة الإسلام. إذ إلاّ أنّ هذا الكلام يمكن الإجابة عليه بأن هؤلاء القوم قد استفادوا من تذكير القرآن قبل الآخرين، ولذلك كان التأكيد عليهم.

إلاّ أنّ بعض المفسّرين احتملوا احتمالاً آخر في تفسير هذه الآية مستوحى من بعض الروايات[١]، وهو أن السائل هو النّبي ﷺ نفسه وأنّ المسؤولين هم الأنبياء السابقون. ثمّ أضافوا: إنّ هذا الأمر قد تمّ في ليلة المعراج، لأنّ النّبي ﷺ قد التقى بأرواح الأنبياء الماضين، ومن أجل تأكيد أمر التوحيد طرح هذا السؤال وسمع الجواب.

وأضاف البعض: إنّ مثل هذا اللقاء كان ممكناً بالنسبة إلى النّبي ﷺ حتى في غير ليلة المعراج، لأنّ المسافات الزمانية والمكانية ليست مانعاً ولا عائقاً في مسألة اتصال النّبي ﷺ بأرواح الأنبياء، وكان بإمكان ذلك العظيم أن يتصل بهم في أية لحظة، وفي أي مكان.

طبعاً، ليس على هذه التفاسير أي إشكال عقلي، لكن لما كان الهدف من الآية نفي مذهب المشركين، لا طمأنة النّبي ﷺ - إذ إنه ﷺ كان مستغرقاً في مسألة التوحيد، ومشمئزاً من الشرك إلى الحدّ الذي لا يحتاج معه إلى سؤال، ولم يكن التقاء النّبي ﷺ الروحي بأرواح الأنبياء الماضين استدلالاً مقنعاً أمام المشركين - اذن فالتّفسير الأوّل يبدو أكثر ملاءمة، والتّفسير الثّاني قد يكون إشارة إلى باطن الآية لا ظاهرها، لأنّ لآيات القرآن ظهراً وبطناً.

وهناك أمر يستحق الانتباه، وهو أنّ اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ قد اختير في هذه الآية من بين أسماء الله سبحانه، وهو إشارة إلى أنّه كيف يمكن أن يترك هؤلاء الله الذي وسعت رحمته العامّة كل شيء، ويتوجهون إلى أصنام لا تضر ولا تنفع؟!

ملاحظة

من هم قوم النّبي ﷺ؟

توجد ثلاثة احتمالات في المراد من «القوم» في آية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

الأوّل: أنّهم كل الأمة الإسلامية.

والثّاني: أنّهم العرب.

والثّالث: أنّهم قبيلة قريش.

---

(١) رويت هذه الرواية عن ابن عباس في تفسير القرطبي وتفسير الفخر الرازي ومجمع البيان، ورويت في تفسير نور الثقلين روايتان مفصلتان في هذا الباب عن كتاب الاحتجاج ويراجع تفسير علي بن إبراهيم، ج ٤، ص ٦٠٥ - ٦٠٧.

ولما كان القوم في منطق القرآن الكريم قد أطلقت في موارد كثيرة على أُمم الأنبياء، أو الأقوام المعاصرين لهم، فالظاهر أنّه هو المعنى المراد في الآية أيضاً.

وبناءً على هذا، فإنّ القرآن أساس الذكر والوعي واليقظة لكل الأُمة الإسلامية حسب التّفسير الأوّل، وأساس الافتخار والشرف لهم جميعاً حسب التّفسير الثّاني.

إلاّ أننا نطالع في الروايات العديدة الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد من القوم في الآية هم أهل بيت النّبي وعترته(١).

لكن لا يبعد أن تكون هذه الروايات من قبيل بيان المصاديق الواضحة، سواء كان معنى القوم كل الأُمة الإسلامية، أو أمة العرب، أو أهل بيت نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، ففي كل الأحوال يعتبر أئمّة أهل البيت عليهم السلام من أوضح مصاديقها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

الفراعنة المغرورون ونقض العهد

في هذه الآيات إشارة إلى جانب ممّا جرى بين نبيّ الله موسى بن عمران عليه السلام وبين فرعون، ليكون جواباً لمقالة المشركين الواهية بأنّ الله إن كان يريد أن يرسل رسولاً، فلماذا لم يختر رجلاً من أثرياء مكّة والطائف لهذه المهمّة العظمى؟

وذلك لأنّ فرعون كان قد أشكل على موسى نفس هذا الإشكال، وكان منطقه عين هذا المنطق، إذ جعل موسى في معرض التقريع والتوبيخ والسخرية للباسه الصوفي، وعدم امتلاكه لأدوات الزينة، فقالت الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١) جمع هذه الأحاديث مؤلف تفسير نور الثقلين، في ج ٤، ص ٦٠٤ - ٦٠٥.

المراد من «الآيات»: المعجزات التي كانت لدى موسى، والتي كان يثبت حقانيته بواسطتها، وكان أهمها العصا واليد البيضاء.

«الملأ» - كما قلنا سابقاً - من مادة الملاء، أي القوم أو الجماعة الذين يتبعون هدفاً واحداً، وظاهرهم يملأ العيون لكثرتهم، وقرآنياً فإنّ هذه الكلمة تعني الأشراف والأثرياء أو رجال البلاط عادة.

والتأكيد على صفة: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو في الحقيقة من قبيل بيان مدعى مقترن بالدليل، لأنّ ربّ العالمين ومالكهم ومعلمهم هو الوحيد الذي يستحق العبوديّة، لا المخلوقات الضعيفة المحتاجة كالفراعنة والأصنام!

ولنرَ الآن ماذا كان تعامل فرعون وآل فرعون مع الأدلة المنطقية والمعجزات البينة لموسى عليه السلام؟

يقول القرآن الكريم في الآية التالية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وهذا الموقف هو الموقف الأوّل لكل الطواغيت والجهال المستكبرين أمام القادة الحقيقيين، إذ لا يأخذون دعوتهم وأدلتهم بجدية ليبحثوا فيها ويصلوا إلى الحقيقة، ثمّ يجيبونهم بسخرية واستهزاء ليُفهموا الآخرين أنّ دعوة هؤلاء لا تستحق البحث والتحقيق والإجابة أصلاً، وليست أهلاً للتلقي الجاد.

إلاّ أننا أرسلنا بآياتنا الواحدة تلو الأخرى لإتمام الحجة: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾[1].

والخلاصة: أنّنا أريناهم آياتنا كل واحدة أعظم من أختها وأبلغ وأشد، لئلا يبقى لهم أي عذر وحجّة، ولينزلوا عن دابة الغرور والعجب والأنانية، وقد أريناهم بعد معجزتي العصا واليد البيضاء معاجز الطوفان والجراد والقمل والضفادع وغيرها[2].

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فمرّة أتاهم الجفاف والقحط ونقص الثمرات كما جاء في الآية (١٣٠) من سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

وكان العذاب أحياناً بتبدل لون ماء النيل إلى لون الدم، فلم يعد صالحاً للشرب، ولا

(١) التعبير بـ«الأخت» في لغة العرب يعني ما يوازي الشيء في الجنس والمرتبة كالأختين.
(٢) جاء تفصيل المعجزات التسع لموسى بن عمران عليه السلام في ذيل الآية (١٠١) من سورة الإسراء.

للزراعة، وأحياناً كانت الآفات النباتية تقضي على مزارعهم.

إنّ هذه الحوادث المرّة الأليمة وإن كانت تنبه هؤلاء بصورة مؤقتة، فيلجأون إلى موسى، غير أنّهم بمجرّد أن تهدأ العاصفة ينسون كل شيء، ويجعلون موسى غرضاً لسهام أنواع التهم، كما نقرأ ذلك في الآية التالية: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.

أي تعبير عجيب هذا؟! فهم من جانب يسمونه ساحراً، ومن جانب آخر يلجأون إليه لرفع البلاء عنهم، ومن جانب ثالث يعدونه بتقبل الهداية!

إنّ عدم الانسجام بين هذه الأُمور الثلاثة في الظاهر أصبح سبباً في اختلاف التفاسير:

فذهب البعض: إنّ الساحر هنا يعني العالم، لأنّهم كانوا يعظمون السحرة في ذلك الزمان، وخاصّة في مصر، وكانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى العلماء.

واحتمل البعض أن يكون السحر هنا بمعنى القيام بأمر مهم، كما نقول في محادثاتنا اليومية: إنّ فلاناً ماهر في عمله جدّاً حتى كأنه يقوم بأعمال سحرية!

وقالوا تارة: إنّ المراد أنّه ساحر بنظر جماعة من الناس.

وأمثال هذه التفاسير.

إلاّ أنّ العارفين بطريقة تفكير وتحدث الجاهلين المعجبين بأنفسهم والمستكبرين المغرورين والطواغيت يعلمون أنّ لهؤلاء الكثير من هذه التعابير المتناقضة، فلا عجب من أن يسمّوه ساحراً أوّلاً، ثمّ يلجأون إليه لرفع البلاء، وأخيراً يعدونه بالاهتداء.

بناء على هذا فيجب الحفاظ على ظاهر تعبيرات الآية والوقوف عندها، إذ لا تبدو هناك حاجة إلى توجيهات وتفاسير أُخرى.

وعلى أية حال، فيظهر من أسلوب الآية أنّهم كانوا يعدون موسى عليه السلام وعوداً كاذبة في نفس الوقت الذي هم بأمس الحاجة إليه، وحتى في حال المسكنة وعرض الحاجة لم يتخلوا عن غرورهم، ولذلك عبروا في طلبهم من موسى بـ﴿رَبَّكَ﴾ و﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ولم يقولوا: ربّنا، وما وعدنا، أبداً، مع أنّ موسى قال لهم بصراحة: إنّي رسول ربّ العالمين، لا رسول ربّي.

أجل، إن ضعاف العقول والمغرورين إذا ما تربعوا على عرش الحكم، فسيكون هذا منطقهم وعرفهم وأسلوبهم.

إلاّ أن موسى رغم كل هذه التعبيرات اللاذعة والمحقرة لم يكفّ عن السعي لهدايتهم مطلقاً، ولم ييأس بسبب عنادهم وتعصبهم، بل استمرّ في طريقه، ودعا ربّه مرات كي تهدأ عواصف البلاء، وهدأت، لكنّهم كما تقول الآية التالية: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

كل هذه دروس حيّة وبليغة للمسلمين، وتسلية للنبي ﷺ لكي لا ينثنوا مطلقاً أمام عناد المخالفين وتصلبهم، ولا يدعوا اليأس يخيم على أرواحهم وأنفسهم، بل ينبغي أن يشقوا طريقهم بكل ثبات ورجولة وحزم، كما ثبت موسى عليه السلام وبنو إسرائيل على مواقفهم، واستمرّوا في طريقهم حتى انتصروا على الفراعنة.

وهي أيضاً تحذير للأعداء اللجوجين المعاندين، بأنّهم ليسوا أقوى من فرعون وآل فرعون ولا أشد، فلينظروا عاقبة أمر أولئك، وليتفكروا في عاقبتهم.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

التّفسير

إذا كان نبياً فلِمَ لا يملك أسورة من ذهب؟

لقد ترك منطق موسى عليه السلام من جهة، ومعجزاته المختلفة من جهة أُخرى، والابتلاءات والمصائب التي نزلت على رؤوس أهل مصر والتي رفعت ببركة دعاء موسى عليه السلام من جهة ثالثة، أثراً عميقاً في ذلك المحيط، وزعزعت أفكار الناس واعتقادهم بفرعون، ووضعت كل نظامهم الاجتماعي والديني موضع سؤال واستفسار.

هنا أراد فرعون بسفسطته ومغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السلام عن التأثير في أفكار شعب مصر، فالتجأ إلى القيم الواهية المنحطة التي كانت حاكمة في ذلك المحيط،

وقارن بينه وبين موسى عليه السلام من خلال هذه القيم ليبدو متفوقاً على موسى، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(١).

أمّا موسى فماذا يملك؟ لا شيء سوى عصا ولباس صوف! فلمن الشأن الرفيع والمكانة السامية، له أم لي؟ أهو يقول الحق أم أنا؟ افتحوا عيونكم جيداً وتأمّلوا دقيقاً في المسألة..

وبهذا فقد عظّم فرعون القيم المبتدعة السيئة، وجعل المال والمقام والجاه هي معايير الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة إلى عبدة الأصنام في عصر الجاهلية في موقفهم أمام نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

التعبير بـ ﴿وَنَادَىٰ﴾ يوحي بأن فرعون عقد مجلساً عظيماً لخبراء البلد ومستشاريه، وخاطبهم جميعاً بصوت عال فقال ما قال، أو أنّه أمر أن يوزع نداؤه كرسالة في جميع أنحاء البلاد.

والتعبير بالأنهار، المراد منه نهر النيل، بسبب أن هذا النهر العظيم كالبحر المترامي الأطراف، وكان يتشعب إلى فروع كثيرة تروي كل المناطق العامرة في مصر.

وقال بعض المفسّرين: كان لنهر النيل (٣٦٠) فرعاً، وكان أهمها: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس.

أمّا لماذا يؤكّد فرعون على نهر النيل خاصّة؟ فذلك لأنّ كل عمران مصر وثروتها وقوتها وتطورها كان يستمد طاقته من النيل، من هنا فإنّ فرعون كان يُدِلّ به، ويفتخر به على موسى.

والتعبير بـ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ لا يعني أنّ نهر النيل يمر من تحت قصري، كما قال ذلك جمع من المفسّرين، لأنّ نهر النيل كان أعظم من أن يمرّ من تحت قصر فرعون ولو كان المراد أنّه يمرّ بمحاذاة قصره، فإنّ كثيراً من قصور مصر كانت على هذه الحال، وكان أغلب العمران على حافتي هذا الشط العظيم، بل المراد أنّ هذا النهر تحت أمري، ونظام تقسيمه على المزارع والمساكن حسب التعليمات التي أريدها.

(١) الواو في جملة ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ يمكن أن تكون عاطفة على (ملك مصر) ويمكن أن تكون حالية (تفسير الكشاف). إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل يبدو هو الأنسب.

ثمّ يضيف: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾(١) وبهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين - حكومة مصر، وملك النيل .، وذكر لموسى نقطتي ضعف: الفقر ولكنة اللسان.

هذا في الوقت الذي لم يكن بموسى أية لكنة في اللسان، لأنّ الله تعالى قد استجاب دعاءه، ورفع عنه عقدة لسانه، لأنّه سأل ربّه عند البعثة أن: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾(٢)، ومن المسلّم أنّ دعاءه قد استجيب، والقرآن شاهد على ذلك أيضاً.

وليس عيباً عدم امتلاك الثروة الكثيرة، والألبسة الفاخرة، والقصور المزينة، والتي تحصل عادة عن طريق ظلم المحرومين والجور عليهم، بل هو فخر وكرامة وسمّو.

إنّ التعبير بـ﴿مَهِينٌ﴾ لعله إشارة إلى الطبقات الاجتماعيّة في ذلك الزمان، حيث كانوا يظنون أن الأشراف الأقوياء والأثرياء طبقة متعالية، والكادحين الفقراء طبقة واطئة، أو أنّه إشارة إلى أصل موسى حيث كان من بني إسرائيل، وكان الأقباط يرون أنهم ساداتهم وكبراؤهم.

ثمّ تشبث فرعون بذريعتين أخريين، فقال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾(٣) فلو أنّ الله قد جعله رسوله فلماذا لم يعطه أساور من ذهب، ومعاونين له كباقي الرسل؟

يقال: إنّ الفراعنة كانوا يعتقدون أنّ الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور والقلائد الذهبية، ولذلك فإنّهم يتعجبون من موسى إذ لم يكن معه مثل آلات الزينة هذه، بل كان قد لبس بدل ذلك ملابس الرعي الصوفية، وهذا هو حال المجتمع الذي يكون معيار تقييم الشخصية في نظره الذهب والفضة وأدوات الزينة.

أمّا أنبياء الله فإنّهم بطرحهم هذه المسائل - بالذات - جانباً كانوا يريدون أن يبطلوا هذه المقاييس الكاذبة، وأن يزرعوا محلها القيم الإنسانية الأصيلة - أي العلم والتقوى والطهارة - لأنّ نظام القيم إذا لم يُصلح في مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعادة أبداً.

---

(١) اعتبر جماعة (أم) في الجملة أعلاه منقطعة، وأنّها بمعنى (بل)، وذهب البعض أنّها متصلة ومتعلقة بجملة ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وتقدير الجملة: أفلا تبصرون أم تبصرون أنا خير من هذا...

(٢) سورة طه، الآية: ٢٧.

(٣) جاءت كلمة ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ هنا بمعنى المتابعين أو المتعاضدين، وقال البعض: إنّ الاقتران هنا بمعنى التقارن.

على أية حال، فإنّ ذريعة فرعون هذه تشبه الذريعة التي نقلت عن مشركي مكّة قبل عدّة آيات حيث كانوا يقولون: لِمَ لَم ينزل القرآن على عظيم من مكّة والطائف؟!

والحجّة الثانية هي تلك الحجّة المعروفة التي كانت تطرحها كثير من الأُمم الضالة العاصية في مواجهة الأنبياء، فكانوا يقولون أحياناً: لماذا أرسل الله بشراً وليس ملكاً؟ وأحياناً أُخرى: إذا كان إنساناً فلماذا لم يأت معه ملك؟

في حين أنّ الرسل المبعوثين إلى البشر يجب أن يكونوا من جنسهم ليلمسوا حاجاتهم، ويحسوا بمشاكلهم ومسائلهم ويجيبوهم، وليقدروا على أن يكونوا من الناحية العملية قدوة وأسوة لهم(١).

ويلزم أن نذكر هنا أن «الأسورة» جمع سوار، سواء كان من الذهب أم من الفضة.

وتشير الآية التالية إلى نكتة لطيفة، وهي: إنّ فرعون لم يكن غافلاً عن واقع الأمر تماماً، وكان ملتفتاً إلى أن لا قيمة لهذه القيم والمعايير، إلاّ أنّه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾.

إنّ طريقة كل الحكومات الجبارة الفاسدة من أجل الاستمرار في تحقيق أهدافها وأنانياتها، هي الإبقاء على الناس في مستوى متردٍ من الفكر والثقافة والوعي، وتسعى إلى تركهم حمقى لا يعون ما حولهم باستخدام أنواع الوسائل، فتجعلهم غرقى في حالة من الغفلة عن الوقائع والأحداث والحقائق، وتنصب لهم قيماً وموازين كاذبة منحطة بدلاً من الموازين الحقيقية، كما تمارس عملية غسل دماغ تام متواصل لهذه الشعوب، وذلك لأن يقظتها ووعيها، وتنامي رشدها الفكري يشكل أعظم خطر على الحكومات، ويعتبر أكبر عدوّ للحكومات المستبدة، فهذا الوعي بمثابة مارد يجب أن تحاربه بكل ما أوتيت من قوّة.

إنّ هذا الأسلوب الفرعوني - أي استخفاف العقول - حاكم على كل المجتمعات الفاسدة في عصرنا الحاضر، بكل قوّة واستحكام، وإذا كان تحت تصرف فرعون وسائل محدودة توصله إلى نيل هدفه، فإنّ طواغيت اليوم يستخفون عقول الشعوب بواسطة وسائل الاتصال الجماعية، الصحف والمطبوعات، شبكات الراديو والتلفزيون، أنواع الأفلام، بل وحتى الرياضة في قالب الانحراف، وابتداع أنواع الأساليب المضحكة

(١) ورد في التفسير الأمثل، ذيل الآية (٩) من سورة الأنعام بحث مفصل في هذا الباب.

المستهجنة، لتغرق هذه الشعوب في بحر الغفلة، فيطيعوهم ويستسلموا لهم، ولهذا كانت المسؤولية الملقاة على عاتق علماء الدين والملتزمين به - والذين يحيون خط الأنبياء الفكري والعقائدي - ثقيلة في محاربة برامج استخفاف العقول، فهي من أهم واجباتهم.

والطريف أنّ الآية المذكورة تنتهي بجملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾، إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم الضالين لو لم يكونوا فاسقين ومتمردين على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وحكم العقل، لما كانوا يستسلمون لمثل هذه الدعايات والخزعبلات ويصغون إليها، فهم قد هيؤوا أسباب ضلالهم بأيديهم، ولذلك فإنّهم ليسوا معذورين في هذا الضلال أبداً.

صحيح أنّ فرعون قد سرق عقول هؤلاء وحملهم على طاعته، إلاّ أنّهم قد أعانوه على هذه السرقة باتباعهم الأعمى له.

نعم، كان هؤلاء قوماً فاسقين يتبعون فاسقاً.

كانت هذه جنايات فرعون وآل فرعون ومغالطاتهم في مواجهة رسول الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لكننا نرى الآن إلى أين وصلت عاقبة أمرهم بعد كل هذا الوعظ والإرشاد وإتمام الحجج من طرق مختلفة، إذ لم يسملوا للحق:

تقول الآية: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فقد اختار الله سبحانه لهؤلاء عقوبة الإغراق بالخصوص من بين كل العقوبات، وذلك لأنّ كلّ عزّتهم وشوكتهم وافتخارهم وقوّتهم كانت بنهر النيل العظيم وفروعه الكثيرة الكبيرة، والذي كان فرعون يؤكّد عليه من بين كل مصادر قوته، إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؟

نعم، يجب أن يكون مصدر حياتهم وقوّتهم، سبب هلاكهم وفنائهم، ويكون قبراً لهم ليعتبر الآخرون!

﴿ءَاسَفُونَا﴾ من مادة الأسف، وهو الحزن والغم، ويأتي بمعنى الغضب، بل إنّه يقال للحزن المقترن بالغضب أحياناً - على قول الراغب في مفرداته[1] - وقد يقال لكل منهما على الانفراد. وحقيقته ثوران دم القلب، شهوة الانتقام، فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً، ولذلك سئل ابن عباس عن الحزن والغضب فقال: «مخرجهما واحد واللفظ مختلف».

---

(١) مفردات الراغب، مادة (أسف).

وفسّر بعضهم ﴿ءَاسَفُونَا﴾ بـ(آسفوا رسلنا)، إلاّ أن هذا التّفسير يبدو بعيداً، ولا ضرورة لمثل هذا الخلاف الظاهري.

وهنا نكتة تستحق الانتباه، وهي أنّه لا معنى للحزن والغم بالنسبة إلى الله سبحانه، ولا الغضب بالمعنى المتعارف بيننا، بل إنّ غضب الله يعني «إرادة العقاب»، ورضاه يعني «إرادة الثواب».

وتقول الآية الأخيرة كاستخلاص لنتيجة مجموع ما مر من كلام: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾.

«السلف» في اللغة يعني كل شيء متقدم، ولذلك يقال للأجيال السابقة: سلف، وللأجيال الآتية: خلف، ويسمّون المعاملات التي تتمّ قبل الشراء «سلفاً»، لأنّ ثمن المشتري يدفع من قبل.

والمثل يقال للكلام الدائر بين الناس كعبرة، ولما كانت قصة فرعون والفراعنة ومصيرهم المؤلم عبرة عظمى، فقد ذكرت في هذه القصة كعبرة للأقوام الآخرين.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

سبب النّزول

جاء في سيرة ابن هشام: «وجلس رسول الله ﷺ يوماً - فيما بلغني - مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثمّ تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾[1].

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٨ - ٩٩.

ثمّ قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي حتى جلس، فقال الوليد ابن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمّد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمّداً: أكلُّ ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم عليه السلام، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزّبعرى، ورأوا أنّه قد احتجّ وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزبعرى، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ كل من أحبّ أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنّهم إنّما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته»(١).

فنزلت الآية الشريفة (١٠١) من سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ وكذلك نزلت الآية: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾(٢).

التّفسير

أي الآلهة في جهنم؟

تتحدث هذه الآيات حول مقام عبودية المسيح عليه السلام، ونفي مقولة المشركين بألوهيته وألوهية الأصنام، وهي تكملة للبحوث التي مرت في الآيات السابقة حول دعوة موسى ومحاربته للوثنية الفرعونية، وتحذير لمشركي عصر النّبي ﷺ وكل مشركي العالم.

وبالرغم من أنّ الآيات تتحدث بإبهام، إلاّ أنّ محتواها ليس معقّداً ولا غامضاً للقرائن الموجودة في نفس الآيات، وآيات القرآن الأُخرى، رغم التفاسير المختلفة التي ذكرها المفسّرون.

تقول الآية الأولى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾(٣).

أيّ مثل كان هذا؟ ومن الذي قاله في حقّ عيسى ابن مريم؟

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٥، بتلخيص قليل.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٧.
(٣) ﴿يَصِدُّونَ﴾ من مادة صد، ويكسر مضارعها، وهي تعني الضحك والصراخ، وإحداث الضجيج والغوغاء، حيث يضعون يداً بيد عند السخرية والاستهزاء عادة. يراجع لسان العرب، مادة: صدد.

هذا هو السؤال الذي اختلف المفسّرون في جوابه على أقوال، إلاّ أنّ الدقّة في الآيات التالية توضح أنّ المثل كان من جانب المشركين، وضرب فيما يتعلق بالأصنام، لأنّا نقرأ في الآيات التالية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾.

بملاحظة هذه الحقيقة، وما جاء في سبب النّزول، يتّضح أن المراد من المثل هو ما قاله المشركون استهزاء لدى سماعهم الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1]، وكان ما قالوه هو أن عيسى ابن مريم قد كان معبوداً، فينبغي أن يكون في جهنم بحكم هذه الآية، وأي شيء أفضل من أن نكون نحن وأصنامنا مع عيسى؟! قالوا ذلك وضحكوا واستهزؤوا وسخروا!

ثمّ استمرّوا: ﴿وَقَالُوا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟ فإذا كان من أصحاب الجحيم، فإنّ آلهتنا ليست بأفضل منه ولا أسمى.

ولكن، اعلم أنّ هؤلاء يعلمون الحقيقة، و﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[2].

إنّ هؤلاء يعلمون جيداً أنّ الآلهة الذين يردون جهنم هم الذين كانوا راضين بعبادة عابديهم، كفرعون الذي كان يدعوهم إلى عبادته، لا كالمسيح عليه السلام الذي كان ولا يزال رافضاً لعملهم هذا، ومتبرئاً منه.

بل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فقد كانت ولادته من غير أب آية من آيات الله، وتكلمه في المهد آية أُخرى، وكانت كل معجزة من معجزاته علامة بينة على عظمة الله سبحانه، وعلى مقام النبوّة.

لقد كان عيسى مقِراً طوال حياته بالعبودية لله، ودعا الجميع إلى عبوديته سبحانه، ولما كان موجوداً في أُمته لم يسمح لأحد بالانحراف عن مسير التوحيد، ولكن المسيحيين أوجدوا خرافة ألوهية المسيح، أو التثليث، بعده[3].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) ﴿خَصِمُونَ﴾ جمع خصم، وهو الشخص الذي يجادل ويخاصم كثيراً.

(٣) احتملوا في تفسير الآيات أعلاه احتمالات أُخرى، وكل منها لا يتناسب مع محتوى الآيات:

١ - فقال البعض: إنّ المراد من المثل الذي ضربه المشركون هو أنّهم قالوا بعد ذكر المسيح وقصته في آيات القرآن: إنّ محمّداً يهيئ الأرضية ليدعونا إلى عبادته، والقرآن في مقام الدفاع عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لم يكن المسيح مدعياً للألوهية، وسوف لن يدعيها هو أيضاً.

٢ - وقال البعض الآخر: إنّ المراد من المثل في الآيات المذكورة هو التشبيه الذي ذكره الله سبحانه في=

والطريف أن نقرأ في روايات عديدة وردت عن طريق الشيعة والسنّة، أنّ النّبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «إنّ فيك مثلاً من عيسى، أحبّه قوم فهلكوا فيه، وأبغضه قوم فهلكوا فيه» فقال المنافقون: أما رضي له مثلاً إلاّ عيسى، فنزل قوله تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾.

وما قلناه متن رواية أوردها الحافظ أبو بكر بن مردويه - من علماء أهل السنّة المعروفين - في كتاب المناقب. طبقاً لنقل كشف الغمة صفحة ٩٥.

وقد نقل جمع آخر من علماء السنة، وكبار علماء الشيعة هذه الحادثة في كتب عديدة، تارة بدون ذكر الآية أعلاه، وأُخرى مع ذكرها(١).

إنّ القرائن الموجودة في الآيات توحي بأن هذا الحديث المعروف من قبيل تطبيق المصداق، لا أنه سبب النّزول، وبتعبير آخر: فإنّ سبب نزول الآية هو قصة عيسى وقول المشركين وأصنامهم، لكن لما وقع لعلي عليه السلام حادث شبيه لذاك بعد ذلك القول التاريخي للنّبي ﷺ، فإنه ﷺ تلا هذه الآية هنا ليبين أنّ هذا الحادث كان مصداقاً لذاك من جهات مختلفة.

ولئلا يتوهموا أنّ الله سبحانه محتاج لعبوديتهم، وأنّه يصر عليها، فإنّه تعالى يقول في الآية التالية: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ ملائكة تخضع لأوامر الله، ولا تعرف عملاً إلاّ طاعته وعبادته.

= شأن المسيح في الآية (٥٩) من سورة آل عمران، حيث يقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فإذا كان عيسى قد ولد من غير أب فإنّ ذلك لا يثير العجب، لأنّ آدم قد ولد من غير أب وأم، بل من التراب بأمر الله تعالى.

٣ - واحتمل بعض آخر أنّ المراد من المثل هو قول المشركين حيث كانوا يقولون: إذا كان النصارى يعبدون المسيح، فلماذا لا تكون آلهتنا التي هي أسمى منه، لائقة للعبادة وأهلاً لها؟

غير أنّ الالتفات إلى الخصوصيات التي ذكرت في هذه الآيات يوضح أن أيّاً من هذه التّفسيرات الثلاثة لا يصح، لأنّ الآيات تبيّن جيداً:

أوّلاً: أنّ المثل كان من ناحية المشركين.

ثانياً: كان الموضوع قد أثار ضجة وصخباً، وكان مضحكاً بنظرهم.

ثالثاً: كان شيئاً على خلاف مقام عبودية المسيح عليه السلام.

رابعاً: أنّه كان يحقق هدف هؤلاء، وهو الجدال في أمر كان كاذباً.

وهذه الخصائص لا تتناسب إلاّ مع ما قلناه في المتن فقط.

(١) لمزيد الاطلاع راجعوا: كتاب إحقاق الحق، ج ٣، ص ٣٩٨ وما بعدها، تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص٦٠٩ وما بعدها، وتفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.

واختار جمع من المفسّرين تفسيراً آخر للآية، يصبح معنى الآية على أساسه: ولو نشاء لجعلنا أبناءكم ملائكة يخلفونكم في الأرض، بناء على هذا فلا تعجبوا من أن يولد المسيح من دون أب، فإنّ الله عَزَّوَجَلَّ قادر على أن يخلق ملكاً من الإنسان، وهو نوع يختلف عنه(١).

ولما كان تولد الملك من الإنسان لا يبدو مناسباً، فقد فسّره بعض كبار المفسّرين بولادة الأبناء الذين يتمتعون بصفات الملائكة، وقالوا: إنّ المراد: لا تعجبوا من أن تكون لعبد كالمسيح القدرة على إحياء الموتى، وإبراء المرضى بإذن الله، وهو في الوقت نفسه عبد مخلص مطيع لأمر الله، فإنّ الله قادر على أن يخلق من أبنائكم من تكون فيه كل صفات الملائكة وطبائعهم(٢).

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآية أكثر من الجميع، وهذه التفاسير بعيدة(٣).

والآية التالية تشير إلى خصيصة أُخرى من خصائص المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وتقول: إن عيسى سبب العلم بالساعة ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ إمّا أن ولادته من غير أب دليل على قدرة الله اللامتناهية، فتحُل على ضوئها مسألة الحياة بعد الموت، أو من جهة نزول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من السماء في آخر الزمان طبقاً لروايات عديدة، ونزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعة.

يقول جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقول: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلّ بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة من الله لهذه الأُمّة»(٤).

ونقرأ في حديث آخر عن النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنّه قال: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم»(٥).

---

(١) اختار التّفسير الأوّل، الطبرسي في مجمع البيان، والشيخ الطوسي في التبيان، وأبو الفتوح الرازي وآخرون.
أما التّفسير الثّاني فقد نقله القرطبي والآلوسي في روح المعاني، والزمخشري في الكشاف، والمراغي، على أنّه المعنى الوحيد للآية، أو أنّه أحد معنيين لها.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٨، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) طبقاً للتفسير الأوّل، فإنّ (من) للبدلية، وبناء على التّفسيرين الثّاني والثّالث فإنّ (من) للإنشاء والابتداء.

(٤) نقل هذا الحديث صاحب مجمع البيان عن صحيح مسلم في ذيل الآيات مورد البحث.

(٥) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، وتفسير روح المعاني، ج ٥، ص ٨٨.

وعلى أية حال، فإنّ إطلاق (العلم) على المسيح نوع من التأكيد والمبالغة، وهو إشارة إلى أن نزوله من علامات القيامة حتماً.

واحتمل أيضاً أن يعود الضمير في (أنّه) على القرآن، وعلى هذا يكون معنى الآية: إنّ نزول القرآن الذي هو آخر الكتب السماوية، دليل على اقتراب الساعة، ويخبر عن قيام القيامة.

غير أنّ الآيات السابقة واللاحقة حول عيسى تقوي التّفسير الأوّل.

ثمّ تقول الآية بعد ذلك: إنّ قيام الساعة حتم، ووقوعها قريب: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا من حيث الاعتقاد بها ولا من حيث الغفلة عنها.

﴿وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وأي صراط أكثر استقامة من الذي يخبركم بالمستقبل الخطير الذي ينتظركم، ويحذركم منه، ويدلكم على طريق النجاة من أخطار يوم البعث؟!

إلاّ أنّ الشيطان يريد أن يبقيكم في عالم الغفلة والارتباط بها، فاحذروا: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

لقد أظهر عداءه لكم منذ اليوم الأوّل، مرّة عند وسوسته لأبيكم وأمكم - آدم وحواء - وإخراجهما من الجنّة، وأُخرى عندما أقسم على إضلال بني آدم وإغوائهم، إلاّ المخلَصين منهم، فكيف تخضعون أمام هكذا عدوّ لدود أقسم على أذاكم ودفعكم إلى الهاوية السحيقة؟ وكيف تسمحون له أن يتسلّط على قلوبكم وأرواحكم، وأن يمنعكم عن طريق الحق بوساوسه المستمرة؟!

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

التّفسير

الذين غالوا في المسيح

مرت الإشارة إلى جانب من خصائص حياة المسيح عليه السلام في الآيات السابقة،

وتكمل هذه الآيات ذلك البحث، وتؤكّد بالخصوص على دعوة المسيح إلى التوحيد الخالص، ونفي كل شكل من أشكال الشرك.

تقول الآية أوّلاً: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وبهذا فقد كانت «البينات» - أي آيات الله والمعجزات - رأسمال عيسى، إذ كانت تبيّن حقانيته من جانب، وتبين من جانب آخر الحقائق المرتبطة بالمبدأ والمعاد واحتياجات حياة البشر.

ويصف عيسى عليه السلام محتوى دعوته ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ في عبارته، ونحن نعلم أنّ أساس الحكمة هو المنع من شيء بقصد إصلاحه، ثمّ أُطلقت على كل العقائد الحقّة، وبرامج الحياة الصحيحة التي تصون الإنسان من أنواع الانحراف في العقيدة والعمل، وتتناول تهذيب نفسه وأخلاقه، وعلى هذا فإنّ للحكمة هنا معنى واسعاً يشمل «الحكمة العلمية» و«الحكمة العملية».

ولهذه الحكمة - إضافة إلى ما مرّ - هدف آخر، وهو رفع الاختلافات التي تخلّ بنظام المجتمع، وتجعل الناس حيارى مضطربين، ولهذا السبب نرى المسيح عليه السلام يؤكّد على هذه المسألة.

وهنا يطرح سؤال التفت إليه أغلب المفسّرين، وهو: لماذا يقول: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ولم لا يبيّن الجميع؟

وقد ذكرت أجوبة عديدة لهذا السؤال، وأنسبها هو:

إنّ الاختلافات التي بين الناس نوعان: منها ما يكون مؤثراً في مصيرهم من الناحية العقائدية والعملية، ومنها ما يكون في الأُمور غير المصيرية، كالنظريات المختلفة حول نشأة المنظومة الشمسية والسماوات، وكيفية الأفلاك والنجوم، وماهية روح الإنسان، وحقيقة الحياة، وأمثال ذلك.

ومن الواضح أنّ الأنبياء مكلّفون أن ينهوا الاختلافات من النوع الأوّل ويقتلعوها بواسطة تبيان الحقائق، ولكنّهم غير مكلّفين برفع كل اختلاف يكون بين الناس حتى وإن لم يكن له تأثير في مصير الإنسان مطلقاً.

ويحتمل أيضاً أن تبيان بعض الاختلافات نتيجة وغاية لدعوة الأنبياء، أي إنّهم سيوفقون أخيراً في حل بعض هذه الاختلافات، أمّا حلّ جميع الاختلافات في الدنيا فإنّه أمر غير ممكن، ولذلك تبيّن آيات متعددة من القرآن المجيد أنّ أحد خصائص

القيامة هو ارتفاع كل الاختلافات وانتهاؤها، فنقرأ في الآية (٩٢) من سورة النحل: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وقد جاء هذا المعنى في الآيات، ٥٥ - آل عمران، ٤٨ - المائدة، ١٦٤ - الأنعام، ٦٩ - الحج، وغيرها(١).

وتضيف الآية في النهاية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

بعد ذلك، ومن أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام في مسألة عبوديته، تقول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.

الملفت للانتباه تكرار كلمة «الرب» مرّتين في هذه الآية، مرّة في حقّه، وأُخرى في حق الناس، ليوضح للناس أنّي وإيّاكم متساوون، وربّي وربّكم واحد. وأنا مثلكم محتاج في كل وجودي إلى الخالق المدبر، فهو مالكي ودليلي.

وللتأكيد أكثر يضيف: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إذ لا يستحق العبادة غيره، ولا تليق إلاّ به، فهو الرب والكل مربوبون، وهو المالك والكل مملوكون.

ثمّ يؤكّد كلامه بجملة أُخرى حتى لا تبقى لمتذرع ذريعة، فيقول: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٢).

نعم، إنّ الصراط المستقيم هو طريق العبودية لله سبحانه... ذلك الطريق الذي لا انحراف فيه ولا اعوجاج، كما جاء في الآية (٦١) من سورة يس: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

لكن العجب أن يختلف أقوام من بعده مع كل هذه التأكيدات: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾(٣):

فالبعض ذهب إلى أنّه الرب الذي نزل إلى الأرض!

وبعض آخر اعتبره ابن ربّه.

---

(١) قال بعض آخر من المفسّرين: إن ﴿بَعْضَ﴾ هنا بمعنى الكل، أو أنّ التعبير بـ ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إضافة موصوف إلى الصفة، أو أنّ هذا التعبير إشارة إلى أنّي أبيّن لكم أُمور الدين وحسب، لا اختلافاتكم في أمر الدنيا. إلاّ أن أيّاً من هذه التفاسير لا يستحق الاهتمام.

(٢) ورد نظير هذه الآية بتفاوت يسير في سورة مريم - ٣٦، وسورة الأنعام - ٥١، وتكرار هذا المعنى تأكيد على أن عيسى عليه السلام قد أتمّ الحجة على جميع هؤلاء في مورد عبوديته وكونه عبداً لله سبحانه.

(٣) الضمير في ﴿بَيْنِهِمْ﴾ يعود إلى الذين خاطبهم المسيح عليه السلام في الآية السابقة، ودعاهم إلى عبودية الله سبحانه.

وآخرون بأنّه أحد الأقانيم الثلاثة (الذوات المقدسة الثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس).

وهناك فئة قليلة فقط هم الذين اعتبروه عبد الله ورسوله، غير أنّ عقيدة الأغلبية هي التي هيمنت، وعمت مسألة التثليث والآلهة الثلاثة عالم المسيحية.

وقد نقل في هذا الباب حديث تاريخي جميل أوردناه في ذيل الآية (٣٦) من سورة مريم.

ويحتمل أيضاً في تفسير الآية، أنّ هذا الاختلاف لم يكن بين المسيحيين وحسب، بل حدث بين اليهود والنصارى في المسيح، فغالى أتباعه فيه، وأوصلوه إلى مقام الألوهية، في حين اتّهمه وأُمَّه الطاهرة أعداؤه بأشنع الاتهامات، وهكذا سلوك الجاهلين وعرفهم، بعضهم صوب الإفراط، وآخرون نحو التفريط، أو هم - على حدّ تعبير أمير المؤمنين علي عليه السلام - بين محب غال وبين مبغض قال، حيث يقول عليه السلام: «هلك فيّ رجلان: محب غال، ومبغض قال»[1]!

وكم هي متشابهة أحوال هذين العظيمين!

وهددهم الله سبحانه في نهاية الآية بعذاب يوم القيامة الأليم، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[2].

نعم، إنّ يوم القيامة يوم أليم، فطول حسابه أليم، وعقوباته أليمة، وحسرته وغمه أليمان، وخزيه وفضيحته أليمان أيضاً.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) نهج البلاغة. الكلمات القصار: الكلمة ١١٧.
(٢) ينبغي الانتباه إلى أن ﴿أَلِيمٍ﴾ صفة لليوم لا للعذاب.

التفسير

ماذا تنتظرون غير عذاب الآخرة؟

كان الكلام في الآيات السابقة يدور حول عبدة الأوثان العنودين، وكذلك حول المنحرفين والمشركين في أمّة عيسى عليه السلام، والآيات مورد البحث تجسد عاقبة أمرهم، يقول تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؟

لقد طرح هذا السؤال بصورة الاستفهام الإنكاري، وهو في الحقيقة بيان لواقع حال أمثال هؤلاء الأفراد، كما نقول في مقام ذم شخص لا يصغي إلى نصيحة ناصح، ويهيئ عوامل فنائه بيده: إنّه بانتظار حتفه فقط!

والمراد من ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في هذه الآية - ككثير من آيات القرآن الأُخرى - هو يوم القيامة، لأنّ الحوادث تقع سريعة حتى كأنّها تحدث في ساعة واحدة.

وجاءت هذه الكلمة - أيضاً - بمعنى لحظة انتهاء الدنيا، ولما لم يكن بين هذين المعنيين كبير فرق، فمن الممكن أن يكون هذا التعبير شاملاً لكلا المعنيين.

وعلى أية حال، فقد وصف قيام الساعة، الذي يبدأ بانتهاء الدنيا المفاجىء، بوصفين في الآية أعلاه: الأوّل: كونه بغتة، والآخر: عدم علم عامة الناس بتأريخ وقوعها وحدوثها.

من الممكن أن يحدث حدث فجأة، ولكنّا نتوقع حدوثه من قبل، ونكون على استعداد لمواجهة المشاكل التي تنجم عنه، إلاّ أنّ سوء الحظ والتعاسة في أن تقع فاجعة قاسية وصعبة جدّاً، بصورة مفاجئة ونحن غافلون عنها تماماً.

هكذا بالضبط حال المجرمين، فهم يُؤخذون وهم في غفلة تامة، بحيث تصور الروايات الواردة عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فتقول: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة، والرجلان يطويان الثوب، ثمّ قرأ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾»(1).

وأي شيء آلم من أن يكون الإنسان غافلاً أمام مثل هذه الحادثة التي ليس فيها أي طريق أو منفذ للرجوع والخلاص، ويغرق في أمواجها من دون أن يكون مُعِدّاً لمستلزمات النجاة؟

---

(1) تفسير روح البيان، ج ٢٥، ص ٨٩.

ثمّ رفعت الآية الغطاء عن حالة الأخلاء الذين يودّ بعضهم بعضاً، ويسيرون معاً في طريق المعصية والفساد، والاغترار بزخارف الدنيا، فتقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

إنّ هذه الآية التي تصف مشهداً من مشاهد القيامة، تبيّن بوضوح أنّ المراد من الساعة في الآية السابقة هو يوم القيامة أيضاً، اليوم الذي تنفصم فيه عرى العلاقات الأخوية والصداقة والرفقة، إلاّ العلاقات التي قامت لله وفي الله وباسمه.

إن تبدل مثل هذه المودة إلى عداوة في ذلك اليوم أمر طبيعي، لأنّ كلاًّ منهم يرى صاحبه أساس تعاسته وسوء عاقبته، فأنت الذي دللتني على هذا الطريق ودعوتني إليه، وأنت الذي زينت الدنيا في نظري ورغبتني فيها وأطمعتني.

نعم، أنت الذي أغرقتني في بحر الغفلة والغرور، وجعلتني جاهلاً بمصيري، غافلاً عنه.

وهكذا يقول كل واحد منهم لصاحبه مثل هذه المطالب، إلاّ المتقين الذين تبقى روابط أخوّتهم، وأواصر مودّتهم خالدة، لأنّها تدور حول محور القيم والمعايير الخالدة، وتتّضح نتائجها المثمرة في عرصة القيامة أكثر، فتمنحها قوّة إلى قوّتها.

من الطبيعي أنّ الأخلاء يعين بعضهم بعضاً في أُمور الحياة، فإن كانت خلتهم على أساس الشرّ والفساد، فهم شركاء في الذنب والجريمة، وإن كانت على أساس الخير والصلاح فهم شركاء في الثواب والعطية، وعلى هذا فلا مجال للعجب من أن يتبدل الخليل من القسم الأوّل إلى عدوّ، ومن القسم الثّاني إلى خليل يشتد حبّه ومودّته أكثر من ذي قبل.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ألا كل خُلّة كانت في الدنيا في غير الله عزّوجلّ فإنّها تصير عداوة يوم القيامة»(٢).

والآية التالية - في الحقيقة - تبيان لأوصاف المتقين وأحوالهم، وبيان لعاقبتهم التي تبعث على الفخر والاعتزاز.

---

(١) ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ جمع (خليل) - من مادة خلة - بمعنى المودّة والمحبّة، وأصلها من الخلل - على وزن شرف - أي الفاصلة بين جسمين، ولما كانت المحبة والصداقة كأنّها تنفذ في أعماق القلب وثناياه، فقد استعملت فيها هذه الكلمة.

(٢) تفسير علي بن إبراهيم، ج ٢، ص ٢٨٧، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦١٢.

في ذلك اليوم العصيب يقول لهم الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

كم هو جميل هذا النداء؟! نداء مباشر من الله سبحانه من دون واسطة توصله... نداء يبدأ بأحسن الصفات: يا عبادي! نداء يزيل قلق الإنسان في يوم ليس فيه إلاّ القلق والاضطراب... نداء يطهر القلب من غمّ الماضي وحزنه، وينقيه...

نعم، لهذا النداء هذه المزايا الأربع المذكورة.

وتبيّن آخر آية - من هذه الآيات - هؤلاء المتقين والعباد المكرمين بصورة أكثر وضوحاً، بذكر جملتين أخريين، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

أجل، هؤلاء هم الذين يخاطبون بمثل هذا الخطاب العظيم، ويسبحون في تلك النعم.

إنّ هاتين الجملتين تعريف بليغ باعتقادات هؤلاء وأعمالهم، فهما تبينان إيمانهم الذي هو أساس عقيدتهم الثابت، وتبينان إسلامهم في تسليمهم لأمر الله سبحانه وتنفيذ أوامره.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

التفسير

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾

تبيّن هذه الآيات جزاء عباد الله المخلصين، والمؤمنين الصالحين الذين مرّ وصفهم في الآيات السابقة، وتبشرهم بالجنّة الخالدة مع ذكر سبع نعم من نعمها النفيسة الغالية.

تقول أوّلاً: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ وبذلك فإنّ مضيفهم الحقيقي هو الله تعالى الذي يدعو ضيوفه ويقول لهم: ادخلوا الجنّة.

ثمّ أشارت إلى أول نعمة من تلك النعم، فقالت: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ ومن الواضح أنّ

كون المؤمنين الرحماء إلى جانب زوجاتهم المؤمنات يمنحهما معاً اللذة والسرور، فإذا كانا شريكين في همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين في سرور الآخرة ونشوتها.

وقد فسّر بعضهم «الأزواج» هنا بالمتساوين في الدرجة والأصدقاء والأقارب، فلو صحّ فوجودهم نعمة عظيمة، إلاّ أنّ ظاهر الآية هو المعنى الأوّل.

ثمّ تضيف: ﴿تُحْبَرُونَ﴾.

﴿تُحْبَرُونَ﴾ من مادة حِبْر - وزن فكر - أي الأثر المطلوب، وتطلق أحياناً على الزينة وآثار الفرح التي تظهر على الوجه، وإذا قيل للعلماء أحبار، فلآثارهم التي تبقى بين المجتمعات البشرية، كما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «العلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[1].

وتقول في بيان النعمة الثالثة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ فهم يُضافون ويُخدمون بأفضل الأواني، وألذّ الأطعمة، في منتهى الهدوء والاطمئنان والصفاء.

«الصحاف» جمع صحفة، وهي في الأصل من مادة صحف، أي التوسع، وتعني هنا الأواني الكبيرة الواسعة والأكواب جمع كوب، وهي أقداح الماء التي لا عروة لها.

ومع أنّ الكلام في الآية عن الصحاف الذهبية، دون طعامهم وشرابهم، إلاّ أنّ من البديهي أنّ الذين يخدمونهم لا يطوفون عليهم بصحاف خالية مطلقاً.

وتشير في الرابعة والخامسة إلى نعمتين أُخريين جمعت فيهما كلّ نعم العالم المادية والمعنوية، فتقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾، وعلى قول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: لو أنّ جميع الخلائق قد اجتمعت لوصف أنواع نعم الجنّة، فسوف لا يقدرون أن يضيفوا شيئاً على ما جاء في هذه الجملة أبداً.

وأي تعبير أجمل من هذا التعبير وأجمع منه؟ فهو تعبير بسعة عالم الوجود، وبسعة ما يخطر في أذهاننا اليوم وما لا يخطر، تعبير ليس فوقه تعبير.

والطريف أن مسألة شهية النفس قد بيّنت منفصلة عن لذة العين، وهذا الفصل عميق المعنى: فهل هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، من جهة أن للذّة النظر أهمية خاصّة تفوق اللذات الأُخرى؟ أم هو من جهة أن جملة: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ تبيّن لذات

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار الكلمة ١٤٧.

الذوق والشم والسمع واللمس، أمّا جملة: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ فهي تبيان للذة العين والنظر؟

ويعتقد البعض أنّ جملة: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ إشارة إلى كلّ اللذات الجسمية، في حين أنّ جملة: ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ مبينة للذات الروحية، وأي لذة في الجنّة أسمى من أن ينظر الإنسان بعين القلب إلى جمال الله الذي لا يشبهه جمال، فإنّ لحظة من تلك اللحظات تفوق كل نعم الجنّة المادية.

ومن البديهي أنّ شوق الحبيب كلما زاد، كانت لذة اللقاء أعظم.

سؤال: وهنا يطرح سؤال، وهو: هل أنّ سعة عمومية مفهوم هذه الآية، دليل على أنّهم يطلبون من الله هناك أن يمنحهم أُموراً كانت حراماً في الدنيا؟

والجواب: إنّ طرح هذا السؤال ناتج عن عدم الالتفات إلى نكتة، وهي أنّ المحرمات والقبائح كالغذاء المضر لروح الإنسان، ومن المسلّم أنّ الروح السالمة الصحيحة لا تشتهي مثل هذا الغذاء، وتلك التي تميل أحياناً إلى السموم والأغذية المضرة هي الأرواح المريضة.

إنّنا نرى بعض المرضى يميلون حتى في حالة المرض إلى تناول التراب أو أشياء أُخرى من هذا القبيل، إلاّ أنّهم بمجرّد أن يزول عنهم المرض تزول عنهم هذه الشهية الكاذبة.

نعم، إنّ أصحاب الجنّة سوف لا يميلون أبداً إلى مثل هذه الأعمال، لأن ميل الروح وانجذابها إليها من خصائص أرواح أصحاب الجحيم المريضة.

إنّ هذا السؤال يشبه ما ورد في الحديث من أنّ أعرابياً أتى النّبي ﷺ وقال: هل في الجنّة إبل؟ فإنّي أحبّها حبّاً جمّاً، فالتفت إليه النّبي ﷺ الذي كان يعلم أن في الجنّة نعماً سينسى معها الأعرابي الإبل، وأجابه بعبارة قصيرة فقال: «يا أعرابي، إن أدخلك الله الجنّة أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك»[1].

وبتعبير آخر: فهناك العالم الذي ينسجم فيه الإنسان مع الحقائق تماماً.

وعلى كلِّ حال، لما كانت قيمة النعمة في كونها خالدة، فقد طمأنت الآية أصحاب النعيم من هذه الجهة عندما ذكرت الصفة السادسة فقالت: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لئلاّ

(١) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٣٩١.

يكدر التفكير في زوال هذه النعمة صفو عيشهم ولذّتهم، فيقلقوا من المستقبل وما يخبئه.

وهنا، من أجل أن يتّضح أن كل نعم الجنّة هذه تعطى جزاءً لا اعتباطاً وعبثاً، تضيف الآية: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والطريف في الأمر أنّ الآية تطرح مجازاة الأعمال وكون الجنّة في مقابلها من جهة، ومن جهة أُخرى تجعلها إرثاً، وهو يستعمل عادة في الموارد التي تصل فيها النعمة إلى الإنسان من دون أن يبذل جهداً أو سعياً في تحصيلها، وهذه إشارة إلى أنّ أعمالكم هي أساس خلاصكم ونجاتكم، إلاّ أن ما تحصلون عليه إذا ما قورن بأعمالكم فهو كالشيء المجاني المعطى من قبل الله تعالى، وكالهبة حصلتم عليها بفضله.

ويعتبر البعض هذا التعبير إشارة إلى ما قلناه سابقاً من أنّ لكل إنسان منزلاً في الجنّة ومحلاً في الجحيم، فيرث أصحاب الجنّة منازل أصحاب النّار، ويرث أصحاب النّار أمكنة أصحاب الجنّة!

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأنسب.

والكلام في النعمة السابعة والأخيرة في ثمار الجنّة التي هي من أفضل نعم الله، فتقول الآية: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

لقد كانت الصحاف والأكواب بياناً لأنواع الأطعمة والأشربة في الواقع، أمّا الفواكه فلها حسابها الخاص، وقد أُشير إليه في آخر آية من هذه الآيات.

والجميل أنّها تبيّن بتعبير ﴿مِّنْهَا﴾ حقيقة أنّ فاكهة الجنّة كثيرة جدّاً بحيث لا تتناولون إلاّ جزءاً منها، وعلى هذا فإنّها لا تفنى، وأشجارها مثمرة دائماً.

وجاء في الحديث: «لا ينزع رجل في الجنّة ثمرة من ثمرها إلاّ نبت مثلها مكانها»[1].

كانت هذه بعض نعم الجنّة التي تبعث الحياة في النفوس، وهي بانتظار ذوي الإيمان القوي البيّن، والأعمال الصالحة النبيلة.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ

(١) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٣٩٢.

قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾
أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا
لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

التّفسير

نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب

لقد فصّلت هذه الآيات القول في مصير المجرمين والكافرين في القيامة، ليتّضح الفرق بينه وبين مصير المؤمنين - المطيعين لأمر الله - المشرف السعيد من خلال المقارنة بين المصيرين.

تقول الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾.

«المجرم» من مادة جرم، وهو في الأصل بمعنى القطع الذي يستعمل في قطع الثمار من الشجرة - أي القطف - وكذلك في قطع نفس الشجرة، إلاّ أنّه استعمل فيما بعد في القيام بكل عمل سيئ، وربّما كان سبب هذا الاستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه وعن القيم الإنسانية، وتبعده عنهما.

لكن من المسلّم هنا أنّه لا يريد كل المجرمين، وإنّما المراد هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلاً لهم، بقرينة ذكر مسألة الخلود والعذاب الخالد، وبقرينة المقارنة بالمؤمنين الذين مرّ الكلام عنهم في الآيات السابقة، ويبدو بعيداً ما قاله بعض المفسّرين من أنها تشمل كل المجرمين.

ولما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائمي بمرور الزمان، وتقل شدته تدريجياً، فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، وعلى هذا فإنّ عذاب هؤلاء دائم من ناحيتي الزمان والشدّة، لأنّ الفتور يعني السكون بعد الحدة، واللين بعد الشدّة، والضعف بعد القوّة كما يقول الراغب في مفرداته.

«مبلس» من مادة «إبلاس»، وهي في الأصل الحزن الذي يصيب الإنسان من شدة التأثر والانزعاج، ولما كان هذا الهم والحزن يدعو الإنسان إلى السكوت، فقد استعملت مادة الإبلاس بمعنى السكوت والامتناع عن الجواب أيضاً، ولما كان الإنسان ييأس من خلاص نفسه ونجاته في الشدائد العصيبة، فقد استعملت هذه المادة في مورد

اليأس أيضاً، ولهذا المعنى سمي «إبليسُ» إبليسَ، إذ إنّه آيس من رحمة الله.

على أية حال، فإنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسألة الخلود، وعدم تخفيف العذاب، والحزن واليأس المطلق، وما أشد العذاب الذي تمتزج فيه هذه الأمور الثلاثة وتجتمع.

وتنبه الآية التالية إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، واشتروه بأعمالهم وبظلمهم لأنفسهم، فتقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فكما أن الآيات السابقة قد بينت أن منبع كل تلك النعم اللامتناهية هي أعمال المؤمنين المتقين، فإن هذه الآيات تعد أعمال هؤلاء الظالمين سبب هذا العذاب الخالد ومنبعه، وأي ظلم أكبر من أن يكذّب الإنسان بآيات الله سبحانه، ويضرب جذور سعادته بمعول الكفر والافتراء: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾(١).

نعم، إن القرآن يرى إرادة الإنسان وأعماله السبب الأساسي لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية والوهمية التي اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثمّ تطرقت الآية إلى بيان جانب من مذلة هؤلاء ومسكنتهم، فقالت، ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فمع أن كل امرىء يهرب من الموت ويريد استمرار الحياة وبقاءها، إلاّ أنّه عندما تتوالى عليه المصائب أحياناً ويضيق عليه الخناق يتمنى على الله الموت، وإذا كانت هذه الأمنية قد تحدث أحياناً لبعض الناس في الدنيا، فإنّها تعمّ جميع المجرمين هناك، فكلهم يتمنى الموت.

ولكن حيث لا فائدة من ذلك، فإنّ مالك النّار وخازنها يجيبهم: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾(٢).

والعجيب أنّ خازن النّار يجيبهم بعد ألف سنة - برأي بعض المفسّرين - وبكل احتقار وعدم اهتمام، فما أشد إيلام هذا الاحتقار(٣).

قد يقال: كيف يطلب هؤلاء مثل هذا الطلب مع يقينهم أن لا موت هناك؟ غير أنّ

---

(١) سورة الصف، الآية: ٧.

(٢) ﴿مَّٰكِثُونَ﴾ من مادة (مكث)، وهو في الأصل التوقف المقترن بالانتظار، وربّما كان هذا التعبير من مالك استهزاءً، كما نقول - أحياناً - لمن يطلب شيئاً لا يستحقه انتظر!

(٣) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث وقال البعض: إنّ المسافة بين السؤال والجواب مائة سنة، وآخرون: أربعون سنة، ومهما تكن فإنّها دليل على الاحتقار وعدم الاهتمام.

مثل هذا الطلب طبيعي من إنسان أحاطت به المصائب والآلام، وقطع أمله من كل شيء.

أجل، إنّ هؤلاء عندما يرون كل سبل النجاة مغلقة في وجوههم، سيطلقون هذه الصرخة من أعماق قلوبهم، ولكن حق القول عليهم بالعذاب، فلا فائدة من صراخهم، ولا صريخ لهم.

أمّا لماذا لا يطلب هؤلاء الموت من الله مباشرة، بل يقولون لمالك: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾؟ فلأنّهم في ذلك اليوم محجوبون عن ربّهم، كما نقرأ ذلك في الآية (١٥) من سورة المطففين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ولذلك يطلبون طلبتهم هذه من ملك العذاب، أو بسبب أن مالكاً ملك مقرب عند الله سبحانه.

وتقول الآية الأُخرى، وهي تشير في الحقيقة إلى علة خلود هؤلاء في نار جهنم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

وللمفسّرين رأيان مختلفان في أن هذا الكلام هل هو من قبل مالك خازن النّار، وأن ضمير الجمع يعود على الملائكة ومنهم مالك، أم أنّه كلام الله تعالى؟

السياق يوحي أن يكون الكلام كلام مالك، لأنّه أتى بعد كلامه السابق، إلاّ أنّ محتوى نفس الآية ينسجم مع كونه كلام الله تعالى، والشاهد الآخر لهذا الكلام الآية (٧١) من سورة الزمر: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فهنا يعد الملائكة الرسل هم الذين جاؤوا بالحق، لا هم.

وللتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، وإن كانت مسألة التوحيد والمعاد والقرآن تأتي في الدرجة الأولى.

وهذا التعبير يشير - في الحقيقة - إلى أنّكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، وإنّما خالفتم الحق في الواقع، وهذه المخالفة هي التي ساقتكم إلى العذاب الخالد الأبدي.

وتعكس الآية التالية جانباً من كراهية هؤلاء للحق واشمئزازهم منه، وكذلك مناصرتهم للباطل والتمسك به، فتقول: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾[1] فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس ودبّروا المؤمرات لإطفاء نور الإسلام، وقتل النّبي ﷺ ولم يتورعوا في إنزال الضربات بالإسلام والمسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) «أم» في الآية منقطعة، وهي بمعنى (بل) والإبرام بمعنى الإحكام.

وفي المقابل أردنا أن نجازي هؤلاء في هذه الحياة الدنيا، وفي الآخرة بأشد العذاب.

ويرى بعض المفسّرين أنّ سبب نزول هذه الآية هو قضية مؤامرة قتل النّبي ﷺ قبل الهجرة، والتي أشير إليها في الآية (٣٠) من سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾[1].

والظاهر أنّ هذا من قبيل التطبيق، لا أنه سبب النّزول...

والآية الأُخرى بيان لإحدى علل التآمر، فتقول: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾؟ فإن الأمر ليس كذلك، إذ نحن نسمع ورسلنا: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

«السر» هو ما يضمره الإنسان في قلبه، أو ما يودعه من أسراره لدى إخوانه وأصدقائه، و«النجوى» هي الهمس في الأذن.

نعم، فإن الله سبحانه لا يسمع نجواهم وهمسهم فيما بينهم فحسب، بل يعلم ما يضمرونه في أنفسهم أيضاً، فإنّ السر والعلن لديه سواء.

والملائكة المكلفون بتسجيل أعمال البشر وأقوالهم يكتبون هذه الكلمات في صحائف أعمالهم دائماً، وإن كانت الحقائق بدون ذلك واضحة أيضاً، ليروا جزاء أعمالهم وأقوالهم ومؤامراتهم في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

التّفسير

ذرهم في خوضهم يلعبون

لما كان البحث في الآيات السابقة - وخاصة في بداية السورة - عن مشركي العرب

(١) الفخر الرازي، ج ٢٧، ص ٢٢٨، ذيل الآيات مورد البحث.

واعتقادهم بأنّ لله ولداً، وأنّهم كانوا يظنون الملائكة بنات الله، ولما مرّ البحث في عدة آيات مضت عن المسيح عليه السلام ودعوته إلى الوحدانية الخالصة والعبودية لله وحده، فقد ورد البحث في هذه الآيات في نفي هذه العقائد الفاسدة عن طريق آخر.

تقول الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لأنّ إيماني بالله أقوى من إيمانكم جميعاً، ومعرفتي به أكبر، وعليه فيجب أن أعظّم ولده وأطيعه قبلكم.

وبالرغم من أنّ مضمون هذه الآية بدأ معقداً لجماعة من المفسّرين، فذكروا توجيهات مختلفة له كان بعضها عجيباً جدّاً(١)، لكن لا يوجد في الواقع أي تعقيد في محتوى الآية، وهذا الأسلوب الرائع يستعمل مع الأفراد العنودين المتعصبين، كما لو قال شخص: إنّ فلاناً أعلم من الجميع، في حين أنّه لا يعلم شيئاً، فيقال له: إذا كان هو الأعلم فأنا أوّل من يتبعه، وذلك ليبذل القائل جهده في البحث عن دليل يدعم به مدعاه، وعندما يصطدم بصخرة الواقع يستيقظ من غفلته.

غاية ما في الأمر أنّ هناك نكتتين يجب الالتفات إليهما:

الأولى: أنّ العبادة لا تعني العبادة في كل الموارد، فقد تأتي أحياناً بمعنى الطاعة والتعظيم والاحترام، وهي هنا بهذا المعنى، فعلى فرض أنّ لله ولداً - وهو فرض محال - فلا دليل على عبادته، لكنّه لما كان - طبقاً لهذا الفرض - ابن الله فيجب أن يكون مورد احترام وتقدير وطاعة.

والأخرى: أنّ (لو) تستعمل بدل (أن) في مثل هذه الموارد عادة في أدب العرب، وهي تدل على كون الشيء مستحيلاً، وإنّما لم تستعمل في الآية - مورد البحث - مماشاة وانسجاماً في الكلام مع الطرف المقابل.

وعلى هذا، فإنّ النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لو كان لله ولد لبادرت قبلكم إلى احترامه وتعظيمه، ليطمئن هؤلاء من استحالة أن يكون لله ولد.

بعد هذا الكلام ذكرت الآية دليلاً واضحاً على نفي هذه الادعاءات، فقالت:

---

(١) فمثلاً: نرى بعض المفسّرين قد فسّر (إن) هنا بمعنى النفي، و﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ بمعنى أول من عبد الله، وعلى هذا التّفسير فإن معنى الآية يصبح: لا ولد لله أبداً، وأنا أوّل من عبد الله!
وفسر البعض الآخر ﴿الْعَابِدِينَ﴾ بالذي يأبى العبادة، وعلى هذا يكون المعنى: إن كان لله ولد فإني سوف لا أعبد مثل هذا الرب أبداً، لأنه بأبوته لا يمكن أن يكون رباً.
وواضح أن مثل هذه التفاسير لا تنسجم مع ظاهر الآية بأي وجه من الوجوه.

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنّ من كان مالكاً للسمٰوات والأرض ومدبراً لها، وربّاً للعرش العظيم، لا يحتاج إلى الولد، فهو الوجود اللامتناهي، والمحيط بكل عالم الوجود، ومربي كل عالم الخلقة، بل يحتاج الولد من يموت، ولا يستمر وجوده إلاّ عن طريق الولد.

الولد لازم لمن يحتاج العون والأنس في وقت العجز والوحدة.

وأخيراً فإنّ وجود الولد دليل على الجسمانية والانحصار في حيّز الزمان والمكان.

إنّ ربّ العرش، والسماء والأرض، والمنزّه عن كل هذه الأُمور، غني عن الولد.

والتعبير بـ ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ بعد ﴿رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنّ العرش - وكما قلنا سابقاً - يقال لمجموع عالم الوجود، والذي هو عرش حكومة الله عزّوجلّ.

ويحتمل أيضاً أن يكون العرش إشارة إلى عالم ما وراء الطبيعة، فيكون في مقابل السماوات والأرض التي تشير إلى عالم المادة.

لمزيد الاطلاع على معنى العرش، راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (٢٥٥) من سورة البقرة، وأوسع منه ما جاء في ذيل الآية (٧) من سورة المؤمن.

ثمّ تضيف الآية الأُخرى كاحتقار لهؤلاء المعاندين وتهديد لهم، وهو بحدِّ ذاته أسلوب آخر من أساليب البحث مع أمثال هؤلاء الأفراد ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ ليجنوا عاقبة أعمالهم، وليذوقوا وبال أمرهم.

من الواضح أن المراد من هذا اليوم الموعود هو يوم القيامة، وما احتمله البعض من أنّ المراد هو لحظة الموت فيبدو بعيداً جدّاً، لأنّ الجزاء على الأعمال يكون في يوم القيامة لا في لحظة الموت.

إنّه نفس اليوم الموعود الذي أقسمَ الله تعالى به في الآية (٢) من سورة البروج، حيث تقول الآية: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾.

وتواصل الآيتان التاليتان البحث حول مسألة التوحيد، وهما تشكلان نتيجة للآيات السابقة من جهة، ومن جهة أُخرى دليلاً لتكملتها وإثباتها، وفيهما سبع من صفات الله سبحانه، ولجميعها أثر في تحكيم وتقوية مباني التوحيد.

فتقف الآية الأولى بوجه المشركين الذين كانوا يعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض، بل ابتدعوا للبحر إلهاً، وللصحراء إلهاً وآخر للحرب، ورابعاً للصلح والسلم،

وآلهة مختلفة ومتعددة بتعدد الموجودات، فتقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ لأنّ كونه إلهاً في السماء والأرض يثبت كونه ربّاً ومعبوداً فيهما - وقد مرّ ذلك في الآيات السابقة - لأنّ المعبود الحقيقي هو ربّ العالم ومدبره، لا الأرباب المختلفة، ولا الملائكة، ولا المسيح ولا الأصنام، فكلها ليست أهلاً لأن تكون أرباباً وآلهة، إذ ليس لها مقام الربوبية، فكلها مخلوقة في أنفسها ومربوبة، وتتمتع بأرزاق الله، وكلها تعبده سبحانه.

وتقول في الصفتين الثّانية والثّالثة: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فكل أعماله تقوم على أساس الدقّة والحساب والنظم، وهو عليم بكل شيء ومحيط به، وبذلك فإنّه يعلم أعمال العباد جيداً، ويجازيهم عليها طبقاً لحكمته.

وتتحدث الآية الثانية في الصفتين الرابعة والخامسة، بركات وجوده الدائمة الوفيرة، وعن امتلاكه السماء والأرض وما بينهما، فتقول: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

﴿وَتَبَارَكَ﴾ من مادة بركة، وتعني امتلاك النعمة الوفيرة، أو الثبات والبقاء، أو كليهما، وكلاهما يصدقان في شأن الله تعالى، فإنّ وجوده باق وخالد، وهو مصدر النعم الكثيرة.

وليس للخير الكثير كمال المعنى إذا لم يكن ثابتاً وباقياً، فإنّ الخيرات مهما كانت كثيرة، فهي تعد قليلة إذا كانت مؤقتة وسريعة الزوال.

وتضيف في الصفتين السّادسة والسّابعة: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وعلى هذا فإذا أردتم الخير والبركة فاطلبوها منه لا من الأصنام، فإنّ مصائركم إليه يوم القيامة، وهو المرجع الوحيد لكم، وبيده كل شيء، وليس للأصنام والآلهة أي دور في هذه الأمور.

ملاحظات

١ - لقد تكررت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في هذه الآيات ثلاث مرات: مرّة لبيان كون الله ربّاً ومدبراً لهما، وأُخرى في كونه إلهاً فيهما، وثالثة في كونه مالكاً وحاكماً، وهذه الأُمور الثلاثة مترابطة ببعضها، وهي في الحقيقة علة ومعلول لبعضها البعض، فهو مالك، ولذلك فهو ربّ، وهو في النتيجة إله. ووصفه بالحكيم والعليم إكمال لهذه المعاني.

٢ - يستفاد من بعض الرّوايات الإسلامية أن تعبير الآيات المذكورة بـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ كان قد أصبح وسيلة لبعض الزنادقة والمشركين لإثبات مدعاهم، وكانوا يفسّرون الآية - حسب سفسطتهم - بأنّ في السماء إلهاً، وفي الأرض إلهاً آخر غيره، في حين أنّ الآية تقول بعكس ذلك، فهي تقول: إنّه الإله الذي يعبد في السماء وفي الأرض، أي إنّه تعالى هو المعبود في كل مكان.

ومع ذلك، فإنّ الزنادقة عندما كانوا يطرحون هذا المطلب كسؤال أمام الأئمّة المعصومين، فإنّهم عليهم السلام كانوا يجيبونهم على طريقة النقض والحل:

فمن جملة ذلك ما ورد في الكافي عن هشام بن الحكم، أنّه قال: قال أبو شاكر الديصاني(١): إنّ في القرآن آية هي قولنا، قلت: ما هي؟ قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فلم أدر بِمَ أجيبه.

فحججت فخبّرت أبا عبد الله عليه السلام، فقال: «هذا كلام زنديق خبيث، إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة؟ فإنّه يقول: فلان، فقل له: ما اسمك في البصرة؟ فإنّه يقول: فلان، فقل: كذلك الله ربّنا، في السماء إله، وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي القفار إله، وفي كل مكان إله».

قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز(٢).

وذكر المفسّر الكبير العلاّمة الطبرسي لتكرار لفظ الإله، في هذه الآية علتين:

إحداهما: التأكيد على كون الله تعالى إلهاً في كل مكان.

والأُخرى: أنّه إشارة إلى أنّ ملائكة السماء تعبده، والبشر في الأرض يعبدونه أيضاً، وعلى هذا فإنّه إله الملائكة وبني آدم وكل الموجودات في السماوات والأرض.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

(١) كان أبو شاكر الديصاني أحد علماء فرقة الديصانية، الذين كانوا يعتقدون بعبادة إلهين، ويقولون بإله النور وإله الظلمة. (لغت نامه دهخدا مادة ديصان).

(٢) أصول الكافي، ج ١، كتاب التوحيد، باب الحركة والانتقال، ح ١٠.

التّفسير

من يملك الشفاعة؟

لا زال الحديث في هذه الآيات - وهي آخر آيات سورة الزخرف - حول إبطال عقيدة الشرك وتفنيدها، وعاقبة المشركين المُرّة، وهي توضح بطلان عقيدتهم بدلائل أُخرى.

تقول الآية الأولى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ فلا تقام الشفاعة عند الله إلاّ بإذنه، ولم يأذن الله الحكيم بها لهذه الأحجار والأخشاب التي لا قيمة لها، والفاقدة للعقل والشعور والإدراك مطلقاً.

لكن لما كانت الملائكة وأمثالها من بين آلهة هؤلاء، فقد استثنوا في ذيل الآية، فقالت: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهم الذين أسلموا لوحدانية الله سبحانه في جميع المراحل، وأذعنوا لها، نعم، هؤلاء هم الذين يشفعون بإذن الله تعالى.

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأي كان، حتى وإن كان وثنياً ومشركاً ومنحرفاً عن طريق التوحيد وضالاً عن الصراط المستقيم، بل ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جيداً لمن يشفعون.

وعلى هذا فإنّهم يقطعون الأمل من شفاعة الملائكة لسببين:

الأوّل: أنّها كانت بنفسها تقرّ بوحدانية الله وتشهد بها، ولذلك حصلت على إذن الشفاعة.

والآخر: أنهم يعرفون جيداً من له أهلية الشفاعة ومستحقها(١).

واعتبر البعض جملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مكملة لجملة ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وعلى هذا يصبح معنى الآية: إنّ الذين يشهدون بالتوحيد ويعلمون حقيقته هم الذين يملكون حق الشفاعة فقط. إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

وعلى أية حال، فإنّ هذه الآية تبيّن الشرط الأساس الذي ينبغي توفّره في الشفعاء عند الله تعالى، وهم الشاهدون بالحق، والعالمون به على الدوام والمحيطون بروح التوحيد جيداً، وهم كذلك عالمون بأحوال المشفوع لهم وأوضاعهم.

---

(١) طبقاً لهذا التّفسير فإنّ استثناء ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء متصل، لكنه يصبح منقطعاً فيما إذا كان المراد من جملة ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ خصوص الأصنام. لكن يبدو أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب، خاصة بملاحظة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهي للعاقل، أو التغليب من العاقل وغير العاقل.

ثمّ تدين المشركين من أفواههم، وتجيبهم جواباً قاطعاً، فتقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

لقد قلنا مراراً إن من النادر أن يوجد من بين مشركي العرب وغيرهم من يعتقد أنّ الأصنام هي الخالقة لهم، فإنّ الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط وشفعاء يقربونهم إلى الله زلفى، أو أنّها دلائل وعلامات لأولياء الله المقدسين، ثمّ يضمون إليها ذريعة أن معبودنا يجب أن يكون موجوداً ملموساً ومحسوساً لنأنس به، فيعبدونها، ولذا فإنّهم متى ما سئلوا عن خالقهم فسيقولون: الله.

وقد ذكّر القرآن مراراً بحقيقة أن العبادة لا تليق إلاّ بخالق هذا الكون ومدبره، وإذا كنتم تعلمون أنّ الله هو الخالق والمدبر، فلم يبق لكم إلاّ أن تقصروا عبادتكم عليه، وتخصوه بها.

ولذلك فإنّ الآية تقول في نهايتها ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وهو لوم وتوبيخ لهم... فإنكم إذا علمتم حقيقة الأمر فلِمَ تعرضون عن الله وتعبدون غيره؟

وتحدثت الآية التالية عن شكوى النّبي ﷺ إلى الله سبحانه من هؤلاء القوم المتعصبين الذين لا منطق لديهم، فقالت: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

إنّه يقول: لقد تحدثت مع هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، فأتيتهم من طريق التبشير والإنذار، وذكرت لهم قصص الأقوام الماضين المؤلمة، وحذرتهم من عذابك، ورغبتهم في رحمتك إن هم رجعوا عن طريق الضلال، وخلاصة القول: إنّي أبلغتهم الأمر ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وقلت كل ما ينبغي أن يقال، إلاّ أن حرارة كلامي لم تؤثر في برودة قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة، فلم يؤمنوا[1].

ويأمر الله سبحانه نبيّه في آخر آية أن ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ ولا يكن إعراضك عنهم إعراض

---

(١) هنا اختلاف كبير بين المفسّرين في أنّ ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ معطوفة على ماذا؟ فالبعض يعتقد أنّها معطوفة على الساعة التي مرت قبل ثلاث آيات، وعلى هذا يصبح معنى الجملة: إنّ الله عنده علم الساعة، وشكوى النّبي من الكفار.

والبعض الآخر اعتبرها معطوفة على (علم الساعة) بشرط أن تكون (علم) مقدرة قبل ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ كمضاف محذوف. وهو لا يختلف كثيراً عن التّفسير الأول.

واعتبر جماعة الواو واو القسم. وهناك احتمالات أُخرى لو ذكرناها هنا لطال بنا المقام.

وهنا احتمال آخر لعله أفضل من كل ما قيل في هذا الباب، وهو أنّها معطوفة على محذوف جملة: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، وتقدير ذلك: (أنى يؤفكون عن عبادته وعن قيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون).

افتراق وغضب وأذى وجرح للمشاعر، بل أعرض عنهم ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ لا سلام تحية ومحبّة، بل سلام وداع وافتراق.

إنّ هذا السلام يشبه ذلك السلام الذي ورد في الآية (٦٣) من سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ سلام هو علامة اللامبالاة بهم ممتزجةً بالعلوّ والعزة.

ومع ذلك فإنّه تعالى يهددهم ويحذرهم بجملة عميقة المعنى، لئلا يتصوروا أنّ الله تاركهم بعد هذا الفراق والوداع، فيقول: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

نعم، سوف يعلمون أي نار محرقة قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم، وأي عذاب أليم قد هيأوا أسبابه ليطالهم فيما بعد؟

وقد ذكر البعض سبب نزول الآية: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ...﴾ وهو: أنّ «النضر ابن الحارث» ونفراً من قريش قالوا: إن كان ما يقوله محمّد حقاً، فلا حاجة لنا بشفاعته، فإننا نحبّ الملائكة وهم أولياؤنا، وهم أحق بالشفاعة، فنزلت هذه الآية ونبهتهم على أنّ الملائكة لا تشفع يوم القيامة إلاّ لمن يشهدون بالحق، أي للمؤمنين[1] [2].

وهنا تنتهي سورة الزخرف.

اللّهم، قرّبنا منك ومن أوليائك يوماً بعد يوم، وزدنا حباً لك ولهم حتى تنالنا شفاعتهم.

اللّهم، احفظنا من كل شرك خفيّ وجليّ.

إلهنا، قد وصفت يوم القيامة في كتابك بصفات مهولة ومفزعة وتجعل الناس سكارى وما هم بسكارى...

اللهم فعاملنا بفضلك في ذلك اليوم ولا تعاملنا بعدلك، يا أرحم الراحمين.

---

(١) وفقاً لهذا التفسير أنّ جملة ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ توصيفٌ للمشفعين، لا للشّافعين.
(٢) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٤٢.

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية وعدد آياتها تسع وخمسون

محتوى سورة الدّخان

هذه السورة هي خامس الحواميم السبعة، ولما كانت من السور المكية، فإنّها تتضمن الأبحاث العامة لتلك السور، أي البحث حول المبدأ والمعاد والقرآن بصورة تامّة. وقد نُسجت آياتها ونظّمت في هذا الباب تنظيماً تنزل معه ضرباتها الحاسمة المفزعة على القلوب الغافلة الذاهلة عن ربها، وتدعوها إلى الإيمان والتقوى، والحق والعدالة.

ويمكن تلخيص فصول هذه السورة في سبعة:

١ - بداية السورة بالحروف المتقطعة، ثمّ بيان عظمة القرآن، مع تبيان نزوله في ليلة القدر أوّل مرة.

٢ - وتتحدث في الفصل الثّاني عن التوحيد ووحدانية الله سبحانه، وبيان بعض مظاهر عظمته في عالم الوجود.

٣ - ويتحدث قسم مهم منها عن مصير الكفّار وعاقبتهم، وأنواع العقوبات الأليمة التي نزلت وستنزل بهم.

٤ - وتتحدث السورة في فصل آخر عن قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل مع قوم فرعون، وهزيمة قوم فرعون وهلاكهم وفنائهم، من أجل إيقاظ هؤلاء الغافلين.

٥ - وتشكل مسألة القيامة وأنواع العذاب الأليم الذي سينال أصحاب الجحيم، والمثوبات العظيمة التي تسر الروح، والتي سينالها المتقون، فصلاً آخر من آيات هذه السورة.

٦ - ومن المواضيع الأُخرى التي طرحت في هذه السورة موضوع الغاية من الخلق، وعدم كون خلق السماء والأرض عبثاً.

٧ - وأخيراً تنتهي السورة ببيان عظمة القرآن الكريم كما بدأت بذلك.

ولما كان الكلام في الآية العاشرة من هذه السورة عن «الدخان المبين»، فقد سميت بسورة الدخان.

فضل تلاوة هذه السورة

جاء في حديث عن نبيّ الإسلام ﷺ: «من قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة بنى الله له بيتاً في الجنّة»[١].

وروي عنه ﷺ أنّه قال: «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»[٢]. وفي حديث آخر عن أبي حمزة الثمالي، عن الإمام الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة الدخان في فرائضه ونوافله بعثه الله من الآمنين يوم القيامة، وأظله تحت ظل عرشه، وحاسبه حساباً يسيراً، وأُعطي كتابه بيمينه»[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

التفسير

نزول القرآن في الليلة المباركة

نلاحظ في بداية هذه السورة - وكالسور الأربع السابقة، والسورتين الآتيتين، والتي يكون مجموعها سبع سور هي سور الحواميم - الحروف المقطّعة (حم)، وقد بحثنا كثيراً فيما مضى حول الحروف المقطعة في القرآن بصورة عامة[٤]، وبحثت حروف (حم) خاصة في بداية أوّل سورة من الحواميم (سورة المؤمن) وفي بداية سورة فصلت.

وجدير بالانتباه أنّ بعض المفسّرين فسّر (حم) هنا بالقسم، فيصبح في الآية قَسمان متتابعان: قَسَم بحروف الهجاء كـ(حم)، وَقَسَم بهذا الكتاب المقدس الذي يكون من هذه الحروف.

(١-٣) تفسير مجمع البيان، ج ٩، بداية سورة الدخان.

(٤) راجع تفسير بداية سورة البقرة، بداية سورة آل عمران، بداية سورة الأعراف.

وكما قلنا، فإن الآية الثانية أقسمت بالقرآن الكريم، حيث تقول: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ذلك الكتاب الواضح محتواه، والبينة معارفه... الحية تعليماته، البناءة أحكامه، الدقيقة برامجه وخططه، وهو الكتاب الذي يدل بنفسه على كونه حقّاً، كما أن بزوغ الشمس دليل على الشمس(١).

لكن لنَر الآن ما هو القصد من وراء ذكر هذا القسم؟

الآية التالية توضح هذا الأمر، فتقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾.

«المبارك» من مادة بركة، وهي الربح والمنفعة والخلود والدوام، فأي ليلة هذه التي تكون مبدأ الخيرات، ومنبع الإحسان والعطايا الدائمة؟

لقد فسّرها أغلب المفسّرين بليلة القدر، تلك الليلة العظيمة التي تغيرت فيها مقدرات البشر بنزول القرآن الكريم... تلك الليلة التي تقدر فيها مصائر الخلائق... نعم، لقد نزل القرآن على قلب النّبي المطهر في ليلة حاسمة مصيرية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ظاهر الآية هو أنّ القرآن كله قد نزل في ليلة القدر.

أمّا ما هو الهدف الأساس من نزوله؟ نهاية الآية أشارت إليه إذ قالت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ فإن سنتنا الدائمة هي إرسال الرسل لإنذار الظالمين والمشركين، وكان إرسال نبيّ الإسلام ﷺ بهذا الكتاب المبين آخر حلقة من هذه السلسلة المباركة المقدسة.

صحيح أنّ الأنبياء عليهم السلام ينذرون من جانب، ويبشرون من جانب آخر، لكن لما كان أساس دعوتهم هو مواجهة الظالمين والمجرمين ومحاربتهم، كان أغلب كلامهم عن الإنذار والتخويف.

نزول القرآن الدفعي والتدريجي

١ - نحن نعلم أن القرآن الكريم نزل على مدى ثلاث وعشرين سنة - وهي فترة نبوّة النّبي ﷺ إضافة إلى أن لمحتوى القرآن ارتباطاً وعلاقة بالحوادث المختلفة التي وقعت في حياة النّبي ﷺ والمسلمين طوال هذه الـ(٢٣) سنة، بحيث إنها إذا فصلت عن القرآن الكريم فسيكون غير مفهوم، وإذا كان الحال كذلك فكيف نزل القرآن الكريم كاملاً في ليلة القدر؟

---

(١) سنبحث حول فلسفة الأيمان والقسم في القرآن، والهدف الأساسي منها، في تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم، في ذيل الآيات الكثيرة التي يلاحظ القسم فيها مكرراً إن شاء الله تعالى.

وفي معرض الإجابة على هذا السؤال، ذهب البعض هذا المعنى ببداية نزول القرآن، وبناء على هذا فلا مانع من أن تكون بداية نزوله في ليلة القدر، وينزل الباقي خلال (٢٣) سنة.

غير أن هذا التّفسير - وكما قلنا - لا ينسجم مع ظاهر الآية مورد البحث، ومع آيات أخرى في القرآن المجيد.

وللإجابة على هذا السؤال يجب الانتباه إلى أننا نقرأ في هذه الآية ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ من جهة، ومن جهة أخرى جاء في الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ ومن جهة ثالثة نقرأ في سورة القدر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ فيستفاد جيداً من مجموع هذه الآيات أن الليلة المباركة في هذه الآية إشارة إلى ليلة القدر التي هي من ليالي شهر رمضان المبارك.

وإضافة إلى ما مر، فإنه يستفاد من آيات عديدة أن النبي ﷺ كان عالماً بالقرآن قبل نزوله التدريجي، كالآية (١١٤) من سورة طه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

وجاء في الآية (١٦) من سورة القيامة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

من مجموع هذه الآيات يمكن الاستنتاج أنه كان للقرآن نزولان:

الأوّل: نزوله دفعة واحدة، حيث نزل من الله سبحانه على قلب النّبي ﷺ الطاهر في ليلة القدر من شهر رمضان.

والثّاني: النّزول التدريجي، حيث نزل على مدى (٢٣) سنة بحسب الظروف والحوادث والاحتياجات.

والشاهد الآخر لهذا الكلام أن بعض الروايات قد عبرت بالإنزال، وبعضها الآخر بالنّزول، والذي يفهم من متون اللغة أن التنزيل يستعمل في الموارد التي ينزل فيها الشيء تدريجياً ومتفرقاً، أما الإنزال فله معنى واسع يشمل النّزول التدريجي والنّزول دفعة واحدة[١].

والطريف أنّ كل الآيات المذكورة التي تتحدث عن نزول القرآن في ليلة القدر وشهر رمضان قد عبرت بالإنزال، وهو يتوافق مع النّزول دفعة واحدة، في حين عُبر بالتنزيل فقط في الموارد التي دار الكلام فيها حول النّزول التدريجي للقرآن.

---

(١) راجع مفردات الراغب، مادة نزل.

لكن، كيف كان هذا النّزول جملة على قلب النّبي ﷺ؟ هل كان على هيئة هذا القرآن الذي بين أيدينا بآياته وسوره المختلفة، أم أنّ مفاهيمه وحقائقه قد نزلت بصورة مختصرة جامعة؟

ليس الأمر واضحاً بدقّة، بل القدر المتيقن الذي نفهمه من القرائن - أعلاه - أن هذا القرآن قد نزل دفعة واحدة في ليلة واحدة على قلب النّبي ﷺ مرّة، ونزل على مدى (٢٣) سنة بصورة تدريجية مرّة أخرى.

والشاهد الآخر لهذا الكلام، أنّ للتعبير بالقرآن - في الآية أعلاه - ظهوراً في مجموع القرآن.

صحيح أنّ كلمة القرآن تطلق على كل القرآن وجزئه، لكن لا يمكن إنكار أنّ ظاهر هذه الكلمة هو مجموع القرآن عند عدم وجود قرينة أخرى معها، والتي فسر بها البعض هذه الآية بأنها بداية نزول القرآن، وقالوا: إنّ أوّل آيات القرآن نزلت في شهر رمضان وليلة القدر، الأمر الذي يخالف ظاهر الآيات.

وأضعف منه قول القائل: لما كانت سورة الحمد - التي هي خلاصة لمجموع القرآن - قد نزلت في ليلة القدر، فقد عُبّر بـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾.

إن كل هذه الاحتمالات مخالفة لظاهر الآيات، لأنّ ظاهرها أنّ كل القرآن قد نزل في ليلة القدر.

الشيء الوحيد الذي يبقى هنا هو ما نقرؤه في روايات عديدة رويت في تفسير علي بن إبراهيم، عن الأئمة: الباقر والصادق وأبي الحسن موسى بن جعفر عليهم السلام أنّهم قالوا في تفسير ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾: «هي ليلة القدر، أنزل الله عزّ وجلّ القرآن فيها إلى البيت المعمور جملة واحدة، ثمّ نزل من البيت المعمور على رسول الله في طول عشرين سنة»(١).

(التفتوا جيداً إلى أنّ الرواية قد عبرت عن النّزول جملة واحدة بـ(أنزل) وعن النّزول التدريجي بـ(نزل).

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٢٠. وقد ذكر هذا الحديث أن القرآن نزل تدريجياً في عشرين سنة، في حين أننا نعلم فترة النبوة التي نزل فيها القرآن كانت (٢٣) سنة، ولعل هذا القول اشتباه من الراوي، أو غلط في نسخ الحديث.

وأين هو «البيت المعمور»؟ صرحت روايات عديدة - سيأتي تفصيلها في ذيل الآية (٤) من سورة الطور، إن شاء الله تعالى - بأنه بيت في السماوات بمحاذاة الكعبة، وهو محل عبادة الملائكة، ويحج إليه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

لكن في أي سماء هو؟ الرّوايات مختلفة، ففي كثير منها أنه في السماء الرابعة، وفي بعضها أنه في السماء الأولى - السماء الدنيا - وجاء في بعضها أنه في السماء السابعة.

ونطالع في الحديث الذي نقله العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان في تفسير سورة الطور عن علي عليه السلام: «هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة، تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة، ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون إليه أبداً»(١).

وعلى أية حال، فإنّ نزول القرآن جملة واحدة إلى البيت المعمور في ليلة القدر لا ينافي علم النّبي صلى الله عليه وآله به مطلقاً، فإنّه صلى الله عليه وآله لا سبيل له إلى اللوح المحفوظ الذي هو مكنون علم الله، إلاّ أنّه عالم بالعوالم الأُخرى.

وبتعبير آخر، فإن ما استفدناه وفهمناه من الآيات السابقة، بأن القرآن نزل على النّبي صلى الله عليه وآله مرتين: نزولاً دفعياً في ليلة القدر، ونزولاً تدريجياً طوال (٢٣) عاماً، لا ينافي الحديث المذكور الذي يقول: إنّه نزل في ليلة القدر إلى البيت المعمور، لأن قلب النّبي صلى الله عليه وآله مطلع على البيت المعمور.

وقد اتضح من خلال ما قيل في الجواب عن هذا السؤال، الإجابة عن سؤال آخر يقول: إذا كان القرآن نزل في ليلة القدر، فكيف كانت بداية بعثة النّبي صلى الله عليه وآله في السابع والعشرين من شهر رجب طبقاً للروايات المشهورة؟ حيث كان لنزوله في رمضان صفة الجمع والكلية، في حين أنّ أوّل آياته نزلت في (٢٧) رجب، كبداية للنزول التدريجي، وبذلك فلا مشكلة من هذه الناحية.

والآية التالية وصف وتوضيح لليلة القدر، حيث تقول: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾.

التعبير بـ﴿يُفۡرَقُ﴾ إشارة إلى أن كل الأمور والمسائل المصيرية تقدر في تلك الليلة،

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٦٣. وقد جمع العلاّمة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٥٥ وما بعدها، الروايات المتعلقة بالبيت المعمور. والجدير بالذكر أنّ ما ورد من الأحاديث خمسة عشر حول هذا الموضوع يعتبر الحديث السادس «يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ويخرجون منه ولا يعودون إليه إلى يوم القيامة» والظاهر أن هذا الحديث أكمل وأشمل من غيره، ص ٥٨.

والتعبير بـ «الحكيم» بيان لاستحكام هذا التقدير، وعدم تغيره، وكونه حكيماً، غاية ما في الباب أنّ هذه الصفة تذكر عادة لله سبحانه، ووصف الأُمور الأُخرى بها من باب التأكيد(١).

وهذا البيان ينسجم مع الرّوايات الكثيرة التي تقول: إنّ مقدرات بني آدم بأجمعهم لمدّة سنة تقدر في ليلة القدر، وكذلك تفرق الأرزاق والآجال والأُمور الأُخرى في تلك الليلة.

وسيأتي تفصيل الكلام في هذا البحث والمسائل الأُخرى التي ترتبط بليلة القدر، وعدم التناقض بين هذا التقدير، وبين حرية البشر، في تفسير سورة القدر، إن شاء الله تعالى.

وتقول الآية الأُخرى لتأكيد أنّ القرآن منزل من قبل الله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾(٢).

ولأجل تبيان العلة الأساسية لنزول القرآن وإرسال النّبي ﷺ وكون المقدرات في ليلة القدر، تضيف الآية: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾(٣).

نعم، فإن رحمته التي لا تُحدُّ توجب أن لا يترك العباد وشأنهم، بل يجب أن ترسل إليهم التعليمات اللازمة لترشدهم في سيرهم إلى الله عبر ذلك المسير التكاملي المليء بالالتواءات والتعرجات، فإنّ كل عالم الوجود يصدر عن رحمته الواسعة وينبع منها، والبشر أكثر تنعماً بهذه الرحمة من كل الموجودات.

وتذكر نهاية هذه الآية - والآيات التالية - سبع صفات لله سبحانه، وكلها تبين

---

(١) ذكر في تفسير الميزان تفسير آخر لهذه الآية، خلاصته، إن الأُمور في هذا العالم مرحلتين: مرحلة الإجمال والإبهام، والتي عبر عنها بـ ﴿حَكِيمٍ﴾، ومرحلة التفصيل والكثرة، والتي عبر عنها بـ ﴿يُفْرَقُ﴾ ج١٨، ص ١٣٢.

(٢) هناك احتمالات مختلفة في محل جملة ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ...﴾ من الإعراب، وإلى أي من بحوث الآيات السابقة تنظر؟ وأنسب هذه الاحتمالات أن تكون جملة ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ حالاً لضمير مفعول ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: إنّا أرسلنا القرآن، وكان ذلك أمراً من عندنا، وهذا الاحتمال ينسجم في هذه الصورة تماماً مع جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ والتي تتحدث عن إرسال النّبي ﷺ.
ويحتمل أيضاً أن يكون توضيحاً بـ ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ونصبها على الاختصاص، فيكون المعنى: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا.

(٣) ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول لأجله بـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أو لـ ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أو لكليهما.

توحيده ووحدانيته، فتقول: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو يسمع طلبات العباد، وهو عليم بأسرار قلوبهم.

ثمّ تقول مبينة للصفة الثالثة: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾(١) (٢).

لمّا كان كثير من المشركين يعتقدون بوجود آلهة وأرباب عديدين، وكانوا يظنون أن لكل موجود من الموجودات إله، ولمّا كان التعبير بـ ﴿رَبِّكَ﴾ في الآية السابقة يمكن أن يوهم أنّ ربّ النّبي ﷺ غير ربّ الموجودات الأُخرى، فإنّ هذه الآية أبطلت كل هذه الأوهام بجملة ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وأثبتت أنّ ربّ كل موجودات العالم واحد.

وجملة ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ التي وردت هنا بصيغة الجملة الشرطية، تبعث على التساؤل: هل أن كون ربّ العالم ربّاً، مشروط بمثل هذا الشرط؟

الظاهر أن المراد من ذكر هذه الجملة هو بيان أحد معنيين أو كليهما:

الأوّل: إذا كنتم طلاب يقين، فإنّ السبيل إلى ذلك هو أن تتفكروا في ربوبية الله المطلقة.

والآخر: إذا كنتم من أهل اليقين فإن أفضل مورد لتحصيل هذا اليقين هو أن تتفكروا في آثار رحمة الله، فإنّكم إذا نظرتم إلى الآثار في كل عالم الوجود دلتكم على أن الله ربّ كل شيء، وإذا فلقتم قلب كل ذرّة رأيتم فيه دلالة على هذه الربوبية، ثمّ إذا لم توقنوا بعد هذا بكونه تعالى ربّاً، فبأي شيء في هذا العالم يمكن أن توقنوا وتؤمنوا؟

وتقول في الصفات الرابعة والخامسة والسادسة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾(٣) فحياتكم ومماتكم بيده، وهو سبحانه ربكم ورب العالمين، وعلى هذا فلا إله سواه، أوَ يكون من ليس له مقام الربوبية ولا أهليتها، ولا يملك الحياة والموت ربّاً ومعبوداً؟!

وتضيف في الصفة السابعة ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فإذا قلتم: إنّكم إنّما تعبدون

---

(١) كلمة (ربّ) في هذه الآية بدل من (ربّ) في الآية السابقة.

(٢) جزاء الجملة الشرطية ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ محذوف، وتقدير الكلام: إن كنتم من أهل اليقين، أو في طلب اليقين، علمتم أن الله ربّ السمٰوات والأرض وما بينهما.

(٣) يمكن أن تكون جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافية، أو خبراً لمبتدأ محذوف تقديره: هو لا إله إلاّ هو. إلاّ أنّ الاحتمال الأول هو الأنسب.

الأصنام، لأن آباءكم كانوا يعبدونها، فاعلموا أن ربّهم هو الله الواحد الأحد أيضاً، وعلاقتكم بآبائكم وارتباطكم بهم يوجب عليكم أن لا تعبدوا إلاّ الله، وأن لا تخضعوا إلاّ له، وإذا كان سبيلهم غير هذا السبيل فقد كانوا على خطأ بلا ريب.

من الواضح أنّ مسألة الحياة والموت من شؤون الله وتدبيره، وإذا كانت الآية قد ذكرتها بالخصوص، فلأن لها أهمّية فائقة من جهة، ولأنّها إشارة ضمنية إلى مسألة المعاد من جهة أخرى، وليست هذه هي المرة الأولى التي يؤكّد فيها القرآن على مسألة الحياة والموت، بل بيّنها مراراً على أنّها من الأفعال المختصة بالله تعالى، لأن مسألة الحياة والموت أكثر المسائل تأثيراً في حياة البشر ومصائرهم، وهي في الوقت نفسه أعقد مسائل عالم الوجود، وأوضح دليل على قدرة الله تعالى.

ملاحظة

علاقة القرآن بليلة القدر

ممّا يجدر الانتباه إليه أنّه ورد في هذه الآيات تلميحاً، وفي آيات سورة القدر تصريحاً، أنّ القرآن نزل في ليلة القدر، وكم هو عميق هذا الكلام؟! ففي تلك الليلة التي تقدر فيها مقدرات العباد وأرزاقهم، ينزل القرآن الكريم على قلب النّبي ﷺ الطاهر، ألا يدل هذا على أنّ هناك علاقة صميمية بين مقدراتكم ومصائركم وبين محتوى هذا الكتاب السماوي؟

ألا يعني هذا الكلام أن هناك علاقة لا تقبل الانفصال بين القرآن وبين حياتكم المعنوية، بل وحتى حياتكم المادية؟ فقد أدّى إلى انتصاركم على الأعداء، وشموخكم وحريتكم واستقلالكم، وعمران مدنكم ورقيكم.

أجل، في تلك الليلة التي كانت تقدر فيها المقدرات، أُنزل القرآن أيضاً.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

التفسير

الدّخان القاتل

لما كان الكلام في الآيات السابقة في أنّ هؤلاء إن كانوا طلاّب يقين، فإنّ سبل تحصيله كثيرة، وتضيف أوّل آية من هذه الآيات ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فإنّ شك هؤلاء في حقانية هذا الكتاب السماوي وفي نبوّتك، ليس نابعاً من كون المسألة معقدة صعبة، بل من عدم جديتهم في التعامل معها، فهم يتعاملون معها بهزل، فيستهزئون ويسخرون تارة، ويصفون أنفسهم بعدم الاطلاع والإلمام وبالجهل تارة أخرى، ويشغلون أنفسهم كل يوم بأُسلوب لعب جديد.

﴿يَلْعَبُونَ﴾ من مادة اللعاب - على قول الراغب - وهو البزاق السائل، ولما لم يكن للإنسان هدف مهم من اللعب، فقد شبهه بالبزاق الذي يبصقه الفرد لا إرادياً.

ومهما كان، فإن الحقيقة هي أن التعامل الجدي مع المسائل يعين الإنسان في معرفة الحقائق، أمّا التعامل الهازل الفارغ فإنّه يلقي الحجب عليها ويمنعه من الوصول إليها.

ثمّ انتقلت الآية التالية إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين، في الوقت الذي وجهت الخطاب إلى النبي ﷺ فقالت: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

عند ذلك سيعم الخوف والاضطراب كل وجودهم، وتزول الحجب من أمام أعينهم، فيقفون على خطئهم الكبير، ويتجهون إلى الله تعالى بالقول: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

إلاّ أنّ الله عزّوجلّ يرفض طلب هؤلاء ويقول: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ رسول كان واضحاً في نفسه وتعليماته وبرامجه وآياته ومعجزاته، ومبيناً لها جميعاً.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له، ويؤمنوا بالله الواحد الأحد، ويتقبلوا أوامره بكل وجودهم، أعرضوا عن النبي ﷺ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

فكانوا يقولون تارة: إنّ غلاماً رومياً سمع قصص الأنبياء وأخبارهم يعلمه إياها، وهذه الآيات من اختراعه وإملائه على النبي ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

ويقولون تارة أُخرى: إنّه مصاب بالاختلال الفكري والعقلي، وهذه الكلمات وليدة فقدانه التوازن الفكري.

ثمّ تضيف الآية التالية: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ومن هنا يتّضح أنّهم عندما يقعون في قبضة العذاب، يندمون على ما بدر منهم من أفعال، ويصممون على تعديل سلوكهم وإصلاحه، إلاّ أنّ هذا الموقف الجديد مؤقت وسريع الزوال، فما أن تهدأ عاصفة الأحداث حتى يعودوا لما كانوا عليه من قبل.

ويقول سبحانه في آخر آية من هذه الآيات ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[1].

«البطش» هو تناول الشيء بصولة، وهنا بمعنى الأخذ للانتقام الشديد، ووصف البطشة بالكبرى إشارة إلى العقوبة الشديدة التي تنتظر هذه الفئة.

والخلاصة: أنّه على فرض تخفيف العقوبات المؤقتة في حق هؤلاء، فإنّ العقوبات النهائية العسيرة تنتظرهم، ولا مفرّ لهم منها.

﴿مُنتَقِمُونَ﴾ من مادة الانتقام، وكما قلنا سابقاً فإنّها تعني العقوبة والجزاء، وإن كانت كلمة الانتقام تعطي معنى آخر في محادثاتنا اليومية في عصرنا الحاضر، حيث تعني العقوبة المقترنة بإخماد نار الغضب وتفريغ ما في القلب من انفعال وحبّ الانتقام، إلاّ أنّ هذا الأمر لا وجود له في المعنى اللغوي للكلمة.

بحث

ما المراد من الدخان المبين؟

هناك أقوال بين المفسّرين حول المراد من الدخان الذي ذكر في هذه الآيات كتعبير عن العذاب الإلهي، وتوجد هنا نظريتان أساسيتان:

١ - إنّه إشارة إلى العقاب والعذاب الذي ابتلي به كفار قريش في عصر النّبي ﷺ لأنّه لعنهم ودعا عليهم قال: «اللهم سنين كسني يوسف»[2]. وبعد ذلك أصاب مكّة

(١) احتمل المفسّرون في تركيب هذه الجملة احتمالات كثيرة، وأكثرها قبولاً من قبل المفسّرين، وهو المناسب أيضاً لسياق الآية: إن ﴿يَوْمَ﴾ متعلق بفعل (ننتقم) الذي يفهم من جملة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وعلى هذا يكون التقدير: ننتقم منهم يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون.

(٢) بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٤؛ في مواردٍ كثيرة تكون العبارة هكذا «اللّهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنّي يوسف»؛ بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٢٨.

قحط شديد، حتى أنّهم كانوا يرون كأن بين السماء والأرض عموداً من الدخان من شدة الجوع والعطش، وعسر الأمر عليهم حتى أكلوا الميتة وعظام الحيوانات الميتة.

فأتوا إلى النّبي ﷺ وقالوا: يا محمّد، تأمرنا بصلة الرحم وقد هلك قومك! لئن رفع عنا العذاب لنؤمنن. فدعا النّبي ﷺ فارتفع العذاب وعم الخير والنعمة الوفيرة، لكنّهم لم يعتبروا بذلك، بل عادوا إلى الكفر مرة أخرى(١).

طبقاً لهذا التّفسير فقد اعتبرت غزوة بدر هي البطشة الكبرى - أي العقوبة الشديدة - لأنّ المشركين تلقوا من المسلمين في بدر ضربات مهلكة ماحقة.

وطبقاً لهذا التّفسير لم يكن للدخان وجود في الحقيقة، بل إنّ السماء قد بدت للناس العطاشى الجائعين كعمود الدخان، وعلى هذا فذكر الدخان هنا من باب المجاز، وهو يشير إلى تلك الحالة الصعبة المؤلمة.

وقال البعض: إنّ الدخان يستعمل عادة في كلام العرب كناية عن الشر والبلاء الذي يعم ويغلب(٢).

ويعتقد بعض آخر أنّه حين القحط وقلّة المطر تغطي السماء عادة أعمدة الغبار، وقد عُبر هنا عن هذه الحالة بالدخان، لأنّ المطر يُنزل بالغبار إلى الأرض فيصفو الأفق(٣).

ومع كل هذه الصفات، فإنّ استعمال كلمة الدخان هنا مجازاً طبقاً لهذا التّفسير.

٢ - إنّ المراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الذي سيغطي السماء في نهاية العالم، وعلى أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، وبداية عذاب الله الأليم للظالمين والمفسدين.

عند ذلك سينتبه هؤلاء الظالمون من نوم غفلتهم، ويطلبون رفع العذاب والرجوع إلى الحياة الدنيوية العادية، لكن أيديهم ترد في أفواههم.

وطبقاً لهذا التّفسير فإنّ الدخان معناه الحقيقي، ويكون مضمون هذه الآيات هو نفس ما ورد في آيات القرآن الأُخرى، وهو أنّ المجرمين والكافرين يرجون وهم على أعتاب

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٦٢، ذيل الآيات مورد البحث.
(٢) يقول الفخر الرازي: إنّ العرب يسمّون الشر الغالب بالدخان؛ التفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٢٤٢.
(٣) تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ١٠٧.

القيامة أو فيها - رفع العذاب عنهم، والرجوع إلى الدنيا، لكن ذلك لا يقبل منهم ولا يحقق رجاؤهم[١].

الإشكال الوحيد الذي يرد على هذا التّفسير أنّه لا ينسجم مع جملة ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ لأنّ العذاب الإلهي لا يخفف عند انتهاء الدنيا أو في القيامة ليعود الناس إلى حالة الكفر والمعصية.

أما إذا اعتبرنا هذه الجملة قضية شرطية - وإن كان ذلك يخالف الظاهر - فسيرتفع الإشكال حينئذ، لأنّ معنى الآية يصبح: كلما كشفنا عنهم قليلاً من العذاب فإنّهم يعودون إلى طريقتهم الأولى، وهذا في الواقع شبيه بالآية (٢٨) من سورة الأنعام ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

اضافة إلى أنّ تفسير ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ بأحداث يوم بدر، يبدو بعيداً عن الصواب، لكن تفسيرها بعقوبات القيامة[٢] مع الآية تماماً.

والشاهد الآخر للتفسير الثّاني هو الروايات الواردة عن النّبي الأكرم ﷺ والتي تفسّر الدخان بالدخان الذي سيملأ العالم على أعتاب قيام القيامة، كالرواية التي يرويها حذيفة بن اليمان عن النّبي ﷺ بأنّه ذكر أربع علامات لاقتراب القيامة: الأولى ظهور الدجال، والأُخرى نزول عيسى عليه السلام، والثالثة النّار التي تظهر من أرض عدن، والدّخان.

فسأل حذيفة: يا رسول الله، وما الدّخان؟ فتلا رسول الله ﷺ ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر فبمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»[٣].

وجاء في حديث آخر عن أبي مالك الأشعري عن رسول الله ﷺ: «إنّ ربّكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ منه المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال»[٤].

وقد قدمنا توضيحاً كافياً حول دابة الأرض في ذيل الآية (٨٢) من سورة النمل.

---

(١) تراجع الآيات ٢٧ - ٣٠، من سورة الأنعام.

(٢) يقول الراغب في المفردات، البطش: هو تناول الشيء بصولة، وهو مقدمة العقوبة عادة.

(٣-٤) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٩.

وروي شبيه هذا المعنى حول الدخان عن أبي سعيد الخدري عن النّبي الأكرم ﷺ (١).

ويلاحظ نظير هذه التعبيرات، بصورة أكثر تفصيلاً، في الروايات الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السلام، ومن جملتها ما نقرأه في رواية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، أنّ رسول الله ﷺ قال: «عشر قبل الساعة لابدّ منها: السفياني، والدجال، والدخان، والدّابة، وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر»(٢).

ومن مجموع ما قيل، نستنتج أنّ التّفسير الثّاني هو الأنسب.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

التّفسير

إذا لم تؤمنوا فلا تصدّوا الآخرين عن الإيمان

متابعة للآيات السابقة التي كانت تتحدث حول تمرد مشركي العرب وعدم إذعانهم للحق، تشير هذه الآيات إلى نموذج من الأمم الماضية التي سارت في نفس هذا المسير، وابتليت أخيراً بالعذاب الأليم والهزيمة النكراء، ليكون ذلك تسلية للمؤمنين، وتحذيراً للمنكرين المعاندين. وذلك النموذج هو قصّة موسى وفرعون، حيث تقول الآية: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿فَتَنَّا﴾ من مادة فتنة، وهي في الأصل تعني وضع الذهب في فرن النّار لتخليصه من الشوائب، ثمّ أطلقت على كل امتحان واختبار يجري لمعرفة نسبة خلوص البشر... ذلك الاختبار الذي يعم كل حياة الإنسان والمجتمعات البشرية، وبتعبير آخر، فإن كل مراحل حياة الإنسان في هذه الدنيا تطوى في هذه الاختبارات، فإنّ هذه الدنيا دار امتحان وابتلاء.

---

(١) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٩.
(٢) بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٢٠٩.

لقد كان قوم فرعون يعيشون أوج قوتهم وعظمتهم بامتلاكهم حكومة قوية، وثروات ضخمة، وإمكانيات واسعة، فغرتهم هذه القدرة العظيمة، وتلوثوا بأنواع المعاصي والظلم والجور.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ فهو كريم من ناحية الخلق والطبيعة، وكريم من ناحية العظمة والمنزلة عند الله، وكريم من ناحية الأصل والنسب، ولم يكن هذا الرّسول إلا موسى بن عمران عليه السلام [1].

لقد خاطبهم موسى عليه السلام بأُسلوبه المؤدب جدّاً، المليء بالوّد والمحبّة، فقال: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾[2].

وطبقاً لهذا التّفسير، فإنّ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بحكم المخاطب، والمراد منهم الفراعنة، وبالرغم من أنّ هذا التعبير يستعمل في آيات القرآن في شأن العباد الصالحين، إلاّ أنّه أطلق أيضاً في موارد عديدة على الكفار والمجرمين، من أجل تحريك وجدانهم، وجذب قلوبهم نحو الحق[3].

بناء على هذا، فإنّ المراد من ﴿أَدُّوٓاْ﴾ إطاعة أمر الله سبحانه وتنفيذ أوامره.

وقد ذكر جماعة من المفسّرين تفسيراً آخر لهذه الجملة، فقالوا: المراد من ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ بنو إسرائيل، ومن ﴿أَدُّوٓاْ﴾ إيداعهم بيد موسى، ورفع الذلة والعبودية عنهم، كما جاء في الآية (١٧) من سورة الإسراء ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وورد نظير هذا المعنى في الآية ١٠٥ - الأعراف، و٤٧ - طه أيضاً.

والأمر الذي لا ينسجم مع هذا التّفسير، هو أن جملة ﴿أَدُّوٓاْ﴾ تستعمل عادة في أداء الأموال والأمانات والتكاليف، لا في مورد إيداع الأشخاص، ويتّضح هذا الموضوع جيداً بملاحظة موارد استعمال هذه الكلمة.

---

(١) يقول الراغب في المفردات: الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه، نحو قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ وإذا وصف ربّه الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه.
ولقد ورد هذا الوصف لأمور أخرى أيضاً في القرآن المجيد، مثل: كتاب كريم، كل زوج كريم، رزق كريم، مقام كريم، أجر كريم.

(٢) «أن» في جملة: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ تفسير لفعل مقدر يفهم من الكلام السابق، والتقدير: (جئتكم أن أدّوا إليّ عباد الله).

(٣) كالآية ١٧ من سورة الفرقان، و١٣ من سورة سبأ، و٥٨ من سورة الفرقان، وغيرها.

وعلى أية حال، فإنّه يضيف في بقية الآية: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وذلك لنفي كل اتهام عن نفسه.

إنّ هذا التعبير - في الحقيقة - داحض للاتهامات الباطلة التي ألصقها به الفراعنة، كالسحر، والسعي إلى التفوق واستلام الحكم في أرض مصر، وطرد أصحابها الأصليين، والتي أشير إليها في الآيات المختلفة.

ثمّ يقول لهم موسى عليه السلام بعد أن دعاهم إلى طاعة الله سبحانه، أو إطلاق سراح بني إسرائيل وتحريرهم: إنّ مهمّتي الأُخرى أن أقول لكم: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ معجزاته بينة، وأدلته منطقية واضحة.

والمراد من عدم العلو على الله سبحانه، هو عدم القيام بأي عمل لا ينسجم مع أصول العبودية، من المخالفة والتمرد، وحتى إيذاء رسل الله، أو ادعاء الألوهية وأمثال ذلك.

ولما كان المستكبرون وعبيد الدنيا لا يدعون أي تهمة وافتراء، إلاّ وألصقوهما بمن يرونه مخالفاً لمنافعهم ومصالحهم اللامشروعة بل لا يتورعون حتى عن قتله وإعدامه، لذا فإنّ موسى عليه السلام يضيف للحدّ من مسلكهم هذا ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾.

إنّ هذا التعبير لعله إشارة إلى أنّي لا أخاف تهديداتكم، وسأصمد حتى آخر نفس، والله حافظي وحارسي، وكانت مثل هذه التعبيرات تمنح القادة الإلهيين حزماً أكبر في دعوتهم، وتزيد في انهيار إرادة الأعداء ومعنوياتهم، وتزيد من جانب آخر ثبات المحبين والمؤمنين واستقامتهم، لأنّهم يعلمون أنّ إمامهم وقائدهم يقاوم حتى اللحظات الأخيرة.

وربّما كان التأكيد على مسألة الرجم من جهة أنّ كثيراً من رسل الله قبل موسى عليه السلام قد هُدّدوا بالرجم، ومن جملتهم نوح عليه السلام: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[1].

وكذلك الحال بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام لما هدده آزر وقال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾[2]، وشعيب لما هدده الوثنيون قالوا له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[3].

أمّا اختيار الرجم من بين أنواع القتل، فلأنّه أشدّها جميعاً، وعلى قول بعض أرباب اللغة فإنّ هذه الكلمة جاءت بمعنى مطلق القتل أيضاً[4].

(١) سورة الشعراء، الآية: ١١٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٣) سورة هود، الآية: ٩١.
(٤) لسان العرب، ماده رجم.

واحتمل كثير من المفسّرين أن يكون الرجم بمعنى الاتهام وإساءة الكلام، لأنّ هذه الكلمة قد استعملت في هذا المعنى أيضاً، وكانت هذه الاستعاذة في الحقيقة مانعاً من تأثير التهم التي اتهموا بها موسى فيما بعد.

ويمكن أن تكون هذه الكلمة قد استعملت في معناها الواسع الذي يشمل كلا المعنيين.

وتخاطب الآية الأخيرة هؤلاء القوم فتقول: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ لأن موسى عليه السلام كان واثقاً من نفوذه بين أوساط الناس، ومختلف طبقاتهم، بامتلاكه تلك المعجزات الباهرات، والأدلة القوية، والسلطان المبين، وأنّ ثورته ستؤتي أكلها بعد حين، ولذلك كان يرضى من هؤلاء القوم أن يتنحوا عن طريقه ولا يكونوا حاجزاً بينه وبين الناس.

لكن، هل يمكن أن يهدأ هؤلاء الجبابرة المغرورون وهم يرون الخطر يهدد مصالحهم وثرواتهم اللامشروعة، ويقبلوا مثل هذا الاقتراح ويدعوا موسى وشأنه؟

الآيات الآتية كفيلة بأن تبيّن تتمة هذه الأحاديث.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩)﴾

التفسير

تركوا القصور والبساتين والكنوز وارتحلوا!

لقد استخدم موسى عليه السلام كلّ وسائل الهداية للنفوذ إلى قلوب هؤلاء المجرمين الظلمة، إلاّ أنّها لم تؤثر فيهم أدنى تأثير، وطرق كلّ باب ولكن ما من مجيب.

لذلك يئس منهم، ولم ير لهم علاجاً إلاّ لعنهم والدعاء عليهم، لأنّ الفاسدين الذين لا أمل في هدايتهم لا يستحقون الحياة في قانون الخلقة، بل يجب أن ينزل عليهم عذاب الله ويجتثهم ويطهر الأرض من دنسهم، لذلك تقول الآية الأولى من هذه الآيات: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾.

انظر إلى أدب الدعاء، إنّه لا يقول: اللّهم افعل كذا وكذا، بل يكتفي بأن يقول: اللّهمّ إنّ هؤلاء قوم مجرمون لا أمل في هدايتهم وحسب!

وقد استجاب الله سبحانه دعاءه، وكمقدمة لنزول العذاب على الفراعنة، ونجاة بني إسرائيل منهم، أمر موسى عليه السلام أن ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ لكن لا تقلق من ذلك، فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذي ينتظرهم.

إنّ موسى عليه السلام مأمور بأنّ يتحرك ليلاً بصحبة عباد الله المؤمنين، أي بني إسرائيل، وجماعة من أهل مصر الذين مالت قلوبهم إلى الإيمان ولبّت دعوة موسى، وأن يأتي النيل، ويعبره بطريقة إعجازية، ثمّ يسير إلى الأرض الموعودة، «فلسطين».

صحيح أنّ حركة موسى وأنصاره قد تمّت ليلاً، إلاّ أنّ من المحتم أنّ لا تبقى حركة جماعية عظيمة كهذه خافية عن أنظار الفراعنة مدة طويلة، وربّما لم تمض عدّة ساعات حتى أوصل جواسيس فرعون هذا الخبر المهول - أو قل فرار العبيد الجماعي - إلى مسامعه، فأمر بمطاردتهم بجيش جرار.

والطريف أنّ كلّ هذه الأمور التي حدثت جاءت ضمن إشارة موجزة في الآيات أعلاه ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

إنّ ما حذف هنا من أجل الاختصار وُضّح في آيات أُخرى من القرآن بعبارات موجزة، فمثلاً نقرأ في الآية (٧٧) من سورة طه ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾.

ثمّ تضيف الآية التي بعدها: عندما تصل إلى الساحل الآخر عليك أن تترك البحر بهدوء ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ والمراد من البحر في هذه الآيات هو نهر النيل العظيم.

لقد ذكر المفسّرون وأرباب اللغة معنيين للرهو: هما الهدوء، والسعة والانفتاح، ولا مانع هنا من اجتماعهما.

لكن لماذا صدر مثل هذا الأمر لموسى عليه السلام؟

من الطبيعي أنّ موسى عليه السلام وبني إسرائيل كانوا راغبين في أن يجتازوا البحر حتى تتصل المياه مرّة أُخرى وتملأ هذا الفراغ، ويبتعدوا بسرعة عن منطقة الخطر، ويتجهوا بسلامة إلى الوطن الموعود، إلاّ أنّهم أُمروا أنّ لا يعجلوا أثناء عبورهم نهر النيل، بل ليدعوا فرعون وآخر جندي من جنوده يردون النيل، فإنّ أمر إهلاكهم وإماتتهم قد صدر إلى أمواج النيل المتلاطمة الغاضبة، ولذلك تقول الآية في ختامها ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

هذا هو أمر الله عزّوجلّ الحتمي الصادر بحق هؤلاء القوم، بأنّهم يجب أن يغرقوا جميعاً في نهر النيل العظيم، الذي كان أساس ثروتهم وقوّتهم! وبأمر إلهي واحد تحول هذا النهر الذي كان عصب حياتهم إلى أداة فنائهم وموتهم.

نعم، عندما وصل فرعون وجنوده إلى شاطئ النيل كان بنو إسرائيل قد خرجوا من الجانب الآخر، وكان ظهور مثل ذلك الطريق اليابس وسط النيل كافياً وحده لأن يلفت نظر حتى الطفل الساذج إلى تحقق إعجاز إلهي عظيم في البحر، إلاّ أنّ كبر أُولئك الحمقى وغرورهم لم يسمح لهم بإدراك هذه الحقيقة الواضحة فيقفوا على اشتباهاتهم وأخطائهم، ويتوجهوا إلى الله سبحانه!

ربّما كانوا يظنون أنّ هذا التغير الذي طرأ على النيل قد تمّ بأمر فرعون أيضاً! وربّما قال هذا الكلام لجنوده، ثمّ ورد بنفسه ذلك الطريق فتبعه جنوده حتى الجندي الأخير!

لكن، أمواج النيل تلاطمت فجأةً وانهالت عليهم كبناء شاهق انهدمت قواعده فانهار إلى الأرض، فغرقوا جميعاً.

والنكتة التي تلفت النظر في هذه الآيات، هي اختصارها الفائق، وكونها بليغة ومعبرة في الوقت نفسه، فقد ذكرت قصة مفصلة في ثلاث آيات - أو جمل - بحذف الجمل الإضافية التي تفهم من القرائن أو الجمل الأُخرى، ونراها اكتفت بالقول: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

إنّ التعبير بـ ﴿مُّغْرَقُونَ﴾ مع أنّهم لم يكونوا قد غرقوا بعدُ إشارة إلى أنّ هذا الأمر الإلهي حتمي وقطعي.

ولنر الآن ماذا جرى من الحوادث التي تدعو إلى الاعتبار بها، بعد غرق فرعون والفراعنة.

يبيّن القرآن الكريم في الآيات التالية تركة الفراعنة العظيمة التي ورثها بنو إسرائيل، ضمن خمسة مواضيع تكون الفهرس العام لكلّ حياة الفراعنة، فيقول أوّلاً: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

لقد كانت البساتين والعيون ثروتين من أهم وأروع ثروات هؤلاء، لأنّ مصر كانت أرضاً خصبة مليئة بالبساتين بوجود نهر النيل، وهذه العيون يمكن أن تكون إشارة، إلى العيون التي كانت تنبع هنا وهناك، أو أنّها جداول كانت تستمد مياهها من النيل، وتمر

في بساتين أولئك وحدائقهم الغناء الخضراء، وليس بعيداً إطلاق العين على هذه الجداول.

ثمّ يضيف القرآن الكريم ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وكانت هاتان ثروتين مهمتين أخريين، فمن جهة كانت الزراعة العظيمة التي تعتمد على النيل، حيث أنواع المواد الزراعية الغذائية وغيرها، والمحصولات التي امتدت في جميع أنحاء مصر، وكانوا يستخدمونها غذاءاً لهم ويصدرون الفائض منها إلى الخارج، ومن جهة أُخرى كانت القصور والمساكن العامرة، حيث إنّ من أهم مستلزمات حياة الإنسان هو المسكن المناسب.

لاشك أنّ هذه القصور كريمة من الناحية الظاهرية، ومن وجهة نظر هؤلاء أنفسهم، وإلاّ فإنّ مساكن الطواغيت المزينة هذه، والتي تسبب الغفلة عن الله، لا قيمة لها في منطق القرآن.

واحتمل البعض أن يكون المراد من المقام الكريم مجالس الأنس والطرب، أو المنابر التي كان يرتقيها المدّاحون والشعراء للثناء على فرعون.

لكن، الظاهر أنّ المعنى الأوّل أنسب من الجميع.

ولما كان هؤلاء يمتلكون وسائل رفاه كثيرة غير الأُمور الأربعة المهمّة التي مرّ ذكرها، فقد أشار القرآن إليها جميعاً في جملة مقتضبة، فقال: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾(١) (٢).

ثمّ يضيف ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾(٣).

والمراد من ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ هم بنو إسرائيل، حيث صرّح بذلك في الآية (٩٥) من سورة الشعراء. والتعبير بالإرث إشارة إلى أنّهم حصلوا على كلّ هذه الأموال والثروات من دون أن يبذلوا أدنى جهد، أو يتحملوا أقل تعب ومشقّة، كما يحصل الإنسان على الإرث دون أن يشقى ويجهد في تحصيله.

---

(١) «نعمة» بفتح النون تعني التنعم، وبكسرها تعني الإنعام، وقد صرح جماعة من المفسّرين وأرباب اللغة بهذا المعنى، في حين يعتقد جمع آخر أنّ للاثنين معنى واحداً يشمل كلّ المنافع التي تستحق الالتفات والنظر.

(٢) فسّرت كلمة ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بالاستمتاع بالفواكه تارة، وأُخرى بالأحاديث الفكاهية السارة، وثالثة بالتنعم والتلذذ، والمعنى الأخير أجمع من الجميع.

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: الأمر كذلك، ويستعمل هذا التعبير للتأكيد. واحتمل البعض احتمالات أُخرى في تركيبها.

والجدير بالانتباه أنّ الآية المذكورة ونظيرتها في سورة الشعراء توحيان بأنّ بني إسرائيل قد عادوا إلى مصر بعد غرق الفراعنة وورثوا ميراثهم، وحكموا هناك، وسير الحوادث يقتضي - أيضاً - أن لا يدع موسى عليه السلام مصر تعيش فراغاً سياسياً بعد انهيار دعائم حكومة الفراعنة فيها.

لكن هذا الكلام لا ينافي ما ورد في آيات القرآن الكريم من أنّ بني إسرائيل قد ساروا إلى الأرض الموعودة، أرض فلسطين، بعد خلاصهم من قبضة الفراعنة، والذي جاء مفصلاً في القرآن، فمن الممكن أن تكون جماعة منهم قد أقاموا في مصر بعد استيلائهم عليها كوكلاء لموسى عليه السلام، وسار القسم الأعظم إلى فلسطين.

ولمزيد من الإيضاح حول هذا الكلام انظر ذيل الآية (٥٩) من سورة الشعراء.

وتقول الآية الأخيرة من هذه الآيات: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

إنّ عدم بكاء السماء والأرض ربّما كان كناية عن حقارتهم، وعدم وجود ولي ولا نصير لهم ليحزن عليهم ويبكيهم، ومن المتعارف بين العرب أنّهم إذا أرادوا تبيان أهمّية مكانة الميت، يقولون: بكت عليه السماء والأرض، وأظلمت الشمس والقمر لفقده.

واحتمل أيضاً أنّ المراد بكاء أهل السماوات والأرض، لأنّهم يبكون المؤمنين المقربين عند الله، لا الجبابرة والطواغيت وأمثاله.

وقال البعض: إنّ بكاء السماء والأرض بكاء حقيقي، حيث تُظهر احمراراً خاصاً غير احمرار الغروب والطلوع، كما نقرأ في رواية: «لما قتل الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام بكت السماء عليه، وبكاؤها حمرة أطرافها»[1].

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «بكت السماء على يحيى بن زكريا وعلى الحسين بن علي عليه السلام أربعين صباحاً، ولم تبك إلاّ عليهما» قلت: وما بكاؤها؟ قال: «كانت تطلع حمراء، وتغيب حمراء»[2].

غير أننا نقرأ في حديث روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مؤمن إلاّ وله باب يصعد منه عمله، وباب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه»[3].

ولا منافاة بين هذه الرّوايات، حيث كان لشهادة الحسين عليه السلام ويحيى بن زكريا عليه السلام

(١-٣) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٦٥ ذيل الآية مورد البحث.

صفة العموم في كلّ السماء، وما ورد في الرّوايات الأخيرة صفة الخصوص(١).

على أي حال، فلا تضاد بين هذه التفاسير، ويمكن جمعها في معنى الآية.

نعم لم تبك السماء لموت هؤلاء الضالين الظالمين، ولم تحزن عليهم الأرض، فقد كانوا موجودات خبيثة، وكأنّما لم تكن لهم أدنى علاقة بعالم الوجود ودنيا البشرية، فلما طرد هؤلاء الأجانب من العالم لم يحس أحد بخلو مكانهم منهم، ولم يشعر أحد بفقدهم، لا على وجه الأرض، ولا في أطراف السماء، ولا في أعماق قلوب البشر، ولذلك لم تذرف عين أحد دمعة لموتهم.

وننهي الكلام في هذه الآيات بذكر رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد ورد في رواية أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام لما مرّ على المدائن، ورأى آثار كسرى مشرفة على السقوط والانهيار، أنشد أحد أصحابه الذين كانوا معه:

جرت الرياح على رسومهم فكأنّهم كانوا على ميعاد!

فقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أفلا قلت ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾»(٢).

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

التّفسير

بنو إسرائيل في بوتقة الاختبار

كان الكلام في الآيات السابقة عن غرق الفراعنة وهلاكهم، وانكسار شوكتهم وانتهاء حكومتهم، وانتقالها إلى الآخرين، وتتحدّث هذه الآيات في النقطة المقابلة لذلك أي

(١) روي في الدر المنثور حديث في باب الجمع بين هذه الروايات. الدر المنثور، طبقاً لنقل الميزان، ج١٨، ص ١٥١.

(٢) سفينة البحار، ج٢، ص٥٣١ (مادة مدن).

نجاة بني إسرائيل وخلاصهم، فتقول: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ من العذاب الجسمي والروحي الشاق، والذي نفذ إلى أعماق أرواحهم.. من ذبح الأطفال الذكور، واستحياء البنات للخدمة وقضاء المآرب، من السخرة والأعمال الشاقة جداً، وأمثال ذلك.

فكم هو مؤلم أن يكون مصير أُمة بيد هكذا عدوّ دموي شيطاني، وأن تبتلى بهكذا ظلمة لا يعرفون الرحمة ولا الإنسانية؟

نعم، لقد نجّى الله سبحانه هذه الأمّة المظلومة من قبضة هؤلاء الظالمين، أعظم سفاكي الدماء في التاريخ، في ظل ثورة موسى بن عمران عليه السلام الرّبانية، لذلك تضيف الآية ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

ليس المراد من ﴿عَالِيًا﴾ هنا علو المنزلة، بل هو إشارة إلى استشعاره العلو، وإنّما علوه في الإسراف والتعدي، كما جاء ذلك أيضاً في الآية (٤) من سورة القصص ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ حتى أنّه ادعى الألوهية، وسمى نفسه الرب الأعلى.

و«المسرف» من مادة «إسراف»، أي كلّ تجاوز للحدود، سواء في الأقوال أم الأفعال، ولذلك استعملت كلمة المسرف في آيات القرآن المختلفة في شأن المجرمين الذين يتعدون الحدود في ظلمهم وفسادهم، وكذلك أطلقت على العصاة المسرفين، كما نقرأ ذلك في الآية (٥٣) من سورة الزمر ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

وتشير الآية التالية إلى نعمة أُخرى من نعم الله سبحانه على بني إسرائيل، فتقول: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إلاّ أنّهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا وعوقبوا.

وعلى هذا فإنّهم كانوا الأمة المختارة في عصرهم، لأنّ المراد من العالمين البشر في ذلك العصر والزمان لا في كلّ القرون والأعصار، لأنّ القرآن يخاطب الأمة الإسلامية بصراحة في الآية (١١٠) من سورة آل عمران ويقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الأراضي التي ورثها بنو إسرائيل، إذ يقول القرآن الكريم في الآية (١٣٧) من سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ في حين أنّ بني إسرائيل لم يرثوا كلّ الأرض، والمراد شرق منطقتهم وغربها.

ويعتقد بعض المفسّرين أنّه كان لبني إسرائيل بعض الميزات التي كانت منحصرة فيهم على مرّ التأريخ، ومن جملتها كثرة الأنبياء، إذ لم يظهر في أي قوم هذا العدد من الأنبياء.

إلاّ أنّ هذا الكلام، إضافة إلى أنّه لا يثبت مزيتهم المطلقة هذه، فإنّه يدل على أنّها ليست مزية أساساً، فربّما كانت كثرة الأنبياء فيهم دليلاً على غاية تمرد هؤلاء القوم وقمة عصيانهم، كما بيّنت الحوادث المختلفة بعد ظهور موسى عليه السلام أنّهم لم يتركوا شيئاً سيئاً لم يفعلوه ضد هذا النّبي العظيم.

وعلى أية حال، فإنّ ما ذكرناه أعلاه في تفسير الآية، هو المقبول من قبل كثير من المفسّرين في شأن أهلية بني إسرائيل النسبية.

غير أنّ هؤلاء القوم المعاندين كانوا يؤذون أنبياءهم دائماً - حسب ما يذكره القرآن - وكانوا يقفون أمام أحكام الله سبحانه بكلّ تصلب وعناد، بل إنّهم بمجرّد أن نجوا من النيل وأهواله طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة يعبدونها! وهذا يدلنا على إمكانية أن يكون الهدف من الآية ليس بيان خصيصة لبني إسرائيل، بل بيان حقيقة أُخرى، وعليه يصبح معنى الآية: مع أنّنا نعلم أنّ هؤلاء سيسيئون استغلال نعم الله ومواهبه، فقد منحناهم التفوق لنختبرهم.

كما يستفاد من الآية التالية - أيضاً - أنّ الله سبحانه قد منحهم مواهب أُخرى ليبلوهم.

ولذا فإنّ هذا الاختبار الإلهي لا يدل على كونه مزية لهؤلاء، وليس هذا وحسب، بل هو ذم ضمني أيضاً، لأنّهم لم يشكروا هذه النعمة، ولم يؤدّوا حقها، ولم ينجحوا في الامتحان.

وتشير آخر آية من هذه الآيات إلى بعض المواهب الأُخرى التي منحهم الله إيّاها، فتقول: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ فمرة ظللنا عليهم الغمام في صحراء سيناء، وفي وادي التيه وأُخرى أنزلنا عليهم مائدة خاصة من المن والسلوى، وثالثة أجرينا لهم العيون من الصخور الصماء، ومنحناهم أحياناً نعماً مادية ومعنوية أُخرى، إلاّ أنّ كلّ ذلك كان لغرض الابتلاء والامتحان، لأنّ الله سبحانه يختبر قوماً بالمصيبة، وآخرين بالنعمة، كما نقرأ ذلك في الآية: (١٦٨) من سورة الأعراف: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وربّما كان الهدف من ذكر قصة بني إسرائيل للمسلمين الأوائل، هو أن لا يخافوا من كثرة الأعداء وتعاظم قوّتهم، وليطمئنوا بأنّ الله الذي أهلك الفراعنة ودمرهم، وأورث بني إسرائيل ملكهم وحكومتهم، سيمنّ عليهم في القريب العاجل بمثل هذا النصر، وكما اختبر أُولئك بهذه المواهب، فإنّكم ستوضعون أيضاً في بوتقة الامتحان والاختبار، ليتّضح ماذا ستفعلون بعد الانتصار وتقلد الحكم؟

وهذا تحذير لكلّ الأُمم والأقوام فيما يتعلق بالانتصارات والمواهب التي يحصلون عليها بفضل الله ولطفه، فإنّ الامتحان عندئذ عسير.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

التّفسير

لا شيء بعد الموت!

بعد أنّ جسدت الآيات السابقة مشهداً من حياة فرعون والفراعنة، وعاقبة كفرهم وإنكارهم، تكرر الكلام عن المشركين مرّة أُخرى، وأعادت هذه الآيات مسألة شكّهم في مسألة المعاد - والتي مرّت في بداية السورة - بصورة أُخرى، فقالت: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ وسوف لا نعود إلى الحياة إطلاقاً[1] وما يقوله محمّد عن المعاد والحياة بعد الموت والثواب والعقاب، والجنّة والنّار لا حقيقة له، فلا حشر ولا نشر أبداً!

وهنا سؤال يطرح نفسه، وهو: لماذا يؤكّد المشركون على الموتة الأولى فقط، والتي تعني عدم وجود موت آخر بعد هذا الموت، في حين أنّ مرادهم نفي الحياة بعد الموت، لا إنكار الموت الثاني وبتعبير آخر فإنّ الأنبياء كانوا يخبرون بالحياة بعد الموت، لا بالموت مرة ثانية.

(١) هنا اختلاف في مرجع ضمير ﴿هِيَ﴾ فأرجعه بعض المفسّرين إلى (الموتة)، وهو المستفاد من سياق الكلام، وبناء على هذا يكون المعنى: ما الموتة إلاّ موتتنا الأولى (تفسير التبيان ومجمع البيان والكشاف).

في حين اعتبر البعض الآخر مرجع الضمير هو العاقبة والنهاية، وعلى هذا يكون المعنى: ما عاقبة أمرنا إلاّ الموتة الأولى (روح المعاني والميزان) وليس بينهما من تفاوت كثير من حيث النتيجة.

ونقول في الإجابة: إنّ مرادهم عدم وجود حالة أُخرى بعد الموت، أي إنّنا نموت مرّة واحدة وينتهي كلّ شيء، وبعد ذلك لا توجد هناك حياة أُخرى ولا موت آخر، فكل ما هو موجود هذا الموت لا غير. (فتأمل!)(١).

وهذا يشبه كثيراً ما ورد في الآية (٢٩) من سورة الأنعام، حيث تقول: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ !

ثمّ تنقل كلام هؤلاء الذين تشبثوا بدليل واه لإثبات مدعاهم، إذا قالوا: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال البعض: إنّ هذا كان كلام أبي جهل، حيث إنّه التفت إلى النّبي ﷺ وقال: إن كنت صادقاً فابعث جدك قصي بن كلاب، فإنّه كان رجلاً صادقاً لنسأله عمّا يكون بعد الموت(٢).

من البديهي أنّ كلّ ذلك كان تذرعاً، ومع أنّ سنّة الله لم تقم على أن يحيي الأموات في هذه الدنيا ليأتوا بأخبار ذلك العالم إلى هذا العالم، لكن على فرض أن يتمّ هذا العمل من قبل الرّسول الأعظم ﷺ، فسيعزف هؤلاء المتذرعون نغمة جديدة، ويضربون على وتر آخر، فيسمون ذلك الفعل سحراً مثلاً، كما طلبوا المعاجز عدّة مرات، فلما أتاهم النّبي ﷺ بها أنكروها أشد إنكار.

ملاحظة

عقيدة المشركين في المعاد

لم يكن للمشركين بعامة - ومشركي العرب بخاصة - مسلك متحد في مسائلهم العقائدية، بل إنّهم كانوا متفاوتين فيما بينهم مع أنّهم يشتركون في الأصل في عقيدة الشرك.

فبعضهم لم يكن يعترف بالله ولا بالمعاد، وهم الذين يتحدث القرآن عنهم بأنّهم كانوا يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾(٣).

---

(١) ذكر المفسّرون احتمالات أُخرى في تفسير هذه الجملة، وتبدو جميعاً بعيدة، ومن جملتها: أنّهم فسّروا الموتة الأولى بالموت قبل الحياة في هذه الدنيا، وبناء على هذا يكون معنى الآية: إنّ الموت الذي تكون بعده حياة هو الموت الذي متنا من قبل، أمّا الموت الثّاني فلا حياة بعده أبداً.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٦٦، وبعض التفاسير الأُخرى.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

وبعضهم الآخر كانوا يعتقدون بالله عزّوجلّ، ويعتقدون أيضاً أنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله، إلاّ أنّهم كانوا ينكرون المعاد، وهم الذين كانوا يقولون: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[١]، فأُولئك كانوا يحجون إلى الأصنام، ويقدمون القرابين لها، وكانوا يعتقدون بالحلال والحرام، وكان أكثر مشركي العرب من هذه الفئة.

لكن هناك شواهد تدل على أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون ببقاء الروح بشكل ما، سواء على هيئة التناسخ وانتقال الأرواح إلى الأبدان جديدة أم بشكل آخر[٢].

واعتقادهم بطير اسمه (هامة) معروف، فقد ورد في قصص العرب أنّه كان من بين العرب من يعتقد بأنّ روح الإنسان طائر انبسط في جسمه، وعندما يرحل الإنسان عن هذه الدنيا أو يقتل، يخرج هذا الطائر من جسمه ويدور حول جسده بصورة مرعبة، وينوح عند قبره.

وكانوا يعتقدون - أيضاً - أنّ هذا الطائر يكون صغيراً في البداية ثمّ يكبر حتى يصبح بحجم البوم، وهو يعيش دائماً في خوف واضطراب، ويسكن الديار الخالية، والخرائب، والقبور ومصارع القتلى!

وكذلك كانوا يعتقدون أنّ شخصاً إذا قتل ستصيح هامة على قبره: اسقوني فإني صدية أي عطشانة[٣].

لقد أبطل الإسلام كلّ هذه المعتقدات الخرافية، ولذلك روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لا هامة»[٤].

وعلى أية حال، فيبدو أنّ هؤلاء وإن لم يكونوا يعتقدون بالمعاد وحياة الإنسان بعد موته، إلاّ أنّهم كانوا يقولون بالتناسخ وبقاء الأرواح بشكل ما.

أمّا المعاد الجسماني على الهيئة التي يذكرها القرآن الكريم، بأنّ تراب الإنسان يجمع مرة أخرى، ويعود إلى الحياة من جديد، وأن لكلا الجسم والروح معاداً مشتركاً، فإنّهم كانوا ينكرونه تماماً، ولا ينكرونه فحسب، بل كانوا يخافونه، وقد أوضحه لهم القرآن بأساليب مختلفة وأثبته لهم.

---

(١) سورة يس، الآية: ٧٨.
(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد المعتزلي، ج ١، ص ١١٩.
(٣) بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٣١١.
(٤) المصدر السابق.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

التّفسير

قوم تبع

لقد كانت أرض اليمن - الواقعة في جنوب الجزيرة العربية - من الأراضي العامرة الغنية، وكانت في الماضي مهد الحضارة والتمدن، وكان يحكمها ملوك يسمّون «تبّعاً» - وجمعها تبابعة - لأنّ قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأنّ أحدهم كان يخلف الآخر ويتبعه في الحكم.

ومهما يكن، فقد كان قوم تبّع يشكلون مجتمعاً قوياً في عدته وعدده، ولهم حكومتهم الواسعة المترامية الأطراف.

وهذه الآيات تواصل البحث الذي ورد حول مشركي مكّة وعنادهم وإنكارهم للمعاد - فتهدد أُولئك المشركين من خلال الإشارة إلى قصة قوم تبع، بأنّ ما ينتظركم ليس العذاب الإلهي في القيامة وحسب، بل سوف تلاقون في هذه الدنيا أيضاً مصيراً كمصير قوم تبّع المجرمين الكافرين، فتقول: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

من المعلوم أنّ سكان الحجاز كانوا مطلعين على قصة قوم تبّع الذين كانوا يعيشون في جوارهم، ولذلك لم تفصّل الآية كثيراً في أحوالهم، بل اكتفت بالقول: أن احذروا أن تلاقوا نفس المصير الذي لاقاه أولئك الأقوام الآخرون الذين كانوا يعيشون قربكم وحواليكم، وفي مسيركم إلى الشام، وفي أرض مصر، فعلى فرض أن بإمكانكم إنكار القيامة، فهل تستطيعون أن تنكروا العذاب الذي نزل بساحة هؤلاء القوم المجرمين العاصين؟

والمراد من ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أمثال قوم نوح وعاد وثمود.

وسنبحث المراد من قوم تبّع، في ما يأتي، إن شاء الله تعالى.

ثمّ تعود الآية التي بعدها إلى مسألة المعاد مرّة أُخرى، وتثبت هذه الحقيقة باستدلال رائع، فتقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[1].

نعم، فإنّ لهذا الخلق العظيم الواسع هدفاً، فإذا كان الموت بزعمكم نقطة النهاية بعد أيام من المأكل والمشرب والمنام وقضاء الشهوات الحيوانية، وبعد ذلك ينتهي كلّ شيء بالموت، فسيكون هذا الخلق لعباً ولهواً وعبثاً، لا فائدة من ورائه ولا هدف.

ولا يمكن التصديق بأنّ الله القادر الحكيم قد خلق هذا النظام والخلق العظيم من أجل عدّة أيّام سريعة الانقضاء لا هدف من ورائها، مع ما تقترن به أيّام الحياة هذه من أنواع الآلام والمصائب والمصاعب، أفينتهي كلّ شيء بانتهائها!؟ إنّ هذا الأمر لا ينسجم مطلقاً مع حكمة الله.

بناءً على هذا، فإنّ مشاهدة وضع هذا العالم وتنظيمه، تلزمنا التصديق بأنّه مدخل وممر إلى عالم أعظم أبدي، فلماذا لا تتفكرون في ذلك؟

لقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مراراً في سور مختلفة، فيقول في الآية (١٦) من سورة الأنبياء: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

ويقول في الآية (٦٢) من سورة الواقعة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وعلى أية حال، فإنّ هنالك غاية وراء خلق هذا العالم، وهناك عالماً آخر يتبعه، في حين أنّ المذاهب الإلحادية والمنكرة للمعاد ترى بأنّ هذا الخلق عبث لا فائدة من ورائه ولا هدف.

ثمّ تضيف الآية التي بعدها لتأكيد الكلام: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

إن كون هذا الخلق حقاً يوجب أن يكون له هدف عقلائي، وذلك الهدف لا يتحقق إلاّ بوجود عالم آخر، إضافة إلى أنّ كونه حقاً يقضي بأن لا يتساوى المحسنون والمسيئون، ولما كنا نرى كل واحد من هاتين الفئتين قلّما يرى جزاء عمله في هذه الدنيا، فلابدّ من وجود عالم آخر يجري فيه الحساب والثواب والعقاب، ليتلقى كل إنسان جزاء عمله، خيراً أم شراً.

وخلاصة القول، فإنّ الحق في هذه الآية إشارة إلى الهدفية في الخلق، واختبار البشر

(١) «لاعب» من مادة (لعب)، ويقول الراغب في المفردات: لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً. والتثنية في ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أجل أنّ المراد جنس السماء والأرض.

وقانون التكامل، وكذلك تنفيذ أصول العدالة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنّهم لا يعملون الفكر في التوصل إلى الحقائق، وإلاّ فإنّ أدلة المبدأ والمعاد واضحة بينة.

بحث

من هم قوم تبّع؟

لقد وردت كلمة ﴿تُبَّعٍ﴾ في القرآن الكريم مرّتين فقط: مرّة في الآيات مورد البحث، وأُخرى في الآية ١٤ من سورة (ق) حيث تقول: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

وكما أشرنا من قبل، فإنّ «تبعاً» كان لقباً عاماً لملوك اليمن، ككسرى لسلاطين إيران، وخاقان لملوك الترك، وفرعون لملوك مصر، وقيصر لسلاطين الروم.

وكانت كلمة ﴿تُبَّعٍ﴾ تطلق على ملوك اليمن من جهة أنّهم كانوا يدعون الناس إلى اتباعهم، أو لأنّ أحدهم كان يتبع الآخر في الحكم.

لكن يبدو أنّ القرآن الكريم يتحدث عن أحد ملوك اليمن خاصة - كما أنّ فرعون المعاصر لموسى عليه السلام، والذي يتحدث عنه القرآن كان معيناً ومحدداً - وورد في بعض الرّوايات أنّ اسمه «أسعد أبا كرب».

ويعتقد بعض المفسّرين أنّه كان رجلاً مؤمناً، واعتبروا تعبير ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الذي ورد في آيتين من القرآن دليلاً على ذلك، حيث إنّه لم يُذَمّ في هاتين الآيتين، بل ذُم قومه، والرّواية المروية عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم شاهدة على ذلك، ففي هذه الرواية أنّه قال: «لاتسبّوا تبّعاً فإنّه كان قد أسلم»(١).

وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن تبّعاً قال للأوس والخزرج: كونوا ها هنا حتى يخرج هذا النّبي، أما لو أدركته لخدمته وخرجت معه»(٢).

وورد في رواية أُخرى: إنّ تبعاً لما قدم المدينة - من أحد أسفاره - ونزل بفنائها، بعث إلى أحبار اليهود الذين كانوا يسكنونها فقال: إنّي مخرب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلى دين العرب.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٦٦ ذيل الآية مورد البحث، وأورد نظير هذا المعنى في تفسير الدر المنثور، وكذلك ورد في روح المعاني، ج ٢٥، ص ١١٦.

(٢) تفسير مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

فقال له شامول اليهودي - وهو يومئذ أعلمهم -. أيها الملك إنّ هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل، مولده بمكّة اسمه أحمد. ثمّ ذكروا له بعض شمائل نبيّ الإسلام ﷺ فقال تبّع - وكأنّه كان عالماً بالأمر -: ما إلى هذا البلد من سبيل، وما كان ليكون خرابها على يدي[1].

بل ورد في رواية في ذيل تلك القصة أنّه قال لمن كان معه من الأوس والخزرج: أقيموا بهذا البلد، فإن خرج النّبي الموعود فآزروه وانصروه، وأوصوا بذلك أولادكم، حتى أنّه كتب رسالة أودعهم إياها ذكر فيها إيمانه بالرّسول الأعظم ﷺ[2].

ويروي صاحب أعلام القرآن أنّ تبّعاً كان أحد ملوك اليمن الذين فتحوا العالم، فقد سار بجيشه إلى الهند واستولى على بلدان تلك المنطقة، وقاد جيشاً إلى مكّة، وكان يريد هدم الكعبة، فأصابه مرض عضال عجز الأطباء عن علاجه.

وكان من بين حاشيته جمع من العلماء، كان رئيسهم حكيماً يدعى شامول، فقال له: إنّ مرضك بسبب سوء نيتك في شأن الكعبة، وستشفى إذا صرفت ذهنك عن هذه الفكرة واستغفرت، فرجع تبع عما أراد ونذر أن يحترم الكعبة، فلما تحسن حاله كسا الكعبة ببرد يماني.

وقد وردت قصّة كسوة الكعبة في تواريخ أُخرى حتى بلغت حدّ التواتر. وكان تحرك الجيش هذا، ومسألة كسوة الكعبة في القرن الخامس الميلادي، ويوجد اليوم في مكّة مكان يسمى «دار التبابعة»[3].

وعلى أية حال، فإنّ القسم الأعظم من تأريخ ملوك التبابعة في اليمن لا يخلو من الغموض من الناحية التاريخية، حيث لا نعلم كثيراً عن عددهم، ومدّة حكومتهم، وربّما نواجه في هذا الباب روايات متناقضة، وأكثر ما ورد في الكتب الإسلامية - سواء كتب التّفسير أو التأريخ أو الحديث - يتعلق بذلك الملك الذي أشار إليه القرآن في موضعين.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

(١-٢) تفسير روح المعاني، ج ٢٥، ص ١١٨.

(٣) اعلام القرآن، ص٢٥٧ - ٢٥٩ (بتلخيص).

التّفسير

يوم الفصل!

تمثل هذه الآيات في الحقيقة نتيجة الآيات السابقة التي بحثت مسألة المعاد، والتي استدل بها عن طريق حكمة خلق هذا العالم على وجود البعث والحياة الأُخرى.

فتستنتج الآية الأولى من هذا الاستدلال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

كم هو جميل هذا التعبير عن يوم القيامة بيوم الفصل! ذلك اليوم الذي يفصل فيه الحق عن الباطل، وتمتاز صفوف المحسنين عن المسيئين، ويعتزل فيه الإنسان أعزّ أصدقائه وأقرب أخلائه.. نعم، إنّه موعد كلّ المجرمين(١).

ثمّ ذكرت الآية التالية شرحاً موجزاً ليوم الفصل هذا، فقالت: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أجل، ذلك اليوم هو يوم الفصل والافتراق، يوم يفارق الإنسان فيه كلّ شيء إلاّ عمله، ولا يملك المولى - بأي معنى كان، الصاحب، الولي، ولي النعمة، القريب، الجار، الناصر وأمثال ذلك - القدرة على حل أصغر مشكلة من مشاكل القيامة.

«المولى» من مادة ولاء، وهي في الأصل تعني الاتصال بين شيئين بحيث لا يوجد بينهما حاجز، وله مصاديق كثيرة وردت في كتب اللغة كمعان مختلفة، تشترك جميعاً في معناها الأصلي وجذرها(٢).

في ذلك اليوم لا يجيب الرفيق رفيقه، وترى الأقارب لا يحل بعضهم مشكلة بعض، بل وتتبخر كلّ الخطط وتتقطع جميع الأواصر الدنيوية كما نقرأ هذه الصورة في الآية (٤٦) من سورة الطور: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) احتمل المفسّرون احتمالات عديدة في مرجع الضمير في ﴿مِيقَـٰتُهُمْ﴾ فالبعض أرجعه إلى كلّ البشر، والبعض خصوص الأقوام الذين أشير إليهم في الآيات السابقة، أي قوم تبع والعصاة من قبلهم. غير أنّ المعنى الأوّل هو الأصح.

(٢) لقد ذكرت للمولى معان كثيرة في اللغة، وعدها البعض سبعة وعشرين معنى: ١ - الرب ٢ - العم ٣ - ابن العم ٤ - الابن ٥ - ابن الأخت ٦ - المعتِق ٧ - المعتَق ٨ - العبد ٩ - المالك ١٠ - التابع ١١ - المنعَم عليه ١٢ - الشريك ١٣ - الحليف ١٤ - الصاحب ١٥ - الجار ١٦ - النزيل ١٧ - الصهر ١٨ - القريب ١٩ - المنعِم ٢٠ - الفقيد ٢١ - الولي ٢٢ - الأولى بالشيء ٢٣ - السيد غير المالك والمعتق ٢٤ - المحبّ ٢٥ - الناصر ٢٦ - المتصرف في الأمر ٢٧ - المتولي في الأمر. (الغدير، ج ١، ص ٣٦٢).

أمّا ما هو الفرق بين ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ وبين ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؟ فإنّ أحسن ما يقال هو: إنّ الأوّل إشارة إلى أنّ أي فرد لا يقدر في ذلك اليوم على حل مشكلة فرد آخر بصورة انفرادية مستقلة، والثّاني إشارة إلى أنّهم عاجزون عن حلّ المشاكل حتى وإنْ تعاونوا فيما بينهم، لأنّ النصرة تقال في موضع يهبّ فيه شخص لمعونة آخر ومساندته حتى ينصره على المشاكل.

لكن هناك جماعة واحدة مستثناة فقط، وهي التي أشارت إليها الآية التالية، فقالت: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لا شك أنّ هذه الرحمة الإلهية لا تُمنح اعتباطاً، بل تشمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقط، وإذا كانوا قد بدر منهم زلل ومعصية، فإنّها لا تبلغ حدّاً تقطع فيه علاقتهم بالله سبحانه، فهم يرفعون أكفّهم إلى الله ويرجون رحمته، فيتنعمون بها، ويرتوون منها، ويتمتعون بشفاعة أوليائه.

من هنا يتّضح أنّ نفي وجود صديق وولي ونصير في ذلك اليوم لا ينافي مسألة الشفاعة، لأنّ الشفاعة أيضاً لا تحصل إلاّ بإذن الله تعالى.

والطريف أنّ الآية قرنت وصفه سبحانه بكونه عزيزاً ورحيماً، والأوّل إشارة إلى قدرته اللامتناهية التي لا تعرف الهزيمة والضعف، والثّاني إشارة إلى رحمته التي لا حدود لها، والاقتران يوحي بأن رحمته عين قدرته.

وقد روي في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد من جملة: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وصي النّبي صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين علي عليه السلام وشيعته(١).

ولا يخفى أنّ الهدف منها هو بيان المصداق الواضح.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٢٩.

التفسير

شجرة الزقوم!

تصف هذه الآيات أنواعاً من عذاب الجحيم وصفاً مرعباً يهز الأعماق، وهي تكمل البحث الذي مرّ في الآيات السابقة حول يوم الفصل والقيامة، فتقول: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ فهؤلاء المجرمون هم الذين يأكلون هذا النبات المرّ القاتل، والخبيث الطعام النتن الرائحة.

﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ كما قلنا في تفسير الآية (٦٢) من سورة الصافات - على قول المفسّرين وأهل اللغة، اسم شجرة لها أوراق صغيرة وثمرة مرّة خشنة اللمس منتنة الرائحة، تنبت في أرض تهامة من جزيرة العرب، كان المشركون يعرفونها، وهي شجرة عصيرها مرّ، وإذا أصابت البدن تورّم[١].

ويعتقد البعض أنّ الزقوم في الأصل يعني الابتلاع[٢]، ويقول البعض: إنّها كلّ طعام خبيث في النّار[٣].

وجاء في حديث أنّ هذه الكلمة لما نزلت في القرآن قال كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة، فأيّكم يعرف معنى الزقوم؟ وكان هناك رجل من أفريقية قال: هي عندنا التمر والزبد - وربّما قال ذلك استهزاء - فلما سمع أبو جهل ذلك قال مستهزئاً: يا جارية زقمينا، فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمّد[٤].

وينبغي الالتفات إلى أنّ «الشجرة» تأتي في لغة العرب والاستعمالات القرآنية بمعنى الشجرة أحياناً، وبمعنى مطلق النبات أحياناً.

و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ من مادة إثم، وهو المقيم على الذنب، والمراد هنا الكفار المعاندون المعتدون، المصرّون على الذنوب والمعاصي المكثرون منها.

ثمّ تضيف الآية: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، تفسير روح البيان، تفسير روح المعاني.

(٢) لسان العرب مادة «زقم».

(٣) مفردات الراغب مادة (زقم).

(٤) تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٥٢٩ ذيل الآية (٦٢) من سورة الصافات.

«المهل» - على قول كثير من المفسّرين وأرباب اللغة - الفلز المذاب، وعلى قول آخرين - كالراغب في المفردات - هو دُرْدِيُّ الزيت، وهو ما يترسب في الإناء، وهو شيء مرغوب فيه جداً، لكن يبدو أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ هو الماء الحار المغلي، وتطلق أحياناً على الصديق الوثيق العلاقة والصداقة، والمراد هنا هو المعنى الأول.

على أي حال، فعندما يدخل الزقوم بطون هؤلاء، فإنّه يولد حرارة عالية لا تطاق، ويغلي كما يغلي الماء، وبدل أن يمنحهم هذا الغذاء القوة والطاقة فإنّه يهبهم الشقاء والعذاب والألم والمشقة.

ثمّ يخاطب سبحانه خزنة النّار، فيقول: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ من مادة العَتْل، وهي الأخذ والسحب والإلقاء. وهو ما يفعله حماة القانون والشرطة مع المجرمين المتمردين، الذي لا يخضعون لأي قانون ولا يطبقونه.

﴿سَوَآءِ﴾ بمعنى الوسط، لأنّ المسافة إلى جميع الأطراف متساوية، وأخذ أمثال هؤلاء الأشخاص وإلقاؤهم في وسط جهنم باعتبار أنّ الحرارة أقوى ما تكون في الوسط، والنّار تحيط بهم من كلّ جانب.

ثمّ تشير الآية التالية إلى نوع آخر من أنواع العقاب الأليم الذي يناله هؤلاء، فتقول: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾(١) وبهذا فإنّهم يحترقون من الداخل، وتحيط النّار بكلّ وجودهم من الخارج، وإضافة إلى ذلك يصب على رؤوسهم الماء المغلي في وسط الجحيم.

وقد ورد نظير هذا المعنى في الآية (١٩) من سورة الحج حيث تقول: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾.

وبعد كلّ أنواع العذاب الجسمي هذه، تبدأ العقوبات الروحية والنفسية، فيقال لهذا المجرم المتمرد العاصي الكافر: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فأنت الذي كنت قد قيدت البؤساء فباتوا في قبضتك تظلمهم كيف شئت، وتعذبهم حسبما تشتهي، وكنت تظن أنّك قوي لا تقهر، وعزيز لا يمكن أنْ تُهان ويجب على الجميع احترامك وتقديرك.

---

(١) عذاب الحميم من قبيل الإضافة البيانية، أي إنّ هذا الماء المحرق عذاب يصب على هؤلاء.

نعم، أنت الذي ركبك الغرور فلم تدع ذنباً لم ترتكبه، ولا موبقة لم تأتها، فذق الآن نتيجة أعمالك التي تجسدت أمامك، وكما أحرقت أجسام الناس وآلمت أرواحهم، فليحترق الآن داخلك وخارجك بنار غضب الله والماء المغلي الذي يصهر ما في بطونهم والجلود.

وجاء في حديث أنّ النّبي الأكرم ﷺ أخذ يوماً بيد أبي جهل وقال: «أولى لك فأولى» فغضب أبو جهل وجرَّ يده وقال: بأي شيء تهددني؟ ما تستطيع أنت وصاحبك أن تفعلا بي شيئاً، إنّي لمن أعز هذا الوادي وأكرمه.

والآية ناظرة إلى هذا المعنى، فتقول: عندما يلقونه في جهنم يقولون له: ذق يا عزيز مكّة وكريمها[1].

ويضيف القرآن الكريم في آخر آية - من الآيات مورد البحث - مخاطباً إيّاهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ فكم ذكّرناكم بحقّانية هذا اليوم وحقيقته في مختلف آيات القرآن وبمختلف الأدلة؟!

ألم نقل لكم: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾؟[2].

ألم نقل: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؟[3].

ألم نقل: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؟[4].

ألم نقل: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؟[5].

وخلاصة القول: قد قلنا لكم الحقيقة وأوضحناها بطرق مختلفة، لكن لم تكن لكم آذان تسمعون بها.

بحث

العقوبات الجسمية والروحية

نحن نعلم، وطبقاً لصريح القرآن، أنّ للمعاد جانباً جسمياً، وآخر روحياً، وعلى ذلك فمن الطبيعي أن تكون العقوبات والمثوبات متصفتين بهما كذلك، ولذلك أشير في آيات

(١) تفسير المراغي، ج ٢٥، ص ١٣٥ ذيل الآيات مورد البحث، وتفسير روح المعاني، والتّفسير الكبير للفخر الرازي.

(٢) سورة ق، الآية: ١١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٩.

(٤) سورة التغابن، الآية: ٧.

(٥) سورة ق، الآية: ١٥.

القرآن الكريم والرّوايات الإسلامية إلى كلا القسمين، غاية ما في الأمر أنّ انتباه الناس وإحساسهم لمّا كان منصباً على الأُمور الجسمية غالباً، لذلك يلاحظ أنّ التفصيل في العقوبات والمثوبات المادية أكثر، لكن لا يعني هذا أنّ الإشارة إلى المثوبات والعقوبات المعنوية قليلة.

وقد رأينا في الآيات أعلاه نموذجاً لهذا المطلب، فمع ذكر عدّة أقسام من العقوبات الجسمية الأليمة، هناك إشارة وجيزة عميقة المحتوى إلى الجزاء الروحي الذي سينال المستكبرين.

ونلاحظ في آيات أُخرى من القرآن إشارة إلى المثوبات الروحية أيضاً، فيقول الله تعالى في موضع: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١).

ويقول في موضع آخر: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾(٢).

وأخيراً يقول في موضع ثالث: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(٣).

ولا يخفى أنّه لا يمكن وصف اللذائذ المعنوية غالباً وخاصّة في ذلك العالم الواسع، ولذلك فقد أشير إليها في القرآن إشارة غامضة عادة، أمّا العقوبات الروحية التي تكون بالتحقير والإهانة، التوبيخ والتقريع، والأسف والهمّ والحزن، فقد وصفتها الآيات وأوضحتها، وقد قرأنا نماذج منها في الآيات أعلاه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)﴾

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٢) سورة يس، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

التفسير

المتقون ومختلف نعم الجنّة

لما كان الكلام في الآيات السابقة عن العقوبات الأليمة لأهل النّار، فإنّ هذه الآيات تذكر المواهب والنعم المعدّة لأهل الجنّة، لتتضح أهمية كلّ منهما من خلال المقارنة بينهما.

وقد لخّصت هذه المواهب في سبعة أقسام:

الأولى: هي ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[1] على هذا فلا يصيبهم أي إزعاج أو خوف، بل هم في أمن كامل من الآفات والبلايا، من الغمّ والأحزان، ومن الشياطين والطواغيت.

ثمّ تطرقت الآيات إلى النعمة الثانية فقال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

إنّ التعبير بالجنات يمكن أن يكون إشارة إلى تعدد الحدائق والبساتين التي يتمتع بها كلّ فرد من أهل الجنّة، فهي تحت تصرفه، أو تكون إشارة إلى مقاماتهم المختلفة ودرجاتهم المتفاوتة، لأنّ حدائق الجنّة وبساتينها غير متساوية، بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنّة.

وتشير الثالثة إلى ملابسهم الجميلة، فتقول: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

«السندس» يقال للأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة، وأضاف البعض قيد كونها مذهّبة.

و«الإستبرق» هي الأقمشة الحريرية السميكة، ويعتقد بعض المفسّرين وأهل اللغة أنها معربة من الكلمة الفارسية (أستبر) أو (ستبر) أي السميك. ويحتمل أن يكون أصلها عربياً مأخوذاً من البرق أي التلألؤ، حيث إنّ لهذه الأقمشة بريقاً خاصّاً.

طبعاً، ليس في الجنّة حرّ شديد أو برد قارص ليتوقاه أهل الجنّة بارتداء هذه الملابس، بل هذه إشارة إلى الألبسة المتنوعة المعدة لهم.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ كلماتنا وألفاظنا - هذه التي وضعت لرفع حاجات الحياة اليومية في دنيانا - عاجزة عن وصف مسائل ذلك العالم الكامل العظيم، بل هي قادرة على الإشارة إليها وحسب.

---

(١) ممّا يستحق الانتباه أنّ ﴿أَمِينٍ﴾ قد ذكر وصفاً للمقام، فكأن مقام أهل الجنّة أمين بنفسه ولا يخون أهل الجنّة مطلقاً، ومثل هذه التعبيرات تأتي عادة للتأكيد والمبالغة.

واعتقد البعض أنّ اختلاف هذه الألبسة إشارة إلى تفاوت مقامات القرب بين أصحاب النعيم.

ثمّ إنّ كون أهل الجنّة متقابلين مع بعضهم البعض، وزوال أي تفاوت وتكبر لأحد على آخر، إشارة إلى روح الأُنس والأُخوّة التي تسود مجالسهم، تلك المجالس والحلقات التي لا يرى فيها إلاّ الصفاء والمودّة وتسامي الروح.

وتصل النوبة في النعمة الرابعة إلى أزواجهم، فتقول: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

«الحور» جمع حوراء وأحور، وتقال لمن اشتد سواد عينه، واشتد بياض بياضها. و«العين» جمع أعين وعيناء، أي أوسع العين، ولما كان أكثر جمال الإنسان في عينيه، فإنّ الآية تصف عيون الحور العِين الجميلة الساحرة، وقد ذكرت محاسنهن الأُخرى بأسلوب رائع في آيات أُخرى من القرآن.

ثمّ تناولت الآية الأُخرى النعمة الخامسة لأصحاب الجنّة فقالت: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ فلا توجد في الجنّة تلك المشكلات والصعوبات التي كانوا يعانونها هنا في تناول فاكهة الدنيا، فإنّها قريبة منهم وفي متناولهم، وعلى هذا فليس هناك بذل جهد لاقتطاف الأثمار من الأشجار العالية، إذ ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾(١).

وإليهم يرجع اختيار الفاكهة التي يشتهونها: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾(٢).

ولا أثر هنا للأمراض والاضطرابات التي قد تحدث في هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه، وكذلك لا خوف من فسادها وقلتها، فهم في راحة وأمن واطمئنان من كافّة الجهات.

وعلى أية حال، فإذا كان الزقوم طعام أهل النّار الذي يغلي في بطونهم كغلي الحميم، فإنّ طعام الجنّة هي الفواكه اللذيذة الخالية من كلّ أذى وإزعاج.

خلود الجنّة ونعمها هي النعمة السادسة من نعم الله سبحانه على المتقين، لأنّ الذي يقلق فكر الإنسان عند الوصال واللقاء هو خوف الفراق، ولذلك تقول الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾.

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٢٠.

والطريف أنّ القرآن الكريم قد بيّن كون نعم الجنّة خالدة بتعابير مختلفة، فيقول تارة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾(١) ويقول أُخرى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٢).

أمّا لماذا عُبر بـ ﴿ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ فسيأتي بيانه في التأملات، إن شاء الله تعالى.

وأخيراً يبيّن القرآن الكريم السابع من النعم وآخرها، فيقول: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فإنّ كمال هذه النعم إنما يتم عندما يخلو فكر أصحاب الجنّة من احتمال العذاب، وعدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ الله سبحانه سيعفو عنها بلطفه وكرمه، ويطمئنهم بأن لا يدعوا للخوف إلى أنفسهم سبيلاً. وبتعبير آخر، فإنّ غير المعصومين مبتلون بالهفوات شاؤوا أم أبوا، وهم في خوف وقلق منها ما داموا غير مطمئنين بشمول العفو الإلهي لهم، وهذه الآية تمنحهم الاطمئنان والراحة والأمان من هذه الجهة.

وهنا يطرح سؤال، وهو: إنّ بعض المؤمنين يقضون مدّة في الجحيم بذنوب اقترفوها، ليتطهروا منها، ثمّ يدخلون الجنّة، فهل تشملهم الآية المذكورة؟

ويمكن القول في معرض الإجابة عن هذا السؤال، بأنّ الآية تتحدث عن المتقين ذوي الدرجات السامية، والذين يردون الجنّة من أوّل وهلة، أما الفئة الأُخرى فهي ساكتة عنهم.

ويحتمل أيضاً أنّ هؤلاء عندما يدخلون الجنّة فلن يخشوا بعد ذلك العودة إلى النّار، بل يبقون في الأمن الدائم، وهذا يعني أنّ الآية أعلاه ترسم صورة هؤلاء وحالهم بعد دخولهم الجنّة.

وأشارت آخر آية - من هذه الآيات - إلى جميع النعم السبع، وكنتيجة لما مر تقول: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣).

صحيح، إنّ المتقين قد عملوا الكثير من الصالحات والحسنات، إلاّ أنّ من المسلّم

---

(١) ورد هذا التعبير في آيات كثير من القرآن، ومن جملتها: آل عمران - ١٥، ١٣٦، النساء - ١٣، ١٢٢، المائدة - ٨٥، وغيرها.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٠.

(٣) احتملت عدّة احتمالات في إعراب ﴿فَضْلًا﴾: أحدها: إنّها مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: فضلهم فضلاً، والآخر: أنّه مفعول لأجله، أو أنّها حال.

أنّ تلك الأعمال جميعاً لا تستحق كلّ هذه النعم الخالدة، بل هي فضل من الله سبحانه، إذ جعل كلّ هذه النعم والعطايا تحت تصرفهم ووهبهم إيّاها.

هذا إضافة إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا قادرين على كسب كلّ هذه الحسنات ولا على فعل الحسنات لو لم يشملهم فضل الله وتوفيقه ولطفه، فهو الذي منحهم العقل والعلم، وهو الذي أرسل الأنبياء والكتب السماوية، وهو الذي غمرهم بتوفيق الهداية والعمل.

نعم، إنّ استغلال هذه المنح العظمى، والوصول إلى كلّ تلك العطايا والثواب، إنّما تمّ بفضله سبحانه إذ وهبهم إيّاها، ولم يكن هذا الفوز العظيم ليحصل إلاّ في ظل لطفه وكرمه.

بحث

ما هي الموتة الأولى؟

قرأنا في الآيات المذكورة أعلاه أنّ أصحاب الجنّة لا يذوقون إلاّ الموتة الأولى، وهنا تطرح أسئلة ثلاثة:

الأول: ما المراد من الموتة الأولى؟ فإنّ كان المراد الموت الذي تنتهي به الحياة الدنيا، فلماذا تقول الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ في حين أنّهم قد ذاقوها، وعليه يجب أن يأتي الفعل بصيغة الماضي لا المضارع؟

وللإجابة عن هذا السؤال اعتبر البعض ﴿إِلَّا﴾ في جملة ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بمعنى (بعد)، وقالوا: إنّ معنى الآية هو أنّهم لا يذوقون موتاً بعد موتتهم الأولى.

وقدّر البعض الآخر تقديراً في الكلام فقالوا: إنّ التقدير هو: إلاّ الموتة الأولى التي ذاقوها(١).

الثاني: هو: لماذا ورد الكلام عن الموتة الأولى فقط، في حين أننا نعلم أنّ الإنسان يذوق الموت مرّتين: مرّة عند انتهاء حياته، وأخرى بعد حياة البرزخ؟

وقد ذكروا للإجابة على هذا السؤال عدة إجابات كلها غير مرضية، فآثرنا عدم ذكرها لضعفها.

---

(١) بناءً على هذا فإنّ الاستثناء أعلاه منقطع أيضاً لأنّ أصحاب الجنّة لا يذوقون مثل هذا الموت، بل ذاقوه من قبل (فتأمل!).

والأفضل أن يقال: إنّ الحياة والموت في البرزخ لا يشبهان أبداً الحياة والموت العاديين، بل إنّ حياة القيامة تشبه الحياة الدنيا من وجوه عديدة بمقتضى المعاد الجسماني، غاية ما هناك أنّها في مستوى أعلى وأسمى، ولذلك يقال لأصحاب الجنّة: لا موتة بعد الموتة الأولى التي ذقتموها، ولما كانت الحياة والموت في البرزخ لا شباهة لهما بحياة الدنيا وموتها لذا لم يرد الكلام حولهما(١).

السؤال الثّالث هو: إنّ عدم وجود الموت في القيامة لا ينحصر بأصحاب الجنّة، بل أصحاب النّار لا يموتون أيضاً، فلماذا أكّدت الآية على أصحاب الجنّة؟

للمرحوم الطبرسي جواب رائع عن ذلك، فهو يقول: إنّ ذلك بشارة لأهل الجنّة، بأنّ لهم حياة خالدة هنيئة، أما أصحاب النّار الذين يعتبر كلّ لحظة من لحظات حياتهم موتاً، وكأنّهم يحيون ويموتون دائماً، فلا معنى لهذا الكلام في حقهم.

وعلى أية حال، فإنّ التعبير هنا بـ ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ إشارة إلى أنّ أصحاب الجنّة لا يرون ولا يعانون أدنى أثر من آثار الموت.

وجميلٌ أنّ نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الله تعالى يقول لبعض أهل الجنّة: «وعزتي وجلالي، وعلوي وارتفاع مكاني لأنحلنّ لهم اليوم خمسة أشياء: ألا إنّهم شباب لا يهرمون، وأصحاء لا يسقمون، وأغنياء لا يفتقرون، وفرحون لا يحزنون، وأحياء لا يموتون» ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾(٢).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التّفسير

ارتقب فإنهم مرتقبون!

قلنا: إنّ سورة الدخان بدأت ببيان عظمة القرآن وعمقه، وتنتهي بهذه الآيات التي تبيّن كذلك التأثير العميق لآيات القرآن الكريم، لتنسجم بذلك بداية السورة مع نهايتها،

(١) الحياة والموت في البرزخ في ذيل الآية (١١) من سورة المؤمن.

(٢) أصول الكافي، ج٤ ص ٥٩٨؛ طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٣٤.

وما هو مبيَّن أيضاً بين البداية والنهاية هو التأكيد على مواعظ القرآن ونصحه.

تقول الآية الأولى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فمع أنّ محتواه عميق جداً، وأبعاده مترامية، لكنه بسيط واضح، يفهمه الجميع، وتقتبس من أنواره كلّ الطبقات، أمثاله جميلة رائعة، وتشبيهاته واقعية بليغة، وقصصه حقيقية تربوية، دلائله واضحة محكمة، وبيانه مع عمقه بسيط سهل، مختصر عميق المحتوى، وهو في الوقت نفسه ذو حلاوة وجاذبية، ينفذ إلى أعماق قلوب البشر، فينبه الغافلين، ويعلم الجاهلين، ويذكّر من كان له قلب.

وقد ذكر بعض المفسّرين تفسيراً آخر لهذه الآية، يكون معنى الآية طبقاً له: إنّك وإن كنت أُمياً لم تدرس وتتعلم، لكنك تستطيع أن تقرأ بكلّ يسر وسهولة هذه الآيات العميقة الغنية المحتوى، والتي تبيّن الوحي والإعجاز الإلهي. غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

وهذه الآية - في الواقع - شبيهة بالآية التي تكررت عدّة مرات في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟![1]

لكن لما كان هناك جماعة لم يذعنوا لأمر الله، ولم يسلموا ويستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف، فقد هددتهم الآية الأخيرة وحذرتهم فقالت: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ فانتظر ما وعدك الله بالنصر على الكفّار، ولينتظروا الهزيمة والخسران...

انتظر نزول عذاب الله الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين، ودعهم ينتظرون هزيمتك وعدم تحقق أهدافك السامية، ليعلم أي الانتظارين هو الصحيح؟

بناء على هذا، ينبغي أن لا يستفاد أبداً من الآية أنّ الله سبحانه يأمر نبيّه أن يكف كلياً عن إبلاغهم رسالته، وينهي نشاطه وفعالياته وجهاده، ويكتفي بأن يكون منتظراً للنتيجة، وإنّما هو نوع تهديد لأُولئك المتعصبين عسى أن يستيقظوا من سباتهم، وينتبهوا من غفلتهم.

ملاحظات

١ - «ارتقب» في الأصل مأخوذة من الرقبة، ولما كان من ينتظر شيئاً يمد رقبته نحوه دائماً، فقد جاءت بمعنى انتظار الشيء ومراقبته.

٢ - إنّ الآيات أعلاه تبين بوضوح أنّ القرآن الكريم لا يختص بطبقة خاصّة أو قوم

---

(١) سورة القمر، الآيات: ١٧ و ٢٢ و ٣٢ و ٤٠.

معينين، بل هو لإفهام الجميع وتذكيرهم وإثارة تفكرهم، وعلى هذا، فإنّ أُولئك الذين يجعلون القرآن مجموعة من المفاهيم المبهمة والألغاز المحيرة التي لا يفهمها ولا يعلمها إلاّ طبقة خاصّة، بل وحتى هذه الطبقة لا تفهم منه شيئاً ولا تدرك أبعاده، غافلون في الحقيقة عن روح القرآن.

إنّ القرآن يجب أن يحيا بين الناس ويحضر بينهم حيثما كانوا، في المدينة والقرية، في الخلاء والملأ، في المدارس الابتدائية والجامعات، في المسجد وميادين الحرب، وفي كلّ مكان يوجد فيه إنسان، لأنّ الله سبحانه قد يسَّره ليتذكر الجميع ويقتبسوا من أنواره ما يضيئون به حياتهم.

وكذلك قضت هذه الآية ببطلان أفكار أُولئك الذين حبسوا القرآن في إطار طريقة تلاوته وقواعد تجويده وتعقيداتها، وأصبح همّهم الوحيد أداء ألفاظه من مخارجها، ومراعاة آداب الوقف والوصل فتقول لهم: إنّ كلّ ذلك من أجل التذكر الذي يكون عامل حركة وباعثاً على العمل في الحياة، فإنّ رعاية ظواهر الألفاظ صحيح في محله، إلاّ أنّه ليس الهدف النهائي، بل الهدف هو فهم معاني القرآن لا ألفاظه.

٣ - ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، وأنّى لهم ذلك وهو كلام من لم يزل ولا يزال»[١].

اللّهمَّ اجعلنا ممن يتعظ بالقرآن العظيم، ويتذكر ويتدبر فيه، ويجعل حياته في جميع أبعادها تبعاً لمفاهيمه وأحكامه.

اللّهمَّ امنحنا من ذلك الأمن الذي وهبته المتقين، فجعلتهم مطمئنين موقنين أمام عواصف الأحداث والمصاعب الجّمة التي تعترضهم.

إلهنا.. إنّ مواهبك لا تحصى، ورحمتك لا تحد، وعذابك أليم، وليست أعمالنا بالتي تجعلنا مؤهلين لنيل رحمتك والنجاة من عذابك.

اللّهمَّ فانشر علينا من رحمتك، وأفض علينا من فضلك الذي وعدت به المتقين من عبادك، وإلاّ فلا سبيل لنا إلى جنتك الخالدة.

---

(١) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٤٣٣.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مكية وعدد آياتـها سبع وثلاثون

محتوى السورة

هذه السورة - وهي سادس الحواميم - من السورة المكية، وقد نزلت في وقت كانت المواجهة بين المسلمين ومشركي مكّة قد اشتدت وسادت الأجواء الاجتماعية في مكّة، ولذلك فإنّها أكّدت على المسائل المتعلقة بالتوحيد، ومحاربة الشرك، وتهديد الظالمين بمحكمة القيامة، والتنبيه إلى كتابة الأعمال وتسجيلها، وكذلك التنبيه إلى عاقبة الأقوام المتمردين الماضين.

ويمكن تلخيص محتوى هذه السورة في سبعة فصول:

١ - عظمة القرآن المجيد وأهمّيته.

٢ - بيان جانب من دلائل التوحيد أمام المشركين.

٣ - ذكر بعض ادعاءات الدهريين، والردّ عليها بجواب قاطع.

٤ - إشارة وجيزة إلى عاقبة بعض الأقوام الماضين - كبني إسرائيل - كشاهد على مباحث هذه السورة.

٥ - تهديد الضالين المصرّين على عقائدهم المنحرفة والمتعصبين لها تهديداً شديداً.

٦ - الدعوة إلى العفو والصفح، لكن مع الحزم وعدم الانحراف عن طريق الحق.

٧ - الإشارات البليغة المعبّرة إلى مشاهد القيامة المهولة، وخاصة صحيفة الأعمال التي تشتمل على كلّ أعمال الإنسان دون زيادة أو نقصان.

وتبدأ هذه السورة بصفات وأسماء الله عزّوجلّ العظيمة كالعزيز والحكيم، وتنتهي بها أيضاً.

واسمها مقتبس من الآية ٢٨ منها، و«الجاثية» تعني الجثو على الركب، وهي إشارة الى وضع كثير من الناس في ساحة القيامة، في محكمة العدل الإلهيّة تلك.

وقد ذكر المرحوم الطبرسي في مجمع البيان اسماً آخر لهذه السورة غير مشهور، وهو (الشريعة) مستلهم من الآية (١٨) من هذه السورة.

فضل تلاوة السورة

نقرأ في حديث عن النّبي ﷺ: «من قرأ حاميم الجاثية ستر الله عورته، وسكن روعته عند الحساب»(١).

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أنّ لا يرى النّار أبداً، ولا يسمع زفير جهنم ولا شهيقها، وهو مع محمّد»(٢).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

آيات الله في كلّ مكان

قلنا: إنّ هذه السورة هي سادس السور التي تبدأ بالحروف المتقطعة ﴿حمٓ﴾ وهي تشكل مع السورة الآتية - أي سورة الأحقاف - سور الحواميم السبعة. وقد بحثنا مراراً في تفسير الحروف المتقطعة في بدايات سور البقرة وآل عمران، وكذلك في الحواميم.

يقول المرحوم الطبرسي في بداية هذه السورة: إنّ أحسن ما يقال هو أنّ ﴿حمٓ﴾ اسم هذه السورة. ثمّ ينقل عن بعض المفسّرين، أنّ تسمية هذه السورة بـ(حم) للإشارة إلى أن هذا القرآن المعجز بتمامه يتكون من حروف الألف باء.

نعم، إنّ كتاب النور والهداية والإرشاد وحل المعضلات ومعجزة نبيّ الإسلام ﷺ الخالدة هذا، يتركب من هذه الحروف البسيطة، وغاية العظمة أن يتكون أمر بهذه الأهمّية من هذه الحروف السهلة البسيطة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، بداية سورة الجاثية.

(٢) تفسير البرهان، بداية سورة الجاثية، ج ٤، ص١٦٧.

وربّما كان هذا هو السبب في أن تتحدث الآية التالية عن عظمة القرآن مباشرة فتقول: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(١).

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هو القوي الذي لا يقهر، و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ هو العارف بأسرار كلّ شيء، وتقوم كل أفعاله على أساس الحكمة والدقة، ومن الواضح أنّ الحكمة التامة والقوّة اللامحدودة من لوازم تنزيل مثل هذا الكتاب العظيم، وهما غير موجودتين إلاّ في الله العزيز المتعال.

والطريف أنّ هذه الآية قد وردت على هذه الهيئة في بداية أربع سور من القرآن الكريم، ثلاث منها من الحواميم - وهي المؤمن والجاثية والأحقاف - والأُخرى من غير الحواميم، وهي سورة الزمر، وهذا التكرار والتأكيد يهدف إلى جلب انتباه الجميع إلى عمق أسرار القرآن وعظمة محتواه، لئلا ينظروا ببساطة وعدم تدبر إلى أية عبارة أو تعبير من تعابيره، ولئلا يظنوا أنّ هذه الكلمة أو تلك لا محل لها ولا فائدة من ذكرها، لكي لا يقنعوا بحدّ معين من فهمه وإدراكه، بل ينبغي أن يكونوا في سعي دؤوب للتوصل إلى أعمق ممّا أدركوه.

وهنا نكتة تستحق الالتفات، وهي أنّ صفة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قد وردت أحياناً لوصف نفس القرآن، مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾(٢)، فإنّه عزيز لا تصل إليه أيدي الذين يقولون بعدم فائدته، ولا ينقص مرّ الزمان من أهمّيته، ولا تبلى حقائقه ولا تفقد قيمتها، ويفضح المحرّفين أو من يحاول تحريفه، ويشق طريقه إلى الأمام دائماً رغم كل ما يوضع أمامه من عراقيل.

وقد تأتي هذه الصفة في حقّ مُنزله جلّ وعلا، كما في هذه الآية، وكلاهما صحيح.

ثمّ تناولت الآية التي بعدها بيان آيات الله سبحانه ودلائل عظمته في الآفاق والأنفس، فقالت: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن عظمة السماوات من جانب، ونظامها العجيب الذي مرّت عليه ملايين السنين الذي لم ينحرف عما سار عليه قيد أنملة، من جانب آخر، ونظام خلقة الأرض وعجائبها، من جانب ثالث، يكون كلّ منها آية من آيات الله سبحانه.

---

(١) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: (هذا تنزيل الكتاب)، ثمّ إنّ (تنزيل) مصدر جاء هنا بمعنى اسم المفعول، وهو من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، وتقدير الكلام: هذا كتاب منزل. . .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤١.

إنّ للأرض - على قول بعض العلماء - أربع عشرة حركة، وتدور حول نفسها بسرعة مذهلة، وكذلك تدور حول الشمس بحركة سريعة، وأُخرى مع المنظومة الشمسية ضمن مجرّة «درب التبانة»، وهي تسير في طريق لا نهاية له، وسفر لا حدّ له، ومع ذلك فهي من الهدوء والاستقرار بمكان، بحيث يستقر عليها الإنسان وكل الموجودات الحية فلا يشعرون بأي اضطراب وتزلزل، حتى ولا بقدر رأس الإبرة.

وهي ليست بتلك الصلابة التي لا يمكن معها أن تزرع، وتبنى عليها الدور والبنايات، ولا هي رخوة ولا يمكن الثبات عليها، والاستقرار فيها.

وقد هيئت فيها أنواع المعادن ووسائل الحياة لمليارات البشر، سواء الماضون منهم والحاضرون والآتون، وهي جميلة تسحر الإنسان وتفتنه.

والجبال والبحار وجوّ الأرض - أيضاً - كلّ منها آية وسرّ من الأسرار.

غير أنّ علامات التوحيد هذه، وعظمة الله تعالى إنّما يلتفت إليها وينتفع بها المؤمنون، أي طلاب الحق والسائرون في طريق الله، أمّا عمي القلوب المغرورون المغفلون، فهم محرومون من إدراكها والإحساس بها.

ثمّ انتقلت السورة من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فقالت: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

كما ورد في العبارة المعروفة والمنسوبة إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أتحسب إنّك جرم صغير، وفيك انطوى العالم الأكبر»، وكلّ ما هو موجود في ذلك العالم الكبير يوجد منه نموذج مصغر في داخل جسم الإنسان وروحه.

إنّ خصاله وصفاته مركّبة من خصال الكائنات الحية وصفاتها، وتنوع خلقته عصارة مجموعة من حوادث هذا العالم الكبير.

إنّ بناء خلية من خلاياه كبناء مدينة صناعية عظيمة مليئة بالأسرار، وخلق شعرة منه - بخصائصها وأسرارها المختلفة التي اكتشفت بقدرة العلم وتطوره - آية عظيمة من آيات الله العظيم.

إنّ وجود آلاف الكيلومترات من العروق والشرايين والأوردة الكبيرة والصغيرة، والأوعية الدموية الصغيرة جدّاً والشعيرات المتناهية في الصغر في بدن الإنسان، وآلاف الكيلومترات من طرق المواصلات وأسلاك الاتصالات في سلسلة الأعصاب، وكيفية ارتباطها واتصالها بمركز القيادة في المخ، والذي هو مزيج فذٌّ من العقد والأسرار،

وقوي في الوقت نفسه، وكذلك طريقة عمل كلّ جهاز من أجهزة البدن الداخلية وانسجامها العجيب في مواجهة الأحداث المفاجئة، والدفاع المستميت للقوى المحافظة على البدن ضد هجوم العوامل الخارجية.. كلّ واحد من هذه الأُمور يشكل - بحدّ ذاته - آية عظمى من آيات الله سبحانه.

وإذا تجاوزنا الإنسان، فإنّ مئات الآلاف من أنواع الكائنات الحية، ابتداءً من الحيوانات المجهرية وحتى الحيوانات العملاقة، بخصائصها وبناء أجهزتها المختلفة تماماً، والتي قد يصرف جمع من العلماء كلّ أعمارهم أحياناً لمطالعة حياة وسلوك نوع واحد منها، ومع أنّ آلاف الكتب قد كتبت حول أسرار هذه المخلوقات، فإنّ ما نعلمه عنها قليل بالنسبة إلى ما نجهله منها.. كلّ واحد من هذه المخلوقات آية بنفسه، ودليل على علم مبدئ الخلقة وحكمته وقدرته اللامتناهية.

لكن، لماذا يعيش جماعة عشرات السنين في ظل هذه الآيات، ويمرون عليها، دون أن يطلعوا حتى على واحدة منها!؟

إنّ سبب ذلك هو ما يقرره القرآن الكريم من أنّ هذه الآيات خاصّة للمؤمنين وطلاب اليقين وأصحاب الفكر والعقل، ولأُولئك الذين فتحوا أبواب قلوبهم لمعرفة الحقيقة، بكلّ وجودهم الظامئ للعلم واليقين ليرتووا من صافي نبعه وفيضه، فلا تعزب عن نظرهم أدنى حركة ولا أصغر موجود، ويفكرون فيه الساعات الطوال، ليجعلوا منه سلماً للارتقاء إلى الله سبحانه، وسجلاً لمعرفته جلّ وعلا، وليذوبوا في مناجاته، وليملؤوا أقداح قلوبهم من خمرة عشقه فينتشوا منها.

وتذكر الآية التالية ثلاث مواهب أُخرى لكلّ منها أثره الهام في حياة الإنسان والكائنات الحية الأُخرى، وكل منها آية من آيات الله تعالى، وهي مواهب «النور» و«الماء» و«الهواء»، فتقول: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

إنّ نظام «النور والظلمة»، وحدوث الليل والنهار حيث يخلف كلّ منهما الآخر نظام موزون دقيق جدّاً، وهو عجيب في وضعه وسننه وقانونه، فإذا كان النهار دائمياً، أو أطول من اللازم، فسترتفع الحرارة حتى تحترق الكائنات الحية، ولو كان الليل سرمداً، أو طويلاً جدّاً لانجمدت الموجودات من شدّة البرد.

ويحتمل في تفسير الآية أنّ لا يكون المراد من اختلاف الليل والنهار تعاقبهما، بل

هو إشارة إلى اختلاف المدة وتفاوت الليل والنهار، في فصول السنة، فيعود نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الاختلاف من المحاصيل الزراعية المختلفة والنباتات والفواكه، ونزول الثلوج وهطول الأمطار والبركات الأُخرى.

والطريف أنّ العلماء يقولون: بالرغم من التفاوت الشديد بين مناطق الأرض المختلفة من ناحية طول الليل والنهار وقصرهما، فإنّنا إذا حسبنا مجموع أيّام السنة فسنرى أنّ كلّ المناطق تستقبل نفس النسبة من أشعة الشمس تماماً(١).

ثمّ تتناول الحديث في الفقرة الثانية عن الرزق السماوي، أي «المطر» والذي لا كلام في لطافة طبعه ورقته، ولا بحث في قدرته على الإحياء، وبعثه الحياة في كلّ الأرجاء ومنحها الجمال والروعة.

ولِمَ لا يكون كذلك، والماء يشكل الجانب الأكبر والقسم الأساسي من بدن الإنسان، وكثير من الحيوانات الأُخرى، والنباتات؟

ثمّ تتحدث في الفقرة الثالثة عن هبوب الرياح. تلك الرياح التي تنقل الهواء المليء بالأوكسجين من مكان إلى آخر، وتضعه تحت تصرف الكائنات الحية، وتبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحاري والغابات لتصفيته، ثمّ إعادته إلى المدن.

والعجيب أنّ هاتين المجموعتين من الكائنات الحية - أي الحيوانات والنباتات - متعاكسة في العمل تماماً، فالأولى تأخذ الأوكسجين وتعطي غاز ثاني أوكسيد الكاربون، والثانية على العكس تتنفس ثاني أوكسيد الكاربون وتزفر الأوكسجين، ليقوم التوازن في نظام الحياة، ولكي لا ينفذ مخزون الهواء النقي المفيد من جوّ الأرض بمرور الزمان.

إنّ هبوب الرياح، إضافة إلى ذلك فإنّه يلقح النباتات فيجعلها حاملة للأثمار والمحاصيل، وينقل أنواع البذور إلى الأراضي المختلفة لبذرها هناك، وينمي المراتع الطبيعية والغابات، ويهيج الأمواج المتلاطمة في قلوب المحيطات، ويبعث الحركة والحياة في البحار ويثير أمواجها العظيمة، ويحفظ الماء من التعفّن والفساد، وهذه الرياح نفسها هي التي تحرك السفن على وجه المحيطات والبحار وتجريها(٢).

---

(١) وردت بحوث مفصلة حول اختلاف الليل والنهار، في سورة البقرة - ذيل الآية ١٦٤ وفي سورة آل عمران ذيل الآية ١٩٠، وفي سورة يونس ذيل الآية ٦، وفي ذيل الآية ٧١ من سورة القصص.

(٢) لقد وردت بحوث مفصلة حول آثار الرياح والأمطار في ذيل الآيات ٤٦ - ٥٠ من سورة الروم.

والطريف أنّ هذه الآيات تتحدث أوّلاً عن آيات السماء والأرض وتقول في نهاية الآية.

الأولى: إنّها آيات «للمؤمنين»، ثمّ تتناول الحديث في خلق الكائنات الحية فتقول في نهاية الآية الثانية: إنّها آيات «للموقنين»، وبعد ذلك تتكلم في أنظمة النور والظلمة، والرياح والأمطار، ثمّ تقول: إنّها آيات للذين «يعقلون».

إنّ هذا التفاوت في التعبير لعله بسبب أنّ الإنسان يطوي ثلاث مراحل في سيره الى معرفة الله سبحانه ليصل إلى هدفه، فالأولى مرحلة «التفكر»، والثانية مرحلة «اليقين» والعلم، وبعدها مرحلة «الإيمان» أو ما يسمى بعقد القلب، ولما كان الإيمان أشرف هذه المراحل، ثمّ يأتي بعده اليقين، وفي المرحلة الثالثة يأتي التفكير، فقد وردت هذه المراحل حسب هذا الترتيب في الآيات المذكورة، وإن كانت المراحل من ناحية الوجود الخارجي تبدأ بمرحلة التفكر، ثمّ اليقين، ثمّ الإيمان.

وبتعبير آخر فإنّ أهل الإيمان يرتقون إلى هذه المرحلة من خلال مشاهدة آيات الله سبحانه، أمّا الذين ليسوا منهم فليصلوا إلى مرحلة اليقين أو إلى مرحلة التفكر على أقل التقادير.

وقد ذكر المفسّرون في هذا الباب وجوهاً أُخرى أيضاً، وما قلناه هو الأنسب.

وتقول الآية الأخيرة، إجمالاً للبحوث الماضية، وتبياناً لعظمة آيات القرآن وأهمّيتها: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

هل أنّ كلمة ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات القرآن، أم إلى آيات الله والعلامات الدالة عليه في الآفاق والأنفس، والتي مرّت الإشارة إليها في الآيات السابقة؟

كلٌّ محتمل، إلاّ أنّ الظاهر هو أنّ المراد الآيات القرآنية بقرينة التعبير بالتلاوة، غاية ما في الأمر أنّ هذه الآيات القرآنية آيات الله سبحانه في كلّ عالم الوجود، وعلى هذا فيمكن الجمع بين التّفسيرين (فتأمل!).

وعلى أية حال، فإنّ (التلاوة) من مادة (تلو) أي الإتيان بالكلام بعد الكلام متعاقباً، وبناء على هذا فإنّ تلاوة آيات القرآن تعني قراءتها بصورة متوالية متعاقبة.

والتعبير بالحق إشارة إلى محتوى هذه الآيات، وهو أيضاً إشارة إلى كون نبوّة النّبي ﷺ والوحي الإلهي حقّاً. وبعبارة أخرى، فإنّ هذه الآيات بليغة معبرة تضمنت في طياتها الاستدلال على حقانيتها وحقانية من جاءها.

وحقاً إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأي شيء سوف يؤمنون؟ ولذلك تعقب الآية: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[(١)].

وعلى قول «الطبرسي» في مجمع البيان، فإنّ الحديث إشارة إلى قصص الأقوام الماضين، وأحداثهم التي تبعث على الاعتبار بهم، في حين أنّ الآيات تقال للدلائل التي تميز الحق من الباطل والصحيح من السقيم، وآيات القرآن المجيد تتحدث عن الإثنين معاً.

حقاً إنّ للقرآن الكريم محتوىً عميقاً من ناحية الاستدلال والبراهين على التوحيد، وكذلك فهو يحتوي على مواعظ وإرشادات تجذب العباد إلى الله سبحانه حتى القلوب التي لها أدنى استعداد - أو أرضية صالحة - ، وتدعو كلّ مرتبط بالحق الى الطهارة والتقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات في أحد فلا أمل في هدايته بعد ذلك.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾

رسمت الآيات السابقة صورة عن فريق يسمعون كلام الله مدعماً بمختلف أدلة التوحيد والمواعظ والإرشاد، فلا يترك أثراً في قلوبهم القاسية.

أمّا هذه الآيات فتتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق، فتقول: أوّلاً: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

«الأفاك» صيغة مبالغة، وهي تعني الشخص الذي يكثر الكذب جدّاً، وتقال أحياناً لمن يكذب كذبة عظيمة حتى وإن لم يكثر من الكذب.

---

(١) للتعبير بـ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ﴾ محذوف، والتقدير: فبأي حديث بعد حديث الله؟

و«الأثيم» من مادة إثم، أي المجرم والعاصي، وتعطي أيضاً صفة المبالغة.

ويتّضح من هذه الآية جيداً أنّ الذين يقفون موقف الخصم العنيد المتعصب أمام آيات الله سبحانه هم الذين غمرت المعصية كيانهم، فانغمسوا في الذنوب والآثام والكذب، لا أُولئك الصادقون الطاهرون، فإنّهم يذعنون لها لطهارتهم ونقاء سريرتهم.

ثمّ تشير الآية التالية إلى كيفية اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[1] ولهذا فإنّه بحكم تلوثه بالذنب والكذب، والغرور والكبر والعجب، يمر كأن لم يسمع كلّ هذه الآيات، وكأنه أصم أو أنّه يعتبر نفسه كذلك، كما ورد ذلك في الآية (٧) من سورة لقمان: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

وتهدده الآية في نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فكما أنّه آذى قلب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين وآلمهم، فإنّنا سنبتليه بعذاب أليم أيضاً، لأنّ عذاب القيامة تجسم لأعمال البشر في الحياة الدنيا.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين ذكر سبب النزول لهذه الآية والآية التي تليها، واعتبروهما إشارة إلى أبي جهل أو النضر بن الحارث، ذلك أنّهم كانوا قد جمعوا قصصاً وأساطير من العجم ليلهوا بها الناس ويصرفوهم عن دين الحق.

لكن من الواضح أنّ هذه الآية لا تختص بهم، بل ولا بمشركي العرب أيضاً، فهي تشمل كلّ المجرمين الكاذبين المستكبرين في كلّ عصر وزمان، وكلّ الذين يصرون كأن لم يسمعوا آيات الله سبحانه ونداءات الأنبياء وكلمات الأئمّة والعظماء، لأنّها لا تنسجم مع شهواتهم وميولهم ورغباتهم المنحرفة، ولا تؤيد أفكارهم الشيطانية، ولا توافق عاداتهم الخاطئة وأعرافهم البالية وتقاليدهم العمياء.

نعم، بشّر كلّ أولئك بالعذاب الأليم.

ولما كان العذاب لا ينسجم مع البشارة، فإنّ هذا التعبير ورد من باب السخرية والاستهزاء.

ثمّ تضيف الآية التي بعدها: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾[2].

---

(١) يمكن أن تكون عبارة ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جملة مستأنفة، أو هي وصف آخر لـ (كل).

(٢) ينبغي الالتفات إلى أنّ ضمير ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ لا يعود على ﴿شَيْـًٔا﴾، بل على ﴿ءَايَٰتِنَا﴾.

في الحقيقة، توجد لدى هؤلاء الجاهلين الأنانيين حالتان:

الأولى: أنّهم غالباً ما يسمعون آيات الله فلا يعبؤون بها، ويمرون عليها دون اهتمام وتعظيم، فكأنّهم لم يسمعوها أيضاً.

والأخرى: أنّهم إذا سمعوها وأرادوا أن يهتموا بها، فسوف يتحركون من موقع الاستهزاء والسخرية، وكلهم مشتركون في هاتين الحالتين، فمرّة هذه، وأُخرى تلك، وبناء على هذا فلا تعارض بين هذه الآية والتي قبلها.

والطريف أنّها تقول أوّلاً: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ ثمّ لا تقول: إنّه يستهزئ فيما بعد بما علم، بل تقول: إنّه يتخذ كلّ آياتنا هزواً، سواء التي علمها والتي لم يعلمها، وغاية الجهل أن ينكر الإنسان شيئاً أو يستهزئ به وهو لم يفهمه أصلاً، وهذا خير دليل على عناد أُولئك وتعصبهم.

ثمّ تصف الآية عقاب هؤلاء في النهاية فتقول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ولم لا يكون الأمر كذلك، فإنّ هؤلاء كانوا يريدون أن يضفوا على أنفسهم الهيبة والعزة والمكانة الاجتماعية من خلال الاستهزاء بآيات الله سبحانه، إلاّ أنّ الله تعالى سيجعل عقابهم تحقيرهم ومذلتهم وهوانهم، ويبتليهم بعذاب القيامة المهين المذل، فيسحبون على وجوههم مصفّدين مكبّلين ثمّ يرمون على تلك الحال في جهنم، ويلاحقهم مع ذلك تقريع ملائكة العذاب وسخريتهم.

ومن هنا يتّضح لماذا وصف العذاب بالأليم في الآية السابقة، وبالمهين هنا، وبالعظيم في الآية التالية، فكلّ منها يناسب نوعية جرم هؤلاء وكيفيته.

وتوضح الآية التالية العذاب المهين، فتقول: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾.

إن التعبير بالوراء مع أنّ جهنّم أمامهم وسيصلونها في المستقبل، يمكن أن يكون ناظراً إلى أنّ هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا ونبذوا الآخرة والعذاب وراء ظهورهم، وهو تعبير مألوف، إذ يقال للإنسان إذا لم يهتم بأمر، تركه وراء ظهره، والقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾(١).

وقال جمع من المفسّرين أيضاً: إنّ كلمة (وراء) من مادة المواراة، وتقال لكلّ شيء خفي على الإنسان وحجب عنه، سواء كان خلفه ولا يراه، أم أمامه لكنّه بعيد لا يراه،

---

(١) سورة الدهر، الآية: ٢٧.

وعلى هذا فإنّ لكلمة (وراء) معنى جامعاً يطلق على مصداقين متضادين[١].

وليس ببعيد إذا قلنا: إنّ التعبير بالوراء إشارة إلى مسألة العلة والمعلول، فمثلاً نقول: إذا تناولت الغذاء الفلاني غير الجيد فستمرض بعد ذلك، أي إنّ تناول الغذاء يكون علة لذلك المرض، وهنا أيضاً تكون أعمال هؤلاء علة لعذاب الجحيم المهين.

وعلى أية حال، فإنّ الآية تضيف مواصلةً الحديث أنّ هؤلاء إن كانوا يظنون أنّ أموالهم الطائلة وآلهتهم التي ابتدعوها ستحل شيئاً من أثقالهم، وأنّها ستغني عنهم من الله شيئاً، فإنّهم قد وقعوا في اشتباه عظيم، حيث: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾.

ولما لم يكن هناك سبيل نجاة وفرار من هذا المصير، فإنّ هؤلاء يجب أن يبقوا في عذاب الله ونار غضبه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ولقد استصغر هؤلاء آيات الله سبحانه، ولذلك سيعظم الله عذابهم، وقد اغتر هؤلاء وتفاخروا فألقاهم الله في العذاب الأليم!

إن هذا العذاب عظيم من كلّ الجهات، فهو عظيم في خلوده، وشدته، وباقترانه بالتحقير والإهانة، وعظيم في نفوذه إلى نخاع وقلوب المجرمين..

نعم... إنّ الذنب العظيم، أمام الله العظيم، لا يكون جزاؤه إلاّ العذاب العظيم.

﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

(١) قال البعض أيضاً: إنّ كلمة (وراء) إنّ أضيفت إلى الفاعل أعطت معنى الوراء، وإن أضيفت إلى المفعول أعطت معنى الأمام. روح البيان، ج ٨، ص ٤٣٩. لكن لا دليل على هذا المدعى.

التّفسير

كل شيء مسخر للإنسان

مواصلة للبحوث التي وردت في الآيات السابقة حول عظمة آيات الله، تتناول هذه الآيات نفس الموضوع، فتقول: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ فهو يميز بين الحق والباطل، ويضيء حياة الإنسان، ويأخذ بيد سالكي طريق الحق ليوصلهم إلى هدفهم ومنزلهم المقصود، لكن: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

«الرجز» يعني الاضطراب والاهتزاز وعدم الانتظار، كما يقول الراغب في مفرداته، وتقول العرب: رجز البعير إذا تقاربت خطواته واضطرب لضعف فيه.

وتطلق هذه الكلمة أيضاً على مرض الطاعون والابتلاءات الصعبة، أو العواصف الثلجية الشديدة، والوساوس الشيطانية وأمثال ذلك، لأنّ كلّ هذه الأُمور تبعث على الاضطراب والتزلزل وعدم الانتظام والانضباط، وإنّما يقال لأشعار الحرب ﴿رِّجْزٍ﴾ لأنّها مقاطع قصيرة متقاربة، أو لأنّها تلقي الرعب والاضطراب بين صفوف الأعداء.

ثمّ تحول زمام الحديث إلى بحث التوحيد الذي مرّ ذكره في الآيات الأولى لهذه السورة، فتعطي المشركين دروساً بليغة مؤثرة في توحيد الله سبحانه ومعرفته.

فتارة تدغدغ عواطفهم، وتقول: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

من الذي أودع في مادة السفن الأصلية خاصية الطفو على الماء وعدم الغطس؟ ومن الذي جعل الماء فراشاً ناعماً لحركتها حتى استطاعت أن تسير فيه بكلّ سهولة ويسر؟ ومن الذي أمر الرياح أن تمرّ على سطح المحيطات بصورة منتظمة لتحرك السفن وتسيّرها؟ أو يحل قوّة البخار محل الهواء ليزيد من سرعة هذه السفن العظيمة؟

نحن نعلم أنّ أكبر وسائط نقل الإنسان وأهمّها في الماضي والحاضر هي السفن الصغيرة والكبيرة، والتي تنقل على مدار السنة ملايين البشر، وأكثر من ذلك البضائع التجارية من أقصى نقاط العالم إلى المناطق المختلفة، وقد تكون السفن أحياناً بسعة مدينة صغيرة، وسكانها بعدد سكانها، وهي مجهزة بمختلف الوسائل والأموال.

حقاً لو لم تكن هذه القوى الثلاث، أفيكون بمقدور الإنسان أن يحل مشاكل حمله

ونقله بواسطة المراكب العادية البسيطة؟ حتى هذه المراكب والوسائط البسيطة هي بحدّ ذاتها من نعمه سبحانه، وهي فعالة في مجالها.

والطريف أنّ الآية (٣٢) من سورة إبراهيم تقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أمّا هنا فإنّ الآية تقول: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ لأنّ التأكيد هناك كان على تسخير البحار، ولذلك اتبعتها بقولها: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أمّا هنا فإن الآية ناظرة إلى تسخير الفلك، وعلى أية حال، فإنّهما معاً مسخران للإنسان بأمر الله سبحانه، وهما في خدمته.

إنّ الهدف من هذا التسخير هو أن تبتغوا من فضل الله، وهذا التعبير يأتي عادة في مورد التجارة والنشاطات الاقتصادية، ومن الطبيعي أنّ نقل المسافرين من مكان الى آخر في ضمن هذا التسخير.

والهدف من الاستفادة من فضل الله هو إثارة حس الشكر لدى البشر، لتعبئة عواطفهم لأداء شكر المنعم، وبعد ذلك يسيرون في طريق معرفة الله سبحانه.

كلمة ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ - وكما قلنا سابقاً - تستعمل للمفرد والجمع.

ولمزيد من التفصيل حول تسخير البحار والفلك، ومنافعها وبركاتها، راجعوا ذيل الآية (١٤) سورة النحل.

بعد بيان السفن التي لها تماس مباشر بحياة البشر اليومية، تطرقت الآية التي بعدها إلى مسألة تسخير سائر الموجودات بصورة عامة، فتقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

فقد كرّمكم إلى درجة أن سخر لكم كلّ موجودات العالم، وجعلها في خدمتكم ولتأمين مصالحكم ومنافعكم، فالشمس والقمر، والرياح والمطر، والجبال والوديان، والغابات والصحاري، والنباتات والحيوانات، والمعادن والمنابع الغنية التي تحت الأرض، وبالجملة فإنّه أمر كلّ هذه الموجودات أن تكون في خدمتكم، ومطيعة لأمركم، ومنفذة لإرادتكم، لتتمتعوا بنعمه ومواهبه سبحانه، ولا تذهلوا في سكرة الغفلة عنه.

ومما يستحق الانتباه أنّه يقول: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(١) فإذا كانت كلّ النعم منه، وهو خالقها

---

(١) ثمّة احتمالات عديدة في إعراب ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وتركيبها، فقد احتمل الزمخشري في الكشاف احتمالين: الأول: إنّ ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ حال لـ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنّها جميعاً مسخرة لكم لكنّها منه=

وربها ومدبرها جميعاً، فلماذا يعرض الإنسان عنه ويلجأ إلى غيره، ويتسكع على أعتاب المخلوقات الضعيفة، ويبقى في غفلة وذهول عن المنعم الحقيقي عليه؟ ولذلك تضيف الآية في النهاية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

لقد كانت الآية السابقة تلامس عاطفة الإنسان وتحاول إثارتها، وهنا تحاول هذه الآية تحريك عقل الإنسان وفكره، فما أعظم رحمة ربّنا سبحانه!! إنّه يتحدث مع عباده بكلّ لسان وأسلوب يمكن أن يطبع أثره، فمرّة بحديث القلب، وأُخرى بلسان الفكر، والهدف واحد من كلّ ذلك، ألا وهو إيقاظ الغافلين ودفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

وقد أوردنا بحثاً مفصلاً حول تسخير مختلف موجودات العالم في ذيل الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة إبراهيم.

ثمّ تطرقت الآية التالية إلى ذكر قانون أخلاقي يحدد كيفية التعامل مع الكفّار لتكمل أبحاثها المنطقية السابقة عن هذا الطريق، فحولت الخطاب إلى النّبي ﷺ وقالت: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾.

فمن الممكن أن تكون معاملة هؤلاء قاسية، وتعبيراتهم خشنة غير مؤدبة، وألفاظهم بذيئة، وذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان وأسس التربية الإلهيّة، غير أنّ عليكم أن تقابلوهم بكلّ رحابة صدر لئلا يصروا على كفرهم ويزيدوا في تعصبهم، فتبعد المسافة بينهم وبين الحق.

إنّ حسن الخلق والصفح ورحابة الصدر يقلل من ضغوط هؤلاء وعدائهم من جهة، كما أنّه يمكن أن يكون عاملاً لجذبهم إلى الإيمان وإقبالهم عليه.

وقد ورد نظير هذا الأمر الأخلاقي كثيراً في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(١).

إنّ التصلب في التعامل مع الجاهلين والإصرار على عقوبتهم لا يثمر في العادة، بل إن تجاهلهم والاعتزاز بالنفس أمامهم هو الأُسلوب الناجح في إيقاظهم، وهو عامل مؤثر في هدايتهم.

= سبحانه. والآخر: إنّه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هي منه جميعاً. واحتمل البعض أيضاً أن تكون تأكيداً لـ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٩.

وليس هذا قانوناً عاماً بالطبع، إذ لا يمكن إنكار وجود حالات لا يمكن معالجتها ومواجهتها إلاّ بالغلظة والشدّة، غير أنّها قليلة.

والنكتة الأُخرى هنا أنّ كلّ الأيّام هي أيّام الله، إلاّ أنّ ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قد أُطلقت على أيّام خاصّة، للدلالة على عظمتها وأهميتها.

لقد ورد هذا التعبير في موضعين من القرآن المجيد: أحدهما في هذه الآية، والآخر في سورة إبراهيم، وله هناك معنىً أوسع وأشمل.

وقد فسّرت «أيّام» في الرّوايات الإسلامية بتفاسير مختلفة، ومن جملتها ما ورد في تفسير علي بن إبراهيم بأنّ أيّام الله ثلاثة: يوم قيام المهدي، ويوم الموت، ويوم القيامة[1].

ونقرأ في حديث آخر عن النّبي الأكرم ﷺ: «أيام الله نعماؤه وبلاؤه ببلائه»[2].

وعلى أية حال، فإنّ هذا التعبير يبين أهمّية يوم القيامة، يوم تجلي حاكمية الله تعالى على كلّ فرد، وعلى كلّ شيء، وهو يوم العدل والقانون والمحكمة الكبرى.

لكن، ومن أجل أنّ لا يستغل مثل هؤلاء الأفراد هذا الصفح الجميل والعفو والتسامي، فقد أضافت الآية: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

لقد اعتبر بعض المفسّرين هذه الجملة تهديداً للكفار والمجرمين، في حين أنّ البعض الآخر اعتبرها بشارة للمؤمنين لهذا العفو والصفح، لكن لا مانع من أن تكون تهديداً لتلك الفئة من جانب، وبشارة لهذه الجماعة من جانب آخر، كما أشير إلى هذا المعنى في الآية التالية أيضاً.

تقول الآية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

إن هذا التعبير الذي ورد في القرآن الكريم مراراً، وبعبارات مختلفة، يشكل جواباً لمن يقول: ماذا يضر عصياننا الله تعالى، وما تنفعه طاعتنا؟ ولماذا هذا الإصرار على طاعة أوامره والانتهاء عن معاصيه؟

فتقول هذه الآيات: إنّ كلّ ضرر ذلك وكلّ نفعه يعود عليكم، فأنتم الذين تسلكون مراقي الكمال في ظل الأعمال الصالحة، وتحلّقون إلى سماء قرب الله عزّوجلّ، كما أنّكم أنتم الذين تهوون إلى الحضيض نتيجة ارتكابكم الآثام والمعاصي، فتبتعدون عن الله عزّوجلّ وتستحقون بذلك اللعنة الأبدية.

(١-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٢٦.

إن كلّ أمور التكليف، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب تهدف إلى هذا المراد السامي، ولذلك يقرر القرآن الحكيم ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾(١)

ويقول في موضع آخر: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾(٢).

ونقرأ في موضع ثالث: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(٣).

وخلاصة القول: إنّ أمثال هذه التعابير تبيّن حقيقة أنّ دعوة الداعين إلى الله سبحانه خدمة للبشر في جميع أبعادها، وليست خدمة لله الغني عن كلّ شيء، ولا لأنبيائه الذين أجرهم على الله فقط.

إنّ الانتباه إلى هذه الحقيقة يعدّ عاملاً مهماً في السير نحو طاعة الله سبحانه، والابتعاد عن معصيته.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

آتينا بني إسرائيل كلّ ذلك، ولكن...

متابعة للبحوث التي وردت في الآيات السابقة حول نعم الله المختلفة وشكرها والعمل الصالح، تتناول هذه الآيات نموذجاً من حياة بعض الأقوام الماضين الذين

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٤١.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٨.

غمرتهم نعم الله سبحانه، إلاّ أنّهم كفروا بها ولم يرعوها حق رعايتها.

تقول الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

تبيّن هذه الآية في مجموعها خمس نعم أنعم الله بها على بني إسرائيل، وبالإضافة إلى النعمة الأُخرى التي سيأتي ذكرها في الآية التالية تشكل ست نعم عظيمة.

النعمة الأولى هي الكتاب السماوي، أي التوراة التي كانت مبينة للمعارف الدينية والحلال والحرام، وطريق الهداية والسعادة.

والثانية مقام الحكومة والقضاء، لأنا نعلم أنّهم كانوا يمتلكون حكومة قوية مترامية الأطراف، فلم يكن داود وسليمان وحدهما حاكمين وحسب، بل إنّ كثيراً من بني إسرائيل قد تسلموا زمام الأُمور في زمانهم وعصورهم.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ في التعبيرات القرآنية يعني عادة القضاء والحكومة، لكن لما كان مقام القضاء يشكل جزءاً من برنامج الحكومة دائماً، ولا يمكن للقاضي أن يؤدّي واجبه من دون حماية الدولة وقوّتها، فإنّه يدل دلالة التزامية على مسألة التصدي وتسلم زمام الأُمور.

ونقرأ في الآية (٤٤) من سورة المائدة في شأن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾.

أمّا النعمة الثالثة فقد كانت نعمة مقام النبوّة، حيث اصطفى الله سبحانه أنبياء كثيرين من بني إسرائيل.

وقد ورد في رواية أنّ عدد أنبياء بني إسرائيل بلغ ألف نبي[١]، وفي رواية أخرى: إنّ عدد أنبياء بني إسرائيل أربعة آلاف نبي[٢].

وكل هذه كانت مواهب ونعماً من الله سبحانه.

وتتحدث الآية في الفقرة الرابعة حديثاً جامعاً شاملاً عن المواهب المادية، فتقول: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

النعمة الخامسة، هي تفوقهم وقوّتهم التي لا ينازعهم فيها أحد، كما توضح الآية ذلك في ختامها فتضيف: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١١٣.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣١، الطبعة الجديدة.

لاشك أنّ المراد من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هنا هم سكان ذلك العصر، لأنّ الآية (١١٠) من سورة آل عمران تقول بصراحة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وكذلك نعلم أنّ الرّسول الأعظم ﷺ هو أشرف الأنبياء وسيدهم، وبناء على هذا فإنّ أمته أيضاً تكون خير الأمم، كما ورد ذلك في الآية (٨٩) من سورة النحل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾.

وتشير الآية التالية إلى الموهبة السادسة التي منحها الله سبحانه لهؤلاء المنكرين للجميل، فتقول: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾.

«البينات» يمكن أن تكون إشارة إلى المعجزات الواضحة التي أعطاها الله سبحانه موسى بن عمران عليه السلام وسائر أنبياء بني إسرائيل، أو أنّها إشارة إلى الدلائل والبراهين المنطقية الواضحة، والقوانين والأحكام المتقنة الدقيقة.

وقد احتمل بعض المفسّرين أن يكون هذا التعبير إشارة إلى العلامات الواضحة التي تتعلق بنبي الإسلام ﷺ، والتي علمها هؤلاء، وكان باستطاعتهم أن يعرفوا نبي الإسلام ﷺ من خلالها كمعرفتهم بأبنائهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾[1].

لكن لا مانع من أن تكون كلّ هذه المعاني مجتمعة في الآية.

وعلى أية حال، فمع وجود هذه المواهب والنعم العظيمة، والدلائل البيّنة الواضحة لا يبقى مجال للاختلاف، إلاّ أنّ الكافرين بالنعم هؤلاء ما لبثوا أن اختلفوا، كما يصور القرآن الكريم ذلك في تتمة هذه الآية إذ يقول: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾.

نعم، لقد رفع هؤلاء راية الطغيان، وأنشبت كلّ جماعة أظفارها في جسد جماعة أخرى، واتخذوا حتى عوامل الوحدة والأُلفة والانسجام سبباً للاختلاف والتباغض والشحناء، وتنازعوا أمرهم بينهم فذهبت ريحهم وضعفت قوتهم، وأفل نجم عظمتهم، فزالت دولتهم، وأصبحوا مشردين في بقاع الأرض ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا.

وقال البعض: إنّ المراد هو الاختلاف الذي وقع بينهم بعد علمهم واطلاعهم الكافي على صفات نبيّ الإسلام ﷺ.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

ويهددهم القرآن الكريم في نهاية الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وبهذا فقد فقدوا قوتهم وعظمتهم في هذه الدنيا بكفرانهم النعمة، واختلافهم فيما بينهم، واشتروا لأنفسهم عذاب الآخرة.

بعد بيان المواهب التي منّ الله تعالى بها على بني إسرائيل، وكفرانها من قبلهم، ورد الحديث عن موهبة عظيمة أهداها الله سبحانه لنبيّ الإسلام ﷺ والمسلمين، فقالت الآية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾.

«الشريعة» تعني الطريق التي تستحدث للوصول إلى الماء الموجود عند ضفاف الأنهر التي يكون مستوى الماء فيها أخفض من الساحل، ثمّ أطلقت على كلّ طريق يوصل الإنسان إلى هدفه ومقصوده.

إنّ استعمال هذا التعبير في مورد دين الحق، بسبب أنّه يوصل الإنسان إلى مصدر الوحي ورضى الله سبحانه، والسعادة الخالدة التي هي بمثابة الماء للحياة المعنوية.

لقد استعملت هذه الكلمة مرّة واحدة في القرآن الكريم، وفي شأن الإسلام فقط.

والمراد من ﴿الْأَمْرِ﴾ هنا هو دين الحق الذي مرّت الإشارة إليه في الآية السابقة أيضاً، حيث قالت: ﴿بَيِّنَتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾.

ولما كان هذا المسير مسير النجاة والنصر، فإنّ الله سبحانه يأمر النّبي ﷺ بعد ذلك أنّ ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾.

وكذلك لما كانت النقطة المقابلة ليس إلاّ اتباع أهواء الجاهلين ورغباتهم، فإنّ الآية تضيف في النهاية: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في الحقيقة، لا يوجد إلاّ طريقان: طريق الأنبياء والوحي، وطريق أهواء الجاهلين وميولهم، فإذا ولّى الإنسان دبره للأوّل فسيقع في الثّاني، وإذا توجه الإنسان إلى ذلك السبيل فسينفصل عن خط الأنبياء ويبتعد عنهم، وبذلك فإنّ القرآن أبطل كلّ البرامج الإصلاحية التي لا تستمد تعليماتها من مصدر الوحي الإلهي.

والجدير بالانتباه أنّ بعض المفسّرين قالوا: إنّ رؤساء قريش أتوا النبي ﷺ وقالوا: ارجع إلى دين آبائك، فإنّهم كانوا أفضل منك وأسلم. وكان النّبي ﷺ لا يزال في مكّة، فنزلت الآية أعلاه[1] وأجابتهم بأنّ طريق الوصول إلى الحق هو الوحي السماوي الذي نزل عليك، لا ما يمليه هوى هؤلاء الجاهلين ورغبتهم.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٧، ص ٢٦٥.

لقد كان القادة المخلصون يواجهون دائماً وساوس الجاهلين هذه عندما يأتون بدين جديد ويطرحون أفكاراً بنّاءة طاهرة، فقد كان الجهال يطرحون عليهم: أأنتم أعلم أم الآباء السابقون والعظماء الذين جاؤوا قبلكم؟ وكانوا يصرون على الاستمرار في ذلك الطريق، وإذا كان مثل هذا الاقتراح يمكن أن ينزل إلى حيز التطبيق والواقع العملي، فليس بوسع الإنسان أن يخطو خطوة في طريق التكامل.

وتعتبر الآية التالية تبياناً لعلة النهي عن الاستسلام أمام مقترحات المشركين وقبول طلباتهم، فتقول: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فإذا ما اتبعت دينهم الباطل وأحاط بك عذاب الله تعالى فإنّهم عاجزون عن أن يهبّوا لنجدتك وإنقاذك، ولو أنّ الله سبحانه سلب منك نعمة فإنّهم غير قادرين على إرجاعها إليك.

ومع أنّ الخطاب في هذه الآيات موجه إلى النّبي ﷺ إلاّ أنّ المراد منه جميع المؤمنين.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فكلهم من جنس واحد، ويسلكون نفس المسير، ونسجهم واحد، وكلهم ضعفاء عاجزون.

لكن لا تذهب بك الظنون بأنّك وحيد، ومن معك قليل ولا ناصر لكم ولا معين، بل: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

صحيح أنّ جمع هؤلاء عظيم في الظاهر، وفي أيديهم الأموال الطائلة والإمكانيات الهائلة، لكن كلّ ذلك لا يعتبر إلاّ ذرة عديمة القيمة إزاء قدرة الله التي لا تقهر، وخزائنه التي لا تفنى.

وكتأكيد لما مرّ، ودعوة إلى اتباع دين الله القويم، تقول آخر آية من هذه الآيات: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

«البصائر» جمع بصيرة، وهي النظر، ومع أنّ هذه اللفظة أكثر ما تستعمل في وجهات النظر الفكرية والنظريات العقلية، إلاّ أنّها تطلق على كلّ الأُمور التي هي أساس فهم المعاني وإدراكها.

والطريف أنّها تقول: إنّ هذا القرآن والشريعة بصائر، أي عين البصيرة، ثمّ إنّها ليست بصيرة، بل بصائر، ولا تقتصر على بعد واحد، بل تعطي الإنسان الأفكار والنظريات الصحيحة في كافة مجالات حياته.

وقد ورد نظير هذا التعبير في آيات أُخرى من القرآن الكريم، كالآية (١٠٤) من سورة الأنعام، حيث تقول: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

وقد طرحت هنا في هذه الآية ثلاثة مواضيع: البصائر والهدى والرحمة، وهي حسب التسلسل علة ومعلول لبعضها البعض، فإنّ الآيات الواضحة والشريعة المبصّرة تدفع الإنسان نحو الهداية، والهداية بدورها أساس رحمة الله.

والجميل في الأمر أنّ الآية تذكر أنّ البصائر لعامة الناس، أمّا الهدى والرحمة فخصت الموقنين بهما، ويجب أن يكون الأمر كذلك، لأنّ آيات القرآن ليست مقصورة على قوم بالخصوص، بل يشترك فيها كلّ البشر الذين دخلوا في كلمة (الناس) في كلّ زمان ومكان، غير أنّ من الطبيعي أن يكون الهدى فرع اليقين، وأن تكون الرحمة وليدته، فلا تشمل الجميع حينئذ.

وعلى أية حال، فإنّ ما تقوله الآية من أنّ القرآن عين البصيرة، وعين الهداية والرحمة، تعبير جميل يعبر عن عظمة هذا الكتاب السماوي وتأثيره وعمقه بالنسبة لأُولئك السالكين طريقه، والباحثين عن الحقيقة.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾

التّفسير

ليسوا سواءً محياهم ومماتهم

متابعة للآيات السابقة التي كان الكلام فيها يدور حول فئتين هما: المؤمنون والكافرون، أو المتقون والمجرمون، فإنّ أولى هذه الآيات قد جمعتهما في مقارنة أصولية بينهما، فقالت: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

هل يمكن أن يتساوى النور والظلمة، والعلم والجهل، والحسن والقبيح، والإيمان والكفر؟

هل يمكن أن تكون نتيجة هذه الأُمور غير المتساوية متساوية؟

كلاّ، فإنّ الأمر ليس كذلك، إذ المؤمنون ذوو الأعمال الصالحات يختلفون عن المجرمين الكافرين، ويفترقون عنهم في كلّ شيء، إذ إنّ كلاً من الإيمان والكفر، والعمل الصالح والطالح، يصبغ كلَّ الحياة بلونه.

وهذه الآية نظير الآية (٢٨) من سورة ص، حيث تقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾؟

أو كالآيتين ٣٥، ٣٦، من سورة القلم حيث: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟

﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾ في الأصل من الجرح الذي يصيب بدن الإنسان إثر إصابته بحادث، ولما كان ارتكاب الذنب والمعصية كأنّما يجرح روح المذنب، فقد استعملت كلمة الاجتراح بمعنى ارتكاب الذنب، وتستعمل أحياناً بمعنى أوسع يدخل فيه كلّ اكتساب، وإنّما يقال لأعضاء البدن: جوارح، لأنّ الإنسان يحقق مقاصده ورغباته بواسطتها، ويحصل على ما يريد، ويكتسب ما يشاء بواسطتها.

وعلى أية حال، فإنّ الآية تقول: إنّه لظن خاطئ أن يتصوروا أنّ الإيمان والعمل الصالح، أو الكفر والمعصية، لا يترك أثره في حياة الإنسان، فإنّ حياة هذين الفريقين ومماتهم يتفاوتان تماماً:

فالمؤمنون يتمتعون باطمئنان خاص في ظلّ الإيمان والعمل الصالح، بحيث لا تؤثر في نفوسهم أصعب الحوادث وأقساها، في حين أنّ الكافرين والملوثين بالمعصية والذنوب مضطربون دائماً، فإن كانوا في نعمة فهم معذبون دائماً من خوف زوالها وفقدانها، وإن كانوا في مصيبة وشدّة فلا طاقة لهم على تحملها ومواجهتها.

وتصور الآية (٨٢) من سورة الأنعام حال المؤمنين، فتقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

إنّ المؤمنين مطمئنون بمواعيد الله سبحانه، وهم يرتعون في رحمته ولطفه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾(١).

فنور الهداية يضيء قلوب الفريق الأوّل لتشرق بنور ربّها، فيسيرون بخطى ثابتة نحو

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥١.

هدفهم المقدس: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١].

أمّا الفريق الثّاني، فليس لديهم هدف واضح يطمحون إلى بلوغه، ولا هدى بيّن يسيرون في ظله، بل هم سكارى تتقاذفهم أمواج الحيرة في بحر الضلالة والكفر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.

هذا في الحياة الدنيا، أما عند الموت الذي هو نافذة تطل على عالم البقاء، وباب للآخرة، فإنّ الحال كما تصوره الآية (٣٢) من سورة النحل حيث تقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أمّا المجرمون الكافرون، فإنّ الآيتين (٢٨) - (٢٩) من سورة النحل تتحدثان معهم بأسلوب آخر، فتقولان: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾.

وخلاصة القول، فإنّ التفاوت والاختلاف موجود بين هاتين الفئتين في كافة شؤون الحياة والموت، وفي عالم البرزخ والقيامة[٢].

أمّا الآية التالية فإنّها في الحقيقة تفسير لسابقتها وتعليل لها، إذ تقول: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فكل العالم يوحي بأنّ خالقه قد خلقه وجعله يقوم على محور الحق، وأن يحكم العدل والحق كلّ مكان، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يجعل الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمجرمين الكافرين، فيكون هذا الأمر استثناء من قانون الخلقة؟

من الطبيعي أنّه يجب أن يتمتع أُولئك الذين يتحركون حركة تنسجم مع قانون الحق والعدالة هذا، ولا يحيدون عنه ببركات عالم الوجود وينعمون بألطاف الله سبحانه، كما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) ثمّة احتمالات أُخرى في تفسير الآية المذكورة ومن جملتها ما ذكر من أنّ المراد من جملة ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أنّ موت المجرمين الكافرين وحياتهم واحد لا فرق فيه، فلا خير فيهم ولا طاعة لهم حال حياتهم، ولا في موتهم، فهم أحياء لكنّهم أموات، وعلى هذا التّفسير فإنّ كلا الضميرين يعودان على المجرمين.

والاحتمال الآخر: أنّ المراد من الحياة يوم القيامة، أي أنّ المؤمنين والكافرين لا يتساوون عند الموت وعند بعثهم يوم القيامة. إلاّ أن ظاهر الآية هو ما ذكرناه أعلاه.

يجب أن يكون أولئك الذين يسيرون عكس هذا الطريق ويخالفون القانون طعمة للنّار المحرقة، ومحطاً لغضب الله عزّ وجلّ، وهذا ما تقتضيه العدالة.

ومن هنا يتّضح أنّ العدالة لا تعني المساواة، بل العدالة أن يحصل كلّ فرد على ما يناسبه من المواهب والنعم حسب مؤهلاته وقابلياته.

وكذلك فإنّ الآية الأخيرة من هذه الآيات توضيح وتعليل آخر لعدم المساواة بين الكافرين والمؤمنين، إذ تقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وهنا سؤال يطرح نفسه، وهو: كيف يمكن أن يتخذ الإنسان إلهه هواه؟

غير أنّ من الواضح الجلي أنّ الإنسان عندما يضرب صفحاً عن أوامر الله سبحانه، ويتبع ما تمليه عليه شهواته، ويقدم طاعتها على طاعة الله سبحانه ويعتبر ذلك حقّاً، فقد عبد هواه، وهذا عين معنى العبادة، إذ إنّ أحد المعاني المعروفة للعبادة هو الطاعة.

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير ممّا يبيّن هذا المعنى كعبادة الشيطان أو عبادة أحبار اليهود، فيقول القرآن - مثلاً - في الآية (٦٠) من سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.

ويقول في الآية (٣١) من سورة التوبة: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وجاء في حديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أنّهما قالا: «أما والله ما صاموا لهم، ولا صلوا، ولكنّهم أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً، فاتبعوهم، وعبدوهم من حيث لا يشعرون»(١).

غير أنّ بعض المفسّرين يعتبر هذا التعبير إشارة إلى الوثنيين من قريش، الذين إذا ما عشقوا شيئاً وأحبوه صنعوا على صورته صنماً ثمّ عبدوه وعظموه، وكلما رأوا شيئاً آخر أعجبهم أكثر من صنمهم أعرضوا عن الأوّل وتوجهوا إلى عبادة الثّاني، وعلى هذا فإنّ إلههم كان الشيء الذي ترتضيه أنفسهم وتهواه(٢).

إلاّ أنّ تعبير: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أكثر انسجاماً مع التّفسير الأوّل.

أما في مورد جملة: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ فالتّفسير المعروف هو أنّ الله سبحانه قد

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠٩. (٢) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٥.

أضلهم لعلمه بأنّهم لا يستحقون الهداية، وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء قد أطفأوا بأيديهم كلّ مصابيح الهداية وحطموها، وأغلقوا في وجوههم كلّ سبل النجاة، ودمروا وراءهم جسور العودة إلى طريق الحق، فعند ذلك سلبهم الله تعالى رحمته ولطفه، وأفقدهم القدرة على تشخيص الصالح من الطالح، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، وكأنّما ختم على قلبهم وسمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة.

وما كلّ ذلك في الحقيقة إلاّ آثار لما اختط هؤلاء لأنفسهم من مسير، ونتيجة مشؤومة لعبادة الآلهة التي اتخذوها.

ولا صنم في الحقيقة أخطر من اتباع هوى النفس الذي يوصد كلّ أبواب الرحمة وطرق النجاة بوجه الإنسان؟ وكم هو بليغ وعميق الحديث المروي عن الرّسول الأكرم ﷺ: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى»[(١)].

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يعتبر هذه الجملة إشارة إلى أنّ متبعي الهوى هؤلاء قد اختاروا طريق الضلالة طريقاً لهم عن علم ودراية، لأنّ العلم لا يقارن الهداية دائماً، كما لا تكون الضلالة دائماً قرينة الجهل.

إنّ العلم الذي يتمسك الإنسان بلوازمه أساس الهداية، فعليه كي يصل إلى مراده وهدفه أن يتحرك على هدي هذا العلم، وألا يكون كأُولئك الكفّار العنودين الذين قال بحقهم القرآن: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[(٢)] [(٣)].

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب بملاحظة أنّ مرجع الضمائر في الآية إلى الله سبحانه، لأنّها تقول: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾.

ممّا قلناه يتّضح جيداً أنّ الآية لاتدل - من قريب أو بعيد - على مذهب الجبرية، بل هي تأكيد على أصل الاختيار وتعيين الإنسان مصيره بنفسه.

لقد أوردنا بحوثاً أكثر تفصيلاً وإيضاحاً حول ختم الله على قلب الإنسان وسمعه، وإلقاء الغشاوة على قلبه في ذيل الآية (٧) من سورة البقرة[(٤)].

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٨٧، وتفسير روح البيان، وتفسير المراغي ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) سورة النمل، الآية: الآية ١٤.

(٣) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ١٧٣.

(٤) التّفسير الأمثل، ج ١، ذيل الآية (٧) من سورة البقرة.

ملاحظات

١ - أخطر الأصنام صنم هوى النفس

قرأنا في حديث أنّ أبغض الآلهة إلى الله هوى النفس، ولا مبالغة في هذا الحديث قط، لأنّ الأصنام العادية موجودات لا خصائص لها ولا صفات فعالة مهمة، أما صنم الهوى، فإنّه يغوي الإنسان ويسوقه إلى ارتكاب أنواع المعاصي، والانزلاق في هاوية الانحراف.

وبصورة عامّة، يمكن القول بأنّ لهذا الصنم من الخصوصيات ما جعله مستحقاً لصفة أبغض الآلهة والأصنام، فهو يزين القبائح والسيئات في نظر الإنسان حتى يصل إلى درجة يفخر عندها بتلك الأعمال الطالحة، ويكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

٢ - أفضل طريق لنفوذ الشيطان هو اتباع الهوى

فما دام الشيطان لا يمتلك قاعدة وأساساً يستند إليه في داخل الإنسان، فلا قدرة له على الوسوسة ودفع الإنسان إلى الانحراف والمعصية، وما تلك القاعدة والأساس إلاّ اتّباع الهوى، وهو ذات الشيء الذي أسقط الشيطان وأرداه، وطرده من صف الملائكة، وأبعده عن مقام القرب من الله.

٣ - إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية

وهي الإدراك الصحيح للحقائق، ويلقي الحجب على عقل الإنسان وعينه، وقد أشارت هذه الآيات إلى هذا الموضوع بصراحة بعد ذكر مسألة اتباع الهوى واتخاذه إلهاً، وآيات القرآن الأُخرى شاهدة على هذه الحقيقة أيضاً.

٤ - إنّ اتباع الهوى يوصل الإنسان إلى مرحلة محاربة الله

كما ابتلي بها إمام عباد الهوى - أي الشيطان الرجيم - فاعترض على حكمة الله سبحانه لمّا أمره بالسجود لآدم، واعتبره أمراً عارياً عن الحكمة!

٥ - عواقب اتباع الهوى مشؤومة وأليمة

بحيث إنّ لحظة من لحظات اتباع الهوى قد يصاحبها عمر من الندامة والأسف

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

والحسرة، ولحظة - يُتبع فيها الهوى - قد تجعل كلّ حسنات الإنسان وأعماله الصالحة التي عملها طوال عمره هباءً منثوراً، ولذلك ورد التأكيد على الحيطة واليقظة في هذا الأمر والتحذير الشديد منه في آيات القرآن والرّوايات الإسلامية.

فقد ورد في الحديث المعروف عن النّبي ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي (اتّباع) الهوى وطول الأمل، أما الهوى فإنّه يصد عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة»(١).

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه سئل: أي سلطان أغلب وأقوى؟ قال: «الهوى»(٢).

وجاء في حديث آخر عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: وعزتي وعظمتي، وجلالي وبهائي، وعلوي وارتفاع مكاني، لا يؤثر عبد هواي على هواه إلاّ جعلت همّه في آخرته، وغناه في قلبه، وكففت عنه ضيعته، وضمنت السماوات والأرض رزقه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٣).

وورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»(٤).

وأخيراً ورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إني لأرجو النجاة لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلاّ لأحد ثلاثة: صاحب سلطان جائر، وصاحب هوى، والفاسق المعلن»(٥).

وفي هذا الباب آيات وروايات كثيرة غنية المضمون.

وننهي هذا الحديث بجملة عميقة المعنى ذكرها البعض كسبب نزول، وكشاهد على مرادنا، فيقول أحد المفسّرين: طاف أبو جهل بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النّبي ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنّه صادق.

فقال له: مه، وما دلّك على ذلك؟

قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمّ عقله، وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن! والله إنّي لأعلم أنّه صادق.

(١-٣) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٧٥، ٧٦، ٧٧.
(٤) أصول الكافي، ج ٢ باب اتباع الهوى، ح ١.
(٥) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٧٦.

قال: فما يمنعك من أن تصدقه وتؤمن به؟

قال: تتحدث عني بنات قريش أني اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة! واللات والعزى لن أتبعه أبداً.

فنزلت الآية: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾[1].

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

التّفسير

عقائد الدهريين

في هذه الآيات بحث آخر حول منكري التوحيد، غاية ما هناك أنّه ذكر هنا اسم جماعة خاصّة منهم، وهم «الدهريون» الذين ينكرون وجود صانع حكيم لعالم الوجود مطلقاً، في حين أنّ أكثر المشركين كانوا يؤمنون ظاهراً بالله، وكانوا يعتبرون الأصنام شفعاء عند الله، فتقول الآية أولاً: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فكما يموت من يموت منّا، يولد من يولد منّا وبذلك يستمر النسل البشري: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وبهذا فإنّهم ينكرون المعاد كما ينكرون المبدأ، والجملة الأُولى ناظرة إلى إنكارهم المعاد، أمّا الجملة الثّانية فتشير إلى إنكار المبدأ.

والجدير بالانتباه أنّ هذا التعبير قد ورد في آيتين أُخريين من آيات القرآن الأُخرى، فنقرأ في الآية (٢٩) من سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

وجاء في الآية (٣٧) من سورة المؤمنون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

إلاّ أنّ التأكيد في الآيتين على إنكار المعاد وحسب، ولم يرد إنكار المبدأ والمعاد معاً إلاّ في هذه الآية مورد البحث.

ومن الواضح أنّ هؤلاء إنّما كانوا يؤكدون على المعاد أكثر من المبدأ لخوفهم واضطرابهم منه الذي قد يغيّر مسير حياتهم المليئة بالشهوات والخاضعة لها.

---

(١) تفسير المراغي، ج ٢٥، ص ٢٧.

وقد ذكر المفسّرون عدّة تفاسير لجملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ :

الأوّل: وهو ما ذكرناه، بأنّ الكبار يغادرون الحياة ليحل محلهم المواليد.

الثّاني: أنّ الجملة من قبيل التأخير والتقديم، ومعناها: إنّنا نحيا ثمّ نموت، ولا شيء غير هذه الحياة والموت.

الثّالث: أنّ البعض يموتون ويبقى البعض الآخر، وإن كان الجميع سوف يموتون في النهاية.

الرّابع: أننا كنا في البداية أمواتاً لا روح فينا، ثمّ مُنحنا الحياة ودبت فينا.

غير أنّ التّفسير الأوّل هو أنسب الجميع وأفضلها.

وعلى أية حال، فإنّ جماعة من الماديين في العصور الخالية كانوا يعتقدون أنّ الدهر هو الفاعل أو الزمان في هذا العالم - أو بتعبير جماعة آخرين: إنّ الفاعل هو دوران الأفلاك وأوضاع الكواكب - وكانوا يُنهون سلسلة الحوادث إلى الأفلاك، ويعتقدون أنّ كلّ ما يقع في هذا العالم بسببها[1]، حتى أنّ جماعة من فلاسفة الدهريين وأمثالهم كانوا يقولون بوجود عقل للأفلاك، ويعتقدون أنّ تدبير هذا العالم بيدها.

إن هذه العقائد الخرافية انقرضت بمرور الزمان، خاصّة وقد ثبت بتقدم علم الهيئة عدم وجود شيء باسم الأفلاك - الكرات المتداخلة الصافية - في الوجود الخارجي أصلاً، وأن لنجوم العالم العلوي بناء كبناء الكرة الأرضية بتفاوت ما، غاية ما في الأمر أنّ بعضها مظلم ويكتسب نوره من الكرات الأُخرى، وبعضها الآخر مشتعل ومنير.

إنّ الدهريين كانوا يذمون الدهر ويسبونه أحياناً عندما تقع حوادث مرّة مؤلمة، غير أنّه ورد في الأحاديث الإسلامية عن النّبي الأكرم ﷺ: «لا تسبوا الدهر، فإنّ الله هو الدهر»[2]، وهو إشارة إلى أنّ الدهر لفظ ليس إلاّ، فإنّ الله سبحانه هو مدبر هذا العالم ومديره، فإنّكم إنّ أسأتم القول بحق مدبر هذا العالم ومديره، فقد أسأتم بحق الله عزّ وجلّ من حيث لا تشعرون.

---

(١) احتمل البعض احتمالاً خامساً في تفسير هذه الجملة، وهو أنّها إشارة إلى عقيدة التناسخ التي كان يعتقد بها جمع من الوثنيين، حيث كانوا يقولون: إنّنا نموت دائماً ثمّ نحيا في أبدان أُخرى في هذا العالم. إلاّ أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع جملة ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ والتي تتحدث عن الهلاك والفناء فقط. (فتأمل!).

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٧٨.

والشاهد على هذا الكلام حديث آخر روي كحديث قدسي عن الله تعالى أنّه قال: «يؤذيني ابن آدم يسبّ الدهر، وأنا الدهر! بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»[١].

لكن قد استعمل الدهر في بعض التعبيرات بمعنى أبناء الأيّام، وأهل الزمان الذين شكا العظماء من عدم وفائهم، كما نقل في الشعر المنقول عن الإمام الحسين عليه السلام، حيث أنشد ليلة عاشوراء:

يا دهر أفّ لك من خليلِ كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحبٍ وطالبٍ قتيلِ والدهر لا يقنع بالقليلِ[٢]

وعلى هذا فللدهر معنيان: الدهر بمعنى الأفلاك والأيّام، والذي كان محل اهتمام الدهريين، حيث كانوا يظنونه حاكماً على نظام الوجود وحياة البشر. والدهر بمعنى أهل العصر والزمان وأبناء الأيّام.

ومن المسلّم أنّ الدهر بالمعنى الأوّل أمر وهمي، أو نقول إنّه اشتباه في التعبير حيث أطلق اسم «الدهر» بدل اسم الله المتعالي الحاكم على كلّ عالم الوجود. أمّا الدهر بالمعنى الثّاني فهو الشيء الذي ذمه كثير من الأئمة والعظماء، لأنّهم كانوا يرون أهل زمانهم مخادعين مذبذبين لا وفاء لهم.

على أية حال، فإنّ القرآن الكريم أجاب هؤلاء العبثيين بجملة وجيزة عميقة، تلاحظ في موارد أُخرى من القرآن الكريم أيضاً، فقال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

وقد ورد نظير هذا المعنى في الآية (٢٨) من سورة النجم في من يظنون أنّ الملائكة بنات الله سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في القول بقتل المسيح، النساء - ١٥٧، وعقيدة مشركي العرب في الأصنام، يونس - ٦٦.

وهذا أبسط وأوضح دليل يلقى على هؤلاء بأنّكم لا تملكون أي شاهد أو دليل منطقي على مدعاكم، بل تستندون في دعواكم إلى الظن والتخمين فقط.

وأشارت الآية التالية إلى إحدى ذرائع هؤلاء الواهية وحججهم الباطلة فيما يتعلق بالمعاد، فقالت: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٥٩٩١. (٢) بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٢.

(٣) ﴿حُجَّتَهُمْ﴾ في الآية المذكورة خبر كان، و﴿أَن قَالُوا۟...﴾ اسمها.

كان هؤلاء يرددون أنّه إذا كانت حياة الأموات وبعثهم حقّاً فأحيوا آباءنا كنموذج لادعائكم، حتى نعرف مدى صدقكم، ولنسألهم عمّا يجري بعد الموت، وهل يصدّقون ما تقولونه أم يكذبونه؟

نعم، هذا هو دليلهم الأجوف لأنّ الله سبحانه قد أبان للبشر قدرته على إحياء الأموات بطرق مختلفة، فإنشاء أوّل إنسان من التراب، وتحولات النطفة العجيبة في الرحم، وخلق السماء الواسعة والأرض، وإحياء الأراضي الميتة بعد هطول الأمطار عليها، ذكرت كلها كأسانيد حية على إمكان القيامة والبعث الجديد، وكأفضل دليل على هذا المعنى، وبعد كلّ هذا لا حاجة إلى دليل آخر.

وبغض النظر عن ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا قد أثبتوا أنّهم لا هدف لهم إلاّ التذرع والتوسل بالحجج، للاستمرار في ضلالهم واعتقادهم المنحرف، فإذا كشف لهم عن مشهد إحياء الأموات فرضاً فرأوه بأم أعينهم، فإنّهم سيقولون مباشرة: إنّه سحر، كما قالوا ذلك في الموارد المشابهة.

إنّ التعبير بـ «الحجة» في مورد قول هؤلاء الفارغ هو كناية في الحقيقة عن أنّ هؤلاء لا دليل لهم إلاّ عدم الدليل.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

التّفسير

الكلّ جاث في محكمة العدل الإلهي

هذه الآيات في الحقيقة جواب آخر على كلام الدهريين، الذين كانوا ينكرون المبدأ

والمعاد، وقد أشير إلى كلامهم، في الآيات السابقة، فتقول الآية أوّلاً: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

لم يكن هؤلاء يعتقدون بالله ولا باليوم الآخر، ومحتوى هذه الآية استدلال عليهما معاً، حيث أكّدت على مسألة الحياة الأولى، وبتعبير آخر، فإنّ هؤلاء لا يستطيعون أن ينكروا أصل وجود الحياة الأولى، ونشأة الموجودات الحية من موجودات ميتة، وهذا يشكل من جهة دليلاً على وجود عقل وعلم كلي شامل، إذ هل يمكن أن توجد الحياة على هذه الهيئة المدهشة، والتنظيم الدقيق، والأسرار العجيبة المعقدة، والصور المتعددة، والتي أذهلت عقول كلّ العلماء، من دون أن يكون لها خالق قادر عالم؟

ولهذا نرى آيات القرآن المختلفة تؤكّد على مسألة الحياة كأحد آيات التوحيد وأدلته البينة.

ومن جهة أخرى، تقول لهم: كيف يكون القادر على إنشاء الحياة الأولى عاجزاً عن إعادتها ثانياً؟

أمّا التعبير بـ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ حول القيامة، والذي يخبر عن حتمية وقوعها وحدوثها، لا عن إمكانها، فهو إشارة إلى قانون العدل الإلهي، حيث لم يصل كلّ صاحب حق الى حقّه في هذه الحياة الدنيا، ولم يلاق كلّ المعتدين والظالمين جزاءهم، ولولا محكمة القيامة العادلة، فان العدالة الإلهية لا مفهوم لها حينئذ.

ولما كان كثير من الناس لا يتأمل هذه الدلائل ولا يدقق النظر فيها، فإنّ الآية تضيف في النهاية: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ أحد أسماء يوم القيامة المار ذكره في هذه الآية هو: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ لأنّ جميع الخلق من الأولين والآخرين، وعلى اختلاف طبقات البشر وأصنافهم يجمعون في ذلك اليوم في مكان واحد، وقد ورد هذا التعبير في عدّة آيات أُخرى من القرآن الكريم أيضاً، ومن جملتها الشورى - ٧، والتغابن - ٩.

أمّا الآية التالية فهي دليل آخر على مسألة المعاد، وقد قرأنا الشبهة المطروحة حوله في آيات القرآن الأُخرى، فتقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلما كان مالكاً لتمام عالم الوجود الواسع وحاكماً عليه، فمن المسلّم أن يكون قادراً على إحياء الموتى، ومع وجود تلك القدرة المطلقة لا تكون عملية الإحياء بالأمر العسير.

لقد جعل الله سبحانه هذا العالم مزرعة للآخرة، ومتجراً وافر الربح إلى ذلك العالم،

ولذلك يقول سبحانه في نهاية الآية: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ لأنّهم فقدوا رأس مالهم - وهو العمر - ولم يتّجروا فيه، ولم يشتروا متاعاً إلاّ الحسرة والندم.

إنّ الحياة والعقل والذكاء ومواهب الحياة الأُخرى هي رأس مال الإنسان في سوق التجارة هذا، لكن اتباع الباطل يبادلونه بمتاع فان سريع الزوال، ولذلك فإنّهم حين يأتون يوم القيامة، يوم لا ينفع إلاّ القلب السليم والإيمان والعمل الصالح سيرون خسارتهم الباهظة بأُم أعينهم، ولات ساعة مندم.

﴿يَخْسَرُ﴾ من الخسران، وهو فقدان رأس المال، وينسب أحياناً إلى نفس الإنسان - كما يقول الراغب في المفردات - فيقال: خسر فلان، وأحياناً إلى تجارته فيقال: خسرت تجارته.

إلاّ أنّ أبناء الدنيا لا يستعملون هذا التعبير إلاّ في موارد المال والمقام والمواهب المادية، مع أنّ الأهم من الخسارة المادية هو فقدان رأس مال العقل والإيمان والثواب.

أمّا «المبطل» - من مادة «إبطال» - فلها في اللغة معان مختلفة، كإبطال الشيء، والكذب، والاستهزاء والمزاح، وطرح أمر باطل وذكره، وكلّ هذه المعاني يمكن أن تقبل في مورد الآية.

الأشخاص الذين أبطلوا الحق، والذين نشروا عقيدة الباطل وأهدافه، والذين كذبوا أنبياء الله، وسخروا من كلامهم، سيرون خسرانهم المبين في ذلك اليوم.

وتجسّد الآية التالية مشهد القيامة بتعبير بليغ مؤثر جدّاً، فتقول: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾.

يستفاد من بعض كلمات المفسّرين أنّ أصحاب الدعوى في الماضي كانوا يجلسون على هذه الهيئة في مجلس القضاء ليميزوا عن الآخرين، وسيجثو الجميع يوم القيامة في تلك المحكمة الكبرى لتتم محاكمتهم.

ويمكن أيضاً أن يكون هذا التعبير علامة على استعدادهم لتقبل أي أمر أو حكم يصدر بحقّهم، لأنّ من كان على أهبة الاستعداد يجثو على الركب.

أو أنّه إشارة إلى ضعف هؤلاء وعجزهم وخوفهم واضطرابهم الذي سيعانونه، وجمع كلّ هذه المعاني في مفهوم الآية ممكن أيضاً.

وللجاثية معان أُخرى، من جملتها الجمع الكثير المتراكم، أو جماعة جماعة،

ويمكن أن تكون إشارة إلى تراكم البشر وازدحامهم في محكمة العدل الإلهي، أو جلوس كلّ أمة وفئة على حدة وبمعزل عن الأمم الأخرى. إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب والأشهر.

ثمّ تبيّن الآية ثاني مشاهد القيامة، فتقول: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإنّ هذا الكتاب صحيفة أعمال سجلت فيها كلّ الحسنات والسيئات، والقبائح والأفعال الجميلة، وأقوال الإنسان وأعماله، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾(١).

وتعبير ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ يوحي بأنّ لكلّ أُمة كتاباً يتعلق بأفرادها جميعاً، إضافة إلى صحيفة الأعمال الخاصّة بكلّ فرد، ولا يبدو هذا الأمر عجيباً إذا علمنا أنّ للإنسان نوعين من الأعمال: الأعمال الفردية، والأعمال الجماعية، ولذلك فإن وجود نوعين من صحائف الأعمال يبدو طبيعياً جدّاً من هذه الناحية(٢).

والتعبير بـ«تدعى» يوحي بأنّ هؤلاء يدعون إلى قراءة ما في كتبهم، وهذا المعنى نظير ما ورد في الآية (١٤) من سورة الإسراء: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

ثمّ يأتيهم الخطاب من قبل الله مرّة أُخرى، فيقول مؤكّداً: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فقد كنتم تفعلون كلّ ما يحلو لكم، ولم تكونوا تصدّقون مطلقاً أنّ كلّ أعمالكم هذه تسجل في مكان ما، ولكن ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿نَسْتَنسِخُ﴾ من مادة «استنساخ»، وهي في الأصل مأخوذة من النسخ، وهو إزالة الشيء بشيء آخر، فيقال مثلاً: نسخت الشمس الظل. ثمّ استعملت في كتابة كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحى الكتاب الأوّل.

وهنا يبدو سؤال، وهو: إذا كان الله سبحانه قد أمر باستنساخ أعمال ابن آدم، ذلك يستلزم أن يكون هناك كتاب قبل النسخ تكتب فيه تلك الأعمال؟ ولذلك فإنّ البعض يعتقد أنّ صحائف أعمال كلّ البشر قد كتبت في اللوح المحفوظ، والملائكة الموكلون بحفظ أعمال الإنسان يستنسخونها من ذلك اللوح المحفوظ.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٢) احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب في الآية أعلاه، هو الكتاب السماوي الذي أنزل على تلك الأمة. إلاّ أنّ ظاهر الآية يدل على أنّه صحيفة الأعمال، خاصة بملاحظة الآية التالية، وأكثر المفسّرين على ذلك أيضاً.

إلاّ أنّ هذا المعنى لا يتلاءم كثيراً مع الآية مورد البحث، بل الملائم أحد معنيين هما: إمّا أن يكون الإستنساخ هنا بمعنى أصل الكتابة - كما قاله بعض المفسّرين -، أو أنّ نفس أعمال الإنسان كالكتاب التكويني تنسخ عنه الملائكة الحفظة وتصوره، ولذلك فقد ورد في آيات أُخر من القرآن الكريم التعبير بالكتابة بدل الاستنساخ، كما نقرأ ذلك في الآية (١٢) من سورة يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾(١).

وقد ورد تفصيل أوسع حول أنواع الكتب التي تسجل فيها الأعمال - صحيفة الأعمال الشخصية، وصحيفة أعمال الأُمم، والكتاب الجامع العام لكلّ أفراد البشر - في ذيل الآية (١٢) من سورة يس.

وتبيّن الآية التالية الجلسة الختامية للمحكمة وإصدار قرار الحكم، حيث تنال كلّ فئة جزاء أعمالها، فتقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

إن ذكر «فاء التفريع» هنا دليل على أنّ نتيجة حفظ الأعمال والمحاسبة وتلك المحكمة الإلهية العادلة، هي دخول المؤمنين في رحمة الله سبحانه.

وطبقاً لهذه الآية، فإنّ الإيمان - وحده - غير كاف لأنّ يجعل المؤمنين يتنعمون بهذه الموهبة العظيمة والعطية الجزيلة، بل إنّ العمل الصالح شرط لذلك أيضاً.

والتعبير بـ﴿رَبُّهُمْ﴾ يحكي عن لطف الله الخاص، يكتمل بتعبير «الرحمة» بدل «الجنّة».

وتبلغ بهم نهاية الآية أوج الكمال حينما تقول: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

إنّ لـ«رحمة الله» معنى واسعاً يشمل الدنيا والآخرة، وقد أطلقت في آيات القرآن الكريم على معان كثيرة، فتارة تطلق على مسألة الهداية، وأُخرى على الإنقاذ من قبضة الأعداء، وثالثة على المطر الغزير المبارك، ورابعة على نعم أُخرى كنعمة النور والظلمة، وأطلقت في موارد كثيرة على الجنّة ومواهب الله سبحانه في القيامة.

جملة ﴿وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ تكررت مرّة أُخرى في الآية (١٦) من سورة الأنعام، غاية ما هناك أنّ الفوز المبين قيل هناك لأُولئك الذين ينجون من عذاب الله عزّوجلّ: ﴿مَن

---

(١) ورد في رواية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إن لله ملائكة ينزلون كلّ يوم يكتبون فيه أعمال بني آدم».
ويقول الشيخ الطوسي في التبيان في ذيل الآية مورد البحث بعد نقل هذه الرواية: ومعنى نستنسخ نستكتب الحفظة ما يستحقونه من ثواب وعقاب، ونلقي ما عداه ممّا أثبته الحفظة، لأنّهم يثبتونه جميعاً.

يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أمّا هنا فقد قيلت فيمن دخل الجنّة وفي رحمة الله، وكلاهما في الواقع فوز عظيم: النجاة من العذاب، والدخول في مستقر رحمة الله سبحانه.

وهنا قد يرد هذا السؤال، وهو: هل أنّ المؤمنين الذين ليس لهم عمل صالح لا يدخلون الجنّة؟

والجواب: إنّهم يدخلونها لكن بعد أن يروا جزاءهم في جهنم حتى يطهروا، فإنّ الذين يردون مستقر رحمة الله هذا بعد الحساب مباشرة هم أصحاب العمل الصالح مضافاً إلى إيمانهم، وحسب.

كلمة «الفوز» - كما يقول الراغب في مفرداته - تعني الظفر المقترن بالسلامة، وقد استعملت في (١٩) مورداً من آيات القرآن المجيد، فوصف الفوز مرّة بالمبين، وأُخرى بالكبير، أمّا في غالب الآيات فقد وصف بالعظيم. وهو مستعمل عادة في شأن الجنّة، إلاّ أنّه استعمل في بعض الموارد في شأن التوفيق لطاعة الله ومغفرة الذنوب وأمثال ذلك.

وتذكر الآية الآتية مصير من يقع في الطرف المقابل لأُولئك السابقين، فتقول: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وممّا يلفت النظر أنّ الكلام في هذه الآية عن الكفر فقط، وأمّا أعمال السوء التي هي عامل الدخول في عذاب الله وسببه فلم يجر لها ذكر، وذلك لأنّ الكفر وحده كاف لأنّ يدخل صاحبه العذاب، أو لأنّ التعبير بالمجرمين في ذيل الآية كاف لبيان هذا المعنى.

والنكتة الأُخرى هنا أنّه لم يرد كلام عن عقوبات الجحيم، بل الكلام عن التوبيخ الإلهي لهم وتقريعهم، وهو يعتبر أشد العذاب وأكبره، وتهون معه الجحيم وكلّ عذابها.

وهنا نكتة تستحق الانتباه، وهي: أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ الله سبحانه لن يعذب أحداً من دون أن يبعث الأنبياء ويرسل الرسل وينزل آياته - أو كما يصطلح عليه تأكيد أحكام العقل بأحكام الشرع - وهذا منتهى لطفه ورحمته سبحانه.

وآخر ملاحظة هي أنّ أكبر مشاكل هؤلاء القوم هو استكبارهم على آيات الله من جهة، وتماديهم في المعصية والإجرام من جهة أُخرى، وهذا يستفاد من جملة ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ
إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم
مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا
يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾

التفسير

يوم تبدو السيئات

الآية الأولى من هذه الآيات توضيح لما ذكر في الآيات السابقة بصورة مجملة، توضيح لمسألة استكبار الكافرين على آيات الله ودعوة الأنبياء، فتقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

التعبير بـ ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ في حين أنّ معنى القيامة لم يكن غامضاً عليهم أو مبهماً، وإن كان شك لديهم ففي وجودها، ممّا يوحي بأنّهم كانوا في موضع تكبر وعدم اهتمام، ولو كانت لدى هؤلاء روح تتبع الحق وطلبه لرأوا أنّ ماهية يوم القيامة أمر واضح، كما أنّ الدليل عليها بيّن جلي، ومن هنا يتّضح الجواب عن سؤال طرح هنا، وهو: أنّ هؤلاء إن كانوا - حقاً - في شكّ من الأمر، فلا تثريب عليهم ولا إثم، لكن الشك لم يكن ناشئاً من عدم وضوح الحق، بل ناتج عن الكبر والغرور والعناد التعصب.

ويحتمل أيضاً أن يكون هدفهم من تهافت كلامهم وتناقضه السخرية والاستهزاء.

وتتحدث الآية التالية عن جزاء هؤلاء وعقابهم، ذلك الجزاء الذي لا يشبه عقوبات المحاكم الدنيوية، فتقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فستتجسد القبائح والسيئات أمام أعينهم، وتتّضح لهم، وتكون لهم قريناً دائماً يتأذون من وجوده إلى جانبهم ويتعذبون من صحبته: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

---

(١) «حاق» من مادة (حوق)، وهي في الأصل بمعنى الورود، والنّزول، والإصابة، والإحاطة. وقال البعض: إنّ أصلها (حق) - بمعنى التحقيق - فأبدلت القاف الأولى إلى واو، ثمّ إلى ألف.

والأشد ألماً من كلّ ذلك هو الخطاب الذي يخاطبهم به الله الرحمن الرحيم، فيقول سبحانه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

لقد ورد هذا التعبير بصيغ مختلفة في القرآن الكريم مراراً، ففي الآية (٥١) من سورة الأعراف: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾.

وجاء هذا المعنى أيضاً بأُسلوب آخر في الآية (١٤) من سورة آلم السجدة.

لاشك أنّ النسيان لا معنى له بالنسبة إلى الله سبحانه الذي يحيط علمه بكلّ عالم الوجود، لكنّه هنا كناية لطيفة عن احتقار الإنسان المجرم العاصي وعدم الاهتمام به، ويلاحظ هذا التعبير حتى في محادثاتنا اليومية، فنقول: انسَ فلاناً الذي لا وفاء له، أي عامله كإنسان منسي، ولا تمنحه المحبة والعطف والوداد، واترك تفقد أحواله، ولا تذهب إليه أبداً.

ثمّ إنّ هذا التعبير تأكيد آخر - بصورة ضمنية - على مسألة تجسم الأعمال، وتناسب الجريمة والعقاب، لأنّ نسيانهم ليوم القيامة في الدنيا يؤدّي إلى أن ينساهم الله يوم القيامة، وما أعظم مصيبة نسيان الله الرحمن الرحيم لفرد من الأفراد، وحرمانه من جميع ألطافه ومننه.

وذكر المفسّرون هنا تفاسير مختلفة للنسيان تتلخص جميعاً في المعنى المذكور أعلاه، ولذلك لا نرى حاجة لتكرارها.

ثمّ إنّ المراد من نسيان لقاء يوم القيامة، نسيان لقاء كلّ المسائل والحوادث التي تقع في ذلك اليوم، سواء الحساب أم غيره، حيث كانوا ينكرونها.

ويحتمل أيضاً أن يكون المراد نسيان لقاء الله سبحانه في ذلك اليوم، لأنّ يوم القيامة قد وصف في القرآن المجيد بيوم لقاء الله، والمراد منه الشهود الباطني.

وتتابع الآية الحديث، فتقول: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ وإذا كنتم تظنون أنّ أحداً سيهبّ لنصرتكم وغوثكم، فاقطعوا الأمل من ذلك، واعلموا أنّه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أمّا لماذا ابتليتم بمثل هذا المصير؟ فـ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وأساساً فإنّ «الغرور» و«الاستهزاء» لا ينفصلان عن بعضهما عادة، فإنّ الأفراد المغرورين والمتكبرين الذين ينظرون إلى الآخرين بعين الاحتقار يتخذونهم هزواً ويسخرون منهم، ومصدر الغرور في الواقع هو متاع الدنيا وقدرتها وثروتها الزائلة المؤقتة، والتي تدع الأفراد الضيقي الصدور في غفلة تامة لا يعيرون معها لدعوة رسل

الله أدنى اهتمام، ولا يكلفون أنفسهم حتى النظر فيها للوقوف على صوابها من عدمه.

وتكرر الآية ما ورد في الآية السابقة وتؤكّده بأُسلوب آخر، فتقول: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(١)، فقد كان الكلام هناك عن مأواهم ومقرهم الثابت، والكلام هنا عن عدم خروجهم من النّار.. حيث قال هناك: ما لهم من ناصرين، وهنا يقول: لا يقبل منهم عذر، والنتيجة هي أنّ لا سبيل لنجاتهم.

وفي نهاية هذه السورة، ولإكمال بحث التوحيد والمعاد، والذي كان يشكل أكثر مباحث هذه السورة، تبيّن الآيتان الأخيرتان وحدة ربوبية الله وعظمته، وقدرته وحكمته، وتذكر خمس صفات من صفات الله سبحانه في هذا الجانب، فتقول أولاً: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ لأنه ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

«الرّب» بمعنى المالك والمدبر، والحاكم والمصلح، وبناء على هذا فكلّ خير وبركة تأتي منه سبحانه ولذلك، ترجع إليه كلّ المحامد والثناء، فحتى الثناء على الورد، وصفاء العيون، وعذوبة النسيم، وجمال النجوم، حمد له وثناء عليه، فإنّها جميعاً تصدر عنه، وتنمو بفضله ورعايته.

والطريف أنّه يقول مرّة: ربّ السماوات، وأُخرى: ربّ الأرض، وثالثة: ربّ عالم الوجود والعالمين، ليفند الاعتقاد بالآلهة المتعددة التي جعلوها للموجودات المختلفة، ويدعو الجميع إلى توحيد الله سبحانه والاعتقاد بأحديته.

وبعد وصف ذاته المقدسة بمقام الحمد والربوبية، تضيف الآية في الصفة الثالثة: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنّ آثار عظمته ظاهرة في السماء المترامية الأطراف، والأرض الواسعة الفضاء، وفي كلّ زاوية من زوايا العالم.

لقد كان الكلام في الآية السابقة عن مقام الربوبية، أي كونه تعالى مالكاً لأُمور عالم الوجود ومدبراً لها، والكلام هنا عن عظمته، فكلما دققنا النظر في خلق السماء والأرض وتأملناه، سنزداد معرفة بهذه الحقيقة، وتزداد بصيرتنا بها.

وأخيراً تقول الآية في الوصفين الرابع والخامس: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وبذلك تكمل مجموعة العلم والقدرة والعظمة والربوبية والمحمودية، والتي هي مجموعة من أهم صفات الله، وأسمائه الحسنى.

---

(١) أعطينا التوضيح اللازم حول معنى ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وأصلها في ذيل الآية (٥٧) من سورة الروم.

ولعلها تشير إلى أنّ: له الحمد فاحمدوه، وهو الرب فاشكروا له، وله الكبرياء فكبروه، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه.

وبوصف الله سبحانه بالعزيز والحكيم تنتهي سورة الجاثية كما بدأت بهما، وكل محتواها وما تضمنته شاهد على عزّة الله سبحانه وحكمته السامية.

اللّهمَّ، إنا نقسم عليك بكبريائك وعظمتك، وبمقام ربوبيتك، وعزتك وحكمتك، أن تثبت أقدامنا في طريق طاعة أوامرك.

اللّهمَّ، إنّ كلّ حمد وثناء نؤدّيه فبتوفيق منك، وكلّ ما لدينا من بركاتك وألطافك، فأدم اللّهمَّ هذه النعم وزدها علينا.

إلهنا: نحن غارقون في بحر إحسانك وكرمك، فوفقنا لأداء شكرك.

سُورَةُ الأَحْقَاف

مكيّة وعدد آياتـها خمسٌ وثلاثون

محتوى السورة

هذه السورة من السور المكية - وإن كان جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ بعض آياتها قد نزلت في المدينة، وسنبحث ذلك في شرح تلك الآيات إن شاء الله تعالى - ولما كان زمان نزولها وظروفه زمان مواجهة الشرك، والدعوة إلى التوحيد والمعاد ومسائل الإسلام الأساسية، فإنها تتحدث حول هذه الأُمور، وتدور حول هذه المحاور.

ويمكن القول باختصار، أنّ هذه السورة تتابع الأهداف التالية:

١ - بيان عظمة القرآن.

٢ - محاربة كلّ أنواع الشرك والوثنية بشكل قاطع.

٣ - توجيه الناس إلى مسألة المعاد ومحكمة العدل الإلهي.

٤ - إنذار المشركين والمجرمين من خلال بيان جانب من قصة قوم عاد، الذين كانوا يسكنون أرض «الأحقاف»، ومنها أُخذ اسم هذه السورة.

٥ - الإشارة إلى سعة دعوة نبيّ الإسلام ﷺ وكونها عامّة تتخطى حتى حدود البشر، أي إنّها تشمل طائفة الجن أيضاً.

٦ - ترغيب المؤمنين وترهيب الكافرين وإنذارهم، وإيجاد دوافع الخوف والرجاء.

٧ - دعوة نبيّ الإسلام ﷺ إلى التحلي بالصبر والاستقامة الى أبعد الحدود، والاقتداء بسيرة الأنبياء الماضين.

فضل هذه السورة

ورد في حديث عن النّبي الأكرم ﷺ في فضل هذه السورة: «من قرأ سورة الأحقاف أُعطي من الأجر بعدد كلّ رمل في الدنيا عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات»[1].

---

(١) تفسير مجمع البيان، بداية سورة الأحقاف.

ولما كانت «الأحقاف» جمع حِقْف، وهي الكثبان الرملية التي تتجمع على هيئات مختلفة، مستطيلة ومتعرجة نتيجة هبوب الرياح في الصحاري، وكان يقال لأرض قوم عاد «الأحقاف» لأنها كانت حصباء على هذه الشاكلة، فإنّ تعبير الحديث أعلاه ناظر إلى هذا المعنى.

ومن البديهي أنّ كلّ هذه الحسنات والدرجات لا تمنح لمجرّد التلاوة اللفظية، بل التلاوة البنّاءة المؤدّية إلى السير في طريق الإيمان والتقوى، ولمحتوى سورة الأحقاف هذا الأثر حقّاً إذا كان الإنسان طالب حقيقة ومستعداً للعمل والتطبيق.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ كلّ ليلة أو كلّ جمعة سورة الأحقاف لم يصبه الله عزّ وجلّ بروعة في الحياة الدنيا، وآمنه من فزع يوم القيامة إن شاء»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

التّفسير

خلق هذا العالم على أساس الحق

هذه السورة هي آخر سورة تبدأ بـ ﴿حمٓ﴾ وتسمى جميعاً الحواميم.

وقد كانت لنا بحوث كثيرة حول الحروف المتقطعة بعامة، و﴿حمٓ﴾ بخاصة، في بدايات سور البقرة وآل عمران والاعراف سور الحواميم السابقة، فلا حاجة لتكرارها هنا. ونكتفي هنا بالقول بأنّ هذه الآيات التي تهزّ الأعماق، وتحرك الوجدان، والتي تضمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطة، من الألف والباء، والحاء والميم وأمثالها، وكفى بها دليلاً على عظمة الله سبحانه إذ أظهر هذا المركّب العظيم من مثل هذه المفردات البسيطة، ولو تأملنا فيه كثيراً، وفكرنا في أسراره حتى القيامة فسيبقى فيه من الأسرار الخافية الكثير الكثير.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ونور الثقلين، ج ٥، ص ٧، بداية سورة الأحقاف.

وربّما كان هذا هو السبب في أن تضيف الآية مباشرة: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

إنّه نفس التعبير الذي ورد في بداية ثلاث سور من الحواميم، وهي: المؤمن، والجاثية، والأحقاف.

ولا شكّ في الحاجة إلى قوّة لا تقهر، وحكمة لا حدّ لها، لكي تنزل مثل هذا الكتاب.

ثمّ تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين، فتحدثت الآية عن عظمة السماوات والأرض وكونهما حقاً، فقالت: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فلا ترى في كتاب سمائه كلمة تخالف الحق، ولا تجد في مجموع عالم خلقه شيئاً نشازاً لا ينسجم والحق، فالكل منسق منتظم، وكله مقترن بالحق.

لكن، كما أنّ لهذا الكون بداية، فإنّ له نهاية أيضاً، ولذلك تضيف الآية: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ فإذا حل الأجل ستفنى الدنيا بما فيها، ولما كان هذا العالم مقترناً بالحق ويسير ضمن منهجه، وله هدف مرجو، فمن الطبيعي أن يوجد عالم آخر تُبحث فيه الأعمال وتعلن فيه النتائج، وبناءً على هذا، فإنّ كون هذا العالم حقّاً دليل بنفسه على وجود المعاد، وإلاّ فإنّه سيكون لغواً وعبثاً لا فائدة فيه، وسيقترن حين ذلك بكثير من المظالم والمفاسد.

لكن مع أنّ القرآن حق، وخلق العالم حق أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ فالآيات القرآنية تهددهم وتنذرهم بصورة متلاحقة متوالية، وتحذرهم بأن محكمة عظمى أمامهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ نظام الخلقة بدقته وأنظمته الخاصّة يدل بنفسه على أنّ في الأمر حساباً ونظاماً، غير أنّ هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

كلمة «معرضون» - من الإعراض - تشير إلى أنّ هؤلاء إذا نظروا إلى آيات التكوين والتدوين فسيدركون الحقائق، إلاّ أنّهم أعرضوا بوجوههم عنها، وفرّوا من الحق لئلا يغير من أسلوب تقاليدهم وأهوائهم وميولهم وشهواتهم واتباعهم لها.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾

التّفسير

أضل الناس

كان الكلام في الآيات السابقة عن خلق السماوات والأرض وأنّها جميعاً من صنع الله العزيز الحكيم، ولازم ذلك أن لا يكون في الكون إله سواه، لأنّ من له أهلية الألوهية هو خالق العالم ومدبره، وهاتان الصفتان قد جمعتا في الذات المقدسة.

ومن أجل تكملة هذا البحث، تخاطب هذه الآيات النّبي ﷺ وتقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

إذا كنتم تقرون بأنّ الأصنام لا دخل لها في خلق الموجودات الأرضية مطلقاً، ولا في خلق الشمسِ والقمر والنجوم وموجودات العالم العلوي، وتقولون بصراحة بأن الله هو خالقها جميعاً(١)، فعلام تمدون أكفكم إلى الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع، ولا تسمع ولا تعقل، تستمدون منها العون في حلّ معضلاتكم، ودفع البلاء عنكم، واستجلاب البركات إليكم؟

وإذا قلتم - على سبيل الفرض -: إنّها شريكة في أمر الخلق والتكوين فـ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وخلاصة القول، فإنّ الدليل إمّا أن يكون نقلياً عن طريق الوحي السماوي، أو عقلياً منطقياً، أو بشهادة العلماء وتقريرهم، أمّا أنتم فلستم مستندين إلى الوحي والكتاب السماوي في دعواكم حول الأصنام، وغير قادرين من طريق العقل على إثبات اشتراكها في خلق السماوات والأرض وبالتالي إثبات كونها آلهة، ولم يرد أثر من أقوال العلماء الماضين ما يؤيد رأيكم ويدعم اعتقادكم، ومن هنا يتبيّن أنّ دينكم ومعتقدكم لا يعدو كونه حفنة من الخرافات المستهجنة، والأوهام الكاذبة.

(١) لقد ورد هذا المعنى في أربع آيات من القرآن، وطالعوا تفصيلاً أكثر حول هذا المطلب في ذيل الآية (٢٥) من سورة الزخرف من التّفسير الأمثل.

بناءً على هذا، فإنّ جملة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ...﴾ إشارة إلى دليل العقل، وجملة ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ إشارة إلى الوحي السماوي، والتعبير بـ ﴿أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ إشارة إلى سنن الأنبياء الماضين وأوصيائهم، أو آثار العلماء السابقين[1]. وقد ذكر علماء اللغة والمفسّرون عدةّ معان لكلمة ﴿أَثَارَةٍ﴾ - على وزن حلاوة - فمنها: بقية الشيء، الرواية، العلامة. لكنّ الظاهر أنّها تعود إلى معنى واحد، وهو الأثر الذي يبقى من الشيء ويدل على وجوده.

وقد وردت مثل هذه المناظرة والمحاكمة مع الوثنيين في الآية (٤٠) من سورة فاطر، حيث تقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

وممّا يلفت النظر أنه يقول في مورد الأرض: ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أمّا في مورد السماء فيقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي إنّ الكلام في الموردين عن الاشتراك، لأنّ الشرك في العبادة يجب أن ينشأ من الشرك في الخالقية وتدبير النشأة.

وهنا يطرح سؤال، وهو: إذا كان المشركون يعتقدون - عادةً - أنّ أمر الخلق مختص بالله سبحانه، فلماذا يطالبون بأحد هذه الأدلة الثالثة؟

ويمكن الإجابة بأنّ هذه المطالبة موجهة إلى فئة قليلة من بين عبدة الأوثان، يحتمل أنّهم كانوا يقولون باشتراك الأصنام في الخلق، أو أنّها طرحت على سبيل الفرض، أي إنّكم إذا ظننتم يوماً أنّ الأصنام شريكة في خلق العالم، فاعلموا أن لا دليل لكم على ذلك، لا من النقل ولا من العقل.

بعد ذلك تبيّن الآية التالية عمق ضلالة هؤلاء المشركين وانحرافهم، فتقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ولا يقف الأمر عند عدم إجابتهم وحسب، بل إنّهم لا يسمعون كلامهم: ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

ويرى بعض المفسّرين أنّ مرجع الضمير في هذه الآية إلى الأصنام الجامدة الميتة، باعتبار أنّ أكثر آلهة مشركي العرب كانت الأصنام، واعتبره البعض إشارة إلى الملائكة

---

(١) نقرأ في حديث روي عن الإمام الباقر عليه السلام في أصول الكافي في تفسير جملة ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أنه قال: «إنّما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء». نور الثقلين، ج ٥، ص ٩.

والبشر الذين عُبدوا من دون الله، لأنّ عبدة الملائكة والجن لم يكونوا قلّة بين العرب، والتعبيرات المختلفة لهذه الآية، والمتناسبة مع ذوي العقول تؤيد هذا المعنى.

لكن لا مانع من أن نفسر الآية بمعناها الواسع، فتدخل فيه كلّ هذه المعبودات، سواء الحية والميتة، العاقلة وغير العاقلة، فتكون التعابير متناسبة مع ذوي العقول من باب التغليب.

وعندما تقول الآية: إنّهم لا يجيبونهم إلى يوم القيامة، فإنّ ذلك لا يعني أنّهم سيجيبونهم يوم القيامة - كما ظن البعض ذلك - بل إنّ هذا التعبير متداول في النفي المؤكّد، كما نقول مثلاً: لو أصررت على فلان إلى يوم القيامة لما أقرضك، أي أنّه سوف لا يقوم بها العمل أبداً، لا أنّه سيلبي طلبك في يوم القيامة.

وسبب ذلك معلوم أيضاً، لأنّ كلّ سعي وجهد وتلبية طلب وقضاء حاجة نافع في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتهت انتهى معها إمكان القيام بكلّ هذه الأعمال.

والأشد أسفاً من ذلك أنّه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

أمّا المعبودات من العقلاء، فإنّهم سيهبّون لإظهار عدائهم لهؤلاء الضالين، فالمسيح عليه السلام يظهر اشمئزازه وتنفره من عابديه، وتتبرأ الملائكة منهم، بل وحتى الشياطين والجن تظهر عدم رضاها. وأمّا المعبودات التي لا عقل لها ولا حياة، فإنّ الله سبحانه سيمنحها العقل والحياة لتنطق بالبراءة من هؤلاء العبدة وتبدي غضبها عليهم.

لقد ورد نظير هذا المعنى في آيات القرآن الأُخرى، ومن جملتها الآية (١٤) من سورة فاطر، حيث تقول: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾. وكررت في الآيات مورد البحث كلّ هذه المسائل بتفاوت يسير.

لكن كيف ينكر المعبودون عبادة عابديهم، وهي ممّا لا ينكر؟

ربّما كان ذلك إشارة إلى أنّهم كانوا يعبدون أهواءهم في الحقيقة، ولم يكونوا يعبدون تلك الآلهة، لأنّ أساس الوثنية عبادة الهوى.

وهنا نكتة تستحق الانتباه، وهي: إنّ عداء المعبودين لعبدتهم يوم القيامة لم يرد التأكيد عليه هنا فقط، بل نقرأ ذلك أيضاً في الآية (٢٥) من سورة العنكبوت على لسان إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد ومحطم الأصنام إذ يقول: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

وجاء في الآية (٨٢) من سورة مريم: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

التّفسير

لم أكن أوّل نبيّ!!

يستمر الحديث في هذه الآيات عن حال المشركين، وكيفية تعاملهم مع آيات الله، فتقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فهم لا يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع في القلوب، وجاذبيته التي لا تقاوم من جهة، وهم من جهة أُخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمته وكونه حقّاً، ولذلك فإنّهم يفسّرون هذا النفوذ القوي بتفسير خاطئ منحرف ويقولون: إنّه سحر مبين، وهذا القول - بحدِّ ذاته - اعتراف ضمني واضح بتأثير القرآن الخارق في قلوب البشر.

بناءً على هذا فإنّ «الحق» - في الآية المذكورة - إشارة إلى آيات القرآن، وإن كان البعض قد فسّرها بالنبوّة، أو الإسلام، أو معجزات النبي ﷺ الأُخرى، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب بملاحظة بداية الآية.

غير أنّ هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمة وإلصاقها به، بل إنّهم تمادوا فخطوا خطوةً أوسع، وأكثر صراحةً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

إنّ الله سبحانه يأمر نبيّه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع، ويعطيهم البرهان الجلي بأنّه قل لهم إذا كان كذلك فاللازم أن يفضحني ولا تستطيعون الدفاع عنّي مقابل عقابه: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(١) فكيف يمكن أن يظهر الله سبحانه هذه الآيات البينات والمعجزة الخالدة على يد كذّاب؟ إنّ هذا بعيد عن حكمة الله ولطفه.

وهذا كما ورد في الآيات (٤٤) - (٤٧) من سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

بناءً على هذا، هل يمكن أن أقدم على مثل هذا العمل الخطير من أجلكم؟ وكيف تصدّقون أنّ بالإمكان أن أكذب مثل هذه الكذبة ثمّ يبقيني الله حياً، بل ويمنحني معاجز أخر؟

ثمّ يضيف مهدداً: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(٢) وسيعاقبكم في الوقت اللازم.

نعم، إنّه يعلم كلّ ما رميتموني به من التهم، وأنّكم وقفتم بوجه رسوله، وكنتم تصدون الناس عن الإيمان بالحق بنفثكم السموم بينهم.

ثمّ يقول في الجملة التالية كتأكيد أكبر مقترن بتعامل مؤدب جدّاً: ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو يعلم صدق دعوتي، وسعيي وجهدي في إبلاغ الرسالة، كما يعلم كذبكم وافتراءكم والعوائق التي تضعونها في طريقي، وهذا كاف لي ولكم.

ومن أجل أن يدلهم على طريق الرجوع إلى الحق، ويعلمهم بأنّه مفتوح إن أرادوا العودة، يقول: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فهو يعفو عن التائبين ويغفر لهم، ويدخلهم في رحمته.

ويضيف في الآية التالية: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

إنّ هذه الجمل الوجيزة الغنية المحتوى تجيب عن كثير من إشكالات المشركين، ومن جملتها أنّهم كانوا يتعجبون أحياناً - في مسألة بعثة النّبي ﷺ - كيف يمكن أن يتصل إنسان بالله ويرتبط به؟

(١) جملة ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ جملة شرطية حذف جزاؤها، والتقدير: إن افتريته أخذني وعاجلني بالعقوبة.

(٢) «ما» في جملة ﴿بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يمكن أن تكون موصولة، وتعني التهم غير الصحيحة، والتي كان يعلمها النّبي ﷺ وبناءً على هذا فإنّ ضمير ﴿فِيهِ﴾ يعود إليها. وإن كانت مصدرية فإنّ الضمير ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى القرآن أو إلى الحق، وهنا تكون ﴿تُفِيضُونَ﴾ بمعنى الدخول في عمل ما بقصد الإفساد والتخريب.

وأحياناً كانوا يقولون: لماذا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

وتارة كانوا يطلبون معاجز عجيبة غريبة، وكان كلّ منهم يتمنى شيئاً.

وكانوا يظنون أنّ النّبي ﷺ مستودع لعلم الغيب، فيطلبون منه أن يخبرهم بكلّ حوادث المستقبل.

وأخيراً فإنّهم كانوا يعجبون أحياناً من دعوته لنبذ الآلهة والتوجّه إلى عبادة الله وتوحيده.

وهذه الآية إشارة إجمالية إلى أجوبة جميع هذه الأسئلة، وقطع لكلّ تلك الأعذار الواهية.

يقول النّبي ﷺ: أنا لست أوّل نبيّ دعا إلى التوحيد، فقد جاء قبلي أنبياء كثيرون كلهم كانوا بشراً، وكانوا يلبسون الثياب ويأكلون الطعام، ولم يَدَّع أحد منهم أنّه يعلم الغيب المطلق، بل كانوا يقولون: إنّنا نعلم من أُمور الغيب ما يعلمنا الله إيّاه فقط.

ولم يستسلم أحد منهم أمام المعاجز التي كان يقترحها الناس، والتي كانت تقوم على أساس الرغبة والميول.

كل ذلك ليعلم الجميع أنّ النّبي أيضاً عبد من عباد الله، وعلمه وقدرته محدودة بما يريده الله سبحانه ويمنحه، فإنّ العلم المطلق والقدرة المطلقة لله جلّ وعلاء وحسب.

هذه الحقائق كان يجب على الناس أن يعلموها ويدركوها، لينتهوا من إشكالاتهم الجوفاء.

كل ذلك ورد بعد البحث الذي مرّ في الآيات السابقة، حيث كانوا يرمون النّبي ﷺ بالسحر مرّة، وبالافتراء أُخرى، ليُعلم أنّ منبع هذه الاتهامات ومصدرها هو تلك الأوهام التي أُجيب عنها في هذه الآية.

ومن هنا يتّضح أن مفاد هذه الآية لا يتنافى مع الآيات الأُخرى التي توحي بأنّ النّبي ﷺ يعلم الغيب، كالذي ورد في سورة الفتح حول فتح مكّة ودخول المسجد الحرام - الآية ٢٧ من سورة الفتح - أو ما ورد في شأن المسيح عليه السلام حيث يقول: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾(١)، وأمثال ذلك، لأنّ الآية مورد البحث تنفي علم الغيب المطلق، لا مطلق علم الغيب، وبتعبير آخر، فإنّ الآية تنفي علم الغيب

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

الاستقلالي، أمّا تلك الآيات فتتحدث عن علم الغيب الذي يُنال ببركة التعليم الإلهي.

والشاهد على هذا الكلام الآيتان (٢٦) - (٢٧) من سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد ذكر بعض المفسّرين سبب نزول الآية مورد البحث، فقالوا: إنّ عبء المشاكل وضغطها لما زاد على أصحاب النّبي ﷺ في مكّة، رأى النّبي ﷺ في المنام أنّه يهاجر إلى أرض ذات نخيل وأشجار وماء كثير، فذكر ذلك لأصحابه، ففرحوا لذلك وظنّوا أنّهم سيرون فَرَجاً وسعة بعد أذى المشركين، فصبروا مدّة فلم يروا أثراً لذلك، فقالوا: يا رسول الله، لم نرَ ما أخبرتنا به، فمتى سنهاجر إلى تلك الأرض التي رأيتها في منامك؟ فسكت النّبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[1].

إلاّ أنّ سبب النّزول هذا يبدو بعيداً، لأنّ المخاطبين في هذه الآيات أعداء النّبي لا أصحابه، لكن يمكن أن يكون هذا من باب التطبيق، أي أنّه ﷺ تمسّك بهذه الآية وأجاب بها أصحابه حينما طرحوا هذا السؤال.

وتضيف آخر آية من هذه الآيات، ولتكملة ما ورد في الآيات السابقة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

وللمفسّرين أقوال في الشاهد من بني إسرائيل الذي شهد على كون القرآن المجيد حقّاً...

قال البعض: إنّه موسى بن عمران عليه السلام الذي أخبر في عصره بظهور نبيّ الإسلام، وأعطى أوصافه وعلاماته.

إلاّ أنّ هذا الاحتمال غير صحيح بملاحظة جملة: ﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ التي توحي بأنّ هذا الشاهد من بني إسرائيل قد آمن بنبيّ الإسلام ﷺ في الوقت الذي استكبر فيه المشركون ولم يؤمنوا، لأنّ ظاهر الجملة يوحي بأنّ هذا الشاهد كان موجوداً في عصر نبيّ الإسلام ﷺ وآمن به، بينما اختار الآخرون طريق الاستكبار والكفر.

وقال آخرون: إنّه كان رجلاً من علماء أهل الكتاب، كان يحيا في مكّة. ومع أنّ

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٨، ص ٨.

(٢) جزاء الجملة الشرطية: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محذوف، وتقديره: (من أضل منكم).

أنصار الدين اليهودي والمسيحي كانوا قلة في مكّة، لكن لا يعني هذا أنّ أحداً منهم لم يكن فيها، ومع ذلك فلا يعرف من كان هذا العالم من بني إسرائيل؟ وما هو اسمه؟

وهذا التّفسير باطل منهم أيضاً لأنّه لم يكن هناك عالم معروف من أهل الكتاب في مكّة في عصر ظهور النّبي ﷺ، ولم تذكر التواريخ اسماً له[1].

طبعاً، يمتاز هذا التّفسير والذي قبله بأنّهما ينسجمان مع كون كلّ سورة الأحقاف مكية.

والتّفسير الثّالث الذي ارتضاه أكثر المفسّرين، هو أنّ هذا الشاهد كان «عبد الله بن سلام» عالم اليهود المعروف، الذي آمن في المدينة والتحق بصفوف المسلمين.

وقد ورد - في حديث - أنّ النّبي ﷺ انطلق حتى دخل كنيسة اليهود يوم عيدهم، فكرهوا دخوله عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، يحط الله عن كلّ يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه» فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثمّ ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً، فقال: «أبيتم، فوالله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفى، آمنتم أو كذبتم» ثمّ انصرف حتى كاد يخرج، فإذا رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمّد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ فقالوا: والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك، فقال: فإنّي أشهد بالله إنّه النّبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل، قالوا: كذبت، وردّوا عليه وقالوا شرّاً، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، لن يقبل منكم قولكم» - ولم يكن هذا الرجل غير عبد الله بن سلام - فنزلت الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ...﴾[2].

وطبقاً لهذا التّفسير، فإنّ هذه الآية نزلت في المدينة بالرغم من أنّ السورة مكّية، وهذا ليس منحصراً بالآية مورد البحث، بل يلاحظ - أحياناً - في سور القرآن الأُخرى وجود آيات مكية في طيات السور المدنية وبالعكس، وهذا يبيّن أنّ النّبي ﷺ كان يأمر بوضع الآية مع ما يناسبها من مفاد السورة من دون الالتفات إلى تاريخ نزولها.

ويبدو من جهات عديدة أنّ هذا التّفسير هو الأنسب.

---

(١) التعبير هنا بـ﴿شَاهِدٌ﴾ بصيغة النكرة للتعظيم، وهو يوحي بأنّه كان شخصاً معروفاً عظيماً.

(٢) تفسير المراغي، ج ٢٦، ص ١٤.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباباً عديدة لنزول الآية الأولى من هذه الآيات:

١ - إنّ هذه الآية نزلت في «أبي ذر الغفاري» الذي أسلم في مكّة، ثمّ تابعته في الإيمان قبيلته - بنو غفار - ولما كانت قبيلة بني غفار من سكان البادية وكانوا فقراء، قال كفار قريش - وكانوا أثرياء من أهل المدن - : لو كان الإسلام خيراً ما سبقنا إليه غفار الحلفاء، فنزلت هذه الآية وأجابتهم.

٢ - كانت في مكّة جارية رومية يقال لها «زنيرة»[1]، لبت دعوة النّبي ﷺ إلى الإسلام، فقال زعماء قريش: لو كان ما جاء به محمّد خيراً ما سبقتنا إليه زنيرة.

٣ - إنّ جماعة من قبائل البوادي أسلموا قبل سكان مكّة، فقال أشراف مكّة: لو كان الإسلام خيراً ما سبقتنا إليه رعاة الإبل.

٤ - إنّ جماعة من الرجال الطاهرين والفقراء كبلال وصهيب وعمار، قد اعتنقوا الإسلام، فقال زعماء مكّة: أيمكن أن يكون دين محمّد خيراً ويسبقنا إليه هؤلاء؟

٥ - إنّ عبد الله بن سلام وجماعة من أصحابه لما آمنوا، قال جماعة من اليهود: لو كان دين محمّد خيراً ما سبقونا إليه[2].

ويمكن تلخيص أسباب النّزول الأربعة الأولى بالقول بأنّ الإسلام لاقى ترحيباً واسعاً

(١) كانت «زِنيّرة» بكسر الزاي وتشديد النون من السابقات إلى الإسلام، ولذلك كان أبو جهل يؤذيها ويعذبها.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٠٠٩.

وامتداداً سريعاً بين الطبقات الفقيرة وسكان البوادي، وذلك لأنّهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعة لتهدد بالخطر، ولم يكن الغرور قد ركبهم وملأ عقولهم، وقلوبهم أطهر من قلوب المترفين ومتبعي الشهوات والرغبات.

لقد عدّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئة، والذي كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين، نقطة ضعف كبيرة من قبل المستكبرين فقالوا: أي دين هذا الذي يتبعه سكان البوادي والفقراء والحفاة والجواري والعبيد؟ إذا كان ديناً مقبولاً ومعقولاً فلا ينبغي أن يكون أتباعه من طبقة فقيرة واطئة اجتماعياً، ونتخلف نحن أعيان المجتمع وأشرافه عن اتباعه.

والطريف أنّ نمط التفكير المنحرف هذا من أكثر أنماط التفكير رواجاً اليوم بين الأثرياء والمترفين فيما يتعلّق بالدين، حيث يقولون: إنّ الدين ينفع الفقراء والحفاة، وكلّ منهما ينفع صاحبه وينسجم معه، ونحن في مستوى أسمى منه وأعلى.

وقد أجاب القرآن هؤلاء جواباً شافياً كافياً سيتّضح في تفسير هذه الآيات.

أمّا سبب النّزول الخامس الذي ذكر أعلاه، والقائل بأنّ المراد هو عبد الله بن سلام وأصحابه، فمع أنّه نقل عن أكثر المفسّرين على قول الطبرسي في مجمع البيان، والقرطبي في تفسيره، إلاّ أنّه يبدو بعيداً من جهتين:

الأولى: إنّ التعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بصورة مطلقة يستعمل عادةً في مورد المشركين، لا في أهل الكتاب واليهود والنصارى.

والأُخرى: إنّ عبد الله بن سلام لم يكن رجلاً مجهولاً أو ضعيف الشخصية بين اليهود ليقولوا فيه: إنّ الإسلام لو كان خيراً ما سبقنا هذا وأصحابه إليه.

التّفسير

شرط الانتصار الإيمان والاستقامة

تستمر هذه الآيات في تحليل أقوال المشركين وأفعالهم، ثمّ تقريعهم وملامتهم بعد ذلك، فتشير أوّلاً إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم، مبنيّ على أساس الكبر والغرور، فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾(١).

(١) بحث المفسّرون كثيراً في معنى «اللام» في ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلاّ أنّ أنسب الاحتمالات جميعاً هو أن «اللام»=

فما هؤلاء إلاّ حفنة من الفقراء الحفاة من سكان القرى، والعبيد الذين لا حظّ لهم من العلم والمعرفة إلاّ القليل، فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق وأن يقبلوا عليه ونحن - أعيان المجتمع وأشرافه - في غفلة عنه؟

لقد غفل هؤلاء عن أن العيب فيهم لا في الإسلام، فلولا حجب الكبر والغرور الملقاة على قلوبهم ولولا أنّهم سكرى من خمرة المال والجاه والمقام، ولولا أنّ غرورهم وتكبرهم يمنعهم من التحقيق في أمر هذا الدين، إذن لانجذبوا بسرعة الى الإسلام كما انجذب الفقراء إليه.

ولذلك فإنّ الآية تجيبهم في نهايتها بهذا التعبير اللطيف: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(١) أي إنّ هؤلاء ما أرادوا أن يهتدوا بآيات القرآن، لا أنّ القصور في قابلية القرآن على الهداية.

والتعبير بـ «الإفك القديم» شبيه بتهمة أُخرى حكيت عنهم في آيات القرآن الأُخرى، إذ قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٢).

جملة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بصيغة المضارع، تدل على أنّهم كانوا يرمون القرآن بهذه التهمة دائماً، وكانوا يتخذون هذا الاتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثمّ تطرقت الآية إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقاً، ولنفي تهمة المشركين إذ كانوا يقولون: هذا إفك قديم، فقالت: إنّ من علامات صدق هذا الكتاب العظيم أنّ كتاب موسى الذي يعتبر إماماً أي قدوة للناس ورحمة قد أخبر عن هذا النّبي وصفاته، وهذا القرآن أيضاً كتاب منسجم في آياته وفيه العلائم المذكورة في التوراة: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تقولون: هذا إفك قديم؟

= بمعنى (في) وبناءً على هذا فإنّ معنى الجملة: إنّ الكافرين قالوا في المؤمنين، ولا يأتي في هذه الحالة إشكال من جهة كون فعل ﴿سَبَقُونَآ﴾ للغائب. في حين أنّ البعض قد اعتبر اللام لام التعليل! وقال آخرون (الذين آمنوا) هنا مخاطبون، وجملة ﴿سَبَقُونَآ﴾ بمعنى سبقتمونا!

(١) ﴿وَإِذْ﴾ في هذه الآية ظرفية، ويعتقد البعض أنّها متعلقة ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، ويقولون: إنّ وجود الفاء غير مانع، إلاّ أنّ البعض الآخر - كالزمخشري في الكشاف - يرى أنّه بما أنّ الفعل بعدها ماض، و﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ فعل مضارع فلا يمكن أن يكون متعلقها، بل متعلقها محذوف، والتقدير: «وإذا لم يهتدوا به ظهر عنادهم» إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل أكثر انسجاماً مع معنى الآية.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٥.

لقد أكّد القرآن في آياته مراراً على أنّه مصدق للتوراة والإنجيل، أي إنّه يتفق مع العلامات والصفات التي وردت في هذين الكتابين السماويين حول نبيّ الإسلام ﷺ وقد كانت هذه العلامات دقيقة إلى الحد الذي يقول القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾(١).

وقد ورد نظير معنى الآية مورد البحث في الآية (١٧) من سورة هود: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

والتعبير بـ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ يحتمل أن يكون من جهة أن ذكر الإمام يستدعي أحياناً أن تخطر في الذهن مسألة التكليف الشاق الصعب، نتيجة الذكريات التي كانت لديهم عن أئمّتهم، إلاّ أنّ ذكر الرحمة يبدل هذا الخطور الذهني إلى ما يبعث على الاطمئنان، فهو يقول: إنّ هذا الإمام توأم الرحمة ومقترن بها، فحتى إذا أتاكم بالتكاليف والأوامر فهي رحمة أيضاً، وأي رحمة أعم وأسمى من تربية نفوس هؤلاء القوم؟!

ثمّ تضيف بعد ذلك: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ يفهمه الجميع ويستفيدون منه.

ثمّ تبيّن في النهاية الهدف الرئيسي من نزول القرآن في جملتين قصيرتين، فتقول: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وإذا لاحظنا أنّ جملة (ينذر) مضارعة تدل على الاستمرار والدوام، فسيتّضح أنّ إنذار القرآن كبشارته دائمي مستمر، فهو يحذر الظالمين والمجرمين على مدى التأريخ ويخوفهم وينذرهم، ويبشر المحسنين على الدوام.

وممّا يلفت النظر أنّ الآية جعلت الظالمين في مقابل المحسنين لأنّ للظلم هنا معنى واسعاً يشمل كلّ إساءة ومخالفة، ومن الطبيعي أنّ الظلم إمّا بحق الآخرين أو بحق النفس.

والآية التالية تفسير للمحسنين الذين ورد ذكرهم في الآية التي قبلها، فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢).

لقد جمعت في الواقع كلّ مراتب الإيمان، وكلّ الأعمال الصالحة في هاتين الجملتين، لأنّ التوحيد أساس كلّ المعتقدات الصحيحة، وكلّ أصول العقائد ترجع الى أصل التوحيد، كما أنّ الاستقامة والصبر والتحمل والصمود أساس كلّ الأعمال

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٢) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ خبره، والفاء لا تأتي مع الخبر إلاّ في الموارد التي يكون في الجملة مفهوم الشرطية كالآية مورد البحث.

الصالحة، لأنّا نعلم أنّه يمكن تلخيص كلّ أعمال الخير في ثلاثة: «الصبر على الطاعة»، و«الصبر عن المعصية»، و«الصبر على المصيبة».

وبناءً على هذا، فإنّ «المحسنين» هم السائرون على خط التوحيد من الناحية العقائدية، وفي خط الاستقامة والصبر من الناحية العملية.

ومن البديهي أنّ أمثال هؤلاء الأفراد لا يخافون من حوادث المستقبل، ولا يغتمون لما مضى.

وقد ورد نظير هذا المعنى - بتوضيح أكثر - في الآية (٣٠) من سورة فصلت حيث تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

إنّ هذه الآية تضيف شيئين:

الأوّل: أنّهم بشروا بعدم الخوف والحزن من قبل الملائكة، في حين سكتت الآية مورد البحث عن هذا.

والثّاني: أنّه إضافة إلى نفي الخوف والحزن عنهم، فقد وردت البشارة بالجنّة أيضاً في آية سورة فصلت، في حين أنّ هذه البشارة وردت في الآية اللاحقة في محل كلامنا.

وعلى أية حال، فإنّ الآيتين تبحثان مطلباً واحداً، غايته أن إحداهما أكثر تفصيلاً من الأُخرى.

ونقرأ في تفسير علي بن إبراهيم في تفسير جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ قال: استقاموا على ولاية علي أمير المؤمنين عليه السلام. وذلك أنّ إدامة خط أمير المؤمنين عليه السلام في جوانب العلم والعمل، والعدالة والتقوى، وخاصّة في العصور المظلمة الحالكة، أمر لا يمكن تحققه بدون الاستقامة، وبناءً على هذا فإنّه يعد أحد المصاديق الواضحة للآية مورد البحث، لا أنّ معناها منحصر به، بحيث لا تشمل الاستقامة في الجهاد وطاعة الله سبحانه، ومحاربة هوى النفس والشيطان.

وقد أوردنا شرحاً مفصلاً حول مسألة الاستقامة في ذيل الآية (٣٠) من سورة فصلت[1].

وتبشر آخر آية من هذه الآيات الموحدين المحسنين بأهم بشارة وأثمنها، فتقول: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) راجع التفسير الأمثل، سورة فصلت، الآية ٣٠.

إنّ ظاهر الآية يعطي مفهوم الحصر، كما استفاد ذلك البعض، أي أنّ أصحاب الجنّة هم أهل التوحيد والاستقامة فقط، أمّا الذين ارتكبوا المعاصي منهم، فإنّهم وإن كانوا في النتيجة من أصحاب الجنّة، إلاّ أنّهم ليسوا من أصحابها منذ بداية الأمر.

التعبير بـ «الأصحاب» إشارة إلى اجتماعهم الدائم وتنعمهم الخالد بنعم الجنّة.

وتعبير: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يدل من جهة على أنّ الجنّة لا تمنح مجاناً، بل إنّ لها ثمناً يجب أن يؤدّى، ويشير من جهة أُخرى إلى أصل حرية الإنسان واختياره.

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

أيّها الإنسان أحسن إلى والديك

هذه الآيات والتي تليها، توضيح - في الحقيقة - لما يتعلق بالفريقين: الظالم والمحسن، اللذين أشير إليهما إجمالاً في الآيات السابقة.

وتتناول الآية الأولى وضع المحسنين، وتبدأ بمسألة الإحسان إلى الوالدين وشكر جهودهم وأتعابهم التي بذلوها، والذي يعتبر مقدمة لشكر الله سبحانه، فتقول: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾[1].

(١) «التوصية» تتعدى عادة بمفعولين، غايته أنّ المفعول الثّاني يقترن بالباء أو (إلى)، وبناءً على هذا فإنّ ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾ لا يمكن أن تكون المفعول الثاني في الجملة، إلاّ أن نعتبر (وصينا) بمعنى (ألزمنا) التي تتعدى بمفعولين دون حاجة إلى حرف جر، أو أن نقول: إنّ في الآية محذوفاً نقدره: ووصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه إحساناً، ففي هذه الحالة تكون ﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾ مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف.

«الوصية» و«التوصية» بمعنى مطلق الوصية، ولا ينحصر معناها بالوصايا بما بعد الموت، ولذلك فسّرها جماعة هنا بأنّها الأمر والتشريع.

ثمّ تطرّقت إلى سبب وجوب معرفة حقّ الأمّ، فقالت: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ تضحي خلالها الأم أعظم التضحيات، وتؤثر ولدها على نفسها أيّما إيثار.

إنّ حالة الأم تختلف منذ الأيّام الأولى لانعقاد النطفة، فتتوالى عليها الصعوبات، وهناك حالة تسمى حالة (الوحام) هي أصعب الحالات التي تواجهها الأم، ويقول الأطباء عنها: إنّها تنشأ نتيجة قلّة المواد التي تحدث في جسم الأُم نتيجة إيثارها ولدها على نفسها.

وكلما تكامل نمو الجنين امتص مواداً أكثر من عصارة روح الأُم وجسدها، تترك أثرها على عظامها وأعصابها، فيسلبها أحياناً نومها وغذاءها وراحتها وهدوءها، أمّا في آخر فترة الحمل فيصعب عليها حتى المشي والجلوس والقيام، إلاّ أنّها تتحمل كلّ هذه المصاعب بصبر ورحابة صدر وعشق للوليد الذي سيفتح عينيه على الدنيا عمّا قريب، ويبتسم بوجه أُمّه.

وتحل فترة وضع الحمل، وهي من أعسر لحظات حياة الأُم، حتى أنّ الأُم أحياناً تبذل نفسها وحياتها من أجل سلامة الوليد.

على كلّ حال، تضع الأُم حملها الثقيل لتبدأ مرحلة صعبة أُخرى، مرحلة مراقبة الطفل المستمرة ليل نهار... مرحلة يجب أن تلبى فيها كلّ احتياجات الطفل الذي ليست لديه أية قدرة على بيانها وتوضيحها، فإن آلمه شيء لا يقوى على تعيين محل الألم، وإذا كان يشكو من الجوع والعطش، والحر والبرد، فهو عاجز عن التعبير عن شكواه، إلاّ بالصراخ والدموع، ويجب على الأُم أن تحدد كلّ واحدة من هذه الاحتياجات وتؤمّنها بتفحصها وصبرها وطول أناتها.

إنّ نظافة الوليد في هذه المرحلة مشكلة مضنية، وتأمين غذائه الذي يستخلص من عصارة الأُم، إيثار كبير.

والأمراض المختلفة التي تصيب الطفل في هذه المرحلة، مشكلة أُخرى يجب على الأم أن تتحملها بصبرها الخارق.

إنّ القرآن الكريم عندما تحدّث عن مصاعب الأم هنا، ولم يورد شيئاً عن الأب، لا

لأنّه لا أهميّة للأب، فهو يشارك الأم في كثير من هذه المشاكل، بل لأنّ سهم الأُم من المصاعب أوفر، فلهذا أكّد عليها.

وهنا يطرح سؤال، وهو: إنّ فترة الرضاع ذكرت في الآية (٢٣٣) من سورة البقرة على أنها سنتان كاملتان - ٢٤ - شهراً - : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ في حين أنّ الآية مورد البحث قد ذكرت أنّ مجموع فترة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً، فهل من الممكن أن تكون مدّة الحمل ستة أشهر؟

لقد أجاب الفقهاء والمفسّرون، عن هذا السؤال - استلهاماً من الرّوايات الإسلامية - بالإيجاب وقالوا: إنّ أقل مدّة الحمل ستة أشهر، وأكثر مدّة تفيد في الرضاع (٢٤) شهراً، حتى نقل عن جماعة من الأطباء القدامى كجالينوس وابن سينا أنّهم قالوا: إنّهم كانوا قد شاهدوا بأُمّ أعينهم وليداً ولد لستة أشهر.

ثمّ إنّه يمكن أن يستفاد من هذا التعبير القرآني أنّه كلما قصرت فترة الحمل يجب أن تطول فترة الرضاع بحيث يكون المجموع (٣٠) شهراً.

وقد نقل عن ابن عباس أنّ فترة الحمل إن كانت (٩) أشهر فيجب أن يرضع الولد (٢١) شهراً، وإن كان الحمل ستة أشهر وجب أن يرضع الطفل (٢٤) شهراً.

والقانون الطبيعي يوجب ذلك أيضاً. لأنّ نواقص فترة الحمل يجب أن تجبر بفترة الرضاع.

ثمّ تضيف الآية: إنّ حياة هذا الإنسان تستمر ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾(١).

يعتقد بعض المفسّرين أنّ بلوغ الأشد منسجم مع بلوغ الأربعين سنة، وهو للتأكيد، إلاّ أنّ ظاهر الآية هو أنّ بلوغ الأشد إشارة إلى البلوغ الجسمي، وبلوغ الأربعين سنة إشارة إلى البلوغ الفكري والعقلي، لأنّ من المعروف أنّ الإنسان يصل إلى مرحلة الكمال العقلي في سن الأربعين غالباً، وقالوا: إنّ أغلب الأنبياء قد بعثوا في سن الأربعين.

ثمّ إنّ هناك بحثاً في أنّ بلوغ القدرة الجسمية في أي سن يتم؟ فالبعض يعتبره سن

---

(١) (حتى) هنا غاية لجملة محذوفة، والتقدير: وعاش الإنسان واستمرت حياته حتى إذا بلغ أشدّه. واعتبرها البعض غاية لـ ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ أو لمراقبة الوالدين لولدهما، وكلاهما يبدو بعيداً، إذ لا تنتهي توصية الله سبحانه بالإحسان إلى الوالدين في سن الأربعين، ولا تستمر مراقبة الوالدين لولدهما حتى يصل الأربعين.

البلوغ المعروف، والذي أشير إليه في الآية (٣٤) من سورة الإسراء في شأن اليتامى، في حين صرّحت بعض الروايات بأنّه سن الثامنة عشر عاماً.

طبعاً، لا مانع من أن يعطي هذا التعبير معاني مختلفة في موارد مختلفة تتّضح من خلال القرائن.

وقد ورد في حديث: «إنّ الشيطان يمر يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب، ويقول: بأبي وجه لا يفلح»(١).

ونقل عن ابن عباس: من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شرّه، فليتجهز إلى النّار.

وعلى أي حال، فإنّ القرآن الكريم يضيف في متابعة هذا الحديث: إنّ الإنسان العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعين، يطلب من ربّه ثلاث طلبات، فيقول أولاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾(٢).

إنّ هذا التعبير يوحي بأنّ الإنسان يدرك في هذه السن عمق نعم الله سبحانه وسعتها، وكذلك يدرك ما تحمله أبواه من الجهود المضنية حتى بلغ هذا المقدار من العمر، وذلك لأنّه غالباً ما يصبح في هذا العمر أباً إن كان ذكراً، وأمّا إن كانت أنثى، ويرى بأُم عينه كلّ تلك الجهود التي بذلت من أجله، ومدى الإيثار الذي آثره أبواه في سبيله، وشكراً لسعيهما يتوجّه لا إرادياً لشكر الله سبحانه.

أمّا طلبه الثّاني فهو: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

وأخيراً يقدم طلبه الأخير فيقول: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾.

إنّ التعبير بـ﴿لِي﴾ يشير إشارة ضمنية إلى أنّه يرجو أن يكون أولاده في وضع من الصلاح والخير بحيث تعود نتائجه وحسناته عليه.

والتعبير بـ﴿فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ بصورة مطلقة، يشير الى استمرار الخير والصلاح في كلّ نسله وذريته.

والطريف أنّه يشرك أبويه في دعائه الأوّل، وأولاده في الدعاء الثالث، أمّا الدعاء

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٧.

(٢) ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ من مادة (الإيزاع) التي وردت بعدّة معان: الإلهام، والمنع من الانحراف، وإيجاد العشق والمحبة، والتوفيق.

الثّاني فيخص نفسه به، وهكذا يكون الإنسان الصالح، فإنّه إذا نظر إلى نفسه بعين، ينظر بالأُخرى إلى الآخرين الذين تفضلوا عليه ولهم حق في رقبته.

وتبيّن الآية في نهايتها مطلبين، كلّ منهما تبيان لبرنامج عملي مؤثر، فتقول: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ فقد بلغت مرحلة يجب أن أعين فيها مسير حياتي، وأسير في ذلك الخط ما حييت.

نعم، لقد بلغت الأربعين، ويقبح بعبد مثلي أن يأتيك ولم يغسل نفسه بماء التوبة، ولم يطهرها بالعودة إلى طريق ربّه ويقرع باب رحمته.

والآخر: ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إنّ هاتين الجملتين تأكيد لتلك الأدعية الثلاثة ومترتبة عليها، ومعناهما: بما إنّي تبت إليك، وأسلمت لأوامرك، فأنت أيضاً منّ عليّ برحمتك، واشملني بنعمك وفضلك.

والآية التالية بيان بليغ لأجر هؤلاء المؤمنين الشاكرين وثوابهم، وقد أشارت إلى مكافآت مهمّة ثلاث، فقالت أوّلاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾.

أي بشارة أعظم من أن يتقبل الله القادر المنان عمل عبد ضعيف لا قدر له، وهذا القبول بحدّ ذاته، وبغض النظر عن آثاره الأُخرى، فخر عظيم، وموهبة معنوية عالية.

إنّ الله سبحانه يتقبل كلّ الأعمال الصالحة، فلماذا يقول هنا: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾؟

وفي معرض الإجابة على هذا السؤال، قال جمع من المفسّرين: إنّ المراد من أحسن الأعمال: الواجبات والمستحبات التي تكون في مقابل المباحات التي هي أعمال حسنة لكنّها لا تقع موقع القبول، ولا يتعلق بها أجر وثواب(١).

والجواب الآخر: إنّ الله سبحانه يجعل أحسن أعمال هؤلاء معياراً للقبول، وحتى أعمالهم التي تأتي في مرتبة أدنى من الأهمّية، فإنّه يجعلها كأحسن الأعمال بفضله ورحمته، إنّ هذا يشبه تماماً أن يعرض بائع أجناساً مختلفة بأسعار متفاوتة، إلاّ أنّ المشتري يشتريها جميعاً بثمن أعلاها وأفضلها تكرماً منه وفضلاً، ومهما قيل في لطف الله وفضله فليس عجباً.

(١) الطبرسي في مجمع البيان، ج ٩، ص ١٣٢، والعلاّمة الطباطبائي في الميزان، ج ١٨، ص ٢٠٣، والفخر الرازي في التّفسير الكبير، وغيرهم في ذيل الآية مورد البحث.

والهبة الثّانية هي تطهيرهم، فتقول: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾.

والموهبة الثّالثة هي أنّهم ﴿فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾[1]، فيطهرون من الهفوات التي كانت منهم، ويكونون في جوار الصالحين المطهرين المقربين عند الله سبحانه.

ويستفاد بصورة ضمنية من هذا التعبير أنّ المراد من ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هنا العباد المقرّبون الذين لم يصبهم غبار المعاصي، وهؤلاء المؤمنون التائبون يكونون في مصافهم بعد أن ينالوا غفران الله ورضاه.

وتضيف الآية في نهايتها - كتأكيد على هذه النعم التي مرَّ ذكرها - ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[2] وكيف لا يكون وعد صدق في حين أنّ خلف الوعد إمّا أن يكون عن ندم أو جهل، أو عن ضعف وعجز، والله سبحانه منزه عن هذه الأُمور جميعاً.

ملاحظات

١ - إنّ هذه الآيات تجسيد للإنسان المؤمن من أصحاب الجنّة، الذي يطوي أوّلاً مرحلة الكمال الجسمي، ثمّ مرحلة الكمال العقلي، ثمّ يصل إلى مقام شكر نعم الله تعالى، وشكر متاعب والديه، والتوبة عمّا بدر منه من هفوات وسقطات ومعاص، ويهتم أكثر بالقيام بالأعمال الصالحة، ومن جملتها تربية الأولاد، وأخيراً يرقى إلى مقام التسليم المطلق لله تعالى ولأوامره، وهذا هو الذي يغمره في رحمة الله ومغفرته ونعمه المختلفة التي لا تحصى.

نعم، ينبغي أن يعرف أهل الجنّة من هذه الصفات.

٢ - إنّ التعبير بـ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ إشارة إلى أنّ مسألة الإحسان إلى الوالدين من الأُصول الإنسانية، ينجذب إليها ويقوم بها حتى أُولئك الذين لا يلتزمون بدين أو مذهب، وبناءً على هذا، فإنّ الذين يعرضون عن أداء هذه الوظيفة، ويرفضون القيام بهذا الواجب، ليسوا مسلمين حقيقيين، بل لا يستحقون اسم الإنسان.

٣ - إنّ التعبير بـ ﴿إِحْسَـٰنًا﴾ وبملاحظة أنّ النكرة في هذه الموارد لبيان عظمة الأمر

---

(١) ﴿فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ متعلق بمحذوف هو حال لضمير (هم) والتقدير: حال كونهم موجودين في أصحاب الجنّة.

(٢) ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: يعدهم وعد الصدق الذي كانوا يوعدون بلسان الأنبياء والرسل.

وأهميته، ويشير إلى أنّه يجب - بأمر الله سبحانه - الإحسان إلى الأبوين إحساناً جميلاً مقابلة لخدماتهم الجليلة التي أسدوها.

٤ - لأنّ آلام ومعاناة الأم في طريق تربية الطفل محسوسةٌ وملموسةٌ أكثر، ولأنّ جهود الأُم أكثر أهميّة إذا ما قورنت بجهود الأب، كان التأكيد أكثر على قدر الأم في الرّوايات الإسلامية.

فقد ورد في حديث أنّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ وقال: من أبر؟ قال: «أمّك»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمّك»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمّك»، قال: ثمّ من؟ قال: «أباك»(١).

وجاء في حديث آخر، أنّ رجلاً كان قد حمل أُمّه العجوز العاجزة، وكان يطوف بها، فأتى النّبي ﷺ وقال: هل أديت حقّها؟ قال: «لا ولا بزفرة واحدة»(٢).

٥ - لقد أولت الآيات القرآنية العلاقات العائلية، واحترام الأبوين وإكرامهم، والعناية بتربية الأولاد، اهتماماً فائقاً، وقد أُشير إليها جميعاً في الآيات المذكورة، وذلك لأنّ المجتمع الإنساني الكبير يتكون من خلايا وتشكيلات أصغر تسمى العائلة، كما أنّ البناية الضخمة تتكون من غرف، وهي بدورها من الطابوق والحجر.

من البديهي أنه كلّما كانت هذه التقسيمات الصغيرة أكثر انسجاماً وترابطاً، كان أساس المجتمع أقوى وأشد ثباتاً، وأحد عوامل التمزق والاختلال الاجتماعي في المجتمعات الصناعية في عصرنا الحاضر هو انحلال نظام العائلة، فلا احترام من قبل الأولاد، ولا عطف من الآباء والأمهات، ولا علاقة حب وحنان وعاطفة من الأزواج.

إنّ المشهد المؤلم لدور رعاية المسنين في المجتمعات الصناعية اليوم، والتي تحتضن العجزة من الآباء والأُمهات الذين طردوا من العائلة، شاهد معبر جدّاً عن هذه الحقيقة المرّة.

فالرجال والنساء الذين صرفوا عمراً طويلاً في الخدمة لمنح المجتمع أبناء عديدين، يطردون تماماً في الأيّام التي يكونون فيها بأشد الحاجة إلى عواطف الأبناء ومحبتهم ومعونتهم، ويبقون في تلك الدور يعدون الأيّام في انتظار لحظة الموت، وقد سمّروا

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ١٦.
(٢) تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٤١٥.

أعينهم في الباب بانتظار صديق أو قريب يفتحها. . . ولا تفتح عليهم إلاّ مرّة أو مرّتين في السنة!

حقاً، إنّ تصور مثل هذه الحالة ينغص على الإنسان عيشه منذ البداية، وهذا هو عرف دنيا المادة والتمدن وأسلوبها حينما يطرح منها الإيمان والدين.

٦ - إنّ جملة: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَـٰهُ﴾ تبيّن أنّ العمل الصالح هو العمل الذي يبعث على رضى الله سبحانه، وتعبير: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ والذي ورد في آيات عديدة من القرآن المجيد، يبيّن فضل الله الذي لا يحصى في مقام مكافأة العباد وجزائهم، حيث يجعل أحسن أعمالهم معياراً لكلّ أعمالهم الحسنة في الحساب والمثوبة.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

مضيّعو حقوق الوالدين

كان الكلام في الآيات السابقة عن المؤمنين الذين سلكوا طريق القرب من الله، فبلغوا الغاية ووسعتهم رحمة الله، وكرمهم لطفه، وكلّ ذلك في ظل الإيمان والعمل الصالح، وشكر نعم الله سبحانه، والالتفات إلى حقوق الأبوين والذرية وأدائها.

أمّا هذه الآيات، فيدور الكلام فيها عمّن يقفون في الطرف المقابل، وهم الكافرون المنكرون للجميل والحق، والعاقون لوالديهم، فتقول: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾[1].

(١) ﴿وَٱلَّذِى قَالَ﴾ مبتدأ، وخبره - باعتقاد كثير من المفسّرين - ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ﴾. . الذي ورد في الآية التالية، ولا منافاة بين كون المبتدأ مفرداً والخبر - أولئك - جمعاً، لأنّ المراد منه الجنس. لكن =

إلاّ أنّ أبويه المؤمنين لم يستسلما أمام هذا الولد العاق الضال، فتقول الآية: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ غير أنّه يأبى إلاّ أن يسير في طريق الضلالة والعناد الذي اختطه لنفسه، ولذلك نراه يجيبهما بكلّ تكبر وغرور ولا مبالاة: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فما تقولانه عن المعاد والحساب ليس إلاّ خرافات وقصص كاذبة أتتكم من الماضين من قبلكم، ولست بالذي يعتقد بها وينقاد لها.

إنّ الصفات التي يمكن أن تستخرج من هذه الآية حول هذه الفئة من الأبناء الضالين عدّة صفات: عدم احترام منزلة الأبوين، والإساءة لهما، لأنّ ﴿أُفٍّ﴾ في الأصل تعني كلّ شيء قذر، وهي تقال في مقام التحقير والإهانة[1].

وقال البعض: إنّها تعني الأقذار التي تجتمع تحت الأظافر، وهي قذرة ملوثة، ولا قيمة لها[2].

والصفة الأُخرى هي أنّهم مضافاً إلى عدم إيمانهم بيوم القيامة والبعث والجزاء، فإنّهم يسخرون منه ويستهزئون به، ويعدونه من الأساطير والأوهام الخرافية الباطلة.

والصفة الأُخرى أنّهم لا أذن سامعة لهم، ولا يذعنون للحق، وقد امتلأت نفوسهم بروح الغرور والكبر والأنانية.

نعم، فبالرغم من أن الأبوين الحريصين يبذلان قصارى جهودهما، وكلّ ما في وسعهما لإنقاذه من دوامة الجهل والغفلة، لئلا يبتلى هذا الابن العزيز بعذاب الله الأليم، إلاّ أنّه يأبى إلاّ الاستمرار في طريق غيّه وكفره، ويصر على ذلك، وأخيراً يتركه أبواه وشأنه بعد اليأس منه.

وكما بيّنت الآيات السابقة ثواب المؤمنين العاملين للصالحات، فإنّ هذه الآيات تبيّن عاقبة أعمال الكافرين الضالين المتجرئين على الله، فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾[3]، وأي خسارة أعظم من

= يحتمل أيضاً أن يكون خبره محذوفاً، وتقديره الكلام: «وفي مقابل الذين مضى وصفهم الذي قال لوالديه» وفي هذه الحالة تكون الآية التالية مستقلة، كما أنّ آية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ...﴾ مستقلة.

(١) مفردات الراغب.

(٢) أوردنا بحوثاً أُخرى حول معنى ﴿أُفٍّ﴾ في سورة الإسراء، الآية ٢٣.

(٣) جملة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ إشارة إلى كلام الله الذي قاله سبحانه في عقوبة الكافرين والمجرمين، والتقدير: حقّ عليهم القول بأنّهم أهل النّار... و ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في محل حال.

أنّهم خسروا كلّ رأس مال وجودهم إذ اشتروا به غضب الله عزّوجلّ وسخطه.

ومن خلال المقارنة بين هذين الفريقين - أصحاب النعيم وأصحاب الجحيم - في هذه الآيات نقف على هذه الأُمور:

إنّ أولئك يطوون مدارج رشدهم وكمالهم، في حين أنّ هؤلاء فقدوا كلّ ما يملكون، فهم خاسرون.

أُولئك يقدرون الجميل ويشكرونه حتى من أبويهم، وهؤلاء منكرون للجميل معتدون لا أدب لهم حتى مع والديهم.

أُولئك مع المقربين إلى الله في الجنّة، وهؤلاء مع الكافرين في النّار، فكلّ منهم يلتحق بأمثاله ومن على شاكلته.

أُولئك يتوبون من الهفوات التي تصدر عنهم، ويذعنون للحق، أمّا هؤلاء فهم قوم طغاة عتاة متمردون، أنانيّون ومتكبرون.

وممّا يستحق الالتفات أنّ هؤلاء المعاندين يستندون في انحرافاتهم إلى وضع الأقوام الماضين وسيحشرون معهم إلى النّار أيضاً.

أمّا الآية الأخيرة من هذه الآيات فإنّها تشير أوّلاً إلى تفاوت درجات كلا الفريقين، فتقول: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[1] فليس كلّ أصحاب الجنّة أو أصحاب النّار في درجة واحدة، بل إنّ لكلّ منهما درجات ومراتب تختلف باختلاف أعمالهم، وحسب خلوص نيّتهم وميزان معرفتهم، وأصل العدالة هو الحاكم هنا تماماً.

«الدرجات» جمع درجة، وتقال عادةً للسلالم التي يصعد الإنسان بتسلقها إلى الأعلى، و«الدركات» جمع درك، وهي تقال للسلّم الذي ينزل منه الإنسان إلى الأسفل، ولذلك يقال في شأن الجنّة: درجات، وفي شأن النّار: دركات، لكن لما كانت الآية مورد البحث قد تحدثت عنهما معاً، ولأهميّة مقام أصحاب الجنّة، ورد لفظ (الدرجات) للاثنين، وهو من باب التغليب[2].

(١) (من) في ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ للابتداء - أو كما تسمى نشوية - أو بمعنى التعليل، أي: من أجل ما عملوا.
(٢) «درْك» - بسكون الوسط - ودرَك - بفتحه - بمعنى أعمق نقطة في العمق، وجاءت - أحياناً - الدرَك - بالفتحة - بمعنى الخسارة، والدرْك - بالسكون - بمعنى فهم الشيء وإدراكه، لمناسبته الوصول إلى عمقه وحقيقته.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ وهذا التعبير إشارة أخرى إلى مسألة تجسم الأعمال، حيث إنّ أعمال ابن آدم ستكون معه هناك، فتكون أعماله الصالحة باعثاً على الرحمة به واطمئنانه، وأعماله الطالحة سبباً للبلاء والعذاب الأليم.

وتقول الآية أخيراً كتأكيد على ذلك: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لأنّهم سيرون أعمالهم وجزاءها، فكيف يمكن تصور الظلم والجور؟

هذا إضافة إلى أنّ درجات هؤلاء ودركاتهم قد عيّنت بدقّة، حتى أنّ لأصغر الأعمال، حسناً كان أم قبيحاً، أثره في مصيرهم، ومع هذه الحال لا معنى للظلم حينئذ.

ملاحظة

كيف حرّف بنو أُمية هذه الآية؟

ورد في رواية أنّ «معاوية» أرسل رسالة إلى «مروان» - واليه على المدينة - يأمره بأخذ البيعة من الناس لابنه يزيد، وكان «عبد الرحمن بن أبي بكر» حاضراً في المجلس، فقال: يريد معاوية أن يجعل هذا الأمر هرقلياً وكسروياً - ملكي الروم وفارس - إذا مات الآباء جعلوا أبناءهم مكانهم، وإن لم يكونوا أهلاً لذلك، أو كانوا فسّاقاً؟

فصاح مروان من على المنبر: صه، فأنت الذي نزلت فيه: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾.

وكانت «عائشة» حاضرة، فقالت: كذبت، وإنّي لأعلم فيمن نزلت هذه الآية، ولو شئت لأخبرتك باسمه ونسبه، لكن رسول الله ﷺ لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فضض من لعنة رسول الله ﷺ (١).

أجل... ولقد كان ذنب عبد الرحمن عشقه ومحبّته لأمير المؤمنين علي عليه السلام، وهو أمر كان يسوء بني أمية كثيراً، هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى فإنّه كان مخالفاً لصيرورة الخلافة وراثية، وتبديلها إلى سلطنة، وكان يعتبر أخذ البيعة ليزيد نوعاً من الانحراف نحو الكسروية والهرقلية، ولذلك أصبح غرضاً لأعداء الإسلام الألداء، أي آل أميّة، فحرّفوا آيات القرآن فيه.

وكم هو مناسب الجواب الذي أجابت به عائشة مروان بأنّ الله سبحانه لعن أباك إذ

(١) أبو الفتوح الرازي في تفسيره، ج ١٠، ص ١٥٩، ونقل هذه الرواية بتفاوت يسير في ج ٩، ص ٦٠١٧.

كنت في صلبه، وهو إشارة إلى الآية (٦٠) من سورة الإسراء حيث تقول: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾[1].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾

التّفسير

الزهد والادخار للآخرة

تستمر هذه الآية في البحث حول عقوبة الكافرين والمجرمين، وتذكر جانباً من أنواع العذاب الجسمي والروحي الذي سينال هؤلاء، فتقول: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[2].

نعم، فقد كنتم غارقون في الشهوات، ولم تكونوا تعرفون شيئاً إلاّ التمتع بطيّبات هذا العالم ونعمه المادية، ومن أجل أن تكونوا متحللين من كلّ القيود في هذا المجال، أنكرتم المعاد لتطلقوا لأنفسكم العنان، وسخرتم هذه المواهب من أجل إنزال كلّ أنواع الظلم والجور بحق الآخرين.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فاليوم ترون جزاء كلّ ذلك التمتع الباطل، واتّباع الشهوات الأعمى، وعبادة الهوى، والاستكبار والفسق والفجور وتذوقون العذاب المذل والمهين بسبب تلكم الأعمال.

بحوث

١ - تقول هذه الآية: إنّ الكفار يعرضون على النّار في القيامة، وقد ورد نظير هذا في الآية (٤٦) من سورة المؤمن حول عذاب الفراعنة في البرزخ، إذ تقول: ﴿النَّارُ

---

(١) يراجع لتفسير هذه الآية ذيل الآية (٦٠) من سورة الإسراء. وينبغي الالتفات إلى أنّ «مروان بن الحكم» هو ابن «أبي العاص»، وهذا بدوره ابن «أميّة» أيضاً.

(٢) ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف متعلق بفعل محذوف يستفاد من الجمل التالية، والتقدير: ويوم يعرض الذين كفروا على النّار يقال لهم أذهبتم طيّباتكم...

﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في حين أنّنا نقرأ في بعض آيات القرآن الأُخرى أنّ جهنّم تعرض على الكافرين: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾(١).

لذلك قال بعض المفسّرين: إنّ في القيامة نوعين من العرض: فقبل الحساب تعرض جهنّم على المجرمين ليملأ وجودهم الخوف والهلع، وهذا بحدِّ ذاته عقاب وعذاب نفسي، وبعد الحساب وإلقائهم في جهنّم يعرضونهم على عذاب الله(٢).

وقال البعض: إنّ في العبارة نوع قلب، وإنّ المراد من عرض الكفّار على النّار هو عرض النّار على الكافرين، إذ لا عقل ولا إدراك للنار حتى يعرض عليها الكافرون، في حين أنّ العرض يتم في الموارد التي يكون المعروض عليه فيها ذا شعور وإدراك.

لكن يمكن أن يرد على هذا الجواب بأنّ بعض الآيات ذكرت وجود إدراك وشعور لدى النّار، حتى أنّ الله سبحانه يخاطبها وتجيب، فيقول سبحانه: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ﴾ فتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾(٣).

والحق أنّ حقيقة العرض هي رفع الموانع بين شيئين حتى يتقابلا ويكونا وجهاً لوجه، وكذا الحال بالنسبة إلى الكافرين والنّار، فإنّ الحواجز ترفع من بينهما، فيمكن القول في هذه الصورة: إنّ الكافرين يعرضون على النّار، كما تعرض عليهم، وكلا التعبيرين صحيح.

وعلى أية حال، فلا حاجة لأن نعتبر العرض بمعنى الدخول في النّار كما ذكره «الطبرسي» في مجمع البيان، بل إنّ هذا العرض بحدِّ ذاته نوع من العذاب الأليم المرعب، حيث يرى الكافرون بأعينهم كلّ أقسام جهنّم من الخارج قبل أن يردوها، وليشاهدوا مصيرهم المشؤوم ويتعذّبوا ويتألموا له.

٢ - إنّ جملة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ تعني التمتع بلذائذ الدنيا، والتعبير بـ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ لأنّ هذه اللذائذ والنعم تفنى بالتمتع بها واستهلاكها.

ومن المسلّم أنّ التمتع بمواهب الله ونعمه في هذه الدنيا ليس أمراً مذموماً قبيحاً، بل المذموم هو الغرق في اللذات المادية، ونسيان ذكر الله والقيامة، أو التمتع بها بصورة غير مشروعة والتلوث بالمعاصي عن طريقها، وغصب حقوق الآخرين فيما يتعلق بها.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٠.

(٢) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٢٢٣ ذيل الآيات مورد البحث.

(٣) سورة ق، الآية: ٣٠.

وممّا يلفت الانتباه أنّ هذا التعبير لم يرد إلاّ في هذه الآية من القرآن الكريم، وهو إشارة إلى أنّ الإنسان يعزب أحياناً عن لذات الدنيا ويعرض عنها، أو أنّه لا يأخذ منها إلاّ ما يقوّم به صلبه، ويتقوّى به على القيام بالواجبات الإلهيّة، وكأنّه في هذه الصورة قد ادخر هذه الطيبات لآخرته.

غير أنّ الكثيرين يتكالبون على هذه التمتعات الدنيوية كالحيوانات ولا يحدّهم شيء في الالتذاذ بهذه الطيبات وإفنائها جميعاً، ولا يكتفون بعدم ادخار شيء لآخرتهم، بل يحملون معهم أحمالاً من الأوزار، ولهؤلاء يقول القرآن: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.

وقد نقل في بعض كتب اللغة أنّ المراد من الجملة: أنفقتم طيبات ما رُزقتم في شهواتكم وفي ملاذ الدنيا، ولم تنفقوها في مرضاة الله[١].

٣ - للطيبات معنى واسع يشمل كلّ مواهب الدنيا، ومع أنّ بعض المفسّرين قد فسّرها بقوّة الشباب فقط، إلاّ أنّ الحق هو أنّ الشباب يمكن أن يكون مصداقاً لا غير.

٤ - إنّ التعبير بـ ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ بمثابة ردّ فعل لاستكبار هؤلاء في الأرض، لأنّ العقوبة الإلهية تتناسب تماماً مع نوع الذنب والمعصية، فأُولئك الذين تكبّروا على خلق الله، بل وحتى على أنبيائه، ولم يخضعوا لأي تشريع إلهي، يجب أن يلاقوا جزاءهم بذلة وحقارة ومهانة.

٥ - لقد ذكر في ذيل هذه الآية ذنبان لأصحاب الجحيم، الأوّل: الاستكبار، والثّاني: الفسق. ويمكن أن يكون الأوّل إشارة إلى عدم إيمانهم بآيات الله وبعث الأنبياء والقيامة، والثّاني إشارة إلى أنواع الذنوب والمعاصي، فأحدهما يتحدّث عن ترك أصول الدين، والآخر عن تضييع فروع الدين[٢].

٦ - إنّ التعبير بـ ﴿غَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لا يعني أنّ الاستكبار نوعان: حق، وغير حق، بل إنّ هذه التعابير تقال عادةً للتأكيد، ونظائرها كثير.

٧ - زهد الأئمة العظماء، لقد وردت في مختلف مصادر الحديث والتّفسير روايات كثيرة عن زهد أئمّة الإسلام العظماء، واستندوا فيه بالخصوص إلى الآية مورد البحث، ومن جملتها:

---

(١) تفسير مجمع البحرين، مادة ذهب.
(٢) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٢٢٤.

جاء في حديث أنّ عمر أتى يوماً رسول الله صلى الله عليه وآله في مشربة أم إبراهيم - وهو موضع قرب المدينة - وكان مضطجعاً على حصير من الخوص، وجزء من بدنه الشريف على التراب، وكانت تحت رأسه وسادة من ليف النخل، فسلّم وجلس، وقال: أنت نبيّ الله وأفضل خلقه، هذا كسرى وقيصر ينامان على أسرّة الذهب وفرش الديباج والحرير، وأنت على هذا الحال؟! فقال صلى الله عليه وآله: «أولئك قوم عجلت طيّباتهم وهي وشيكة الانقطاع، وإنّما أخرت لنا طيباتنا»(١).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه أتي يوماً بحلوى، فامتنع من تناولها، فقالوا: أتراها حراماً؟ قال: «لا، ولكني أخشى أن تتوق نفسي فأطلبه»، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾(٢).

وجاء في حديث آخر: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام اشتهى كبداً مشوية على خبزة لينة، فأقام حولاً يشتهيها، وذُكر ذلك للحسن عليه السلام وهو صائم يوماً من الأيّام فصنعها له، فلما أراد أن يفطر قرّبها إليه، فوقف سائل بالباب، فقال: يا بني احملها إليه، لا تقرأ صحيفتنا غداً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾(٣)».

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٨٨.
(٢) تفسير البرهان، ج ٤، ص ١٧٥، ذيل الآية مورد البحث، وبحار الأنوار، ج ٣٤، ص ٣٥٣.
(٣) سفينة البحار، ج ٢، مادة كبد.

التفسير

قوم عاد والريح المدمرة

لما كان القرآن يذكر قضايا كلية، ثمّ يتطرق إلى بيان مصاديق واضحة لها، ليطبق تلك الكليات. فإنّه هنا يسلك نفس السبيل، فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين، تطرّق إلى ذكر قصة قوم عاد الذين هم صورة واضحة لأولئك العتاة، فتقول الآية: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾.

إنّ التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النّبي العظيم وحرصه على قومه، وقد ورد هذا التعبير في القرآن المجيد - كما نعلم - في مورد عدة أنبياء عظام كانوا إخوة لأقوامهم حريصين رحماء بهم، لم يبخلوا من أجلهم بأي نوع من الإيثار والتضحية.

ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى علاقة القرابة والرحم بين هؤلاء الأنبياء وأقوامهم.

ثمّ تضيف الآية: ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾.

«الأحقاف» - كما قلنا سابقاً - تعني الكثبان الرملية التي تتشكل على هيئة مستطيل أو تعرجات ومنحنيات، على أثر هبوب العواصف في الصحاري، ويتّضح من هذا التعبير أنّ أرض قوم عاد كانت أرضاً حصباء كبيرة.

وذهب البعض أنّها في قلب جزيرة العرب بين نجد والأحساء وحضرموت وعمان[(١)].

إلاّ أنّ هذا المعنى يبدو بعيداً، حيث يظهر من آيات القرآن الأُخرى - في سورة الشعراء - أنّ قوم عاد كانوا يعيشون في مكان كثير المياه والأشجار الجميلة، ومثل هذا الحال بعيد جدّاً عن قلب الجزيرة.

وذهب جمع آخر من المفسّرين أنّها في الجزء الجنوبي للجزيرة حول اليمن، أو في سواحل بحر العرب[(٢)].

واحتمل البعض أنّ الأحقاف كانت منطقة في أرض العراق في مناطق كلدة وبابل[(٣)].

(١) أعلام القرآن، ص ٩٤.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٤٢٠، ذيل الآيات مورد البحث.

(٣) طبقاً لنقل المرحوم الشعراني في هامش تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ١٠، ص ١٦٥.

ونقل عن الطبري أنّ الأحقاف اسم جبل في الشام[١].

لكن يبدو أنّ القول بأنّ هذه المنطقة تقع جنوب الجزيرة العربية قرب أرض اليمن، هو الأقرب، بملاحظة ملاءمته المعنى اللغوي للأحقاف، وبملاحظة أنّ أرضهم كانت غزيرة المياه وفيرة الأشجار، في نفس الوقت الذي لم تكن فيه بمأمن من العواصف الرملية.

وجملة: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الأنبياء الذين بعثوا قبله، بعضهم قريب عهد به، وهم الذين عبّر عنهم القرآن بـ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ والبعض الآخر تقادمت الفترة الزمنية بينهم وبينه الذين عبّر عنهم بـ﴿مِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾.

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من هذه الجملة الأنبياء الذين جاؤوا قبل هود وبعده، فيبدو بعيداً جدّاً، ولا ينسجم مع جملة: ﴿وَقَدْ خَلَتِ﴾ التي تعني الزمن الماضي.

ولنرَ الآن ماذا كان محتوى دعوة هذا النّبي العظيم؟

يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ثمّ هدّدهم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وبالرغم من أنّ التعبير بـ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ جاء بمعنى يوم القيامة غالباً، إلاّ أنّه أطلق أحياناً في آيات القرآن على الأيّام القاسية المرعبة التي مرّت على الأمم، وهذا المعنى هو المراد هنا، لأنّنا نقرأ في متابعة هذه الآيات أنّ قوم عاد قد ابتلوا بعذاب الله في يوم عسر مرعب وانتهى أمرهم.

إلاّ أنّ هؤلاء القوم المتمردين وقفوا بوجه هذه الدعوة الإلهيّة، وخاطبوا هوداً: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[٢].

هاتان الجملتان تبيّنان بوضوح مدى انحراف هؤلاء القوم وتعصبهم، فهم في الجملة الأولى يقولون: إنّ دعوتك كاذبة، لأنّها تخالف آلهتنا التي تعوّدنا على عبادتها، وهي إرث ورثناه عن آبائنا.

ونراهم في الجملة الثّانية يطلبون وقوع العذاب! ذلك العذاب الذي إن نزل بهم فلا

---

(١) طبقاً لنقل المرحوم الشعراني في هامش تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ١٠، ص ١٦٥.

(٢) ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ من مادة «إفك»، أي الكذب والانحراف عن الحق.

رجعة معه مطلقاً، وأي ذي لب يتمنّى نزول مثل هذا العذاب، حتى وإن لم يكن لديه يقين بوقوعه؟

إلاّ أنّ هوداً عليه السلام قال في ردّه على هذا الطلب المتهور الذي يدل على الجنون: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يعلم متى وفي أي ظروف ينزل عذاب الاستئصال، فلا هو مرتبط بطلبكم وتمنيكم، ولا هو تابع لرغبتي، بل يجب أن يتمّ الهدف ويتحقق، ألا وهو إتمام الحجّة عليكم، فإن حكمته سبحانه تقتضي ذلك.

ثمّ يضيف: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ فهو مهمتي الأساسية، ومسؤوليتي الرئيسية، أمّا اتخاذ القرار في شأن طاعة الله وأوامره فهو أمر يتعلق بكم، وإرادة نزول العذاب ومشيئته تتعلق به سبحانه.

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وجهلكم هذا هو أساس تعاستكم وشقائكم، فإنّ الجهل المقترن بالكبر والغرور هو الذي يمنعكم من دراسة دعوة رسل الله، ولا يأذن لكم في التحقيق فيها... ذلك الجهل الذي يحملكم على الإصرار على نزول عذاب الله ليهلككم، ولو كان لديكم أدنى وعي أو تعقل لكنتم تحتملون - على الأقل - وجود احتمال إيجابي في مقابل كلّ الاحتمالات السلبية، والذي إذا ما تحقق فسوف لا يبقى لكم أثر.

وأخيراً لم تؤثر نصائح هود عليه السلام المفيدة، وإرشاداته الأخوية في قساة القلوب أُولئك، وبدل أن يقبلوا الحق لجّوا في غيّهم وباطلهم، وتعصبوا له، وحتى نوح عليه السلام كذّبه قومه بهذا الادّعاء الواهي وهو أنّك إن كنت صادقاً فيما تقول فأين عذابك الموعود؟

والآن، وقد تمّت الحجة بالقدر الكافي، وأظهر أُولئك عدم أهليتهم للبقاء، وعدم استحقاقهم للحياة، فإنّ حكمة الله سبحانه توجب أن يرسل عليهم «عذاب الاستئصال»، ذلك العذاب الذي يجتث كلّ شيء ولا يبقي ولا يذر.

وفجأة رأوا سحاباً قد ظهر في الأفق، واتسع بسرعة: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾(١).

(١) «عارض» من مادة (عرض)، وهنا بمعنى السحاب الذي ينتشر في عرض السماء، وربّما كان هذا أحد علامات السحب الممطرة بأنّها تتسع في ذلك الأفق ثمّ تصعد. و«الأودية» جمع واد، وهو المنخفض ومجرى السيول والمياه.

قال المفسّرون: إنّ المطر انقطع مدّة عن قوم عاد، وأصبح الهواء حاراً جافاً خانقاً، فلمّا وقع بصر قوم عاد على السحب المظلمة الواسعة في الأفق البعيد، وهي تتجه صوبهم فرحوا لذلك جدّاً، وهبّوا لاستقبالها، وجاؤوا إلى جوانب الوديان والسهول ومجاري السيول والمياه، ليروا منظر نزول المطر المبارك ليحيوا من جديد، وتسر بذلك نفوسهم.

لكن، قيل لهم سريعاً بأنّ هذا ليس سحاباً ممطراً: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والظاهر أنّ المتكلم بهذا الكلام هو الله سبحانه، أو أنّ هوداً لمّا سمع صرخات فرحهم واستبشارهم قال لهم ذلك.

نعم، إنّها ريح مدمّرة: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ البشر ودوابهم وأموالهم، لأنّ الجملة التالية تقول: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ وهذا يوحي بأنّ مساكنهم كانت سالمة، أمّا هم فقد هلكوا، وألقت الرياح القوية أجسادهم في الصحاري البعيدة، أو في البحر.

وقال البعض: إنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذه السحب السوداء هي رياح قوية مغبرة، إلاّ عندما وصلت قريباً من ديارهم، ورفعت دوابهم ورعاتهم - الذين كانوا في الصحاري المحيطة بهم - من الأرض ورمتهم في الهواء، ورأوا أنّها تقتلع الخيام من مكانها وتلقيها في الهواء حتى كانت تبدو كالجراد!

عندما رأوا ذلك المشهد، فروا والتجأوا إلى دورهم وأغلقوا الأبواب عليهم، إلاّ أنّ الأعاصير اقتلعت الأبواب وألقتها على الأرض - أو حملتها معها - ورمت أجساد هؤلاء بالأحقاف، وهي الرمال المتحركة.

وجاء في الآية (٧) من سورة الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ وهكذا بقي هؤلاء القوم يئنون تحت تل من الرمال والتراب، ثمّ أزالت الرياح القوية التراب فظهرت أبدانهم مرّة أُخرى، فحملتها وألقتها في البحر[١].

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٨، ص ٢٨، ذيل الآيات مورد البحث، وجاء هذا المعنى أيضاً في تفسير القرطبي، ج٩، ص ٦٠٢٦.

وتشير الآية في النهاية إلى حقيقة، وهي أنّ هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين، بل: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وهذا إنذار وتحذير لكلّ المجرمين العصاة، والكافرين المعاندين الأنانيين، بأنّكم إن سلكتم هذا الطريق فسوف لن يكون مصيركم أحسن حالاً من هؤلاء، فإنّه تعالى قد يأمر الرياح بأن تهلككم، ذات الرياح التي يعبر القرآن الكريم بأنّها: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾(١) لأنّ الرياح تتصف بصفة الأمر الإلهي المطلوب منها.

وقد يبدل الأرض التي هي مهد استقرار الإنسان واطمئنانه، إلى قبر له بزلزلة شديدة.

وقد يبدّل المطر الذي هو أساس حياة كلّ الكائنات الحية، إلى سيول جارفة تُغرق كل شيء.

نعم، إنّه عزّوجلّ يجعل جنود الحياة جنود موت وفناء، وكم هو مؤلم الموت الذي يأتي من سبب الحياة وأساسها؟ خاصّةً إذا كان الأمر كما في قوم هود إذ فرحوا وسروا في البداية ثمّ جاءتهم البطشة ليكون العذاب أشد وآلم.

والطريف أنّه يقول: إنّ هذه الرياح، هي في الأصل أمواج هوائية لطيفة تتحوّل إلى إعصار يدمّر كلّ شيء بأمر الله(٢).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٧، والفرقان، ٤٨.

(٢) «تدمّر» من مادة تدمير، وهو الإهلاك والإفناء.

التّفسير

لستم بأقوى من قوم عاد أبداً

إنّ هذه الآيات بمثابة استنتاج للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن عقاب قوم عاد الأليم، فتخاطب مشركي مكّة وتقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾(١) فقد كانوا أقوى منكم من الناحية الجسمية، وأقدر منكم من ناحية المال والثروة والإمكانات المادية، فإذا كان بإمكان القوّة الجسمية والمال والثروة والتطور المادي أن تنقذ أحداً من قبضة الجزاء الإلهي، فكان ينبغي على قوم عاد أن يصمدوا أمام العاصفة ولا يكونوا كالقشة في مهب الرياح، تتقاذفهم كيف شاءت ولا يبقى من آثارهم إلاّ أطلال مساكنهم!

إنّ هذه الآية شبيهة بما ورد في سورة الفجر في شأن قوم عاد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾(٢).

أو هي نظير ما جاء في الآية (٣٦) من سورة ق: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

وخلاصة القول: إنّ الذين كانوا أشدّ منكم وأقوى، عجزوا عن الوقوف أمام عاصفة العذاب الإلهي، فكيف بكم إذن؟

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾(٣) فقد كانوا أقوياء في مجال إدراك الحقائق وتشخيصها أيضاً، وكانوا يدركون الأمور جيداً، وكانوا يستغلون هذه المواهب الإلهيّة من أجل تأمين حاجاتهم ومآربهم المادية على أحسن وجه، لكن: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾(٤) وأخيراً: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

نعم، لقد كان أولئك مجهزين بالوسائل المادية، وبوسائل إدراك الحقيقة، إلاّ أنّهم

---

(١) «إن» في جملة ﴿إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ نافية ولدينا شواهد متعددة من آيات القرآن الكريم وردت في المتن. إلاّ أنّ البعض اعتبرها شرطية، أو زائدة ولا نرى ذلك صواباً.

(٢) سورة الفجر، الآيات: ٦ - ٨.

(٣) يجدر الانتباه إلى أنّ الأبصار والأفئدة وردت بصيغة الجمع، في حين أنّ السمع قد ورد بصيغة المفرد، ويمكن أن يكون هذا الاختلاف بسبب أنّ للسمع معنى المصدر، والمصدر يستعمل دائماً بصيغة المفرد، أو لوحدة المسموعات أمام تفاوت المرئيات والمدركات.

(٤) من في ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ زائدة وللتأكيد، أي لم ينفعهم أي شيء.

لما كانوا يتعاملون مع آيات الله بمنطق الاستكبار والعناد، وكانوا يتلقون كلام الأنبياء بالسخرية والاستهزاء، لم ينفذ نور الحق إلى قلوبهم، وهذا الكبر والغرور والعداء للحق هو الذي أدى إلى أن لا يستفيدوا ولا يستخدموا وسائل الهداية والمعرفة كالعين والأذن والعقل، ليجدوا طريق النجاة ويسلكوه، فكانت عاقبتهم أن ابتلوا بذلك المصير المشؤوم الذي أشارت إليه الآيات السابقة.

فإذا كان أُولئك القوم قد عجزوا عن القيام بأي عمل مع كلّ تلك القدرات والإمكانيات التي كانوا يمتلكونها، وأصبحت جثثهم الهامدة كالريشة في مهب الرياح تتقاذفهم من كلّ جانب بكلّ مذلة واحتقار، فأولى لكم أن تعتبروا إذ أنتم أضعف منهم وأعجز.

وليس عسيراً على الله تعالى أن يأخذكم بأشد العذاب نتيجة أعمالكم وجرائمكم، وأن يجعل عوامل حياتكم أسباب فنائكم، وهذا خطاب لمشركي مكّة، ولكلّ البشر المغرورين الظالمين العتاة على مر التاريخ، وفي كلّ الأعصار والأمصار.

وحقاً فإنّ الأمر كما يقول القرآن الكريم، فلسنا أوّل من وطأ الأرض، فقد كان قبلنا أقوام كثيرون يعيشون فيها، ولديهم الكثير من الإمكانيات والقدرات، فكم هو جميل أن نجعل تأريخ أُولئك مرآة لأنفسنا لنعتبر به، ولنرى من خلاله مستقبلنا ومصيرنا.

ثمّ تخاطب الآية مشركي مكّة من أجل التأكيد على هذا المعنى، ولزيادة الموعظة والنصيحة، فتقول: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾.

أُولئك الأقوام الذين لا تبعد أوطانهم كثيراً عنكم، وكان مستقرهم في أطراف جزيرة العرب، فقوم عاد كانوا يعيشون في أرض الأحقاف في جنوب الجزيرة، وقوم ثمود في أرض يقال لها «حجر» في شمالها، وقوم سبأ الذين لاقوا ذلك المصير المؤلم في أرض اليمن، وقوم شعيب في أرض مدين في طريقكم الشام، وكان قوم لوط يعيشون في هذه المنطقة، وابتلوا بأنواع العذاب لكثرة معاصيهم وكفرهم.

لقد كان كلّ قوم من أُولئك عبرة، وكان كلّ منهم شاهداً ناطقاً معبراً، يسأل: كيف لا يستيقظ هؤلاء ولا يعون مع كلّ وسائل التوعية هذه؟!

ثمّ تضيف الآية بعد ذلك: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فتارة أريناهم المعجزات وخوارق العادات، وأُخرى أنعمنا عليهم، وثالثة بلوناهم بالبلاء والمصائب، ورابعة عن طريق وصف الصالحين المحسنين، وأخرى بوصف المجرمين، وأخرى وعظناهم

بعذاب الاستئصال الذي أهلكنا به الآخرين، إلاّ أنّ الكبر والغرور والعجب لم يدع لهؤلاء سبيلاً إلى الهداية.

وتوبخ الآية الأخيرة من هذه الآيات هؤلاء العصاة، وتذمهم بهذا البيان: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾(١).

حقّاً، إذا كانت هذه الآلة على حق، فلماذا لا تعين أتباعها وعبادها وتنصرهم في تلك الظروف الحساسة، ولا تنقذهم من قبضة العذاب المهول المرعب؟ إنّ هذا بنفسه دليل محكم على بطلان عقيدتهم حيث كانوا يظنّون أنّ هذه الآلهة المخترعة هي ملجأهم وحماهم في يوم تعاستهم وشقائهم.

ثمّ تضيف: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ﴾ فإنّ هذه الموجودات التي لا قيمة لها ولا أهميّة، والتي ليست مبدأ لأي أثر، ولا تأتي بأي فائدة، وهي عند العسر صماء عمياء، فكيف تستحق الألوهية وتكون أهلاً لها؟

وأخيراً تقول الآية: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فإنّ هذا الهلاك والشقاء، وهذا العذاب الأليم، واختفاء الآلهة وقت الشدّة والعسر، كان نتيجةً لأكاذيب أُولئك وأوهامهم وافتراءاتهم(٢).

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

(١) المفعول الأوّل لـ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ محذوف، و﴿ءَالِهَةَۢ﴾ مفعولها الثاني، و﴿قُرْبَانًا﴾ حال، والتقدير: اتخذوهم آلهة من دون الله حال كونهم متقرباً بهم، ويحتمل أيضاً أن تكون ﴿قُرْبَانًا﴾ مفعولاً لأجله. وقد احتملت احتمالات أُخرى في تركيب الآية، لكنّها لا تستحق الاهتمام.

(٢) بناءً على هذا فإنّ للآية محذوفاً، والتقدير: وذلك نتيجة إفكهم. ويحتمل أيضاً أن لا تحتاج الآية إلى محذوف، وفي هذه الحالة يصبح المعنى: كان هذا كذبهم وافتراؤهم، غير أنّ المعنى الأوّل يبدو هو الأنسب.

سبب النزّول

وردت روايات مختلفة في سبب نزول هذه الآيات، ومن جملتها: أنّ رسول الله ﷺ خرج من مكّة إلى سوق عكاظ في الطائف - وكان معه زيد بن حارثة - من أجل أن يدعو الناس إلى الإسلام، إلاّ أنّ أحداً لم يجبه، فاضطر الى الرجوع إلى مكّة، وفي طريق عودته وصل إلى موضع يقال له: وادي الجن، فبدأ بتلاوة القرآن في جوف الليل، وكانت طائفة من الجن يمرون من هناك، فلما سمعوا قراءة النّبي ﷺ للقرآن أصغوا إليه وقال بعضهم لبعض: اسكتوا وانصتوا، فلما أتمّ رسول الله ﷺ تلاوته آمنوا به، وأتوا قومهم كرسل يدعونهم إلى الإسلام، فآمن لهم جماعة، وأتوا جميعاً إلى النّبي ﷺ فعلّمهم رسول الله ﷺ الإسلام، فنزلت هذه الآيات وآيات سورة الجن(١).

ونقل جماعة عن ابن عباس سبب نزول آخر يقرب من سبب النّزول السابق، وهو: أنّ النّبي ﷺ كان مشتغلاً بصلاة الصبح وكان يقرأ القرآن فيها، وكان جماعة من الجن في حالة بحث وتحقيق، إذ كان انقطاع أخبار السماء عنهم قد أقلقهم، فسمعوا صوت تلاوة النّبي ﷺ فقالوا: هذا سبب انقطاع أخبار السماء عنّا، فرجعوا إلى قومهم ودعوهم إلى الإسلام(٢).

وقد أورد العلاّمة الطبرسي في مجمع البيان سبباً ثالثاً للنزول هنا، وهو يرتبط بقصة سفر النّبي ﷺ إلى الطائف وخلاصته:

بعد وفاة أبي طالب صعب الأمر على النّبي ﷺ فرحل إلى الطائف لعله يجد أنصاراً، فبرز إليه أشراف الطائف وكذّبوه أشدّ تكذيب، ورموا النّبي بالحجارة حتى سالت الدماء من قدميه، فأعياه التعب، فأتى إلى جنب بستان واستظل بظل نخلة، وكانت الدماء تسيل منه.

وكان البستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وكانا من أثرياء قريش، فتأذى النّبي ﷺ من رؤيتهما لعلمه بعدائهما للإسلام من قبل، فأرسلا غلامهما «عداساً» -

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ١٩، باختصار يسير.

(٢) ورد هذا الحديث الذي أوردنا ملخصه في صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد بصورة مفصلة، طبقاً لنقل تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٤٢٩.

وكان رجلاً نصرانياً - إلى النبي ﷺ بطبق من العنب، فقال النبي ﷺ لعداس: «من أي أرض أنت»؟ قال: من نينوى، قال: «من مدينة العبد الصالح يونس بن متى»، فقال: وما يدريك من يونس بن متى؟ قال: «أنا رسول الله، والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى» فعرف عداس صدق النّبي ﷺ فخرّ ساجداً لله تعالى، ووقع على قدمي النّبي ﷺ يقبّلهما.

فلما رجع لامه عتبة وشيبة على ما صنع، فقال: لقد أخبرني هذا الرجل الصالح بما يجهله أهل هذه البلاد من أمر نبيّنا يونس، فضحكا وقالا: لا يفتننك عن نصرانيتك، فإنّه رجل خداع!

فرجع النّبي ﷺ إلى مكّة، ولم يكن حاصل سفره هذا إلاّ مؤمن واحد، فوصل نخلاً في جوف الليل، فما إن حلّ حتى تهيّأ للصلاة، وكان جماعة من الجن من أهل نصيبين أو اليمن يمرون من هناك، فسمعوا صوت تلاوة القرآن في صلاة الصبح فأصغوا إليه وآمنوا[1].

التّفسير

إيمان طائفة من الجن

جاء في هذه الآيات - وكما أُشير في سبب النّزول - بحث مختصر حول إيمان طائفة من الجن بنبيّ الإسلام ﷺ وكتابه السماوي، لتوضح لمشركي مكّة حقيقة، هي: كيف تؤمن طائفة من الجن البعيدين - ظاهراً - بهذا النّبي الذي هو من الإنس، وبعث من بين أظهركم، وأنتم تصرون على الكفر، وتستمرون في عنادكم ومخالفتكم؟

وسيكون لنا بحث مفصل حول (الجن) وخصوصياته في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى، ونتناول هنا تفسير الآيات مورد البحث فقط.

لقد كانت قصة قوم عاد تحذيراً لمشركي مكّة في الحقيقة، وقصة إيمان طائفة من الجن تحذيراً آخر.

تقول الآية أوّلاً: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٩٢. وأورد هذه القصة باختلاف يسير ابن هشام في تأريخه (السيرة النبوية)، ج ٢، ص ٦٢ - ٦٣.

إنّ التعبير بـ ﴿صَرَفْنَآ﴾ - من مادة صرف، يعني نقل الشيء وتبديله من حالة إلى أخرى - ولعله إشارة إلى أنّ الجن كانوا يصغون إلى أخبار السماء عن طريق استراق السمع، ومع ظهور نبيّ الإسلام ﷺ رجعوا إليه واتّجهوا نحو القرآن.

و«النفر» كما يقول الراغب في مفرداته - عدّة رجال يمكنهم النفر، بمعنى الهجرة من مكان لآخر، والمشهور بين أرباب اللغة أنّه الجماعة من الثلاثة إلى العشرة، وأوصلها البعض إلى الأربعين.

ثمّ تضيف الآية: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ وذلك حينما كان النّبي ﷺ يتلو آيات القرآن في جوف الليل، أو في صلاة الصبح.

﴿أَنصِتُوا۟﴾ من مادة إنصات، وهو السكوت مع الاستماع والانتباه.

وأخيراً أضاء نور الإيمان قلوب هؤلاء، فلمسوا في أعماقهم كون آيات القرآن حقاً، ولذلك: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ وهذا دأب المؤمنين دائماً، في أن يطلعوا الآخرين على الحقائق التي اطلعوا عليها، ويدلوهم على مصادر إيمانهم ومنابعه الفياضة.

وتبيّن الآية التالية كيفية دعوة هؤلاء قومهم عند عودتهم إليهم، تلك الدعوة المتناسقة الدقيقة، الوجيزة والعميقة المعنى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾.

ومن صفاته أنّا رأيناه يصدق الكتب السماوية السالفة ويتطابق معها في محتواها، وفيه العلائم الواردة في تلك الكتب: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(1).

وصفته الأُخرى أنّه: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بحيث إنّ كلّ من يستند إلى عقله وفطرته يرى آيات حقانيته واضحة جلية.

وآخر صفة أنّه يهدي إلى الرشد: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

إنّ التفاوت بين الدعوة إلى الحق والى الصراط المستقيم، يكمن ظاهراً في أنّ الأوّل إشارة إلى العقائد الحقة، والثّاني إلى البرامج العملية المستقيمة الصحيحة.

وجملة: ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وجملة: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تؤيدان أنّ هذه الطائفة كانوا مؤمنين بالكتب السماوية السابقة، وخاصة كتاب موسى عليه السلام، وكانوا يبحثون عن الحق.

(1) لقد أوردنا تفسير هذه الجملة مفصلاً في ذيل الآية ٤١ من سورة البقرة.

وإذا رأينا أنّ الكلام لم يرد عن كتاب عيسى الذي أنزل بعد موسى عليه السلام، فليس ذلك بسبب ما روي عن ابن عباس من أنّ الجن لم يكونوا مطلعين على نزول الإنجيل مطلقاً، إذ إنّ الجن كانوا مطلعين على أخبار السماوات وعالمين بها، فكيف يمكن أن يغفلوا عن أخبار الأرض إلى هذا الحد؟ بل بسبب أنّ التوراة كانت هي الكتاب الأساسي، فحتى المسيحيون كانوا قد أخذوا ويأخذون أحكام شريعتهم عنها.

ثمّ أضافوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ إذ ستمنحون حينها مكافأتين عظيمتين: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

المراد من: ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يرشدهم إلى الله سبحانه، ولما كان أغلب خوف الإنسان واضطرابه من الذنوب وعذاب القيامة الأليم، فقد ذكروا لهم الأمن تجاه هذين الأمرين، ليلفت انتباههم قبل كلّ شيء.

واعتبر جمع من المفسّرين كلمة ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ زائدة، ليكون ذلك تأكيداً على غفران جميع الذنوب في ظل الإيمان، في حين اعتبرها البعض تبعيضية، وأنّها إشارة إلى تلك الذنوب التي اقترفوها قبل إيمانهم، أو الذنوب التي تتعلق بالله سبحانه، لا بحق الناس.

غير أنّ الأنسب هو كون ﴿مِّن﴾ زائدة وللتأكيد، والآية الشريفة تشمل كلّ الذنوب.

وتذكر الآية الأخيرة - من هذه الآيات - كلام مبلغي الجن، فتقول: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ ينصرونه من عذاب الله، ولذلك فإنّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي ضلال أشد وأسوأ وأجلى من أن يهبّ الإنسان إلى محاربة الحق ونبيّ الله، بل حتى إلى محاربة الله الذي لا ملجأ له سواه في كلّ عالم الوجود، ولا يستطيع الإنسان أن يفر من حكومته إلى مكان آخر؟!

وقد قلنا مراراً: إنّ (معجز) - أو سائر مشتقات هذه الكلمة - تعني في مثل هذه الموارد العجز عن المطاردة والتعقيب والمجازاة، وبتعبير آخر: الفرار من قبضة العقاب.

---

(١) ﴿وَيُجِرْكُم﴾ من مادة (إجارة)، وقد وردت بمعان مختلفة: الإغاثة، الإنقاذ من العذاب، الإيواء، والحفظ.

وعبارة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أنّكم حيثما تذهبون في الأرض فإنّه ملك الله وسلطانه، ولا يمكن أن تكونوا خارج حدود قدرته وقبضته، وإذا كانت الآية لا تتحدث عن السماء، فلأنّ مكان الإنس والجن هو الأرض على كلّ حال.

بحثان

١ - الإعلام المؤثر

كما قلنا سابقاً، فإنّ البحث حول الجن وكيفية حياتهم والخصوصيات الأُخرى المتعلقة بهم ستأتي في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى، والذي يستفاد من هذه الآيات أنّ الجن موجودات عاقلة لها إدراك وشعور، وهم مكلّفون بالواجبات الإلهيّة، وفيهم المؤمن والكافر، ولديهم الاطلاع الكافي على الدعوات الإلهية.

والمسألة الملفتة للنظر في هذه الآيات هو الأسلوب الذي اتبعه هؤلاء للتبليغ من أجل الإسلام بين قومهم، فهم بعد حضورهم عند النّبي ﷺ وسماعهم آيات القرآن، واطلاعهم على محتواها، أتوا قومهم مسرعين وشرعوا بدعوتهم.

لقد تحدّثوا أوّلاً عن كون القرآن حقّاً، وأثبتوا ذلك بأدلة ثلاثة، ثمّ بدأوا بترغيبهم، فبشروهم بالنجاة والخلاص من قبضة عذاب الآخرة في ظل الإيمان بهذا الكتاب السماوي، وكان ذلك تأكيداً على مسألة المعاد من جانب، وصرف الاهتمام إلى قيم الآخرة الأصيلة في مقابل قيم الدنيا الزائلة الفانية من جانب آخر.

ثمّ نبّهوهم في المرحلة الثّالثة على أخطار ترك الإيمان، وحذروهم تحذيراً مقترناً بالاستدلال والحرص، وأخيراً بيّنوا لهم عاقبة الانحراف عن هذا المسير، فالانحراف عنه هو الضلال المبين.

إنّ هذا الأسلوب في التبليغ والإعلام أُسلوب مؤثر نافع لكلّ فرد ولكلّ فئة.

٢ - أفضل دليل على عظمة القرآن محتواه

يظهر جلياً من الآيات أعلاه - وآيات سورة الجن - أنّ هذه الفرقة من الجن قد انجذبوا إلى القرآن وانشدّوا إليه بمجرّد سماع آياته، ولا يوجد أي دليل على أنّهم قد طلبوا من نبيّ الإسلام ﷺ معجزة أُخرى.

لقد اعتبر هؤلاء انسجام القرآن المجيد مع آيات الكتب السابقة من جهة، وأنّه يدعو

إلى الحق من جهة ثانية، واستقامة برامجه العملية وتخطيطه من جهة ثالثة، كافياً لأن يدل على كونه حقاً.

والحق أنّ الأمر كذلك، فإنّ التدبّر في محتوى القرآن والتحقيق فيه يغنينا عن الحاجة إلى أي دليل آخر.

إنّ كتاباً لشخص أُمي لم يدرس، وفي محيط مليء بالجهل والخرافات، يكون فيه هذا المحتوى السامي، والعقائد الطاهرة النقية، والتوحيد الخالص، والقوانين المحكمة المنسجمة، والاستدلالات القوية القاطعة، والبرامج المتينة البنّاءة، والمواعظ والإرشادات العالية الجلية، وبتلك الجاذبية القوية، والجمال المذهل، كل ذلك يشكل بنفسه أفضل دليل على حقانية هذا الكتاب السماوي، فإنّ ظهور الشمس دليل على ظهورها - كما يقول المثل -[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

فاصبر كما صبر أولو العزم

تواصل هذه الآيات - وهي آخر آيات سورة الأحقاف - البحث حول المعاد، حيث جاءت الإشارة إلى مسألة المعاد في الآيات السابقة حكاية عن لسان مبلغي الجن. هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى فإنّ سورة الأحقاف تتحدث في فصولها الأولى عن مسألة التوحيد،

(١) كان لنا بحث مفصّل حول إعجاز القرآن في التّفسير الأمثل، ذيل الآية (٢٣) من سورة البقرة.

وعظمة القرآن المجيد، وإثبات نبوة نبيّ الإسلام ﷺ، وتبحث في آخر فصل من هذه السورة مسألة المعاد لتكمل بذلك البحث في الأصول الاعتقادية الثلاثة.

تقول الآية الأولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإنّ خلق السماوات والأرض مع موجوداتها المختلفة المتنوعة علامة قدرته تعالى على كلّ شيء، لأنّ كل ما يقع في دائرة هذا العالم فهو مخلوق للّه، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يكون عاجزاً عن إعادة حياة البشر؟ وهذا بحدّ ذاته دليل قاطع مفحم على مسألة إمكان المعاد.

وأساساً فإنّ أفضل دليل على إمكان أي شيء وقوعه، فكيف نسمح لأنفسنا بالشك في قدرة الله المطلقة على مسألة المعاد ونحن نرى نشأة الموجودات الحية وتولدها من موجودات ميتة، وعلى هذا النطاق الواسع؟

هذا أحد أدلة المعاد العديدة التي يؤكّد عليها القرآن ويستند إليها في آيات مختلفة، ومن جملتها الآية (٨١) من سورة يس(١).

وتجسّد الآية التالية مشهداً من العذاب الأليم المحيط بالمجرمين ومنكري المعاد، فتقول: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾(٢).

أجل، فمرّة تُعرض النّار على الكافرين، وأخرى يُعرض الكافرون على النّار، ولكل من العرضين هدف أشير إليه قبل عدّة آيات.

وعندما يُعرض الكافرون على النّار، ويرون ألسنة لهبها العظيمة المحرقة المرعبة يقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾؟ وهل تستطيعون اليوم أن تنكروا البعث ومحكمة الله العادلة، وثوابه وعقابه، وتقولون: ما هذا إلاّ أساطير الأولين؟

غير أنّ أُولئك الذين لا حيلة لهم: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فهنا يقول الله سبحانه، أو ملائكة العذاب: ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وبهذا فإنّهم يرون كلّ الحقائق بأم أعينهم في ذلك اليوم ويعترفون بذلك الاعتراف الذي لن ينفعهم، وسوف لن تكون نتيجته إلاّ الهم والحسرة، وتأنيب الضمير والعذاب الروحي.

(١) طالع التفصيل حول هذا الموضوع، وأدلّة المعاد المختلفة في ذيل آخر آيات سورة يس.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

ويأمر الله سبحانه نبيّه في آخر آية من هذه الآيات، وهي آخر آية في سورة الأحقاف، على أساس ملاحظة ما مرّ في الآيات السابقة حول المعاد وعقاب الكافرين، أن: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ فلست الوحيد الذي واجه مخالفة هؤلاء القوم وعداوتهم، فقد واجه أولو العزم هذه المشاكل وثبتوا أمامها واستقاموا، فنبيّ الله العظيم نوح عليه السلام دعا قومه (٩٥٠) سنة، ولم يؤمن به إلاّ فئة قليلة، وكان قومه يؤذونه دائماً، ويسخرون منه.

وألقوا إبراهيم عليه السلام في النّار، وهددوا موسى عليه السلام بالقتل، وكان قلبه قد امتلأ قيحاً من عصيانهم، وكانوا يريدون قتل المسيح عليه السلام بعد أن آذوه كثيراً، فأنجاه الله منهم.

وخلاصة القول: إنّ الأمر كان وما يزال كذلك ما كانت الدنيا، ولا يمكن التغلب على هذه المشاكل إلاّ بقوّة الصبر والاستقامة والثبات.

من هم أولو العزم من الرسل؟

هناك بحث واختلاف كبير جدّاً بين المفسّرين في: مَن هم أولو العزم؟ وقبل أن نحقق في هذا، ينبغي أن نحقق في معنى ﴿الْعَزْمِ﴾، لأنّ ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾ بمعنى ذوي العزم.

﴿الْعَزْمِ﴾ بمعنى الإرادة الصلبة القوية، ويقول الراغب في مفرداته: إنّ العزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر.

وقد استعملت كلمة ﴿الْعَزْمِ﴾ في مورد الصبر في آيات القرآن المجيد أحياناً، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(١).

وجاءت أحياناً بمعنى الوفاء بالعهد، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(٢).

لكن بملاحظة أنّ أصحاب الشرائع والأديان الجديدة من الأنبياء قد ابتلوا بمشاكل أكثر، وواجهوا مصاعب أشد، وكانوا بحاجة إلى عزم وإرادة أقوى وأشد لمواجهتها، فقد أطلق على هذه الفئة من الأنبياء ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾ والآية مورد البحث إشارة إلى هذا المعنى ظاهراً، وهي تشير ضمناً إلى أن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الفئة، لأنّها تقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ﴾.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٣.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٥.

وإذا كان البعض قد فسّر العزم والعزيمة بمعنى الحكم والشريعة فمن هذه الجهة، وإلاّ فإنّ كلمة العزم لم تأتِ في اللغة بمعنى الشريعة.

وعلى أية حال، فطبقاً لهذا المعنى تكون ﴿مِّنَ﴾ في ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تبعيضية، وإشارة الى فئة خاصّة من الأنبياء كانوا أصحاب شريعة، وهم الذين أشارت إليهم الآية ٧ من سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾.

فقد أشارت الآية إلى هؤلاء الأنبياء الخمسة بعد ذكر جميع الأنبياء بصيغة الجمع، وهذا دليل على خصوصيتهم.

وتتحدث الآية (١٣) من سورة الشورى عنهم أيضاً، فتقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

وقد رويت في هذا الباب روايات كثيرة في مصادر الشيعة والسنّة، تدل على أنّ الأنبياء أولي العزم كانوا خمسة، كما ورد في حديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «ومنهم خمسة: أولهم نوح، ثمّ إبراهيم ثمّ موسى، ثمّ عيسى، ثمّ محمّد»(١).

وجاء في حديث آخر عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «منهم خمسة أولو العزم من المرسلين: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد». وعندما يسأل الراوي: لِمَ سموا ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾؟ يقول الإمام عليه السلام مجيباً: «لأنّهم بعثوا إلى شرقها وغربها، وجنّها وإنسها»(٢).

وكذلك ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «سادة النبيّين والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل، وعليهم دارت الرحى: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد»(٣).

وروي هذا المعنى في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أيضاً، بأنّ الأنبياء أولي العزم هم هؤلاء الخمسة(٤).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٩٤، ذيل الآيات مورد البحث.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٥٨، ح ٦١، ويتحدث الحديث ٥٥، ص ٥٦، من المجلد المذكور بصراحة في هذا الباب.

(٣) أُصول الكافي، ج ١، ص ١٧٥، باب طبقات الأنبياء والرسل، ح ٣.

(٤) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٤٥، وتفسير الكشاف، ذيل الآية مورد البحث.

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ ﴿أُوْلُواْ الْعَزْمِ﴾ إشارة إلى الأنبياء الذين أُمروا بمحاربة الأعداء وجهادهم.

واعتبر البعض عددهم (٣١٣) نفراً[١]، ويرى البعض أنّ جميع الأنبياء (أولو عزم) أي أصحاب إرادة[٢] صلبة وطبقاً لهذا القول، فإنّ ﴿مِّنَ﴾ في ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ بيانية لا تبعيضية.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أصح منها جميعاً، وتؤيده الروايات الإسلامية.

ثمّ يضيف القرآن بعد ذلك: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي للكفّار لأنّ القيامة ستحل سريعاً، وسيرون بأعينهم ما أطلقوه عليها وادعوه فيها، ويجزون أشدّ العذاب، وعندها سيطلعون على أخطائهم، ويعرفون ما كانوا عليه من الضلالة والغي.

إنّ عمر الدنيا قصير جدّاً بالنسبة إلى عمر الآخرة، حتى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾.

إنّ هذا الإحساس بقصر عمر الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، إمّا بسبب أنّ هذه الحياة ليست إلاّ ساعة أمام تلك الحياة الخالدة حقيقة وواقعاً، أو لأنّ الدنيا تنقضي عليهم سريعاً حتى كأنّها لم تكن إلاّ ساعة، أو من جهة أنّهم لا يرون حاصل كلّ عمرهم الذي لم يستغلوه ويستفيدوا منه الاستفادة الصحيحة إلاّ ساعة لا أكثر.

هنا سيغطي سيل الأحزان والحسرة قلوب هؤلاء، ولات حين ندم، إذ لا سبيل الى الرجوع.

لهذا نرى النّبي ﷺ وقد سئل: كم ما بين الدنيا والآخرة؟ فقال: «غمضة عين، ثمّ يقول: قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾»[٣]. وهذا يوحي بأنّ التعبير بالساعة لا تعني مقدار الساعة المتعارفة، بل هو إشارة إلى الزمان القليل القصير.

ثمّ تضيف الآية كتحذير لكلّ البشر ﴿بَلَٰغٌۚ﴾[٤] لكلّ أُولئك الذين خرجوا عن خط العبودية لله تعالى.. لأولئك الغارقين في بحر الحياة الدنيا السريعة الزوال والفناء، والعابدين شهواتها.. وأخيراً هو بلاغ لكلّ سكان هذا العالم الفاني.

(١-٢) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٤٥، وتفسير الكشاف، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) روضة الواعظين، ج ٢، ص ٤٤٨، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥.

(٤) ﴿بَلَٰغٌۚ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا القرآن بلاغ، أو: هذا الوعظ والإنذار بلاغ.

وتقول في آخر جملة تتضمن استفهاماً عميق المعنى، وينطوي على التهديد: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾؟

ملاحظة

كان نبيّ الإسلام مثال الصبر والاستقامة

إنّ حياة أنبياء الله العظام - وخاصة نبيّ الإسلام ﷺ - تبيان لمقاومتهم اللامحدودة أمام الحوادث الصعبة والشدائد العسيرة، والعواصف الهوجاء، والمشاكل القاصمة، ولما كان طريق الحق مليئاً بهذه المشاكل دائماً، فيجب على سالكيه أن يستلهموا العبر من أولئك العظماء في هذا المسير.

إنّنا ننظر عادة من نقطة مضيئة في تاريخ الإسلام إلى أيّام مرّت على الإسلام ونبيّه ﷺ صعبة مظلمة، وهذه النظرة من المستقبل إلى الماضي تجسم الوقائع والحقائق بشكل آخر، فينبغي علينا أن ندرك أنّ النّبي ﷺ كان وحيداً فريداً لا يرى في أفق الحياة أية علامة للانتصار.

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتك به، حتى أنّ أقاربه وعشيرته كانوا في الخط الأوّل في هذه المجابهة!

كان يذهب دائماً إلى قبائل العرب ويدعوهم، ولكن لم يكن يجيبه أحد.

كانوا يرجمونه حتى تسيل الدماء من عقبيه، لكنه لم يكن يكفّ عن عمله.

لقد فرضوا عليه الحصار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بحيث أغلقوا جميع الأبواب والطرق بوجهه وبوجه أتباعه، حتى مات بعضهم جوعاً، وأقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت على النّبي ﷺ أيّام يصعب على القلم واللسان وصفها، فعندما جاء إلى الطائف ليدعو الناس إلى الإسلام، لم يكتفوا بعدم إجابة دعوته، بل رموه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه.

لقد كانوا يحثّون الجهلاء من الناس على أن يصرخوا، ويسيئوا في كلامهم إليه، فيضطر إلى أن يلتجئ إلى بستان ويستظل بظل شجرة، ويناجي ربّه فيقول: «اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدوّ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي...»[(١)].

---

(١) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٦١.

كانوا يسمونه ساحراً تارة، وأُخرى يخاطبونه بالمجنون.

كانوا يلقون التراب والرماد على رأسه حيناً، وحيناً يجمعون على قتله، فيحاصرون بيته بالسيوف والرماح.

إلاّ أنّه رغم كلّ تلك الظروف استمر في صبره وصموده واستقامته.

وأخيراً جنى الثمرة الطيبة لهذه الشجرة المباركة، فقد عمّ دينه شرق العالم وغربه، لا جزيرة العرب وحدها، ويدوّي اليوم صوت انتصاره صباح مساء في كلّ أرجاء الدنيا، وفي قارات العالم الخمس، وهذا هو معنى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

وهذا هو طريق محاربة الشياطين، وطريق الانتصار عليهم، والوصول إلى الأهداف الإلهيّة السامية.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يطمح طلاب الراحة والسلامة إلى أن يصلوا إلى أهدافهم الكبيرة من دون صبر وتحمل للعذاب والآلام؟

وكيف يأمل مسلمو اليوم أن ينتصروا على كلّ هؤلاء الأعداء الذين اجتمعت كلمتهم على إفنائهم والقضاء عليهم، دون الاستلهام من دين نبيّ الإسلام الأصيل؟

والقادة الإسلاميون بخاصة مأمورون بهذا الأمر قبل الجميع، كما ورد في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ الصبر على ولاة الأمر مفروض، لقول الله عزّ وجلّ لنبيّه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإيجابه مثل ذلك على أوليائه وأهل طاعته بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾»(١).

اللّهمّ امنحنا هذه الموهبة العظيمة، هذه العطية السماوية، وهذا الصبر والثبات والاستقامة أمام المشاكل.

اللّهمّ وفقنا لحفظ مشعل النور الذي حمله أولو العزم من أنبيائك، وخاصة خاتم النبيين محمّد صلى الله عليه وآله، من أجل هداية البشرية بعد تحملهم الجهود المضنية، ووفقنا لأن نكون أهلاً لحراسته.

إلهنا! إنّ أعداء الحق متحدون ومتحزّبون ضده، ولا يرتدعون عن اقتراف أية جريمة وجناية، اللّهمّ فامنحنا صبراً وثباتاً أعظم مما لديهم لئلا نركع أمام سيل المشاكل وعظمتها، ووفقنا لأن نتخطى الأمواج والعواصف ونتركها وراءنا، وهذا لا يتمّ إلاّ بعونك ولطفك اللامحدود.

---

(١) احتجاج الطبرسي طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٣.

سُورَة مُحَمَّد

مدنيّة وعدد آياتـها ثمان وثلاثون

محتوى السورة

سمّيت هذه السورة بسورة محمّد ﷺ لأنّ اسمه الشريف قد ذكر في الآية الثانية، واسمها الآخر هو سورة القتال، والواقع أنّ مسألة الجهاد وقتال أعداء الإسلام هو أهم موضوع ألقى ظلاله على هذه السورة، في حين أنّ جزءاً مهماً آخر من آيات هذه السورة يتناول المقارنة بين حال المؤمنين والكافرين وخصائصهم وصفاتهم، وكذلك المصير الذي ينتهي إليه كلّ منهما في الحياة الآخرة.

ويمكن تلخيص محتوى السورة بصورة عامة في عدة فصول:

١ - مسألة الإيمان والكفر، والمقارنة بين أحوال المؤمنين والكفّار في هذه الدنيا وفي الحياة الآخرة.

٢ - بحوث معبرة بليغة وصريحة حول مسألة الجهاد وقتال المشركين، والتعليمات الخاصة فيما يتعلق بأسرى الحرب.

٣ - شرح أحوال المنافقين الذين كان لهم نشاطات هدّامة كثيرة حين نزول هذه الآيات في المدينة.

٤ - فصل آخر يتناول مسألة السير في الأرض، وتدبر مصير الأقوام الماضية وعاقبتهم، كدرس للاعتبار والاتعاظ.

٥ - وفي جانب من آيات هذه السورة ذكرت مسألة الاختبار الإلهي لمناسبتها موضوع القتال والجهاد.

٦ - ورد الحديث في فصل آخر عن مسألة الإنفاق الذي يعتبر بحدّ ذاته نوعاً من الجهاد، وجاء الحديث عن مسألة البخل الذي يقع في الطرف المقابل.

٧ - وتناولت بعض آيات هذه السورة - لمناسبة موضوعها - مسألة الصلح مع الكفّار - الصلح الذي يكون أساساً لهزيمة المسلمين وذلّتهم - ونهت عنه.

وبالجملة، فبملاحظة أنّ هذه السورة قد نزلت في المدينة حينما كان الاشتباك شديداً

بين المسلمين وأعداء الإسلام، وعلى قول بعض المفسّرين أنّها نزلت أثناء معركة أُحد أو بعدها بقليل، فإنّ أهم مسألة فيها هي قضية الجهاد والحرب، وتدور بقية المسائل حول ذلك المحور.. الحرب المصيرية التي تميّز المؤمنين عن الكافرين والمنافقين.. الحرب التي كانت تثبت دعائم الإسلام، وردّت كيد الأعداء الذين هبّوا للقضاء على الإسلام والمسلمين في نحورهم - وأوقفتهم عند حدّهم.

فضل تلاوة السورة

جاء في حديث عن نبي الإسلام الأكرم ﷺ: «من قرأ سورة محمّد كان حقّاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنّة»(١).

وروي في كتاب ثواب الأعمال عن الصادق عليه السلام، أنّه قال: «من قرأ سورة الذين كفروا - سورة محمّد لم يرتب أبداً، ولم يدخله شكّ في دينه، ولم يبتله الله بفقر أبداً، ولا خوف سلطان أبداً، ولم يزل محفوظاً من الشرك والكفر أبداً حتى يموت، فإذا مات وكّل الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره، ويكون ثواب صلاتهم له ويشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمن عند الله عزّ وجلّ، ويكون في أمان الله، وأمان محمّد»(٢).

من الواضح أنّ الذين يعيشون محتوى هذه السورة في نفوسهم وأعماق وجودهم، وتشبّعت به أرواحهم، وهم أشداء في جهاد الأعداء اللدودين القساة، والذين لم يدعوا للشك والتزلزل الى أنفسهم سبيلاً، تكون أسس دينهم قوية، وإيمانهم صلباً، ولا يملكهم خوف ولا تنالهم ذلة ولا يعتريهم فقر، وهم في الآخرة منعمون في جوار رحمة الله.

وجاء في حديث آخر أنّ الإمام عليه السلام قال: «من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرأ سورة محمّد فإنّه يراها آية فينا وآية فيهم»(٣).

وقد نقل هذا الحديث مفسرو السنّة أيضاً، كالآلوسي في روح المعاني(٤) والسيوطي في الدر المنثور(٥).

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٤٤، بداية سورة محمّد.
(٢) ثواب الأعمال، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٥، ص ٢٥.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج ٩، أوّل السورة.
(٤) تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ٣٣.
(٥) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٤٦.

وهذه السورة تبيان لحقيقة أنّ أهل بيت النّبي عليهم السلام كانوا نموذجاً لأكمل الإيمان وأتمه، وأنّ بني أمية كانوا المثال البارز للكفر والنفاق.

صحيح أنّه لم يرد تصريح باسم أهل البيت ولا باسم بني أمية في هذه السورة، لكن لمّا كان البحث فيها عن فئة المؤمنين والمنافقين وخصائص كلّ منهما، فإنّها تشير قبل كلّ شيء إلى مصداقين واضحين، ولا مانع في نفس الوقت من أن تشمل السورة سائر المؤمنين والمنافقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾

التّفسير

المؤمنون أنصار الحق، والكافرون أنصار الباطل

إنّ هذه الآيات الثلاث تعتبر في الحقيقة مقدمة لأمر حربي مهم صدر في الآية الرابعة، فبيّنت الأُولى منها وضع الكافرين وحالهم، والثانية حال المؤمنين، وقارنت ثالثتهما بين الاثنين، وذلك لتتهيأ الأرضية والاستعداد للجهاد الديني ضد الأعداء الظالمين العتاة باتضاح حال الفئتين.

تقول الآية الأولى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وهي إشارة الى زعماء الكفر ومشركي مكّة الذين كانوا يشعلون نار الحروب ضد الإسلام، ولم يكتفوا بكونهم كفاراً، بل كانوا يصدون الآخرين عن سبيل الله بأنواع الحيل والخدع والمخططات.

ومع أنّ بعض المفسّرين - كالزمخشري في الكشّاف - فسّر «الصدّ» هنا بمعنى الإعراض عن الإيمان، في مقابل الآية التالية التي تتحدث عن الإيمان، إلاّ أنّ الإحاطة بموارد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم توجب الحفاظ على معناها الأصلي، وهو المنع.

والمراد من: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أنّه يحبطها ويجعلها هباءً منثوراً، لأنّ الإحباط والإضاعة كناية عن بقاء الشيء بدون حماية ولا عماد، ولازم ذلك زواله وفناؤه.

وعلى أية حال، فإنّ بعض المفسّرين يرون أنّ هذه الجملة إشارة إلى الذين نحروا الإبل يوم بدر وأطعموها الناس، إذ نحر أبو جهل عشرة من الإبل، ومثله صفوان، وسهيل بن عمر، لإطعام جيش الكفر[1]. لكن لمّا كانت هذه الأعمال من أجل التفاخر ومكائد الشيطان فقد أحبطت جميعاً.

غير أنّ الظاهر أنّها لا تنحصر بهذا المعنى، بل إنّ كلّ أعمالهم التي قاموا بها، وظاهرها معونة للفقراء والضعفاء، أو إقراء للضيف، أو غير ذلك، ستحبط لعدم إيمانهم.

وبغض النظر عن ذلك، فإنّ الله سبحانه قد أحبط كلّ مؤامراتهم وما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام والقضاء على المسلمين، وحال بينهم وبين الوصول إلى أهدافهم الخبيثة.

والآية التالية وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون في الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم في الآية السابقة، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[2].

إنّ ذكر الإيمان بما نزل على نبيّ الإسلام ﷺ بعد ذكر الإيمان بصورة مطلقة، تأكيد على تعليمات هذا النّبي العظيم ومناهجه، وهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وتبيان لحقيقة أنّ الإيمان بالله سبحانه لا يتمّ أبداً بدون الإيمان بما نزل على النّبي ﷺ.

ويحتمل أيضاً أن تكون الجملة الأولى إشارة إلى الإيمان بالله تعالى، ولها جانب عقائدي، وهذه الجملة إشارة إلى الإيمان بمحتوى الإسلام وتعليمات النّبي ﷺ، ولها الجانب العملي.

وبتعبير آخر، فإنّ الإيمان بالله سبحانه لا يكفي وحده، بل يجب أن يؤمنوا بما نزل على النّبي ﷺ، وأن يكون لهم إيمان بالقرآن، إيمان بالجهاد، إيمان بالصلاة والصوم، وإيمان بالقيم الأخلاقية التي نزلت عليه، ذلك الإيمان الذي يكون مبدأ للحركة، وتأكيداً على العمل الصالح.

---

(١) تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ٣٣.
(٢) اعتبر جماعة من المفسّرين جملة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة.

وممّا يستحق الانتباه أنّ الآية تقول بعد ذكر هذه الجملة: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهي تعني أنّ إيمانهم لم يكن تقليداً، أو أنه لم يقم على دليل وحجة، بل إنّهم آمنوا بعد أن رأوا الحق فيه.

وعبارة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تأكيد على حقيقة أنّ الحق يأتي دائماً من قبل الله سبحانه، فهو يصدر منه، ويعود إليه.

والجدير بالالتفات إليه أنّ الآية تبيّن ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، في مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادين عن سبيل الله: أولهما: التكفير عن السيئات التي لا يخلو منها أي إنسان غير معصوم، والثاني: إصلاح البال.

لقد جاء «البال» بمعان مختلفة، فجاء بمعنى الحال، العمل، القلب، وعلى قول الراغب: بمعنى الحالات العظيمة الأهمّية، وبناءً على هذا فإنّ إصلاح البال يعني تنظيم كلّ شؤون الحياة والأُمور المصيرية، وهو يشمل - طبعاً - الفوز في الدنيا، والنجاة في الآخرة، على عكس المصير الذي يلاقيه الكفار، إذ لا يصلون إلى ثمرة جهودهم ومساعيهم، ولا نصيب لهم إلاّ الهزيمة والخسران بحكم: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

ويمكن القول بأنّ غفران ذنوبهم نتيجة إيمانهم، وأنّ إصلاح بالهم نتيجة أعمالهم الصالحة.

إنّ للمؤمنين هدوءاً فكرياً واطمئناناً روحياً من جهة، وتوفيقاً ونجاحاً في برامجهم العملية من جهة ثانية، فإنّ لإصلاح البال إطاراً واسعاً يشمل الجميع، وأي نعمة أعظم من أن تكون للإنسان روح هادئة، وقلب مطمئن، وبرامج مفيدة بنّاءة.

وبيّنت الآية الأخيرة العلة الأساسية لهذا الانتصار وتلك الهزيمة من خلال مقارنة مختصرة بليغة، فقالت: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

هنا يكمن سرّ المسألة بأنّ خطّي الإيمان والكفر يتفرعان عن خطّي الحق والباطل، فالحق يعني الحقائق العينية، وأسماها ذات الله المقدّسة، وتليها الحقائق المتعلقة بحياة الإنسان، والقوانين الحاكمة في علاقته بالله تعالى، وفي علاقته بالآخرين.

والباطل يعني الظنون، والأوهام، والمكائد والخدع، والأساطير والخرافات، والأفعال الجوفاء التي لا هدف من ورائها، وكلّ نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمة في عالم الوجود.

نعم، إنّ المؤمنين يتبعون الحق وينصرونه، والكفّار يتبعون الباطل ويؤازرونه، وهنا يكمن سرّ انتصار هؤلاء، وهزيمة أُولئك.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[1].

وفسّر البعض «الباطل» بالشيطان، وآخرون بالعبثية، لكن كما قلنا، فإنّ للباطل معنى واسعاً يشمل هذين التّفسيرين وغيرهما.

وتضيف الآية في النهاية: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: كما أنّه سبحانه قد بيّن الخطوط العامّة لحياة المؤمنين والكفّار، وعقائدهم وبرامجهم العملية ونتائج أعمالهم في هذه الآيات، فإنّه يوضح مصير حياتهم وعواقب أعمالهم.

يقول الراغب في مفرداته: المثل عبارة عن قول يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة يبيّن أحدهما الآخر.

ويستفاد من كلام آخر له أنّ هذه الكلمة تستعمل أحياناً بمعنى «المشابهة»، وأحياناً بمعنى «الوصف».

والظاهر أنّ المراد في هذه الآية هو المعنى الثاني، أي إنّ الله سبحانه يصف حال الناس هكذا، كما مثّل الجنّة في الآية (١٥) من سورة محمّد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

وعلى أية حال، فالذي يستفاد من هذه الآية جيداً، أنّنا كلما اقتربنا من الحق اقتربنا من الإيمان، وسنكون أبعد عن حقيقة الإيمان وأقرب إلى الكفر بتلك النسبة التي تميل بها أعمالنا نحو الباطل، فإنّ أساسي الإيمان والكفر هما الحق والباطل.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ ۛ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

(١) سورة ص، الآية: ٢٧.

التفسير

يجب الحزم في ساحة الحرب

كما قلنا سابقاً، فإنّ الآيات السابقة كانت مقدمة لتهيئة المسلمين من أجل إصدار أمر حربي مهم ذكر في الآيات مورد البحث، فتقول الآية: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾(١).

من البديهي أن «ضرب الرقاب» كناية عن القتل، وعلى هذا فلا ضرورة لأن يبذل المقاتلون قصارى جهدهم لأداء هذا الأمر بالخصوص، فإنّ الهدف هو دحر العدوّ والقضاء عليه، ولما كان ضرب الرقاب أوضح مصداق له، فقد أكّدت الآية عليه.

وعلى أية حال، فإنّ هذا الحكم مرتبط بساحة القتال، لأنّ ﴿لَقِيتُمُ﴾ - من مادة اللقاء - تعني الحرب والقتال في مثل هذه الموارد، وفي نفس هذه الآية قرائن عديدة تشهد لهذا المعنى كمسألة أسر الأسرى، ولفظة الحرب، والشهادة في سبيل الله، والتي وردت في ذيل الآية.

وخلاصة القول: إنّ اللقاء يستعمل - أحياناً - بمعنى اللقاء بأي شكل كان، وأحياناً بمعنى المواجهة والمجابهة في ميدان الحرب، واستعمل في القرآن المجيد بكلا المعنيين، والآية مورد البحث ناظرة إلى المعنى الثّاني.

ومن هنا يتّضح أنّ أُولئك الذين حوّروا هذه الآية وفسّروها بأنّ الإسلام يقول: حيثما وجدتم كافراً فاقتلوه، لم يريدوا إلاّ الإساءة إلى الإسلام، واتخاذ الآية بمعناها المحرّف حربة ضد الدين الحنيف، ومحاولة منهم لتشويه صورة الإسلام الناصعة، وإلاّ فإنّ الآية صريحة في اللقاء في ساحة الحرب وميدان القتال.

من البديهي أنّ الإنسان إذا واجه عدوّاً شرساً في ميدان القتال، ولم يقابله بحزم ولم يكل له الضربات القاصمة ولم يذقه حرّ سيفه ليهلكه، فإنّه هو الذي سيهلك، وهذا القانون منطقي تماماً.

ثمّ تضيف الآية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾.

---

(١) «ضرب» مصدر مفعول مطلق لفعل مقدر، والتقدير: اضربوا ضرب الرقاب، كما صرّحت الآية (١٢) من سورة الأنفال بذلك إذ قالت: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾.

﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ من مادة ثخن، بمعنى الغلظة والصلابة، ولهذا تطلق على النصر والغلبة الواضحة، والسيطرة الكاملة على العدو.

وبالرغم من أنّ أغلب المفسّرين فسّروا هذه الجملة بكثرة القتل في العدوّ وشدّته، إلاّ أنّ هذا المعنى لا يوجد في أصلها اللغوي، كما قلنا، ولكن لمّا كان دفع خطر العدوّ غير ممكن أحياناً إلاّ بكثرة القتل فيه، فيمكن أن تكون مسألة القتل أحد مصاديق هذه الجملة في مثل هذه الظروف، لا أنّها معناها الأصلي(١).

وعلى كلّ حال، فإنّ الآية المذكورة تبيّن تعليماً عسكرياً دقيقاً، وهو أنّه يجب أن لا يُقدَم على أسر الأسرى قبل تحطيم صفوف العدوّ والقضاء على آخر حصن لمقاومته، لأنّ الإقدام على الأسر قد يكون سبباً في تزلزل وضع المسلمين في الحرب، وسيعيق المسلمين الاهتمام بأمر الأسرى ونقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسي.

وعبارة ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ وبملاحظة أنّ الوثاق هو الحبل، أو كلّ ما يربط به، يشير الى إتقان العمل في شدّ وثاق الأسرى، لئلا يستغل الأسير فرصة يفر فيها، ثمّ يوجّه ضربةً إلى الإسلام والمسلمين.

وتبيّن الجملة التالية حكم أسرى الحرب الذي يجب أن يقام بحقّهم بعد انتهاء الحرب، فتقول: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ وعلى هذا لا يمكن قتل الأسير الحربي بعد انتهاء الحرب، بل إنّ ولي أمر المسلمين - طبقاً للمصلحة التي يراها - يطلق سراحهم مقابل عوض أحياناً، وبلا عوض أحياناً أخرى، وهذا العوض - في الحقيقة - نوع من الغرامة الحربية التي يجب أن يدفعها العدوّ.

طبعاً يوجد حكم ثالث في الإسلام فيما يتعلق بهذا الموضوع، وهو استعباد الأسرى، إلاّ أنّه ليس أمراً واجباً، بل هو راجع إلى ولي أمر المسلمين ينفّذه عندما يراه ضرورة في ظروف خاصة، ولعلّه لم يرد في القرآن بصراحة لهذا السبب، بل بيّنته الرّوايات الإسلامية فقط.

يقول فقيهنا المعروف «الفاضل المقداد» في «كنز العرفان»: إنّ ما روي عن مذهب

---

(١) ينقل صاحب لسان العرب عن ابن الأعرابي أنّ: أثخن: إذا غلب وقهر.

أهل البيت عليهم السلام أنّ الأسير لو أسر بعد انتهاء الحرب فإنّ إمام المسلمين مخيّر بين ثلاثة: إمّا إطلاقه دون شرط، أو تحريره مقابل أخذ الفدية، أو جعله عبداً، ولا يجوز قتله بأي وجه.

ويقول في موضع آخر من كلامه: إنّ مسألة الرق استفيدت من الروايات، لا من متن الآية[١].

وقد وردت هذه المسألة في سائر الكتب الفقهية أيضاً[٢].

وسنشير إلى هذا المطلب في بحث الرق الذي سيأتي في ذيل هذه الآيات.

ثمّ تضيف الآية بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[٣] فلا تكفوا عن القتال حتى تحطّموا قوى العدوّ ويصبح عاجزاً عن مواجهتكم، وعندها سيخمد لهيب الحرب.

«الأوزار» جمع وزر، وهو الحمل الثقيل، ويطلق أحياناً على المعاصي، لأنّها تثقل كاهل صاحبها.

والطريف أنّ هذه الأوزار نسبت إلى الحرب في الآية، إذ تقول: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وهذه الأحمال الثقيلة كناية عن أنواع الأسلحة والمشاكل الملقاة على عاتق المقاتلين، والتي يواجهونها، وهي بعهدتهم ما كانت الحرب قائمة.

لكن متى تنتهي الحرب بين الإسلام والكفر؟

سؤال أجاب عنه المفسّرون إجابات مختلفة:

فالبعض - كابن عباس - قال: حتى لا تبقى وثنية على وجه البسيطة، وحتى يقتلع دين الشرك وتجتث جذوره.

وقال البعض الآخر: إنّ الحرب بين الإسلام والكفر قائمة حتى ينتصر المسلمون على الدجال، وهذا القول يستند إلى حديث روي عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «والجهاد ماض مذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمّتي الدجال»[٤].

البحث حول «الدجّال» بحث واسع، لكن القدر المعلوم أنّ الدجّال رجل خدّاع، أو

(١) كنز العرفان، ج ١، ص ٣٦٥.
(٢) الشرائع، كتاب الجهاد. شرح اللمعة، أحكام الغنيمة.
(٣) «حتى» غاية لـ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. واحتملت احتمالات أخرى لا تستحق الاهتمام.
(٤) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٩٧.

رجال خدّاعون ينشطون في آخر الزمان من أجل إضلال الناس عن أصل التوحيد والحق والعدالة، وسيقضي عليهم المهدي (عج) بقدرته العظيمة، وعلى هذا فإنّ الحرب قائمة بين الحق والباطل ما عاش الدجّالون على وجه الأرض.

إنّ للإسلام نوعين من المحاربة مع الكفر: أحدهما الحروب المرحلية كالغزوات التي غزاها النّبي ﷺ حيث كانت السيوف تغمد بعد انتهاء كل غزوة. والآخر هو الحرب المستمرة ضد الشرك والكفر، والظلم والفساد، وهذا النوع مستمر حتى زمن اتساع حكومة العدل العالمية، وظهورها على الأرض جميعاً على يد المهدي (عج).

ثمّ تضيف الآية: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾[1] بالصواعق السماوية، والزلازل، والعواصف، والابتلاءات الأُخرى، لكن باب الاختبار وميدانه سيغلق في هذه الصورة: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

هذه المسألة هي فلسفة الحرب، والنكتة الأساسية في صراع الحق والباطل، ففي هذه الحروب ستتميز صفوف المؤمنين الحقيقيين والعاملين من أجل دينهم عن المتكلمين في المجالس المتخاذلين في ساعة العسرة، وبذلك ستتفتح براعم الاستعدادات، وتحيا قوّة الاستقامة والرجولة، ويتحقق الهدف الأصلي للحياة الدنيا، وهو الابتلاء وتنمية قوّة الإيمان والقيم الإنسانية الأُخرى.

إذا كان المؤمنون يتقوقعون على ذواتهم وينشغلون بالحياة اليومية الرتيبة، وفي كل مرة تطغى فيها جماعة من المشركين والظالمين يدحضهم الله سبحانه بالقوى الغيبية، ويدمّرهم بالطرق الإعجازية، فإنّ المجتمع سيكون خاملاً ضعيفاً عاجزاً، ليس له من الإسلام والإيمان إلاّ اسمه.

وخلاصة القول: إنّ الله سبحانه غني عن سعينا وجهادنا من أجل تثبيت دعائم دينه، بل نحن الذين نتربّى في ميدان جهاد الأعداء، ونحن الذين نحتاج إلى هذا الجهاد المقدّس.

وقد ذكر هذا المعنى في آيات القرآن الأُخرى بصيغ أخرى، فنقرأ في الآية (١٤٢) من سورة آل عمران: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

وجاء في الآية التي سبقتها: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

---

(١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك.

وتحدّثت آخر جملة من الآية مورد البحث عن الشهداء الذين قدّموا أرواحهم هدية لدينهم في هذه الحروب، ولهم فضل كبير على المجتمع الإسلامي، فقالت: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

فلن تذهب جهودهم وآلامهم وتضحياتهم سدى، بل كلها محفوظة عند الله سبحانه، فستبقى آثار تضحياتهم في هذه الدنيا، وكلّ نداء ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ يطرق سمع البشر يمثل ثمرة جهود أولئك الشهداء، وكلّ سجدة يسجدها مسلم بين يدي الله هي من بركات تضحياتهم، فبمساعيهم تحطّمت قيود المذلّة والعبودية، وعزّة المسلمين ورفعتهم رهينة ما بذلوه من الأرواح والتضحيات.

هذه هي إحدى مواهب الله في شأن الشهداء.

وهناك ثلاث مواهب أُخرى أضيفت في الآيات التالية:

تقول الآية أوّلاً: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى المقامات السامية، والفوز العظيم، ورضوان الله تعالى.

والأخرى: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ فيهبهم هدوء الروح، واطمئنان الخاطر، والنشاط المعنوي والروحي، والانسجام مع صفاء ملائكة الله ومعنوياتهم، حيث يجعلهم جلساءهم وندماءهم في مجالس أنسهم ولذّتهم، ويدعوهم إلى ضيافته في جوار رحمته.

والموهبة الأخيرة هي: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾.

قال بعض المفسّرين: إنّه تعالى لم يبيّن لهم الصفات الكلية للجنّات العلى وروضة الرضوان وحسب، بل عرف لهم صفات قصورهم في الجنّة وعلاماتها، بحيث إنّهم عندما يردون الجنّة يتوجّهون إلى قصورهم مباشرة[(١)].

وفسر البعض ﴿عَرَّفَهَا﴾ بأنّها من مادة «عرف» - على زنة فكر - ، وهو العطر الطيب الرائحة، أي إنّ الله سبحانه سيدخلهم الجنّة التي عطّرها جميعاً استقبالاً لضيوفه.

إلاّ أنّ التفسير الأوّل يبدو هو الأنسب.

وقال البعض: إذا ضممنا هذه الآيات إلى آية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾[(٢)]، سيتّضح أنّ المراد من إصلاح البال إحياؤهم حياة يصلحون بها للحضور عند ربّهم بانكشاف الغطاء[(٣)].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٩٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٣) تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٢٤٤.

بحوث

١ - مقام الشهداء السامي

تمرّ في تأريخ الشعوب أيام تحدق الأخطار فيها بتلك الأمم والشعوب، ولا يمكن دفع هذه الأخطار والحفاظ على الأهداف المقدّسة العظيمة إلاّ بالتضحية والفداء وتقديم القرابين الكثيرة، وهنا يجب أن يتوجّه المؤمنون المضحّون إلى ساحات القتال، ليحفظوا دين الحق بسفك دمائهم، ويسمى هؤلاء الأفراد في منطق الإسلام بـ «الشهداء».

إنّ إطلاق كلمة الشهيد - من مادة الشهود - على هؤلاء، إمّا لحضورهم في ميدان الجهاد ضد أعداء الحق، أو لأنّهم يشاهدون ملائكة الرحمة لحظة شهادتهم، أو لمشاهدتهم النعم العظيمة التي أُعدّت لهم، أو لحضورهم عند الله، كما جاء في الآية الشريفة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١].

وقلّ من يصل إلى درجة الشهيد في الإسلام.. أُولئك الشهداء الذين يذهبون إلى ساحة الحرب بين الحق والباطل عن وعي وخلوص نيّة، ويقدّمون آخر قطرة من دمائهم الزكية في هذا السبيل.

ونلاحظ في المصادر الإسلامية روايات عجيبة حول مقام الشهداء، تحكي عظمة عمل الشهداء، وقيمته الفذّة.

فنقرأ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ فوق كلّ بر براً حتى يقتل الرجل شهيداً في سبيل الله»[٢].

وجاء في حديث آخر روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «المجاهدون في الله قوّاد أهل الجنّة»[٣].

ونطالع في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من قطرة أحبّ إلى الله من قطرة دم في سبيل الله، أو قطرة من دموع عين في سواد الليل من خشية الله، وما من قدم أحبّ إلى الله من خطوة إلى ذي رحم، أو خطوة يتمّ بها زحفاً في سبيل الله»[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٥، وج ٧٤، ص ٨٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٤.

وإذا قلبنا أوراق تأريخ الإسلام، فسنرى الشهداء قد سجّلوا القسم الأعظم من الافتخارات، وهم الذين قدّموا القسط الأوفر من الخدمة.

وليس هذا في الأمس فقط، فإنّ ثقافة الشهادة المصيرية اليوم ترعب العدوّ أيضاً، وتمزّق صفوفه، وتمنعه من النفوذ إلى حصون الإسلام، وتزرع اليأس في نفسه من إمكان تخطّيها، فما أكثر بركة ثقافة الشهادة للمسلمين، وما أشدّها على أعداء الدين.

لكن، لا شكّ أنّ الشهادة ليست هدفاً، بل الهدف هو الانتصار على العدوّ، وحراسة دين الله والحفاظ عليه، إلاّ أنّ هؤلاء الحراس على دينهم يجب أن يكونوا على أهبة الاستعداد، بحيث إذا إحتاج الحال بذل النفوس والدماء فإنّهم لا يتأخّرون عن بذلها، بل يبادرون إلى البذل والتضحية والإيثار، وهذا هو معنى كون الأمّة منجبة للشهداء، لا أنّهم يطلبون الشهادة كهدف نهائي.

لهذا نقرأ في نهاية حديث مفصل روي عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأن مقام الشهداء أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أقسم وقال: «والذي نفسي بيده، لو كان الأنبياء في طريقهم لترجلوا لهم لما يرون من بهائهم، ويشفع الرجل منهم في سبعين ألفاً من أهل بيته وجيرته»[1].

وهناك نكتة تستحق الاهتمام، وهي أنّ للشهادة في ثقافة الإسلام معنيين مختلفين: معنى «خاص»، وآخر «عام» واسع.

أمّا الخاص فهو القتل في سبيل الله في معركة الجهاد، وله أحكامه الخاصة في الفقه الإسلامي، ومن جملتها أنّ الشهيد لا يغسل ولا يكفن، بل يدفن بثيابه ودمائه إذا توفي في ميدان المعركة!!

أمّا المعنى العام الواسع للشهادة، فهو أن يقتل الإنسان في طريق تأدية الواجب الإلهي، فإنّ كلّ من يرحل عن الدنيا وهو في حالة أداء هذا الواجب يعد شهيداً، ولذلك ورد في الروايات الإسلامية أنّ عدة فئات يغادرون الدنيا وهم شهداء:

١ - روي عن نبي الإسلام الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذا الحال مات شهيداً»[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٠٠، ص ١٤.

(٢) سفينة البحار، ج ١، مادة شهد.

٢ - يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من مات على فراشه وهو على معرفة حق ربّه، وحق رسوله وأهل بيته، مات شهيداً»[١].

٣ - نقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قتل دون ماله فهو شهيد»[٢].

وكذلك آخرون يقتلون في طريق الحق، أو يموتون فيه، ومن هنا تتّضح عظمة ثقافة الإسلام هذه، ومدى سعتها.

وننهي هذا البحث بحديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، عن آبائه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أوّل من يدخل الجنّة الشهيد»[٣].

٢ - أهداف القتال في الإسلام

إنّ القتال لا يعتبر في الإسلام قيمة من القيم، بل يعتبر ضد القيم من جهة كونه باعثاً على الخراب والتدمير، وإزهاق الأنفس، وإهدار القوى والإمكانيات التي يمكن أن تسخّر لخدمة الإنسان وسعادته ورفاهه، ولذلك جُعل في بعض الآيات القرآنية في مصاف العقوبات الإلهية، فنرى الآية (٦٥) من سورة الأنعام تقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

فقد اعتبر القتال هنا بمثابة الصاعقة والزلزلة والابتلاءات الأرضية والسماوية، ولذلك فإنّ الإسلام يمتنع عن القتال والحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أمّا إذا تعرّض وجود الأمّة للخطر، أو أنّ أهدافه المقدّسة السامية أصبحت مهددة بالسقوط، فإنّ القتال هنا يعتبر قيمة سامية، ويكتسب عنوان الجهاد في سبيل الله، ولذلك توجد في الإسلام أنواع من الجهاد: الجهاد الابتدائي، المحرر للأُمم، والجهاد الدفاعي، والجهاد من أجل إخماد نار الفتنة والشرك والوثنية، وقد أوردنا تفصيلها في موضع آخر[٤].

بناءً على هذا فإنّ الجهاد الإسلامي على خلاف ما يدّعيه أعداء الإسلام من أنّه يعني فرض العقيدة على الآخرين، بل إنّ العقيدة المفروضة لا قيمة لها في الإسلام، لكن الجهاد يتعلق بالموارد التي يشن فيها العدوّ الحرب ضد الأمّة الإسلامية، أو عندما

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠، آخر الخطبة.
(٢) سفينة البحار، ج ١، مادة شهد.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٧٢.
(٤) التفسير الأمثل، ذيل الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

يسلبها الحريات التي منحها الله إيّاها، أو أنّه يريد أن يهدر حقوقها ويصادرها، أو أنّ ظالماً قد أخذ بأنفاس مظلوم فيجب على المسلمين حينئذ أن يهبوا لنصرة المظلوم، حتى وإن أدّى الأمر إلى قتال القوم الظالمين.

وقد عكست الآيات السابقة هذا المعنى في عبارة لطيفة وجيزة، حينما تقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وعلى هذا فإنّ الحرب هي حرب بين الحق والباطل، لا أنّها وسيلة لتكوين الدولة، ومحاولة توسيع رقعتها، والإغارة على أموال الآخرين، والتسلّط وإعمال القوة والإرهاب.

ولهذا السبب - أيضاً - قرأنا في الرواية التي أوردناها في تفسير هذه الآيات أنّ نار الحرب لن تخمد في المجتمع الإنساني إلاّ بعد القضاء على الدجّالين، وتطهير الأرض من دنسهم.

وهنا نكتة تستحق الانتباه، وهي أنّ الإسلام قد أكّد على مسألة التعايش السلمي مع أتباع الأديان السماوية الأُخرى، وقد وردت في الآيات والرّوايات والفقه الإسلامي بحوث مفصلة في هذا الباب تحت عنوان (أحكام أهل الذمّة) فإذا كان الإسلام يؤيّد فرض العقيدة والإكراه عليها، ويتوسّل بالقوة والسيف من أجل تحقيق أهدافه، فأي معنى إذن لقانون أهل الذمّة والتعايش السلمي؟

٣ - أحكام أسرى الحرب

قلنا: يجب على المسلمين أن لا يفكروا في أسر أفراد العدوّ إلاّ بعد هزيمة العدوّ الكاملة واندحاره التام، لأنّ هذا التفكير والانشغال بالأسرى قد يتضمّن أخطاراً جسيمة.

غير أنّ أُسلوب الآيات - مورد البحث - يدل على وجوب الإقدام على أسر أفراد العدوّ بعد هزيمته، فالآية تقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ ثمّ تضيف: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ وعلى هذا يجب أسرهم بدل قتلهم بعد الانتصار عليهم، وهو أمر لابدّ منه، لأنّ العدوّ إذا ترك وشأنه فمن الممكن أن ينظم قواه مرّة أُخرى ليهجم على المسلمين من جديد.

إلاّ أنّ الحال يختلف بعد الأسر، إذ يكون الأسير أمانة إلهيّة بيد المسلمين رغم كلّ الجرائم التي ارتكبها، ويجب أن تراعى فيه حقوق كثيرة.

إنّ القرآن يمجد أولئك الذين آثروا الأسير على أنفسهم، وقدّموا له طعامهم، فيقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ وهذه الآية - طبقاً لرواية معروفة - نزلت في

علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، إذ كانوا صائمين وأعطوا إفطارهم لمسكين مرّة وليتيم أخرى، لأسير ثالثة.

وحتى الأسرى الذين يقتلون بعد الحرب استثناءً، إمّا لكونهم خطرين، أو لارتكابهم جرائم خاصّة، فإنّ الإسلام أمر أن يحسن إليهم قبل تنفيذ الحكم بحقّهم، كما نرى ذلك في حديث عن علي عليه السلام: «إطعام الأسير والإحسان إليه حق واجب، وإن قتلته من الغد»[1].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة[2]، حتى أنّه ورد في حديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «إذا أخذت أسيراً فعجز عن المشي وليس معك محمل فأرسله ولا تقتله، فإنّك لا تدري ما حكم الإمام فيه»[3].

بل ورد في التأريخ في أحوال أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّهم كانوا يطعمون الأسرى من نفس الطعام الذي كانوا يتناولونه.

إلاّ أنّ حكم الأسير - وكما قلنا في تفسير الآيات - بعد انتهاء الحرب أحد ثلاثة: إمّا إطلاق سراحه من دون قيد أو شرط، أو إطلاق سراحه مقابل دفع غرامة مالية هي الفدية، أو استرقاقه، واختيار أحد هذه الأُمور الثلاثة منوط بنظر إمام المسلمين، فهو الذي يختار ما يراه الأصلح بعد الأخذ بنظر الاعتبار ظروف الأسرى، ومصالح الإسلام والمسلمين من الناحية الداخلية والخارجية، وبعد ذلك يأمر بتنفيذ ما اختاره.

بناءً على هذا، فليس لأخذ الفدية أو الاسترقاق صفة الإلزام والوجوب، بل هما تابعان للمصالح التي يراها إمام المسلمين، فإذا لم تكن مصلحة فيهما فله أن يغض النظر عنهما، ويطلق سراح الأسرى دون طلب الفدية.

وقد بحثنا حول فلسفة أخذ الفدية بصورة مفصلة لدى تفسير الآية ٧٠ من سورة الأنفال.

٤ - الرق في الإسلام

بالرغم من أنّ مسألة «استرقاق أسرى الحرب» لم ترد في القرآن المجيد كحكم حتمي، لكن لا يمكن إنكار ورود أحكام في القرآن فيما يتعلق بالعبيد، وهي تثبت وجود

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٦٩.

(٢-٣) يراجع فروع الكافي، ج ٥، ص ٣٥، باب الرفق بالأسير وإطعامه.

أصل الرقية حتى في زمان النّبي ﷺ وصدر الإسلام، كالأحكام المتعلقة بالزواج من العبيد، أو كونهم محرماً، أو مسألة المكاتبة (وهي اتفاق يتحرر بموجبه العبد بعد أدائه مبلغاً من المال يتفق عليه) وقد وردت هذه الأحكام في آيات عديدة من القرآن في سورة النساء، النحل، المؤمنون، النور، الروم، والأحزاب.

وهنا يعترض البعض على الإسلام بأنّه: لماذا لم يلغ هذا الدين الإلهي مسألة الرق تماماً مع ما يحتويه من القيم الإنسانية السامية، ولم يعلن تحرير كلّ العبيد من خلال إصدار حكم قطعي؟!

صحيح أنّ الإسلام أوصى كثيراً بالرقيق، إلاّ أنّ المهم هو تحريرهم بدون قيد شرط، فلماذا يكون الإنسان مملوكاً لإنسان آخر مثله، ويفقد الحرية التي هي أعظم عطايا الله سبحانه؟!

الجواب

يجب القول في جملة موجزة: إنّ للإسلام برنامجاً دقيقاً مدروساً لتحرير العبيد، تؤدّي نهايته إلى تحرير جميع العبيد تدريجياً، دون أن يكون لهذه الحرية ردّ فعل سلبي في المجتمع.

وقبل أن نتناول توضيح هذه الخطة الإسلامية الدقيقة، نرى لزاماً ذكر عدة نقاط كمقدمة:

١ - الإسلام لم يكن المبتدع للرق مطلقاً، بل إنّه لمّا ظهر كانت مسألة العبودية والرقيق قد عمّت أرجاء العالم، وكانت معجونة بظلام المجتمعات البشرية وبوجودها، بل استمرت مسألة الرقيق في كلّ المجتمعات حتى بعد الإسلام أيضاً، وبقيت مستمرة حتى قبل مائة عام حيث بدأت ثورة تحرير الرقيق، حيث لم تعد مسألة الرقيق مقبولة بشكلها القديم نتيجة اختلاف نظام حياة البشر، وتغيره عمّا كان عليه.

إنّ إلغاء العبودية بدأ من أوروبا، ثمّ اتسع في سائر الدول ومن جملتها أمريكا وآسيا.

لقد استمر الرق في إنجلترا حتى سنة ١٨٤٠، وفي فرنسا حتى سنة ١٨٤٨، وفي هولندا إلى سنة ١٨٦٣، وفي أمريكا إلى سنة ١٨٦٥، ثمّ عقد مؤتمر بروكسل فأصدر قراراً بإلغاء الرق في أنحاء العالم، وكان ذلك سنة ١٨٩٠، أي قبل أقل من مائة عام.

٢ - تغيير شكل الرق في دنيا اليوم: صحيح أنّ الغربيين كانوا قد سبقوا إلى إلغاء الرق، إلاّ أنّنا عندما نحقق في المسألة بدقة، نرى أنّ الرق لم تقتلع جذوره، بل إنّه

تحور من حالة إلى أُخرى أخطر وأكثر رعباً، أي إنّه اتخذ شكل استعمار الشعوب، واسترقاق المستعمرات، بحيث كلما ضعف الرق الفردي قوي الاسترقاق الجماعي والاستعمار، فإنّ الإمبراطورية البريطانية التي كانت سبّاقة إلى إلغاء الرق، تعتبر السبّاقة أيضاً في استعمار الشعوب.

إنّ الجرائم التي ارتكبها المستعمرون الغربيون طوال مدة استعمارهم لم تكن أقل من جرائم مرحلة العبودية، بل كانت أوسع وأشدّ إجراماً.

وحتى بعد تحرر المستعمرات، فإنّ استعباد الأُمم قد استمر، لأنّ هذه الحرية كانت حرية سياسية، أمّا الاستعمار الاقتصادي والثقافي فلا يزال حاكماً في كثير من المستعمرات التي نالت حريتها، وغيرها.

وأمّا الدول الشيوعية التي نادت قبل الجميع بإلغاء العبودية، واتخذتها ذريعة في ثورتها، فإنّها بالذات مبتلاة بنوع من الاسترقاق العام الذي يندى له الجبين، فإنّ الشعوب التي تعيش في ظل هذه الدول تكون كالعبيد تماماً لا يملكون من أمرهم شيئاً، ويعيّن أعضاء الحزب الشيوعي كلّ مقدراتهم وما يتعلق بشؤون حياتهم، وإذا ما أبدى أحد وجهة نظر مخالفة فإمّا أن يرسل إلى المخيّمات الإجبارية، أو يلقى في دهاليز السجون، وإذا كان من العلماء فإنّه يبعث إلى دار المجانين باعتباره مختل العقل ومصاباً بمرض نفسي وعصبي.

والخلاصة: إنّ الرق لا يتبع الاسم، فإنّ القبيح والمرفوض هو محتوى الرق، ونحن نعلم أنّ مفهوم الرق قائم في الدول الاستعمارية والدول الشيوعية بأسوأ أشكاله.

والنتيجة: إنّ إلغاء الرق في العالم كان صورياً، ولم يكن في الحقيقة إلاّ تبديل للصورة والشكل الظاهري.

٣ - مصير الرقيق المؤلم في الماضي

لقد كان للرقيق على مرّ التاريخ مصير مؤلم جدّاً، ولنأخذ على سبيل المثال عبيد الرومان - باعتبارهم قوماً متمدنين - كنموذج، فإنّهم - على حدّ قول كاتب «روح القوانين» - كانوا تعساء بحيث لم يكونوا عبيداً لفرد، وإنّما كانوا يعتبرون عبيداً لكل المجتمع، وكان باستطاعة كلّ شخص أن يعذّب عبده ويؤذيه كما يحلو له دون خوف من القانون. لقد كانت حياة أولئك أسوأ من حياة الحيوانات في الواقع.

لقد كان الكثير من الرقيق يموتون في الفترة بين اصطيادهم من المستعمرات الأفريقية

وحتى عرضهم في الأسواق للبيع، وما تبقى منهم كان يُتخذ وسيلة للاستغلال في العمل، وكان تجار العبيد الطامعون لا يعطونهم من الغذاء إلاّ ما يبقيهم أحياء وقادرين على العمل، أمّا عند كبرهم وعجزهم وابتلائهم بأمراض يصعب علاجها، فإنّهم كانوا يتركونهم وشأنهم ليسلموا الروح بشكل أليم، ولذلك كان اسم الرق يقترن بسيل من الجرائم المرعبة على مرّ التاريخ.

وباتضاح هذه النكات نعود إلى خطة الإسلام في تحريره العبيد تدريجياً، ونتناولها بصورة مختصرة.

٤ - خطة الإسلام لتحرير العبيد

إنّ ما يغفل عنه غالباً هو أنّ ظاهرة سلبية إذا توغّلت في مفاصل المجتمع، فهناك حاجة إلى فترة زمنية لاقتلاع جذورها، ولكلّ حركة غير مدروسة ردّ فعل سلبي، تماماً كما إذا ابتلي إنسان بمرض خطير، وقد استفحل هذا المرض في بدنه، أو من اعتاد على تناول المخدرات لعشرات السنين حتى تطبع على هذه الطبيعة المستهجنة، ففي هذه الموارد يجب الاعتماد على برامج زمنية لعلاجه قد تطول وقد تقصر.

ونقول بأسلوب أكثر صراحةً: لو أنّ الإسلام كان قد أصدر أمراً عاماً بتحرير كل العبيد، فربّما كان الضرر أكثر، وقد يهلك منهم عدد أكثر، لأنّ الرقيق كانوا يشكلون نصف المجتمع أحياناً، وليس لهم عمل مستقل يتكسبون به، ولا دار أو ملجأ، أو وسيلة ما لإدامة الحياة.

إنّ هؤلاء لو تحرّروا في ساعة معينة من يوم معين فستظهر على الساحة فجأةً جماعة عظيمة عاطلة عن العمل، وعندها ستكون حياتهم مهددة وربّما أدّى إلى إرباك نظام المجتمع، وعندما يلح عليه الحرمان فسيجد نفسه مضطراً إلى الهجوم على ممتلكات الآخرين، فتنشب الصراعات والاشتباكات ونزف الدماء.

هنا ندرك الغاية من التحرير التدريجي، وذلك ليستوعبهم المجتمع ولا يشمئز منهم، وحينئذ سوف لا تتعرض أرواحهم للخطر، كما لا يتهدد أمن المجتمع، وقد اتبع الإسلام هذا البرنامج الدقيق تماماً.

إنّ تطبيق وترجمة هذا البرنامج الإنساني على أرض الواقع العملي له قواعد كثيرة نذكرها هنا بصورة موجزة وكفهرس، أمّا تفصيلها فيحتاج إلى كتاب مستقل:

المادة الأولى: غلق مصادر الرق

لقد كان للرق على طول التاريخ أسباب كثيرة، فلم يقتصر الاستعباد على أسرى الحرب، والمدينين الذين يعجزون عن أداء ديونهم، حيث كانت القوّة والغلبة تبيح الاسترقاق والاستعباد، بل إنّ الدولة القوية كانت ترسل فرقاً من جيوشها وهم مدجّجون بأنواع الأسلحة إلى الدول الأفريقية المتخلفة وأمثالها، ليأسروا شعوب تلك الدول جماعات جماعات، ثمّ يرسلونهم بواسطة السفن إلى أسواق بلدان آسيا وأوربا.

لقد منع الإسلام كلّ هذه المسائل، ووقف حائلاً دونها، ولم يبح الاسترقاق إلاّ في مورد واحد، وهو أسرى الحرب، وحتى هذا لم يكن يتصف بالوجوب والإلزام، بل إنّ الإسلام قد أجاز - وكما قلنا في تفسير الآيات المذكورة - إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية يؤدّونها تبعاً لمصلحة الإسلام والمسلمين.

ولم تكن في تلك الأيام سجون يسجن فيها أسرى الحرب حتى يتبيّن وضعهم وماذا يجب فعله معهم، بل كان الطريق الوحيد هو تقسيمهم بين العوائل، والاحتفاظ بهم كرقيق.

من البديهي أنّ هذه الظروف إذا تغيّرت فلا دليل على أنّ إمام المسلمين ملزم بأن يرضى برق الأسرى، بل هو قادر على تحريرهم إمّا منّاً أو فداءً، لأنّ الإسلام خيّر الإمام المسلمين في هذا الأمر، كي يقدم على اختيار الأصلح من خلال مراعاة المصلحة، وبهذا فإنّ مصادر الرق الجديدة قد أُغلقت في الإسلام.

المادة الثانية: فتح نافذة الحرية

لقد وضع الإسلام برنامجاً واسعاً لتحرير العبيد، بحيث إنّ المسلمين لو عملوا بموجبه فإنّ كلّ العبيد كانوا سيتحررون في مدة وجيزة وبصورة تدريجية، وكان المجتمع سيستوعبهم ويؤمّن لهم ما يحتاجونه من اللوازم الحياتية، من عمل ومسكن وغير ذلك.

وإليك رؤوس نقاط هذا البرنامج:

أ - إنّ أحد الموارد الثمانية لصرف الزكاة في الإسلام شراء العبيد وعتقهم[1]، وبهذا

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

فقد خصصت ميزانية دائمية في بيت المال لتنفيذ هذا الأمر، وهي مستمرة حتى إعتاق العبيد جميعاً.

ب - ولتكميل هذا المطلب وضع الإسلام أحكاماً يستطيع العبيد من خلالها أن يعقدوا اتفاقيات مع مالكيهم، على أن يؤدّوا إليهم مبلغاً من المال يتفق عليه مقابل الحصول على حريتهم. وقد جاء في الفقه الإسلامي فصل في هذا الباب تحت عنوان المكاتبة(١).

ج - إنّ عتق العبيد يعتبر أحد أهم العبادات والأعمال الصالحة في الإسلام، وقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام من السابقين في هذا المضمار، حتى كتبوا في أحوال علي عليه السلام أنّه أعتق ألف مملوك من كد يده(٢).

د - لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يعتقون العبيد لأدنى عذر ليكونوا قدوة للآخرين، حتى أنّ أحد غلمان الإمام الباقر عليه السلام عمل عملاً صالحاً، فقال له الإمام: «اذهب فأنت حر، فإنّي أكره أن أستخدم رجلاً من أهل الجنّة»(٣).

وجاء في أحوال الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام، أنّ جارية كانت تسكب عليه الماء، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قال: «قد كظمت غيظي» قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال: «عفا الله عنك»، قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: «فاذهبي فأنت حرّة لوجه الله»(٤).

هـ - ورد في بعض الرّوايات الإسلامية أنّ العبيد يتحرّرون تلقائياً بعد مرور سبع سنين، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «من كان مؤمناً فقد عتق بعد سبع سنين، أعتقه صاحبه أم لم يعتقه، ولا يحل خدمة من كان مؤمناً بعد سبع سنين»(٥).

وروي في هذا الباب حديث من النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال: «ما زال جبرئيل يوصيني بالمملوك حتى ظننت أنّه سيضرب له أجلاً يعتق فيه»(٦).

و - إذا كان العبد مشتركاً بين اثنين، وأعتق أحدهما نصيبه، وجب عليه شراء نصيب شريكه وإعتاق العبد(٧).

---

(١) كان لنا بحث مفصل حول المكاتبة وأحكامها الرائعة في ذيل الآية (٣٤) من سورة النور.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٤٣.
(٣) الوسائل، ج ١٦، ص ٣٢.
(٤) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣٩٠.
(٥) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٦.
(٦) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٧.
(٧) الشرائع، كتاب العتق، وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢١.

وإذا أعتق مالك العبد بعضه سرت الحرية إلى باقيه فيعتق جميعه[١].

ز - إذا ملك إنسان أباه، أو أمّه، أو أجداده، أو أبناءه، أو عمّه، أو عمّته، أو خاله، أو خالته، أو أخاه، أو أخته، أو ابن أخيه، أو ابن اخته، فإنّهم يعتقون فوراً[٢].

ح - إذا استولد المالك جاريته فلا يجوز بيعها، وتعتق من سهم ولدها من الميراث. وقد كان هذا الأمر سبباً في عتق الكثير من العبيد، لأنّ الجواري كن بمنزلة زوجات مالكيهن، وكان لهن أولاد منهم.

ط - لقد جعل عتق العبيد كفارةً لكثير من الذنوب من الإسلام، ككفّارة القتل الخطأ، وكفارة ترك الصوم عمداً، وكفارة اليمين، وغيرها.

ي - إذا عاقب المالك عبده ببعض العقوبات الشديدة، فإنّ العبد ينعتق تلقائياً[٣].

المادة الثالثة: إحياء شخصية الرقيق

عندما كان العبيد يطوون مسيرهم نحو الحرية طبقاً لبرنامج الإسلام الدقيق، أقدم الإسلام على خطوات واسعة لإحياء حقوقهم وشخصيتهم الإنسانية، حتى أنّه لم يفرق أبداً بين العبيد والأحرار من ناحية الشخصية الإنسانية، وجعل التقوى معياراً للتميز بينهم، ولذلك أجاز للعبيد أن يتقلّدوا مسؤوليات مهمّة، ويتسنّموا مناصب اجتماعية مهمّة، حتى أنّ العبيد يمكنهم أن يشغلوا منصب القضاء[٤].

وقد أُنيطت بالعبيد في زمن النّبي ﷺ مراكز هامة وحسّاسة، ابتداءً من قيادة الجيش، وحتى المناصب الحسّاسة الأُخرى.

وقد كان الكثير من كبار صحابة النّبي ﷺ عبيداً، أو رقيقاً أُعتقوا، وكان الكثير منهم يؤدّون واجبهم كمستشارين ومعاونين لعظماء الإسلام وقادته، ويمكن ذكر أسماء سلمان وبلال وعمار بن ياسر وقنبر من ضمن هذه القافلة.

وبعد أن انتهت غزوة بني المصطلق تزوّج النّبي ﷺ بجارية عتيقة من هذه القبيلة، وكان هذا الزواج سبباً في إطلاق سراح كلّ أسرى القبيلة.

---

(١) الشرائع، كتاب العتق.

(٢) هذه في مالكية الرجال، ولكنّها محدودة في مالكية النساء، (اللمعة، بيع الحيوان).

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٦.

(٤) الشرائع، كتاب القضاء.

المادة الرابعة: المعاملة الإنسانية مع العبيد

لقد وردت في الإسلام تعليمات كثيرة حول الرفق بالعبيد ومداراتهم، حتى أنّها أشركتهم في حياة مالكيهم.

يقول النّبي الأكرم ﷺ: «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، وليكسه ممّا يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كان ما يغلبه فليعنه»(١).

ويقول علي عليه السلام لغلامه قنبر: «أنا أستحيي من ربّي أن أتفضل عليك، لأنّ رسول الله يقول: ألبسوهم ممّا تلبسون، وأطعموهم ممّا تأكلون»(٢).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «وإن كان أبي ليأمرهم - أي غلمانه - فيقول: كما أنتم، فيأتي، فإن كان ثقيلاً قال: بسم الله، ثمّ عمل معهم»(٣).

لقد كانت معاملة الإسلام مع العبيد في هذه المرحلة الانتقالية حسنة إلى الحدِّ الذي أكّد عليها حتى الغرباء عن الإسلام وحمدوها ومجّدوها.

وكنموذج لذلك نذكر ما يقوله «جرجي زيدان» في تأريخ تمدّنه: إنّ الإسلام رحيم بالعبيد كلّ الرحمة، وقد أوصى نبيّ الإسلام بالعبيد كثيراً، ومن جملة ما قاله: لا تكلفوا العبد ما لا يطيق، وأطعموه ممّا تأكلون.

ويقول في موضع آخر: لا تنادوا مماليككم بـ: يا غلام، ويا جارية، بل قولوا: يا بني، ويا ابنتي!

والقرآن أيضاً أوصى بالرقيق وصايا رائعة، فهو يقول: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، ولا تعاملوا آباءكم وأمّهاتكم وأولي أرحامكم واليتامى والفقراء والجيران، البعيد منهم والقريب، والأصدقاء، والمشرّدين، والرقيق، إلاّ بالحسنى، فإنّ الله لا يرضى بالعجب والرضى من النفس(٤).

المادة الخامسة: أقبح الأعمال بيع الإنسان

يعد بيع العبيد وشراؤهم من أبغض المعاملات في الإسلام، حتى ورد في حديث عن

---

(١) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٤١، ح ١١. (٢) المصدر السابق، ص ١٤٤، ح ١٩.
(٣) المصدر السابق، ص ١٤٢، ح ١٣. (٤) تاريخ التمدّن، ج ٤، ص ٥٤.

النّبي الأكرم ﷺ: «شرّ الناس من باع الناس»[١]. وهذا التعبير كاف لتوضيح وجهة نظر الإسلام في شأن العبيد، ويبيّن اتجاه حركة البرامج الإسلامية، وما تريد تحقيقه والوصول إليه.

والأروع من ذلك أنّ الإسلام قد اعتبر سلب حرية البشر، وتبديلهم إلى سلعة تباع وتشترى، من الذنوب التي لا تغفر، فقد ورد في حديث عن نبيّ الإسلام الأكرم ﷺ: «إنّ الله تعالى غافر كلّ ذنب إلاّ من جحد مهراً، أو اغتصب أجيراً أجره، أو باع رجلاً حراً»[٢]. وطبقاً لهذا الحديث فإنّ اغتصاب حقوق النساء، والعمال، وسلب حرية البشر ثلاثة ذنوب لا تغفر.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ الإسلام لم يبح الاسترقاق إلاّ في مورد أسرى الحرب، وحتى في هذا المورد لا يكون الاسترقاق إلزامياً، وكان ذلك في عصر ظهور الإسلام، غير أنّنا نرى العبودية والاسترقاق متفشيّة في الدول الغربية بعد عدّة قرون من ظهور الإسلام حيث كان المستعمرون يشنّون الحملات والهجمات الشرسة على بلدان السود، ويقبضون على البشر الأحرار ويحوّلونهم إلى رقيق يباعون ويشترون، وقد بلغ بيع وشراء العبيد حدّاً رهيباً، بحيث كان يباع في كلّ سنة (٢٠٠،٠٠٠) عبداً في بريطانيا أواخر القرن الثامن عشر، وكانوا يأخذون مائة ألف نسمة من أفريقيا كل عام، ويرسلونهم إلى أمريكا كعبيد[٣].

وخلاصة القول: إنّ الذين يعترضون على برنامج الإسلام في مسألة الرقيق قد سمعوا كلاماً لم يتأمّلوا فيه، ولم يطّلعوا الاطلاع الكافي على أصول البرنامج وهدفه، وهو «تحرير العبيد تدريجياً»، ومن دون خسائر، أو إنّهم وقعوا تحت تأثير المغرضين الذين يظنون أنّ هذه نقطة ضعف كبيرة في الإسلام، وطبّلوا له وزمّروا، وسخّروا لها وسائل الإعلام، إلاّ أنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ

(١) المستدرك، ج ٢، كتاب التجارة، باب ١٩، ح ١.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ١٦٨، ح ١١.
(٣) تفسير الميزان، ج ٦، ص ٣٦٨.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١)﴾

التّفسير

إن تنصروا الله ينصركم

تستمر هذه الآيات في ترغيب المؤمنين في جهاد أعداء الحق، وهي ترغّبهم في الجهاد بتعبير رائع بليغ، فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

إنّ التأكيد على مسألة «الإيمان» إشارة إلى أنّ إحدى علامات الإيمان الحقيقي هو جهاد أعداء الحق.

وعبارة ﴿تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ تعني - بوضوح - نصرة دينه، ونصرة نبيّه، وشريعته وتعليماته، ولذلك وردت نصرة الله إلى جانب نصرة رسوله في بعض آيات القرآن الكريم، كما نقرأ في الآية (٨) من سورة الحشر: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

ومع أنّ قدرة الله سبحانه غير محدودة، ولا قيمة لقدرة المخلوقات حيال قدرته، غير أنّه يعبّر بنصرة الله ليوضح أهمّية الجهاد والدفاع عن دين الله، ولا يوجد تعبير أعظم من هذا لتبيان أهميّة هذا الموضوع.

ولنرَ ما هو هذا الوعد الذي وعد الله به المجاهدين إذا ما دافعوا عن دينه؟

يقول أوّلاً ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ أمّا كيف يتمّ ذلك؟ فإنّ الطرق كثيرة، فهو سبحانه يلقي في قلوبكم نور الإيمان، وفي نفوسكم وأرواحكم التقوى، وفي إرادتكم القوّة والتصميم أكثر، وفي أفكاركم الهدوء والاطمئنان.

ومن جانب آخر يرسل الملائكة لمدكم ونصرتكم، ويغيّر مسار الحوادث لصالحكم، ويجعل أفئدة الناس تهوي إليكم، ويجعل كلماتكم نافذة في القلوب، ويصيّر نشاطاتكم وجهودكم مثمرة، نعم، إنّ نصرة الله تحيط بالجسم والروح، من الداخل والخارج.

إلاّ أنّه سبحانه يؤكّد على مسألة تثبيت الأقدام من بين كلّ أشكال النصرة، وذلك لأنّ الثبات أمام العدّو أهم رمز للانتصار، وإنّما يكسب الحرب الذين يصمدون ويستقيمون

أكثر، ولذلك نقرأ في قصة محاربة طالوت - القائد العظيم لبني إسرائيل - لجالوت - المتسلّط الجائر القوي - أنّ المؤمنين القليلين الذين كانوا معه عندما واجهوا جيش العدو الجرار، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(١).

ونقرأ في الآية التي بعدها: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أجل، إنّ نتيجة ثبات القدم هي النصر المؤزّر على العدوّ.

ولمّا كانت حشود العدوّ العظيمة، وأنواع معداتهم وتجهيزاتهم قد تشغل فكر المجاهدين في سبيل الله أحياناً، فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(٢).

«تعس» - على وزن نحس - بمعنى الانزلاق والهوي، وما فسّره البعض بأنّه الهلاك والانحطاط، فهو لازمه في الواقع لا معناه.

وعلى كلّ حال، فإنّ المقارنة بين هذين الفريقين عميقة المعنى جدّاً، فالقرآن يقول في شأن المؤمنين ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وفي شأن الكافرين ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وبصيغة اللعنة، ليكون التعبير أبلغ وأكثر جاذبية وتأثيراً.

نعم، إنّ الكافرين إذا انزلقوا وزلّت أقدامهم، فليس هناك من يأخذ بأيديهم لينقذهم من الهلكة، بل إنّهم سينحدرون إلى الهاوية سريعاً وبسهولة، أمّا المؤمنون، فإنّ ملائكة الرحمة تهب لنجدتهم ونصرتهم، ويحفظونهم من المنزلقات والمنحدرات، كما نقرأ ذلك في موضع آخر، حيث تقول الآية (٣٠) من سورة فصلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

إنّ أعمال المؤمنين مباركة، أمّا أعمال الكافرين فإنّها بائرة ولذلك فهي تزول وتفنى سريعاً.

وتبيّن الآية التالية علّة سقوط هؤلاء، وجعل أعمالهم هباءً منثوراً، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(٢) «تعساً» مفعول مطلق لفعل مقدّر، والتقدير: تعسهم تعساً، وجملة ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ عطف على هذا الفعل المقدّر، وكلاهما بصيغة اللعنة، مثل (قاتلهم الله)، ومن الواضح أنّ اللعنة من قبل الله تعني وقوعها.

لقد أنزل الله سبحانه دين التوحيد قبل كلّ شيء، إلاّ أن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا نحو الشرك.

لقد أمر الله سبحانه بالحق والعدالة، والعفّة والتقوى، غير أنّهم أعرضوا عنها جميعاً، واتجهوا صوب الظلم والفساد، بل إنّهم تشمئز قلوبهم إذا ذكر اسم الله تعالى وحده: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾(١).

وإذا كان هؤلاء يتنفّرون من هذه الأُمور، فمن الطبيعي أن لا يخطوا خطوة في هذا المسير، ولقد كانت كلّ مساعيهم وجهودهم في مسير الباطل وخدمته، فمن الطبيعي أيضاً أن تحبط كلّ هذه الأعمال.

وجاء في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «كرهوا ما أنزل الله في حق علي»(٢).

ومعلوم أنّ لتعبير ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ معنى واسعاً، ومسألة ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام أحد مصاديقه الواضحة، لا أنّ معناه منحصر فيها.

ولمّا كان القرآن الكريم في كثير من الموارد يعرض للظالمين العاصين نماذج محسوسة، فقد دعاهم هنا أيضاً إلى التدبّر في أحوال الماضين، فقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؟

ومن أجل أن لا يظنّ هؤلاء أنّ ذلك المصير المشؤوم كان مختصّاً بالأقوام الطاغين الماضين، فقد أضافت الآية: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾(٣).

فلا يظنّوا أنّهم في منأى من العقاب المشابه لذلك العقاب إن هم عملوا أعمالاً تشابه أعمال الماضين، فليسيروا في الأرض ولينظروا آثار الذين من قبلهم، ثمّ لينظروا مستقبلهم من خلال سنن التأريخ.

والجدير بالانتباه أنّ ﴿دَمَّرَ﴾ من مادة (تدمير)، وهي في الأصل بمعنى الإهلاك والإفناء، أمّا إذا أتت مع ﴿عَلَىٰ﴾ فإنّها تعني إهلاك كلّ شيء حتى الأولاد والأهل والعشيرة والأموال الخاصّة بالإنسان(٤). وعلى هذا فإنّ هذا التعبير بيان لمصيبة أليمة، خاصة بملاحظة لفظ ﴿عَلَىٰ﴾ الذي يستعمل عادةً في مورد التسلط، وبذلك يصبح معنى

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٥.
(٢) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.
(٣) ضمير ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ يعود إلى العاقبة التي تستفاد من الجملة السابقة.
(٤) تفسير روح المعاني، وروح البيان، والفخر الرازي، ج ٢٨، ص ٥٠.

الجملة، إنّ الله عَزَّوَجَلَّ قد صبَّ عذابه على رؤوس هؤلاء الأقوام وأموالهم وكلّ ما يتعلّق بهم فأفناها جميعاً.

وقد بحثنا موضوع «السير في الأرض» - والذي يؤكّد عليه القرآن المجيد مراراً كبرنامج توعية مؤثر - بصورة مفصّلة في ذيل الآية (١٣٧) من سورة آل عمران، والآية (٤٥) من سورة الروم.

وتناولت آخر آية - من الآيات مورد البحث - سبب حماية الله المطلقة للمؤمنين ودفاعه عنهم، وإهلاكه الكافرين الطغاة، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾(١).

«المولى» بمعنى الولي والناصر، وبذلك فإنّ الله سبحانه قد تولّى أمر المؤمنين ونصرتهم، أمّا الكافرون فقد أخرجهم من ظل ولايته، ومن الواضح أنّه تعالى يعين أُولئك المستظلين بظل ولايته، ويدفع عنهم النوائب، ويزيل عن طريقهم العراقيل، ويثبّت أقدامهم، وأخيراً فإنّهم ينالون مرادهم بنصرة الله ومعونته، أمّا أُولئك الخارجون عن ولايته فإنّ أعمالهم ستحبط، وتكون عاقبتهم الهلاك.

وهنا يأتي سؤال، وهو: إنّ الآية مورد البحث قد ذكرت أنّ الله سبحانه مولى المؤمنين فقط، في حين أنّه سبحانه وصف في بعض آيات القرآن الأُخرى بأنّه مولى الجميع حتى الكافرين، كما في الآية (٣٠) من سورة سورة يونس حيث تقول: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

وتتّضح الإجابة على هذا السؤال بملاحظة نكتة واحدة، وهي: إنّ ولاية الله العامّة - وهي كونها خالقاً مدبّراً - تعم الجميع، أمّا الولاية الخاصّة، وعنايته الخاصة المقترنة بأنواع الحماية والنصرة، فإنّها لا تشمل إلاّ المؤمنين(٢).

وقال البعض: إنّ هذه الآية أرجى آية في القرآن، لأنّها أدخلت كلّ المؤمنين، العالم منهم والجاهل، الزاهد والراغب، الصغير والكبير، المرأة والرجل، الشاب والكهل، أدخلتهم تحت حماية الله ورعايته الخاصة، ولم تستثنِ حتى المؤمنين العاصين، فهو

---

(١) المشار إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ هي عاقبة المؤمنين الحسنة، وعاقبة الكافرين المشؤومة، واللتان أشير إليهما في الآيات السابقة.

(٢) فسّر البعض - كالآلوسي في روح المعاني - «المولى» في الآية مورد البحث بالناصر، وفي آية سورة يونس وأمثالها. بالمالك.

سبحانه يظهر رعايته في المواقف الحسّاسة واللحظات الحرجة، والحوادث والمصائب والنكبات، وكلّ فرد منّا قد أحسَّ بهذه الرعاية طيلة مدة حياته، وفي التأريخ شواهد كثيرة على ذلك.

وقد ورد في حديث أنّ النّبي ﷺ كان جالساً تحت شجرة وحيداً بعد غزوة من غزواته، فحمل عليه مشرك بسيف فقال له: من يخلّصك منيّ؟ فقال النّبي ﷺ: «الله»، فأخذت الكافر رعدة وهوى على الأرض وسقط السيف من يده، فأخذه النّبي ﷺ، وقال له: فمن يخلصك مني؟ قال: لا أحد، ثم أسلم(١).

نعم، الله مولى الذين آمنوا، وإنّ الكافرين لا مولى لهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾

التّفسير

عاقبة المؤمنين والكافرين

لمّا كانت الآيات السابقة تتحدّث عن الصراع الدائم بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن عاقبة المؤمنين والكفّار من خلال مقارنة واضحة، وهي بذلك تريد أن توضح أنّ هذين الفريقين لا يختلفان في الحياة الدنيا وحسب، بل إنّ الاختلاف بينهما سيكون أوسع في الآخرة، فتقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾(٢).

صحيح أنّ كلا الفريقين يعيشون في الدنيا، ويتنعّمون بمواهبها ولذّاتها، إلاّ أنّ الفرق يكمن في أنّ هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحة، والأعمال المفيدة البنّاءة

(١) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٥٠٣.

(٢) ﴿كَمَا تَأۡكُلُ...﴾ في محل نصب مفعول مطلق مقدّر، والتقدير: يأكلون أكلاً كما تأكل الأنعام.

لجلب رضى الله تعالى، أمّا الكافرون فإنّ هدفهم ينصب على الأكل والشرب والنوم والتمتّع بلذّات الحياة.

المؤمنون يتحرّكون حركة واعية هادفة، والكافرون يحيون بلا هدف، ويموتون بلا هدف، كالأنعام تماماً.

المؤمنون يضعون شروطاً كثيرة للتمتع بنعم الحياة، فهم يدقّقون في مشروعية طرق الحصول عليها، كما يدقّقون كيف ينفقونها، أمّا الكافرون فإنّهم كالدّواب لا يهمها أن يكون علفها من أرض صاحبها أو يكون مغصوباً، وسواء كان من حق يتيم أو عجوز بائسة أم لا؟

عندما يتنعّم المؤمنون بنعمة، فإنّهم يفكّرون في واهبها، ويتدبّرون في آياته، ويشكرونه عليها، أمّا الكافر الغافل فلا يفكّر في أي شيء لغفلته، وهو يضيف إلى حمله حملاً جديداً من الظلم والذنوب باستمرار، ويدني نفسه من الهلاك بعد أن تثقله الأوزار، حاله في ذلك حال الأغنام السمينة، فهي كلّما تأكل أكثر، وتسمن أكثر، تكون أقرب إلى الذبح.

وقال البعض: إنّ الفرق بين المؤمنين والكافرين، أنّ المؤمن لا يخلو أكله من ثلاث: الورع عند الطلب، واستعمال الأدب، والأكل للسبب. والكافر يطلب للنهمة، ويأكل للشهوة، وعيشه في غفلة.

وممّا يستحق الانتباه أنّ القرآن الكريم يقول في شأن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ ويقول في الكافرين: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ فإنّ التعبير الأوّل يدلّ على احترام المؤمنين وتقديرهم، وإنّ الله سبحانه يدخلهم الجنّة، أمّا التعبير الثّاني، فإنّه يوحي باحتقار الكفّار الذين خرجوا من ولايته، وعدم الاهتمام بهم.

واستفاد بعض المفسّرين من جملة: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ - أي محلهم النّار - أنهم الآن في النّار، لأنّ الجملة ليست بصيغة الفعل المضارع والمستقبل، وإنّما هي تخبر عن الحال.

والحقيقة كذلك، لأنّ أعمال هؤلاء وأفكارهم نار بحدّ ذاتها، وهم مبتلون بها، وقد أحاطت بهم جهنّم من كلّ مكان، وإن كان هؤلاء الذين هم كالأنعام في غفلة، كما نقرأ ذلك في الآية (٤٩) من سورة التوبة: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وفي بعض آيات القرآن الأُخرى شبّه أصحاب النّار بالأنعام، بل هم أضلّ منها:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[١]، وقد أوردنا في ذيل هذه الآية شرحاً مفصّلاً.

ومن أجل إكمال هذا الهدف تقارن الآية التالية بين مشركي مكّة وعبدة الأوثان الماضين، وبعبارة أوضح، فإنّها تهدّدهم تهديداً شديداً، وتؤكّد ضمنياً على بعض جرائمهم الشنيعة التي تدلّ على جواز قتالهم فتقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

فلا يظنّ هؤلاء أنّ الدنيا مستوسقة لهم إلى درجة أنّهم اجترؤوا على إخراج أشرف رسل الله من أقدس المدن، فإنّ الأمر لا يدوم كذلك، فهم بالقياس إلى قوم عاد وثمود والفراعنة وجيش أبرهة موجودات ضعيفة عاجزة، والله قادر على تدميرهم بكلّ سهولة، والقضاء عليهم يسير على الله سبحانه.

وجاء في رواية عن ابن عباس: إنّ النّبي ﷺ لمّا خرج من مكّة إلى غار ثور، توجّه إلى مكّة وقال: «أنت أحبّ البلاد إلى الله، وأنت أحبّ البلاد إليّ، ولولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت منك»، فنزلت الآية أعلاه تبشّر النّبي ﷺ بنصر الله، وتهدّد الأعداء بالعذاب والعقاب[٢].

وطبقاً لسبب النّزول هذا تكون الآية مكيّة، لكن يبدو أنّ سبب النّزول هذا يتعلّق بالآية (٨٥) من سورة القصص، وقد ذكره كثير من المفسّرين هناك، فهو ينسجم مع تلك الآية أكثر، إذ تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[٣].

والملفت للنظر أنّ الآية نسبت الإخراج إلى نفس مكّة، في حين أنّ المراد أهلها، وهذه كناية لطيفة عن تسلّط فئة معيّنة، على مقدرات المدينة، وقد ورد نظير ذلك في مواضع أُخرى من القرآن المجيد.

ثمّ إنّ التعبير بالقرية - وكما قلنا ذلك مراراً - يطلق على كلّ مدينة وأرض عامرة مسكونة، ولا يخص المعنى المتعارف للقرية.

وتطرح آخر الآيات - مورد البحث - مقارنة أُخرى بين المؤمنين والكفّار. بين فئتين تختلفان في كلّ شيء، فإحداهما مؤمنة تعمل الصالحات، وتحيا الأُخرى حياة حيوانية

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩. (٢) تفسير القرطبي، ج ٩، ص ٦٠٥٥.
(٣) لمزيد من التفصيل حول هذا المطلب يراجع تفسير الآية (٨٥) من سورة القصص.

بكلّ معنى الكلمة.. بين فريقين، أحدهما مستظل بظل ولاية الله سبحانه، والآخر لا مولى له ولا ناصر، فتقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾؟

إنّ الفريق الأوّل قد اختاروا طريقهم عن معرفة صحيحة، ورؤية واقعية، وعن يقين ودليل وبرهان قطعي، وهم يرون طريقهم وهدفهم بوضوح، ويسيرون نحوه بسرعة.

أمّا الفريق الثّاني فقد ابتلوا بسوء التشخيص، وعدم إدراك الواقع، وظلمة المسير والهدف، فهم في ظلمات الأوهام حائرون، والعامل الأساس في هذه الحيرة والضلالة هو اتّباع الهوى والشهوات، لأنّ الهوى والشهوات تلقي الحجب على عقل الإنسان وفكره، فتصوّر له القبيح حسناً، كما نرى أناساً يفخرون بأعمالهم التي يندى لها الجبين، وهي وصمة عار في جباههم، كما جاء ذلك في الآية (١٠٣) من سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

«البينة» تعني الدليل الواضح الجلي، وهي هنا إشارة إلى القرآن، ومعاجز الرّسول الأعظم ﷺ، والدلائل العقلية الأُخرى.

ومن الواضح أنّ الاستفهام في جملة: ﴿أَفَمَن كَانَ...﴾ استفهام إنكاري، أي إنّ هذين الفريقين لا يتساويان أبداً.

ولكن من الذي يزيّن أعمال السوء في أنظار عبدة الهوى ومتبعيه؟ أهو الله سبحانه، أم هم أنفسهم، أم الشياطين؟

ينبغي أن يقال: إنّها تصح جميعاً، لأنّ التزيين نسب إلى الثلاثة في آيات القرآن، فتقول الآية (٤) من سورة النمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وجاء في آيات عديدة أخرى، ومن جملتها الآية (٣٨) من سورة العنكبوت، التي تقول: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وظاهر الآية مورد البحث، وبملاحظة الجملة: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أنّ هذا التزيين ناشئ عن اتباع الهوى، وقضية كون الهوى والشهوات تسلب الإنسان القدرة على الحس والتشخيص والإدراك الصحيح للحقائق، قضية يمكن إدراكها بوضوح.

إنّ نسبة التزيين إلى الشيطان - طبعاً - صحيحة أيضاً، لأنّه هو الذي ينصب المكائد ويوسوس للإنسان أن يلجها، ويزيّن له اتباع الهوى.

وأمّا نسبته إلى الله سبحانه فلأنّه مسبب الأسباب، وإليه يرجع كلّ سبب، فهو الذي أعطى النّار الأحراق، ومنح الهوى قدرة تغطية الحقائق وإلقاء الحجب عليها لئلا يدركها من يتبعه، وقد أظهر هذا التأثير وأعلنه من قبل، ولذلك فإنّ أصل المسؤولية يرجع إلى نفس الإنسان.

ويعتقد البعض أنّ جملة: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إشارة إلى النّبي ﷺ والجملة التالية ناظرة إلى كفّار مكّة، غير أنّ الظاهر هو أنّ للآية معنى واسعاً، وهذا من مصاديقه.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

وصف آخر للجنّة

إنّ هذه الآية وصف لمصير كلّ من المؤمنين والكافرين، فالفئة الأولى الذين يعملون الصالحات، والثانية زيّن لهم سوء أعمالهم.

وقد رفعت هذه الآية الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، وعن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، وهي تحدد عاقبة كلا الفريقين وتوضحها.

تتحدث الآية عن أربعة أنهار في الجنّة، لكلّ منها سائله ومحتواه الخاص، ثمّ تتحدث عن فواكه الجنّة، وأخيراً عن بعض المواهب المعنوية.

تقول الآية أوّلاً: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾(١).

---

(١) للمفسّرين بحوث كثيرة حول تركيب هذه الآية الشريفة، والأنسب منها جميعاً أن يقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: مثل الجنّة التي وعد المتقون جنّة فيها أنهار، وهذه الآية تشبه - في الحقيقة - الآية (٣٥) من سورة الرعد التي تقول: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

«الآسن» يعني النتن، وبناءً على هذا، فإنّ ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ تعني الماء الذي لا يتغيّر طعمه ورائحته لطول بقائه وغيره ذلك، وهذا أوّل نهر من أنهار الجنّة، وفيه ماء زلال جار طيب الطعم والرائحة.

ثمّ تضيف: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ وذلك أنّ الجنّة مكان لا يعتريه الفساد، ولا تتغيّر أطعمة الجنّة بمرور الزمن، وإنّما تتغيّر الأطعمة في هذه الحياة الدنيا، لوجود أنواع الميكروبات التي تفسد المواد الغذائية بسرعة.

ثمّ تطرّقت إلى ثالث نهر من أنهار الجنّة، فقالت: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

وأخيراً تبيّن الآية رابع أنهار الجنّة بأنّه: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

وعلاوة على هذه الأنهار المختلفة التي خلق كلّ منها لغرض، فقد تحدّثت الآية عن فواكه الجنّة في الموهبة الخامسة، فقالت الآية: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(١) فستوضع بين أيديهم وتحت تصرفهم كلّ الثمرات والفواكه المتنوّعة الطعم والرائحة، سواء التي يمكن تصوّرها، أو التي لا يمكن أن تخطر على أذهاننا اليوم ويصعب تصوّرها.

وأخيراً تتحدث عن الموهبة السادسة التي تختلف عن المواهب المادية السابقة، إذ إنّ هذه الهبة معنوية روحية، فتقول: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ إذ ستمحو رحمته الواسعة كل هفواتهم وسقطاتهم، وسيمنحهم الله الاطمئنان والهدوء والرضى، ويجعلهم من المرضيين عنده والمحبّبين إليه، وسيكونون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

وبذلك فإنّ المؤمنين الطاهرين الصالحين يتمتّعون بأنواع المواهب المادية والمعنوية في الجنان الخالدة، وفي جوار رحمة الله.

ولنرَ الآن ماذا سيكون مصير الفريق المقابل للمؤمنين، أي الكفار؟

تقول الآية متابعة لحديثها: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾(٣).

«الأمعاء» جمع «معي» - على وزن سعي - و«مِعا» - على وزن غنا - وتطلق أحياناً

(١) للجملة محذوف، وللتقدير: لهم فيها أنواع من كل الثمرات.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٣) لقد وردت أبحاث كثيرة في تركيب هذه الآية أيضاً، والأنسب منها جميعاً أنّ للآية تقديراً هو: أفمن هو خالد في الجنّة التي هذه صفاتها كمن هو خالد في النّار؟

على كلّ ما في البطن، وتقطيعها إشارة إلى شدّة حرارة هذا الشراب الجهنّمي المرعب، وقوّة إحراقه.

ملاحظات

١ - أنهار الجنّة الأربعة

يستفاد من آيات القرآن المجيد جيداً أنّ في الجنّة أنهاراً وعيوناً مختلفة، ولكلّ منها فائدة ولذّة خاصّة، وقد ورد ذكر أربعة نماذج منها في الآية المذكورة، وستأتي نماذج أُخرى في سورة الدهر، وسنذكرها في تفسيرها، إن شاء الله تعالى.

إنّ التعبير بـ «الأنهار» في شأن هذه الأنواع الأربعة، يوحي بأنّ كلاً منها ليس نهراً واحداً، بل أنهار عديدة.

لقد قلنا مراراً: إنّ نعم الجنّة ليست بالشيء الذي يمكن التحدّث عنه بألفاظ محادثاتنا اليومية في حياتنا الدنيا، فإنّ هذه الألفاظ قاصرة عن أن تجسدها تماماً، أو أن تعبر عنها بما يعكس حقيقتها، وكلّ ما تقدر عليه هو أن ترسم في الأذهان شبحاً باهت اللون عن تلك الحقائق العظيمة.

لقد أشارت الآية - مورد البحث - إلى أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، إذ يمكن أن يكون الأوّل لرفع العطش، وأمّا الثّاني كغذاء، والثّالث يبعث النشاط والحيوية، والرابع يوجد القوّة واللذّة.

والطريف أنّه يستفاد من آيات القرآن الأُخرى أنّ جميع أصحاب الجنّة لا يشربون من كل هذه الأشربة، بل إنّ لها مراتب يشرب أصحاب كلّ مرتبة من الأشربة الموجودة في درجتهم، فنقرأ في الآية (٢٨) من سورة المطففين: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

٢ - الشراب الطهور

لا يخفى أنّ خمر الجنّة وشرابها لا علاقة له بخمر الدنيا الملوّث مطلقاً، بل هو كما يصفه القرآن في موضع آخر: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[1]، وليس فيه إلاّ العقل والنشاط واللذّة الروحية.

٣ - أشربة لا يعتريها الفساد

جاء في وصف أنهار الجنّة مرة أنّ ماءها ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾، وأخرى ﴿لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾،

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٤٧.

وهو يوحي بأنّ أشربة الجنّة وأطعمتها تبقى على طراوتها وجدتها، ولِمَ لا تكون كذلك؟ وإنّما تتغيّر الأطعمة وتفسد بفعل الميكروبات المفسدة، ولولاها فإنّ أطعمة الدنيا تبقى هي الأُخرى على حالتها الأولى، ولما لم يكن للموجودات المفسدة مكان في الجنّة، فإنّ كلّ أشيائها صافية ونظيفة وطرية طازجة دائماً.

٤ - لماذا الفواكه؟

لقد أكّدت الآية مورد البحث، وكثير من آيات القرآن الأُخرى على الفواكه من بين الأطعمة، الفواكه المتنوّعة المذاق، وهذا يبيّن أنّ الفاكهة أهم أغذية الجنّة، وحتى في هذه الدنيا، فإنّ الفاكهة أفضل وأسلم غذاء للإنسان.

٥ - جملة ﴿وَسُقُوا﴾ بصيغة الفعل المبني للمجهول، توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوة، لا بإرادتهم، وبدل الارتواء في تلك النّار المحرقة فإنّه يقطّع أمعاءهم، وكما هي طبيعة الجحيم، فإنّهم يرجعون إلى حالتهم الأولى، حيث لا موت هناك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

ظهرت علامات القيامة!

تعكس هذه الآيات صورة عن وضع المنافقين، وطريق تعاملهم مع الوحي الإلهي، وكلمات النّبي الأكرم ﷺ، ومسألة قتال أعداء الإسلام ومحاربتهم.

وقد ورد الحديث حول المنافقين في السور المدنية كثيراً، في حين لا نرى أثراً للحديث حولهم في السور المكية، وذلك لأنّ مسألة النفاق ظهرت بعد انتصار الإسلام وتسلّمه السلطة والقوّة، حيث أصبح المشركون في موقع ضعف وانهيار، بحيث لم يكن

باستطاعتهم إظهار مخالفتهم، ولذلك اضطروا إلى التلبّس بالإسلام ليأمنوا غضب المسلمين الحقيقيين، أمّا في الباطن فإنّهم لم يألوا جهداً في التآمر ضد الإسلام، وكان يهود المدينة الذين كانوا يتمتّعون بقوة عسكرية واقتصادية لا يستهان بها، يعتبرون سنداً للمنافقين.

وعلى أي حال، فقد توغّل هؤلاء بين المسلمين المخلصين، وكانوا يحضرون عند النّبي ﷺ ويشاركون في صلاة الجمعة، إلاّ أنّ تعاملهم تجاه آيات القرآن كان يفضح ما تنطوي عليه سرائرهم وقلوبهم المريضة.

تقول الآية الأولى من الآيات مورد البحث: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ وكان مرادهم من ذلك الرجل هو النّبي ﷺ.

إنّ تعبير هؤلاء في شأن النّبي ﷺ وكلماته البليغة، كان من القبح والبذاءة إلى درجة تدل على أنّهم لم يؤمنوا بالوحي السماوي قط.

﴿ءَانِفًا﴾ من مادة (أنف)، ولما كان للأنف بروزاً متميّزاً في وجه الإنسان، فإنّ هذه الكلمة تستعمل في شأن أشراف القوم، وكذلك تستعمل في مورد الزمان المتقدم على زمان الحال، كما جاء في الآية مورد البحث.

ثمّ إنّ التعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يوحي بأنّ إحدى علامات المؤمن امتلاكه الوعي الكافي، فكما أنّ العلم مصدر الإيمان، فكذلك هو وليد الإيمان وحاصله.

إلاّ أنّ القرآن الكريم قد أجابهم جواباً قاطعاً، فقال: إنّ كلام النّبي ﷺ لم يكن غامضاً ولا معقّداً، بل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

وفي الحقيقة فإنّ الجملة الثّانية علّة للجملة الأُولى، أي إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان القدرة على إدراك الحقائق وتمييزها، ويلقي الحجاب على قلبه، بحيث إنّ قلوب متبعي الهوى تصبح كالظرف المختوم، فلا يدخله شيء، ولا يخرج منه شيء.

ويقف المؤمنون الحقيقيون في الطرف المقابل لهؤلاء، وعنهم تتحدّث الآية التالية فتقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

نعم، لقد خطا هؤلاء الخطوة الأولى بأنفسهم، واستخدموا عقلهم وفطرتهم في هذا المسير، ثمّ أخذ الله سبحانه بيدهم كما وعدهم من قبل، فزادهم هدى إلى هداهم، وألقى نور الإيمان في قلوبهم، وشرح صدورهم ورزقهم حسن الفكرة والنظر، هذا من الناحية العقائدية.

وأمّا من الناحية العملية فإنّه سبحانه يحيي فيهم روح التقوى، حتى أنّهم يشمئزون من الذنب والمعصية، ويعشقون الطاعة والعمل الصالح.

إنّ هؤلاء يقفون من الناحيتين في الطرف المقابل للمنافقين الذين أشارت إليهم الآية السابقة، فقد طبع على قلوبهم فلا يفقهون شيئاً من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّهم يتّبعون أهواءهم في العمل، أمّا المؤمنون فإنّ هدايتهم تعظم يوماً بعد يوم، وتتضاعف تقواهم في مجال العمل.

وتحذّر الآية التالية أُولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم، فتقول: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

أجل، إنّ هؤلاء لم يذعنوا للحق حيث كان الإيمان واجباً عليهم، ومفيداً لهم، بل كانوا في طغيانهم يعمهون، وبآيات الله يستهزئون، غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبة وبداية القيامة تهزّ العالم وتزلزله، يصيبهم الفزع ويظهرون خضوعهم ويؤمنون، ولا ينفعهم يومئذ إيمانهم وخضوعهم.

إنّ هذه العبارة تشبه تماماً أن نقول لإنسان: أتنتظر حتى يشرف بك مرضك على الموت، ولا ينفع حينئذ علاج، ثمّ تدعو الطبيب وتأتي بالدواء؟ انهض واسرع إلى المعالجة وتناول الدواء قبل أن تفقد هذه الفرصة، فإنّ السعي الآن ذو فائدة، وبعد اليوم لا ينفع.

«الأشراط» جمع (شَرَط)، وهي العلامة، وعلى هذا فإنّ أشراط الساعة إشارة إلى علامات اقتراب القيامة.

وللمفسرين أقوال كثيرة حول المراد من علامات اقتراب القيامة هنا، حتى كتبت رسائل مختصرة ومفصّلة، في هذا الباب. إلاّ أنّ الكثير يعتقدون أنّ المراد من «أشراط الساعة» في الآية - مورد البحث - هو ظهور شخص النّبي الأكرم ﷺ، ويشهد لذلك الحديث المروي عنه ﷺ أنّه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضمّ إصبعيه السبابة والوسطى(١).

وعدّ البعض مسألة «شقّ القمر»، وقسماً آخر من حوادث عصر النّبي ﷺ من أشراط الساعة أيضاً.

---

(١) تفسير مجمع البيان، تفسير القرطبي، تفسير في ظلال القرآن، وتفاسير أخرى، في ذيل الآيات مورد البحث، بتفاوت يسير في التعبير.

لقد وردت أحاديث عديدة في هذا الباب، وقد اعتبرت شيوع كثير من المعاصي بين الناس بالذات من علامات اقتراب القيامة، كالحديث الذي يرويه «الفتال النيسابوري» رحمه الله في روضة الواعظين، عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويفشو الزنا»(١).

بل، حتى الحوادث المهمّة والمؤثرة، كقيام المهدي - أرواحنا له الفداء - عدّت من أشراط الساعة.

لكن ينبغي أن نذكر أنّنا نبحث تارةً في أشراط الساعة بصورة مطلقة، فنسأل: ما هي علامات اقتراب القيامة؟ وأُخرى نبحث في مورد خصوص الآية، والمطلب في مورد الآية هو ما قلناه، وأمّا حول علامات اقتراب القيامة بصورة مطلقة فقد وردت بحوث وروايات كثيرة في الكتب الإسلامية المعروفة، وسنشير إليها فيما يأتي(٢).

هل أنّ ظهور النّبي من علامات قرب القيامة؟

يطرح هنا سؤال، وهو: كيف عدوا ظهور النّبي صلى الله عليه وآله وسلم من علامات اقتراب القيامة، وقد مرّ إلى الآن خمسة عشر قرناً ولا أثر للقيامة؟

والإجابة عن هذا السؤال تتّضح بملاحظة واحدة، وهي أنّنا يجب أن نقارن بين ما مرّ من الدنيا وما بقي منها، وسيظهر من خلال هذه المقارنة أن ما بقي من عمر الدنيا قليل جداً، وهو سريع الانقضاء، كما ورد في حديث عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه كان يخطب في أصحابه قبيل الغروب، فقال: «والذي نفس محمّد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلاّ مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه، وما بقي منه إلاّ اليسير»(٣).

وتقول آخر آية من هذه الآيات وكاستخلاص لنتيجة البحوث التي وردت في الآيات السابقة حول الإيمان والكفر، ومصير المؤمنين والكفّار: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: اثبت على خط التوحيد، فإنّه الدواء الشافي، واعلم أنّ أفضل وسيلة للنجاة هو التوحيد الذي بيّنت الآيات السالفة آثاره.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٣٧.

(٢) يتّضح ممّا قلناه أنّه ليس المراد من جملة: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تحقق كلّ علامات القيامة وظهورها في عصر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بل المراد أنّ بعضها قد ظهر، وهو يخبر عن اقتراب القيامة، وإن كانت بعض الأشراط ستتحقق وتتّضح فيما بعد.

(٣) تفسير روح المعاني، ج ٢٦، ص ٤٨.

وبناءً على هذا، فلا يعني هذا الكلام أنّ النّبي ﷺ لم يكن عالماً بالتوحيد بل المراد الاستمرار في هذا الخط، وهذا يشبه تماماً ما ذكروه في تفسير الآية: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في سورة الحمد، بأنّها لا تعني عدم الهداية من قبل، بل تعني: ثبّتنا على خط الهداية.

ويحتمل أيضاً أن يكون المراد التدبّر في أمر التوحيد أكثر، والارتقاء إلى المقامات الأسمى، حيث إنّه كلمّا تدبّر البشر فيه أكثر، وطالعوا آيات الله بدقّة أكبر، فإنّهم سيصلون إلى مراتب أرقى، والتدبّر بما قيل في الآيات السالفة في مورد الإيمان والكفر، عامل يؤثر بحدٍّ ذاته في زيادة الإيمان والكفر.

والتّفسير الثّالث أنّ المراد: الجوانب العملية للتوحيد، أي: اعلم أنّ الملجأ والمأوى الوحيد في العالم هو الله تعالى، فالتجئ إليه، ولا تطلب حل معضلاتك إلاّ منه، ولا تخف سيل المشاكل، ولا تخشَ كثرة الأعداء.

ولا تنافي بين هذه التفاسير الثلاثة، فمن الممكن أن تجمع في معنى الآية.

وبعد هذه المسألة العقائدية، تعود الآية إلى مسألة التقوى والعفّة عن المعصية، فتقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

لا يخفى أنّ النّبي ﷺ لم يرتكب ذنباً قط بحكم مقام العصمة، وأمثال هذه التعابير إشارة إلى ترك الأولى، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين(١)، أو إلى أنّه قدوة للمسلمين.

وجاء في حديث: أنّ حذيفة بن اليمان يقول: كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله إنّي لأخشى أن يدخلني لساني في النّار، فقال ﷺ: «فأين أنت من الاستغفار؟ إنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرّة»(٢). وجاء في بعض الروايات أنّه كان يستغفر في اليوم سبعين مرّة.

إذا كان الآخرون يستغفرون ممّا ارتكبوا من المعاصي والذنوب، فإنّ النّبي الأكرم ﷺ يستغفر الله من تلك اللحظة التي شغل فيها عن ذكره، أو أنّه ترك فعل الأحسن وفعل الحسن.

---

(١) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٥٦، وج ٢٥، ص ٢٠٥.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٠٢، ذيل الآيات مورد البحث.

وهنا نكتة جديرة بالانتباه، وهي أنّ الله سبحانه قد شفع للمؤمنين والمؤمنات، وأمر نبيّه ﷺ أن يستغفر لهم لتسعهم رحمته، ومن هنا يتبيّن عمق مسألة «الشفاعة» في الدنيا والآخرة، وكذلك تتبيّن أهمّية التوسّل وكونه مشروعاً.

ويقول سبحانه في ذيل الآية، وكتبيان للعلّة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فهو يعلم ظاهركم وباطنكم، كتمانكم وعلانيتكم، سرّكم ونجواكم، بل ويعلم حتى نيّاتكم، وما توسوس به أنفسكم، ويخطر على أذهانكم، وما يجري في ضمائركم، ويعلم حركاتكم وسكناتكم، ولهذا وجب عليكم التوجّه إليه ورفع الأكف بين يديه وطلب العفو والمغفرة والرحمة منه.

«المتقلّب»: هو المكان الذي يكثر التردّد عليه، و«المثوى» هو محل الاستقرار(١).

والظاهر أنّ لهاتين الكلمتين معنى واسعاً يشمل كلّ حركات ابن آدم وسكناته، سواء التي في الدنيا أم في الآخرة، في فترة كونه جنيناً أم كونه من سكان القبور، وإن كان كثير من المفسّرين قد ذكر لهما معانٍ محددة:

فقال بعضهم: إنّ المراد حركة الإنسان في النهار، وسكونه في الليل.

وقال آخرون: إنّ المراد مسير الإنسان في الحياة الدنيا، واستقراره في الآخرة.

وقال بعض آخر: إنّ المراد تقلّب الإنسان في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، وثباته في القبر.

وأخيراً ذكر البعض أنّ المراد: حركاته في السفر، وسكناته في الحضر.

ولكن كما قلنا، فإنّ للآية معنى واسعاً يشمل كلّ هذه المعاني.

بحث

ما هي أشراط الساعة؟

قلنا سابقاً: إنّ الأشراط جمع شرط، وهي العلامة، ويقال لعلامات اقتراب القيامة: أشراط الساعة، وقد بحثت كثيراً في مصادر الشيعة والسنّة، ولم يشر القرآن إليها إلاّ في هذه الآية.

---

(١) بناءً على هذا، فإنّ (متقلّب) اسم مفعول جاء هنا بمعنى المكان، إلاّ أنّ جماعة يعتبرونه مصدراً ميمياً يعني الانتقال من حال الى حال. غير أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب بملاحظة قرينة مقابلته بالمثوى الذي لا ريب في كونه اسم مكان.

ومن أجمع الأحاديث وأكثرها تفصيلاً في هذا الباب، الحديث الذي رواه ابن عباس عن النّبي الأكرم ﷺ في قضية حجّة الوداع، وهو يعلّمنا كثيراً من المسائل، ويحتوي على نكات ودقائق كثيرة، ولهذا نورده كاملاً:

قال ابن عباس: حججنا مع رسول الله ﷺ حجّة الوداع وهي آخر حجّة حجّها رسول الله ﷺ في حياته - فأخذ بحلقة باب الكعبة ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال: «ألا أخبركم بأشراط الساعة»؟ فكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان رحمة الله عليه فقال: بلى يا رسول الله.

قال ﷺ: «إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلوات، واتّباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم أصحاب المال، وبيع الدين بالدنيا، فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيع أن يغيّره».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: إنّ عندها يليهم أمراء جورة، ووزراء فسقة، وعرفاء ظلمة، وأمناء خونة».

فقال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده - يا سلمان: إنّ عندها يكون المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، ويؤتمن الخائن، ويخوّن الأمين، ويصدّق الكاذب، ويكذّب الصادق».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: فعندها تكون إمارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر، ويكون الكذب ظرفاً، والزكاة مغرماً، والفيء مغنماً، ويجفو الرجل والديه ويبرّ صديقه، ويطلع الكوكب المذنب».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة [ويبذل كل منهما قصارى جهده خارج المنزل لتحصيل المال] ويكون المطر غيضاً، ويغيض الكرام غيضاً، ويحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق، قال هذا: لم أبع شيئاً، وقال هذا: لم أربح شيئاً، فلا ترى إلاّ ذاماً لله».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم، وإن سكتوا استباحوهم، ليستأثرون بفيئهم، وليطؤن حرمتهم، وليسفكن دماءهم، وليملؤن قلوبهم دغلاً ورعباً، فلا تراهم إلاّ وجلين خائفين مرعوبين مرهوبين».

فقال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: إنّ عندها يؤتى بشيء من المشرق، وشيء من المغرب [فقوانين من الشرق، وقوانين من الغرب] يلون أمّتي، فالويل لضعفاء أمّتي منهم، والويل لهم من الله، لا يرحمون صغيراً، ولا يوقّرون كبيراً، ولا يتجافون عن مسيء، جثّتهم جثة الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها، وتشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وتركب ذوات الفروج السروج [ويظهرن أنفسهن] فعليهن من أمّتي لعنة الله».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: إنّ عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس وتحلى المصاحف [دون أن يعمل بها] وتطول المنارات، وتكثر الصفوف، قلوب متباغضة، وألسن مختلفة».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: وعندها تحلّى ذكور أمّتي بالذهب، ويلبسون الحرير والديباج، ويتّخذون جلود النمور صفافاً».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: وعندها يظهر الزنا، ويتعاملون بالعينة والرشا، ويوضع الدين وترفع الدنيا».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: وعندها يكثر الطلاق، فلا يقام لله حد، ولن يضرّوا الله شيئاً [وإنّما يضرّون أنفسهم]».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: وعندها تظهر القينات والمعازف، وتليهم أشرار أُمّتي».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: وعندها يحج أغنياء أمّتي للنزهة، ويحج أوساطها للتجارة، ويحج فقراؤهم للرياء والسمعة، فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير الله، ويتّخذونه مزامير، ويكون أقوام يتفقّهون لغير الله، ويكثر أولاد الزنا، ويتغنّون بالقرآن، ويتهافتون بالدنيا».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: ذاك إذا انتهكت المحارم، واكتسبت المآثم، وسلّط الأشرار على الأخيار، ويفشو الكذب، وتظهر اللجاجة، وتفشو الفاقة، ويتباهون في اللباس، ويمطرون في غير أوان المطر، ويستحسنون الكوبة والمعازف، وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذلّ من الأمة، ويظهر قرّاؤهم وعبادهم فيما بينهم التلاوم، فأولئك يدعون في ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: فعندها لا يخشى الغني على الفقير، حتى أنّ السائل يسأل في الناس فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في كفه شيئاً».

قال سلمان: وإنّ هذا لكائن يا رسول الله؟

قال: «إي والذي نفسي بيده. يا سلمان: فعندها يتكلم الرويبضة».

قال سلمان: ما الرويبضة يا رسول الله فداك أبي وأمّي؟

قال: «يتكلّم في أمر العامة من لم يكن يتكلّم، فلم يلبثوا إلاّ قليلاً حتى تخور الأرض خورة، فلا يظن كلّ قوم إلاّ أنّها خارت في ناحيتهم، فيمكثون ما شاء الله، ثمّ يمكثون في مكثهم، فتلقي لهم الأرض أفلاذ أكبادها» قال: «ذهباً وفضة»، ثمّ أومأ بيده إلى الأساطين، فقال: مثل هذا، فيومئذ لا ينفع ذهب ولا فضة - ويحل أمر الله - فهذا يعني معنى قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾(١).

(١) تفسير علي بن إبراهيم طبقاً لنقل نور الثقلين، وتفسير الصافي، ذيل الآية مورد البحث.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

يخافون حتى من اسم الجهاد!

تبيّن هذه الآيات المواقف المختلفة للمؤمنين والمنافقين تجاه الأمر بالجهاد، تكملة للأبحاث التي مرّت في الآيات السابقة حول هذين الفريقين.

تقول الآية الأولى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ سورة يكون فيها أمر بالجهاد، يوضح واجبنا تجاه الأعداء القساة الجلاّدين الذين لا منطق لهم.. سورة تبعث آياتها نور الهداية في قلوبنا، وتضيء أرواحنا بنورها الوهّاج، هذا حال المؤمنين.

وأمّا المنافقون: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

فعند سماع اسم الحرب يصيبهم الهلع، ويضطرب كيانهم أجمع، وتتوقف عقولهم عن التفكير، وتتسمّر عيونهم، وينظرون إليك كمن يوشك على الموت، وهذا أبلغ وأروع تعبير عن حال المنافقين الجبناء الخائفين.

إنّ سبب اختلاف تعامل المؤمنين والمنافقين مع أمر الجهاد، ينبع من أن الفريق الأوّل قد علقوا آمالهم بالله سبحانه لإيمانهم القوي به، فهم يرجون عنايته ولطفه ونصرته، ولا خوف لديهم من الشهادة في سبيله.

إنّ ميدان الجهاد بالنسبة إلى هؤلاء ميدان إظهار عشقهم لمحبوبهم، ميدان الشرف والفضيلة، ميدان تفجّر الاستعدادت والقابليات، وهو ميدان الثبات والمقاومة والانتصار، ولا معنى للخوف في مثل هذا الميدان.

إلاّ أنّه بالنسبة إلى المنافقين ميدان موت وفناء وتعاسة، ميدان هزيمة ومفارقة لذائذ الدنيا، وهو أخيراً ميدان مظلم يعقبه مستقبل مرعب غامض!

والمراد من «السورة المحكمة» - باعتقاد بعض المفسّرين - هي السور التي ذكرت فيها مسألة الجهاد. لكن لا دليل على هذا التّفسير، بل الظاهر أنّ «المحكم» هنا بمعنى المستحكم والثابت والقاطع، والخالي من أي غموض أو إبهام، حيث يقع المتشابه في مقابله أحياناً، ولمّا كانت آيات الجهاد تتمتّع عادة بحزم استثنائي، فإنّها تنسجم مع مفهوم هذا اللفظ أكثر، إلاّ أنّها ليست منحصرة فيه.

والتعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ تعبير يستعمل في لسان القرآن في شأن المنافقين عادةً، وما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد ضعفاء الإيمان لا ينسجم مع سائر آيات القرآن، بل ولا مع الآيات السابقة لهذه الآيات والتي بعدها، التي تتحدّث جميعاً عن المنافقين.

وعلى أية حال، فإنّ الآية تضيف في النهاية جملة قصيرة، فتقول: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

إنّ جملة ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ تعبّر في الأدب العربي عن التهديد واللعنة، وتمنّي التعاسة والفناء للآخر[1].

وفسّرها البعض بأنّها تعني: الموت أولى لهم، ولا مانع من الجمع بينها كما أوردنا في تفسير الآية.

وتضيف الآية التالية: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾[2].

إنّ التعبير بـ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ يمكن أن يكون في مقابل الكلمات الهزيلة المنكرة التي كان يتفوّه بها المنافقون بعد نزول آيات الجهاد، فقد كانوا يقولون تارةً: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾[3]، وأخرى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[4]، وثالثة كانوا يقولون: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾[5]، من أجل إضعاف المؤمنين وإعاقتهم عن التوجّه إلى ميدان الجهاد.

---

(1) اعتقد جماعة أنّ معنى الجملة يصبح: يليه مكروه، وهو يعادل معنى ويل لهم.

(2) ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: طاعة وقول معروف أمثل لهم، واعتبرها البعض خبراً لمبتدأ محذوف، وكان التقدير: أمرنا طاعة، إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

(3) سورة التوبة، الآية: ٨١. (4) سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

(5) سورة الأحزاب، الآية: ١٨.

ولم يكونوا يكتفون بعدم ترغيب الناس في أمر الجهاد، بل كانوا يبذلون قصارى جهودهم من أجل صدّهم عن الجهاد، أو تثبيط معنوياتهم وعزائمهم على الأقل.

ثمّ تضيف الآية: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وسيرفع رؤوسهم في الدنيا، ويمنحهم العزّة والفخر، ويؤدّي إلى أن ينالوا الثواب الجزيل، والأجر الكبير، والفوز العظيم في الآخرة.

وجملة ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ تشير في الأساس إلى استحكام العمل، إلاّ أنّ المراد منها هنا الجهاد، بقرينة الآيات التي سبقتها والتي تليها.

وتضيف الآية التالية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾(١) لأنّكم إن أعرضتم عن القرآن والتوحيد، فإنّكم سترجعون إلى جاهليّتكم حتماً، ولم يكن في الجاهلية إلاّ الفساد في الأرض، والإغارة والقتل وسفك الدماء، وقطيعة الرحم، ووأد البنات. هذا إذا كانت ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ من مادة «تولّي» بمعنى الإعراض.

غير أنّ كثيراً من المفسّرين احتمل أن تكون من مادة «ولاية»، أي: الحكومة، فيكون المعنى: إنّكم إذا تولّيتم زمام السلطة فلا يتوقع منكم إلاّ الضلال والفساد وسفك الدماء وقطيعة الرحم.

وكأنّ جمعاً من المنافقين قد اعتذر من أجل أن يفرّ من ميدان الجهاد بأنّا كيف نطأ ساحة الحرب ونقتل أرحامنا ونسفك دماءهم، وعندها سنكون من المفسدين في الأرض؟

فيجيبهم القرآن قائلاً: ألم تقتلوا أرحامكم وتسفكوا دماءهم، ولم يظهر منكم إلاّ الفساد في الأرض يوم كانت الحكومة بأيديكم؟ إن هذا إلاّ تذرّع وتهرّب، فإنّ الهدف من الحرب في الإسلام هو إخماد نار الفتنة، لا الفساد في الأرض، والهدف اقتلاع جذور الظلم وإزالته من الوجود، لا قطع الرحم.

وقد ورد في بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ هذه الآية في بني أُمية الذين لم يرحموا صغيراً ولا كبيراً، بل سفكوا دماء الجميع حتى أقاربهم لمّا تسلّموا زمام الحكم(٢).

---

(١) بالرغم من أنّ القليل من المفسّرين قد بحث في تركيب هذه الآية، لكن يبدو أنّ ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ جملة شرطية وقعت بين اسم «عسى» وخبرها، وجزاء إن الشرطية مجموع جملة ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والتقدير: إن تولّيتم عن كتاب الله فهل يترقب منكم إلاّ الفساد في الأرض؟

(٢) راجع: تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٠.

من المعلوم أنّ بني أمية جميعاً، ابتداءً من أبي سفيان إلى أبنائه وأحفاده، كانوا مصداقاً واضحاً لهذه الآية، وهذا هو المراد من الرواية، إذ إنّ للآية معنى واسعاً يشمل كلّ المنافقين الظالمين والمفسدين.

وتوضح الآية التالية المصير النهائي لهؤلاء القوم المنافقين المفسدين المتذرّعين بأوهى الحجج فتقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

إنّ هؤلاء يظنّون أنّ الجهاد الإسلامي القائم على أساس الحق والعدالة، قطيعة للرحم، وفساداً في الأرض، أمّا كلّ الجرائم التي ارتكبوها في الجاهلية، والدماء البريئة التي سفكوها أيّام تسلطهم، والأطفال الأبرياء الذين وأدوهم ودفنوهم وهم أحياء يستغيثون، كانت قائمة على أساس الحق والعدل! لعنهم الله إذ لا أذن واعية لهم، ولا عين ناظرة بصيرة!

ونقرأ في رواية عن الإمام علي بن الحسين، أنّه قال لولده الإمام الباقر عليه السلام: «إيّاك ومصاحبة القاطع لرحمه، فإنّي وجدته ملعوناً في كتاب الله عزّ وجلّ في ثلاثة مواضع، قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ...﴾»(1).

«الرحم» في الأصل محل استقرار الجنين في بطن أمّه، ثمّ أطلق هذا التعبير على كل الأقرباء، لأنّهم نشأوا وولدوا من رحم واحد.

وجاء في حديث آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ثلاثة لا يدخلون الجنّة: مدمن خمر، ومدمن سحر، وقاطع رحم»(2).

ولا يخفى أنّ لعن الله تعالى لهؤلاء القوم، وطردهم من رحمته، وكذلك سلبهم القدرة على إدراك الحقائق، لا يستلزم الجبر، لأنّ ذلك جزاء أعمالهم، وردّ فعل لسلوكهم وأفعالهم.

وتناول آخر آية من هذه الآيات ذكر العلة الحقيقية لانحراف هؤلاء القوم التعساء، فقالت: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟

نعم، إنّ عامل مسكنة هؤلاء وضياعهم أحد اثنين: إمّا أنّهم لا يتدبّرون في القرآن،

---

(1) أصول الكافي، ج ٢، باب «من تكره مجالسته»، الحديث ٧. أمّا الآيتان اللتان وردتا في بقية الحديث فإحداهما الآية (٢٥) من سورة الرعد، والأخرى الآية (٢٧) من سورة البقرة، وقد ورد اللعن في إحداهما صريحاً، وفي الأخرى كناية وتلميحاً.

(2) التّفسير الأمثل ذيل الآية (٧٧) من سورة المائدة (نقلاً عن الخصال).

برنامج الهداية الإلهية، والوصفة الطبية الشافية تماماً، أو أنّهم يتدبّرونه، إلاّ أنّ قلوبهم مقفلة نتيجة اتّباع الهوى والأعمال التي قاموا بها من قبل، وهي مقفلة بشكل لا تنفذ معه أي حقيقة إلى قلوبهم.

وبتعبير آخر، فإنّهم كرجل ضلّ طريقه في الظلمات، فلا سراج في يده، ولا هو يبصر إذ هو أعمى، فلو كان معه سراج، وكان مبصراً، فإنّ الإهتداء إلى الطريق في أي مكان سهل ويسير.

«الأقفال» جمع قفل، وهي في الأصل من مادة القفول أي الرجوع، أو من القفيل، أي الأشياء اليابسة، ولمّا كان المتعارف أنّهم إذا أغلقوا الباب وقفلوها بقفل، فكلّ من يأت يقفل راجعاً، وكذلك لمّا كان القفل شيئاً صلباً لا ينفذ فيه شيء، لذا فقد أطلقت هذه الكلمة على هذه الآلة الخاصة.

بحث

القرآن كتاب فكر وعمل

تؤكّد آيات القرآن المختلفة على حقيقة أنّ هذا الكتاب السماوي العظيم ليس للتلاوة وحسب، بل إنّ الهدف النهائي منه هو الذكر، والتدبّر في عواقب الأُمور، والإنذار، وإخراج البشر من الظلمات، والشفاء والرحمة والهداية.

فنقرأ في الآية (٥٠) من سورة الأنبياء: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

وفي الآية (٢٩) من سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

وجاء في الآية (١٩) من سورة الأنعام: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

وتقول الآية الأولى من سورة إبراهيم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

وأخيراً، جاء في الآية (٨٢) من سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولهذا، فإنّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، ويكون في صميمها لا على هامشها، وعليهم أن يجعلوه قدوتهم وأسوتهم، وأن ينفذوا كلّ أوامره، وأن يجعلوا خطوط حياتهم وطبيعتها منسجمة معه.

لكنّ، جماعة من المسلمين - مع الأسف الشديد - لا يتعاملون مع القرآن إلاّ على أنّه مجموعة أوراد وأذكار، فهم يتلونه جميعاً تلاوةً مجرّدة، ويهتمون أشدّ الاهتمام بالتجويد ومخارج الحروف وحسن الصوت، وأكثر شقاء المسلمين وتعاستهم يكمن في أنّهم أخرجوا القرآن عن كونه دستوراً جامعاً لحياة البشر، واكتفوا بترديد ألفاظه، وقنعوا بذلك.

والجدير بالانتباه أنّ الآيات مورد البحث تقول بصراحة: إنّ هؤلاء المنافقين المرضى القلوب لم يتدبّروا في القرآن، فلاقوا هذا المصير الأسود.

«التدبّر» من مادة دَبْر، وهو تحقيق وبحث نتائج الشيء وعواقبه، بعكس «التفكر» الذي يقال غالباً عن علل الشيء وأسبابه، واستعمل كلا التعبيرين في القرآن.

لكن، ينبغي أن لا ننسى أنّ الاستفادة من القرآن تحتاج إلى نوع من تهذيب النفس وجهادها، وإن كان القرآن بنفسه معيناً في تهذيبها، لأنّ القلوب إذا كانت مقفلة بأقفال الهوى والشهوة، والكبر والغرور، واللجاجة والتعصّب، فسوف لا يلجها نور الحق، وقد أشارت الآيات - مورد البحث - إلى هذا المعنى.

وما أروع كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته حول صفات المتّقين، إذ يقول: «أمّا الليل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم»(١).

حديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير جملة: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾: «إنّ لك قلباً ومسامع، وإنّ الله إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾»(٢).

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣، المعروفة بخطبة همام.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

أفلا يتدبّرون القرآن

تواصل هذه الآيات الكلام حول المنافقين ومواقفهم المختلفة، فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

وبالرغم من أنّ البعض احتمل أنّ هذه الآية تتحدّث عن جماعة من الذين كفروا من أهل الكتاب الذين كانوا يذكرون علامات النّبي ﷺ قبل ظهوره، وذلك استناداً إلى ما ورد في كتبهم السماوية، وكانوا ينتظرونه على أحرّ من الجمر، إلاّ أنّهم أعرضوا عنه بعد ظهوره واتضاح هذه العلامات وتحقّقها، ومنعتهم شهواتهم ومصالحهم من الإيمان به.

بالرغم من ذلك، فإنّ القرائن الموجودة في الآيات السابقة واللاحقة تبيّن جيداً أنّ هذه الآية تتحدث أيضاً عن المنافقين الذين جاؤوا ورأوا بأمّ أعينهم الدلائل الدالّة على حقانية النّبي ﷺ، وسمعوا آياته، إلاّ أنّهم أدبروا اتباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وطاعةً لوساوس الشيطان.

﴿سَوَّلَ﴾ من مادة سُؤْل - على وزن قفل -، وهي الحاجة التي يحرص عليها الإنسان[1]، و«التسويل» بمعنى الترغيب والتشويق إلى الأُمور التي يحرص عليها، ونسبته إلى الشيطان بسبب الوساوس التي يلقيها في نفس الإنسان، وتمنع من هدايته.

وجملة ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ من مادة «إملاء»، وهو زرع طول الأمل فيهم، والآمال البعيدة المدى، والتي تشغل الإنسان، فتصدّه عن الحق والهدى.

---

(١) ولذلك فإنّ البعض قد فسّرها بمعنى الأمل، كما نقرأ ذلك في الآية (٣٦) من سورة طه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

وتشرح الآية التالية علّة هذا التسويل والتزيين الشيطاني، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وهذا دأب المنافقين في البحث عن العصاة والمخالفين، وإذا لم يكونوا مشتركين ومتفقين معهم في كلّ المواقف، فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم، بل ويطيعونهم إذا اقتضى الأمر.

بل قد اتجه منافقو المدينة نحو يهود المدينة - وهم «بنو النضير» و«بنو قريظة» الذين كانوا يبشرون بالإسلام قبل بعثة النبي ﷺ، أمّا بعد ظهوره ومبعثه، وتعرّض مصالحهم للخطر، ولحسدهم وكبرهم، فإنّهم اعتبروا الإسلام ديناً باطلاً، وغير سليم - ولمّا كان هناك قدر مشترك بين المنافقين واليهود في مخالفتهم النبي ﷺ، وتآمرهم ضد الإسلام، فإنّهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسلام والمسلمين.

وربّما كان تعبير ﴿فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ إشارة إلى أنّنا نتعاون معكم في هذا الجزء فقط، فإنّكم تخالفون عبادة الأصنام، وتعتقدون بالبعث والقيامة، ونحن لا نتفق معكم في هذه الأُمور(١).

هذا الكلام شبيه بما جاء في الآية (١١) من سورة الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

وتهدد الآيات هؤلاء في نهايتها فتقول: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فهو عليم بكفرهم الباطن ونفاقهم، وبتآمرهم مع اليهود، وسيعاقبهم ويجازيهم في الوقت المناسب. وعليم بما كان يخفيه اليهود من حسدهم وعدائهم وعنادهم، فقد كانوا يعرفون علامات نبيّ الإسلام ﷺ كما يعرفون أبناءهم بشهادة كتابهم، وكانوا يذكرون هذه العلامات للناس من قبل، إلاّ أنّهم أخفوها جميعاً بعد ظهوره، والله عليم بهذا الإخفاء ومحاولة طمس الحق.

وجاء في حديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: أنّ المراد من ﴿كَرِهُوا۟ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بنو أُمية الذين كرهوا نزول أمر الله تعالى في ولاية علي عليه السلام(٢).

---

(١) ثمّة احتمالات عديدة أُخرى في تفسير هذه الآية، لا ينسجم أي منها مع الآيات السابقة واللاحقة، ولذلك أعرضنا عن ذكرها.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٠٥.

وواضح أنّ هذا النوع تطبيق وبيان مصداق، وليس حصراً لمعنى الآية.

والآية التالية بمثابة توضيح لهذا التهديد المبهم، فتقول: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾(١).

نعم، إنّ هؤلاء الملائكة مأمورون أن يذيقوا هؤلاء العذاب وهم على أعتاب الموت ليذوقوا وبال الكفر والنفاق والعناد، وهم يضربون وجوههم لأنّها اتجهت نحو أعداء الله، ويضربون أدبارهم لأنّهم أدبروا عن آيات الله ونبيّه.

وهذا المعنى نظير ما ورد في الآية (٥٠) من سورة الأنفال حول الكفار والمنافقين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وتناولت آخر آية من هذه الآيات بيان علّة هذا العذاب الإلهي وهم على اعتاب الموت، فتقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

لأنّ رضى الله سبحانه هو شرط قبول الأعمال وكلّ سعي وجهد، وبناءً على هذا، فمن الطبيعي أن تحبط أعمال أُولئك الذين يصرّون على إغضاب الله عزّ وجلّ وإسخاطه، ويخالفون ما يرتضيه، ويودّعون هذه الدنيا وهم خالو الوفاض، قد أثقلتهم أوزارهم، وأرهقتهم ذنوبهم.

إنّ حال هؤلاء القوم يخالف تماماً حال المؤمنين الذين تستقبلهم الملائكة بوجوه ضاحكة عندما يشرفون على الموت، وتبشّرهم بما أعد الله لهم: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢).

وممّا يلفت النظر أنّ الجملة فعلية في مورد غضب الله تعالى: ﴿مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ وهي اسمية في مورد رضاه: ﴿رِضْوَانَهُ﴾، وقال بعض المفسّرين: إنّ هذا التفاوت في التعبير يتضمن نكتةً لطيفة، وهي أنّ غضب الله قد يحدث وقد لا يحدث، أمّا رضاه ورحمته فهي مستمرة دائمة.

وواضح أيضاً أنّ غضب الله تعالى وسخطه لا يعني التأثر النفسي، كما أنّ رضاه

(١) كيف، خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فكيف حالهم...

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

سبحانه لا يعني انبساط الروح وانشراح الأسارير، بل هما كما ورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «غضب الله عقابه، ورضاه ثوابه»(١).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

التّفسير

يعرف المنافقون من لحن قولهم

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر في صفات المنافقين وعلاماتهم، وتؤكّد بالخصوص على أنهم يظنّون أنّ باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم وصورتهم الحقيقية عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين دائماً، وأن ينقذوا أنفسهم بذلك من الفضيحة الكبرى، فتقول أوّلاً: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾(٢).

«الأضغان» جمع ضِغْن، وهو الحقد الشديد.

نعم، لقد كانت قلوب هؤلاء مملوءة غيظاً وحقداً شديداً على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، وكانوا يتحيّنون الفرص لإنزال الضربة بهم، فهنا يحذّرهم القرآن بأن لا يظنّوا أنّ بإمكانهم أن يخفوا وجههم الحقيقي دائماً، ولذلك فإنّ الآية التالية تضيف: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ فنجعل في وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأيتهم، وتراهم رأي العين فتنظر واقعهم عندما تنظر ظاهرهم.

ثمّ تضيف: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فيمكنك في الحال أن تعرفهم من خلال نمط كلامهم.

يقول الراغب في مفرداته: «اللحن» عبارة عن صرف الكلام عن قواعده وسننه، أو

(١) توحيد الصدوق، ج ١٧٠، طبق نقل الميزان، ج ١٨، ص ٢٦٦.

(٢) اعتبر البعض ﴿أَمْ﴾ في الآية أعلاه استفهامية، والبعض الآخر اعتبرها منقطعة بمعنى بل، ويبدو أنّ الأوّل هو الأفضل.

إعرابه على خلاف حاله، أو الكناية بالقول بدلاً من الصراحة. والمراد في الآية مورد البحث هو المعنى الثّالث، أي: يمكن معرفة المنافقين مرضى القلوب من خلال الكناية في كلامهم، وتعبيراتهم المؤذية التي تنطوي على النفاق.

حينما يكون الكلام عن الجهاد، فإنّهم يسعون إلى إضعاف إرادة الناس ومعنوياتهم، وحينما يكون الكلام عن الحق والعدالة، فإنّهم يحرّفونه بنحو من الأنحاء، وإذا ما أتى الحديث عن الصالحين المتّقين السابقين إلى الإسلام، فإنّهم يسعون إلى تشويه سمعتهم، وتقليل أهمّيتهم ومكانتهم، ولذلك روي عن «أبي سعيد الخدري» حديثه المعروف الذي يقول فيه: لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب، وكنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ببغضهم علي بن أبي طالب[١].

نعم، لقد كانت إحدى العلامات البارزة للمنافقين أنّهم كانوا يعادون أوّل من آمن من الرجال، وأول مضح في سبيل الإسلام، ويبغضونه.

إنّ الإنسان لا يستطيع عادةً أن يكتم ما ينطوي عليه ضميره لمدة طويلة دون أن يظهر ذلك في كنايات كلامه وإشاراته ولحنه، ولذلك نقرأ في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ما أضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»[٢].

وقد ذكرت آيات القرآن الأُخرى كلمات المنافقين الجارحة، والتي هي مصداق للحن القول هذا، أو حركاتهم المشبوهة، ولعلّه لهذا السبب قال بعض المفسّرين: إنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعرف المنافقين جيداً، من خلال علاماتهم، بعد نزول هذه الآية.

والشاهد على هذا الكلام هو أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أُمر بأن لا يصلّي على من مات منهم ولا يقوم على قبره داعياً الله له: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[٣].

لقد كان الجهاد بالذات من المواقف التي كان المنافقون يعكسون فيها ما يعيشونه في

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث. ثمّ إنّ جماعة من كبار العامّة نقلوا مضمون هذا الحديث في كتبهم، ومن جملتهم: أحمد بن حنبل في كتاب الفضائل، وابن عبد البر في الاستيعاب، والذهبي في تاريخ أوّل الإسلام، وابن الأثير في جامع الأُصول، والعلاّمة الگنبجي في كفاية الطالب، ومحب الدين الطبري في الرياض النضرة، والسيوطي في الدر المنثور، والآلوسي في روح المعاني، وأورده جماعة آخرون في كتبهم، وهو يبيّن أنّها إحدى الروايات المسلمة عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لمزيد من الإيضاح يراجع إحقاق الحق، ج ٣، ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الجملة ٢٦.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٨٤.

داخلهم، وقد أشارت آيات كثيرة في القرآن الكريم، وخاصّةً في سورة التوبة والأحزاب إلى وضع هؤلاء قبل الحرب حين جمع المساعدات وإعداد العدّة للحرب، وفي أثناء الحرب في ساحتها إذا اشتد هجوم العدوّ واستعرت حملته، وبعد الحرب عند تقسيم الغنائم، حتى وصل الأمر بالمنافقين إلى أن يعرفهم حتى المسلمون العاديّون في هذه المشاهد والمواقف.

واليوم أيضاً لا تصعب معرفة المنافقين من لحن قولهم ومواقفهم المضادة في المسائل الاجتماعية المهمة، وخاصة عند الاضطرابات أو الحروب، ويمكن التعرف عليهم بأدنى دقة في أقوالهم وأفعالهم، وما أروع أن يعي المسلمون أمرهم ويستيقظوا ويستلهموا من هذه الآية تعليماتها ليعرفوا هذه الفئة الحاقدة الخطرة ويفضحوها.

وأخيراً تضيف الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فهو يعلم أعمال المؤمنين ما ظهر منها وما بطن، ويعلم أعمال المنافقين، وإذا افترضنا أنّ هؤلاء قادرون على إخفاء واقعهم الحقيقي عن الناس، فهل باستطاعتهم إخفاءه عن الله الذي هو معهم في سرّهم وعلانيهم، وخلوتهم واجتماعهم؟

وتضيف الآية التالية مؤكّدة وموضحة طرقاً أُخرى لتمييز المؤمنين عن المنافقين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ الحقيقيين من المتظاهرين بالجهاد والصبر.

ومع أنّ لهذا الابتلاء والاختبار أبعاداً واسعة، ومجالات رحبة تشمل الصبر والثبات في أداء كلّ الواجبات والتكاليف، ولكن المراد منه هنا الامتحان في ساحة الحرب والقتال لمناسبته كلمة «المجاهدين»، والآيات السابقة واللاحقة، والحق أنّ ميدان الجهاد ساحة اختبار عسير وشديد، وقلّما يستطيع المرء أن يخفي واقعه في أمثال هذه الميادين.

وتقول الآية الأخيرة: ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾.

قال كثير من المفسّرين: إنّ المراد من الأخبار هنا أعمال البشر، وذلك أن عملاً ما إذا صدر من الإنسان، فإنّه سينتشر بين الناس كخبر.

وقال آخرون: إنّ المراد من الأخبار هنا: الأسرار الداخلية، لأنّ أعمال الناس تخبر عن هذه الأسرار.

ويحتمل أن تكون الأخبار هنا بمعنى الأخبار التي يخبر بها الناس عن وضعهم وعهودهم ومواثيقهم، فالمنافقون - مثلاً - كانوا قد عاهدوا النّبي ﷺ أن لا يرجعوا

عن القتال، في حين أنّهم نقضوا عهدهم: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾(١).

ونراهم في موضع آخر: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾(٢).

وبهذا فإنّ الله سبحانه يختبر أعمال البشر، كما يختبر أقوالهم وأخبارهم، وطبقاً لهذا التّفسير فإنّ لهاتين الجملتين في الآية مورد البحث معنيين متفاوتين، مع أنّ إحداهما تؤكّد الأُخرى طبقاً للتفاسير السابقة.

وعلى أية حال، فليست هذه المرة الأولى التي يخبر الله سبحانه الناس فيها بأنّي أبلوكم لتمييز صفوفكم، وليعرف المؤمنون الحقيقيون وضعفاء الإيمان والمنافقون، وقد ذكرت مسألة الامتحان والابتلاء هذه في آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد بحثنا المسائل المتعلقة بالاختبار الإلهي في ذيل الآية (١٥٥) من سورة البقرة، وكذلك وردت في بداية سورة العنكبوت.

ثمّ إنّ جملة ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ لا تعني أنّ الله لا يعلمهم، بل المراد تحقق هذا المعلوم عملياً، وتشخيص هؤلاء المجاهدين، فالمعنى: ليتحقق علم الله سبحانه في الخارج، وتحصل العينية، وتتميز الصفوف.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

الذين يموتون على الكفر لن يغفر الله لهم

بعد البحوث المختلفة التي دارت حول المنافقين في الآيات السابقة، تبحث هذه الآيات وضع جماعة أُخرى من الكفار، فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ حتى وإن عملوا خيراً، لأنّه لم يكن مقترناً بالإيمان.

هؤلاء يمكن أن يكونوا مشركي مكّة، أو الكفّار من يهود المدينة، أو كليهما، لأنّ التعبير بـ«الكفر»، و«الصد عن سبيل الله»، و﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ قد ورد بحقّ الفريقين في آيات القرآن الكريم.

أمّا «تبيّن الهدى»، فقد كان عن طريق المعجزات بالنسبة إلى مشركي مكّة، وعن طريق الكتب السماوية بالنسبة إلى أهل الكتاب.

و«إحباط أعمالهم» إمّا أن يكون إشارة إلى أعمال الخير التي قد يقومون بها أحياناً كإقراء الضيف، والإنفاق، ومعونة ابن السبيل، أو أن يكون إشارة إلى عدم تأثير خطط هؤلاء ومؤامراتهم ضد الإسلام.

وعلى أية حال، فقد كان هؤلاء الجماعة متّصفين بثلاث صفات: الكفر، والصد عن سبيل الله، والعداء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذ كانت إحداها تتعلق بالله سبحانه، والأُخرى بعباد الله، والثالثة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد أن تبيّن حال المنافقين، والخطوط العامة لأوضاعهم، وجّهت الآية التالية الخطاب إلى المؤمنين مبيّنة خططهم وحالهم، فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

في الواقع، إنّ أسلوب حياة المؤمنين وبرنامجهم يقع في الطرف المقابل للكفّار والمنافقين في كلّ شيء، فهؤلاء يعصون أمر الله سبحانه، وأُولئك يطيعونه، هؤلاء يعادون النّبي، وأولئك يطيعون أمره هؤلاء تحبط أعمالهم لكفرهم وريائهم ومنّتهم، أمّا أولئك فإنّ أعمالهم محفوظة عند الله سبحانه وسيثابون عليها، لاجتنابهم هذه الأُمور.

وعلى كلّ حال، فإنّ أُسلوب الآية يوحي بأنّ من بين المؤمنين أفراداً كانوا قد قصروا في طاعة الله ورسوله وفي حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل، ولذلك فإنّ الله سبحانه يحذّرهم في هذه الآية.

والشاهد لهذا الكلام سبب النّزول الذي ذكره البعض لهذه الآية، وهو: إنّ «بني أسد» كانوا قد أسلموا وأتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: إنّنا نؤثرك على أنفسنا، ونحن وأهلونا رهن إشارتك وأمرك. غير أنّ أسلوبهم في الكلام كانت تلوح منه المنّة، فنزلت الآية أعلاه، وحذّرتهم من ذلك.

واستدل بعض الفقهاء بجملة: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ على حرمة قطع الصلاة، ولكنّ الآية مورد البحث وما قبلها وما بعدها شاهدة على أنّها لا تتعلق بهذا الأمر، بل عدم الإبطال عن طريق الشرك والرياء والمنّ وأمثال ذلك.

وجاءت الآية الأخيرة من هذه الآيات موضحة ومؤكّدة لما مرّ في الآيات السابقة حول الكفّار، وتهدي إلى الصراط المستقيم من يريد التوبة إلى طريق الرجوع، فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنّ أبواب التوبة ستغلق بنزول الموت، ويحمل هؤلاء أوزارهم وأوزار الذين يضلّونهم، فكيف يغفر الله لهم؟

وبهذا، فقد ورد الحديث في مجموع هذه الآيات عن ثلاث مجموعات: الكفّار، والمنافقون، والمؤمنون، وتحدّدت صفات كلّ منهم ومصيره.

بحث

عوامل إحباط ثواب العمل

من المسائل الأساسية التي أكدت عليها آيات القرآن المختلفة، ومنها الآية مورد البحث، هي أن يحذر المؤمنون من أن تحبط أعمالهم كالكفّار، وبتعبير آخر: فإنّ نفس العمل شيء، والحفاظ عليه شيء أهمّ، فإنّ العمل الصالح السالم المفيد، هو العمل الذي يكون منذ البداية سالماً من العيوب وأن يحافظ عليه من الخلل والعيب حتى نهاية العمر.

والعوامل التي تؤدّي إلى إحباط أعمال الإنسان، أو تهددها بذلك الخطر كثيرة، ومن جملتها:

١ - المن والأذى كما يقول القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[(١)]. فهنا ذكر عاملان لبطلان العمل: أحدهما المنّ والأذى، والآخر الرياء والكفر، فالأوّل يأتي بعد العمل والثّاني قرينه، وهما كالنّار يحرقان الأعمال الصالحة.

٢ - العجب عامل آخر في إحباط آثار العمل، كما ورد ذلك في الحديث: «العجب يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب»[(٢)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤. (٢) تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٥٢٢.

٣ - الحسد - أيضاً - أحد هذه الأسباب، والذي ورد فيه تعبير شبيه بما ورد في العجب، فقد روي عن الرّسول الأكرم ﷺ أنّه قال: «إيّاكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب»(١).

وكما تذهب الحسنات السيئات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٢)، فإنّ السيئات تمحو كلّ الحسنات أحياناً.

٤ - المحافظة على الإيمان إلى آخر لحظات العمر، وهذا أهم شرط لبقاء آثار العمل، لأنّ القرآن يقول بصراحة: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٣).

من هنا نعرف أهمية ومشاكل وصعوبات مسألة المحافظة على الأعمال، ولذلك ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الإبقاء على العمل أشدّ من العمل»، قال - أي الراوي - : وما الإبقاء على العمل؟ قال: «يصل الرجل بصلة، وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكتب له سرّاً، ثمّ يذكرها فتمحى فتكتب له علانية، ثمّ يذكرها فتمحى وتكتب له رياءً»(٤).

وقد أشارت الآية - مورد البحث - إشارة خفية إلى هذه الأُمور حيث تقول: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾(٥).

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

التّفسير

الصلح المذل!!

متابعة للآيات السابقة التي كانت تتحدّث حول مسألة الجهاد، تشير هذه الآية إلى أحد الأُمور الهامة في مسألة الجهاد، وهو أنّ ضعفاء الإيمان يطرحون غالباً مسألة الصلح للفرار من مسؤولية الجهاد، ومصاعب ميدان الحرب.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٥٥.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٥.
(٤) أُصول الكافي، ج ٢، باب الرياء، ح ١٦.
(٥) لمزيد من الإيضاح والتفصيل حول مسألة إحباط العمل راجع ذيل الآية (٢١٧) من سورة البقرة.

من المسلّم أنّ الصلح خير وحسن جدّاً، لكن في محله، إذ يكون حينها صلحاً يحقق الأهداف الإسلامية السامية، ويحفظ ماء وجه المسلمين وحيثيتهم وهيبتهم وعظمتهم، أمّا الصلح الذي يؤدّي إلى ذلّتهم وانكسار شوكتهم فلا، ولذلك تقول الآية الشريفة: الآن وقد سمعتم الأوامر الإلهية في الجهاد ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[1].

أي: الآن وقد لاحت علائم انتصاركم وتفوّقكم، كيف تذلّون أنفسكم وترضون بالمهانة باقتراح الصلح الذي لا يعني إلاّ التراجع والهزيمة؟ فليس هذا صلحاً في الواقع، بل هو استسلام وخضوع ينبع من الضعف والإنهيار، وهو نوع من طلب الراحة والعافية، ويقبح بكم أن تتحملوا عواقبه الأليمة الخطرة.

ومن أجل رفع معنويات المسلمين المجاهدين تضيف الآية: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فإنّ من كان الله معه تكون كلّ عوامل الانتصار مسخّرة له، فلا يحس بالوحشة أبداً، ولا يدع للضعف والانهزام سبيلاً إلى نفسه، ولا يستسلم للعدوّ باسم الصلح ولن يدع نتائج دماء الشهداء ومكاسبها تذهب سدى في اللحظات الحسّاسة.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ من مادة «الوتر»، وهو المنفرد، ولذلك يقال لمن قتل قريبه، وبقي وحيداً: وِتْر. وجاء أيضاً بمعنى النقصان.

وفي الآية - مورد البحث - كناية جميلة عن هذا المطلب، بأنّ الله سبحانه لن يترككم وحدكم، بل سيقرنكم بثواب أعمالكم، خاصّةً وأنّكم تعلمون أنّكم لن تخطوا خطوةً إلاّ كتبت لكم، فلم يكن الله لينقص من أجركم شيئاً، بل سيضاعفه ويزيد عليه من فضله وكرمه.

اتضح ممّا قلناه أنّ الآية مورد البحث لا تنافي مطلقاً الآية (٦١) من سورة الأنفال حيث تقول: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لنجعل إحداهما ناسخة للأُخرى، بل إنّ كلاًّ منها ناظرة إلى مورد خاص، فإحداهما تنظر إلى الصلح المعقول، والأُخرى إلى الصلح الذي ليس في محله فإنّ أحدهما صلح يحفظ مصالح المسلمين، والآخر صلح يطرحه ضعفاء المسلمين وهم على أبواب النصر، ولذلك فإنّ تتمة آية سورة الأنفال تقول: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

وقد أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى كلا الصلحين في عهده لمالك الأشتر، حيث

---

(١) ﴿وَتَدْعُوٓا۟﴾ مجزوم، وهو معطوف على ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾، والمعنى: لا تهنوا ولا تدعوا إلى السلم.

يقول: «ولا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك ولله فيه رضى»(١).

إنّ طرح قضية الصلح من ناحية العدوّ من جهة، وكونه مقترناً برضى الله سبحانه من جهة أُخرى، يبيّن انقسام الصلح إلى القسمين اللذين أشرنا إليهما فيما قلناه.

وعلى أية حال، فإنّ أمراء المسلمين وأولياء أُمورهم يجب أن يكونوا في غاية الحذر في تشخيص موارد الصلح والحرب، والتي هي من أعقد المسائل وأدقّها، لأنّ أدنى اشتباه في المحاسبة سيستتبع عواقب وخيمة في هذا المجال.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

التّفسير

إن تتولّوا سيمنح الله الرسالة قوماً آخرين

قلنا: إنّ سورة محمّد هي سورة الجهاد، فبأمر الجهاد بدأت، وبه تنتهي، والآيات مورد البحث - وهي آخر آيات هذه السورة - تتناول مسألة أُخرى من مسائل حياة البشر في هذا الميدان، فتطرح كون الحياة الدنيا لا قيمة لها لزيادة ترغيب المسلمين ودعوتهم إلى طاعة الله سبحانه عموماً، والى أمر الجهاد بالخصوص، لأنّ حبّ الدنيا والانشداد إليها أحد العوامل المهمّة التي تعيق المسلمين عن الجهاد، فتقول: ﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

«اللعب» يقال للأعمال التي تتصف بنوع من الخيال للوصول إلى هدف خيالي، و«اللهو» يقال لكلّ عمل يشتغل الإنسان به فيصرفه عن المسائل الأساسية.

والحق أنّ الدنيا لعب ولهو ليس إلاّ، فلا يحصل منها أنس وارتياح، وليس لها دوام

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

وبقاء، وإنّ ما هي لحظات كلمح البصر، ولذّات زائلة تحفّها الآلام والمتاعب.

ثمّ تضيف الآية: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾[1] فلا الله يسألكم أجراً مقابل الهداية والرشاد وكلّ تلك الهبات العظيمة في الدنيا والآخرة، ولا رسوله، فإنّ الله تعالى غني عن العالمين، ولا يحتاج رسوله إلى غير الله.

وإذا كان الشيء الزهيد من أموالكم يؤخذ كزكاة وخمس وحقوق شرعية أخرى، فإنّه يعود عليكم ويصرف فيكم، لحماية يتاماكم ومساكينكم وضعفائكم وأبناء السبيل منكم، وللدفاع عن أمن بلادكم واستقلالها، ولاستقرار النظام والأمن، ولتأمين احتياجاتكم، وعمران دياركم.

بناءً على هذا، فحتى هذا المقدار اليسير هو من أجلكم ومنفعتكم، فإنّ الله ورسوله في غنى عنكم، وبذلك فلا منافاة بين مفهوم هذه الآية وآيات الزكاة والإنفاق وأمثالها.

ثمّة احتمالات أُخرى عديدة في تفسير جملة: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ ولرفع ما يبدو في الظاهر تناقضاً:

فقال البعض: إنّه تعالى لا يسألكم شيئاً من أموالكم مقابل الهداية والثواب.

وقال آخرون: إنّه تعالى لا يسألكم كلّ أموالكم، بل يريد قسماً منها فقط.

وقال جماعة: إنّ هذه الجملة إشارة إلى أنّ أموال الجميع من الله سبحانه، وإن كانت ودائع بأيدينا أيّاماً قليلة.

لكن أفضلها جميعاً هو التّفسير الأول.

وعلى أية حال، فلا ينبغي نسيان أنّ جانباً من الجهاد هو الجهاد بالأموال، ومن الطبيعي أنّ كلّ جهاد للعدو وقتال ضده يحتاج إلى أموال وميزانيات يجب أن تجمع وتهيّأ من قبل المسلمين الزاهدين في الدنيا وغير المتعلّقين بها، والآيات مورد البحث تهيىء - في الحقيقة - الأرضية الفكرية والثقافية لهذه المسألة.

ولتبيان تعلّق أغلب الناس بأموالهم وثرواتهم الشخصية تضيف الآية التالية: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾.

«يحفكم» من مادة إحفاء، أي: الإصرار والإلحاح في المطالبة والسؤال، وهي في الأصل من حفأ، وهو المشي حافياً، وهذا التعبير كناية عن الأعمال التي يتابعها

(١) جملة ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ﴾ مجزومة، ومعطوفة على جزاء الجملة الشرطية، أي: يؤتكم.

الإنسان إلى أبعد الحدود، ومن هنا كان إحفاء الشارب يعني تقصيره ما أمكن.

و«الأضغان» جمع ضغن، وهو بمعنى الحقد الشديد، وقد أشرنا إليه سابقاً.

وخلاصة القول: فإنّ الآية تبيّن التعلّق الشديد لكثير من الناس بالأُمور المالية، وهي في الحقيقة نوع من اللوم ولتوبيخ لهؤلاء، وفي نفس الوقت ترغيب في ترك هذا الارتباط، وتشويق إلى هذا المعنى، فإنّ تعلّقهم بلغ حدّاً أنّ الله سبحانه إذا سألهم شيئاً من أموالهم فإنّهم يغضبون ويحقدون عليه!

وبذلك فإنّ الآية تريد أن توقظ أرواح البشر الغاطّة في نومها العميق بسوط التقريع والملامة والعتاب، ليرفعوا عن أعناقهم قيود الذل والعبودية للأموال، ويصبحوا في حال يضحّون عندها بكلّ ما لديهم في سبيل الله، ويقدّمون ما عندهم بين يديه، ولا يرجون في مقابل ما يعطون إلاّ الإيمان به وتقواه ورضاه عنهم.

والآية الأخيرة - من الآيات مورد البحث، وهي آخر آية من سورة محمّد - تأكيد آخر على ما مرّ في الآيات السابقة حول المسائل المادية وتعلّق الناس بها، ومسألة الإنفاق في سبيل الله، فتقول: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾.

وهنا يأتي سؤال، وهو: إنّ الآيات السابقة قد ذكرت أنّ الله لا يسألكم أموالكم، فكيف أمرت هذه الآية بالإنفاق في سبيل الله؟

غير أنّ تتمة الآية تجيب عن هذا السؤال عن طريقين، فتقول أولاً: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾(1) لأنّ ثمرة الإنفاق تعود عليكم أنفسكم في الدنيا والآخرة، حيث يقلّ التفاوت الطبقي، وعندها سيعم الأمن والهدوء في المجتمع، وتحل المحبّة والصفاء محل العداوة والحقد، هذا ثوابكم الدنيوي.

وأمّا في الآخرة، فستمنحون مقابل كلّ درهم أو دينار تنفقونه الهبات والنعم العظيمة التي لم تخطر على قلب بشر، وعلى هذا فإنّ من يبخل يبخل عن نفسه!

وبتعبير آخر: فإنّ الإنفاق هنا يعني أكثر ما يعني الإنفاق في أمر الجهاد، والتعبير بـ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يلائم هذا المعنى أيضاً، ومن الواضح أنّ أي نوع من المساهمة في تقدّم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع واستقلاله وشرفه.

---

(1) «البخل» يتعدّى مرة بعن، وأُخرى بعلى، وعلى الأوّل يعني المنع، وعلى الثّاني يعني الإضرار.

والجواب الآخر هو: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ فهو غني عن إنفاقكم في سبيله، وغني عن طاعتكم، وإنّما أنتم الفقراء إلى لطفه ورحمته وثوابه وكرمه في الدنيا والآخرة.

إنّ الموجودات الممكنة - وما سوى الله سبحانه - متسربلة في الفقر جميعاً، والغني بذاته هو الله سبحانه لا غير، فإنّها فقيرة إليه دائماً، حتى في أصل وجودها، وتستمد العون من منبع الفيض الأزلي كلّ لحظة، فإذا انقطعت عنها رعايته ولطفه لحظة، فسينتهي وجودها، وتخرّ أبدانها جثثاً هامدة!

وتحذر الجملة الأخيرة جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمة الجليلة، والموهبة العظيمة، حيث جعلكم سبحانه حماة دينه القويم وأنصار دينه وأتباع رسوله وأصحابه، فحذار أن تقصّروا في تعظيم هذه النعمة وإكبارها، إذ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾.

أجل، إنّ هذا الحمل لن يسقط على الأرض أبداً، وهذه الرسالة العظيمة لا يمكن أن يتوقّف مسيرها، فإن أنتم لم تستمروا في موقفكم في الذب عن دين الله، واستصغرتم شأن هذه الرسالة العظيمة، فإنّ الله سبحانه سوف يأتي بقوم يتحمّلون أعباء هذه الرسالة.. أُولئك قوم يفوقونكم مرّات في الإيثار والتضحية وبذل الأنفس والأموال والإنفاق في سبيل الله!

وقد جاء نظير هذا التهديد في الآية (٥٤) من سورة المائدة، حيث تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

والطريف أنّ أكثر المفسّرين قد نقلوا في ذيل الآية - مورد البحث - أنّ جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه بعد نزول هذه الآية: من هؤلاء الذين ذكرهم الله في كتابه؟ وكان «سلمان» جالساً قريباً من النبي ﷺ، فضرب النبي ﷺ بيده على فخذ سلمان - وفي رواية على كتفه - وقال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

لقد أورد هذا الحديث وأمثاله محدّثو السنّة المعروفون في كتبهم المعروفة، كالبيهقي والترمذي، وعليه اتفاق مفسّري الشيعة والسنّة المشهورين، كصاحب تفسير القرطبي،

وروح البيان، ومجمع البيان، والفخر الرازي، والمراغي، وأبي الفتوح الرازي وأمثالهم.

وورد في تفسير الدر المنثور عدة أحاديث في هذا الباب في ذيل الآية مورد البحث(١).

وروي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، يكمل الحديث السابق، إذ يقول: «والله أبدل بهم خيراً منهم الموالي»(٢).

إذا نظرنا إلى تاريخ الإسلام والعلوم الإسلامية بدقّة، وبنظرة بعيدة عن التعصّب، ولاحظنا سهم المسلمين غير العرب والإيرانيين خاصة - في ميادين الجهاد ومحاربة العدو من جهة، وتنقيح العلوم الإسلامية وتدوينها من جهة أخرى، فسنطلع على حقيقة هذا الحديث، وتفصيل هذا الكلام طويل.

اللّهمَّ! ثبّت أقدامنا في طريق الجهاد والإيثار والتضحية في سبيل دينك القويم.

اللّهمَّ! لا تسلبنا ما منحتنا من الفخر العظيم إذ جعلتنا دعاةً لدينك الحنيف.

إلهنا! زد في قوّتنا وإيماننا، وتضحياتنا وإخلاصنا في هذا الوقت الذي هبّت فيه عواصف الشرق والغرب الهوجاء لمحو آثار دينك.

آمين يا رب العالمين.

(١) تفسير الدر المنثور، ج ٦، ص ٦٧.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ١٠٨.

فهرس الجزء الثالث والعشرون

سورة غافر

نظرة مختصرة في محتوى السورة ٥
فضل تلاوة السورة ٧
صفات تبعث الأمل في النفوس ٨
الأمر الإلهي الحاسم ١١
بحثان: أولاً: استعراض الكفار لقواهم الظاهرية ١٤
ثانياً: المجادلة في القرآن الكريم ١٦
دعاء حملة العرش للمؤمنين ٢٢
بحوث: أولاً: الأدعية الأربعة لحملة العرش ٢٤
ثانياً: آداب الدعاء ٢٤
ثالثاً: لماذا تبدأ الأدعية بكلمة ﴿رَبَّنَا﴾؟ ٢٥
رابعاً: ما هو العرش الإلهي؟ ٢٦
اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟ ٢٩
الدعاء البعيد عن الإجابة! ٣٤
ادع الله وحده رغماً على الكافرين ٣٦
يوم التلاقي! ٤٠
إنّه منظر مهول ومشهد موحش!! ٤١
يوم تبلغ القلوب الحناجر ٤٦
اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين ....
ذروني أقتل موسى!! ٥٠
ولكن ما هي نتيجة كلّ هذا الكيد؟ ٥٢
أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله! ٥٥
بحوث: أولاً: من هو مؤمن آل فرعون؟ ٥٨
ثانياً: التقية أداة مؤثّرة في الصراع ٥٩
ثالثاً: من هم الصدّيقون؟ ٦٠
التحذير من العاقبة! ٦١
عجز المتكبرين عن الإدراك الصحيح! . ٦٤
أريد أن أطّلع إلى إله موسى!! ٦٦
اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد ٦٩
الكلام الأخير ٧١
بحوث: أولاً: مؤمن آل فرعون والدرس العظيم في مواجهة الطواغيت ٧٥
ثانياً: تفويض الأمور إلى الله ٧٦
ثالثاً: عالم البرزخ ٧٧
نقاش الضعفاء والمستكبرين في جهنم . ٧٨
الوعد بنصر المؤمنين ٨٠
ما يستوي الأعمى والبصير! ٨٧
اليهود المغرورون ٩
﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ ٩٢
أهمية الدعاء وشروط الاستجابة ٩٢

موانع استجابة الدعاء ٩٥
﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ ٩٩
المراحل السبع لخلق الإنسان ١٠٢
عاقبة المعاندين المغرورين ١٠٦
فاصبر... حتى يأتيك وعد الله ١١١
كم عدد الأنبياء؟ ١١٣
منافع الأنعام المختلفة ١١٥
لا ينفع الإيمان عند نزول العذاب ١١٨
المغرورون بالعلم! ١٢١

سورة فصلت

نظرة في المحتوى العام للسورة ١٢٣
فضل تلاوة السورة ١٢٤
عظمة القرآن ١٢٥
من هم المشركون؟ ١٢٩
الأهمية الاستثنائية للزكاة في الإسلام . ١٣١
مراحل خلق السماوات والأرض ١٣٣
أحذّركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود! ١٣٩
أولاً: ما هي وسيلة فناء قوم عاد؟ ١٤٣
ثانياً: أيام قوم عاد النحسة ١٤٤
عاقبة قوم ثمود ١٤٤
أنواع الهداية الإلهيّة ١٤٦
بحثان: الأوّل: حسن الظن وسوء الظن
بالله تعالى ١٥١
الثاني: الشهود في محكمة القيامة ١٥١
قرناء السوء ١٥٤
الضجيج في مقابل صوت القرآن!! ... ١٥٦
نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين ١٥٩
ادفع السيئة بالحسنة ١٦٤
أولاً: برنامج الدعاء إلى الله ١٦٩
ثانياً: الإنسان في مواجهة عواصف
الوسواس ١٧٠
السجود لله تعالى ١٧١
محرفو آيات الحق ١٧٥
كتاب الهداية والشفاء ١٧٩
إنّها حجة عجيبة! ١٨٠
أولاً: الاختيار والعدالة ١٨٣
ثانياً: الذنوب وسلب النعم ١٨٤
ثالثاً: لماذا كلّ هذا التحجج؟! ١٨٤
الله العالم بكّل شيء ١٨٥
علائم الحق في العالم الكبير والصغير . ١٩٣
بحوث: أولاً: التوحيد بين دليل «النظم»
ودليل «الصديقين» ١٩٦
ثانياً: حقيقة إحاطة الله بكل شيء ١٩٧
ثالثاً: آيات الآفاق والأنفس ١٩٨

سورة الشورى

نظرة عامة في محتوى السورة ٢٠١
فضل تلاوة السورة ٢٠٢
﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ ٢٠٢
هل تستغفر الملائكة للجميع؟ ٢٠٧
انطلاقة من ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ ٢٠٨
الولي المطلق ٢١٢
بحوث: ١ - معرفة صفات الله تعالى .. ٢١٧

٢ - ملاحظة أدبية ٢١٨
٣ - بعض الملاحظات حول الرزق الإلهي ٢١٩
الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء .. ٢٢١
فاستقم كما أمرت! ٢٢٧
لا تستعجلوا بالساعة!! ٢٢٩
مزرعة الدنيا والآخرة ٢٣٢
أجر الرسالة في مودة أهل البيت عليهم السلام . ٢٣٦
بحوث: ١ - كلام مع المفسر المعروف (الآلوسي) ٢٤٥
٢ - سفينة النجاة ٢٤٨
٣ - تفسير ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً...﴾ .. ٢٤٩
٤ - مكان نزول هذه الآيات ٢٥٠
يقبل التوبة عن عباده ٢٥٠
المترفون الباغون ٢٥٣
النجوم السماوية الآهلة ٢٥٨
علة المصائب ٢٥٩
الأولى: مصائبكم بما كسبت أيديكم .. ٢٦٢
الثانية: اشتباه كبير ٢٦٣
الثالثة: من هم أصحاب الصفة؟ ٢٦٣
هبوب الرياح المنتظمة وحركة السفن .. ٢٦٤
المؤمنون لا يستسلمون للظلم ٢٦٨
الظلم والإنتصار ٢٧٥
هل من سبيل للرجعة؟ ٢٧٧
الأولاد... هبة الرحمن ٢٨٠
طرق ارتباط الانبياء بالخالق ٢٨٤
بحثان: الأول: الوحي في اللغة والقرآن والسنة ٢٨٦
الثّاني: حقيقة (الوحي) المجهولة ٢٨٧
١ - تفسير بعض الفلاسفة القدماء ٢٨٨
٢ - تفسير بعض الفلاسفة الجدد ٢٩٠
٣ - النبوغ الفكري ٢٩١
الكلام الحق في الوحي ٢٩١
منطق منكري الوحي ٢٩٣
الإيراد الدائمي والرد الدائمي ٢٩٣
بعض الأحاديث في قضية الوحي ٢٩٤
القرآن روح من الخالق ٢٩٥
١ - ماذا كان دين الرسول الأعظم قبل نبوته؟ ٢٩٨
٢ - الجواب على سؤال ٢٩٩
٣ - ملاحظة أدبية ٣٠٠

فهرس الجزء الرابع والعشرون

سورة الزخرف

محتوى سورة الزخرف ٣٠١
فضل تلاوة السورة ٣٠٢
ذنوبكم لا تمنع رحمتنا! ٣٠٣
بعض أدلة التوحيد ٣٠٧
ذكر الله عند الانتفاع بالنعم ٣١٢
كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات الله؟ .. ٣١٣

لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين! ٣١٧
عاقبة هؤلاء المقلدين ٣٢٠
التوحيد كلمة الأنبياء الخالدة ٣٢٢
لِمَ لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟ . ٣٢٥
قصور فخمة سقفها من فضة!! (قيم كاذبة) ٣٣٠
١ - الإسلام يحطم القيم الخاطئة ٣٣١
٢ - جواب عن سؤال ٣٣٣
أقران الشياطين! ٣٣٤
استمسك بالذي أوحي إليك ٣٣٨
من هم قوم النبي ﷺ؟ ٣٤١
الفراعنة المغرورون ونقض العهد ٣٤٢
إذا كان نبياً فلم لا يملك أسورة من ذهب؟ ٣٤٥
أي الآلهة في جهنم؟ ٣٥١
الذين غالوا في المسيح ٣٥٥
ماذا تنتظرون غير عذاب الآخرة؟ ٣٥٩
﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ٣٦١
نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب .. ٣٦٥
ذرهم في خوضهم يلعبون ٣٦٨
من يملك الشفاعة؟ ٣٧٢

محتوى سورة الدّخان ٣٧٦
فضل تلاوة هذه السورة ٣٧٧
نزول القرآن في الليلة المباركة ٣٧٧
نزول القرآن الدفعي والتدريجي ٣٧٨
علاقة القرآن بليلة القدر ٣٨٤
الدخان القاتل ٣٨٥
بحث: ما المراد من الدخان المبين؟ .. ٣٨٦
إذا لم تؤمنوا فلا تصدوا الآخرين عن الإيمان ٣٨٩
تركوا القصور والبساتين والكنوز وارتحلوا! ٣٩٢
بنو إسرائيل في بوتقة الاختبار ٣٩٧
لا شيء بعد الموت! ٤٠٠
عقيدة المشركين في المعاد ٤٠١
قوم تبع ٤٠٣
بحث: من هم قوم تبع؟ ٤٠٥
يوم الفصل! ٤٠٧
شجرة الزقوم! ٤٠٩
بحث: العقوبات الجسمية والروحية ... ٤١١
المتقون ومختلف نعم الجنة ٤١٣
بحث: ما هي الموتة الأولى؟ ٤١٦
ارتقب فإنهم مرتقبون! ٤١٧

سورة الجاثية

محتوى السورة ٤٢٠
فضل تلاوة السورة ٤٢١
آيات الله في كل مكان ٤٢١
﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ٤٢٧
كل شيء مسخر للإنسان ٤٣١
آتينا بني إسرائيل كلّ ذلك، ولكن... . ٤٣٥

ليسوا سواء محياهم ومماتهم ٤٤٠
١ - أخطر الأصنام صنم هوى النفس . ٤٤٥
٢ - أفضل طريق لنفوذ الشيطان هو اتباع الهوى ٤٤٥
٣ - إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية ٤٤٥
٤ - إنّ اتباع الهوى يوصل الإنسان إلى مرحلة محاربة الله ٤٤٥
٥ - عواقب اتباع الهوى مشؤومة وأليمة ٤٤٥
عقائد الدهريين ٤٤٧
الكل جاث في محكمة العدل الإلهي .. ٤٥٠
يوم تبدو السيئات ٤٥٦

سورة الأحقاف

محتوى السورة ٤٦٠
فضل هذه السورة ٤٦٠
خلق هذا العالم على أساس الحق ... ٤٦١
أضل الناس ٤٦٣
لم أكن أوّل نبي!! ٤٦٦
شرط الانتصار الإيمان والاستقامة ... ٤٧٢
أيها الإنسان أحسن إلى والديك ٤٧٦
مضيّعو حقوق الوالدين ٤٨٣
كيف حرف بنو أمية هذه الآية؟ ٤٨٦
الزهد والادخار للآخرة ٤٨٧
قوم عاد والريح المدمرة ٤٩١
لستم بأقوى من قوم عاد أبداً ٤٩٦
إيمان طائفة من الجن ٥٠٠
بحثان: ١ - الإعلام المؤثر ٥٠٣
٢ - أفضل دليل على عظمة القرآن محتواه ٥٠٣
فاصبر كما صبر أولو العزم ٥٠٤
كان نبيّ الإسلام مثال الصبر والاستقامة ٥٠٩

سورة محمد

محتوى السورة ٥١١
فضل تلاوة السورة ٥١٢
المؤمنون أنصار الحق، والكافرون أنصار الباطل ٥١٣
يجب الحزم في ساحة الحرب ٥١٧
بحوث: ١ - مقام الشهداء السامي ٥٢٢
٢ - أهداف القتال في الإسلام ٥٢٤
٣ - أحكام أسرى الحرب ٥٢٥
٤ - الرق في الإسلام ٥٢٦
٣ - مصير الرقيق المؤلم في الماضي .. ٥٢٨
٤ - خطة الإسلام لتحرير العبيد ٥٢٩
المادة الأولى: غلق مصادر الرق ٥٣٠
المادة الثانية: فتح نافذة الحرية ٥٣٠
المادة الثالثة: إحياء شخصية الرقيق ... ٥٣٢
المادة الرابعة: المعاملة الإنسانية مع العبيد ٥٣٣
المادة الخامسة: أقبح الأعمال بيع الإنسان ٥٣٣
إن تنصروا الله ينصركم ٥٣٥
عاقبة المؤمنين والكافرين ٥٣٩

وصف آخر للجنة ٥٤٣
١ - أنهار الجنّة الأربعة ٥٤٥
٢ - الشراب الطهور ٥٤٥
٣ - أشربة لا يعتريها الفساد ٥٤٥
٤ - لماذا الفواكه؟ ٥٤٦
ظهرت علامات القيامة! ٥٤٦
بحث: ما هي أشراط الساعة؟ ٥٥١
يخافون حتى من اسم الجهاد! ٥٥٥
بحث: القرآن كتاب فكر وعمل ٥٥٩
حديث عن الإمام الصادق عليه السلام ٥٦٠
أفلا يتدبرون القرآن ٥٦١
يعرف المنافقون من لحن قولهم ٥٦٤
الذين يموتون على الكفر لن يغفر الله لهم ٥٦٧
بحث: عوامل إحباط ثواب العمل ٥٦٩
الصلح المذل!! ٥٧٠
إن تتولّوا سيمنح الله الرسالة قوماً آخرين ٥٧٢
الفهرس ٥٧٧